الكُرد

دراسة سوسيولوجية وتاريخية

باسيلي نيكيتين

* باسيلي نيكيتين: قنصل روسيا السابق في ايران، عضو الجمعية الاسيوية و جمعية علم الإنسان في باريس، والعضو الدائم في المؤسسة العالمية لعلم السلالات البشرية، والعضو المراسل لاكاديمية الدبلوماسية [illegible] عام ١٩٦٠.

تقديم
لويس ماسينيون

نقله من الفرنسية وعلق عليه
الدكتور نوري طالباني

الكُرد

دراسة سوسيولوجية وتاريخية

ألفه باللغة الفرنسية

باسيلي نيكيتين

تقديم

لويس ماسينيون

المستشرق والاكاديمي الفرنسي المعروف

نقله من الفرنسية وعلق عليه

الدكتور نوري طالباني

مكتب الفكر والتوعية (الاتحاد الوطني الكوردستاني)

سليمانية: محلة أشتي

شاع: ٣٢٠/ ١٠٣٢

زقاق: ١٠٤

رقم الدار: ٦٢

---

www.hoshyari.org

govarynovin@yahoo.com

- اسم الكتاب: الكُرد-دراسة سوسيولوجية و تأريخية
- ألفه باللغة الفرنسية: باسيلي نيكيتين
- تقديم: لويس ماسينيون
- نقله من الفرنسية وعلّق عليه: الدكتور نورى طالباني
- التصميم والغلاف: فهمي جلال
- الطبعة الثالثة: ٢٠٠٧ سليمانية
- الطبع: مؤسسة حمدي للطباعة والنشر
- رقم الأيداع: (٩٩٠) لسنة ٢٠٠٦
- عدد النسخ: ٢٠٠٠
- سلسة: (٢٢٢)
- من منشورات مكتب الفكر والتوعية في الأتحاد الوطني الكردستاني

باسيلي نيكيتين

قنصل روسيا السـابق في إيران، عضو الجمعية الآسيوية وجمعية علم الإنسان في باريس، والعضو الدائم في المؤسسة العالمية لعلم السلالات البشرية، والعضو المراسل لأكاديمية الدبلوماسية العالمية

إهداء المؤلف:

إلى لورا نيكيتين (زوجتى ورفيقتي المخلصة)

في ذكرى أورمية ١٩١٥-١٩١٨

محتويات الكتاب

الفصل الرابع

الفصل الخامس

الفصل السادس

الفصل السابع

الفصل الثامن

الفصل التاسع

الفصل العاشر

الفصل الحادي عشر

الفصل الثاني عشر

تقديم

منذ قرون خلت، تحتضن كتلة جبال آرارات، عند منابع دجلة والفرات، مجموعة قبائل أثبتت عبر التأريخ، تجانسها الاجتماعي ووحدتها اللغوية، أنها الكرد. ومع أن عددا كبيرا من المختصين فى الشؤون الكردية (الكردولوج) بدأوا منذ أكثر من نصف قرن بدراسة الكرد دراسة منتظمة، إلا أننا ما نزال لا نعرف بصورة جيدة ما هي كوردستان. وهذه الدراسة التى يقدمها كردولوجي بارز، أول مؤلف شامل يتناول مختلف أوجه المسألة الكردية.

إن المسألة الكردية قائمة رغم عدم وجود دولة كردية. ورغم أن لهجات اللغة الكردية من عائلة اللغات الإيرانية، إلا أنها توحي بوجود عنصر غريب فيها. وإذا كان دين الكرد الحالي هو الإسلام، فإن عناصر قديمة مازالت تشوب اليزدية وأهل الحق والسنة والشيعة، وهي عناصر قلما توافق خط الإسلام الرسمي. لقد ظهرت بين الجاليات الكردية المنتشرة فى سوريا والأناضول والعراق وأرمينيا وإيران شخصيات تميزت بوضوح بخصائصها الكردية الأصيلة مثل صلاح الدين الأيوبي. إن أعدادا من رجال السياسة فى بلاد الترك والعرب والفرس يعودون إلى أصول كردية.

لقد استطاع باسيلى نيكيتين بوجوده فى (أورومیه)، بفضل صداقاته المتينة، أن يجمع وثائق مباشرة عن الكرد استفادت منها مجلات علمية متنوعة فى الغرب. كما أن إطلاعه على المعلومات المتوفرة بغزارة فى المكتبتين الإنكليزية والروسية واللتين تتعاظمان فى هذا السياق يوما بعد يوم، سهّل له أن يتناول فى فصول مؤلفه الأثنى عشر جميع جوانب المسألة الكردية: أصول اللهجات الكردية، نمط حياة الكرد، نماذج

من شخصياتهم، مساكنهم، تكوين قبائلهم، نوع تكتلاتهم ونشوء الفكرة القومية بينهم. تلك هي المحاور التي تدور حولها دراسة المؤلف بكثير من الفهم العميق. لقد عرف المؤلف أين تتوقف حدوده عند تطرقه للنقاط العديدة التي ما يزال يكتنفها الغموض. وهو بهذا يظهر بوضوح كم أشبع المسألة درسا وتمحيصاً.

ومن خلال العرض الذي قدمه المؤلف - وهو على حق - لاتساع الأدب الشعبي لدى الكرد، هذا الأدب الذي يفيض حيوية، وإن كان لما ينضج بعد - يمكننا أن نستشعر طلائع تجدد إنساني بإمكان الكرد الجبليين الذين تحالفوا مع الترك السلاجقة لاحتلال الأناضول، أن يبعثوه ثانية في الدول المجاورة، ولاسيما إذا سويت بعض الخلافات القائمة.

أيار ١٩٥٨ لويس ماسينيون

مقدمة المترجم

من أوليات مستلزمات الترجمة الصحيحة،الأمانة ! ولا نقصد بالترجمة الصحيحة الترجمة الحرفية، فالترجمة الحرفية تفقد الكتاب فى حالات كثيرة، روحه وجوهره. إن الغرض المطلوب من مفهوم الترجمة الصحيحة إيصال فكر المؤلف وما استهدف بيانه للقارئ، دون إضافة شيئ لم يقله فى كتابه، أو حذفه منه. وهذا ما حاولت تحقيقه فى ترجمتى لهذا الكتاب الذي كتبه فى منتصف القرن الماضى، مؤلفه المستشرق الروسي الأصل، الفرنسي الثقافة، الكردولوجي المعروف باسيلى نيكيتين.

اطلعت على هذا الكتاب الذي أطلق عليه مؤلفه اسم "الكرد، دراسة سوسيولوجية وتاريخية" وأنا طالب فى جماعة السوربون فى باريس فى نهاية الستينيات. وقبل عودتي إلى الوطن بفترة وجيزة كنت فى زيارة للمستشرق والكردولوجي المعروف الأب (توما بوا)، فقال لي والألم باد على وجهه: "لقد سررت كثيرا عندما علمت بترجمة كتاب نيكيتين إلى اللغة العربية فى بيروت، ولكننى تمنيت، عندما اطلعت على الترجمة، أن لو لم يترجم بهذه الصورة المبتورة والمشوهة" وقبل أن أودعه، وكان ذلك اللقاء لقاءنا الأخير، طلب منى إعادة ترجمته إن تسنت لي الفرصة فى المستقبل. وقد بحثت فى تلكم الأيام عن الكتاب فى جميع أماكن وجوده فى باريس، ولكن دون جدوى، بسبب نفاده من المكتبات.

ومضت سنوات، سمعت بعدها نبأ وفاة هذا العالم الجليل الذي كرس معظم وقته لدراسة أحوال الشعب الكردي وشرح قضيته، وأحسست فى حينه بوخزة فى الضمير لأننى لم أحقق له فى حياته ما طلب منى، لعدم توفر الكتاب لدي. وفى نهاية العام

١٩٨٧ التقيت صدفة بصديق استفسرت منه عن كتاب الأب توما بوا (الكرد والحق) الذي نشره باللغة الفرنسية عام ١٩٤٧ باسمه المستعار (رامبو)، فاخبرني بعدم وجوده لديه، لكنه ذكر أن كتاب باسيلى نيكيتين عن الكرد موجود لديه. وبعد أن بينت له رغبتى القديمة في ترجمة الكتاب الأخير إلى اللغة العربية، أعارني إياه مشكوراً. وها أنا أبر بوعدي، وقد بذلت كل ما في وسعي لتأتي الترجمة أمينة ودقيقة ومعبرة عن أفكار المؤلف بلغة سهلة ومفهومة، رغم عدم اتفاقي معه فى بعض مضامين كتابه، وهي إن صحت فهي إنما تعبر عن واقع الحياة الكردية قبل أكثر من نصف قرن. لقد تطور المجتمع الكردي خلال هذه الحقبة من الزمن، شأنه شأن المجتمعات الشرق وسطية، فى مختلف الميادين الاجتماعية والسياسية والثقافية والاقتصادية وغيرها، رغم أن الظروف السياسية التى مرَّ بها هذا الشعب وما يزال فى مختلف أجزاء كردستان كانت كافية لقلع جذور أي شعب آخر لو عاش ظروفا مماثلة. ولكن جذور الشعب الكردي كانت ومازالت عميقة فى أرض آبائه وأجداده كردستان، ولذلك استطاع الصمود بوجه عوادي الزمن على صعوبتها وقسوتها.

لقد سبق أن "ترجم" هذا الكتاب إلى العربية فى بداية الستينيات "لفيف من المترجمين" وصدرت ترجمتهم عن "دار الروائع" البيروتية. ويكفي للتدليل على مدى "الأمانة" المتوفرة فى هذه الترجمة أن كتابا يقع فى أصله الفرنسي فى ٣٦٠ صفحة ومطبوعة بالحروف الناعمة، يقع ترجمته العربية فى طبعة ١٩٦٧ فى ٢٤٠ صفحة متوسطة الحجم ! أفلا يحق لي، والحالة هذه، التساؤل كيف يجوز لمترجم ما أن يترجم كتابا على هذا النمط، ومن الذي أباح له أن يتخذ من نفسه حكماً على الكتاب، يبقى منه ما يشاء، ويحذف منه ما يشاء؟ لقد سمح هذا اللفيف من المترجمين لأنفسهم أن يترجموا فى مواضع عديدة من الكتاب سطورا من أحد مباحثه ويتركوا صفحات عديدة منه. والأغرب من هذا أنهم ترجموا بكل دقة وأمانة أقاصيص موهومة وردت فى الكتاب مما يسئ إلى الشعب الكردي ويصوره شعبا متعطشا للدم، ميالاً إلى السلب والنهب واللصوصية، أو أقوالاً لبعض الرحالة الأجانب المتحايلين على الكرد لأسباب معلومة، أو فقرات لا تصدق محتوياتها إلا على فترات زمنية بعيدة، بينما أهملوا

ترجمة فقرات وصفحات أخرى تتضمن معلومات قيمة تاريخية وسياسية وجغرافية وغيرها وردت فى الكتاب مما يعتبر الاطلاع عليها ضروريا لفهم ماضي الشعب الكردي وحاضره. أفلا يعتبر التركيز على جانب فى الترجمة وإهمال جوانب أخرى أمرا يتنافى مع مستلزمات الأمانة العلمية وغشا فى التعامل مع جمهرة القراء؟

فى الكتاب، كما سبق أن ذكرت، آراء عن الكرد أكل عليها الدهر وشرب. ولكن وجود مثل هذه الآراء فى الكتاب لا ينقص من قيمته لأسباب عديدة منها علمية المؤلف وإطلاعه الواسع على الشؤون الكردية وخبرته بها، وموضوعيته إلى حد كبير. وتصحيحا لتلك الآراء، أود أن اذكر هنا أن شعبنا الكردي ليس بأي حال من الأحوال شعبا محبا لسفك الدماء أو مفتتاً بسبب سيادة الروح العشائرية. أنه، على العكس من ذلك، شعب يسفك دمه لا لسبب إلا لمطالبته بمعاملة تليق بإنسان هذا العصر. والروح العشائرية انتهت فيه إلى غير رجعة عموماً، ولكن جهات عديدة تبذل كل وسيلة للمحافظة على بقايا هذه الروح بين صفوفه أينما وجدت ولبعثها من جديد أينما انقضت. وفيما عدا ذلك، فإن لكل مرحلة اجتماعية سماتها وخصائصها. ولئن كان الرحالة الأجانب تحدثوا عن وجود لصوص وقتله وعصابات سلب ونهب فى كردستان قبل اكثر من قرن من الزمان، فما كان ذلك سمة خاصة بالكرد لا يشاركهم فيها غيرهم. لقد وجد أولئك على مر الزمن، فى كل أمة وشعب، ولم ينتهوا إلا بدخول مجتمعاتهم مراحل أكثر تطورا من ذي قبل وادعى إلى الحياة المدنية الهادئة الهانئة. وهذا ما يتحقق فى المجتمع الكردي أيضاً رغم كل عصى التعويق التى يضعها فى طريق تطوره أكثر من جهة وفى أكثر من مكان.

المترجم

أربيل شباط ١٩٨٩

مقدمة المؤلف

الكرد وكردستان؟ من هم الكرد وأين تقع كردستان؟ وما الفائدة من دراسة تأريخهم ومجتمعهم في أيامنا هذه؟ تلك هي الأسئلة التي قد تتبادر إلى ذهن القارئ الذي يلقي نظرة على واجهات بعض المكتبات، ولاسيما أن التسمية ليست مألوفة كثيرا لدى القارئ الفرنسي[1]. إن واضع أي مؤلف يوضع في متناول يد القارئ يترقب هذه الملاحظات، ولكن الفائدة في موضوعنا هذا تبدو قبل كل شئ في أنه موضوع لم ينشر عنه الكثير وغير معروف إلا في نطاق عدد معدود من المختصين، وتلك مهمة ينبغي القيام بها من أجل تعريف القارئ بحقيقة الكرد وبلادهم.

إن الرأي العام الفرنسي غير معذور بعد اليوم إذا أبدى عدم اكتراث بالتعقيدات اللامتناهية في آسيا، التي برزت فجأة أمام أعين الناس بعد انتهاء الحرب الأخيرة، بصورة جديدة وغير متوقعة. لقد حلت فجأة محل الهدوء والركود اللذين كانا سائدين ومألوفين في هذه القارة، اضطرابات غير معتادة، وبرزت انتفاضات وحركات وطنية كشفت دونما سابق إنذار عن مشاكل سياسية واقتصادية ذات تأثير كبير على استتباب السلم العالمي.

---

(1) إن صح الحكم قبل أكثر من خمسين عاما عندما ألف المؤلف كتابه هذا، فإن الوضع يختلف اليوم تمام الإختلاف -- المترجم

هذه المشاكل الناجمة عن الحرب العالمية الأولى، التى ظلت بعيدة عن أن تجد لها حلولاً مرضية، نمت وازدادت تعقيداً وتسببت بالتالي فى تسخين وضع الشرق وما ترتب على ذلك من أذى يصعب معالجته. لذلك ينبغي التعرف أكثر من أي وقت مضى على جوانب المشكلة ومعطياتها فى وضعها الراهن. وقد تسنت لي الفرصة لمراقبة ودراسة الكرد وبلادهم كردستان خلال سنوات عملي الوظيفي كقنصل فى تلك البقعة من آسيا، فحاولت، بوصفي مؤلفاً، تفهم هذا الشعب الذي "نسيه التاريخ" وتحديد موقعه من التطورات السياسية والاجتماعية والروحية فى الشرق الإسلامي وإبراز خصائصه المتميزة وبيان آماله وكذلك الأسلوب المتبع من لدن الدول التى تتقاسم فيما بينها بلادهم وموقف الدبلوماسية العالمية منهم بوجه عام.

وسوف يطلع القارئ الكريم أيضا على الدور المشؤوم الذي لعبه الكرد فى نهاية القرن التاسع عشر فى المشكلة الأرمنية، فاقتران اسمهم بالمذابح التى تعرض لها الأرمن، ولا يوضح ذلك غير جانب واحد من حياة الكرد نفسها الحافلة بالأذى. وسيلاحظ القارئ أن الشعب الكردي لا يستحق هذا الحكم المتسرع والإدانة المسبقة. ولا يدعي المؤلف، بطبيعة الحال، براءة الكرد مما ارتكبوه فيما مضى تجاه جيرانهم المسيحيين، ولكنه يحاول أن يبين أن هذه المثالب إنما تعود لظروف تطور الشعب الكردي اجتماعيا وسياسيا، هذه الظروف التى تخضع بدورها للوسط ولأسلوب العيش الذي كان يتبعه. لذلك ينبغي رد الاعتبار إليه ومحاولة إبراز وجهه الحقيقي بكل ما يكتنفه من محاسن ومساوئ، دون أن نتقبل إدانة مسبقة بشأنه(٢).

فيما يتعلق بالمبدأ القائل "فهم الكل يغفر الكل" يتحدد موقف المؤلف بالرغبة فى الالتزام بالشطر الأول منه والتحفظ فى الإفاضة فى الخطر الذي يخفيه الشطر الثاني

---

[٢] لمعرفة الحقيقة بأجلى صورها عن دور الكرد في ما تعرض له الأرمن في تركيا في أواخر القرن التاسع عشر. راجع كتاب (كردستان في سنوات الحرب العالمية الأولى) تأليف الدكتور كمال مظهر احمد وترجمة محمد الملا عبد الكريم. ولاسيما الفصل المعنون: الكرد والدم الأرمني المراق -- الصفحات ٢٣٥ - ٣٠٢ منه. من منشورات المجمع العلمي الكردي. بغداد ١٩٧٧ -- المترجم.

منه. كذلك يود المؤلف أن ينبه القارئ إلى أنه نظراً لسعة الموضوع فقد امتنع عن الولوج فى شرح تأريخ الكرد بأكمله. فأولاً يضم التأريخ المذكور القرون التى مضت منذ انسحاب العشرة آلاف من اليونانيين مع زينفون وهم الذين اصطدموا بالكاردوخيين أسلاف الكرد، إلى عصرنا هذا. إن تأريخ الكرد الطويل والنشط بهذا المفهوم الواسع لن يتوقف عنده إلا المختصون بالمواضع، ولم يأت الوقت بعد لإكمال هذا العمل، فلابد من إعداد دراسات دقيقة فى هذا المجال بغية سد الفراغ فى هذا الميدان الرحب من التاريخ، إذ أن الكرد أسهموا بنشاط فى تأريخ جميع الشعوب التى تتابعت على مسرح الأحداث فى آسيا القديمة خلال قرون عديدة. وسنحاول، بقدر إلمامنا بتفاصيل تأريخ الكرد الغنى بالتحولات والمداخلات الكثيرة وبمساعدة جميع المختصين فى هذه المواضيع العسيرة، الإسهام خطوة بعد خطوة فى إعادة بناء هذا النسيج الثخين والممزوج الذي سيضاف إلى مستقبل الكرد.

لقد اكتفى المؤلف باستعراض ملامح الحياة الكردية من أجل إعطاء فكرة عامة وشاملة عنهم، وهو لا ينكر أن نقاطا أخرى عديدة لم تبحث إلا بصورة سطحية. ومع ذلك فهو يعتقد أنه تناول جميع العناصر الأساسية للمسألة. إن الوسط الكردي يعد مجالاً رحباً ليكون موضوع دراسة شاملة فى ميادين علوم خصائص الشعوب وأصولها وسلالاتها وعلوم الآثار القديمة والتأريخ واللغات. ولم يتمكن المختصون فى هذه الميادين من القيام بتنقيبات منتظمة لأسباب سياسية، ولإمكان اتهام القائمين بهذه التنقيبات بشتى التهم من قبل الحكومات المعنية، ولاسيما فيما مضى، لاعتقادها أنهم يتدخلون فى أمورها الداخلية (كاغتيال العالم الألماني المعروف شولتز فى العام ١٨٣٠). وإذا ما أتيحت الفرصة يوما ما لكردستان لتعيش حياة آمنة وعادية، فإن المستفيد الأول من ذلك سيكون العلم. ونأمل أن يظهر بين الكرد أنفسهم باحثون، وقد ظهر فعلا عدد يبشر بالخير يتعاونون مع العلماء الأجانب فى هذا المضمار.

وحتى لو لم تكن معلوماتنا عن كردستان متكاملة بما يرضي المستشرقين، فأنها كافية لفهم أسلوب عيش الكرد الذي حاول المؤلف استخلاصه بعد التطورات التى مر بها هذا الشعب منذ وجوده ولحد الآن.

ما يزال النظام القبلي سائداً فى المجتمع الكردي ولم يتخلص منه حتى اليوم رغم أنه يسير نحو التحضر (وفى الاتحاد السوفيتى نحو العمالية) الذي يمكن الإسراع به بتطور البلدان التى يعيش الكرد ضمنها. إلا أن الكردي ما يزال يمثل بالنسبة لنا شخصية الرجل القبلي. وهو إن بدا لنا بهذه الصورة سّهل علينا فهم عيوبه وفضائله، فهو فى نظر سلطات الدول التى يعيش ضمنها يعد فوضويا متمردا يصعب إخضاعه للنظام، ولكنه، فى المقابل، يأخذ مكانته كاملة داخل تركيب عشيرته التى يخلص لها ولرئيسها، ومقاتل باسل مستعد للتضحية بحياته فى سبيل المجموع، كما أنه فخور بأصله ونسبه وماضيه الحافل بالكفاح. انه فارس مقدام، يهتم بملابسه الزاهية وشغوف بسلاحه وربما قد حان الوقت لتحديد هذه الصورة، لأن الكرد يعدون آخر من بقى من الرحل الهندو-أوروبيين على قيد الحياة. أما فى حياته العائلية فهو أب حنون لأولاده ولاسيما الذكور منهم، ومتفان فى سبيل أسرته التى تلعب فيها زوجته دورا متميزاً قلما تجده لدى الشعوب الإسلامية الأخرى. ويحب الكردي فى أوقات راحته وفراغه الاستماع إلى الشعراء المتجولين الذين يتغنون بالمآثر الكردية، أو أن يشارك فى الدبكات المختلطة مع النساء. وفى ذلك أيضا يختلف عن الشعوب الإسلامية الأخرى. أنه يغنى ويرتجل أشعارا غنائية قيلت فى الإشادة بجمال الحبيبة أو بمآثر المقاتلين. وهو غالبا ما يكون قاسيا مع الآخرين، ولكنه غير بار بنفسه أيضا. وهو تارة مغامر وتارة محتال، وسريع الغضب تارة ومراء تارة أخرى. كما انه كثير التهكم وبسيط مع الآخرين. ويبدو لنا الكردي بوجه خاص محباً لجباله التى نشأ فيها ولشلالاتها المزبدة البيضاء وقممها الشماء ووديانها العميقة ومراعيها الجملية المزينة فى الصيف بقطعان الماشية التى تعد المصدر الرئيسي لمعيشته. ويجمع الباحثون جميعا على الإقرار بأن الكردي يتمتع بذكاء حاد وفهم سريع حتى فى الميادين التى لم تعد مألوفة بالنسبة إليه بعد كالميكانيك الذي أثبت انه عامل مثالي فيه، ولاسيما فى مشاريع استخراج النفط.

أما فى ما يتعلق بالدين، فرغم أن الكردي يخضعه لمصلحة عشيرته إلا أن صفوة من الكرد يتميزون بانغماسهم فى الروحانيات وفى ميدان التصوف خاصة. وتحث هذه الروحانيات الإنسان الكردي على "البحث عن الله"، وهذا البحث جبلة إيرانية مميزة

تشعبت من المعتقدات الكردية التى تجد أصولها فى الإسلام وفى معتقدات أخرى ترجع إلى ماضي سحيق. وكل ذلك يفسر بأسباب تاريخية ترتبط بموقع كردستان ووقوعها على ملتقى الديانات التى ظهرت فى أرض آسيا القديمة.

ويتجلى لنا تراث هذا الشعب فى فولكلوره الغزير المتشعب الذي هو فى حد ذاته مادة غنية جديرة بالدراسة. إن الأدب المدون أقل تقدما، وما يزال يفتقر إلى لغة أدبية مشتركة. ونجد فى ثنايا هذا الأدب تراثا قديما. وتبذل اليوم جهود مضنية ومفيدة تستحق الثناء. وترتبط هذه الجهود بالحركة الوطنية الكردية، إذ يريد المساهمون فيها أن يقدموه فى إطار متكامل يجد جذوره ومسيرته فى مراحل متعاقبة.

وهكذا سوف يرى القارئ أنه بالإضافة إلى الجانب المتعلق بأصول هذا الشعب وطريقة حياته الذي يستحق المعرفة، تبدو لنا الحركة الوطنية الكردية، ابتداء من تأريخ معين، مماثلة فى خصائصها لحركات شعوب الشرق الأخرى التى برزت طموحاتها فى التحرر من العبودية غداة اندلاع الحرب العالمية الأولى. وقد أسهم اصطدام هذه الاتجاهات التى برزت معا إسهاما جلياً فى تعقيد المشكلة الكردية فى إطار الدول التى شتتّ شمل الشعب الكردي ضمنها، تلك الدول التى تمر أيضا بمراحل التطور الوطنى نفسها.

وبعبارة أكثر إيجازاً ان فى دراسة المسألة الكردية فائدة عظمى لفهم الوضع السياسي الراهن. فمنذ اندلاع الحرب العالمية الأولى والمباشرة بتحديد مناطق النفوذ بين الدول العظمى وإنشاء دول تخلف الإمبراطورية العثمانية، غدا وضع الكرد معروفا لدى الدبلوماسيين، بل وبدا الأمر خلال فترة قصيرة وكأن آمال هذا الشعب وجدت إقرارا دوليا بها من قبل الدول الكبرى التى اتخذت من نفسها حكما لتحديد الوضع الدولي. ولكن خلافا للوعود المعلنة والتصريحات المفخَمة خططت حدود بلدان المنطقة ليس بمقتضى الاعتبارات القومية والإنسانية. بل وفق المصالح المشينة لرجال الأعمال الكبار ودول الغرب الاستعمارية. أما الضمانات التى منحت للشعب الكردي

المتمثلة بالوصاية عليه نظرياً من قبل عصبة الأمم، فلم يتمتع بها إلا بصورة واهية وحسب رغبات وزارات المستعمرات.

وأخذت الأحداث منذ ذلك الحين تسير فى اتجاه آخر لا يمكن السيطرة عليه، فلم تعد المشكلة الكردية قائمة فقط، بل أخذت منحى آخر، كما أثبتت ذلك سلسلة الثورات والانتفاضات الدموية التى قام بها هذا الشعب والتى عبر بواسطتها عن إرادته فى التحرر من الذل والهيمنة.

إن من السابق لأوانه التكهن منذ الآن بمستقبل الوضع السياسي للدول التى تتقاسم فيما بينها أبناء هذا الشعب، ولكن الشيء الأكيد هو أن كل حل يتجاهل من جديد حقوق هذا الشعب لن يكتب له النجاح ويثير ضمن أوضاع هذه الدول السياسية اضطرابات حتمية(٣)، لإصراره على التمسك بحقوقه والتمتع بها.

ويكفي أن نلقي نظرة على خريطة العالم لتتبين لنا أهمية موقع كردستان، فجميع الطرق التى تمر عبر آسيا القديمة وتربط الغرب بالشرق، بمفهومه التاريخي للتبادل التجاري معه، سواء تلك التى تجتاز هضاب أرمينيا العالية صوب أذربيجان والقفقاس أو الطرق المارة بين القمم العالية التى تربط بلاد ما بين النهرين بإيران، تمر كلها عبر كردستان. لذلك يعتبر توفير الأمن والاستقرار لخطوط المواصلات هذه ضروريا بغية تطوير المناطق التى تمر عبرها. أما معاداة الكرد فإنها تجعل من هذا الشريان الحيوي من خطوط المواصلات الدولية تفقد قيمتها الحيوية. وتبرز المشكلة نفسها بالنسبة لظروف استثمار الثروات الهائلة الموجودة فى باطن الأرض فى هذه المنطقة من العالم وبخاصة البترول منها. إن معظم ينابيع هذه المادة المهمة موجودة فى المنطقة الكردية من العراق (كركوك)، وهي التى بوشر باستثمارها، أو فى الهضاب العالية من أرمينيا التى حددت أماكنها وبوشر باستثمارها جزئيا.

---

(٣) كما برهنت الوقائع على ذلك خلال السنوات التي أعقبت صدور هذا الكتاب، خاصة منذ بداية التسعينات من القرن الماضي – المترجم.

هذه الاعتبارات تبدو واضحة وهي تدعو المصالح السياسية والاقتصادية للقوى المؤثرة فى المنطقة لتجتمع حول مائدة مفاوضات مكرسة لدراسة مستقبل كردستان. وبودنا أن لا تكون هذه الأسباب هي وحدها وراء إثارة انتباه الدبلوماسيين والخبراء الذين يدعون لدراسة المشاكل التى نعيشها حاليا. إننا نأمل أن تكون مبادئ الأخلاق وقواعد القانون والعدالة والضمير الدوليتان هي المنتصرة لنكون قد جنبنا البشرية خيبة أمل أخرى فى سلام فقدناه، لأنه رتب وفق المصالح الأنانية لبعض القوى الكبرى التى لا تتفهم مشاكل الغير. ولابد لهذا المؤتمر الذي ندعو إليه من أن يجد حلا للمشكلة الكردية، رغم أنها تبدو غير كبيرة فى نظر البعض، ولكن الأمن لن يستتب فى هذه المنطقة الحيوية من آسيا دون تحقيق ذلك. ولكي يؤدي المؤلف عمله بصورة متقنة، فقد استعان - بالإضافة إلى خبرته ودراساته الشخصية - بالعلامة الكردي الملا سعيد وبأعمال المستشرقين والكردولوجيين الألمان والإنجليز والفرنسيين والطليان والفرس والبولون والروس الذين اسهموا، كل فى مجال اختصاصه فى زيادة معلوماتنا عن كردستان ممن سنشير إلى أعمالهم فى مواضعها. إلا أن المؤلف يود، أن يذكر بوجه خاص أسماء بنى وطنه[٤] وهم كل من العلامة (مار) و (مينورسكي) و (فيلجيفسكي) الذين يدين لهم بالفضل فى النجاح الذي أحرزه فى بحوثه، وإلى الأساتذة الفرنسيين الإجلاءُ (بيير روندو) و(روجيه ليسكو) اللذين ساعدا المؤلف كثيرا بوثائقهما ومعلوماتهما المستفيضة بشأن الكرد فى سوريا واليزديين فى هذا المجال. ويود أن يشكر بوجه خاص (بيير روندو) الذي تفضل بإعادة النظر فى مسودة هذا الكتاب. أما العلامة والمستشرق الكبير (ماسينيون) الذي كان له الفضل دوما فى تشجيع المؤلف فى دراساته الخاصة بالكرد، فقد أضاف فضلا آخر بكتابته تقديم لهذا الكتاب، لذلك يقدم إليه المؤلف شكره وامتنانه الخالصين.

نيسان ١٩٤٣/آب. نيكيتين

---

[٤] من الروس – المترجم

الكتاب..

ملاحظة:

يقدم المؤلف شكره وعرفانه بالجميل إلى اللجنة الخاصة المعروفة بـ الجنة الحضارات غير الكلاسيكية) التى يرأسها العلامة (فيرولو) ويتولى عضويتها الأستاذان (ماسينيون) و (كروسيه)، هذه اللجنة التى أوصت اللجنة الوطنية للأبحاث العلمية (C.N.R.S) بإعطاء منحة مالية لطبع هذا الكتاب. فإلى زملائي المستشرقين الإجلاء أزجي شكري مرة أخرى وعرفاني بالجميل.

شباط/ فبراير ١٩٥٥

المؤلف

باسيلي نيكيتين
مدخل إلى حياته واعماله(*)

١٨٨٥-١٩٦٠

دكتورهلكوت حكيم
معهد اللغات الشرقية الحية/جامعة باريس

"وهل عمل نيكيتين في حياته شيئا آخر غير البحث والكتابة؟". هكذا أجابتني، والذهول يأخذها، موظفة في مكتبة باريسية متخصصة في قضايا الشرق. ولم يكن رأي الباحثة الاقتصادية التي خلفته في البنك الفرنسي للتجارة الخارجية يختلف كثيرا عن رأي المكتبية، إلا أن إعجابها كان يمتزج بأسفها على عدم التعرف عليه شخصيا. هذا الأسف لاشك انه اكبر لدى الكردي، وحاجته إلى التعرف أقوى. أذن هناك ما يشجعنا على محاولة أولية لتعريف نيكيتين، بعد مرور ثلث قرن على توديعه لهذا العالم. ورغم أن ضخامة آثار الرجل وعمقها لا تسمحان بهذه العجالة السطحية، إلا أننا نلتمس العفو، منه ومن القارئ على ذلك، أملين أن يكون إحياء الذكرى المئوية لميلاده عونا لنا.

حياته:

ولد باسيلي نيكيتين في مدينة سوسنوفيتزى ببولونيا عام ١٨٨٥ في أحضان عائلة لم يكن فيها من يهتم بالشرق ليحبب إليه الاهتمام به. كان عليه أن ينتظر فترة الشباب حين أخذت قراءاته ومناقشاته مع أستاذ اللغة الفرنسية الذي جاب الكثير من بلدان آسيا

(*) طلبنا من الزميل الدكتور هلكوت حكيم كتابة بحث عن باسيلي نيكيتين لإعطاء القارئ فكرة عن مكانته العلمية والأبحاث القيمة التي نشرها عن الكرد. قبل كتابته لهذا الكتاب. فإليه شكرنا - المترجم.

وجولاته القصيرة في سواحل البحر الأسود وفي القفقاس تبذر في قلبه ولعا نحو الشرق لم يتركه حتى أيامه الأخيرة. فيما أن أتم دراسته الثانوية حتى دخل معهد لازاريف في موسكو ١٩٠٤ لدراسة اللغات الفارسية والعربية والتركية، فتخرج وهو يحمل قاعدة قوية من المعرفة حول هذه اللغات.

عقب انتهاء دراسته، قام بعدد من الرحلات إلى القسطنطينية وباريس لمتابعة دروس بعض المستشرقين الفرنسيين. تم قبوله في عام ١٩٠٨ في مدرسة الترجمان التابعة لوزارة الشؤون الخارجية في سان بطرس بورك، حيث أرسل بعد عام للتمرن في القنصلية الروسية باصفهان. هذه الإقامة الأولية ساعدته على التطلع عن كثب على بعض حوادث الثورة الدستورية في إيران. عاد بعد عام إلى سان بطرس بورك وهناك تزوج من فتاة فرنسية (هـ. لوروا) التي رافقته بقية حياته.

في عام ١٩١١ اجتاز نيكيتين امتحان وزارة الشؤون الخارجية، فتم تعيينه سكرتيرا-مترجما في القنصلية الروسية في رشت (كيلان)، فاشتغل هناك حتى ربيع سنة ١٩١٥، حيث انتقل إلى وظيفة نائب القنصل في تبريز، ولكنه لم يمارس هذه الوظيفة إلا فترة قصيرة بسبب تعيينه قنصلا في مدينة أورومیه التي كانت آنذاك مسرحا للمنازعات والمناوشات بين الأتراك والإيرانيين والكرد والمسيحيين.

قضى باسيلي نيكيتين في هذه المدينة ثلاثة أعوام (مايس ١٩١٥ - نيسان ١٩١٨) كانت ذات أهمية كبرى في دراساته اللاحقة، إذ سمحت له بتعلم اللغة الكردية على يد الملا سعيد، قاضي كردستان، هذه الشخصية التي تركت لدى نيكيتين أكبر الأثر، لم يتوقف عن ذكرها في كتاباته والتعبير عن مشاعره العميقة نحوه وإعجابه بثقافته وعلمه في اللغات والأدب والدين الإسلامي وبيان مواقفه الدينية المتزنة.

قادته فوضى المدينة وضواحيها إلى القيام بدور سياسي فعال في المنطقة. فهجمات الأتراك ووضع الكلدانيين وتذبذب العشائر الكردية دفعته إلى التنقل من منطقة إلى أخرى في كردستان إيران لغرض التفاوض مع العشائر الكردية. جمع خلال تنقلاته موادا كثيرة أصبحت فيما بعد مصدرا مهما لدراساته حول الكرد.

بعد ثورة أكتوبر أخذ التفكير الشيوعي ينتشر بين الجنود الروس في إيران. لم يتحمل نيكيتين الوضع الجديد فقرر أن يترك إيران نهائيا ويتوجه إلى فرنسا ليقيم فيها بصورة نهائية فوصلها عام ١٩١٩. كان هذا تحولا جذرياً في حياته. ترك العمل السياسي دخل عالم البحث والكتابة من بابه الواسع. أشغل خلال ٢٨ عاما وظائف مهمة في قسم الدراسات الاقتصادية للبنك الفرنسي للتجارة الخارجية. كان يقضي أكثر أوقات فراغه باحثا وكاتبا في مواضيع لم تكن تتعلق بوظيفته لا من بعيد ولا من قريب.

توفي باسيلي نيكيتين في السابع من حزيران عام ١٩٦٠ تاركا وراءه أعمالا سوف تخلده وتخلد ذكراه. كتب محرر مجلة "أفريقيا وآسيا" كلمة تأبين لا نرى بدا ونحن نكتب اليوم هذه الصفحات من ترجمة الكلمات التي وصف بها نيكيتين الإنسان: "سوف ينقصنا بلا شك في هذه الكلمة التوديعية الأساس إن لم نذكر مزايا الإنسان، السمح في فتح باب مصادر معرفته لمنافسيه الشباب، الكريم في خدمة الجمعيات العلمية التي كان عضوا فيها وخاصة جمعيتناالأسيوية. لم يتوقف باسيلي نيكيتين خلال النصف الثاني من حياته عن تقديم الأدلة على نزاهة عملية نادرة"[1].

أعماله حول الكرد:

من الصعب أن نجد باحثا تجاوزت موسوعية دراساته حول الكرد تلك التي أنجزها باسيلي نيكيتين خلال نصف قرن من حياته. وقد تعدت موسوعية تفكيره هذا الشعب إلى دراسة العديد من الشعوب الآسيوية وفي نواحي مختلفة من حياتها كاللغة، التاريخ، الاقتصاد، السياسة، وحتى الأدب والفن. بلغ عدد كتاباته من كتب ومقالات وترجمات الخمسين، من ضمنها مؤلفات وترجمات لم تر المطابع حتى يومنا هذا، والتي بتقادم الزمن يتراكم عليها غبار النسيان وتتسرب إلى طيات أوراقها المطبوعة على الآلة الكاتبة دوده

L' Afrique et l' Asie. Paris. 1961. pp. 46-49.

المعلومات الواردة عن حياة باسيل نيكيتين هي خلاصة ما نشرته المجلة في نفس العدد.

الهرم. فمنذ أكثر من ثلاثين عاما وترجمته الفرنسية لقصة الراعي الكردي - على سبيل المثال لا الحصر- تنام في بعض المكتبات الباريسية المتخصصة في شؤون الشرق أو على رفوف المكتبات الشخصية لعدد من المهتمين بالكرد.

حينما بداء باسيلي نيكيتين بنشر كتاباته باللغة الفرنسية حول الكرد، كان الرأي العام الفرنسي لا يعرف إلا القليل حول هذا الشعب إن لم يكن يجهله تماما. فما كان متعلقا بالأذهان لا يتعدى فكرة غامضة عن دوره المؤسف في مذابح الأرمن ومطالبته بحقوقه القومية بعد الحرب العالمية الأولى. أما صورة الكرد عند المهتمين بالشرق فكانت لوحة رسمتها غالبا ريشة "السواح" الذين جابوا كردستان والمناطق المحيطة بها فعادوا بانطباعات سيئة جدا، اكتفت بتعميم بعض المظاهر السطحية وحوادث قد حدثت لهم شخصيا على عامة هذا الشعب، وسمحت لنفسها بإعطاء حكم قاس بعيد عن الروح الموضوعية اللامتطرفة. فكان على نيكتين أن يواجه هاتين المسألتين في طريقه لدراسة الشعب الكردي الذي أحب وتتبع تطوره خلال سنوات. فكانت واحدة من أولى مقالاته ملاحظات عامة حول الكرد نشرها في مجلة عامة غير متخصصة. ثم دخل في مواضيع تربطهم بإيران والمسيحية. هكذا أثار انتباه عدد لا بأس به من المهتمين بهذه المواضيع وبهذه المنطقة من الشرق.

درس نيكيتين تاريخ الكرد ليفهم طبيعة مجتمعهم الحاضر. وجد في البنيان العشائري القائم، الذي كان نتيجة للظروف الطبيعية لمنطقة كردستان، العائق الأكبر أمام التطور الطبيعي لهذا الشعب من النواحي السياسية والاقتصادية والاجتماعية والفكرية. فاعتماد كل منطقة على نفسها أدى إلى سيطرة الفردية - العشائرية على ذهنية الفرد الكردي ومن ثم إلى نفوره من كل ما هو خارج عن العشيرة. وقد بقي النظام الإقطاعي القائم على العشيرة زمنا طويلا في كردستان. وإذا كان هذا النظام عنصرا سلبيا في كيان المجتمع الكردي، فإنه، حسب نيكيتين، يعد واحدا من العوامل التي ساعدت في الحفاظ والبقاء على خصوصية هوية كردستان والكرد.

وأعطى باسيلي نيكيتين اهتماما كبيرا بالدين. كان يرى بأن واحدا من المفاتيح المهمة لفهم الشعب الكردي يكمن في دراسة شيوخ الطرق الصوفية (القادرية والنقشبندية). فانتشار خلفاء هؤلاء بين العشائر المختلفة، مع إبقاء مركزية سلطة الشيخ، أدى إلى تكوين قوة جديدة داخل المجتمع الكردي يتجاوز نفوذه حدود العشيرة المتعارف عليها. إلا أنه يلخص إلى إشكالية فهم الإسلام بشكل واضح عند الكرد. أي انه يصعب وضعهم في قالب إسلامي واضح المعالم والحدود. لاشك أن تحفظات نيكيتين حول هذه مسألة أثبتت في وقتنا الحاضر، وأمواج الإسلام تعصف بالمنطقة دون أن تجد لها صدى في كردستان، على مصداقيتها.

تعد دراسة نيكيتين لتطور الحركة القومية الكردية من أوائل الدراسات العلمية وأكثرها منهجية حول هذا الموضوع. يقسم هذه الحركة إلى ثلاث مراحل: (١) مرحلة الانتفاضات والحركات العفوية التي كانت تفتقد مشروعا شاملا. تبدأ من تمرد عبد الرحمن باشا بابان عام (١٨٠٦) وتنتهي، مرورا بحركات باشا كوره (١٨٣٢) وحركة بدرخان بك (١٨٤٣ - ١٨٤٦)، بحركة الشيخ عبيد الله النهري ١٨٨٠. (ب) مرحلة محاولات تنظيم الحركة القومية حيث تبدأ بعد سنوات من فشل حركة ١٨٨٠ وتنتهي بنهاية الحرب الكونية الأولى. وفيها تم تأسيس أول تنظيم سياسي كردي ١٩٠٨ وولادة الصحافة الكردية التي أخذت طريقها إلى الانتشار والتأثر في توجهات المثقف الكردي. (ج) مرحلة الاهتمام على النطاق العالمي بالمطامح القومية الكردية: معاهدة سيفر ١٩٢٠، معاهدة لوزان ١٩٢٣، مسألة الموصل، تأسيس جمعية خويبون، الحركات الكردية الأخرى حتى الحرب العالمية الثانية.

ولكي نلقي نظرة عامة على كتابات نيكيتين حول الكرد، نقدم في الصفحات التالية عرضا مقتضبا لدراساته التي خصصها للكرد حسب تسلسلها التاريخي.

(1) "Quelques observations sur les Kurdes",dans Mercure de France, Paris, 1921.civ pp.662-674

(ملاحظات حول الكرد) ملاحظات عامة حول تاريخ الكرد وطبيعة مجتمعهم والقوى التي تسيطر على تطورها حتى أوائل العشرين.

(2) Les Valis d' Ardelan", dans Revue du Monde Musulman, Paris, 1921, vol., XLIX, pp. 77-104.

(ولاة أردلان) ترجمة مختصرة لكتاب علي أكبر خان صادق الملك: حديقة ناصرية. بعد تقديم عدد من الملاحظات حول الجغرافية الإدارية لإمارة أردلان وتعداد نفوس العشائر التي تعيش ضمن سلطتها ومقدار ما تدفع كل عشيرة من الضرائب، يخصص نيكيتين صفحات كثيرة لسرد حوادث تاريخية من الحياة السياسية والعسكرية لولاة هذه الإمارة.

(3) Les Kurdes et le Christianisme, dans revue de L'Histoire des religions, Paris, 1922, t., LXXXv, n 3, pp. 147-156

(الكرد والمسيحية) اعتمادا على آثار العديد من الكنائس القديمة في كردستان وعلى العادات والرموز المسيحية التي يمكن ملاحظتها ما بين الكرد في يومنا هذا، وبالاستناد على معطيات تاريخية، يتوصل الباحث في هذه الدراسة إلى أن نسبة المسيحيين إلى الكرد كانت خلال القرون العشرة الأولى من التاريخ المسيحي في صالح المسيحيين.

(4) La vie domestiqe Kurde, dans Revue d'Ethnographie et des traditions populaires, Paris, 1922, pp. 334-344

(الحياة العائلية الكردية). مقالة وصفية لعدد من نواحي الحياة اليومية الكردية: وصف المنزل، الملابس. الطعام، الأسلحة، المرعى. ثم تعالج مجموعة من العادات المنتشرة بين الشعب الكردي، كمراسيم الولادة، والزواج والدفن، وأخيرا يتطرق إلى مكانة الخرافات.

(5) Les témes religieux dans les textes Kurdes de la collection de B. Nikitine, Actes du Congres international de l' histoire de la religion, Paris, 1923, t, II, pp. 413 - 431

المواضيع الدينية في النصوص الكردية لمجموعة ب. نيكيتين. عبر دروس اللغة الكردية التي تلقاها من الملا سعيد، خلال أعوام ١٩١٦ - ١٩١٧، جمع نيكيتين عددا من النصوص الكردية التي جعلها مادة لدراسة قدمها في المؤتمر العالمي لتاريخ الأديان المنعقد في باريس عام ١٩٢٣. تشمل هذه

الدراسة: (١) بحثا عن الكرد ضمن الإطار الإسلامي (شيوخ كردستان تركيا، آراء الملا سعيد حول الجهاد، الهجاء الديني، (٢) تاريخ الإطار الإسلامي (الموقف الكردي من التشيع، الموقف الكردي من اليهود).

(6) The Tale of Suto and Tato, Bulletin of School of Orient and African Studies, London, 1923, vol., I, pp. 69-88

(قصة سوتو وتاتو). نقل نيكيتين هذه الحكاية المنتشرة بين الناطقين باللهجة الكرمانجية إلى اللغة الإنكليزية بمساعدة الميجر سون، وقد نشرها بالحروف العربية مع ملاحظاته الخاصة ورأيه حول واقعيتها

(7) Vue d' ensemble sur le Théâtre de la Grande Guere dans le Nord-Ouest de la Perse,L'Asie française, Paris, 1942, vol., XXIV : pp. 340-345

(نظرة عامة على مسرح الحرب الكبرى في شمال-غرب بلاد فارس)، رغم أن المقال يعالج وضع الافشار والكلدانيين والكرد، إلا أن القسم الأكبر منه يرسم لنا علاقة الكرد بالكلدانيين والافشار خلال الحرب العالمية الأولى، ويقدم إحصائيات مهمة حول العشائر الكردية: موقعهم الجغرافي. فروع العشائر، أسماء رؤسائها وعدد العوامل في كل عشيرة.

(8) La féodalité Kurde", Revue du Monde Musulman, t, LX Paris, 1925, pp. 1-26

(الإقطاع الكردي) تشمل هذه الدراسة ملاحظات قيمة حول تاريخ الإقطاع الكردي وخصائصها المنطقية وعلاقاتها مع الدولة الإسلامية والدولة التركية والدولة الفارسية. وتقارن، من هذه الزاوية، بين الإقطاعيات الكردية ضمن الإمبراطوريتين العثمانية والفارسية، ملخصا نظرته في التطور المتناسق للنظام الإقطاعي الكردي في الأولى، وافتقاره هذا التناسق في الثانية.

(9) Les Kurdes racontés par eux-mêmes", L' Asie française, Paris, 1925, n° 231, pp. 147-157.

(الكرد، كما يتحدثون عن أنفسهم) كتب باسيلي نيكيتين هذه المقالة بعد فشل حركة الشيخ سعيد التي كتبت عنها الصحف الفرنسية من منطلق موضوعي أو عدائي. يهدف الكاتب إلى تقديم صورة قريبة إلى الواقع عن الكرد إلى الرأي العام الفرنسي اعتمادا على بعض المقابلات التي أجراها مع الكرد أوان إقامته في كردستان، وكذلك عرضا تاريخيا واجتماعيا وسياسيا لوضع الشيوخ البرزانيين والنهريين مع بعض الملاحظات المختصرة حول مولانا خالد.

(10) "Kurdish stories from my collection", Bulletin of School of Orient and African Studies, London1926, vol., IV, pp. 120-138

(حكايات كردية من مجموعتي) ثلاث حكايات كردية أخذها نيكيتين من الملا سعيد، قاضي كردستان. بعد مقدمة قصيرة، نشر نيكيتين هذه الحكايات بالحروف العربية مع ترجمتها الإنكليزية وبعض الهوامش اللغوية. والحكايات هي: مام مزكو الشاب والشيخ، الشيخ سليمان، قصة أمير حكاري، وبشرى طير الربيع.

(11) "Où en est la Kurdologie?", Annali del Real Institute Orientale de Napoli, 1932, pp. 1-5

(أين وصلت الدراسات الكردية)، عرض موجز للدراسات الكردية بدءاً من الأب موريزيز كارزوني (أب الدراسات الكردية) وصاحب كتاب قواعد اللغة الكردية، روما، ١٧٨٧، وحتى سنوات الحرب العالمية الأولى.

(12) "Une appologie Kurde du Sunnisme", Rocznik, orjentalistyczny, t., VIII, Lwon, Pologne, 1933, pp. 116-160

(دفاع كردي عن التسنن). تعتمد المقالة على قصة كردية بعنوان "حكاية درويش كردي من السليمانية مع المجتهد الكربلاني"، إضافة إلى النص الكردي وترجمته الفرنسية وبعض الملاحظات اللغوية حول النص، يدرس باسيل نيكيتين في مقدمته بعمق هذه القصة محاولا بيان الصعوبات التي تجابه الباحث عن تكوين فكرة حول التسنن عند الكرد.

(13) "Notes sur le Kurde", Oriental Studies, Oxford, 1934, pp. 305-334

(ملاحظات حول اللغة الكردية) تعالج هذه الدراسة اللغوية ثلاثة مباحث لغوية: هل الكردية لغة إيرانية؟ النظرية الجابيتية، مكونات لغوية للكردية – مفردات، أقسام الكلام، النطق. انطلاقا من معطيات لغوية. يقول نيكيتين، كما وصل إلى ذلك غيره من العلماء، على ضوء مظاهر عرقية، تاريخية وفولكلورية إلى إيرانية اللغة الكردية. ثم يقدم عرضا تحليليا للنظرية اللغوية الجابيتية. وأخيرا يبحث في بعض نواحي اللغة الكردية.

(14) "Le système routier du Kurdistan", Géographie, Paris, 1935, pp. 360-385

(نظام طرق كردستان)، قبل أن يتطرق نيكيتين إلى ما دونه خلال رحلة قام بها من دوه إلى مزاهار (١١-١٤ أيلول ١٩١٧)، يقدم وصفاً لنظام الطرق ووسائله في كردستان، معتمدا على مشاهداته العينية، ويلحق بذلك عددا من الصور والخرائط التوضيحية.

(15) "Essai de clssification de folklore à l'aide d'un invention sociel-économiqe", XVIE Conbgres international d'Anthropologie, Bruxelles, 1935, pp. 1-12

(محاولة لتصنيف الفولكلور اعتمادا على جرد اجتماعي - اقتصادي). هذه الدراسة التي قدمها نيكيتين إلى المؤتمر العالمي للانثروبولوجيا المنعقد في بروكسل عام ١٩٣٥، تعتمد على قصة (مم وزين). يحاول فيها تقديم صورة عن جوانب اجتماعية واقتصادية من حياة الشعب الكردي. من ذلك السكن. الملبس، السلاح، العيش (الزراعة، الصيد، الرعي) والمهن .... الخ.

(16) "Problème Kurde", Politique étrangère, Paris, 1946, n° 3, pp. 251-262

(المشكلة الكردية) نشر نيكيتين هذه المقالة بعد الحرب العالمية الثانية حينما أخذ الحديث عن الكرد يتردد هنا وهناك. ولأنه كان يتوجه إلى الرأي العام، يقدم أولا ملاحظات عامة حول الكرد، ثم يبسط عرضا تاريخيا للمسألة مدافعا فيه عنهم ليختم مقالته بهذه الكلمات التي تعبر اعمق تعبير عن تفكيره حول هذه القضية: "القضية الكردية عادلة ولا يمكن تأجيل حلها إلى أمد غير محدد"

(17) "La poésie lyrique Kurde", L'Ethnographie, Paris, 1947 – 1950. pp. 39-53

(الشعر الغنائي الكردي) دراسة لبعض نصوص الشعر الغنائي الكردي مع عرض لبعض مميزاته. تعقبه ترجمة عدد من أشعار كامران بدرخان. يجد القارئ ترجمة هذه الدراسة في مجلة الدراسات الكردية، العدد الثاني، باريس ١٩٨٥، ص ٤١ - ٥٣.

وأخيرا ظهر كتابه ليتوّج أعماله حول الشعب الكردي: الكرد، دراسة سوسيولوجيه وتاريخية، باريس، ١٩٥٦.

أنهي نيكيتين العمل في هذا الكتاب عام ١٩٤٣. غير انه لم يصل إلى يد القارئ إلا بعد ثلاثة عشر عاما. ذلك لأن مؤلفا حول الكرد لم يكن مما يثير اهتمام الرأي العام الفرنسي.

فكان تبني أي دار نشر لهذا العمل مخاطرة تجارية. لذا كان عليه أن ينتظر طوال هذه السنوات كيما يستطيع الحصول على مساعدة مالية من قبل المركز الوطني للأبحاث العلمية بدعم من عدد من العلماء الفرنسيين من ضمنهم لويس ماسينيون، والذي كتب للكتاب مقدمة قصيرة.

يعد هذا الكتاب اشمل ما ألف حتى الآن حول الكرد. فرغم مرور أكثر من خمسين عاما على كتابته إلا أن كل عملية فكرية لفهم الحاضر الكردي في أغلب أبعاده تبقى، وحتى سنوات عديدة، كما يبدو ذلك آفاق الدراسات الكردية الحاضرة، في حاجة إلى دراسة أفكار وأعمال نيكيتين التي جمع زبدتها في هذا الكتاب. فإضافة إلى النظر الثاقب للباحث في التاريخ والمجتمع والثقافة، كان لدى نيكيتين معرفة بالواقع المعاشي اكتسبها في العيش بين أبناء هذا الشعب خلال سنوات حرجة وصعبة من تاريخه السياسي وتطوره الروحي. لذا نرى في كتابه حوادث مختلفة كان بنفسه شاهدا لها أو واحدا ممن كان لهم فيها دور كبير.

إن نظرة عجلى على كتاب الكرد تقودنا إلى التفكير في مسألة ماهية أبعاد من تعارف على تسميته بالمستكرد Kurdologue. لو كان المراد هنا هو التخصص في دراسة الكرد بنواحي حياتهم المختلفة، ولا نعرف فهماً آخر لذلك، أليس هذا اسما مسماه نيكيتين؟ هذه المسألة تشجعنا على عرض عناوين فصول الكتاب بغية إعطاء فكرة أوضح.

يتكون الكتاب من اثنى عشر فصلا (٣١٠ صفحات من الحجم المتوسط). والفصول هي الكرد، أصلهم وخصائصهم اللغوية والعرقية - كردستان، مصطلح متفق عليه، قيمته الحقيقية - طريقة الحياة، الاهتمامات، العادات، الفردية الكردية، طبيعتها - مراسيم عائلية - المسكن، الملبس، المأكل، دور المرأة، مراسيم عائلية - العشيرة الكردية، البنية الاجتماعية والاقتصادية - العشيرة في الزمان والمكان - الكردي والدولة، الحياة الروحية الكردية، الدين - الحياة الروحية للكرد، الأدب.

وقد ترجم هذا الكتاب إلى العديد من اللغات منها التركية والروسية والإنكليزية والفارسية، والكردية أخيراً

إضافة إلى هذه الدراسات والمقالات كتب نيكيتين مجموعة مهمة من المقالات المختصرة عن شخصيات ومناطق كردية نشرها في الموسوعة الإسلامية، منها :برادوست، البدرخانين، شمدينان، اورامار، رواندوز. ونجد له عروضا لكتب صدرت حول الكرد في مجلة L'Afrique et l' Asie بشكل خاص. وله صفحات عديدة يتحدث فيها حول الكرد ضمن دراسات تخص الشعوب المجاورة وخاصة في الاتحاد السوفييتي وإيران.

لباسيلي نيكيتين فضل كبير علينا. لعل هذه الكلمات المتواضعة تعبر عن الاعتراف بهذا الفضل.

الفصل الأول

الكرد:

أصلهم وخصائصهم اللغوية والإنسانية

اولاً - نسبية المقاييس:

غالبا ما يطرح البحث عن أصول أي شعب كان مشكلة مستعصية، وبخاصة في مثل حالة الشعب الكردي، لأن الشواهد التاريخية تعوزها الديمومة، ويتعذر التثبت منها في بعض الحالات. فلكي نثبت هوية شعب ما، نلجأ في الغالب إلى مقاييس معينة حاسمة كاسمه وعرقه ولغته دون أن نقتنع بقيمتها العلمية المطلقة. فالاسم وحده لا يسمح في الواقع بأي استنتاج مرضٍ بالنسبة للشعب الذي يتسمى به. ويكفي أن نذكر، على سبيل المثال، الشعب الفرنسي. فإذا اعتمدنا على اسمه، دون أن نعرف جيداً أصوله التاريخية، أمكننا افتراض أن يعود إلى أصل جرماني. وكذلك بالنسبة إلى الروس الذين يشتق اسم شعبهم من كلمة اسكندنافية، إذ يمكن أن تضللنا هذه التسمية أن لم نكن نعرف أنها تشير إلى فئة مسيطرة من زعماء الفارينغ الذين أخذ منهم هذا الشعب السلافي اسمه. وكذا الأمر بالنسبة للشعب البلغاري اليوم الذي لا يجمعه جامع بأجداده الطورانيين الذين كانوا يعيشون حياة بدائية على ضفاف نهر الفولكا. وكذلك بالنسبة للشعب الروماني الحالي الذي اتخذ اسمه من بعض الفرق الرومانية في بلاده، التي لم تكن تتألف من لاتينيين فقط. وما يصح بشأن التسمية يصح أيضا بشأن العرق واللغة، إذ يستحيل علينا أن نحدد بدقة عناصرهما الخالصة التي يمكن الاستناد إليها كنقاط لوجه المقارنة بين شعوب وجدت في مطلع التاريخ. إن مهمة عالم اللغة تبدو مع ذلك اكثر سهولة. إذ غالبا ما يتمكن من إرجاع الكلمة إلى أصلها الأولي بالإشارة إليه. وبالعكس، فإن عالم الأنثروبولوجيا لا يستطيع أن يستخلص نموذجا ابتدائياً لإنسان انحدرت منه ذريته. بالإضافة إلى أن عالم الآثار لم يقدم حتى هذه الفترة المتأخرة المساعدة التي كان ينتظرها منه عالم الأنثروبولوجيا[1]. وكما لاحظ البروفيسور (كونتينو) خلال مناظرة علمية عقدت في جمعية

---

[1] "أني لأشعر بالحنق كلما فكرت بعلماء الآثار الذين استخرجوا من التربة القديمة لآسيا الغربية كل هذه الآثار الرائعة. لأنهم كانوا غير مكترثين بالبقايا الإنسانية التي عثروا عليها. إن استنكارنا لا يعبر بما فيه الكفاية عن هذا الهدم العلمي الذي ارتكبه رجال أطلقوا على أنفسهم (رجال العلم). عن كتاب (الأجناس والتاريخ) لمؤلفه إيبتار. ص ٣٨٨." عندما نفكر

علم خصوصيات الشعوب في باريس عام ١٩٣٧، انه يوجد اختلاف بهذا الشأن نتيجة الفحوصات التي أجريت على بعض الجماجم السومرية. وتمثل لنا المنحوتات بوجه خاص نماذج من رؤوس صغيرة، غير أن علم مقاييس الجماجم لا يتفق مع هذه النماذج. إن قلة اهتمام علماء الآثار ببقايا العظام المكتشفة في هذه التنقيبات تفسر جزئيا بالتلف السريع للبقايا الإنسانية لملامستها الهواء ولصعوبة حفظها في حالة تسمح بإجراء الفحوصات الأثرية عليها. إن الطريقة التي تؤمن حفظ هذه الآثار، والجماجم منها خاصة، طريقة حديثة نسبيا. ونأمل تعاون علماء الآثار مع علماء طبائع الإنسان في هذا المجال في المستقبل، بالرغم من صعوبة توافق هذين العلمين مع علم اللغة. وخلاصة القول، إن جميع هذه المقاييس نسبية[٢]. فأحياناً يصعب تحديد النسب الصحيح لشعب ما من أعماله وحركاته الأولية كما ترويها الروايات، بقدر ما يصعب تبيان عالم الطفولة لإنسان ما من خلال ملامحه رجلاً ناضجا من المؤكد أننا قد نجد بعض التشابه، ولكن يجب أن لا ننسى في هذه الحالة، رغم حسن النية البيّن، أن توجيهنا نابع من قناعتنا الذاتية ويخص شخصا واحدا فقط، في حين أن سلسلة الحلقات التي تربط بين شعب كما نعرفه اليوم وبين ما يدعى له من صورة بدائية، نادراً ما تكون كافية لأن توحي بالشبه بينها.

ثانيا - كاردوخيو زينفون:

عندما نبحث عن أصول الكرد، يجب أن نأخذ التحفظات المذكورة آنفا بنظر الاعتبار. لقد نقل لنا التاريخ عددا من الأسماء تشبه في لفظها إلى حد ما الاسم الحالي لهذا الشعب. وهذا ما يسمح للاختصاصيين ببناء فرضياتهم أو نقضها.

في ضخامة التنقيبات التي أجريت في الأراضي الإيرانية. في الثروة التاريخية وتلك التي تتعلق بالسلالات واللغات التي اكتشفت في حينه. نشعر بالأسى لأن آثار الانثروبولوجيا التي توضح هذا الماضي السحيق لم يهتم بها في حينه علماء الآثار الذين قاموا بتلك التنقيبات المهمة. المصدر نفسه. ص ٤٦٦.

[٢] هذا ما يقوله البروفيسور (كونيتنو). على سبيل المثال. بخصوص الفينيقيين. انه ما دامت لغتهم كانت سامية. فإنهم ساميون. دون أن يأخذوا بنظر الاعتبار العناصر الأخرى. ونتساءل: هل يصح أن نرفض البحث بصورة مطلقة عن العنصر واللغة لتمييز شعب ما؟ لذلك أظل مقتنعا بأنه كلما رجعنا أكثر فأكثر إلى الماضي. غدا الوصول إلى توفيق بين الفرضيتين ممكنا. فمن المحتمل مثلا أن نجد في فجر التاريخ أن العنصر السامي كان يتكلم السامية. الحضارة السامية. ص ٣٥٧.

وهكذا قيل أن الكاردوخيين الذين تكلم عنهم (زينفون) في روايته عن الانسحاب المشهور (بين ٤٠٠ - ٤٠١ ق.م) لعشرة آلاف يوناني عبر كردستان الحالية إلى البحر الأسود، لم يكونوا غير الأسلاف الحقيقيين للكرد. أنهم كانوا جبليين أشداء، مثلهم، يقطنون البلاد نفسها ولهم اسم شبيه باسمهم. ماذا يراد أكثر من ذلك لدعم هذه الفرضية؟

بيد أن البحوث الحالية لا توصلنا إلى هذه النتيجة المؤكدة نفسها. فبعض المستشرقين من أمثال (نولدكه) الذي يعد حجة في مجال اختصاصه، و (هارتمان) و (ويسباخ) أثبتوا لغويا أن لفظتي (كورد) و (كاردو)[٣] غير متماثلتين. ويذهب هذان العالمان إلى القول أن السرتيين الذين ذكرهم المؤرخون الكلاسيك و (سترابون) خاصة، الذين كانوا يقطنون بلاد ميديا الصغرى وبلاد برسيس - هم أسلاف الكرد. أما العلامة (ليهمان - هويت) وهو الاختصاصي الضليع في شؤون هذه المنطقة من آسيا، فقد ذهب في معرض إشارته إلى الكاردوخيين إلى أنهم ليسوا أسلاف الكرد، وإنما هم أسلاف الجورجيين الكارتوفيليان[٤]. لقد هاجر هؤلاء الذين كانوا يسمون أيضا الأيبير في وقت متأخر نسبيا إلى بلادهم الحالية واختلطوا تدريجيا مع الموسك الذين كانوا موجودين فيها[٥]. هذه الهجرة، كما تذكرها الروايات الجورجية، أتت من الجنوب في وقت لم يكن (هيرودوت) يعرف شيئا عن وجود الايبيريان في القفقاس، ويفترض أنها تمت بين القرنين الأول والخامس ق.م. كأبعد تاريخ. ويستطرد (ليهمان) في القول: أن الأراضي الواقعة بين ملتقى دجلة الشرقي (بوهتان سو) وفرعها الغربي، كانت مسكونة في نهاية القرن الخامس من قبل الكاردوخيين، وأن هذا الشعب، كما أثبت ذلك كل من (نولدكه) و (هارتمان)، لا يرتبط بشيء بالكرد الذين أتوا منذ قرون من بلاد فارس واستقروا في هذه المنطقة. إن لفظة (كاردوخي) مشتقة من صيغة الجمع الأرمنية (كاردو-خ) وهي تتفق مع التسمية الوطنية (K' ART' UELI كارتفلى

---

[٣] تتماثل لفظة (كاردو) مع ألفاظ سامية وبخاصة في الأكدية - الآشورية. فهي تعني (قومي. بطل) وتعني (كاردوا) (يصبح بطلا).

[٤] حول أصل الجيورجيين. في GEORGICA. الفقرتان ٤ و٥. ١٩٣٧.

[٥] (ف.ى.آلان): تاريخ الشعب الجورجي. ص ١٦ و١٧. (كورزون). الجزء الأول. ص ٥٥٠. المشار إليه من قبل بارتولد في إيران "باللغة الروسية". ص ١٣٠

(KART' VELI) لسكان جورجي - ايبيرى. إن الألفاظ (كوردوين) و (كوردياوى) .. الخ تعني هذه المنطقة الجنوبية، وتضم الأجناس نفسها. وهذه الأراضي التي كانت تعود فيما مضى للكاردوخيين، مليئة بالمساكن الكثيرة التي تشبه إلى حد كبير مساكن الجيورجيين الصلدة المنحوتة في الصخور، ولكنها تختلف اختلافا أساسيا عن المساكن المقامة بين الصخور التي تعود إلى ما قبل وصول الأرمن، من قبل الكالديين (أو الخالدين). وبعد فتح آسيا من قبل الاسكندر الأكبر، استوطن المقدونيون الذين هم من أصل مقدوني، جزءا من أراضي كاردوخ بضمنها نصيبين. وقد أثرت الاضطرابات التي نشأت بفعل هذا الاستيطان على الكاردوخيين بصورة مباشرة وغير مباشرة، ودفعت بعضا منهم إلى الهجرة صوب الشمال في وقت يتوافق زمنياً مع هجرة الايبيران، بينما بقي البعض الآخر منهم في موطنهم القديم في كوردين الإغريق والرومان. وإذا صح هذا الأمر، فإننا نجد في أناباس (زينفون) الذي يصف فيه رحلته ذات الأيام السبعة عبر بلاد الكاردوخ، اقدم وصف لطريقة القتال والعادات والأعراف لدى أهم عنصر أسهم في تكوين الشعب الجورجي، كما يستنتج ذلك (ليهمان - هوبت). فالكاردوخيون الكاريتول كانوا، إذن الجيران الجنوبيين للخالدين، بينهما كان العنصر الآخر الذي أسهم بصورة رئيسية في تكوين الشعب الجورجي وهم الموسك، أقرب إلى الكالدين.

إن هذا التقارب بين الكاردوخيين والكارتفيليان الذي يقول به (ليهمان - هوبت)، كان معروفا من قبل لدى العالم الروسي (مار) الذي أبدى وجهة النظر نفسها في دراسته المعنونة (مرة أخرى عن كلمة (Chalabi چلبى) "التي تعني بالمفهوم الثقافي للشعب الكردي في تاريخ آسيا القديمة والمنشورة في مدونات القسم الشرقي في الجمعية الأثرية الإمبراطورية سنة ١٩١٢، المجلد ٢٠، ص ١٣٩ "باللغة الروسية". فإذا كان (ليهمان - هوبت) يستبعد الكرد عن نطاق نظريته الأصلية للكاردوخيين (الكرد) والكارت (الجورجيين)، رغم أن كلاً من المجموعتين تختلف عن الأخرى في الوقت الراهن بتاريخ يمتد إلى ألفى "سنة. ثم يضيف قائلاً: "فإذا ما تحققت هذه النظرية مع الأيام، فإن بعض الكلمات من اللغة الكردية الحالية تعد من بقايا اللغة الكردية القديمة التي هي من مجموعة (كارت) من فروع الجافيتيك. فعلى سبيل المثال أن الكلمة الكردية (باف) أو

(باب)، أي الأب مرادفة لكلمة (ماها) الكرتية، و (ديدا) أو (دييا) الكردية تقابل (ديدا) أو (دييا) الكرتية. وهكذا ينبغي التراجع عن بعض التفسيرات المقبولة لحد الآن. وبطبيعة الحال فان حل المشكلة يعتمد، من جهة، على الأسلوب الصحيح الذي يتبع في دراسة الظاهرة الثقافية والاتنوكرافية بكاملها في حياة الشعب الكردي، ولدى شعوب الجافيتيك من جهة أخرى، وليس في مقارنة رمزية للمصطلحات الجغرافية التي يمكن أن تتعرض لتوافق لفظي طارئ. أما بالنسبة للمصطلحات المتعلقة بالسلالات، فلا يمكننا الإقرار بتفسيراتهم الحالية هذه والقول أن الكلمات (كارد) و (كورد) هي من الأصل نفسه مع (كورت)، أو أنها مجرد توافق لفظي طارئ بينهما. وعلى كل حال فإننا لا نرى في الوقت الحالي أساساً لتقريب (الكاردوخيين- الكالديين) الجنوبيين من (الكانيب) الذين كانوا يقطنون شمالي غربي أرمينيا، الذين أطلق عليهم ابتداء من فترة محددة اسم (الكالت) أو (الكالتيس).

سوف نتكلم عن نظرية مار، فيما بعد[٦]، ونعود ثانية إلى الكاردوخيين الذين يبدو أن صلاتهم بالكرد لا يمكن إنكارها كليا، كما بينا آنفا، فنشير إلى أن الكاردوخيين حسب ما ذهب إليه زينفون لم يكونوا يعترفون بسلطة الملك أرتاكسيركيس ولا بسلطة الأرمن. وفي مطلع القرن الأول الميلادي، استولى الملك (تيكران) الثاني على بلاد الكوردويين وقتل ملكها (زار بيونيس). وفي سنة ١١٥ (ميلادية) كان ملك الكوردويين يسمى "مانياروس"، ولم يكن إقليم كوردويين خاضعا للأرمن إلا بصورة اسمية.

أما من وجهة النظر الخاصة بأصول اللغات، فسواء كان إجراء التقارب بين الكارودخيين والكرد ممكنا أم لا، هناك نقطة جديرة بالإشارة إليها وهي أن عصر الكارد كان مستقرا على النطاق الإقليمي، وكان الآراميون يطلقون على هذه المنطقة من (كوردوين) اسم (بيت كاردو)، وعلى مدينة جزيرة ابن عمر الحالية (كازارتاد كاردو). أما الأرمن فكانوا

---

[٦] إن مدرسة (جافيتيك) للبروفيسور (مار) بشأن اللغات القفقاسية والتي أطلقت عليها اسمها لتثبت أنها لا تنتمي لا حد من المجموعات اللغوية المألوفة. أدخلت ضمنها تدريجيا اللغة الكالدية (الأرمنية قبل الآرية) والسومرية والعيلامية وحتى لغة البامير والباسك والبربر ....الخ.

يطلقون عليها اسم (كوردوخ)، والعرب (باكاردا)، وكان لإقليم كاردو لدى الأرمن والعرب حيز محدود، فلا نعرف بالضبط الحدود الصحيحة لإقليم كورديون. ان مدن الإقليم الثلاث (ساريزا) و ساتالكا) و (بيناكا) التي هي مدينة (فينك) الحالية، كانت تقع على ضفاف دجلة، ولكن الملفت للنظر هو أن جبال كورديون كانت تمتد، حسب (سترابون)، بين ديار بكر وموش.

تتوقف النظريات التي تفسر أصل الكرد بمساعدة الأسماء التي خلفها لنا التاريخ في هذه المناطق، عند كاردوخيي زينفون، إذ لا يمكن أن نتجاهل أنه بين القرنين الرابع والسادس ق.م. كانت الهضاب التي غدت فيما بعد أرمينيا تشكل مملكة كالد أو خالد (الخالديين) أو الأورارتو، (التسمية الأولى وطنية والثانية آشورية وتوافق آرارات الواردة في التوراة). هؤلاء الخالديون، الذين ينبغي عدم الخلط بينهم وبين الكلدانيين الساميين، صاروا في فترة ما أقوياء حتى أنهم اخذوا يثيرون المتاعب الجدية للآشوريين، ودخلوا معهم في معارك عديدة انتصروا عليهم في العديد منها. ولئن كانت أصول علم الفونيتيك (علم الأصوات) تسمح بإجراء تقارب بين اسميْ الكالد والكاردو مع احتمال وجود بعض الصلات بينهما وبين الكارتفيل الجورجيين، فإن هذه الادعاءات لا تفيدنا في تفسير أصول الكرد، وخصوصا إننا ما نزال لا نعرف الشيء الكثير عن الكالديين، وأن هناك جدلاً حول خصائصهم العرقية. والشيء الذي نعرفه عنهم هو أن لغتهم لم تكن لغة هندو-أوروبية، وتتشابه بعض الشيء مع مجموعة اللغات الكارتية، في حين أن الكرد يتكلمون، في الوقت الحاضر على الأقل، بلغة تنتمي إلى المجموعة الإيرانية، أي لغة هندو-أوروبية.

يبقينا البروفيسور (سميزك) في بحثه المعنون (الحيتيون) المنشور في المجلة البولونية Rocznik Orient، الجزء الثاني، العام ١٩٢٥، بالاستناد على أدلة صوتية واضحة جدا، ضمن احتمالات هذه الأسماء المقارنة. ويشير في استنتاجه الذي يلفت الانتباه حقا، يشير إلى أمثله منها اسم (السليت) المعروف لدينا في ثلاث صور مختلفة.

سبق أن أشرنا إلى أنه يجب عدم الخلط بين الكالديين الذين سبقوا الأرمن في استيطانهم لتلك المنطقة، والكلدانيين الذين كانوا يستوطنون بابل. إن هذا التمييز الضروري لم يكن

معروفاً أو معترفاً به من قبل عدد من المستشرقين قبل فترة ليست طويلة، (نشير من بينهم إلى بحث البروفيسور ليهمان-هوبت المشار إليه آنفا الذي يشرح فيه الموضوع بصورة كاملة)، فقد كانت النظرية السائدة حول أصل الكرد سابقا، تستند على نسابتهم مع الكلدانيين.

وكان كتّاب من العهد القديم قد أشاروا إلى أن الكلدان سكنوا منطقة كردستان الشرقية، وأيد ذلك أيضا (ماركوبولو) الذي تكلم كذلك عن الكرد المسيحيين في جبال الموصل. وهكذا فان الرأي الذي كان سائدا في أوروبا القرون الوسطى هو أن الكرد ينحدرون من عقلاء الكلدان الوارد ذكرهم في العهد الجديد. وكبار اللغويين والمؤرخين في نهاية القرن الثامن عشر من أمثال ميكائيليس وشلوتزر كانوا، مع تأكيدهم على ضرورة جمع الوثائق الصحيحة عن اللغة والثقافة الكرديتين، يؤيدون النظرية السائدة عن انحدار الكرد من الكلدان. ومع ذلك ظهرت في الحقبة الزمنية نفسها دراسات عملية للمبعوثين الدومينيكان من أمثال (كارزوني) الذي ألف كتابا في قواعد اللغة الكردية في العام ١٨٨٧ و (سولديني) وغيرهما. وقد ذهب هؤلاء مستندين على إلمامهم التام بعدة لهجات كردية، إلى وجود ارتباط مباشر بين اللغتين الكردية والفارسية الحديثة. بل وذهب (گارزونى) إلى حد التفكير بإمكانية طبع الترجمة الكردية لعدة كتب كاثوليكية في مطابع تستخدم حروفا لاتينية في اللغة الفارسية أنشئت لهذا الغرض في القرن السابع عشر من قبل (مجمع الرهبانية للدعاية). ان ما ذهب إليه هؤلاء من أن الكرد انسباء الفرس وأن لغتهم مجرد لهجة من اللهجات الإيرانية، وضع مسألة الأصل الإيراني للشعب الكردي على بساط البحث.

ان التطور السريع للدراسات التي أجريت حول كردستان وأصل الكرد ولغتهم في النصف الأول من القرن التاسع عشر، والمعلومات التي جمعت حول تاريخهم ولهجات لغتهم وانتشار قبائلهم ومعتقداتهم السابقة لدخولهم الإسلام.. الخ، بالإضافة إلى التطور الهائل الذي حدث في العلوم نتيجة الاكتشافات والتنقيبات والعثور على الكتابات المدونة في الآثار الباقية من الحضارات الشرقية القديمة، والتي عثر على جزء منها في أرض كردستان نفسها، كل هذه أسهمت في وجوب إعادة النظر في الآراء والنظريات السائدة عن كردستان القديمة.

وهكذا وضعت من جديدة مسألة أصل الكرد ولغتهم أمام العلماء، فأسهم كبار علماء اللغة في ذلك الوقت من أمثال (روديجير) و(بوت) بمساعدة علم اللغات المقارن في دحض الفكرة القائلة باحتمال انحدار اللغة الكردية من الكلدانية، وأظهروا علاقتها باللغة الفارسية الحديثة واللغة الزندية التي هي لغة مشتركة بينهما. وبذلك ثبت علميا، وبصورة نهائية، النظرية القائلة بانتماء اللغة الكردية إلى مجموعة اللغة الإيرانية.

لقد برهن العالم الروسي (كونيك)، استنادا على وثائق تاريخية، على وجود صلة وثيقة بين الشعوب القديمة المتمدنة التي كانت تقطن آسيا القديمة والشعب الكردي، واستند على وجود هذه الصلة في بيان العلاقة بين اللغة الكردية واللغة الإيرانية، واستنتاج الأصل الكردي، وليس الكلداني البابلي، للكرد ولجميع الشعوب التي استوطنت آسيا الصغرى[٧].

ان أفكار "كونيك" هذه، التي وضحها أكثر، كل من البروفيسور (رينان) والبروفيسور (درون) كانت الأساس لأفكار (ليرخ) الواردة في مخطوطته[٨]. فهذا الأخير يرى في الكرد "أحفاد كالديي إيران" وأنهم "محاربون أشداء، وقد كانوا منذ الألف الثالث قبل الميلاد جبليين يمتلكون روحاً قتالية، مما سهل لهم النزول إلى سهول دجلة والفرات لإخضاع العشائر السامية الضعيفة في بلاد بابل.".

ثالثا - نظرية مينورسكي حول اصل الكرد:

حاول العلماء اكتشاف أصل الكرد بالاستناد إلى التجانس الموجود بين أسماء شعوب كاردوخ وكارتفيل والخلديين والكالديين واسم الكرد، فضلا عن توافق موطنهم مع موقع كردستان الحالي (أو ليس ذلك مجرد تجانس في الألفاظ؟)، كما رأينا ان الرأي السائد الآن بصدد اللغة الكردية هو اعتبارها من مجموعة اللغات الإيرانية. سوف نعود إلى مناقشة

---

[٧] محاولة لتوضيح تأثير الإيرانيين على العنصر السامي بمساعدة التاريخ المقارن "باللغة الفرنسية" في "المجموعة الآشورية". الجزء الأول. ص ٥٤٠.

[٨] التاريخ العام والنظام المقارن لمجموعة اللغات السامية "باللغة الفرنسية". الجزء الأول. ص ٢٣ - ٢٧. ٥٤ - ٦٢. ٤٣٣ وما بعدها

وجهة النظر هذه لدى عرضنا لرأي مدرسة (جافيتيك)، ولكننا نود قبل ذلك أن نلخص نظرية زميلنا العلامة مينورسكي التي عرضها بإسهاب في المؤتمر العالمي العشرين للاستشراق المنعقد في بروكسل عام ١٩٣٨ حول أصول الكرد، لأنها تقدم لنا أحدث تحليل يعرض في غاية الدقة والوضوح.

يعرض مينورسكي مسبقا بعض الملاحظات ويقول: أن لو أردنا البحث عن أسلاف الكرد المحليين لوجب أن يكونوا البوكهتانيين (البختانيين) لا الكاردوخ، ويمكن اقتفاء أثر هذا الاسم منذ عصر المؤرخ الإغريقي (هيرودوت)، كذلك في بوهتان المصب الشرقي لدجلة الموجود في (بيت - كاردو) الذي كان يسمى سابقا بوكهتان. لقد شكل الأرمن والبوكهتانيون السبط الثالث عشر في الإمبراطورية الفارسية. ويلاحظ أيضا أن الأساطير الكردية الواردة في كتاب (شرفنامه) تعطي بوهتان (أي بوختان القديم) دوراً مهما، إذ أن الكرد ينحدرون جميعا حسب هذه الأساطير من أخوين هما (بوخت) و (باجان).

وبعد أن يستذكر مينورسكي الأسماء العديدة التي يرتبط اسم الكرد بها، يقول: "يجب القول أولا أن من المجازفة إثبات أصول الشعوب عن طريق اشتقاق الأسماء، فمن الواجب الاستناد على وقائع تاريخية وجغرافية " وهذا هو الصحة بعينها. ويذكر بعد ذلك أنه منذ زمن سحيق، تذكر المصادر العربية اسم الكرد مرادفا لـ "الرحل"[٩]، ولتجنب هذا الخلط، فقد حاول أن يضع جانبا هؤلاء الرحل، ولم يهتم إلا بالكرد الذين يتكلمون العربية.

"بالنسبة للكرد المشتتين بين أرجاء واسعة، المختلفين من وجهة النظر الجسمانية اختلافا كبيرا، تعد طريقة حياتهم ولغتهم من العناصر الأساسية التي يمكن الاستناد عليها لبيان خصائصهم الوطنية".

---

[٩] كم كان بودي أن يورد المؤلف عناوين بعض أقدم المصادر العربية التي يقول أنها تورد اسم "الكرد" مرادفا لـ "الرحل". ففي اللغة الكردية وبين الكرد أنفسهم كان إطلاق اسم الكرد على العشائر الرحل أمراً متعارفا عليه حتى العقود الأخيرة من هذا القرن. حيث انتفت أو كاد الرحلات السنوية المستمرة بين المراعي الصيفية والشتوية بحثا عن الكلأ الجيد. فقد كان "الكرد" يطلق على الرحل. بينما تطلق كلمة "گوران" عنوانا للمقيمين في القرى. المشتغلين بالزراعة – المترجم.

وبالرغم من أن اللغة الكردية تتشعب منها لهجات عديدة، إلا أن لها خصائص ثابتة وقوية، وتنتمي، دون أدنى شك، لمجموعة اللغات الإيرانية الشمالية - الغربية. ان الاختلافات التي نلاحظها بين اللغتين الكردية والفارسية، نجدها في جميع اللهجات. ويخلص مينورسكي إلى القول، بحق، أنه توجد في أساس اللغة الكردية مجموعات مهمة، وتكونت خصائصها العامة قبل نزوح الكرد وانتشارهم فيما بين الجبال.

وبالرغم من أننا لا نعرف من اللغة الميدية الأصلية إلا بعض الكلمات الخاصة، يستحيل علينا تصور تكون لهجات الشمال الغربي للمناطق الإيرانية دون مشاركة العنصر الميدي. وحسب هذه الاعتبارات التاريخية والجغرافية، يجب القول ان انتشار الكرد تم فقط في بلاد ميديا الصغرى التي تضم حاليا بلاد (أترو باتين) أو أذربيجان.

وبعد توصله إلى هذا الاستنتاج، يبدأ مينورسكي بدراسة التاريخ البشري للمنطقة الواقعة جنوبي بحيرة أورميه التي لعبت دور السبب الأساسي في الصراع بين الآشوريين وشعب (أورارتو)، حيث أشير إلى اسم الإيرانيين في الغرب لأول مرة في القرن التاسع قبل الميلاد.

كانت توجد في جنوبي البحيرة إمارات ليست هندو-أوروبية في (آلابريا) و (كاركار) و (اليبى) الخ. ثم ورد لأول مرة في سنة ٤٤ ق.م. اسم بلاد (بارسويا) في جنوبها الغربي، بوصف سكانها بمثابة أسلاف أولين للفرس. أما الميديون (ماتالي) و (مادا) الذين جاء ذكرهم منذ سنة ٨٣٦ ق.م.، فكانوا في الجنوب الشرقي لبلاد بارسويا (حيث هاجر الفرس صوب الجنوب)، فصار الميديون شيئا فشيا سادة المنطقة. وجاء بعدئذ شعب غامض يحمل اسم (ماناي) أو (المانيين) عرف حوالي الفترة ٨٣٠ - ٨٥٦ ق.م كجيران مباشرين لبارسويا من جهة الشرق[١٠]، ولا يعرف شئ عن الانتماء العرقي للمانيين. وعلى كل حال فقد اختلط بصورة كلية بالميديين. ولم يتأخر هؤلاء المانيون في التطبع بطابع إيراني خاصة بعد أن تحولوا إلى (سيتيين). ونحن نعلم أنه ما من شك في إيرانية السيتيين.

---

(١٠) مار: الأعمال المختارة. الجزء الخامس. صـ ١٧-١٨.

تغيرت لوحة الأجناس المختلفة هذه في القرن الثامن ق.م، ففي البداية أثر الغزو السومري تأثيرا كبيرا على مملكة (وان) ومن أعقبتها من السيتيين الذين كانوا قد استقروا جزئيا بين المانيين. ثم غدا السيتيون سادة آسيا لمدة ثمانية وعشرين عاما (الفترة ما بين ٦١٥ - ٦٤٢ ق.م)، إلا أن الميديين ثبتوا في النهاية وذبح ملكهم (سياكريس) رؤساء السيتيين ليواجه وحده الآشوريين الذين دب فيهم الضعف. وهكذا سقطت نينوى عام ٦١٢ ق.م. وقد ورد من بين خلفاء الميديين، بالإضافة إلى ملك بابل، اسم (أومان-ماندا) أو (الماندين الأشقياء) كما تعود الآشوريون أن يطلقوا هذه التسمية على السومريين والسيتيين، ان هذا التشابه بين أسماء (مادا) و (ماندا) و (ماناي) يثير الشكوك. وقد ترك سقوط الآشوريين فراغا كان ينبغي ملؤه من قبل الغرب. وهذا ما يفسر انتشار القبائل الإيرانية باتجاه الغرب. وحارب سياكريس [١١] الليديين، وبحماية جيشه تقدمت القبائل الميدية وأحرزت النصر المبين.

وبعد مذبحة رؤساء السيتيين، استعاد المانيون نفوذهم. ومنذ بداية القرن السابع ق.م غزوا الآشوريين مرات عديدة. وسطع اسمهم فيما بعد في القرن الخامس ق.م في ملحمة (هيرودوت) الذي اكتشف الطريق الملكي المهم للفرس، ثم في ملحمة (ما فيتافن) كما سماها سترابون في أوائل القرن الأول الميلادي ببحيرة أورومية، بينما سماها بطليموس (مارجيانوبي) مضيفا أن هذه المنطقة "تمتد على طول الحدود مع الآشوريين". وهكذا نرى أن حدود بلاد "مارجيانوبي" القديمة (MATIENOIMANNAI) كانت مجاورة لحدود الآشوريين. وبعد سقوط الآشوريين كان المانيون المستفيدين الأولين.

بعد الإشارة إلى أسماء هذه الأجناس الواردة في المصادر الآشورية، يضيف إليها مينورسكي اسم (مارد) الوارد لدى المؤلفين الإغريقيين. وهكذا يبدو أن العشرة آلاف إغريقي بعد أن عبروا ممر (كينترتيس)، هوجموا من قبل فصيل من الماردينيين والأرمنيين. ويذكر (سترابون) الماردين إلى جانب (كيرتيوبي) من بين رحل أتروباتين[١٢]. ويعتبر بطليموس أيضا الماردين

---

(١١) ملك الميديين – المترجم.

(١١ مكرر) ريناش. الكيريتون. المجلة الاركيولوجية. الجزء الثالث عشر. ص ١١٥ - ١١٩. اشتهر الكرد وقتذاك بكونهم عسكريين متضلعين ومن الغريب ان نلاحظ أن سكان (كوردويي) كانوا معروفين بكونهم معماريين ومهندسين

جون نكيرتيوبى. ويذهب (مينورسكي) إلى القول أن هؤلاء كانوا ضمن القبائل المادية وذو صلة قربى تجمعهم معا، وربما كان هؤلاء المارديون هم الذين واصلوا التقاليد ألمانية. "ان صيغ مارجيانوبى تفترض احتمال تغير في الاسم مع حرف (ر) بدلا من (ن). ان هذه الطبيعة الخاصة بحرف (ن) واردة في كتابة الآشوريين كلمة (مانايى) بحرف (ن) المدغم في مثله".

أما بالنسبة لـ (كيرتيوبى) فليست لدينا معلومات مباشرة حول أصل هؤلاء. ان اسمهم الذي يبدو في صيغته وارداً من (كورت) ليس له اشتقاق يعتمد عليه. وكان الاعتقاد سائدا بوجود مراجع آشورية حول أصل هذا الشعب تحت تسمية (كورتيى)، ولكن هذا الاسم يقرأ كما يأتي: (كورهي ى KUR-HI-I). وعلى كل حال فقد ذكر اسم السيرتيين لأول مرة في (بوليب) في سنة ٢٢٠ ق.م كرماة في قطعات الحاكم الميدي الذي حارب الملك (انتيوش) الثالث. وبعد مرور ثلاثين عاما نرى هؤلاء في (تيت ليف) مرتزقة في خدمة الملك أنتيوش نفسه في آسيا الصغرى. وفي عام ١٧١ ق.م في خدمة الملك (بيرگام). لقد نزحوا بسهولة في القرن الثاني قبل الميلاد، ولا يتصور أن أسلافهم الذين سنحت لهم الفرصة لملء فراغ وجد بفعل سقوط الآشوريين، لم يملأوه[١٣].

عسكريين وقد حارب الملك الأرمني تيكران الكرد وساق حوالي خمسة وثلاثين ألف كرديا مع جيشه "لفتح الطرق وبناء الجسور وتنظيف الأنهار وقطع أشجار الغابات ولتنفيذ أعمال عسكرية وأخرى". وقد لاحظ بخصوص الآثار الكلاسيكية أن (بلوتارك) في حديثه عن (لوكولوس) يشير إلى أن هذا الأخير صادف في (أنتيوش) زعيماً كرديا.

[١٣] نذكر. على سبيل المثال للحركة السريعة للقبائل الإيرانية. انتقال (أساگرتيا) (التي تضم أسماءها عبارة "گارت" التي يمكن استخدامها لتفسير تعابير أخرى ورد ذكرها من قبل). وقد أخبرني زميلي (هيرزفيلد) في اكسفورد عام ١٩٢٨ أنه يمكن اعتبار هؤلاء بمثابة أسلاف للشعب الكردي. وكان يعتقد أن اسم مدينة (سعرت) على نهر دجلة مشتق من اسمهم. ان (اساگارتيا) او (الساگارتيين) عاشوا في البداية في (سيستان) ونجدهم في العهد الآشوري في بلاد ميديا تحت اسم (زيكير) أو (زاكروتي). (ستريك. المجلد الرابع عشر. ص ١٤٦). وفي عهد (داريوس) كانت عاصمتهم تقع في سهل (أربيلا) حيث شنق داريوس ملكيم (تشينترانتاكهام). علماً أن الصورة المنحوتة على صخر (بيستون) تمثل نموذجا كرديا (كنك. في نقوش بيستون) "باللغة الإنكليزية".

فإذا أضفنا إلى ذلك، كما فعل مينورسكي بعدئذ، دراسة بعض المصطلحات الجغرافية، وبخاصة مصطلح (KWTAIA) الذي يقع، على ما يقول (بطليموس)، شرقي (گوردوين- بيت - كاردو) الذي يحتمل أن يكون مصطلح (كويتايى) الذي نجد مرادفا له بين المصطلحات الجغرافية الأرمنية (لورجيك، كوردوك، كورديك) التي تضم كلها عنصر (كورت)، أمكننا استنتاج أن (كيرتيوس - كورد) تابعوا في مسيرة انتشارهم الخط الذي يبدأ من ضفاف بحيرة أورومية، صوب منطقة (بوهتان) التي تشكلت فيها منذ القرن الرابع قبل الميلاد الإمارة الكردية المعروفة (ماهكيرت).

ثم يفترض مينورسكي نظريته البارعة في تفسير تسمية كلمة (كرمانجي) التي يطلقها الكرد على أنفسهم، ثم بحذفه الزائد من الحروف على أصل (ج DJ) يرى في التركيب الباقي للعنصر الأول في كلمة (كر) د، بينما يرجع المتبقي منه إلى الميديين أو المانيين (مانتيانويى).

فإذا كان الماردیون أحفاداً للمانديين، فإن هذه النظرية تجد لها سندا في سلسلة الإنسان التي يعطيها المسعودي للكرد في القرن العاشر بقوله: انهم أبناء كرد بن مارد بن ساسا بن حرب بن هوازن.

"وحسب الوقائع التاريخية والجغرافية، يحتمل كثيراً ان تكون الأمة الكردية قد تكونت من مزيج من قبيلتين متجانستين هما الماردوني والكيرتيوني اللتان كانتا تتحدثان بلهجات ميدية جد متقاربة. ومن جهة أخرى، فان من المؤكد أنه لدى توجههما صوب الغرب انضمت إليهما عناصر من سلالات أخرى"

يبدو أن للحجج التي استند عليها مينورسكي في شرح نظريته قيمة علمية قاطعة. وما دام لم يتوفر لدينا في اللغة والتاريخ الكرديين ما يدل على كون الكرد السكان الأصليين لديارهم، فان نظرية هجرتهم من جهة الشرق إلى موطنهم الحالي تبقى على قوتها.

رابعا - نظرية الجافيتيك ولوك حول أصالة الشعب الكردي:

ان النظرية التي تقول بأصالة الشعب الكردي ينادي بها العلامة (مار) ومدرسته المعروفة بالجافيتيتك. لقد سبق أن أشرنا إلى وجهة نظر (مار) التي أعلنها عام ١٩١١ حول احتمال وحدة أصل الكاردوخ (الكرد) مع الكارت الجورجيين وانفصالهم فيما بعد، في عصر عريق في القدم. وعلى العكس من مينورسكي الذي يحاول تبرير نظريته بالاستناد على حجج تاريخية وعرقية، كما رأينا، يبدأ (مار) في تفسير نظريته استنادا على حجة معاكسة وهي انفصام أو انحلال العلاقات التاريخية بين الكرد و (الكارتفيل)، مما استتبع ظهور فراغ وجب ملؤه. صحيح أن أهمية هذا الفراغ تقل كثيرا إذا ما قبلنا المعادلة الثلاثية: كاردوخ - كارتفيل - كورد، رغم أننا في عملنا هذا نستند فقط على التفسير الاشتقاقي المجرد من حجج تستند على وقائع تاريخية وجغرافية ثابتة، فضلا عن عدم أخذنا بنظر الاعتبار للاعتراضات القائمة على التقارب بين اسميْ الكاردوخ والكرد. ان النظرية الجافيتيكية المجردة في الظاهر من أسس تاريخية وجغرافية، تصطدم مع مشكلة أخرى. أننا لا نستطيع في الحقيقة إنكار أن اللغة الكردية التي نعرفها اليوم تنتمي إلى المجموعة الإيرانية. لذلك يضطر (مار) إلى الافتراض "بأن اللغة الكردية خضعت في الواقع لتغيير عميق وتحولت كلياً من الجافيتيكية إلى الآرية"، ويستشهد على ذلك برواية تقليدية مفادها أن الكرد أنفسهم تركوا لغتهم القديمة واستساغوا لغة قريبة من الفارسية. ومع ذلك فان هذه الرواية التي أشار إليها المسعودي تقول انهم كانوا يتكلمون اللغة العربية في السابق.

يقبل (مار)، إذا، الفكرة القائلة أن الكرد غيروا لغتهم (والمسألة في حد ذاتها ممكنة التصور وقد حدثت أمثالها فعلا لدى شعوب أخرى كالبلغار مثلاً[١٤]، إلا أنه يؤكد في الوقت نفسه "أن عادات الكرد صعبة التبدل كصخور بلادهم" ويشير في هذا المجال إلى اليزدية وهي واحدة من المعتقدات الكردية التي تمد جذورها في المندائية والصابئية وفي غيرها من التيارات المخالفة لأصول الدين التي ظهرت في أرمينيا، أو المذاهب الدينية

كالشعوب التي تحولت الى التحدث بالعربية في الشرق الأدنى وشمالي أفريقيا بعد الفتح الاسلامي

المتبعة في ما وراء أرمينيا وحتى جورجيا. والشيء المهم بالنسبة لـ (مار) هو مجموع الملامح التي تسهم في تكوين خصائص، وطنية أو بالأخرى اجتماعية.

ونظراً إلى أن (مار) ومدرسته يتمسّكان في نظريتهما اللغوية بدراسة الوقائع الاجتماعية التي تعطيها دوراً مهما في تكوين اللغة وتطورها، فانهما يرفضان فكرة المجموعات اللغوية. ان الشيء المهم لديهما هو درجة التحضر داخل المجموعات الإنسانية منذ بداية تطور تفكيرها المناسب والمطلوب في سلوك الإنسان تجاه الطبيعة وتجاه قبيلته بواسطة ظروف عمله ووجوده. وهكذا فانهما، أي (مار) ومدرسته، يوليان مسألة نزوح الشعوب التي تتكلم لغة متكاملة قابلة لأن تؤثر مباشرة وبصورة كبيرة على لغات الشعوب المغلوب على أمرها أهمية أقل في عاقبة الأمر. والعامل الأصلي في حدوث التغيرات في مجال الكلام وغيره هو في الغالب تشابك الألسنة فيما بينها عن قرب، في المجاميع اللغوية التي تدخل في علاقات تعاون مشتركة.

ولم يخصص مار غير دراسة واحدة (أشرنا إليها فيما سبق) للمسألة الكردية، ولكنه يتكلم فيما بعد بصورة عرضية وخلال دراساته الأخرى، عن الطريقة التي تستخلص منها وجهة نظر كاملة[١٥].

فالكرد، حسب مارآه (مار)، سكان اصليون للمناطق الجبلية في آسيا الصغرى. ولغتهم الكردية تكونت في تلك البقعة لا في منطقة أخرى من الكرة الأرضية. وبتأثير التغيرات التي حدثت في الميادين الاجتماعية والاقتصادية للناطقين بهذه اللغة. وبتأثير لا ينكر للحضارات التي تتابعت في المنطقة والتي أسهم فيها الكرد أنفسهم أيضا بنشاط. خضعت اللغة الكردية لتغيرات أساسية وتحولت من أصلها الجافيتي القريب من اللغتين الجورجية والكالدية إلى حالتها الهندو-أوروبية التي تربط اللغة الكردية باللغات الإيرانية ولغات أرمينيا، وحتى بالعناصر الهندو-أوروبية للغات الحيثيين. وأخيرا. ومنذ العهد الإقطاعي في كردستان تأثرت اللغة الكردية باللغة التركية. وبذلك يمكننا القول ان اللغة الكردية لم

---

(١٥) براجع بصورة خاصة دراسة تلميذه (فيلجيفسكي) التي تحمل عنوان "مار والكوردولوجيا". ١٩٣٦. التي سنعود اليها فيما بعد.

تبرز خصائصها الهندو-أوروبية إلا بعد مراحل من التطور، وهي ليست تلك التي كانت في بداية الأمر، ولا تلك التي اكتملت لدى نشوئها. أما أسباب هذه التغيرات فهي "ليست الهجرات الخارجية الجماعية والتحولات الثورية للشرائح الاجتماعية التي نتجت عن المصادر الجديدة للحياة المادية، وعن التكنيك الجديد نوعيا والنظام الاجتماعي الجديد في نوعيته. وفي النتيجة ظهرت عملية جديدة ومعها أيديولوجية جديدة في تركيبة اللغة وبطبيعة الحال في تكنيكها الجديد".

أما فيما يتعلق بتسمية الكرد، فيعتقد (مار) أن تواردها مع الكلمة الأرمنية (كورت) ليس عرضيا. ولدى المقارنة بين (گوران) (التي تعني في اللغة الكردية طبقة خاصة من هذا الشعب) و (كور-تجاى) التي تعني في الأرمنية (قبيلة أرمنية) و (كور- دو) الجيورجي وقربها من (كار-د) (الجورجي والكاردوخي)، يشهد هذا التلاقي بين المصطلحات الاجتماعية والعرقية أن هذه الشعوب والقبائل، وفي الحقيقة جميع التشكيلات الاجتماعية والاقتصادية السابقة للبناء الحضاري، عرفت نظام الأمومة السائدة بوجه عام وبوجه خاص النظام الذي يجعل من ولادة الأطفال وتغذيتهم عملا منظما من قبل منظمة مختصة ويلعب فيها الذكور دورا شعائريا. ان الكلمة الكردية (هيفو /- هيفي Hevi) التي تعني المرأة، تعد، على ما يرى مار، من بقايا هذا التنظيم، ومعناها الأصلي هو (السرية) أو (امرأة الحرم) وقد تحولت من مفهومها الجماعي إلى مفهوم فردي.

وبمقارنة مصطلح (كور -ت) بالمصطلح الأرمني المشابه له (مارد - بيت) الذي يعني أيضا (المذكر)، يصل مار إلى النتيجة التالية:"ان مصطلح (مارد - بيت) مصطلح قبلي صرف، وهو كالمصطلح الأرمني (كورت) اسم لإحدى القبائل، وكان في السابق اسماً لتشكيلة اجتماعية - اقتصادية هي الكوريتون أو الكرد. وهذا هو الشأن بالنسبة لـ (مارد - بيت) التي تعني رئيس (بيت) قبيلة الماردين، وهي مشابهة في تركيبها لاسم (الميديين) نظرا إلى أن تسميته الميديين (مادا) مع ألف طويلة تعود إلى نموذج (مارد). وهكذا فان اسم (الميديين) في الأرمنية هو بالضبط (مار) الذي يشكل العنصر الأول للاسم القبلي للميديين المكون من (DĂM - D \MAD - DA).

ومن العجيب أن نرى الباحثين مينورسكي ومار يتوصلان إلى نتائج متشابهة تقريبا رغم تحركهما من اتجاهات مختلفة، فعلى الأقل يرى كلا الباحثين دور الميديين في التكوين العرقي للكرد أمراً مؤكداً. وفضلا عن هذا فقد لاحظ مار في دراساته للكالديين وللغة المجموعة الثالثة (غير الإيرانية) وجود صلات جد وثيقة بين الكرد والميديين في الوثائق الهخا منشية، وقد بدا له الكرد في جوانب كثيرة بمثابة أحفاد مباشرين للميدين. ومع ذلك فان المصطلح العرقي (كرمانجي) الذي يعد أساسا لفرضية (مينورسكي) القيمة، لم تفسر بطريقة مماثلة من قبل (مار)، فهو يقربه تارة من التسمية الأرمنية (هارمين - كارمينتس - كارمينج - كرمانجي)، ويعتقد تارة أخرى بوجوده في السومرية[١٦].

وخلاصة القول أننا إزاء أصل الكرد أمام نظريتين. إحداهما تعتبرهم من أصول إيرانية (هندو-أوروبية) وقد ارتحلوا في القرن السابع ق.م من منطقة بحيرة (أوروميه) صوب منطقة (بوهتان)، والأخرى تقول انهم شعب أصيل مع وجود صلة قرابة بينهم وبين الشعوب الآسيوية القديمة الأخرى كالكالديين والجورجيين والأرمن، وكانوا يتكلمون سابقا بلغتهم، ثم استبدلوا بها لغة إيرانية خاصة.

وهكذا نلاحظ أن النظريتين لا تختلفان فيما بينهما في جميع الأمور. فمن جهة يقبل مينورسكي احتمال تأثير الآسيويين الاصلاء على الكرد عندما يذكر في استنتاجه المشار إليه أعلاه: "أن وجود حرفيْ (ر) وحرفيْ (ل) قاسم مشترك بين الأرمنية والكردية ويعود ذلك إلى لغة أصلية قديمة[١٧]. ويبقى أن نذكر الزيادة من الحروف في نهاية الكلمة في صيغة الجمع في (تي TE) (كيلشيت KELESET) أي قطاع الطرق، الموجود في لهجة الكرد الشمالية. أي في المناطق التي تفترض وجود آثار للحديث باللغة الماردية فيها. أما في

---

[١٦] المؤلفات المختارة (باللغة الروسية). الجزء الخامس. ص ٢٠٦.

[١٧] فيما يتعلق بهذه اللغة الأصلية القديمة. من المفيد أن نورد مثالاً لا يلتقي فيه المورفولوجي الكردي مع مثيله في اللغة الجورجية في اللغة الجورجية التي كانت منتشرة في الألف الثاني ق.م. في الجزء الشمالي الغربي من بلاد ما بين النهرين (ميزو بوتاميا) وفي سوريا (راجع محادثة البروفيسور فردريك ليبزغ. أعمال المؤتمر. ص ١٣٠. كذلك دراستنا في الأتنوكرافيا (باللغة الجورجية).

المناطق الجنوبية فيجهلون التكلم بهذه اللغة القديمة، لذلك كان من المشوق أن نجد أثراً لإقامة جزء من السيتيين بين المانيين أجداد الماردين".

وبالرغم من أن مار تمسك بوجهة نظره التي تقول بأصالة الكرد، إلا أن ذلك لم يمنعه من القول بانتسابهم للماديين والاعتراف بأن السلالة الجافيتية في هذا الشعب أقل وضوحا من الجانب الهندو-أوروبي الذي يبدو فيهم على أحسن ما يكون.

ومن الناحية التاريخية لا تتناقض النظريتان بالضرورة. فقد ظهر الكرد على جوانب الروافد اليسرى لنهر دجلة حوالي القرن السادس ق.م. وبذلك فقد تجاوروا خلال حقبة طويلة من الزمن مع الكاردوخيين الذين استشهد باسمهم زينفون حوالي السنة ٤٠٠ - ٤٠١ ق.م. والذي لم يتركوا هذه المنطقة، على ما يرى (ليهمان-هوبت) وينزحوا صوب جورجيا - ايبرى إلا بعد اسكندر الأكبر وربما بعد ذلك الزمن أيضا بمدة طويلة، أي خلال القرن الأول قبل الميلاد. وتمثل تلك الفترة حقبة زمنية مهمة استطاع خلالها الكيروتوئيون والكاردوخيون، وهما قبيلتان جبليتان متجاورتان، ايجاد صلات فيما بينهم والتأثير على الجهات المحيطة بهم. ونورد في هذا السياق مثالا قريباً منا ذلك مثال النسطوريين الجبليين الذين اندمجوا في جوانب كثيرة من حياتهم مع جيرانهم الكرد بعد أن تركوا سهول الموصل وتوجهوا إلى الجبال في أعالي الزاب الكبير. ان الأغاني والأقاصيص الكردية منتشرة بين أولئك النساطرة انتشارها بين الكرد أنفسهم. وتوجد حاليا عشائر كردية كانت تدين فيما مضى بالمسيحية، وكانت المترادفات اللغوية تستعار فيما بين الكرد والنساطرة بصورة متقابلة، وهناك كتابات كثيرة مدونة بلغتيْ الطرفين.

وبدلا من أن نأسف بسبب الاختلاف في الرأي حول أصل الكرد، نتمنى على العكس أن يستمر كل في نطاق اختصاصه في جمع وتحليل الوقائع التاريخية والاجتماعية واللغوية، إذ يكون من المفيد أن نتعمق في دراسة مسألة نظام سيادة الأمهات. فنحن نعرف بوجه عام أن شعوب آسيا الصغرى يمكن تصنيفها بوجود هذا النظام فيها وممارسة شرب الخمر بإفراط في الأعياد الخاصة بآلهتها في حياة الناس الدينية وفي طريقة العد بالأضعاف. وفي تحليله لمصطلح (ذكر) يبين لنا (مار) الطريقة المتبعة في نظام سيادة الأم. ونعتقد أنه ما تزال

توجد في بعض القبائل الكردية على الأقل عادة تسمية الأطفال باسم عائلة الأم، وهي عادة تعد من البقايا التي تستوجب الدراسة من قريب. وكذلك الأمر بالنسبة إلى العد بالأضعاف الذي ما تزال آثاره باقية بين الكرد، كما أثبت ذلك (فيلجيفسكي) في دراسته المنشورة بهذا الصدد[18]، وكذلك الأمر أيضا بالنسبة إلى عادة شرب الخمر بإفراط في المناسبات الدينية التي ما تزال تنسب (وان كانت بصورة أخف كثيرا) إلى الكرد اليزديين والكرد القزلباش في منطقة درسيم. ان هذه الآثار جديرة بأن تستلفت انتباهنا. فإذا ما توصلنا إلى التأكد منها وجمع وثائق ثابتة بشأنها، فان النظرية التي تقول بأصالة الكرد تخرج قوية بمفردها، وهي تعتبر كذلك أيضا إذا ما استطاعت أن تثبت لنا في مجال الفونيتيك أو المورفولوجي أو في مفردات اللغة الكردية أشياء غير إيرانية في هذه اللغة. ومن جانبنا فقد حاولنا بكل تواضع أن نعبر عن آرائنا في هذا الخصوص ونخاطر بعرض الاشتقاقات التي تقدم لنا مقارنات كردية[19].

خامسا - رأي الكرد أنفسهم حول أصلهم:

نحن نعرف الآن النقاط الرئيسية في الجدل الدائر بين المستشرقين في القول بالأصل الهندو-أوروبي للكرد أو خلاف ذلك. أما ما يقوله الكرد أنفسهم بهذا الشأن فيتبين لنا عند مطالعتنا لكتاب (شرفنامه) وهو أهم مؤلف تاريخي كردي، وقد ألفه باللغة الفارسية الأمير شرف خان البدليسي عام ١٥٩٦. ويشير هذا المؤلف في مقدمة كتابه إلى أسطورة الطاغية (زوهاك - ضحاك) الذي حل محل جمشيد في التربع على عرش البيشداديين ليكون الملك الخامس في هذه السلالة الملكية الإيرانية. كان (زوهاك) هذا مصابا بمرض غريب، فقد

[18] في رواية لمجموعته أجد إشارة إلى أن بعض القبائل الكردية لا تعد إلا إلى (٢٠). أما (٣٠) فيعبر عنه بـ ٢٠+١٠ وبالنسبة إلى (٤٠) فيعبر عنه بـ ٢٠ مرتين. وبالنسبة إلى (١٠٠) فيعبر عنه بـ ٢٠ خمس مرات وبالنسبة إلى (١٠٠٠) فيعبر عنه بـ ١٠٠ عشر مرات.يلاحظه ان العدد بالأضعاف لايزال سارياً في اللغة الفرنسية فيعبر عن (٧٠)ب(٦٠+١٠)و ب(٨٠) بأربع عشرونات وهكذا- المترجم.

[19] ملاحظات حول [illegible] هل يعتبر الكرد إيرانيين؟ في دراسات كردية [illegible]

نبتت على كلتا كتفيه زائدة غريبة في شكل أفعى ولم يستطع أمهر أطباء عصره شفاءه، فنصحه إبليس باستعمال مرهم مركب من مخ الشباب ليخفف من حدة آلامه. وهكذا كان الطاغية يأمر بذبح شابين كل يوم لهذا الغرض، ولكن الجلاد الذي عهد إليه بتنفيذ العملية يوميا كان رجلا رؤوفا[٢٠]، ولذلك فبدلاً من ذبح الشابين معا كان يكتفي بذبح أحدهما ويترك الثاني، مستعيضا عن مخه بمخ خروف، فكان الشباب الناجون من الذبح يهربون سراً إلى مناطق جبلية نائية لا يمكن الوصول إليها بسهولة. و بمرور الزمن تزايد عدد الفارين وتكاثروا حتى كونوا شعباً هم أسلاف الشعب الكردي الذين امتهنوا الزراعة وتربية المواشي. وقد اشتهر الكرد ببسالتهم وشجاعتهم حتى أن بعض المؤلفين العرب القدماء يتحدثون عنهم على أنهم طائفة من الجن!

وفي هذا الخصوص كتب السيد فرج الله زكي الناشر الكردي للطبعة الجديدة من شرفنامه الصادرة في القاهرة قبل عشر سنوات تقريبا (حاليا سبعون عاما تقريبا - المترجم) في تعليقه على هذه المسألة التي أشار إليها الكتاب المسلمون القدامى، قائلا: "ليس للكرد أي صلة بالجن، وإذا رجعنا إلى التاريخ تبين لنا أن هناك كثيرا من أبناء الكرد بين الملوك العادلين، نذكر منهم على سبيل المثال السلطان صلاح الدين، كما أن هناك بينهم علماء أجلاء ورجال تقوى يصعب تعدادهم لطول قائمة أسمائهم. أما بالنسبة لأصل الكرد، فنتحدث عنهم في مقدمة الكتاب ". وفي المقدمة الخاصة بالناشرين يأخذ كردي آخر هو السيد محمد على عوني مهمة إثبات الأصل الهندو-أوروبي لشعبه على عاتقه مستندا على أدلة وبراهين لغوية. ويتولى في الموضوع نفسه مؤرخ كردي آخر المهمة عينها في كتابه

---

[٢٠] في رواية أخرى كان هناك شخصان مكلفان بهذا العمل الرهيب يدعيان (كرمائيل) و (أرمائيل). فهل هذا مجرد مصادفة لأن الاسم الأول يجعلنا نفكر في تركيب كلمة (كرمانجي)؟ ان عنصري (كور KUR) و (ما MA) يلتقيان فيه معا. ويقرب من هذه الحالة الكردية ما أشار إليه (بوزانياس) من أنه في ضحايا (ديوجنيس) في (بييوتي) في الرواية الإغريقية القديمة/المترجم -- كان يعوض عن التضحية بالأطفال. بالجداء. وفي الرموز الدينية لآسيا القديمة نرى أحيانا نظائر لهذه الأسطورة حيث يحل محل الضحية الإنسانية خروف أو جدي.

(خونجه ی به هار) أي (براعم الربيع) المكرس للتاريخ الكردي(هو السيد حسين حزني موكرياني - المترجم).

ومن المفيد أيضا أن نشير بخصوص (زوهاك)، على ما يذكر (موريه) في كتابه (الرحلة الثانية - ١٨١٢) أن الناس كانوا يحتفلون في ٣١ من آب من كل سنة بالعيد في دماوند بمناسبة تحرير الفرس من الطاغية، وكان هذا العيد يحمل اسم (عيد الكرد). هناك أسطورة أخرى تقول: أن الكرد هم أبناء الجواري اللائى أسرهن سليمان والشيطان جاساد. وتستند هذه الأسطورة على تشابه جذر الفعل العربي (كرد) بمعنى (اصطاد) مع كلمة (كرد). وفي مجال معرفة أصول الكلمات يربط الرأي العام الشعبي على الأغلب كلمة (كُرد) بكلمة (گرد) التي تعني في اللغة الفارسية (البطل). وهناك أسطورة أرمنية تقول ان الكرد لم يظهروا إلا في القرن العاشر.

"بعد تزعزع سيطرة العرب في القرن العاشر وازدياد عدد الأمراء في مختلف البلدان، هاجر السيتيون الذين كانوا يقطنون في الجانب الآخر من بحر قزوين والذين كانوا يدعون بالأتراك، هاجروا بصورة جماعية إلى فارس وميديا وانتشروا فيهما وغيروا معتقدهم وصاروا فرسا وميديين دينا ولغة. وقد تجمع العديد منهم حول أمراء ميديين وغزوا أرمينيا في المناطق المحاذية للكاردوخ والموك واستولوا عليها ثم استقروا فيها وامتزج بهم الكثير من المسيحيين بالتدريج واعتنقوا دينهم[٢١]".

---

[٢١] أورده (مار) في بحثه عن (الجلبي) الذي سبق أن أشرنا إليه.

سادسا - الدلائل المستقاة من علم السلالات البشرية (الانثروبولوجيا):

إذا كان العرض الذي قدمناه في الميادين التاريخية واللغوية تشوبه أكثر من نقطة غموض ولا يسمح لنا بشرح بعض الأمور المفترضة حول اصل الشعب الكردي، فان علم السلالات البشرية (الانثروبولوجيا) لا يسعفنا بدوره بفائدة كبيرة. في الحقيقة ان محاولة إجراء تصنيف بشري بشأن الكرد لم تباشر إلا حديثا[٢٢]. ويجري بعض الباحثين تمييزا بين الكرد الذي يسكنون شرقي كردستان والذين يقطنون غربها. ان الكرد الشرقيين الذين صوروا من قبل (ستولز) يتميزون بسمرة بشرتهم وشكل جمجمتهم من نوع (BRACHYCEPHALES) ويشبهون في ذلك الفرس الذين يجاورونهم، وهذا بخلاف الكرد الغربيين الذين درسهم بعناية (فون لوسشان) من وجهة النظر الأنثروبولوجية في مناطق كومازين قرب (قره قوج) في نمروداغ وفي زينجيرلي، وقد بين أن بينهم نسبة كبيرة من هم شقر اللون والشعر وشكل جمجمتهم من نوع (DOLICHOCEPHALES)، ثم يتوصل إلى الاستنتاج التالي: "كان الكرد في الأصل شعبا أشقر اللون أزرق العيون ونوع جمجمتهم (DOLICHOCEPHALES)". ويفسر كون بعضهم في بعض المناطق سمر البشرة ونوع جمجمتهم (BRACHYCEPHALES) بتزاوجهم مع الترك والأرمن والفرس"[٢٣].

ويفترض (فون لوسشاك) أن الكرد الأولين (أي الشقر) نزحوا من شمالي أوروبا دون أن يدعي بالضرورة كونهم من العناصر الجرمانية. وينتج هذا الافتراض نتيجة يعتبرها أكيدة وتتلخص في "ان أحدا، باستثناء سكان شمالي أوروبا، لم تستطع التحقق حتى الآن من مكان السلالة التي هي من نوع (Dolichocephales) ولون أبنائها أشقر وعيونهم زرق". ان نسبة الشقر تتحدد، حسب ملاحظات فون لوسشان: كما يلي في قره قوج (البحر

---

(٢٢) باسشماكوف: الشعوب القاطنة حول البحر الأسود في وضعهم الراهن. في وثائق الجمعية الاتنوكرا فيه في باريس. ١٩٣٠.

(٢٣) MILLINGEN في "حياة بدائية بين الكرد" - باللغة الإنكليزية. ١٨٧٠.

الأسود) ٧١ فرداً من مجموع ١١٥ أي ٢٦٪ في نمرود داغ (بحيرة وان) ١٥ من أصل ٢٦ أي بنسبة ٥٨٪، في زينجيرلي ٣١٪ في من مجموع ٨٠ أي بنسبة ٣٩ في المائة.

ويحتمل ان هذا الطراز من الإنسان الشمالي قد جاء إلى آسيا القديمة دون أن يتكلم اللغة الكردية، وأن هذه اللغة فرضت عليه نتيجة اختلاطه بالعنصر الإيراني بعد إخضاعه له.

وعلى كل حال أن هذه المسألة التي وضعت حديثا في هذه الصيغة، بقيت غامضة ويعتقد باسشماكوف أنها تتحدد عندما تتوضح المسائل الأساسية التي تخص السومريين، وهل هم من نوع (Dolichocephale) لاحتمال كونهم الصورة الأولية للكرد[٢٤]. ويمكننا أن نضيف لملاحظات هذا العالم الأنثروبولوجي بعض اسطر من كتاب (سون) "رحلة في بلاد ما بين النهرين وكردستان" (باللغة الإنكليزية) لتعرفه خلال رحلته على بعض العشائر الكردية ومعايشته إياها.

"إذا نظرنا إلى الكردي في تكوينه الجسدي فلا شك في أننا نجد أنفسنا أمام نموذج متكامل. ان الكرد الشماليين رجال نحاف طوال القامة (قلما تجد البدين المفرط البدانة بين الكرد)، أنوفهم طويلة إلا أنها معقوفة قليلا في الغالب. أفواههم صغيرة ووجوههم بيضوية الشكل ومستطيلة. ويربي الرجال منهم عادة شوارب طويلة ويحلقون ذقونهم بلا استثناء. ويغلب فيهم اللون الأشقر. وإذا وضعنا طفلا كرديا من هذا النوع بين مجموعة من الأطفال الإنكليز، لم يمكننا التمييز بينه وبينهم لأن له بشرة بيضاء شأنهم". أما في الجنوب فتكون الصورة أكثر توسعا والمشية أكثر ثقلا. وبين ٤٠ رجلا من العشائر الجنوبية اختيروا

سبق أن أشرنا إلى أن (مار) كان يرى أيضا إمكانية وجود قرب بين السومريين والكرد. لذلك يمكننا افتراض أن الكرد من نوع (DOLICHO) يمثلون عناصر نازحة امتزجت مع السكان الأصليين للأناضول. ويمكن أن تكون هذه العناصر نزحت في وقت متأخر وقد أتت من أواسط القفقاس أو الجانب الآخر من البحر الأسود. ونعرف بوجه خاص أن بقايا الكوتيين في القرم بقوا حتى القرن السادس عشر. ان ورود غزاة من القرم إلى الأناضول يعتبر أمرا ثابتاً تاريخيا. ونعلم أن الكرد تحركوا في هذه الحقبة التاريخية من الشرق إلى الغرب. (موسزينيسكي) في بحثه باللغة البولونية "بحوث عن أصل الثقافة الأولية للشعوب السلافية". ١٩٥٢

عشوائياً، كان تسعة منهم أقل من ستة أقدام طولاً رغم أن معدل الطول كان بين بعض العشائر خمسة أقدام وستة انجات. خطواتهم واسعة ولكنها بطيئة، وتحملهم المشاق في العمل كبير، والجبليون منهم ذو قوام مستقيم انهم قوم معتزون بأنفسهم، ويبدو من أشكالهم والهيبة البادية عليهم أنهم يرون في أنفسهم ميدي العصر، وأنهم قادرون على أن يغدوا من جديد، شرط اتحادهم فيما بينهم، أمة قوية مقاتلة تستطيع بفضل خصائصها أن تقبض بيديها على زمام الأقوام الأخرى التي تعيش بينهم. لقد رأيت بينهم العديد من الرجال الذين يحملون وجوها غامضة، الشعر رائق ومسترسل، والشارب طويل نزل، والبشرة صافية. كل ذلك يقدم حجة مقنعة، إذا أمكن اعتبار الوجه معيارا، على أن الانكلو-سكسون والأكراد يرجعون إلى أصل واحد، حتى وان لم يكن هناك دليل آخر مستنبط من لغتهم[٢٥]".

ولكي نفهم إلى أي مدى تختلف التقديرات الأنثروبولوجية بالنسبة للشعب نفسه، إليكم هذا التحقيق الذي حاول أن يفهمنا أن الكرد أقرب إلى الساميين: "لقد برهن بوضوح تام الدكتور هامي الذي نشر على وجه المقارنة مظهراً جانبيا لأقدم ملك كلداني هو أورنينا وآخر لكردي من أعالي بلاد النهرين يدعي (بوروكي) [هيزي ومسلة فوتور]. وبطبيعة الحال، وبالرغم من غرابة هذا التشابه، لا يمكن اعتباره أمرا ثابتا. ان ما يجب عمله حتى نستطيع تكوين فكرة قريبة حول الخصائص الأنثروبولوجية للشعب الكردي، هو إجراء قياسات عديدة بين أبناء العشائر الكردية. هذا الدليل غير موجود حاليا. والشيء الوحيد الذي يمكن التأكد منه في الوقت الحاضر هو طابع الامتزاج المتنوع الذي يتميز به حاليا العنصر الكردي.

---

(٢٥) كما يلاحظ (الآن) في بحثه المشار إليه آنفا "كان الناس من العنصر الشمالي" الذين اكتسحوا العالم القديم من الاطلنتيك إلى همالايا. استولوا على آسيا الغربية. ولكنهم لم يتمكنوا من البقاء في مناطق شاسعة. كما هو الحال في شمالي أفريقيا. فقد سيطروا على الممالك القديمة للحيثيين والأوراتيين وعلى أرمينيا فيما بعد. ولكن نماذجهم الجسمية بقيت في الوقت الحاضر بين الطبقات الكردية العليا. وذلك في القرى التركية وبين الأوسيت بالقرب من مضيق (داريال)".

"ويكفي إجراء مقارنة بين صور لأكراد عشيرة (ملي) (من الطراز العربي) وآخرين من عشيرة (گردي) [من الطراز المكري] وأكراد من شمدينان (من الطراز النسطوري والهكاري)، مما هي في الصفحات (٣١٢ و٣٤٣ و٣٧٣ و٤٢٥ -٤٢٥) من كتاب (مارك سايكس)[٢٦] أو بين النماذج الأخرى الكرد الجنوب التي أوردها (لينج) في الجزء الثاني من كتابه (أرمينيا) (الصورة رقم ٩ من الطراز التركماني) (والصورة رقم ١١٤) وهي نموذج بيّن تماما الكرد (من طراز واضح)، حتى نتوصل إلى أن كل فكرة تحاول إيجاد قاسم مشترك بين النماذج الكردية إنما هي من قبيل خداع النفس[٢٧]".

ان مؤلف هذا الكتاب الذي سنحت له الفرصة ليرى العديد من مختلف الأكراد خلال إقامته لمدة ثلاث سنوات في أورميه، يميل بدوره لهذه الفكرة.

وفضلا عما سبق ان الأنثروبولوجي (بيتار) يذكر في الصفحة ٣٨٨ من كتابه المشار إليه آنفا أنه "لا يعرف علم الانثروبولوجيا إلا قليلا عن الخصائص السوماتولوجية[٢٨] لشعوب آسيا. أما بالنسبة للشعوب التي كونت التاريخ القديم، فيجب القول أننا لا نعرف عنها إلا أقل النذر اليسير. وفي كل لحظة يطرح أمامنا السؤال الذي يستفسر عن العرق الذي ينتمي إليه الناس الذين شيدوا بابل ونينوى، ولأي مجموعة عرقية ينتمي كل من (سرجون) أو (آشور) أو (سيروس). ويمكننا القول ان الفرس الحاليين والكرد والأرمن وحتى بعض الترك هم الأحفاد المتبقون لشعوب هذه الممالك القديمة. ولكن من ذا يثبت لنا أن هؤلاء الأحفاد كانوا يسكنون على الدوام الأرض التي شيد عليها أجدادهم الأولون تلكم الحضارات التي تحير الألباب؟".

في نطاق معارفنا الحالية على الأقل، إننا ملزمون في النتيجة بقبول وجهة نظر عامة ولكنها غامضة، ومشاركة (بيتار) رأيه الذي يقول فيه: "من بون-أوكسون[٢٩] حتى الخليج

---

[٢٦] The caliph 's last heritage

[٢٧] مينورسكي في بحثه عن الكرد في الانسكلوبيديا الإسلامية. ويلاحظ أن بعض الرحالة الأرمن في القرن التاسع عشر ذكروا أن رؤساء بعض العشائر الكردية ذكروا لهم سراً أنهم يرجعون إلى أصول أرمنية. وهذا لا يشمل الأرمن الذين يتحدثون باللغة الكردية ومازالوا يدينون للكنيسة الأرمينية، لأن هؤلاء لا يخفون أبداً انتماءهم الأرمني.

[٢٨] علم معرفة الأجناس البشرية – المترجم.

[٢٩] الاسم القديم للبحر الأسود – المترجم

الفارسي، أي من أعالي مجرى آراس ومنابع أنهار بلاد ما بين النهرين، إلى جبال بلاد فارس القديمة، ربما عاش في آسيا منذ عهد بالغ القدم، أناس رحل يتعايشون على الصيد ولهم خصائص عرقية محددة، طوال القامة من نوع BRACHYCEPHALIS، لون عيونهم وشعرهم غامق، أنوفهم طويلة وكبيرة في الغالب، ومستقيمة أو كمناقير العقبان، في نهاياتها انحناء في أغلب الأحيان، وتبدو صورتهم متميزة، حتى أن المنحوتات القديمة عبرت عنها في الأغلب. تحمل سلالات هؤلاء فيما بعد، وبعد حقبة تاريخية طويلة أسماء مختلفة. ثم ان هؤلاء يدخلون فيما بينهم حروباً طاحنة. ولإسباغ الصفة الشرعية على أعمالهم هذه يتبادلون أحيانا التهم فيما بينهم بكون بعضهم أجانب عن بعض. ولكن لو نظر إليهم من قريب لظهرت في ملامح قسماتهم الأساسية علامة تكشف عن الدم المشترك الذي يجمع بينهم[٣٠]".

ان هناك اختلافا في الرأي بشأن أصل الشعب الكردي[٣١]، إذ يبقى الكثير مما ينبغي عمله حتى نتوصل إلى نتائج مرضية أكثر من تلك التي عرضنا خلاصتها لحد الآن. ان القليل الذي قلناه بهذا الخصوص، محاولين تجنب المناقشات الكثيرة ذات الصبغة الفنية التي تهم المختصين بهذا الموضع، يثبت لنا مع ذلك ان المختصين بالدارسات الكردية (الكردولوج) يعملون في مجال جد رحب، فاتحين الباب أمام أبعاد تاريخية وعرقية غير معروفة وشيقة للغاية. وسنحاول في الفصول القادمة أن نفلح في هذا المجال بعرضه تدريجيا في صوره العديدة.

---

[٣٠] لم يكن البروفيسور (بيتار) قد تعرف بعد على الكرد الشقر: فقدمت إليه في العام ١٩٣٥ في بلجيكا أحد المشتركين في مؤتمر الاستشراق هو الأمير ثريا بد رخان.

[٣١] هناك مؤلف من أصل كردي، منتقد بالتأكيد من قبل الآخرين يزعم على سبيل المثال "أن الكرد ينتمون للعرق نفسه الذي ينتمي إليه الترك". (الدكتور شكري محمد صبكان: المسألة الكردية، باريس ١٩٣٣: صـ ٣٦). وهناك آخر عربي يدعي فارس حماده وصف الكرد في رسالة وجهها إلى جريدة (إيران) الصادرة في طهران بأنهم ساميون. ويذكر تأييداً لقوله هذا مقطعاً من كتاب المسعودي..الخ. وسوف نرى بصدد الموضوع نفسه في الفصل الحادي عشر من هذا الكتاب ما يقوله (مانزل) حول أنثروبولوجية اليزديين الذين يعتبرون كرداً. ونضيف أيضا أن تحقيقا حديثا أجرى بصورة علمية ودقيقة من قبل عالم هولندي هو (كابيرس) يظهر أن بين الكرد مزيجا من عناصر أخرى، وهذا ليس بمستغرب بسبب التزاوج مع الآخرين ولسبب آخر أيضا هو أن كرد الشام كانوا موضع دراسة (كايرسل). ومع ذلك فانه لا يتردد في الإقرار بأن الكرد يشكلون عنصراً متميزاً عن الآخرين (كابيرس. مساهمة في أنثروبولوجيا الشرق الأدنى) (ج ٥. الكرد والجركس والفرس) أشار إليه (روندو) في دراسته المشار إليه أعلاه (صـ ٢٥٥، قبائل جبلية... صـ ٢٩).

الفصل الثاني

كردستان:

مفهومها الاصطلاحي وأهميتها الحقيقية

أولا - اسم كردستان في تاريخ الشرق:

تعني لفظة (كردستان) بلاد الكرد. وهي ليست دولة مستقلة محددة الحدود سياسيا يعيش ضمنها شعب متجانس، ولكن أكثريته، على الأقل، تنتمي إلى العرق نفسه. ولم يظهر هذا الاسم إلا في القرن الثاني عشر، خلال حكم السلطان سنجر، آخر كبار ملوك السلاجقة، الذي أنشأ هذا الإقليم واتخذ من القلعة المنيعة (بهار) التي تقع شمالي غربي همدان، مركزاً له. وكان هذا الإقليم يضم ولايات همدان ودينور وكرمنشاه في شرقي سلسلة جبال زاكروس، وولايات شهر زور وسنجار غربي هذه السلسلة. وحتى القرن الثاني عشر لم تكن تعرف هذه المقاطعات إلا تحت عنوان (جبل الجزيرة) أو (ديار بكر). وأول مؤرخ ذكر اسم (كردستان) هو حمد الله ابن المستوفي القزويني (القرن الرابع عشر) في كتابه (نزهة القلوب) عام ٧٤٠ من الهجرة. وكان هذا الإقليم يجاور شرقا العراق العجمي وشمالاً أذربيجان وغربا العراق العربي وجنوبا خوزستان، وكان يضم ١٦ قضاء إداريا وهي (١) (آلاني) مع مدينة تحمل الاسم نفسه ولها بعض الأهمية ومناخها معتدل ومناسبة للصيد. (٢) (اليشتر) التي كانت تضم سابقا (آتشكده) أي معبداً للزردشتيين عبدة النار يسمى (أروخش) أو (أردخش). (٣) (بهار) المشار إليه أعلاه. (٤) (خفيتان): وهي قلعة حصينة على نهر الزاب مع قصبات أخرى أصغر منها من حواليها. (٥) دربند تاج خاتون: وهي مدينة صغيرة. (٦) دربند زينكي: مناخها معتدل ولكن معظم سكانها من قطاع الطرق. (٧) دزبيل (٨) دينور: وهي مدينة كبيرة معروفة بعنبها. (٩) سلطان آباد جمجمال في سفوح جبل بيستون شيدها السلطان محمد خدا بنده المعروف بأولجاتو في القرن الرابع عشر. (١٠) شهرزور: وتقع في سهل خصب، وكان مؤسسها على ما يذكر ياقوت الحموي شخصاً يدعى زور بن ضحاك. (١١) كرمنشاه: التي كانت تحمل سابقا اسم (كرميسين). (١٢) كرند و خوشان وهما قريتان. (١٣) كنكاور: وتسمى أيضا قصر اللصوص (أو حصن قطاع الطرق). (١٤) ما هيدشت أو ما يدشت التي تضم خمسين مجمعا سكنيا. (١٥) هرسين وهي حصن قوي. (١٦) وستام وهي قرية كبيرة.

وعندما نقارن بين العديد من المصادر الشرقية نتوصل إلى استنتاج أن كردستان فارس (ايران)، وبضمنها لرستان، كانت تشكل حتى القرن الثالث عشر جزءاً من الإقليم الذي كان العرب يطلقون عليه اسم (الجبل)[1]. إما بالنسبة للقسم الآخر من كردستان الذي يغدو فيما بعد كردستان تركيا وكردستان العراق (بلاد ما بين النهرين) فكان يدخل ضمن ولاية الجزيرة، أو بمعنى أكثر تحديدا، ديار بكر. وعند الغزو المغولي للمنطقة كانت كردستان فارس تشمل المناطق الجبلية من زاكروس. وقد فقدت عاصمتها الإقليمية (بهار) أهميتها خلال حكم خلفاء جنكيز خان واحتلت مكانتها (سلطان آباد جمجمال) التي صارت مقراً لحكام كردستان الفارسية. وكانت مراكز محلية كردية عديدة تمتع بنوع من الاستقلال. ولكن خلال القرن الخامس عشر، أي خلال الحكم الصفوي لإيران، فصلوا عنها همدان ولرستان. وبينما احتل العثمانيون أراضي الإقليم الواقعة غربي جبال زاكروس، صار اسم كردستان يطلق في بلاد فارس على إقليم أردلان مع مركزه في (سنه) او(سنندج). أما كردستان تركيا التي لم تظهر إلا مؤخراً في نهاية القرن السابع عشر، فان الجغرافياً الإدارية العثمانية لم تكن تعترف تحت اسم ولاية كردستان إلا بثلاثة ألوية (محافظات) هي (درسيم) و(موش) و(ديار بكر). والجمهورية التركية الحالية تتجاهل اسم الكرد وكردستانهم وتطلق عليهم اسم "الأتراك الجبليين"!

---

[1] في الصفحة ١٣٨ من "لمحة من تاريخ ايران وجغرافيتها" للبروفيسور (بارتولد) "باللغة الروسية"، نقرأ: ان الجغرافيين العرب كانوا يدخلون أيضا ضمن حدود المقاطعة الجبلية لإقليم الجبال التي كانت ضمنها رى وأصفهان وهمدان ومدن أخرى، الجبال التي تقع شمالي همدان حتى حدود أذربيجان، وكانت غالبية سكان هذه الجبال من الكرد، كما هو الوضع اليوم أيضا. ان الإقليم الواقع بين كرمنشاه وأذربيجان يسمى اليوم (أردلان) وأهم مدنها (سنه). وكانت دينور تعتبر المدينة الأساسية خلال القرون الوسطى. وتقع آثار دينور المهدمة على جانب النهير الذي ينصب في نهر (جاماس) قرب جبل بيستون ويطلق عليه لحد الآن (آب دينور) أي ماء دينور. وكانت المسافة بين دينور وشهرزور أربعة أيام مشيا على الأقدام. ويقع شهرزور جنوبي شرقي مدينة (السليمانية) الحالية، غير بعيد عن الحدود العراقية-الإيرانية . وكان الفرس يطلقون على شهرزور اسما آخر هو (تيمراه) أي منتصف الطريق لأنه كان يقع على منتصف الطريق بين عاصمتهم القديمة (المدائن) ومركز الرئيسي لمعبد عبدة النار (شين) الواقع في القسم الجنوبي من أذربيجان حيث نجد اليوم آثار (تخت سليمان). وفي عهد الساسانيين كانت أردلان تشكل مع نهاوند إقليم (ماه).

إن الأقاليم أو الولايات التي تحمل اسم (كردستان) سواء في إيران أو في تركيا لا تمثل مطلقا المنطقة الشاسعة التي يعيش فيها الشعب الكردي.. لذلك إذا أردنا التعرف على البلاد التي يعيش فيها الكرد، فلا يصح الاستناد إلى الاسم الذي يحمل كلمة كردستان، لأنه اصطلاح يختلف مدلوله من حيث الزمان والشمول، بل يجب البحث عن تحديد آخر ولا يمكننا إيجاده إلا بالرجوع إلى دراسة الجغرافيا الطبيعية لآسيا القديمة، مع الأخذ بنظر الاعتبار المبدأ الثابت القائل أن الكرد قوم جبليون بجبلتهم.

ثانيا - الجغرافية الطبيعية لكردستان:

لكي نفهم جيدا جغرافية هذا الجزء من آسيا، ينصحنا (مينورسكي) بالانطلاق من نقطتين أساسيتين هما جبال آرارات[٢] وخليج الاسكندرونة. في جنوبي آرارات وعلى مسافة تزيد عن ألفي كيلو متر تمتد سلسلة غير منقطعة من الجبال وتتجه هذه السلسلة ابتداء من الشمال إلى الجنوب مباشرة، ثم تتشعب وتنحرف إلى الجنوب الشرقي صوب الخليج الفارسي.

يشكل آرارات مركز منطقة جبلية واسعة ويتخذ شكلا لوزيا قممه الأربعة هي (كوري) في الشمال و(جوله ميرك) في الجنوب و(شوشه) في الشرق و(باى بورت) في الغرب. وباستثناء بعض العوارض المحلية (انخفاض عند نهر آراس مثلا)، من المحال أن لا نميز في هذه السلاسل التي تكون هذه الكتلة المتلاحمة اتجاهين أساسيين. هذا المنحنيان يتواردان تقريبا مع المحور اللوزي. ويشكّل القفقاس الصغير وقمم لازستان محورا متوازيا مع خط الاستواء، بينما الجبال التي تبدأ من (سورما) بالقرب من (كوري) نازلة حتى جوله ميرك ومارة بارارات، تحتل تدريجيا المحور الأول.

تبدو الجبال الواقعة بين آرارات وقمة (كيله شين) وكأنها تسند هضبة أرمينيا فوق بلاد فارس. فإذا ما قارننا التجمعين الذين تلتقي فيهما مياه أرمينيا من جهة، ومياه أذربيجان

---

[٢] مينورسكي: الكرد باللغة الروسية.

من جهة أخرى، رأينا مستوى بحيرة (وان) (١٦٥٠ متر) أعلى بكثير من مستوى بحيرة أورومية (١٢٢٠ متر). وفي النتيجة فان الجبال الكردية هي (كمحور يقطع المحور اللوزي عرضاً) في بحيرة أورومية، كما هو الأمر بالنسبة لسلاسل (البرز) بالقياس إلى بحر قزوين. ولكن هذه المعادلات القياسية ليست متماثلة دوما. إن اختلاف المستوى في الحالة الأولى يبلغ ١١٠٠ متر (قزوين - السهول الإيرانية)، بينما هو حوالي ٤٥٠ مترا في الحالة الثانية (وان - ورومية). ومهما كان الأمر، فان هذه السلسلة في كردستان الجنوبية ليست إلا حاجزا لا يمكن اجتيازه عندما نحاول ذلك من جهة تركيا، فالقمم جد عالية وهي مغطاة بالثلوج في معظم فصول السنة[٣].

اذا، تشكل الجبال الكردية بين آرارات وجوله ميرك حدوداً لبلاد جد مرتفعة، وهي أرمينيا قياسا لمنطقة أكثر انخفاضاً منها وهي أذربيجان. وفي جنوبي جوله ميرك نجد على العكس سهول فارس التي تحملها الجبال الكردية وتقع فوق سهول آشور. ويتميز حوض بحيرة اوررميه بارتفاعاته الآتية: مياندواب ١٢٨٠ متر، ساوجبلاغ (مهاباد حاليا) ١٣٠٠ متر، أشنو (شنو) ١٤٠٠ متر، أورومية[٤] ١٢٢٠ متر، بحيرة اورومية ١٢٢٠ متر. والجبال التي تفصل حوض بحيرة وان وأورومية ليست لها تسمية مشتركة. وتعرف الجبال الممتدة إلى بلاد ما بين النهرين باسم (زاكروس) الذي يبدو أنه اسم يوناني يجهله الشرقيون.

والآن إذا رجعنا صوب الاسكندرونة تبين لنا بعد أن نقطع مسافة قليلة منها كيف تبدأ سلسلة الأنتي طوروس التي تشكل حداً لتوزيع المياه بين البحر الأسود وبلاد ما بين النهرين. فهذه السلسلة تتجه في مجموعها صوب الشمال الشرقي في فروع ثلاثة: طوروس الشمالي والأوسط والجنوبي الأرمني.

---

[٣] كتلة من الصخور البلورية ترتفع لتصل إلى مدى ٤٠٠ ٤ متر نتيجة ارتطامها بغيرها. وتهيمن كردستان على بلاد ما بين النهرين في انحدارات جبالها الوعرة وفي أشكالها الغربية ومواقعها البعيدة المنال، مع اختلاف متقارب في الارتفاع قريب من ثلاثة آلاف متر. كليرجه، تركيا، ص ١٦ "باللغة الفرنسية".

[٤] أبدل اسمها خلال العهد البهلوي بـ (رضائية) وعاد بعد الثورة الإسلامية إلى ما كان عليه. ويطلق عليها الكرد اسم (ورمي) - المترجم.

تنبع المصادر الأساسية لنهر الفرات من الوديان الواقعة بين تشعبات طوروس، وتتمثل هذه المنابع في نهرين: الأول (مرادجاي) ويبدأ تقريبا من سفوح آرارات، في وديان (آلاشكيرت)، والآخر (قره سو) أو الفرات بالقرب من أرضروم وفي سهول بينكول، بين هذين النهرين، تقع منابع نهر آراس الذي يجري شمالا، بينما يتجه كل من مرادجاى والفرات صوب الجنوب الغربي في البداية. وفي مكان ما يجري (مرادجاي) بالقرب من منابع دجلة، ولكنه لا ينجح في شق العقبة القليلة السمك التي تفصل بينهما، وبالقرب من خربوت يتخذ قراراه ثم يلتقي بـ (قره سو)، ويشكل النهران معا الفرات أهم شريان لآسيا القديمة، ويبلغ طوله ٢٦٧ كيلو متر. ويبدو أن الفرات كان يريد في البداية أن يصب في البحر الأبيض المتوسط في استمرار جريانه باتجاه الجنوب الغربي، ولكنه اصطدم بجبال طوروس التي إعترضة فاتجه نحو الشرق صوب الخليج.

وتبدأ السلسلة الثانية من الجبال من نقطة مسيرتها في جنوبي شرقي الاسكندرونة، وهي تعمل على تطويل جبال سوريا الشمالية. وتحمل هذه السلسلة تسمية طوروس رتتجه بوجه خاص نحو الشرق، وعندما تصل بحيرة (وان) يتجه أحد فروعها صوب الشمال، بينما يدور الثاني حول البحيرة في الجنوب. وفي الشرق يلتقي بالحدود الإيرانية بالقرب من (كوندور)، وفي شرقي بحيرة وان تفصل هذه السلسلة حوضها من أعالي مجرى الزاب الأعلى. ويتشعب الفرع الشرقي من طوروس من جديد باتجاه الجنوب ويلتقيان بقبضات جبارة حول حوض أعالي دجلة، مجتازين مسالك باتجاه الجنوب الشرقي. ويجتاز نهر دجلة مسافة أقصر بكثير من الفرات، قبل أن يصل إلى السهول، ويكون بالمقابل يستحق الاسم الذي أطلقه عليه الأقدمون[٥]، فيسقط كالنبال من أعلى القمم التي تغذي مجراه، وينتصب في الجانب

---

[٥] الكلمة البابلية (دكلة) تعني في الحقيقة الشاطئ العالي. لكن الاغريق كانوا يعتقدون أنها مشتقة من الكلمة الفارسية (تيكرا tigra) والتي تحورت إلى (تيك) أي الشاطئ.

الأيسر من دجلة جبل (الجودي) الذي رست عليه، على ما تذكر الروايات الشرقية، سفينة نوح[٦].

أما جبال جوله ميرك فانها أكثر ارتفاعا وهي تحيط بالمصب الشمالي لدجلة، نهر الزاب الأعلى (الذي لا يشكل جزءاً من المجرى الأعلى لدجلة، بل يصب في مجرها الأوسط). وقمم هذه الجبال، التي تستخدم كما ذكرنا آنفا، نموذجا في وصف الجبال التي ندرسها هنا، تصل إلى ارتفاع أربعة عشر ألف قدم (ويصل ارتفاع آرارات الكبير إلى ١٧ ٠٠٠ قدم).

وهكذا يتبن لنا الهيكل العام لهذه الجبال التي تبدأ من آرارات من جهة، وينتهي في الاسكندرونة من الجهة الأخرى. وكما رأينا، تهيمن هذه السلاسل من الشرق على حوض بحيرة أوروميه، وتشكل جنوبا المنحدرات التي تتوقف في نهايتها رحاب الصحاري السورية-العربية. وقبل أن نسترسل في دراسة سلاسل جبال زاكروس التي تطيل من إمدادات هذه الجبال صوب الجنوب والجنوب الشرقي، نتوقف هنيهة لعرض بعض المعلومات التي تسمح لنا بالتوجه بصورة أفضل في أعماق هذه الشبكة الجبلية المعقدة على النحو الذي نريده.

ثالثا – خصائص الهضبة الأرمينية:

في تحديدنا للهضاب الأرمينية نتخذ من بحيرة وان مركزا لها بوجه عام. فجنوبا تصل حدودها إلى الأطراف الشمالية للأرض السهلية لسوريا وبلاد ما بين النهرين، حيث تتقاطع

---

(٦) من المحتمل أن الرواية التوارتية استعارت قصة رسو السفينة على آرارات من الأسطورة الكلدانية التي تقول أنها توقفت فوق جبال (اورارتو)، بينما تقول الروايات المحلية من مسيحية وإسلامية ويزدية. انها رست على جبل (الجودي)، القمة الصخرية الوعرة من (نيقات) التي يمكن رؤيتها بوضوح من جبال أورارتو الشاهقة. ومن المنطقي أن يعتقد أن الطوفان قد استمر في السهل وقد فشلت السفينة في الرسو على سلسلة مرتفعة تقع على زاوية من السهول، بينما يكون رسوها على قمة عالية بعيدة كثيرا عن السهول ومنفصلة عنها بسلاسل جبلية عالية أكثر احتمالا. لذلك أعتقد أن الرويات المحلية تحمل جانبا كبيرا من الحقيقة. وعلى قمة الجودي يوجد مزار يزوره في آب من كل سنة آلاف المسلمين والمسيحيين واليزديين في احتفال كبير ويتسلقون بشعور عال قمة تبلغ سبعة آلاف قدم في جو حار خانق ليمجدوا نوحا. الكابتن ديكسن، رحلة في كردستان، مجلة الجمعية الملكية الجغرافية، العدد الرابع. ١٩١٠.

مسالك ارتياد الكلأ من قبل العرب البدو مع تلك التي يسلكها الكرد الرحل. ويبدأ هذا الخط من الفرات ويصل جزيرة ابن عمر بعد أن يعبر (سيوه رك) وماردين. ومن الجزيرة تبدأ الحدود التركية العراقية الحالية في بقعة ماهولة بالكرد فقط وتستمر على هذا المنوال جنوبا. أما شرقا، فان سلسلة الجبال التي تفصل تركيا عن ايران تشكل حدودا لها، وهي تكون المحور الطولي للمعين. وفي شمالي آرارات تصل هذه السلسلة إلى الشاطئ الشرقي لبحيرة (كووك جاى) (هذه البحيرات الثلاث التي تختلف نسبة ملوحة مياهها وهي كوك جاى ووان وأورومية وتكشف لنا عن إحدى خصائص هذا البلد الذي نحن بصدده). ان الحدود الشمالية لأرمينيا مؤشرة بخط تقسيم المياه بين حوضى (كوره) و(جوروخ) من جهة وحوضى آراس والفرات([٧]) من جهة أخرى. ويصعب أكثر تحديد الحدود على الطبيعة غربا لأن المنطقة تعتبر بمثابة أرض انتقالية جيولوجياً دون علامات واضحة. ومن المناسب أن نتخذ حداً فاصلاً، مجرى نهر الفرات من أرزنجان حتى نصل إلى مجرى الفرات جنوبا.

تتميزّ بلاد أرمينيا المحددة فيما سبق بارتفاع مستوى أراضيها عن مستوى سطح البحر. فبينما يصل مستوى ارتفاع المنخفضات والسهول إلى ٥٠٠ ١ و ٠٠٠ ٢ متر، يتجاوز مستوى ارتفاع قمم الجبال ٠٠٠ ٤ م [يصل ارتفاع آرارات إلى أكثر من ٠٠٠ ٥ متر أو ٠٠٠ ١٧ قدم كما ذكرنا ذلك سابقا].

ومقارنة بآسيا الصغرى وايران وبلاد ما بين النهرين، تعد أرمينيا بمثابة حصن منيع، وسبق أن أشرنا إلى وجود سلسلة جبال عالية في شرقها، وتبرز هذه الخصيصة بصورة أوضح باتجاه البحر الأسود حيث تبدأ الانحدارات السريعة لجبالها، كما هو الحال لدى هبوطها في كل من (كوره) و(ريون). ومع ذلك فان منظر أرمينيا بالقياس إلى مناظر ايران وآسيا الصغرى أقل ما يشبه السهول. فالعديد من الوديان التي تجري فيها المياه التي تغذي أنهار آراس والفرات ومرادصو وأكثر جنوبا نهر الفرات نفسه، تقطع في الواقع سهول أرمينيا بحيث أنها لا تتشابه في شئ مع مثيلاتها في ايران وآسيا الصغرى اللتين تتميزان بأحواضهما الداخلية المسدودة وتكثر فيما البراري المالحة والمستنقعات السبخة. أما في

([٧]) أحد منابع الفرات الرئيسية – المترجم

أرمينيا فلا يوجد إلا القليل من المقاطعات المقفلة التي ليس لها منفذ نهري، وهذا على العكس مما في ايران وآسيا الصغرى اللتين خف انعزالهما بوجود الحوض الكبير لبحيرة وان التي تتجه نحوها مجاري العديد من الأنهار. ونظرا لأن التربة في الهضبة الأرمنية سميكة وغليظة، تتكون من شقوق في أعالي الروابي المعشبة الفسيحة، فإن سهولا واسعة وخصبة تمتد بين هذه التلال والروابي، وقد تكونت بفضل الغرين والطمي أو بفعل العوامل البركانية، كما هو الحال مثلا بالنسبة لسهول أرضروم ووان وكيافير (وفي ايران تشمل سهول أوروميه وسولدوز ولاهيجان).

وبسبب من ارتفاع مستوى الأرض، يختلف مناخ أرمينيا عما يتوقع في بلاد بهذه السعة، إذ يتميز بكونه قارّياً. والفرق بين فصول السنة جد كبير، ففي الشتاء يغطي أرض أرمينيا ثلج كثيف، لكن الوديان والسهول تتعرض لجفاف شديد خلال الصيف[٨] وهناك مناطق من طوروس لا تسقط فيها الأمطار مطلقا. فبمجرد أن يتوقف برد الشتاء وتذوب الثلوج، يبدأ موسم الجفاف. وإذا كان المناخ يبدو متماثلا في أرمينيا خلال الشتاء حيث تغطي الثلوج جميع الأرجاء، فان الجو يكون على النقيض من ذلك في الصيف بسبب من طبيعة البلاد. وفي هذا السياق يمكن ايراد شمالي أرمينيا كمثال واضح على ذلك، حيث تهيمن على سهل (يريفان) جبال آرارات العظيمة. إن جميع المسافرين الذين يأتون إلى السهل من الشمال يتملكهم الإعجاب بالمناظر الخلابة التي تتفتح أمامهم، فتمتد في البداية سهول واسعة، بانحدارات خفيفة، تجف خلال الصيف بسبب قوة أشعة الشمس، وتبدو كفسحة صفراء مائلة

---

[٨] كما يقول (كليرجيه) في مؤلفه "تركيا، الصفحة ٢٥": " يجب تسلق الصخور في كردستان (المقصود هو أرمينيا – المؤلف) حتى نجد مهابط متساوية أو باختلاف متر واحد، ومراعي جميلة، ومنحدرات ما تزال مغطاة بالأشجار وبخاصة أشجار القضبان والجوز والأرز وأصناف من البلوط الذي يثمر العفص والمن. ومع ذلك فان درجة الحرارة في مجملها جد منخفضة شتاء بسبب النتوءات (فمعدل درجات الحرارة في ديار بكر هو ١٦ م، ٦-م في كانون الثاني بينما تبلغ ٣٠م في تموز، وفي أورفه ١٨م و ٣،٨م و ٣١/٦م خلا الفترة نفسها). [يلاحظ أن ب. نيكيتين يتحدث عن أرض أرمينيا كما يراها القوميون المتشددون الأرمن، فكثير من المواقع التي يتمثل بها لبيان الجغرافية الطبيعية لهذه البلاد لم تعد اليوم ومنذ زمن بعيد أرضاً أرمينية وإنما هي داخلة ضمن الإطار الجغرافي لكردستان. وان صح أنه بعضها كان يوما ما ضمن نطاق أرمينيا – المترجم].

إلى اللون الرمادي وعلى نمط واحد ولا يعكس فيها مظهرا من مظاهر الحياة إلا بعض التجمعات التي تشاهد من بعيد على ضفاف نهر آراس. وأبعد من ذلك بكثير ينبسط السهل الأرمني مع منظر آرارات البديع الذي تغطي الثلوج قممه طوال أيام السنة وتشعّ منها أشعة فضية براقة، بينما تشكل الغيوم الخفيفة في منتصف علوها أكاليل حول هذا الارتفاع الشاهق. إن اختلافا بسيطا في مستوى الارتفاع يبلغ حوالي ٤٥٠٠ متر يجمع هنا في فسحة صغيرة مناطق تضم إلى جانب الثلوج والقفار الجليدية في القمم حقولا للرز في مخفضات شبيهة بالمستنقعات حوالي نهر آراس وفي السهول المتوهّجة والمغبرة. إن الجمع بين هذا الاختلاف الكبير في المناخ يؤثر سلبا بطبيعة الحال على السكان الذين يعيشون في مناطق متوسطة الارتفاع. فمنذ بداية الربيع وحتى الصيف، وكذلك منذ بداية الخريف يتلف الجليد الليلي غير المتوقع والبرد الحبوب والثمار.

وهناك استثناء واحد من هذا الوضع الشامل للسهول الأرمنية، وهو وضع المناطق الجنوبية منها. إن تشعبات جبال طوروس تأخذ شكل تلول ذات مرتفعات متوسطة الارتفاع مع مناخ معتدل أيضا. وتقل في هذه البقعة الأحواض المليئة والسهول الفسيحة التي تميز أرمينيا عن غيرها. إن العديد من الوديان ذوات النهيرات في هذا الجزء من طوروس عبارة عن ثغرات تنزل فيها المياه المتساقطة على شكل دكات. ولا يبدو المنظر في سعة أكثر ولا ينكشف للناظر إلا بعد التدني من التلال التي تقع في سفوح السلاسل الجبلية.

أن ما يميز أرمينيا، بوجه عام، هو هذا التدرّج في ارتفاع مستوى الأرض الذي يفصح عن تنوع المناظر الطبيعية. فبينما تشبه الأقسام المنخفضة منها في الربيع والخريف قطعة من السجاد الأخضر بأزهار مختلفة، فإنها تتحول خلال الصيف الحار إلى فسح مقفرة، وتتعرّى منحدرات الجبال وقممها من الثلوج لتنمو فيها الزهور. وكما سنتكلم عن الموضوع في حينه، يتم انتقال المواشي بصورة عمودية وليست أفقية، كما هو الحال في المناطق الصحراوية أو التي تشتد فيها ملوحة الأرض. وبفضل كثرة المراعي في أرمينيا تكون كثافة السكان فيها أكثر قوة وفاعلية مما هي عليه في المناطق الأخرى التي يعيش فيها البدو والرحل.

بين سهل أرمينيا وسلسلة جبال زاكروس توجد منطقة صعبة المنال لا يمكن بلوغها حتى من قبل عشيرة هركي أورامر[٨ مكرر] وذلك بسبب اتجاه سلسلة الجبال التي تتوجه من الغرب إلى الشرق حتى تبلغ هذه المنطقة، ولكنها تبدل اتجاه مسارها هنا فجأة. هذه المنطقة تعد بمثابة عقدة يخضع محورها الجبلي لانحناء فجائي صوب الجنوب. إن سفوحها الدوارة المعشوشبة وانحداراتها الملساء التي سبق لنا وصفها، تزول لتحل محلها صخور جبلية بوديانها ومضائقها العميقة. وتتحول هذه الانثناءات الأرضية إلى مدرجات كثيرة باتجاه سهول بلاد ما بن النهرين ثم تخف وتنزل تدريجيا إلى ارتفاع ٣٠٠ قدم عن مستوى سطح البحر حتى تزول تماما تقريبا عند مشارف مدينة الموصل.

وقبل أن نبتعد عن السهول الأرمينية، نلاحظ من وجهة النظر الايدروغرافيكية (علم المياه السطحية) أن النهيرات التي تسقي الوديان الفسيحة، تحاول أن تتجمّع مع روافد دجلة الكبرى (الزاب الأعلى والزاب الصغير ونهر بهتان). وتفتح هذه الروافد الكبرى ممراً لها باتجاه الجنوب بعد أن تجتاز أرضاً قليلة المقاومة لها. ولهذه الروافد مجار متعرجة، فهي تجري تارة صوب الشرق في وديان ذات منحدرات رقيقة، وتتجه أحيانا أخرى بصورة فجائية وسريعة صوب الجنوب في مسالك صخرية تنفتح قليلا داخل السلاسل الجبلية القوية، وأحيانا تحاول البحث عن وديان أكثر عمقا بعد أن تغير مجراها غرباً لتأخذ مسارا باتجاه الجنوب وتصب في دجلة. تلك هي وضعية الأنهار الصاخبة التي تجري في مناطق قليلة المأوى في (ناوجيايا) في شمدينان و(أورامر) التي تقع بعدها بقليل و(لولا) و(خرينا) و(هومارو) و(رووبارى شين) وغيرها من النهيرات التي تلتقي أخيرا بالزاب الأعلى. وهكذا الحال بالنسبة للزاب الصغير الذي يحمل في البداية اسم (لافين) ثم اسم (كيالفى) ثم يجري داخل أراضي ايران على امتداد جبال زاكروس نحو جنوبي (شنو) يترك فيما بعد على مقربة من قرية (آلوت) في مقاطعة آلان الحدود الإيرانية بعد أن يفتح مخرجاً داخل جبال زاكروس

[٨ مكرر] راجع مقالنا المشار إليه آنفا في مجلة EI حول نتوءات هذه المنطقة. وكذلك الكراس الممتاز مع تصاوير وخرائط تحت عنوان (أعالي دجلة) استانبول عام ١٩٤٩ تحت إشراف الجمعية التركية للجبال.

وينزل في مساقط قوية ومنحدرات دوارة صوب سهول بلاد ما بين النهرين ليصب في نهر دجلة.

رابعا - زاكروس، كردستان ايران:

بعد أن تجولنا في سهول أرمينيا والقينا نظرة على المنطقة الانتقالية لهركي أورامر على مقربة من سلسلة جبال زاگروس، بقي علينا أن نلقي نظرة على الوصف الأوروغرافي [وصف الجبال] للجبال الكردية.

بين قمة (كيله شين) التي هي في مستوى ارتفاع (شنو) تقريبا، وممرات (آلان)، تأخذ سلسلة زاگروس التي تكون هنا الحدود العراقية-الإيرانية، سيرا منتظما. انها تتجه في خط مستقيم وقصير نسبيا من الشمال الغربي نحو الجنوب الشرقي، وهي تكون الظاهرة الأخيرة في الشمال لنظام الانحدارات المتوازية للجبال الجنوبية في إيران، وتستمر في تحولها بين التكوينات غير المنتظمة لآرارات وأرمينيا والسلسلة الرسوبية لـ (زهاو) ولُرستان التي تقع أكثر جنوبا.

ويجب أن نلاحظ بصدد النظام الأوروغرافي لجبال ايران بوجه عام أن القمم الرئيسية لا تخرج وحدها قليلا عن خط تقسيم المياه والتي تكون اعتيادية في سلاسل الجبال الكبيرة، بل أنها تقع خارج السهل الإيراني، كما هي الحال بالنسبة إلى جبل (دماوند) الذي يشكّل جزءا من السفوح الخارجية. ان جبال (سبلان) و(سهند) العالية الارتفاع تمثل حلقة اتصال بين الهضاب البركانية لأرمينيا،[٩] ونظائرها من جبال البرز، فتغطي الثلوج (سهند) و (سبلان) وجبال كردستان منذ بداية شهر تشرين الثاني ثم تسقط في السهول ولا تذوب إلا في شهر مارس (آذار).

---

[٩] يقول ديكسن في المرجع المشار إليه آنفا: "في أعلى السهل يوجد الكثير من الجبال العالية التي كانت براكين فخمدت كما يؤكد ذلك العينات المقدمة منها. نذكر على سبيل المثال نمرود داغ الذي يتميز بشكله الدائري الذي يبلغ طول محيطه ١٦٠٠٠ قدم وبارتفاع ١٠٠٠٠ قدم، وكذلك (سبيان داع) الذي يبلغ ارتفاعه ١٤٠٠٠ قدم، واصطدمت به: على ما تذكر الروايات المحلية، سفينة نوح. فصرخ (سبحان الله) وهي صرخة قد تصدر من رئيس ربابنة أي سفينة للمولى القدير عندما ترتطم سفينته بشيء ما دون أن يصاب بأذى.

وفي غربي الجبال الواقعة بين (كيله شين) و (آلان) باتجاه ما بين النهرين يغدو المنحدران أكثر وعورة. فبينما تقع مدينة أربيل على ارتفاع ٤٣ مترا عن مستوى سطح البحر، يزيد ارتفاع الجوانب الإيرانية عن ألف متر. ويصل مدى ارتفاع الجبال في الغالب ٢٠٠ ٣ متر، وترتفع قمة (كيله شين) بـ ٨٦٠ ٢ متر عن مستوى سطح البحر.

وعلى مشارف الموصل في نقطة يحّس فيها المرء بعكس الحالة السابقة في اختلاف مستوى جانبي سلسلة زاگروس، تعبر المياه الإيرانية القمة الرئيسة فيها حتى تدخل الاراضي العراقية . ويصب في نهر الزاب الصغير جزء من مياه (موكريان) - منطقة ساوجبلاغ - و (بانه) ويعبر بعدئذ ممرات (آلان) بالقرب من (سردشت).

تتكون قمم الجبال ابتداء من آرارات وحتى هذه المضايق من صخور بركانية قديمة قليلا أو كثيرا. وبعد آلان تنحرف سلسلة جبال زاگروس شيئا فشيئا نحو الجنوب الشرقي وهي تتكوّن من رواسب وطمي بحرية ونهرية. وفي شرقي زاگروس الذي يمثل الانحناء الغربي للسهول الإيرانية، نجد كردستان إيران. ويقسّم الجغرافيون الفرس هذه المنطقة إلى ثلاثة أقسام نستعرضها واحدة بعد أخرى. انهم يسمون القسم الأول (كردستان موكرى و (كروس) أو بيجار). وتأخذ السلاسل الجبلية لهذا القسم مسار زاگروس نفسه، أي من الشمال الغربي إلى الجنوب الشرقي، ويبلغ ارتفاع أعلى قمة منها ٢٠٠ ٣ متر. والجبال المذكورة التي تقع بين مدينة (شنو) وممر (آلان) هي (جياى رش) و (كوه سفيد) و (بيرزن) و (كانى خوله) و (قنديل) و (باكير) و (حاجى إبراهيم). وتمتد إلى الشرق بصورة موازية لها سلاسل (برده سير) و (موكرى) المنفصلة عنها بواسطة وادي نهر (جغتو)، ويخترق السلسلة الأولى نهير (تتهو) ويطلق على الشق الثاني منه اسم (كورته ك) الذي يمتد إلى (ساوجبلاغ) وإلى جنوب بحيرة (أوروميه). وتتجه سلسلة (برده سير) من الشمال الغربي إلى الجنوب الشرقي مع ميلان خفيف صوب الشرق، وهي تشكل الحدود الشرقية لكردستان موكري ويستخدم خطاً لتقسيم المياه. وينحدر المنحدر الشرقي الأكثر علواً لهذه السلسلة تدريجيا صوب وادي (جغتو)، بينما يحيط بالطرف الغربي من الزاب الصغير وتحمل قممها الأسماء الآتية (شوان بريان) و (بالان سر) و (شيرينستان) و (كورتك) و (كوه يعقوب آغا). تقع (كيله شين) التي ينبغي عدم الخلط بينها وبين الجبل الذي يحمل الاسم نفسه ويقع بالقرب من

الحدود الإيرانية-العراقية، غير بعيد عن (شنو)، ضمن سلسلة (برده سير). ومن بين تفرعات (برده سير) التي تمر في كل الاتجاهات نجد (تيكيلو) الذي يقسم وديان سقز وهو هنا نهر يصب في جغتو، و (جغتو) نفسه و (ونوشه) الواقع بين نهري (خالو) و (تتهو)، ويقع فيه أيضا جبل (بارشان)، بينما يقع جبل (سورمينان) شمالي منابع (تتهو). ويتميز النظام الأوروغرافي لكردستان موكري بوجود هضاب منتظمة تتجه من الشمال والشمال الغربي إلى الجنوب والجنوب الشرقي، كما أن التشعبات الثانوية غير المنتظمة في اتجاهاتها الناتجة عن التأثيرات البركانية لجبل (سهند) المجاور لها تحاول أن تغير اتجاهها من الغرب إلى الشرق.

ينقسم النظام الهايدروغرافي لهذا الجزء من كردستان ايران إلى منخفضين، أحدهما بحيرة أوروميه في الشمال الشرقي والآخر دجلة في الجنوب الغربي. تنبع مياه البحيرة من جبال (برده سير) و (جهل جشمه) التي تكسوها الثلوج خلال الجزء الأكبر من السنة، وبذلك تصرفان كميات هائلة من المياه، كما أن نوعية ترابها الذي تجري عليه ليست سبخة، ولذلك فان ماءها عذب وسائغ للشرب. ان (جغتو) أو (زيرينه) يقطع من منابعه في (جهل جشمه) حتى البحيرة مسافة ٢٤٠ كيلو متر من الجنوب إلى الشمال، ويحمل مجراه في الأعلى اسم (خورخوره). ويعتبر نهر سقز من مصابه الرئيسة وينبع من سلسلة (برده سير) مخترقا المنطقة التي تحمل اسمه ثم يلتحق بـ (جغتو) مكونا مصبا كبيرا. أما فروعه اليمنى فهي في البداية انهار صغيرة تنزل من جبال (كوده) و (سارو) ومن ثم وعلى مقربة من حيث ينصبّ (جغتو) في البحيرة، هناك (ليلان) و (ساروق) اللذان يأتيان من (سهند) وأطراف (صاين قلعه). ولارتفاع مستوى شواطئ (جغتو)، لا يمكن إرواؤها ولا تستخدم وسائل الري الا في منطقة (صاين قلعه). ان رافد (تتهو) أقل طولا وسرعة جريان مياهه أقل بكثير من سرعة جريان (جغتو)، ويجري في مضيق عميق فاصلاً (كورتك) عن جبال (برده سير). ان رافده الأيمن هو (جومي خالو) ورافده الأيسر هو نهر ساوجبلاغ، فضلا عن الجداول العديدة التي تصب فيه بالقرب من المصب. وتكثر الأسماك في كل من (جغتو) و (تتهو) ولكن دون أن يستفيد منها القاطنون على شواطئهما.

أما بالنسبة لحوض دجلة في كردستان موكرى، فاننا نعني به الزاب الصغير الذي سبقت الإشارة إليه، وبعد أن يتولد من قمة (ميدان) التي يبلغ ارتفاعها ٢ ١٤٠ ذراعا، يجري حتى يصل إلى جبل (لاكان) الذي يبلغ ارتفاعه ٥٦٠ ١ ذراعا عن مستوى سطح البحر باتجاه الغرب حيث يطلق عليه اسم هذا الجبل العالي. وبعد أن يدور حوله يتجه إلى جبل (كيالفى) جنوبا ليصل إلى منطقة (سردشت)، حيث تكون قوة جريانه أسرع، (ان اختلاف المستوى هو ٥٦٠ ذراع في ١٦ فرسخا)[١٠]. وبعد (سردشت) يتجه نحو الغرب وينفتح على بلاد ما بين النهرين من ممرات (آلان) ويصبّ في دجلة أسفل اربيل (هولير) في اللغة الكردية). والروافد اليمنى لهذا النهر هي (بيسوى) و (لاون) و (مسين) بالإضافة إلى العديد من الجداول المنحدرة من (زاگروس). أما من جهة اليسار فان الزاب يتسلم بالقرب من (سردشت) رافداً آخر هو (بانه) الذي تصب فيها مياه منطقة تحمل الاسم نفسه. ان المجرى العالي للزاب الصغير الذي يطرق ممرا عبر الصخور يحمل الكثير من الغرين ليودعه فيما بعد على الشواطئ لدى توسع الوادي، وبذلك يجعل من هذه المنطقة من كردستان موكري منطقة جد خصبة.

أورد البروفيسور (مينورسكي) وصفاً دقيقا لنظام جريان الزاب الصغيرة في مقاله المعنون (ساوجبلاغ) في الانسيكلوبيديا الإسلامية.

وتتحدد كردستان كرمنشاه التي نستعرضها الآن كما يلي: في الشمال تفصلها سلسلة من الجبال التي تفصل حوض نهر ديالى من وادي نهر (جاماس). أما شرقا فتحددها جبال (كنكاور) والشاطئ الأيمن لنهر (جاماس). وفي الجنوب تُحيط بها الجبال التي تفصل مناطق (كلهور) و (بشتكوه) وتحدها غربا وادي دجلة[١١].

---

[١٠] يعادل الزراع مترا واحدا و ٤٠ سنتمتراً أما الفرسخ فيبلغ حوالي ٧٠ كيلو متراً.

[١١] وضح جغرافية هذه المنطقة (ف . ستارك F. Stark) في مؤلفه باللغة الإنكليزية الصادر في نيويورك عام ١٩٣٤ الذي يحمل عنوان

The Valleys of the assassins and other persian travels الصفحة ٥١ وما بعدها.

يقوم النظام الأوروغرافي لجبال هذا القسم من كردستان ايران من حيث الأساس على توجهها من الشمال الغربي إلى الجنوب الشرقي، وقد تعرضت للهزات الأرضية أقل مما تعرضت لها كردستان موكري. وأهم قممها الرئيسية من الشرق إلى الغرب هي: (ديى لاكاني كەوه) و (كه وەى بيرو) و (هولانه) التي تلتحق جنوباً بجبال (سفيد كوه) و (كيله كەوه) و (كوەبور قرمز)، وتأتي بعد هذه المرتفعات الجبلية المتوسطة جبلا (دالهو) و (بهلول) اللذان يرتبط بهما اسم زاگروس أكثر من غيره ويتمتعان بشهرة واسعة لدى الإغريق والفرس القدماء. ويمر هنا أيضا الطريق الملكي الرئيسي لداريوس والذي مر به أيضا الاسكندر الكبير. ويمكننا الإشارة أخيرا إلى جبال أخرى أقل أهمية تقع على الحدود مع بلاد ما بين النهرين مثل (كيالو) و (ينواكولى) و (كوه سنبلى) و (شاه كوه).

وعندما تصبح المسافة بين الجبال أكثر سعة، تكون التربة أكثر خصوبة بفضل مياه نهر (جاماس) و (قره سو). ويعرف سهل (ماهيدشت) الذي تقع فيه أيضا مدينة كرمنشاه بكثافة سكانه، وهم متحضرون ويعيشون في رغد. أما المناطق الغربية التي يتميز حالها بشدة انحداراتها فيعيش سكانها حياة غير مستقرة ويعتمدون على الرعي أكثر من وسائل الحياة الأخرى.

بقي أن نعطي فكرة عامة عن أردلان أو كردستان فارس بالمعنى الضّيق للكلمة، لأنها المنطقة الوحيدة التي يطلق عليها هذا الاسم في ايران. وتقع هذه المحافظة التي يبلغ طولها من الشمال إلى الجنوب حوالي ٢٠٠ كيلو متر بين مقاطعات (صاين قلا) شمالا والسليمانية وكركوك ووادي ديالى [بكردستان العراقية – المترجم] جنوبا، وإقليم (كروس) وهمدان شرقا.

تتميز جبالها بانتظامها باستثناء الجزء الشمالي منها حيث لايزال يشارك جبل (جهل جشمه) في التكوين المضطرب لكردستان موكري. وإلى الجنوب الغربي تمتد جبال (جهل جشمه) وسلاسل جبال (گرميان) و (داني كجان) و (كيله سر) على نحو مواز من الشرق إلى الغرب. وعند الحدود العراقية في جزئها الذي يقع بين كركوك والسليمانية، تقع جبال (على داغ) و (قرەداغ) و (سگرمه) و (أزمر) التي توازي الواحدة منها الأخرى.

ويمتد هذا الأخير جنوبا ليلتحق في تكوينه بالنظام الجبلي السائد في غربي كرمنشاه حيث لا يفصل أحدهما عن الآخر إلا نهر ديالى. وفي شمالي (جهل جشمه) نجد أخيرا سلاسل (تيلكو) التي سبق أن أوردنا ذكرها في كردستان موكري والتي تتجه من الجنوب الغربي إلى الشمال الشرقي وتنحدر بصورة تدريجية في وادي (قزل اوزون).

ينشأ من جبل (جل جشمه) كل من (جغتو) و(قزل اوزون) وينبع منه العديد من الينابيع المائية في كردستان. وكما يتبين من اسمه الذي يعني (ذا الينابيع الأربعين)، فانه يعد بمثابة مصدر رئيسي للمياه في هذه المنطقة من كردستان.

تحيط بأردلان جبال عالية من كل الجهات باستثناء الشمال الشرقي حيث يمر قزل أوزون. ومركز هذه الفحسة المغلقة منخفض نسبيا. وقد تكونت في هذه المسافات التي تفصل الجبال عن بعضها أراض خصبة بفضل الطمي. كما تجمع في هذه المنخفضات الوسيطة والوديان الخصبة أغلب السكان في مراكز وتجمعات سكانية. أما من حيث الارتفاع، فيمكن تقسيم أردلان إلى منطقتين، الأولى في الشمال وهي عبارة عن سهل طيني واسع يجتازه نهر قزل أوزون، ومناخ هذه المنطقة قاري جاف وهي متاخمة لغرب (جهل جشمه) جنوبي جبال (سنه) و (بنجه علي). والحاجز الجبلي الموجود في الجنوب والغرب اضطرّ قزل أوزون الذي يطلق عليه في قسمه السفلي البعيد اسم (سفيد رود) على اتخاذ وجهة شمالية شرقية. لقد شقت المياه هذا السهل الفسيح بشقوق مجوفة بعد تغطيته بطمي اخصبته. ان المياه التي تنزل في منحدرات شرقي وشمالي جبل (جهل جشمه) وجبال (دربند) و (تاهو خان) الذي يبلغ معدل ارتفاعه ٤٠٠٠ متر، تفيض لدى تفتحها على السهل على جميع الوديان التي تصل إليها في أماكنها لتشكل منابع لنهر قزل أوزون، وتتشعّب هذه الفروع بواسطة جبال (تالوانتو) التي لها ارتفاع معتدل إلى فرعين شرقي وغربي. بعد هذا المسير عبر الشواطئ الخصبة والطمي الغرينية، يدخل قزل أوزون في إقليم (كروس) المجاور. أما القسم الثاني من كردستان أردلان، أي القسم الجنوبي منها، فهو جبلي تماما وتكثر فيه المضايق والممّرات الضيقة الوعرة، كما تغطيه الثلوج خلال القسم الأعظم من السنة بوشاح أبيض، ولا تقطع السلاسل الجبلية منه أي نهر قوي، وتعترض المواصلات والزراعة في هذا الجزء من

كردستان عوارض طبيعية يصعب التغلب عليها. ويعيش سكانه شبه الرحل على مصادر الغابات التي تغطي السفوح الغربية من الجبال.

ونهر (قزل أوزون) هو الذي يحدد مرتسم النظام الهايدروغرافي في كردستان. ويحمل الفرع الأيسر لمجراه العلوي الأسماء الآتية: (سارال) و (هوبتو) من جهة، و (خرخره) و(قره توره) من جهة أخرى، من قبل الناس الذين يقطنون القرى الواقعة على شواطئه. وبعد عبورها لجبل (تالوانتو) تتوحد هذه النهيرات فيما بينها لتشكل نهر (قزل أوزون). وبعد مسافة قصيرة يصب فيه من الجهة اليمنى رافد (ليلى) الذي تنبع روافده من جبل (بنجه على) شرقي (سنه). ونذكركم هنا بأن نهر (سقز) وهو من روافد (جغتو) و (بانه) وهو من روافد الزاب الصغير ينبعان كلاهما من جبل (تليخان) من كردستان فارس، ولكن مساريهما الأساسيين يقعان في كردستان موكري.

أما بالنسبة لكردستان فارس {يقصد به كردستان أردلان – المترجم} فيعتبر نهر (ديالى) بعد نهر (قزل اوزون) العامل الأساسي في هايدروغرافيا المنطقة. إن هذا النهر أي نهر ديالى، الذي يعرف أيضا باسم (كاوه رو) و (سيروان) تنبع مياهه من جبل (شريش خان) غربي (الوند) بالقرب من (اسد آباد) ويجري حتى الحدود العراقية من الشرق إلى الغرب، ثم يتخذ له مساراً عبر المر الموجود في سلسلة الجبال المتوازية في كردستان كرمنشاه وبخاصة سلسلتي (خالو) و (كيله سر) بعد أن يشكّل مضايق ضيقة ومتعرجة. وبعد خروجه من سلسلة جبل (كيله سر)، ينحرف (ديالى) باتجاه الجنوب الغربي ويعبر آخر سلسلة جبلية حدودية في الاتجاه نفسه إلى أن يصب في دجلة. وتنبع روافده اليمنى كلها من جبال (أردلان)، ويعتبر رافده الأول نُهير سنه أو (ميابوريوان) الذي يقسمّ مدينة (سنه) إلى شطرين من الشمال الغربي إلى الجنوب الشرقي ويصب فيه بعد ثلاث كيلو مترات نهير آخر هو (قشلاخ) قبل أن ينصب في (ديالى). أما الرافد الثاني لنهر (ديالى) فهو نهر (هورامان) الذي يطلق عليه في مجراه الأعلى اسم (رزاو)، وتتجمع في هذا النهر مياه المنطقة التي يحمل اسمها، ثم تزداد كمية مياهه بعد أن يلتقي به كل من نهيريْ (جوانرو) و (مريوان). وهذا الأخير عبارة عن نهير صغير يخرج من بحيرة (زريبار) التي تبلغ مساحتها حوالي ٥٠ كم٢. ثم ويصب هذا النهر بحجمه الكبير في نهر (ديالى). أما روافد (ديالى)

التي تجري في أراضي (أردلان) فهي (ليله سو) الذي تنبع مياهه من جبل (شاهو)، و (رنكان) الذي يأتي من جبال دالهو، والنُهير الصغير الذي يسمىّ بالزاب أو (جومى زريشك)، وينبع هذا الأخير في المنطقة الواقعة بين جبال (دالهو) و (داروجان) ثم يقطع في مسيره سلاسل (آهنكران) و (بزنيان). وعلينا أن لا ننسى أخيرا أنه يوجد بالقرب من حدود كردستان كرمنشاه رافد آخر لنهر (ديالى) يعرف باسم (حلوان) أو (ألوند) وتقع منابعه في جبل (كيرا) الذي يبلغ ارتفاعه حوالي ١٩٠ ذراعا. وبعد انحدار سريع يسير نهر حلوان هذا في مقاطعة (جلكه ى على) و (سربل)[١٢] وقصر شيرين ثم يصب في (ديالى).

مناخ كردستان أردلان مناخ قاري بصورة واضحة مع شتاء قارص البرد. ويسقط الثلج فيه خلال أربعة أشهر من السنة وتحتفظ القمم العالية، وبخاصة تلك التي لا تتعرض للشمس إلا قليلا، بالثلج طوال أيام السنة. ويغذي هذا الثلج منابع وشرايين العديد من الأنهار والنُهيرات المهّمة. وفي السهول والأجزاء المنخفضة من الإقليم يبقى الثلج حتى أواسط الربيع، ويبلغ سمكه أحياناً ذراعين تقريباً. ونجد هذا المناخ القاسي بوجه خاص في القسم الغربي من أردلان (هورامان) حيث لا يكتشف المسافر في الغالب خلال فصل الشتاء الأماكن المسكونة التي يغطيها الثلج إلا بواسطة الدخان الذي يصعد منها، وبذلك تكون المواصلات بين أجزاء المنطقة جد صعبة أو متقطعة في أحسن الأحوال. لذلك فان الهم الرئيسي لسكانها هو التزود بالمواد الغذائية الكافية لموسم الشتاء وكذلك الكساء والوقود، لأن الوضع يستمر غالبا بهذه الصورة. ويكفي أن يحصل عجز في غلة أحد هذه الأماكن النائية حتى تسوده المجاعة والهلاك بسبب الانعزال عن المحيط، ويصحّ ذلك بوجه خاص بالنسبة لسكان القرى المستقرّين. أما السكان الرحّل، فنظرا لتعوّدهم على التنقل بين المصايف والمشاتي يكونون في العادة أفضل تجهيزا وأكثر مقاومة لبرد الشتاء القارص وحر الصيف اللاهب. وبوجه عام فان الهضاب العالية والسفوح الجبلية أكثر تعرضا لتقلبات المناخ، بينما تكون الوديان، وبخاصة في القسمين الوسطى والجنوبي الشرقي اللذين يكونان أردلان الحقيقي، بمأمن، ويتمتعان بمناخ أكثر اعتدالا ويكونان أكثر صلاحا

---

(١٢) هذه هي التسمية الفارسية. أما الأكراد سكان المنطقة فيقولون (سەرپیل) – المترجم.

للزراعة لتوفّر الرطوبة. يعرف مناخ كردستان أردلان نوعين من النظام. في بعض الأجزاء (في السهول وسفوح الجبال الواسعة الوديان)، يكون المناخ قاريا جافا وتتأرجح درجات الحرارة بين ٣٢+م و٢٢م، بينما يكون الهواء في الوديان الأفضل وقاية وتحرزا، أكثر جفافا، والخضراوات أوفر، كما توفر الغابات الوقود أيضا، بيد أن هذا التقسيم ينبغي أن لا يؤخذ بالمعنى الضيق للكلمة، لأن لكل مقاطعة تقريبا وجهتها الخاصة بها. كما تتميز التربة والمياه الجوفية فيها بنظام مناخي خاص بها. وهكذا فان منطقة مدينة (سنه) التي تتعرض للشمس خلال السنة أكثر من غيرها، لها مناخ أكثر اعتدالا من مناطق (هورامان) أو (مريوان). وبوجه عام إن السفوح الشرقية لجبال (زاكروس) أفضل مناخا من سفوحها الغربية[١٣].

خامسا - منطقة السكنى الحالية للكرد:

نعتذر للقارئ عن دخولنا في تفاصيل الجغرافيا الطبيعية لكردستان، ولكن ليس أمامنا اختيار آخر إذا ما أردنا أن نصور له بصورة حية ملامح هذه البلاد التي رغم أنها مقسمة بحدود سياسية، لكنها متجانسة بسبب طابعها الجبلي، على اختلافها من حيث طبيعة جبالها والمياه الجوفية الموجودة فيها. وضمن هذا الإطار الطبيعي الذي يضم قمما عالية وسهولا مرتفعة ومضايق وممرات ووديانا عميقة واسعة، تأتي الواحدة منها تلو الأخرى، اتخذ الشعب الكردي منذ بداية تكوّنه موطنه المفضل لديه. فإذا كان المجرى الأعلى لنهر الفرات وحوض بحيرة وان (أي بلاد الاورارتو ثم أرمينيا) هي المناطق التي استقر فيها الكرد بصورة مبكرّة [راجع الفصل الأول من هذا الكتاب]، إلا أن من الضروري البحث عن موطنهم الأصلي في حقبة تاريخية في الفروع الجنوبية لسلسلة جبال طوروس وفي البلاد الجبلية الواقعة على الضفة اليمنى لنهر دجلة (على امتداد أنهار بوتان والخابور والزاب الأعلى). وإذا ما عدنا أكثر إلى فجر التاريخ، وجدنا أن الوطن الأول لهذا الشعب يقع في

---

(١٣) رابينو. في تقريره عن كردستان عام ١٩١٢. الذي يوضّح فيه جغرافية كردستان أردلان.

مكان أبعد من ذلك شرقا وجنوبا. ويقابل هذه المراتب الثلاث لأسلاف الكرد من حيث الزمان ثلاث مناطق استقروا فيها من حيث المكان وهي الهضبة العليا لأرمينيا وكردستان تركيا وجبال ايران الغربية.

وباختصار، انتشر الكرد من الجنوب إلى الشمال في موجة واسعة على رقعة كبيرة تشمل الحدود العراقية الايرانية ابتداء من مدينة (مندلي) شرقي بغداد، ويشمل فيما بعد الخط الذي يفصل بين ايران وتركيا حتى جبل آرارات وحتى الحواشي الجنوبية للقفقاس (أرمينيا وأذربيجان السوفيتيتين). وكان الكرد يعيشون حتى الحرب العالمية الأولى في الهضاب الأرمينية مختلطين مع الأرمن[١٤]، إلا أن الخط الموازي لأرضروم يعتبر حدهم الشمالي في تركيا. أما جنوبا فقد نزل الكرد إلى سهول بلاد ما بين النهرين. ومن جهة الغرب يمكن تحديد وجودهم بوجه عام بنهر الفرات (وبصورة أوضح نهر قره سو). إلا أنهم يمتدون أعمق من ذلك في آسيا الصغرى ويقطنون المنطقة الجنوبية الشرقية من (سيواس) وينتشرون أيضا كمجموعات متفرقة قرب (قونيه) و (سبليسى) واصلين تقريبا إلى البحر الأبيض المتوسط. ومن جهة الشرق، توجد عناصر متناثرة من الكرد في خراسان (أبعدهم إلى هناك الشاه عباس الصفوي)، وبالقرب من قزوين وإقليم فارس (بالقرب من كيالون - اندو، أبعدهم نادرشاه ١٧٣٦ - ١٧٤٧) وكذلك في مازندران.

---

(١٤) نعرف أنه خلال الحرب العالمية الأولى أبعد الأتراك الأرمن من أرمينيا، وهم الآن لا يوجدون تقريبا في تلك البلاد وعلى الأقل في القرى. ولكن الكرد أيضا تعرضوا بعد انتهاء الحرب إلى التهجير الإجباري صوب الغرب، وهذا مالا يعرفه الكثيرون. فخلال شتاء ١٩٢٦-١٩٢٧ وبخاصة بعد قمع ثورة الشيخ سعيد بيران، أبعدت السلطات العسكرية الكمالية حوالي مليون رجل وامرأة وطفل كردي باتجاه غربي الأناضول بعد تعرضهم لهجمات شرسة، على غرار تلك التي تعرض لها الأرمن المهجرون خلال الحرب. وقد نشرت اللجنة الوطنية الكردية المسماة (خويبون) قوائم بأسماء القرى المهدمة مع ذكر عدد الضحايا في كراس يحمل عنوان (مسألة كردستان تركيا) باللغة الإنكليزية. ويتكون الكراس من سبع صفحات ١٨ إنج في مايس ١٩٣٢ نشر في تركيا قانون بخصوص تهجير الكرد أدى إلى ظهور مقاومة مسلحة لدى محاولة تنفيذه من قبل السلطات التركية. (ويمارس النظام الحالي نفس السياسة بشكل أكثر قساوة منذ أواسط الثمانينات تهدف تطهير المنطقة من الكرد وهو ما فعله النظام البعثي في العراق منذ أواسط ١٩٦٣ - المترجم).

ويمكننا بوجه عام التأكيد على أن الكرد والجبل لا ينفصل أحدهما عن الآخر، وحيثما يبدأ السهل يخلي الكرد المكان للعرب أو الترك أو الفرس. وعلى ضفاف بحيرة وان ينسحبون جنوبا أمام الأرمن[١٥].

في قطعة شعرية وردت في كتاب (شرفنامه)[١٦] حددّت لنا حدود كردستان على النحو التالي: "هل تريد أن تعرف أيها الكردي ما هي الأماكن التي يقطنها أقرباؤك؟ استمع إليَّ أذكرها لك: تمتد حدود كردستان غربا إلى الاسكندرونة وجبال طوروس صوب البحر الأسود، وشمالاً أردهان وآراس، وشرقا من جبال الوند حتى آراس، وفي الجنوب من الأهواز حتى الفرات. إن الحدود الجنوبية تمتد إلى جبال حمرين وسنجار وطريق نصيبين".

فإذا ما تذكرنا هذه الشبكة من الجبال والأنهار التي حاولنا وصفها، أمكننا رسم لوحة للمناطق التي يقطنها الكرد بموجب مبادئ الجغرافية السياسية والإدارية.

---

[١٥] ورد في نص كردي أورده (روندو) في كتابه (قبائل جبلية) باللغة الفرنسية: "هذه ليست بلادي انها أعراف وقوانين البلاد المنخفضة، ولكن البلاد العليا تظل القلعة العزيزة على قلبي".

[١٦] الصفحة ٥٨٧–٥٨٨ من طبعة القاهرة للناشر فرج الله زكي الكردي (الحقيقة أن هذه القطعة الشعرية التي أضافها الناشر إلى الكتاب ناسبا إياها إلى الشاعر الكردي المعروف حاجي قادري كوي المتوفى في عام ١٨٩٧ هي لشاعر كردي أكثر حداثة هو عبد الخالق أثيري الكركوكي المتوفى في عام ١٩٦٢. وقد بنى محتواها لا على معلومات جغرافية أكيدة وانما على معلوماته العامة ومسموعاته المزوجة بقدر كبير من العواطف القومية المجردة – المترجم.

في تركيا[17] يعيش الكرد في مجموعات مكثّفة في القسم الجبلي من ولاية الموصل (التي تشكل حاليا جزءا من العراق)[18]، على امتداد جبال زاگروس وتشعباتها. وفي ولايتيْ (وان) و(تبليس) لا يشكل الأرمن الأغلبية إلا في محيط البحيرة، ولكنهم يشكلون الغالبية الساحقة في سنجق (هكاري) القريب من الحدود الايرانية وكذلك في المناطق الجبلية من ولايتيْ (وان) و (بدليس). وكان النساطرة يشكلون قبل الحرب العالمية الأولى حوالى ٩٠٪ من سكان (جوله مرك) جنوبي (هكارى)، وقد أجبروا منذ ذلك الوقت على ترك ديارهم والنزوح إلى سوريا للاستقرار في إحدى مناطق الجزيرة. وفي ولايتى (ديار بكر) و (خربوط) يشكل الكرد الغالبية من السكان. وتقع مدينة (جزيره) الصغيرة في ولاية (ديار بكر) على نهر دجلة وتعد مركزا لمنطقة (بوهتان) التي يطلق عليها في الخرائط القديمة (إمبراطورية بوهتان) باللغة اللاتينية، وتعتبر بمثابة المهد للعرق الكردي، وبدأت من هناك

---

[17] الولايات التركية المذكورة أعلاه تمثل المعلومات الجغرافية الإدارية القديمة للإمبراطورية العثمانية. أما في ظل النظام التركي الحالي فقد زادوا عدد الولايات مع تصغير حجم كل منها. والولايات التي يشكل الكرد غالبية سكانها أو أكثريتهم الساحقة هي (أرضروم) وفيها سبعة أقضيه بـ ٦٧٢،١٤٢ نسمة، و (ارزنبخان)، بخمسة أقضية وفيها ١٥٨،٣٨٣ نسمة، و(سيواس) وفيها عشرة أقضية نفوسها ٤٣٥،٦٢٩ نسمة، و (قارص) بتسعة اقضيه وفيها ٤٤٤ ٣٠٦ نسمة، و (آكرى) بخمسة اقضية وفيها ٧٢٩ ١٠٦ نسمة، و (وان) بتسعة أقضية وفيها ٦٧٢،١٤٢ نسمة، و (موش) بتسعة اقضية وفيها ٥٢٧ ١٤٣ نسمة، و (سعرت) بسبعة اقضية وفيها ٧٢٨ ١٢٧ نسمة، و (ديار بكر) بخمسة اقضية وفيها ٨٧١ ٢١٤ نسمة، و (ماردين) بسعة اقضية وفيها ٠٣٠ ٢٢٦ نسمة، و (أورفه) بسبعة اقضية وفيها ٢٢٩،٢٠١ نسمة و (العزين) بعشرة اقضية وفيها ٦٩٣ ٢٥٣ نسمة (وخربوط واحد من اقضية هذه الولاية). [هذا الإحصاء السكاني الذي اعتمده المؤلف يعتبر اليوم قديما،ولم تعد الأرقام التي أوردها تمثل حقيقة الوضع السكاني لهذه الولايات الكردية في الوقت الحاضر – المترجم]. راجع بهذا الشأن العدد ١٠ للسنة الأولى من مجلة (هاوار) الكردية الصادر في تشرين الأول ١٩٣٢ في دمشق.

[18] أحصت النشرة الرسمية (دليل العراق لسنة ١٩٣٦) نفوس الكرد في العراق بـ ٦٤٠٬٠٠٠ نسمة أي ١٦٪ من نفوس العراق البالغة أربعة ملايين نسمة يعيشون بصورة أساسية في المنطقة الشمالية الشرقية من البلاد أي ألوية الموصل وأربيل وكركوك والسليمانية. وقد أوردت النشرة المشار إليها أسماء عدد من العشائر الكردية: هورامان، بلباس، داوده، دزه يى، هموند، جاف، بشدر، برواری بالا، برواری زیری، بارزان، هرکی، سورجي، سندی، کللی. ويعيش في بغداد حوالي خمسة آلاف كردي (يبلغ عددهم اليوم قرابة نصف مليون – المترجم). أما في أطرافها فهم منتشرون بين السكان العرب. ويعيش بعض العشائر الأخرى (زنكنه، دلو ..الخ) في شرقي الطريق التي تربط بغداد بإيران (إن أسماء العشائر التي أوردها المؤلف لا تشمل جميع العشائر الكردية في كردستان العراق – المترجم).

جميع التحركات الكردية المشهورة. وفي ولاية (خربوط) ينبغي الإشارة إلى أن الكثافة السكانية لمقاطعة (درسيم) الواقعة بين الفرعين الأعليين لنهر الفرات تبلغ بالنسبة للكرد ثمانية أضعاف العناصر الأخرى. ويتكلم هؤلاء الكرد بلهجة خاصة تسمى لهجة (زازا) ويدينون بمعتقد خاص هو (على اللهي)[١٩]. ولكن ذلك لا يعني وجوب عدم اعتبارهم كرداً. وفي ولاية حلب (التي يقع قسم منها حاليا ضمن حدود سوريا) انسحب الكرد لحساب العرب، ولكنهم يشغلون مع ذلك حوالي ألف قرية يبلغ تعداد سكانها ١٢٥.٠٠٠ نسمة. ويشكل الكرد الأقلية في ولاية (سيواس) حيث يبلغ عددهم ٣٠,٠٠٠ نسمة منتشرين في اقضية(كانكه ل) و (كوج حصار) و (زازا) و (ديفريك). وكان الكرد يكونون في القسم الشرقي من ولاية (أرضروم) الأغلبية السكانية (٣٠٠.٠٠٠ كردي و ٢٠٠,٠٠٠أرمني و ٢١٠ تركي)، لكننا نجهل التناسب الحالي للسكان فيها. وفي سنجق (بايزيد) يشكل الكرد خمسة أضعاف القوميات الأخرى (وسوف نعود إلى ذكر بايزيد عند الكلام عن الأدب الكردي). وتوجد في سوريا تجمعات كردية متفرقة، وهناك في دمشق حي خاص بالكرد.

أما في إيران فان الكرد يمثلون الأكثرية المطلقة في ولايتى (كرمنشاه) و (كردستان) [سنه]، وكذلك في مقاطعة (كروس) وبعض أجزاء أذربيجان وبخاصة في مقاطعة (ساوجبلاغ) (كردستان موكري)، في جنوبي بحيرة أورومية وغربي (تهتو)، وفي منطقة طويلة نسبيا وبعرض ٢٠ إلى ٤٠ كيلو مترا على الحدود الإيرانية - التركية في غربي بحيرة أورومية (رضائية حاليا[٢٠])، وسلماس وخوى وماكو. إن المنطقة الوحيدة التي يقطع فيها الترك الوجود السكاني للكرد هي المنطقة التي تعيش فيها عشيرة (آيروملى). وفي الجنوب يسكن الكرد وطن أجدادهم (راجع الفصل الأول من الكتاب) ويسكنون الجانب الغربي من الدائرة التي تشكل وطن الميديين. فهل يمكن اعتبار الكرد أحفادهم المباشرين؟ ويختلف

---

[١٩] إن كتاب (تاريخ كردستان، درسيم) باللغة الكردية، الذي يحوي معلومات كاملة عن تاريخ المنطقة، لا يشير إلى (علي اللهي) بل يذكر اسم العلوي أو القزلباش (صـ ٢٥ و ٢٦) "وقد أخبرني درويش من أهل الحق في تركيا أنهم يدعوننا بالعلويين". مينورسكي: ملاحظات حول أهل الحق (بالفرنسية).

[٢٠] عاد الاسم كما كان فيما مضى فصار (أورومية) من جديد بعد الثورة الإسلامية في ايران - المترجم.

الكرد الذين يعيشون في الجنوب الشرقي من المنطقة عن الجماهير الأساسية المتجانسة مع بني قومهم، سواء من حيث اللغة أو من حيث الدين إلى حد ما لكونهم من الشيعة أو من جماعة (العلي اللهيّة) ولكنهم ينتمون للعرق نفسه الذي ينتمي إليه أولئك.

بالنسبة إلى شمالي إيران كـ (سلماس) مثلا، كان في بداية القرن الأول الميلادي مايزال يعتبر ضمن المنطقة الحدودية المستقلة تقريبا التي كان الأرمن يطلقون عليها اسم كورجييا (Kortchea) أي كردستان. وبالمقابل ففي عهد أقرب نسّبياً كان الكرد تجاوزوا جنوبي بحيرة أورومية. وإلى يومنا هذا يلاحظ بقاء آثار الأسماء التركية واضحة في أطراف ساوجبلاغ، علما بأن الموسوعة التاريخية الكردية (شرفنامه) تذكر صراحة أن عشيرة موكري (التي تربطها صلة قربى بأسرة بابان في السليمانية)[٢١] لم تظهر إلا خلال حكم مملكة القرة قوينلو والآق قوينلو (الخروف الأسود والخروف الأبيض)، أي في حوالي القرن الخامس عشر. ونظرا لحدوث هجرات متأخرة من الغرب إلى الشرق بكثرة فقد اختلطت الأنساب فيما بين القبائل المهاجرة.

وأخيرا نجد الكرد في روسيا في أجزاء عديدة من حكومة (يريفان - أرمينيا - السوفيتية سابقا[المترجم] في جوار آرارات في مقاطعات (أردهان) و (كاكيزمان) من أعمال (قارص)

---

[٢١] تشير بعض المصادر (مثلا: بندر) في كتابه "رحلة إلى كردستان"، ١٨٨٧، إلى كردستان تركيا [الأصح العثمانية – المترجم] ويحددها بالمنطقة الجبلية الجنوبية الشرقية إلى الشمالية الغربية التي تقع بين خطوط العرض الشمالية ٣٢ إلى ٤٠ و ٣٩ إلى ٤٦ من خطوط الطول الشرقية (ص ١٤٥). ثم يقول: "ان جميع الأراضي الواقعة على الحدود الإيرانية – التركية [الأصدق: العثمانية – المترجم] والتي تحدها في الشمال والغرب والجنوب ولايات أرضروم وسيواس وحلب، كانت تحمل في السابق اسم (أرمينيا) ويطلق عليها الأتراك العثمانيون اليوم اسم (كردستان) [ص ١٥٢].

ولتحديد خارطة كردستان، يمكن الرجوع إلى المراجع القديمة القيمة مثل كتاب (بورتر) المعنون (بغداد – طوروس) وكتاب (لايارد) المعنون (الموصل – رواندوز – شمدينان) أو المؤلف الأقرب إلينا (تورو دانجين) في كتابه المعنون (علاقة الحملة الثانية لسرجون ٧١٤ ق.م)، وكذلك التقرير المقدم في تموز ١٩٢٥ إلى عصبة الأمم من قبل لجنة تحديد الحدود التركية – العراقية. وأشير أيضا إلى بحثي المعنون (وسائل المواصلات في كردستان) المنشور في مجلة (الجغرافية) الجزئين الخامس والسادس ١٩٣٥. وقد فتح فيما بعد طريق للسيارات من الموصل إلى ايران [يقصد المؤلف طريق أربيل – رواندوز (الحدود الإيرانية) المعروف بـ (طريق هاملتون) نسبة إلى المهندس البريطاني الذي أشرف على شقه – المترجم].

التي أعيدت فيما بعد من قبل السلطة السوفيتية إلى تركيا، وفي مقاطعات (زنكزور) و (جوانشير) - حاليا (كنجه) - في أذربيجان السوفيتية سابقا [المترجم].

وإذا ما أخذنا بنظر الاعتبار وجود مليون وسبعمائة ألف كردي في الدولة العثمانية قبل الحرب العالمية الأولى، بالإضافة إلى وجود مليون آخر في ايران، أمكننا تقدير نفوس الشعب الكردي بصورة إجمالية بين مليونين ونصف المليون إلى ثلاثة ملايين كردي. ويقدّر الكتاب الكرد عدد نفوس شعبهم عام ١٩٣٠ (كما يظهر من حواشي كتاب شرفنامه، طبعة القاهرة، ١٩٣٠) كما يلي:

في ايران	١.٥٠٠.٠٠٠
في الاتحاد السوفيتي	٢٥٠.٠٠٠
في تركيا	٤.٥٠٠.٠٠٠
في العراق	٥٠٠.٠٠٠
في سوريا	٢٥٠.٠٠٠
المجموع	٧.٠٠٠.٠٠٠

ومن وجهة نظرنا أن تقدير نفوس الكرد في تركيا بأربعة ملايين ونصف فيه الكثير من المبالغة، وينبغي إنقاص هذا العدد إلى النصف، وبذلك يصل مجموع نفوس الكرد إلى خمسة ملايين كردي في جميع هذه الأقطار. وهذا التقدير مماثل للتقدير الذي ذكره بعض الأوساط الكردية (في النشرة السابقة الذكر The case of Kurdustan) وهو: ٢. ٩٨٧ .٩٦٠ مليون في تركيا، و٢٨٩ .٩٤٠ ألف في سوريا و٧٤٩ .٣٨٠ ألف في العراق و١ .٣٠٠ .٠٠٠ مليون في ايران، و٦٠٠ .٠٠٠ ألف في أرمينيا. وبذلك يصل المجموع ٥ ٣٨٧ ٢٨٠ مليون

نسمة. وينبغي القول أن الأرقام الواردة هنا تعود إلى ما قبل الحرب العالمية الأولى[٢٢]، ولكن الخسائر في الأرواح التي تعرض لها هذا الشعب منذ تلك الحرب لم تعوّض بالزيادة التي حصلت في نفوسه فيما بعد[٢٣].

---

[٢٢] ان هذا التقدير الذي يمثل نفوس الشعب الكردي قبل الحرب العالمية الأولى لا يتناسب مطلقا مع العدد الحالي لنفوسهم، إذ تقدره الأوساط المطلعة اليوم بحوالي أربعين مليونا في أجزاء كردستان وخارجها – المترجم.

[٢٣] يلاحظ كليرجه (في المرجع المشار إليه سابقا) أنه نظرا للمجاعة ولكثرة الدماء التي أريقت خلال الحرب الأولى وبسبب السيطرة المركزية للحكومة العثمانية أصبحت أجزاء كبيرة من كردستان خالية من السكان. ومع ذلك فان المعلومات الحديثة عن هذه البلاد تشير إلى ملء هذه الفراغات وازدياد نفوس السكان فيها. وحسب رأي صديقي الأمير كامران بدرخان، تقدر نفوس الشعب الكردي اليوم بين ٨ إلى ٩ ملايين نسمة (رسالته المؤرخة ٦ شباط ١٩٤٦).

الفصل الثالث

نمط الحياة والمشاغل
والأعراف والعادات

يمكن تقسيم الكرد إلى حضر وأنصاف رحّل، ويتناقص عدد الرحل منهم بصورة مستمرة، لأنهم يتحولون شيئا فشيئا إلى أنصاف رحّل. انهم يقضون الشتاء في السهول في بيوت من الطين، ويبذرون الأرض في الربيع، ثم يصعدون إلى المراعي العالية في الصيف بعد أن يتركوا بعض الرجال في الحقول ليحرسوها. وتكون هذه المراعي أحيانا قريبة من مناطق سكنهم الشتوي، ولكن في أغلب الحالات يرتادون الكلأ سالكين خطوط السير نفسها التي سلكتها الأجيال التي سبقتهم وعلى امتداد مسافات واسعة، كما هو الحال بالنسبة للعشائر التي تشتّي على سفح زاگروس الغربي في بلاد ما بين النهرين، والتي تصعد صيفاً صوب الجبال باتجاه الحدود مع ايران وداخل حدود إيران نفسها.

أولا - الرحلات الكردية:

يصف لنا الكابتن ديكسن في مقاله المشار إليه آنفا ارتحال عشيرة (هه ركى) التي تشتي في شمال بلاد ما بين النهرين فيقول: "أنهم يعبرون نهر الزاب الكبير بالقرب من (زيبار) حيث يقيمون في كل عام جسراً للعبور عليه، وهذا ما يستغرق منهم بعض الوقت. وينبغي عليهم أن تكون علاقاتهم طيبة مع كرد المنطقة، من أتباع شيوخ بارزان [انظر الفصل الخامس] لأن بإمكان هؤلاء منعهم من اجتياز النهر، ثم يسلكون الطريق العلوي فوق (ته نكى بلنده) وينحرفون شرقا متتبّعين مسالك وادي (شمدينان) - أحد روافد الزاب الكبير - في قافلة طويلة من الرحل والبغال المحملة والخيول والمواشي.

ان قطعان الأغنام التي يتكون عدد كل قطيع منها مما يتراوح بين ٣٠٠ إلى ٤٠٠ رأس غنم ترعى على مسافات قريبة منهم على المنحدرات والسفوح، فيما يتولّى حراستها رعاة مسلّحون يترصدون على القمم. وعندما يصلون إلى محاذاة نهر (أورمار)، ينقسمون إلى قسمين يصعد أحدهما باتجاه وادي (سات)، بينما يتوّغل القسم الثاني منها في وديان (هەركي) و (بيت كار) في سير بطيء ومتعرّج يتم على مراحل عدة حتى يصل إلى أعالي السفوح في شمال (سات داغ). أنهم يتنقلون بكل حرية وكل حسب رغبته دون تقيد بنظام،

كأنهم قبضات نمل رشّت هنا وهناك. وتشاهد بين حين وآخر عائلتان أو ثلاث تنفصل عن الأخريات، مصطحبة معها كل ما لديها من أمتعة وأكياس قمح وخيم وبسط ولباد: وملابس.. الخ محملة على الخيول أو غيرها من الدواب. وتشاهد أيضا هنا وهناك نعجة مريضة محملة على الأمتعة التي تحملها دابة، والنساء في ثيابهن المهلهة يجرجرن أقدامهن بتعب ظاهر، وهن يحملن على ظهورهن خليطا عجيبا من الحاجيات تشمل على أسّرة الطفل والأواني المنزلية وأوعية الحليب وعدّة الشاي والمغازل، وفوق كل ذلك الطفل الرضيع كملحق لا بد منه. وفي بعض الأماكن تقع العين أحيانا على صندوق ضخم فاقع الألوان يعود (للآغا) أي الرئيس، يحتوي على أجمل ملابسه مع من يقوم بواجب خدمته، ويسير الجميع على أقدامهم باستثناء المرضى، ذلك أن جميع الدواب وسائر الحيوانات من ذوات القرون تنوء بالحمل.

"أما الرجال فكلهم مدججون بالسلاح من الرأس إلى أخمص القدم، وهم يتولون الحراسة، وتلحظ ظلالهم تسلل إلى القرى التي يمرون بها وهم يتناقشون مع سكانها. ان بعضا من أولئك الرجال المسحلين المتأهبين يسيطرون على النقاط الاستراتيجية القريبة من مواقع السكان، ويبدو الجميع في حالة قلق وتشكك. وبين فترة وأخرى تدوي طلقات الرصاص مجلجلة ومتقابلة. فقد صادفنا قطعانا من الأغنام في بقعة ساحرة في أعلى قمم الجبل، وطلبت من الراعي الذي كان يصعد صخرة، أن يتمهّل قليلا لألتقط صورة لهذا المشهد الرائع، فإذا به يتدحرج كالأرنب البري إلى أسفل وهو يرسل صيحات النجدة ويحرك بندقيته لتحشيتها. ولم يتوقف إلا بعد أن غدا على بعد ٤٠٠ متر عنا، وعندئذ تهّيأ ليسرد بندقيته صوبنا. وتبدو قطعان الغنم في هذه الرحلات منهكة القوى، وكثير من الدواب يتساقط على الطريق فتحطّ عليها أسراب النسور والبواشق. ان هؤلاء الرحّل لا يحطّون الأحمال عن دوابهم أثناء الليل بل يضربون خيمهم إلى جانبها ويلفون أنفسهم باللباد الطويل".

لننتقل الآن من أطراف ما بين النهرين إلى كرد القفقاس. وهذه صورة من حياتهم السابقة يصفها لنا أحدهم بعد أن غدا كاتباً. انه (عرب شمو) الذي يتحدث لنا عن ذكريات شبابه في مؤلفه الموسوم (الراعي الكردي)[1]:

"ما أن تذوب الثلوج وتخضر الأرض وتزهر الأشجار، حتى يدب النشاط في القرية الكردية... ومنذ الصباح الباكر تبدأ الحركة في كل مكان، ويستعد الكرد للانتقال بقطعانهم إلى المكان الذي يسمّونه (دولكا) حيث تضع المواشي الصغيرة ذوات القرون حملانها.. ويعتني الكرد كثيراً بالحملان في الـ (دولكا)، فيقدمّون لها أحسن ما لديهم حتى تنمو بأسرع ما يمكن وتقوى أجسامها بحث تكون قادرة على تحمل الانتقال المنهك إلى أعالي الجبال عندما يشتد الحر..

"في مراعي الصيف يتجمّع الكرد في مجموعات خاصة تدعي (أوبا) تتكون من ٤٠ إلى ٨٠ مالكاً ليقوموا برعاية مواشيهم بصورة مشتركة في المراعي الجبلية. ويرأس كل جماعة من (الأوبا) أغنى الأعضاء وأوسعهم نفوذا، ويسمّى (أوباباشى) ، وتكون جميع الأمور من اختصاصه، كتوزيع الرسوم على الأعضاء وتعيين أماكن الرعي لهم مع تحديد الفترة الملائمة للانتقال بالمواشي من مرحلة إلى أخرى. ويتم نصب هذا الرئيس عن طريق الانتخاب، وهو منصب شرفي، وعلى الجميع إطاعة أوامره دونما نقاش".

"ويكون (الأوباباشى) في غالب الأحيان رئيس فخذ من العشيرة وأغناهم. ويتوجّب على الرعاة أن يقوموا، إضافة إلى مهامهم المباشرة، بكل عمل يخص المرعى، أو بذل العناية اللازمة لمواشي الأوباباشي بدون أي مقابل، كنقل مواشيه إلى المرعى أو إحصائها مساءً وتقديم تقدير إليه، بالإضافة إلى تنظيف حظائر النعاج المسماة (آغل) ونقل الفضلات والأرواث بعيدا عن مضارب العشيرة.

[1] ألف عرب شمو كتابه هذا بلغته الكردية في بادئ الأمر، ثم ترجم إلى اللغة الروسية. وقد ترجمته من الروسية إلى الفرنسية. وقد أعيدت ترجمته من الفرنسية إلى الكردية وطبعت في بيروت. [أعيد طبع الكتاب في باريس عام ١٩٨٩ مع النص الكردي وترجمته الفرنسية من قبل المعهد الكردي في باريس – المترجم].

ثانيا - طقوس حياة الرعاة:

"بعد الوصول إلى الدولكا وبدء موسم الحملان، تستوجب التقاليد المحلية من كل كردي ميسور الحال أن يذبح خروفا ويقيم وليمة يدعو إليها جيرانه ورعاته. ويتولى المضّيف وزوجته خدمة ضيوفهم ويحثونهم على تناول الطعام. وهذه الوليمة التي تقام غالبا في الهواء الطلق يتبعها انطلاق الشباب في الرقص والأغاني الشعبية. وفي نهاية الحفلة يشكر المدعوون المضيف على حفاوته، ويتمنون للمضّيفة أن تعد في الصيف كثيرا من الزبدة والجبن، وأن تكون مواشيهم بعيدة عن الأمراض وينهوا مرعاهم الصيفي بسعادة".

"ويطلق على هذا الاحتفال باللغة الكردية "سەری بەز" أي بداية نمو المواشي. وقد حضرته لأول مرة في حياتي ودهشت به كل الدهشة. ولكن الأب والأم كانا يبتسمان ويقولان أن "سه رى به ." ليس بالعيد الكبير، فعما قريب يحل الـ (برو-دان) أفضل أيام السنة. لذلك كنت أنتظره بفارغ الصبر"

" وبعد أن تنمو الخرفان وتقوى ويزداد ذوبان الثلوج في الجبال، يحدد (الأوباباشى) يوم (برو-دان) أي يوم الرحيل من الدولكا باتجاه المراعي الجبلية ويكون الاستعداد لهذا اليوم قد بدأ منذ أسبوع، وها قد حل يوم الاحتفال. منذ الصباح الباكر يرتدي الجميع أفضل ملابسهم وتزين الفتيات اللواتي لبسن ملابسهن الزاهية رؤوسهن بالزهور البرية النضرة ويعلقن بأنهوفن، الخزامة والقطع الذهبية المستديرة ومعها حلقات ذهبية، كأقراط، وتهيئ الموسرات منهن أنوف بناتهن منذ الطفولة لهذه الغاية. كذلك تزين الخراف النعاج والمعزى بخصل الصوف المذهبة وتعلق في رقاب أفضل الكباش الجلاجل النحاسية ثم يتركون النعاج والحملان لتعود إلى القطيع المشترك ثم يحدد موعد السير".

"وعندما تكون الشمس قد تجاوزت الأفق صوب كبد السماء، تكون الاستعدادات قد أوشكت على الانتهاء. وفي مثل هذا النهار الربيعي اذ تكون السماء صافية والهواء منعشاً ومعطرا بأرياح الأزهار البرية التي تفتحت براعمها للتو، تحين ساعة الاحتفال وقد أصبح كل شئ جاهزا. فيعطي (الأوباباشى) إشارة البدء بالرحيل ويتقدم موكب (برو-دان) -الراعي الرئيس في أحسن ثيابه وفي يده مزماره. انه يقوم بدور القائد ويعطي تعليماته إلى

الفتيان في طريقة معاملتهم للحملان أو النعاج التي ترفض إرضاع صغارها. ويأتي خلف الراعي الرئيسي اكبر وأجمل كبش وهو ما يسمى بالكردية (نيري) وقد علّق في رقبته جرس يرسل رنات عالية. وقبل الانطلاق مباشرة يخاطب كل مالك رعاته بالقول: "أني إذ ائتمنك على قطيعي، أطلب منك أن تؤديّ واجبك بأمانة وشرف".

"وبعد انتهاء هذه المراسم يبدأ الراعي الرئيسي بالعزف على مزماره فيتحرك الموكب، ويسير القطيع بانتظام خلف الراعي الذي يصاحبه الفتيان، بينما يحيط مساعدو الرعاة والصبايا بالجوانب ليحافظوا على سير المسيرة، وأحيانا يلوحون بقضبانهم أو يصفرون بطريقة خاصة ليمنعوا أي خلل في القطيع"

"ورغم انقضاء سنوات عديدة على اليوم الذي رأيت فيه لأول مرة موكب (برو- دان)، ماتزال الصورة عالقة بذهني، وكأنني أرى الآن مشاهد الأطفال المشرقة والشباب والرعاة بملابسهم الزاهية وأغانيهم الشعبية تحت ضوء أشعة الشمس الساطعة، حيث كان الوادي مغطّى بطبقة من الخضرة، بينما كانت الجبال التي تمتد أمام نواظرنا من بعيد ماتزال مكسوة بالثلوج. أما ثغاء الحملان والنعاج وصغير الرعاة وأغانيهم مع الفتيان، فكانت تتجاوب من بعيد في الوادي العميق ويأتي الأهالي من أماكن سكناهم مسرعين لمشاهدة هذا الموكب المبهج"

"لم تكن هذه المواكب تتكرر في السنة إلا مرتين، في الربيع عندما تنتقل القطعان إلى مراعي الصيف، وفي أواخر الخريف عندما تعود إلى القرية. ويجب أن لا يغيب عن بالنا أن ثروة الكرد تتجلّى في قطعان مواشيهم. ان إيرادا جيدا من الحليب يضمن لهم خلال سنة كاملة ذخيرتهم من الدهن والجبن، بالإضافة إلى بيع الفائض منها في المدينة فضلاً عن الصوف، كما يضمن لهم المواشي المخصصة للذبح من اللحوم. وبذلك يتمكن الكردي من دفع الضرائب المفروضة عليه وتوفير اللوازم التي تحتاج إليها أسرته من المدينة. ولهذا السبب لا نستغرب إعطاء مناسبات خروج قطعان الماشية إلى المراعي صيفا وعودتها خريفا مثل هذه الأهمية في حياة القرية الكردية واعتبار أيام (برو - دان) من أيام السنة المهمة.

"لم تكن الطريق طويلة في المرحلة الأولى من السير. فبعد أن صحبنا الشباب بضجيجهم بضعة كيلو مترات، عادوا إلى بيوتهم من حيث أتوا. بينما استمر الرعاة ومساعدوهم المكلفون بالتموين في سيرهم ببطء. وقد اكتفينا في اليوم الأول بالسير مسافة وقصيرة، ثم مددّت مسافة السير في الأيام التالية. كل ذلك من أجل أن تتعود الخرفان الصغيرة على السير دون كثير إرهاق.

"تتبع قطعان الماشية الواحدة منها الأخرى بمسافات قصيرة. وفي أول توقف لها تترك الدواب لتستريح وترعى من الأعشاب. وخلال هذه الفترة كان والدي بوصفه الراعي الرئيسي، ينهمك في تقسيم المواد التي قدّمها المالكون هدايا للرعاة بصورة متساوية، كالخبز واللحم والـ "هلوا" التي هي صنف من الحلوى الجوزية، والفواكه المجففة لقد كان والدي يقوم بمهمة المرشد للطريق والمشرف على نصب الخيام في أول معسكر لنا لحين وصل أصحاب المواشي، وكان الرعاة يأتون إليه في المساء لتلقّي التعليمات منه، وكانوا يوجّهون اليه العديد من الأسئلة: كم مرة ينبغي أن نتوقف من أجل استراحة الماشية وبخاصة الحملان منها؟ كم مرة نتوقف لسقي الماشية؟ وهل نتوقف خلال النهار لاستراحة النعاج والخراف؟".

"في أول تخييم لنا، لم نبق وحدنا لفترة طويلة، إذ انضم إلينا أصحاب المواشي مع عوائلهم بعد أربعة أيام وانهمكوا في نصب خيامهم السود. ان الخيمة الكبيرة التي تضم أكثر من قسمين تنسج عادة من صوف الماعز وتسمّى (كونى). وخيمة الكردي الميسور الحال تكون عادة كبيرة ومقسمة إلى عدة أجزاء ومفروشة بالبسط واللباد (كوشمه)، ويكون أحد أجزائها الجانبية مخصّصاً للضيوف، وقسم آخر منفصل أيضا يتّخذ مخزنا للمؤونة من منتجات الألبان: الزبد والجبن واللّبن الرائب. أما بالنسبة للأقل يسارا فتكون الخيمة أصغر وتشمل قسما للسكن وقسما آخر مخزنا للمؤن"؟

وكانت الخيم تنصب على انفراد أو في مجموعات صغيرة على منحدر الجبل أو في السفوح أو الممرات ذوات الصخور العالية حيث تجري السيول الصاخبة والجداول النازلة من الجبال. ومن بعيد تبدو مجموعة الخيام هذه وكأنها معسكر للجيش".

ثالثا - أهمية تربية المواشي:

توفر قطعات الماشية للكرد كل ما يحتاجون إليه من أسباب العيش. وأهم الحيوانات الرئيسة الأليفة لديهم هي الخيل والحمير والماعز والغنم ذوات الألايا والكلاب. أما الجمال والأبقار فهي قليلة لديهم[٢]. وللخيل أهمية خاصة لدى الكرد، ويستخدم للركوب فقط وأحيانا كدابة لنقل الأشياء ويستخدم حليب الفرس في بعض الأحيان كشراب غذائي، ولكن أقل بكثير مما لدى بدو تركستان. أما في أرمينيا فان تربية الخيول تعد من الأمور النادرة. ونظرا لأن بلاد الكرد معرضة دوما لظروف طارئة، كما أن المناطق التي فيها سلطة إدارية تخضع لضرائب كثيرة وتسخر فيها أفضل الدواب الموجودة للأغراض العسكرية، فقد قلّ اهتمام الناس بتربية الخيول. وتربى الخيول بوجه خاص في المناطق التي تقع على الحدود الإيرانية-التركية حيث الطرق مهيأة هناك أحسن مما في غيرها، ولأن العشائر التي تعيش فيها ماتزال تحتفظ باستقلالها النسبي. وقد اشتهر بتربية الخيول الكردية العشائر التي تقطن جبال زاگروس وكذلك أبناء عشيرة (حيدرانالى) التي تقطن منطقة (آلاداغ) بين بحيرة وان وجبال آرارات. ان الهضاب العالية المعشوشبة ذات المساحات المحدودة نسبيا أفضل لتربية الخيول من الممرات والوديان العميقة في البلاد. وتشبه الخيول الكردية الخيول العربية،[٣] إلا أنها أصغر منها حجما واكثر منها قوة بالمقابل. وقد تآلفت الخيول الكردية مع طبيعة البلاد. ولذلك فعندما يجد من يمتطيه صعوبة بالغة في اجتياز موقع ما، فانه

---

[٢] يبدو أن ما يعنيه المؤلف هو الجواميس التي تربى في بعض مناطق كردستان وليس الجمال التي لا يستخدمها الكرد أبدا - المترجم.

[٣] يلاحظ أن اصل الخيول وخصائصها في الوسط الكردي تعكس تقليدا عربيا ولكن بمستوى أقل. كما أن الشعر الكردي يتضمن إشارة إلى اثنين من أفضل أنواع الخيول. بينما المعروف بين العرب خمسة أنواع. وحسب ما ذكره أحد الكتاب الإيرانيين توجد في منطقة أردلان ما بين ٦٠٠.٠٠٠ إلى ٧٠٠.٠٠٠ خيل. ويقول أحد الرحالة الألمان أن استخدام الخيل ليس بالأمر المألوف في كردستان الجنوبية. بينما يذكر ريج أن الكرد في منطقة السليمانية فرسان جريئون ولكنهم سيئون. وهم. بعكس العرب. لا يتلاءمون جيدا مع تربية الخيول ويفسدون العرق الجيد منها في سباقات مجهدة على أرض مليئة بالحجارة. بينما يقول الكولونيل شيل انه رأى بين الكرد في جنوب بحيرة (أورومية) فرساناً مهرة ذوي خبرة.

يسلك سلوكا هادئا مرنا اكثر مدعاة للاطمئنان والثقة مما في المواقع الأخرى. ويعد الكرد بوجه عام فرسانا مهرة، والرحالة الذين زاروا المناطق الكردية التي تربي فيها الخيول لم يكفّوا عن الإشادة بمآثرهم في الفروسية.

وفيما بين الحكايات الواردة في (شرفنامه) "طبعة القاهرة، ص ٣٧٧"، أن زعيما كرديا في منطقة موكري هو امير بيك بن شيخ حيدر الذي كان في ائتلاف مع الترك، هاجم الفرس في عز الشتاء في منطقة (مراغه) وجلب معه عند عودته كغنائم حرب، جيادا عربية وضعها في مربض لتحسين نسل الخيول للشاه طهماسب كان يقع في (كرج). وتضيف الرواية أن هذه الجياد كانت تسابق الريح بأرجلها وكأنها ولدت من الأرواح الشريرة "ديوزاده"..، ولم يمتلك في أي عصر من العصور حاكم مقتدر جيادا مثلها".

ويقتني الكرد، ولكن بدرجة قليلة، الحمير، بينما يقتنيها الأرمن بكثرة. وتوجد الأغنام لدى الكرد بوفرة، وهي تعد مصدرا مهما لملابسهم ومأكلهم.. الخ. ويتميزّ الغنم الكردي بضخامة جسمه، وله ذنب مزدوج من الشحم (الية). ويعيش هذا الصنف من الأغنام في مناخ يجمع بين البرودة القاسية والحر الجاف،إذ تمر ثمانية أشهر من البرد والثلج وأربعة أشهر من الحر اللاذع. وقلّما يمرض هذا الصنف من الماشية ذات الصوف الأكثر متانة ونعومة من صوف أغنام العراق وسوريا العطشى. والأصناف الأخرى التي تربي في هضبة أرمينيا بعد تجاوز آسكى شهر - أفيون هي (كرهمان الأبيض) أو (آق كره مان). ومع التوغل شرقا وابتدأ من أرمينيا القديمة، نجد صنفا آخر من الأغنام طويل الصوف يطلق عليه اسم (آديميس)، ثم يبدأ الغنم القاتم اللون يزداد أكثر فأكثر وهو (كره مان الأحمر) أو (قزل كره مان) وأصناف أخرى سوداء اللون هي (توج، وهيريك، ومور)، بالإضافة إلى (كركس) الخليط من الأحمر والأبيض من (آق) و (قزل كره مان) الموجود أيضا في منطقة الحدود مع سوريا. ويكثر الطلب على هذا الصنف من الصوف الملون من المصانع الغربية، ويهتم به كذلك مربو الأغنام لأن لونه يحميهم من انعكاسات الشمس وآثارها (حمرة الشاة) [٤].

---

[٤] بالزان. الأغنام في تركيا. في دورية Union Ovine عدد شباط - مارس ١٩٤٠.

وتستخدم النساء الكرديات صوف الغنم وشعر الماعز في صنع اللباد[٥] أو لغزلها لصنع الثياب من خيوطها، أو لصنع الخيام. ويشكل اللبن في مخلف مشتقاته الغذاء الرئيسي لدى الكرد. وخلافا لما قد يتصوره البعض فان اللحم نادر الاستعمال في قوائم مأكولاتهم. ان قطيع الماشية يعد رأسمالاً لدى الرحّل. والغنم اللبون لا تذبح إلا عند الضرورة. أما الخرفان فتقايض بالحبوب، لذلك يقتصر تناول اللحم على المناسبات المهمة. أما المواشي ذوات القرون فان الرحل قلما يربونها لأن الأبقار التي لأتحمل الارتحال والتنقل المستمر، بينما يتفق ذلك مع طبيعة الغنم والماعز. وتكثر تربية الأبقار ومثيلاتها لدى أشباه الرحّل الذين يستخدمونها لحرث الأرض[٦].

أما بالنسبة للكلاب فمهمتها الحراسة من الحيوانات الضارية والقادمين غير المعروفين. لذلك ينبغي على المرء أن يأخذ حذره منها. وهي تشبه الذئاب الضخمة ذوات الرقاب الغليظة، آذانها مبتورة وذيولها طويلة وذوات شعر كثيف، ولونها أما أبيض تمام البياض أو أسود، وهذا النموذج هو السائد بصورة مطلقة.

وهكذا نجد أن حياة الكرد حياة منظمة ومهيأة حسب حاجات قطعان مواشيهم. ان ذوبان الثلوج وظهور نباتات الربيع على هضاب أرمينيا يعني اقتراب الموعد الذي يتحرر فيه الرجال وتنطلق فيه الحيوانات من عقال الشتاء. فمع بدء موسم البرد يدخل الكرد مواشيهم إلى الحظائر غير الصحية بسبب الوخم والمبنية على شكل ممرات متلاصقة مسدودة في النهاية، معتمة لا دوران فيها للهواء، طينية وحلة تقطع فجأة جولات مواشيهم الصحية خلال الأشهر المشمسة. وبسبب تكوم الحيوانات في هذه الحظائر فإنها تفقد نصف ما اكتسبته

---

[٥] يصف لنا بلندر في المصدر المشار إليه آنفا كيفية صنع اللباد وغيره، فيقول: لقد اطلعنا على طريقة فريدة لصنع اللباد الطويل والبسط والخيم ومعاطفهم الشتوية. تنشر نفايات الصوف على الأرض ثم تلف حول عصا بطول متر ونصف متر تقريبا ويربط حبل طويل بكل طرف منه وتشد نهاياتها بسرج حصان يعدو عبر فسحة ساحب أسطوانة تحت إشراف ولد صغير.

[٦] لتربية المواشي أهمية تعادل أهمية الزراعة في غربي ايران (كردستان ايران - المترجم) لأسباب ثلاثة. هي: أولا- أن هذه الحيوانات تعد مصدرا للسماد الطبيعي. ثانيا - يعد اللبن ومشتقاته مصدرا مهما للغذاء أو لبيعه ثالثا - يستخدم شعر الماعز لنسج الخيام وصنع الحبال. بينما يستخدم صوف الأغنام لصنع البسط. (لامبتون - المصدر المشار إليه. ص ٣٥٠).

من نعم الصحة بسبب الخدمة التي كانت تقدم لها خلال تلك الأشهر المشمسة، وتقدم لها ألاعشاب المجففة المهياة لهذه الفترة ، بالاضافة الى أوراق أشجار البلوط وأشجار الغابات الكثيفة والأدغال البرية التي تعيق اسنان المعزى الملهتبة من النمو. كما أن الشروط الصحية لهذه الحظائر سيئة للغاية، لذلك يسود الحيوانات التي فيها، فقر الدم وتنتشر الأوبئة في هذه البيئة المختلطة. ان هذه الحظائر الواقعة تحت سطح الأرض يطلق عليها اسم (آغل)، وهي تشبه مثيلاتها في كل من أرمينيا وكردستان ايران، بيد أنها غالبا ما تكون في الأخيرة خارج المناطق السكينة[٦ مكرر].

وإذا ما تأخر الربيع عن موعده كثيرا، تبدأ مؤونة العلف بالانتهاء، وعندئذ يهدّد المواشي خطر الجوع، وبمجرد أن تبدا الثلوج بالذوبان، يترك الكرد، على الأقل في أرمينيا، مساكنهم الواقعة تحت سطح الأرض وينصبون خيمهم على السفوح الجنوبية للتلال المعرضة أكثر للشمس والأكثر جفافاً، رغم برودة الليل. ولا يدوم هذا الفصل الربيعي أكثر من ستة أسابيع تقريبا. وتمتص أشعة الشمس رطوبة الأرض بسرعة وتجف التربة وتتيبّس الأعشاب، ويبدأ الكرد شيئا فشيئا بالرحيل صوب المراعي العالية، كما سبق بيان ذلك. ويقضي الكرد فصل الصيف في الجبال. ولندع الكلام مرة أخرى للكاتب الكردي عرب شمو:

"بينما كنا نجول مع المواشي في الجبال، كان أصحابها منهمكين في تمويل الحليب إلى منتجات قابلة لحملها والاحتفاظ بها أطول مدة. ويتم ذلك عادة بطرق بدائية. إن إعداد الزبدة لدى الكرد تستلزم عملا شاقا ومضنيا من قبل النساء، إذ يقمن بصب حليب الأبقار والأغنام والمعزى المجمّع خلال النهار في قدور كبيرة من النحاس (قازان) تتسع لسطلين إلى عشرة سطول، ثم يوضع القدر على النار. وعندما يغلي الحليب يترك حتى يبرد

(٦ مكرر) إن العناية التي تبذل للمواشي التي ترعى في المراعي منظمة بموجب ساعات محددة. فبعد مسيرة المساء تترك الحيوانات لتراعى ساعة أخرى (تلك هي وجبة المساء "شوخور")، ثم تدخل الحظائر خلال الليل في زرائب يطلق عليها اسم (هافين) حتى الفجر. وبعد الفجر تترك الماشية لمدة ساعتين إلى ثلاث ساعات (بشت خور) حتى يحين موعد سقيها. كل قطيع في المحل المحدد له. وبعد السقي يتم الحلب الصباحي في مكان يطلق عليه (دانيكا). ثم توضع الماشية من جديد في زرائب تسمى (بشتى رون) حيث تبقى لحين موعد سقيها المسائي. وتبدو هذه التفاصيل مملة. ولكننا لا نخشى ذكرها لنثبت للقارئ كم هي منظمة حياة الكرد فيما يتعلق بالعناية التي يبذلونها لمواشيهم.

قليلا. وبعد مرور عشر دقائق تقريبا تحدّد زوجة مالك الماشية درجة حرارة الحليب بواسطة أصبعها. وعندما يبرد الحليب إلى الدرجة المطلوبة للاختمار، تضيف السيدة لكل قدر معد ملعقة طعام من اللبن الرائب وتغطّى بعناية كل واحد منها بمنسوج صوفي (ايلوب). وفي الصباح يتحول اللبن إلى لبن رائب وتضع السيدة جميع اللبن في قربة من الجلد (مشكه) تشد جيدا، ثم يبدأ العمل غير السهل، إذ يجب أن تخض القربة تارة إلى الأمام وتارة إلى الوراء مع إضافة الماء البارد إلى اللبن الموجود في القربة بين حين وآخر، طالما ان اللبن لم يغد بعد مخيضا. وعندما يحين هذا الوقت، وهو لا يتم بسرعة لأنه يستلزم بذل المزيد من الجهد الشاق الممل، تصبّ محتويات القرب في اكياس مخروطية خاصة من الكتان تضغط فيها الزبدة.ثم تستخرج الزبدة المعدة بهذه الصورة وتغسل بالماء البارد ويضاف إليها الملح في أوعية نظيفة".

"وتستخدم بقايا الزبدة، وتسمى باللغة الكردية (دو) لتهيئة الجبن الأبيض. فبعد أن تملح تضاف إليها أعشاب بريّة مختلفة. وعندما تتثبت بصورة تامة، توضع في أكياس من الأقمشة القطنية ويضغط عليها بالأقدام وتعطى المصالة للعجول. اما الجبن المضغوط فيكبس داخل القرب. ويعتبر الجبن الأبيض غذاء أساسيا للكرد، ويعد الأغنياء منهم واحدة أو اثنتين للعائلة".

"ويعد الجبن أيضا بطريقة بدائية كذلك، اذ تضع النساء في القدور كمية الحليب الذي استحلبنه خلال النهار شرط أن لا يكون الحليب دسما، لأنهم يعتقدون ان تهيئة الجبن من الحليب الدسم خطأ، ثم يغلى الحليب ويختمر بعدئذ بواسطة المشيمة".

"ولهذا الغرض يجمع الكرد المشيمات لدى حدوث حالة الاسقاط لدى الأغنام، وبعد تنظيفها جيدا بواسطة البلور، يتم تجفيفها وتقطع قطعا بحجم القطع النقدية الصغيرة تقريباً لتستخدم في تهيئة الجبن في هذه القدور. ويتم الاختمار بسرعة إذ يتخمر اللبن خلال ١٥ إلى ٢٠ دقيقة، ثم توضع داخل أكياس صغيرة من القطن أو الكتان مهيأة خصيصا لذلك سلفا ,وتوضع فوق بلاط من الحجر الناعم الملمس ويوضع فوقها حجر ثقيل بدلا من عصرها

بواسطة المعصرة. ويستخرج الجبن المضغوط في شكل قطع مدوّرة ومسطّحة وتجفف في الهواء الطلق".

"ان ارتحال الكرد صيفا طلبا للكلأ ونقل مواشيهم من مكان إلى آخر لا يتم عرضا. فمع بداية الربيع يبدأ الثلج بالذوبان بصورة سريعة وبدرجة أقل في الجبال بدءا من المنحدرات المنخفضة. وشيئا فشيئا يظهر الكلأ في كل أسبوع في مساحات كانت تغطيها الثلوج وذلك بفعل الرطوبة وحرارة أشعة الشمس. وهكذا يصعد هؤلاء الرجال مع مواشيهم الجبال شيئا فشيئا في متابعتهم لحركة ذوبان الثلوج. وفي الخريف وخلال النصف الثاني من تشرين الأول (أكتوبر) تبدأ الرحلة المعكوسة اذ يتساقط الثلج في الجبال ويهطل المطر في الوديان فيضطرهم ذلك إلى الهبوط تدريجيا بالابتعاد عن الثلوج، إلى ان ينتهي بهم الأمر للعودة إلى موطنهم الأصلية، حيث يكون الكلأ قد عاد ينمو في الصيف. وفي نهاية الخريف تنزل الماشية مع أصحابها إلى الوديان حيث لا أثر للثلوج فيها. واذا ما سقط بعض منه فانه يذوب خلال النهار، وأخيرا عندما يبدأ الثلج بالسقوط في الوديان، تعود الماشية مع أصحابها إلى مواقع سكناهم الأصلية خلال فصل الشتاء".

ويحتفل الكرد بهذه الرحلة الخريفية لمواشيهم كحدث سعيد، اذ رغم تمتّعهم بنعيم الحرية خلال فترة البحث عن الكلأ صيفاً، إلا أن بعض المخاطر يعترض طريقهم أحيانا، لذا فهم فرحون بعودتهم سالمين مع مواشيهم. ويتشوّق الرعاة أيضا لتسلم أجورهم لقاء فترة عملهم الصيفي، كما أن أصحاب المواشي أيضا مسرورون بما جنوه من أرباح. ومع ذلك لا يصح مقارنة هذا الاحتفال بعيد (برو-دان) الربيعي، لأنه أقل حيوية وتلقائية منه".

يؤثر التحول الفصلي تأثيرا كبيرا على الحالة النفسية للكردي، ويتبين ذلك بوضوح عند حلول الخريف بأيامه الحافلة بالنشوة والأمطار والضباب. ويقال أن الحيوانات هي الأخرى تحس أيضا بهذا التغير المقبل. وعندما كنت أسوق قطعاني

صوب الوديان وقد شبعت من الكلأ وتقوت أجسامها، كانت تبدو لي حزينة وهي تدني رؤوسها حزينة بأسى لإحساسها بأن الحرية التي كانت تتمتّع بها خلال موسم الصيف على وشك الانقضاء، وسوف تبدأ لها فترة السكون الطويل ببقائها في زرائب ضيقة".

"وبطبيعة الحال تأخذ الحياة بمتطلباتها وهمومها مسارا آخر، فتتحدث كل امرأة مع صديقاتها، وهنَّ في طريق العودة، عما إذا كانت الرحلة الصيفية ناجحة، كما يتحدثن عن مقادير الزبدة والجبن الأبيض التي أعددنها خلال تلك الرحلة. ويهتم الرجال بمسألة بيع منتجاتهم من الزبدة والجبن والصوف ليشتروا بأثمانها القمح والشعير. ان الكرد الرحّل الذي يمتهنون الرعي بدرجة أساسية لا يمارسون الزراعة فيضطرون لشراء خبزهم من الغير. ان مسألة أسعار الحبوب تعدّ من الأمور المهمة بالنسبة لهم، كما يتناقشون في موضوع تنظيم المراعي الشتوية لأنهم لا يكلفون أنفسهم بجمع العلف ويخرجون مواشيهم لرعيها خلال فصل الشتاء أيضا[٧]. وتتباهى النسوة فيما بينهن بالحاجيات التي اشترينها من الباعة المتجولين، كالمناديل وحلي الزينة والخيول والأبر والأزرار وغيرها، ويتهامس الشباب والشابات فيما بينهم بالأسرار، من منهم أو منهن اختار خطيبة له أو خطيبا لها، وهل اتفقا نهائيا على الزواج؟ ويتسامر العشاق بأحاديث عن الصيف الماضي الذي انقضى بسعادة ويتذكرون الأماكن التي تلاقوا فيها والينابيع التي شربوا معا من مياهها الصافية الباردة، والليالي المقمرة التي قضوا فيها أسعد أوقاتهم بين الجبال والأزهار البرية، كما يتذكرون الأماكن التي لعبوا وضحكوا ورقصوا وغنوا أغانيهم المفضلة فيها بعيدين عن أعين الأهل اليقظة. ويتكلّمون أخيرا عن

---

[٧] وهذا على العكس مما يحدث في الهضاب الأرمنية كما رأينا ذلك. (ان التعميم الذي أورده المؤلف بشأن إخراج المواشي في كردستان في فصل الشتاء للرعي غير وارد بالنسبة لجميع أرجاء البلاد إذ يتولى أصحاب المواشي في مناطق كثيرة من كردستان تهيئة العلف لمواشيهم لفصل الشتاء حيث لا يستطيعون إخراجها للرعي بسبب البرد ولأن الأرض كلها تغطيها الثلوج – المترجم).

اللحظة الحاسمة التي أقسموا فيها باسم (خودا) الله على أن يبقوا أوفياء مدى الحياة للعهود التي قطعوها على أنفسهم لحبيباتهم".

"وتبرز الشابات لصديقاتهن هدايا الخطيب أو الحبيب، حلقات من الفضة أو النحاس، مرايا مذهبة الأطراف أو خرزا من الوان شتى. ويروي الشباب بدورهم لأصداقائهم عن الهدايا التي تسلموها منهن: مناديل جيب أو حافظات نقود مطرزة بالحرير الملون أو جوارب من الصوف منسوجة يدويا أو قفازات، وحولها الأعشاب المتيبسة والأزهار الذابلة والأشجار التي اصفّرت أوراقها؟ وتحت السماء اعابس والرياح الشديدة التي تجعل الإنسان يسرع خطاه".

وهكذا يتقدم الكرد مع عوائلهم ومواشيهم ببطء على طرق منقعة بماء المطر الخريفي وهم يعودون إلى منازلهم الشتوية، وتنصرف النسوة هنا أيضا لتهيئة مستلزمات الشتاء بسرعة وترتيب المنتجات التي جلبوها معهم من الجبال وتنظيم البيت وعدّ الدواب".

"ثم يحل يوم (بران بردان) أي إطلاق الخراف الذكور وسط الإناث، وهو يوم يفرح به الرعاة ومساعدوهم كثيرا إذ تنتهي في هذا اليوم مدة خدمتهم ويتسلّمون أجورهم لمدة عملهم الصيفي. وفي يوم (بران بردان) تفصل النعاج في حظائر مسيجة وتطلق بينها الأكباش النابتة لأخصابها، وكانت هذه الأكباش ترعى خلال الصيف كله في قطيع منعزل. ويتخذ هذا الإجراء كي تحمل النعاج في موعد قريب من الربيع المقبل، ويأخذ بعض الشباب أحيانا بإطلاق النار في الهواء كأنهمّ يحتفلون بزفاف نعاجهم. وتهيأ في هذا اليوم أصناف من الأطعمة اللذيذة مثل (مرتوكا) وهو صنف من الحلوى و (كاتا) وهو نوع من الزلابية الرفيعة المحلاة بالسكر و(قاورمه) أي اللحم المحمص، ويدعى الجميع للعشاء ويوزع ما يتبقى منها على الفقراء في صحون خاصة".

وتنزع الفتيات عن رؤوسهن المناديل الحريرية ويربطنها حول أعناق الخراف المحبّبة اليهن، فيتقدم الشباب ويأخذونها تعبير عن حبهم لهن ورغبتهم في

الزواج منهن، ويراقب الأهل الفتى الذي التقط منديل ابنتهم، وهم يعرفون أن الاتفاق كان قد تم في الصيف. فإذا لم يمانع الأهل عقدت الخطوبة، وبعد وقت قصير يحتفل بالزواج. ويفضّل الأهل عادة خطيبا غنيا لأبنتهم. وكان من النادر في السابق أن يوافق الأغنياء على زواج ابنتهم من أحد الرعاة".

"وبعد الاحتفال بيوم (بران بردان) يقوم أصحاب المواشي بتسوية حساباتهم مع الرعاة، فيتسلم الراعي المبلغ مقابل أتعابه خلال الصيف من ٨ إلى ١٢ رأسا من الخرفان الصغيرة إضافة إلى مساعدة من ٣ إلى ٥ رؤوس. وكانت العادة المحلية الجارية تقضي بتسلم الراعي خروفا واحدا، من كل ٢٥ رأسا من الخراف التي كان يتولى رعايتها. فإذا كان صاحب الماشية يملك قطيعا من ٢٠٠ رأس إلى ٢٥٠ رأسا من الخراف، أعطى الراعي من ١٠ رؤوس إلى ١٢ رأسا منها، وكان ذلك يمثل أجرا قليلا نسبيا مقابل العمل الشاق المليء بالمخاطر الذي يقوم به الراعي. وكان بعض أصحاب المواشي يحاولون خدعنا بوسائل أخرى غير مشروعة، كأن يتفق أحدهم مع جار له أقل يسارا منه ليضم قطيعه الى قطيعه مقابل أجر معلوم، دون ان يعطي راعيه شيئا مقابل هذه العملية".

رابعا - الزراعة والقطاف والصيد:

عرَّفنا القارئ حتى الآن على نمط الحياة التي يعيشها الكرد الذين يعتمدون بدرجة أساسية على تربية المواشي، ولكننا نجد الكرد يلجأون في منحدرات أرمينيا إلى زراعة بعض الحقول بالشعير ربيعا، غير أن الغلة التي يحصلون عليها قليلة جدا لأن حراثة الأرض تتم بمحراث بدائي خشبي. ويستخدم الشعير في صنع الخبز، كما يقدم أيضا علفا للخيول لعدم زراعة الشوفان في أرمينيا. إلا أن الزراعة أكثر تطورا على منحدرات جبال طوروس الجنوبية باتجاه سهل بلاد ما بين النهرين، حيث تجد المواشي مراعي للشتاء أيضا. وليس من الصحيح أبدا أن ننظر إلى الكرد رعاة أو رحلا أو أشباه رحل، فهناك أكثر من منطقة كردية، في كردستان ايران مثلا، يعيش فيها الكرد حياة متحضّرة ويجيدون الفلاحة

والزراعة. وحتى في الأقاصي البعيدة من كردستان الوسطى (هركي-أورامار) نجد زراعة متطورة وتستثمر كل بقعة بعناية في حقول ذات أرصفة منسّقة، مع وسائل ري متقنة ومصانة. وفي بعض الأماكن يعتقد أن أعمال جر المياه تعود إلى حقب قديمة كما لاحظ ذلك مثلا ليرج:

ان الكرد، شأنهم في ذلك شأن قدماء الكلدانيين[٨] ذوو مهارة فائقة، لا يتقاعسون في العمل لشق جداول المياه لري أراضيهم، ولكن اهتمامهم بالزراعة، شأنهم في ذلك شأن جميع سكان الجبال، اهتمام ثانوي. ومع ذلك يعتبرون اكثر من العرب اهتماما بها. إنهم يمتهنون الزراعة بالقدر الذي يحتاجون إليها في معيشتهم، ويستخدمون القش علفا لحيواناتهم، ويزرعون على وجه الخصوص الذرة والقمح والشعير والرز، بالإضافة إلى التبغ، إلا أن ثروتهم الأساسية تكمن دائما في مواشيهم[٩]. هناك مثل كردي يقول: "لا العرب يأتلفون مع زرع الكروم، ولا المسيحيون مع تربية الأغنام". ويشار إلى هذا التناقض الصارخ لدى الإشارة إلى الكرد، كأناس مهرة في تربية المواشي[١٠].

ويجمع المؤرخون على تأكيد ان العقبة الرئيسية أمام انتشار الزراعة بين الكرد تكمن في نظام الضرائب الذي يثبط كل عزيمة لديهم. كما أن الأمراض والكوارث التي تصيب أحيانا قطعان المواشي تحملهم مرغمين على الاشتغال بالزراعة. وينبغي أن نشير في الحديث عن اقتصاديات الكرد إلى دور الصيد وجمع بعض منتجات التربة. ففي أرمينيا حيث تندر

---

[٨] يعثر الباحث أحيانا على آثار فنية قديمة في كردستان. "فعلى الضفة اليمنى من نهر (بيلاس) يوجد حاجز عمودي مرتفع جدا، وعلى مسافة خمسين مترا فيه توجد خرائب جسر مائي قديم ما تزال خمس أو ست قناطر منها باقية. ونتساءل كيف أن أعمالا كهذه تركت بهذه الصورة، وبمبادرة ممن أقيمت. وإلى أي عصر تعود؟ وتتبادر الى ذهني أجوبة كثيرة عن هذه الأسئلة. ان عدم وجود أي كتابة على هذه الآثار يجعل من المحال تقريبا التصرف على الملامح التاريخية لهذه البلاد" "بندر، المرجع المشار إليه آنفا، ص ١٨٧".

[٩] ليرج، المرج المشار إليه آنفا. الجزء الأول، ص ٢٣-٢٤

[١٠] روندو، قبائل جبيلة، (دورية الدراسات الفرنسية) التي كانت تصدر في دمشق باللغة الفرنسية. ١٩٣٦ الجزء السادس، ص ٣.

الغابات،[١١] يشكل الاحطاب للوقود اهتماما جديا للناس، إذ لا يجدون في كثير من الأماكن غير صنف شائك من نبات القتاد (الاستركان) الذي يستعملونه وقودا، وهذا الصنف يجب قلعه من الجذور بواسطة السكاكين. ويحمل الكرد هذه المادة التي يستعملونها وقودا، بواسطة الدواب ومن أماكن بعيدة إلى المدن حيث يبيعونها في الأسواق. ويصنع الكرد الفحم من الاحطاب أيضا. وإضافة إلى كل ما ذكر فان مادة الوقود الأصلية عند الكرد هي فضلات الأبقار التي يمزجون بها التبن والأوراق الجافة والتي يسمونها (تباله). ومن شوك القتاد يحصلون أيضا على الصمغ بقطعه من الجذور. ومن أشجار البلوط القصيرة النمو يحصل الكرد في جبال طوروس الجنوبية وكذلك في كردستان الجنوبية على العفص الذي يعتبر واحدا من المواد الضرورية جدا للدباغة، كما يحصلون على نوع من (المن) الذي يشبه السكر الأبيض ويستفاد منه في صناعة الحلويات الشرقية. ويجمع الكرد كذلك في الجبال نباتات يستعمل بعض منها مواد غذائية من أمثال (ذكر المؤلف أسماء نباتات لم أجد ما يماثلها في اللغة العربية - المترجم)، وبعض منها تقتل الحشرات. وانطلاقا من الواقع غير الصحي لمنازل الكرد الشتوية فان هذا النوع الأخير ضروري جدا. والكرد مطّلعون جيدا على خصائص بعض الأعشاب والمواد التي تستعمل للتلوين والصبغ، ويجمعون هذه الأعشاب والنباتات ليستفيدوا منها في صناعة الفرش والسجاجيد. وأخيرا ينبغي أن نشير ضمن المواد التي يجمعها الكرد في الجبال إلى الثلج، الذي يقوم مقام الثلج الصناعي فينقلونه إلى العمادية والموصل صيفا ليبيعوه لسكان المدينتين المذكورتين.

أما الصيد فانه ليس موردا مهما وبخاصة في أرمينيا حيث يندر وجوده. وتوجد الأيائل والعنز البري والذئاب والخنازير البرية والثعالب والدببة في جبال طوروس. ولكن نظرا لأن الكرد يستعلمون أسلحتهم بوجه عام لحماية قطعانهم من الحيوانات المفترسة، فقد قل عدد

---

[١١] وبالعكس ان القسم الغربي من كردستان ايران كثيف الغابات، وفي هذه المناطق يصنع الكرد جميع حاجاتهم المنزلية ومنها مواعين المطبخ من الخشب، وهذه الأدوات انسب وأولى لهم لأنها أخف وزنا وأكثر مقاومة عند الحمل والنقل في مواسم الارتحال إلى المراعي الصيفية. (المرتفعات المنفصلة عن سردشت، ومن ثم من مرتفع كه لى خانْ الواقع شمالي غربي سنندج وحتى مناطق زاورو، وكاورو، وسوروسور، وجوانرو، ولهون، وهورامان، ومريوان، وبانه في مساحة بطول حوالي ٣٠٠ كيلو متر).

هذه الحيوانات إلى حد كبير. ومن المعلوم ان آثار الابادة المنظمة أكثر ضررا من قتل تلك الحيوانات واحدة بعد أخرى وبصورة متفرقة في الصيد[١١ مكرر].

خامسا - الصناعة اليدوية والتجارة:

في دراستنا للصناعات اليدوية المنزلية، ينبغي الإشارة إلى ما تصنعه النساء من أنسجة وفرش، هؤلاء النساء اللائى يبدين كثيرا من الذوق والأناقة فيما يخص ملابسهن أو ترتيب وتزيين مساكنهن في الخيام. وهناك أيضا ينبغي أن نأخذ بعين الاعتبار درجة استقلالية الكرد عن السلطة ومتطلباتها وبخاصة فيما يتعلق بالضرائب، فحيثما تمارس هذه السلطة بشكل فعال، ترتفع نسبة الضرائب، ونجد الجماهير الكردية في فقر مدقع فيظهرون قدرا ضئيلا من المبالاة بالنسبة للصناعات اليدوية والأنسجة الفنية التي يوحي بها إحساس فني بدائي ولكنه فطري لا تعوزه النضارة والبراعة في تنسيق الألوان ..الخ. وتشتهر منطقة (سنه) بكردستان إيران بصناعة سجادات الصلاة. كذلك نلاحظ هذا الذوق والأناقة على بعض المواد ذات الاستعمال الاعتيادي كالنقوش التي على مقابض الخناجر الكردية المصنوعة من العظم وعقد الأحزمة من الفضة والتطريزات. ويجب أن لا يغيب عن البال أن كردستان ليست بلاد الرحل والفلاحين حسب، بل فيها العديد من المدن والقصبات الكبيرة التي نشأت فيها منذ القدم صناعات يدوية فنية أصبحت من تقاليدها العريقة. ويكفي ان نذكر على سبيل المثال (وان) وبتليس واربيل و(سنه) وساوج بلاغ (مهاباد حاليا - المترجم) ..الخ التي هي مدن كردية صرفة تطورت فيها الصناعات اليدوية بجميع أشكالها كصناعة الجلود والمعادن والأخشاب[١٢].

[١١ مكرر] كان يوجد في قصبة تويله على الحدود العراقية - الإيرانية الشمالية، على الدوام، صناع ماهرون يتقنون في صنع مختلف أنواع السكاكين والخناجر والأدوات البرونزية وغيرها - المترجم.

[١٢] تصدّر من كردستان ايران سنويا حوالي عشرة آلاف فروة ثعلب وسمور إلى روسيا. كما أن السمامير المعروفة بالسمامير السيبرية موجودة فيها أيضا. وقد أشار ميلينجين في حوالي سنة ١٨٧٠ إلى وجود أعداد كبيرة من النمور في أرمينيا.

ويذكر لنا أسكيسيان في مقال له بعنوان (أبدال خان سيّد بدليس الكردي في القرن السابع عشر وخزائنه)، نشر في عدد نيسان - حزيران ١٩٣٧ من (المجّلة الآسيوية)، تفاصيل مثيرة عن القطع الفنية والأسلحة والحلْي والمخطوطات التي كان يمتلكها هذا الرجل، مما يحملنا بكل تأكيد على الاعتقاد بأنه كان بين الرؤساء الكرد من يهوون جمع التحف الثمينة ويتذوقون الفن ويشجعّون الصناعات اليدوية. ويوجد بوجه خاص في مدينة (سنه) صّناع ماهرون لصنع علب خاصة بالسكاير وصناديق التحفيات وصناديق الأمتعة والعصي الخاصة من القصب وطاولات الشطرنج، بالإضافة إلى الأواني الفخارية التي تصنع من الطين الغريني[١٣]. ويتمتع صاغة (وان) بشهرة كبيرة في صنع الكؤوس والنارجيلة من الفضة ..الخ "ان صناعة الأواني الخزفية وصلت إلى درجة عالية من الإتقان والدقة. ان قرية (زورك) نصف المهدّمة معروفة بصناعة الخزفيات" (ليرج، المصدر المشار إليه آنفا، ج١ص٢٤).

وإذا صحّ لنا أن نعتبر الكردي في الحدود التي أسلفنا صانعا يدويا، فلا يمكننا إطلاقا اعتباره تاجرا مجتهدا لهذه الصناعة. ورغم سيره وراء العيش البسيط، فقد اضطر لأن يجلب من خارج محيطه الحاجيات التي لا يؤمنها له اقتصاده الطبيعي. وتأتي في مقدمة هذه الحاجيات الأسلحة التي يشتريها من تجار الأسلحة الأرمن والفرس. وحتى قبل انتشار الأسلحة النارية، كان الكردي في حاجة لشراء الخيزران[١٤]،لرماحه وللأسلحة البيضاء التي يستعملها..الخ. وتأتي بعد السلاح الذي يعتبر ضروريا للكردي لتأمين حياته المعرّضة دائما للخطر، بحيث أنه مستعد لكل تضحية في سبيل الحصول عليه، تأتي حاجات الزينة الفخمة

---

[١٣] ويلاحظ روندو الذي عايش كرد سوريا بوجه خاص "أن الصناعات اليدوية متطورة بين النساء الكرديات اللواتي يغزلن وينسجن الصوف، كما بين الأرمن واليهود الذي يعيشون بين العشائر أو يجاورونهم من قرب. يمتهنون الصياغة والدباغة والحدادة".

[١٤] كان يوجد في قصبة (تويله) على الحدود الإيرانية–العراقية الشمالية الشرقية، على الدوام، صناع ماهرون يتقنون في صنع مختلف أنواع السكاكين والخناجر والأدوات البرونزية وغيرها. وفي مكتبة الأوقاف العامة في السليمانية اليوم آلتا أسطرلاب متقنتا الصنع من البرونز من عمل صانعين ماهرين من هذه القصبة يعود تاريخ كل منهما إلى أكثر من قرن ونصف — المترجم

التي يهتم بها كثيرا، لأنه يحب الثياب الجملية ويرتديها بأناقة عريقة في طبعه. وقبل أن تحلّ البنادق ذات الشهرة محل الرماح، كانت الأخيرة تزين بريش النعام، وكانت الأتراس الصغيرة التي يستخدمها في حينه عبارة عن أداة فنيّة بألوان زاهية أو مرصعة حسب المادة المصنوعة منها. ويبحث الكردي دائما عن المنسوجات الحريرية الفاخرة لعمامته ونطاقه الكبير. وكما هو الحال بالنسبة للخيل، فان سلاح الكردي وثيابه توصف وصفا مسهبا في أغاني الكرد وأشعارهم الشعبية. ويلجأ الكرد الرحل في الغالب إلى مقايضة السلع، فهم يعرضون في السوق إضافة إلى المواشي، الصوف والجلود والزبدة والجبن واللباد والسجاد والعفص وحطب الوقود. ونادرا ما يستعلمون النقود في عمليات التبادل[١٥]، إذ أن النساء الكرديات يستخدمنها لتزيين ثيابهن واللفائف التي يلفّفن بها رؤوسهن، وتجري عمليات التبادل هذه في أغلب الأحيان في فصل الخريف وبعد العودة من الرحلة الصيفية، وليس الكردي هو الرابح في هذه المقايضات.

ان أوجه الحياة الاقتصادية الكردية غير مهتم بها من قبل أكثر الباحثين الأجانب، ولا نملك في هذا الصدد الاّ شهادات قليلة تعود في واقع الحال إلى أمد بعيد. وحيث أن اقتصاد كردستان لم يتطور إلا في حدود ضيقة، لذلك باستطاعتنا تبين معالمه العامة[١٦].

وبإمكاننا أن نشير إلى بعض الدلالات التي تثبت وجود بعض المفاهيم الرأسمالية حتى في المناطق المعزولة من كردستان. ان هذه البلاد كانت في الحقيقة مركزا مهما لتموين بغداد والقسطنطينية بالمواشي، كما كانت تصدر الصوف والمنسوجات الصوفية والعسل والعفص والأصباغ المطيبة وبعض مواد الصباغة. وبالمقابل كانت كردستان تستورد الأسلحة والأنسجة القطنية والحرير والسكر وبعض الأصناف الاستهلاكية الأخرى. ويمكننا القول أن صادرات كردستان تفوق وارداتها، وان أموالا هائلة تتجمع لدى الشعب الكردي بضمنهم

---

(١٥) كانت أخشاب الخيزران تستورد من بلاد الهند بواسطة التجار الفرس انظر ميلينكنين، حياة بدائية بين الكرد.

(١٦) الاقتصاد السلعي انما هو من معالم المراحل البدائية في تطور المجتمع. ويمكن القول بثقة انه غدا في حكم الزائل في حياة المجتمع الكردي المعاصر – المترجم.

أهل المدن الذين يعتبرون الزبائن الأساسيين للمواد المستوردة، باستثناء السلاح كالرحل تماما.

لقد كانت القسطنطينية وحدها تستورد سنّوياً من كردستان ما لا يقل عن مليون ونصف مليون راس غنم أو بقر تصدر إليها مشيا على الأقدام من كردستان. ومن المحتمل أن أعداد هذه القطعان كانت أكثر من هذا الرقم بكثير، ولكن وعورة الطرق وطولها كانت تتسبّب في فناء قسم كبير منها أثناء السير، لذلك كان كل قطيع يضم من ١٥٠٠ إلى ٢٠٠٠ رأس. وكان الرعاة يتجنبون السير في طرق القوافل، لذلك كان يستلزم ١٧ او ١٨ شهراً لقطع المسافة من وان إلى القسطنطينية. ومن المواد التي تصدر أيضا من كردستان العفص حيث كان يصدر بما تزيد قيمته عن ٣٥ الف ليرة إسترلينية[١٧]. (وهو مبلغ يعد كبيراً قياساً إلى قيمة العملة في ذلك الزمن - المترجم). ومن المواد المصدرة ايضا، الحبة الخضراء التي تستخرج منها مادة دهنية تستخدم في صناعة الصابون. وكانت جذور الفوة من المواد الصبغية التي كانت تصدّر إلى خارج كردستان أيضا. كذلك كانت تصدّر من كردستان كميات هائلة من الصوف ومنه (الموهير) الذي يقدّر كثيرا في الخارج، وهو ينتج في منطقة جزيرة. وهذا الصوف الذي يعود لأحد أصناف المعزي يطلق عليه (أنكورا) يستخدم في صناعة الشالات والمعاطف. وتتميّز هذه الشالات بنعومتها وتنوع ألوانها الزاهية واختلاف نقوشها التي تشهد بحسن الذوق لدى المرأة الكردية. وتشتهر مدينة ديار بكر(آمد - المترجم) بمنسوجاتها الحريرية التي تشبه مثيلتها في حلب ولكنها أرخص منها بكثير، وهذا ما يضمن لها زبائن كثيرين حتى شواطئ البحر الأسود. ويقدر أن كردستان تركيا (الصحيح تركيا العثمانية - المترجم) كانت تصدر في أواسط القرن التاسع عشر بضائع ومنتجات تقدر قيمتها الإجمالية بأكثر من ٧٠٠.٠٠٠ جنيه إسترليني. ويخبرنا

---

(١٧) نجد هذه المعالم في مقال (فيلجيفسكي) المنشور في مجلة (الانتولوجيا السوفيتية) العدد ٤ و٥: ١٩٣٦ حول اقتصاد المجتمع الزراعي الكردي. كما يعطي الدكتور كريستوف عام ١٩٣٥ معلومات اقتصادية استعنا بها في كتابة هذا الفصل. وأخيراً يتحدث مؤلف إيراني هو (على أصغر) شميم همداني في مؤلفه عن كردستان والوضع الاقتصادي في هذه البلاد. ويهاجم. كثيره. اليهود في كردستان لدورهم الاستغلالي لاستحواذهم على الوسائل المالية الكافية التي تجعلهم يحتكرون عمليات التبادل التجاري لصالحهم. كما يمارسون عمليات التهريب أيضا (المصدر الشار إليه آنفا ص ٧٩-٨٠).

رحالة آخر من الحقبة التاريخية نفسها بمعلومات عن اقتصاد قضاء جوله ميرك التابع لولاية وان. ويأتي العفص في مقدمة المواد المصدرة من هذا القضاء إلى الموصل وإيران حيث كان يباع منه سنويا حوالي ۳۰ .۰۰۰ قنطار (يساوي القنطار الواحد ۲٥۰ كيلو غراما تقريبا). وكان ثمن البطمان الواحد (الذي يساوي ثلاث كيلو غرامات تقريبا) ٥۰ بياستر (عملة فرنسية قديمة - المترجم). ويباع من العسل الذي ينتج محليا حوالي ۱٥. ۰۰۰ باطمان سنويا بسعر ۲٥ إلى ۳۰ بياستر. ويقدر ثمن الشمع العسلي بـ ٤۰ - ٥۰ بياستر للبطمان الواحد. والحرير المغزول كان الباطمان الواحد منه يباع بـ ۳۰ بياستر. ومن المواد الصبغية التي تستخرج من شجرة يطلق عليها اسم (آلاجاكري) وهي تحمل ثمارا تعطي لونا أصفرا زاهيا تستخدم لصبغ جلد المعز المدبوغ (السختيان) حيث تصدر كميات كبيرة منها إلى حلب وايران. أما الصوف فيباع البطمان الواحد منه بما يتراوح بين ۲۰ إلى ۲٥ بياستر. والمغسول منه بـ ۳۰ بياستر. وتصدر أعداد كبيرة من المواشي تقدر بـ ۱۰. ۰۰۰ رأس الى الموصل وحلب ودمشق والقيصرية. ويتراوح ثمن راس الغنم بين ۱۰ إلى ٥۰ بياستر. وتستخدم الصوف لصناعة أنسجة الملابس أو لصنع الـ (بلاس) أي السجاد الاعتيادي لغرض البيع. أما زبدة المواشي فيباع الباطمان الواحد منها بـ ۳۰ إلى ٤۰ بياستر في الموصل أو في (كياور). ان جميع هذه المواد تباع في السوق المحلية لتجار يأتون من خارج كردستان، لأن الأهالي يخشون رجال الجمارك. وهؤلاء التجار الذين يشترون هذه المنتجات هم من اليهود والأرمن والترك من مناطق تبريز وأورومیه وكاشان الذي يجلبون معهم بضائع مختلفة لمقايضتها بمنتجات كردستان. ويستغل أهالي كردستان الحديد والرصاص في خفية عن أعين الحكومة التركية، فيصنعون من هذه المعادن الأدوات التي يحتاجون إليها ويبيعون الباقي. ويوجد في منطقة (زرنيخ ميدان) منجم يستخرج منه مادة تستخدم لتحويل لون التراب الأحمر إلى الأصفر، كما يستخدمها المسلمون مادة لإزالة الشعر، ويصدر منها حوالي ۳۰. ۰۰۰ قنطار إلى القسطنطينية وبغداد وإلى الهند. ويقع هذا المنجم في منطقة جبلية من الصلصال، وتعود ملكيته إلى الدولة التي تنتفع منه.

من مجموع هذه المعلومات عن الوضع الاقتصادي في كردستان، يخلص فيلجيفسكي إلى القول أن التجارة كانت منتعشة في كردستان في القرن التاسع عشر، وخصوصا في مجال

التجارة المحلّية قبل امتداد النفوذ الاستعماري، وهذا ما يسمح لنا بالقول ان اقتصاد كردستان لم يكن اقتصادا طبيعيا وان التبادل على أساس النقد كان معروفا منذ زمن بعيد. ان إبداء الرأي حول البنية الاقتصادية في كردستان واستخلاص نتائج منها يستلزم، كما يؤيد ذلك فيلجيفسكي في بداية دراسته، يستلزم توفر مصادر أكثر عمقا، وهي غير متوفرة حاليا بالنسبة لعموم أجزاء كردستان. وفيما يخص كردستان تركيا الراهنة، فقد استفاد فيلجيسفكي بقدر ما من النشاط الاقتصادي للنظام الجمهوري لمصطفى كمال، فقد وصلت سكة الحديد في الآونة الأخيرة إلى ديار بكر وأضروم ووضعت خطط لتوسيعها لتصل إلى الحدود الإيرانية، بالدوران حول بحيرة وان وباتجاه شمالي بلاد ما بين النهرين انطلاقا من ديار بكر. ومن المؤكد ان أثر سكة الحديد سيكون كبيرا في هذه الأقاليم، إذ تكون حركة النقل والتبادل أسهل من ذي قبل. ومن الثروات الأخرى الموجودة في باطن الأرض النحاس الذي بدئ باستغلاله في (أرغني) في منطقة ديار بكر. ويبدو أن الحكومة التركية الحالية بدأت ترعى أصحاب المواشي الكرد فتوفر لهم الخدمات البيطرية وتساعدهم على تحسين نوعية الصوف، كما يشير إلى ذلك (بلسان) في مقاله المشار إليه آنفا. أن جميع هذه الإجراءات تعتمد بالنسبة لآثارها المفيدة بالنسبة للشعب الكردي على السياسة العامة المتبعة من قبل السلطة تجاههم، كما سنوضّح ذلك فيما بعد. ان إحدى البديهيات الأولية للجغرافية الاقتصادية تعلمنا أن توفر الثروات الطبيعية التي لا يمكن إنكار وجودها في كردستان، لا يكفي وحده لازدهار البلاد، بل ينبغي وجود ظرف آخر يعتمد على النظام السياسي وأساليبه".

ويؤكد بادكير في مؤلفه "النسطوريون" (الجزء الأول ص ٤٦-٤٧)، ان الكرد في تركيا لو كانوا يعيشون في ظل سلطة عادلة لأصبحوا رعايا مخلصين نافعين. فالكرد الذي يمارسون الزراعة يشكون كثيرا من سلطان الباشا. وفي إجابتهم على سؤال لبادكير حول أسباب انتفاضاتهم الكثيرة، أجابوا: ماذا نعمل؟ إذا ما استقررنا في السهول وبدأنا ببناء القرى وغرس الكروم وزراعة الحنطة واستغلال الأراضي البور، فرضت علينا الضرائب الباهظة بحيث لا نستفيد من الجهد والتعب الذي بذلناه. فماذا يبقى أمامنا؟ نترك ديارنا

بدون ارادتنا ونلجا إلى اخواننا في الجبال الذين لا يتعرضون هناك لأي ظلم أو قهر. تلك هي أقدارنا. والله رؤوف رحيم" (ليرج، المصدر السابق، ج١، صـ٦١).

صحيح أنه منذ أن كتب بادكير مؤلفه عام ١٨٤٠ حدثت تبدلات أشرنا إليها، ولكن الكرد مازالوا حتى اليوم ينظرون بحذر شديد إلى السلطات الحاكمة لأنها لم تقدم على خطوة لتبديد مخاوفهم تلك تجاهها.

سادسا - منهج للإصلاحات الاقتصادية:

يصحّ القول نفسه بالنسبة لكردستان ايران. فهناك أيضا، ورغم أن حكم رضا شاه بهلوي أجرى في البلاد كثيرا من التطورات العميقة، كتقوية السلطة المركزية وتنظيم الشؤون المالية بأساليب حديثة وتنشيطه عمل المصارف الزراعية ومدّ السكك الحديد وتوسيع شبكات الطرق وتوطين السكان الرحّل، فان هذا العمل الجذري الذي يحتاج لنفس طويل، لم يستطع إخراج كردستان من عزلته. ونقصد بكردستان ايران المنطقة الواقعة بين كرمنشاه وبحيرة أورومية. ومن المفيد أن نذكر في هذا المجال منهاج الإصلاح الذي يتمنّى المؤلف الإيراني على أصغر شميم الهمداني تحقيقه في كردستان ايران والذي نشير إلى بعض النقاط الواردة فيه:

١ - إسكان العشائر الكردية الرحل في المناطق السهلية وتوجيهها نحو الزراعة مع تعيين مندوبين عن وزارة الزراعة ليكون على راس كل عشيرة مندوب يسهر على السكان ويرعى أشغالهم الزراعية.

٢ - العمل على زيادة المعلّمين بحيث يتناسب عددهم مع أعداد هذه العشائر لتدريس أولادها من الذكور والإناث، على أن تنشأ المدارس وتنظم في مناطق محددة وتدرس المواد

باللغة الفارسية[١٨]. مع مراعاة الا تكون المناهج مثقلة، وأن يدرس تاريخ ايران باختصار[١٩].

٣ - فتح مدارس مهنية في كرمنشاه وسنندج أو في أي منطقة أخرى تختارها الحكومة، لتعليم مهن النجارة والحدادة..الخ.

٤ - فتح فرع للمصرف الزراعي في كردستان لتقديم القروض والسلف نقدا أو عينا فيتحرر الفلاحون من الضغط الذي يثقله عليهم الملاكون، وبذلك يرتفع مستوى معيشتهم.

٥ - إنشاء بعض معامل السجاد والصبغ تحت إشراف الاختصاصيين، وبذلك تنهض هذه الصناعة وتقوم بتطوير منتجاتها وفقا لمتطلبات الأسواق الخارجية.

٦ - اتّخاذ الإجراءات اللازمة لمنع التهريب الذي يمارس في مناطق (مريوان) و (هورامان) الذي يلحق الاضرار بالتجارة المشروعة.

٧ - نظراً لعد المام الأهالي بالوسائل الحديثة لتجفيف الثمار وإعداد المنتجات الزراعية، فانها رغم جودتها، لا تتلاءم من حيث تجهيزها مع متطلبات الأسواق الحديثة. لذلك ينبغي إنشاء مؤسسات زراعية أو إرسال اختصاصيين إلى كردستان لتعليم الأهالي تلك الوسائل الحديثة.

٨ - يقدم الرحّل على قطع الأشجار بطرق اعتباطية تعرض الثروة الخشبية في كردستان ايران إلى الزوال، لذلك ينبغي على الحكومة أن تنظم جهازا خاصا يتولى استغلال الغابات وحراستها.

٩ - يجب وضع تشريع يحدّد بدقة واجبات وحقوق كل من ملاكي الأراضي والفلاحين، ذلك أن الفلاحين الذين يتعّرضون حاليا للاستغلال من جانب الملاكّين يجب أن يكون لهم الحق في تملك الأرض أيضا.

---

[١٨] وليس بلغتهم الكردية كما تقتضي ذلك أبسط المبادئ التربوية – المترجم.

[١٩] وليس تاريخ الشعب الكردي ولو بصورة مقتضبة – المترجم.

١٠ - تحتاج كردستان إلى طرق معبدة تربطها بالمناطق المحيطة بها مثل كرمنشاه[٢٠] وأذربيجان والعراق العجمي وبلاد ما بين النهرين.

١١ - اتخاذ الإجراءات اللازمة لحماية الصحة العامة وتقليل عدد الوفيات بين الرحّل، لأنهم يكونون عنصرا منتجا في الأمة الإيرانية[٢١].

سابعا - ملاحظات حول الاقتصاد الكردي وآفاق تنميته:

أن أسلوب حياة الكرد ومشاغلهم وعاداتهم، كما أتينا على تفاصيلها من وجهة نظرنا وبشكل عام، إنما هي نتيجة حتمية لطبيعة البلاد التي يعيشون فيها. ان الظروف المناخية وطبيعة التربة وتكوينها هي التي جعلت من الكردي منذ قرون خلت مربّياً للمواشي ويرتحل من مكان لآخر لا فلاحا مستقرا في مكانه. ان هذا الوسط الرعوي هو أهم ما يتميز به الكردي، فهو لا يتحول إلى فلاح إلا إذا أرغم على ذلك كما حصل إبان الحرب العالمية الأولى عندما فصلت الجبهة الروسية - التركية بين بعض العشائر الكردية وبين مناطق الرعي الصيفية، فترتب على ذلك ما ترتب من هلاك أعداد كبيرة من قطعان مواشيهم، فاضطروا إلى تبديل نمط عيشهموقد تؤدي الأوبئة التي تصيب الماشية إلى النتيجة نفسها. أما مبادرات السلطات الحكومية من أجل استقرار الرحّل من بين العشائر، فإنها تصطدم بذهنية الكردي الجبلية التي تحتقر رجل السهول. ولا تجد هذه المحاولات بعض النجاح إلا إذا كانت مقرونة بالكثير من الدراية والصبر واستعملت معها جميع الوسائل المالية والتكنيكية اللازمة. ان الكردي ينظر حتى الآن بحذر شديد - وهو على

---

[٢٠] يتجاهل واضع المشروع أن منطقة كرمنشاه مع الجزء الشرقي من أذربيجان تشكلان جزءا من كردستان ايران. وخلاصة القول أنه يحصر كردستان، في المحافظة التي تطلق عليها الدولة اسم (كردستان) رغم أن كردستان تشمل مناطق شاسعة خارج هذه المحافظة أيضا – المترجم

[٢١] يبدو أن واضع هذا المشروع "الإصلاحي" كغيره من غالبية الكتاب الإيرانيين يعتبر الشعب الكردي جزءا من الأمة الإيرانية، ناسيا أو متناسيا أن الشعب الكردي في كردستان ايران لا ينتمي لغير الأمة الكردية المجزأة حاليا شعبا وأرضا – المترجم.

حق في ذلك - إلى أي إجراء تتخذه السلطات لأنه يحسّ أنه لا يمكن أن يحمل إليه إلا الشر. فينبغي إذا بذل المزيد من الجهد فيما لو أردنا تحقيق بعض النتائج في هذا السبيل بطرق سلمية. ويجب ، قبل كل شئ، العمل على كسب ثقة الرئيس (الآغا) الذي مايزال يتمتع بسلطة فعالة بين الكثير من العشائر. أن أفضل وسيلة ينبغي إتباعها هي التقارب إلى الكرد بواسطة الكرد أنفسهم والعمل ضمن نطاق العشيرة لأنها مألوفة لديهم. اما محاولات استعمال العنف أو اللجوء إلى القوة فإنها تهدّد بخلق مضاعفات خطيرة، لأن من الصعب إخضاع الشخصية الكردية بالعنف والقوة. والواقع أن هذه الملاحظات التي أبديناها ملاحظات عامة وان الحالة يمكن أن تختلف من مكان إلى آخر. وتستلزم كل حالة دراسة دقيقة لكل جوانب المشكلة. وفي هذا السياق أشير إلى أسلوب العمل المتّزن جدا للمبّشرين الأمريكان في (أورميه) خلال الحرب العالمية الأولى. فبفضل المساعدة الطبّية المجانية التي كانوا يقدّمونها للأهلين، استطاعوا تكوين علاقات طيبة ودائمية مع عدد من رؤساء العشائر، وهذا ما سمح لهم بإنقاذ حياة العديد من الناس عندما أعلنت الحرب المقدّسة (الجهاد) ضد المسيحيين في المنطقة. ثم اتبعوا فيما بعد أسلوبا سياسيا ذكيا في مساعدة اللاجئين الكرد وذلك بإشغالهم في أعمال منظمة ومفيدة كفتح الطرق وغيرها. وهكذا أسهموا في عمل مثمر أدخل في أذهان الكرد شيئا فشيئا بعض الدراية التي رفعت من مستواهم الحالي. إن فتح المدارس بلغة الأم وإنشاء المستشفيات والمساعدة البيطرية تمثل خطوات يمكن اجتيازها بالتتابع، وتمثل، باستثناء الإسكان الإجباري، المنهاج الذي اقترحه علي أصغر شميم الهمداني، مع النقاط الأخرى من الاقتراحات الجديرة بالاهتمام. ولسنا هنا بصدد بيان الرأي بالنتائج التي توصّلت إليها السياسة السوفيتية إزاء الكرد في قفقاسيا، إننا نجهل الوسائل المتبعة والنتائج التي توصلوا إليها وبخاصة في مجال تربية المواشي. والشي الذي نعرفه بالنسبة لرحّل آسيا الوسطى أن نتائج الإسكان السوفيتي كانت سيئة للغاية[٢٢]، فعملية تأجير المواشي، قللت المواشي بنسبة مفجعة، فكانت النتائج مماثلة في القفقاس أيضا.

---

(٢٢) يمكن الرجوع في هذا الباب إلى الملاحظات الموجهة جدا لليتل باز في كتابه الجدير بالاهتمام بعنوان (البحث عن

أما بالنسبة للشعب الكردي في العراق، فلا تتوفر لدينا معلومات بشأنهم عن حالتهم الاقتصادية. ان حكومة بغداد، شأنها في ذلك شأن حكومتى طهران وأنقره، مارست بشأنهم سياسة إصلاح وتحديث. ولكن هل استفاد منها الكرد حقا؟ إن عدم معرفتنا الأكيدة بأحوالهم تجعلنا نلجأ إلى تمنّي صحة ذلك.

إن المواشي التي يصدرها العراق سنويا بكميات هائلة تأتي نسبة كبيرة منها من المناطق الكردية. كما أن استخراج النفط من منطقة كركوك يتم أيضا بمساعدة الأيدي العاملة الكردية. وقد أكد (سون) قبل الحرب العالمية الأولى في كتابه الذي سبقت الإشارة إليه أن الكرد المستقرين في القسم الجنوبي من زاگروس (كلهر، باجلان، جاف) اثبتوا قابلية طبيعية لممارسة الأعمال الميكانيكية في شركات النفط (شركة النفط الإنكليزية-الإيرانية) التي باشرت أعمال التنقيب في أطراف قصر شيرين. وقد استخدمت الشركة المذكورة العمال الكرد في أعمال حفر آبار النفط وفي الأعمال الميكانيكية، فأثبتوا في ممارستهم لتلك الأعمال مهارة فائقة، حتى أن الشركة المذكورة عندما نقلت نشاطاتها إلى الجنوب الغربي من ايران، طلبت من العديد منهم الانتقال معها إلى المناطق المذكورة. وكما يقول (سون) لقد اثبتوا أنهم اكثر تفهّما واستعدادا لتطوير أنفسهم من العمال الآخرين، وأظهر العديد منهم جدارة ومهارة فائقين في ميادين العمل التكنيكي. أنهم جد منظّمين وهائلين لا يصيبهم الكلل ويبدون استعدادا عجيبا للعمل، ويمكن القول بحق أن العمال الكرد في كركوك وفّقوا في استخدامهم لاعمال استخراج النفط.

بديهبّي أن هناك بوناً شاسعا بين حالتى الرعي والعيش في الخيام وكون المرء عامل ميكانيكياً، والكرد مثل بارز لكى تتّضح المسافة الفاصلة بين هاتين الحالتين. وعلى كل حال فإننا ننهي هذا الفصل بالبحث عن الاقتصاد المنزلي عند الكرد، ونأمل أن يبلغ الكرد يوماً ما مستوى رفيعاً من الرفاه والسعادة المتناسبة مع استعدادهم الذاتي.

مناجم الذهب في سيبيريا ١٩٢٨-١٩٣٧) الصفحات ٥١، ٥٧، ١٠٢، ١٦٨. وسنعود إلى هذا الموضوع في الفصل العاشر من كتابنا هذا ضمن استعراض بعض المنشورات السوفيتية حول الكرد.

الفصل الرابع

فرديّة الكردي وطباعه

"تكمن خصائص كل أمة من الأمم في طبائع وعادات أفرادها أو مواهبهم الرئيسية، بل وحتى في المعايب التي تميز شعبا عن آخر"

فولتير(القاموس الفلسفي)

أولا - صعوبة رسم صورة عن الحالة النفسية لشعب ما:

عندما نقوم بدراسة عن شعب ما، كما نفعل الآن بخصوص الشعب الكردي، لا يصّح إغفال الجانب النفسي لهذا الشعب. من المؤكد أن لدى كل شعب هذا الذي يطلق عليه اسم (روحه الوطنية) أي مجموع الملامح التي تميزه عن الشعوب الأخرى أو تقربه منها. ومع ذلك ودون أن ننكر وجود (ملامح ثابتة) في خصال وطباع شعب ما، هي حصيلة ماضيه وظروف حياته الراهنة، فانه ينبغي عدم إطلاق التعميمات في هذا المجال، لأنه يكون في أغلب الأحيان غير قائم على أساس ويؤدي إلى وضع صور وعلائم ثابتة يصعب تصحيحها مستقبلا[1]. ان هذه التحديدات التي توصف بكونها نفسية، تمليها في أغلب الأحيان عوامل وانطباعات شخصية. فهذا الشعب الذي نرفعه إلى السماء لسبب ما (غالبا ما يكون سياسيا)، نهبط به غدا إلى الحضيض إذا ما تبدلت الظروف. تارة نمدح الفردية لدى مقارنتها بالروح الجماعية، وتارة أخرى نحمل على مساوئ الارتجال الفردي في مقارنته بالنتائج التي يحققها النظام الجماعي... الخ. وقد يعتبر الاقتصاد والتروي من الفضائل، ولكنهما يولدان أحيانا البخل والتقاعس لانهما يضعفان روح المجازفة. وهذا ما

---

[1] تعتبر المسألة من الناحية العملية صحيحة. فمن المؤكد أن لأفراد شعب ما قاسما مشتركا يجمع بينهم تمتد جذوره في تاريخهم وبيئتهم الطبيعية وفي مجموعة كبيرة من العناصر الاجتماعية والبايولوجية. فإذا اغترب أحد الأفراد إلى وسط آخر استطاع اكتساب صفات أخرى وتكوين شخصيته جديدة له، ولكن هذا التبدل يكون طارئا وسطحيا، وسرعان ما يزول عندما يعود هذا الفرد إلى وسطه الأصلي (د. روس، دراسة حول الدور الاجتماعي للعرق في علم الحيوان وعلم البايولوجي، مجلة الأنثروبولوجي عدد كانون الثاني. مارس ١٩٣٩). وسواء تعلق الأمر بخواص طبيعية أو نفسية للمجتمع، فانها تنمو أو تضمحل تبعا للوسط الذي يعيش فيه الفرد وتتوارثها فيه ممن يخلفونه. ان النظرية الداروينية تؤكد على الانتقاء الطبيعي الناتج عن الكفاح من أجل البقاء. أما نظرية (النيولاماركيزم) فأنها تسند الدور الأساسي إلى البيئة التي تحدد ظهور أو اضمحلال الفعل المؤثر. ويبدو أنه في المرحلة الانتقالية الحالية يحاول الباحثون التقريب بين النظريتين (راجع: رينانو، حول انتقال الخصائص المكتسبة). وحول هذه النقطة الأخيرة يبدو أن العلم السوفيتي ممثلا في شخص البروفيسور ليسنكو غير متفق مع العلم الغربي.

يؤدي إلى نتائج سلبية. وهناك من يحاول تفهم ملامح شعب ما وردود أفعاله عن طريق دراسة "عقليته الريفي" باعتبار أنه أقل تقبلا للمساومات من جاره الذي يملك "عقلية تجارية" ومتعود على المصالحات والتسويات بحيث أن المرونة التي يبديها هؤلاء تكون أحيانا غير مقبولة. ويعلّق بعضهم أهمية كبرى على الوضوح والشكل والمنطق. ويرد عليهم البعض الآخر بالقول أن الحياة لا تخضع دائما للمنطق وقابلة للتغير ولا تقبل بالمسلّمات المحددة، وينبغي التوافق واتباع الديناميكية مع الشعور الجازم بالتحول. وباختصار يمكننا قول الكثير في هذا المجال، ولكن الشيء الذي يهمنا قوله هو التذكير بأن نطاق سيكولوجية الشعوب واسع إلى حد كبير ومليء بالعراقيل. إن الروح الوطنية التي تهمنا هنا هي اقل تعقيدا بالنسبة للشعب الكردي مقارنة بالشعوب الأخرى التي كانت موضعا للدراسات والملاحظات التي أشرنا إلى قسم منها. وحتى بالنسبة لحالة الشعب الكردي، تبقى القاعدة العامة صحيحة وبخاصة تلك الأحكام المتسرعة غير الناضجة التي أطلقت في الغالب مصادفة أحيانا عن طريق السماع والنقل.

ولأجل أن نصل إلى نتيجة مرضية ونقدم في هذا المجال عناصر التقدير التي يكمل ويصحّح أحدها الآخر، فاننا نعرض بادئ ذي بدء آراء بعض الأجانب الذين قاموا بدراسات عن الكرد، ثم نتخذ من بعض ما ورد في الأقاصيص الشعبية معيارا لرأي هذا الشعب في نفسه.

ثانيا - نماذج سيكولوجية كردية للدكتور كريستوف:

(١) رُحَّل من رعاة جبال طوروس:

أعمق دراسة قدمت عن طبائع الكرد هي حسب علمنا، دراسة الدكتور هيلموت كريستوف في مؤلفه الذي أتينا على ذكره، مقارنا الكرد بالأرمن. وباستناد المؤلف على اعتبارات سياسية واجتماعية، يصنف الكرد إلى أربع مجموعات: (أ) رعاة المواشي في الهضبة التركية-الأرمينية العليا والمجرى الأعلى لنهر كور أي أعالي (آراس) ومراد والفرات وحوض بحيرة وان. (ب) رعاة المواشي في منحدر طوروس الجنوبي. (ج) الكرد الرحّل من المقاتلين في المناطق الحدودية. (د) أنصاف الرحّل. ويعتبر كريستوف الكرد في مناطق طوروس الجنوبي الذين يرتادون بادية سوريا وبلاد ما بين النهرين في الشتاء النموذج الأمثل للكرد، لأحتفاظ هؤلاء باصالتهم أكثر من جميع الفروع الأخرى المشتقة عنه. إن طبائع وصفات هذه المجموعة تكونت خلال صراعها مع الطبيعة ومع العدو. ان تقلبات المناخ هنا تؤثر كثيرا على الإنسان. ففي هذه المنطقة يتتابع البرد القارص والحر الشديد بفترات قصيرة. الحر في الوديان العميقة لجبال طوروس شديد لا يطاق، بينما الرياح الباردة في الجبال تعصف ويظل الثلج في بعض الأماكن العالية في مكانه طوال السنة. وفي الشتاء تعصف الأعاصير الثلجية حتى في سفوح الجبال وفي الأراضي البور وتجبر الناس على الاحتماء بمنازلهم أو خيامهم التي لا تقوى على حمايتهم من البرد، بينما تترك المواشي مراعيها.

وبالإضافة إلى هذه الصعوبات المناخية، هناك وعورة الجبال التي تواجه كل خطوة فيها عقبات وعوائق. فلا يستطيع الكرد الانتقال من مكان إلى آخر إلا ببذل جهود منهكة وبخاصة مع مواشيهم في عبورها للصخور العالية الوعرة والسيول الصاخبة التي تتضخّم بوجه خاص في الربيع بفعل ذوبان الثلوج. ان التغلّب على مثل هذه العقبات الطبيعية يفتقر إلى قوة إرادة وقوة احتمال كبرى. وينسب إلى الرحّل بوجه عام تخيلهم الواسع الذي لا يرى في العالم إلا الأشباح والشياطين، ولكن ذلك لا يمنعهم أبداً من التحرك بالصورة التي

يرونها مفيدة لهم. فبموجب قانون توافق المضادات، فانهم يكونون شديدي الوعي للواقع. ولكن ليست الطبيعة القاسية وحدها هي التي تصقل أمزجتهم، بل هناك أعداء يحيطون بهم ولابد لهم من شجاعة شخصية للتغلب عليهم. وتعيش العشائر الكردية في جبال طوروس في حالة قتال دائمة. ففي الصيف تتقاتل العشائر المتجاورة للاستيلاء على المراعي الخصبة وحماية مواشيها من السلب، ولكن الكرد يجبرون على القتال مع العرب البدو، بوجه خاص عند حلول الشتاء ونزولهم إلى بادية سوريا والعراق. وككل الرحّل، لا يرى البدو العرب في سرقة المواشي عاراً، كما انهم يعرفون ان الكرد لا يستطيعون اللّحاق بهم في الاودية التي يجهلونها. وفي حالة المصادمات المسلحة بين الطرفين، يكون الكرد أشد مراسا من البدو من حيث الجرأة وفن القتال بحيث أن الكرد يفضلون الهروب على مباشرة القتال معهم. وكما قال (مولتك): "إن كلا الطرفين يميلان إلى السلب، ولكن العرب أكثر ميلا من الكرد نحو السرقة، والكرد أكثر ميلا من العرب إلى القتال". ان الاحتكاك بين العرب والكرد ظاهرة اتنولوجية يستوجب الاهتمام بها والتوقف عندها بعض الشيء. ونذكر في هذا السياق أولاً رأي الكاتب الفرنسي البارع بيير روندو:"تنحدر سلسلة جبال أرمينيا وكردستان انحدارا شديدا من جهة الجنوب عبر ماردين ونصيبين وجزيرة ابن عمر نحو بادية الجزيرة التي يقطنها البدو العرب. وتعتبر هذه المنطقة حدا فاصلا بين عالمين. فبينما يتعذّر على البدو العرب الذين يعتمدون في معيشتهم على الجمال، ان يصعدوا إلى تلك الجبال المليئة بالحصى، ينظر الكرد باشتهاء إلى أطراف البادية التي تعتبر نسبيا أحسن ارواء وأسهل للزراعة من الجبال حيث بإمكانهم إيجاد المراعي لمواشيهم والاستقرار لممارسة بعض أنواع الزراعة. وعندما يسود الأمن، أي عندما تكون السلطة قوية بحيث تفرض على البدو العرب عدم التعرض إلى الزراعة، ينزل الكرد إلى السهل. ولكن الأمن لا يسود دوما، كما أن المحصول لا يكون جيدا على الدوام. والمناخ الصحرواي ينهك صحة رجال الجبال ويهلك السهل الكرد، فيكون المد والجزر[٢]". إنني أوافق (روندو) على ملاحظاته حول تأثير المناخ السيئ على صحة الكرد. فخلال الحرب العالمية الأولى عندما كانت جبهة

---

[٢] روندو، العشائر الجبلية (باللغة الفرنسية)، ص ٩ – ١٠.

القتال الروسية - التركية تعزل الكرد عن مراعي مواشيهم، تسنّت لي الفرصة لأرى بأم عيني وضع عشيرة (بكزاده ى بنار) في (مركور) التي أجبرتها تلك الظروف على البقاء في السهول في شمالي بلاد ما بين النهرين وهي في حالة ضعف شديد عندما ظهرت فيما بعد في خطوط قتالنا الروسية. وقد تطرق إلى العلاقة بين الكرد و البدو نفسها كل من (بانس) و (سوسين) فيقول بانس: "وهكذا نجد أنفسنا في منطقة الحدود بين العرب والكرد وهي من أهم مناطق الشرق الآسيوي، إذ يصطدم فيها شعبان مهاجران. فالبدو العرب قد صعدوا من الجنوب حيث الصحراء والبوادي التي لا حد لإمداداتها، بينما يهبط الكرد من الشمال حيث يأتي منه الأرمن أيضا والإدارة التركية. ولفهم هذه الظاهرة المهّمة نرجع إلى الخارطة الملحقة. هناك ثلاثة خطوط تشير إلى الحدود الشمالية للمناطق التي تستخدم فيها اللغة العربية، والمناطق التي يسعى إليها العرب البدو صيفا وشتاء طلبا للكلأ. يتبين لنا أن هذه المناطق محاطة بسلاسل جبلية باتجاه الجنوب ولا يعيش العرب إلا في السهول البعيدة بين (تق تق) و (كراجه) و (طور عابدين). ويتوقف العرب في نهايات الجبال والمنحدرات الخفيفة. ويلاحظ أن مناطق ارتياد الكلأ للبدو صيفا تتجاوز في الغالب تلك الحدود الشمالية. اما شتاءً فانهم ينسحبون جنوبا بمسافات واسعة. وهكذا فانهم يبتعدون، على سبيل المثال، من المنطقة الغنية بالمياه التي يصب في نهر خابور".

"ووفقا لصيرورة التأريخ في الشرق الآسيوي، نجد أنفسنا مضطرين للإقرار بوجه عام بأن شعوب الشمال يتميّزون بالميل إلى التوغل نحو الجنوب أكثر من ميل شعوب الجنوب إلى الصعود نحو الشمال. وفي الحالة الماثلة أمامنا، يعدّ هذا الاتجاه في الحركة ملائما لشعوب الشمال التي تميل مع ذلك إلى حياة التحضّر لأنها اعتادت على العيش في أرض كردستان ذات مياه الأمطار والعيون الغزيرة التي تسمح، كما هو الحال في القسم الأعظم من شمالي بلاد ما بين النهرين، بنشأة زراعة الحبوب دون حاجة لوسائل الرّي الاصطناعية. ويمكننا التأكيد مع ذلك على أن معظم شعوب الشمال قد توقف نزوحها باتجاه الجنوب بمجرد وصولها إلى المناطق التي لا يمكن الزراعة فيها إلا باستعمال وسائل الري الضرورية.

وتمتد فيما وراء هذه المناطق البادية التي يسود فيها الاقتصاد الرعوي التي يعيش فيها العرب البدو. ومن جهة أخرى لن ينفذ العرب قط إلى الشعاب الجنوبية للجبال الملتوية في

أرمينيا، ذلك لأنهم يفتقدون البادية الواسعة المترامية الأطراف والسهول التي لا يستطيعون العيش بعيدا عنها. ان الصورة التي تمنحها إيانا تلك الخريطة تمثل خطوط الحدود الحالية بالشكل الذي يبدو تقريبا في مركز هذا المعترك المتنازع عليه، (كتب بانس ذلك في عام ١٩١٣). وخلال السنوات الأخيرة بدأ العمل لاسكان الكرد والأرمن والعرب من قبل الإدارة التركية. إن المشاتي الصغيرة (قشلاغ) التي يعيش فيها بعض السكان تقاوم بصورة أفضل قطاع الطرق المسلحين من البدو العرب (ريزو). وتزداد الرحلات تدريجيا بحيث يمكن القول أنها دفعت البدوالعرب إلى تراجع مستمر. وإذا ما وثقنا بشهادة أثنين من الرحالة، فان الحدود الجنوبية للمناطق التي يعيش فيها الكرد منذ (سيرنيك عام ١٨٧٢) و (نولد عام ١٨٩٣) نزلت من طوزخور ماتو إلى (قره تبه) التي تفصل بينهما مسافة ٦٠ إلى ٧٠ كيلو مترا (بانس، ص ٦٢-٦٤).

اذا ما عدنا إلى أصل الموضوع الذي نحن بصدده، تبين لنا أن الصفة البارزة للكرد هي حبّهم للقتال. ان الحياة الحرة غير المقيدة للرحّل وسعيهم الدائم إلى المراعي الخصبة أو إلى الصيد أو الغزو، قد أوجد لديهم حالة نفسية جعلتهم ينفرون من كل التزام ويثورون ضد كل اكراه. لقد علمت الحياة الفرد الكردي "أن العالم ملك الشجاع". ان هذه الخصوصية في الطباع ما كانت لتخدمهم لو لم تؤد بهم إلى الصراع مع الفناء، لو لم يكونوا خاضعين لادارة مدرسة قاسية هي العشيرة التي يتعلمون فيها السيطرة على النفس والتضحية وأداء الواجب إزاء المجموع. إن وقوع الكردي تحت تأثير هذا العامل المزدوج: الصراع المستمر مع الطبيعة ومع الإنسان والخضوع لأنظمة العشيرة، قد كوّن فيه هذا الخلق النبيل الذي يتجلّى في شعارهم الثلاثي: الشهامة وحسن التصرف والإباء. وكمثال واضح على هذه الخصال الكريمة والثقة الكاملة بالنفس يمكننا ان نذكر حالات قبل فيها رؤساؤهم المستقلّون قرارا صدر من حكم في نزاع فيما بينهم، بمجرد ان ركونهم إلى شعورهم بالعدل وبعدم المحاباة. ويورد لنا (نولد) واقعة من هذا القبيل عندما كان في رحلة في كردستان على راس قافلة كبيرة، وقد طلب منه أن يكون حكما لحسم ذلك النزاع.

ولكن كما أن الطبيعة لا ترحم الكردي، فانه لا يرحم بدوره خصمه أيضا. فالأخذ بالثأر والميل إلى الانتقام يسيطران عليه. ان قانون الأخذ بالثار هو الذي يحكم الصلات بين

العشائر. ويروي لنا (رابينو) في الفقرة الخاصة ببلدة (بانه) أنه في أحد أيام سنة ١٨٩١ دعى يونس خان حاكم هذه المدينة عمه حاجي مصطفى مع عائلته لزيارته ثم أقدم على ذبحه مع أحد أبنائه. ولكن ابنه الثاني المدعو عبد الله بيك الذي لم يكن يتجاوز الخامسة عشرة من عمره استطاع، رغم جرحه، الانقضاض على علي يونس خان وقتله بضربة خنجر ثم قتل ستة من أتباعه قبل أن يستطيعوا النيل منه. وتقول الأمثال الكردية الشائعة ان "عدو الأب لا يمكن أن يكون صديقا للابن" و "أن تلوث يديك بالدم أفضل من أن تتخلى عن الأخذ بالثأر". ان تعطش الرحل الكرد بالدم يفوق تعطش غيرهم من الرحل كما تثبت ذلك المذابح المتكررة للمسيحيين التي يتحدث عنها بعض الرحالة. ويعود هذا الطبع إلى أن مرتكب الجريمة يستطيع بكل سهولة أن يتواري هاربا بين الجبال دون أن يترك له أثرا في هذا البلد الجبلي الذي يصعب فيها مطاردته. ويؤخذ على الكرد أيضا إفراطهم في كثير من الأشياء حتى في الأكل، وهم يدركون الأضرار التي تلحقهم من جراء هذا الإفراط، لذلك يقول مثلهم "كل شئ ينكسر إذا كان رقيقا، ولكن الإنسان ينكسر إذا تضخم". ويستطيع الكردي مع ذلك أن يضع حدا لإفراطه بدليل علاقاته المعقولة مع الفلاحين الأرمن في المناطق التي يمتلكون فيها الأرض وحدهم. وبموجب قانون توافق الأضداد أيضاً يشتهر الكردي غالباً بالطريقة التي يتصرف بها والتي تدهش الغير لمغايرتها لسلوكه المعتاد. ان نفس الكردي الذي يعد في بيئته العشائرية نموذجا للنظام والمروءة، يمكن ان يبدو إزاء الأجنبي جشعا بغير حدود. حتى أن بعض رؤساء العشائر منهم ينسون وقارهم ويستعطفون أمام الرحالة قطعا من السكر أو شيئا آخر يكون مطمح أنظارهم[٣]. ان شعور الحقد وغلظة القلب هذا وعدم أخذهم شيئا بنظر الاعتبار ازاء العدو، يمثل نقيضا لصفاتهم المعروفة كعزة النفس والوقار الذي يتميزون به. وبمقدار بسالتهم وشجاعتهم كمقاتلين أشداء، يعدون غير ذوي أهلية لتحقيق مصالحهم الاقتصادية. ان سريرة الكردي المستقيمة تبعده تماما عن

---

[٣] في إحدى الأماسي أقمت معسكري في قرية تعود لشخص يدعى عبد الرحمن آغا من رؤساء عشيرة (شيرنا كلي). وقد أعجبته بندقيتي ومنظاري المقرب، وقد طلب مني دون جدوى عدداً من الخراطيش. ثم رجاني إعطاءه بعض الديناميت. ثم طلب مني إعطاءه حاجيات أخرى".. (ديكسن في المقال المشار إليه آنفا).

عالم التجارة. إن طبيعته المتفتحة الشريفة وطمعه الصبياني وقلة خفة روحه تجعله فريسة سهلة للتجار الأرمن.

وعلى كل حال فان الخصائص الرئيسية التي تضمن دوام الدولة وتطور الثقافة موجودة لدى الكرد وبدرجة عالية، إنها تضمن لهم استقلالهم السياسي وتسمح لهم بالسيطرة على الفلاحين والتجار الذين يفوقونهم من حيث إمكانياتهم الاقتصادية والفكرية. لذلك يحق لنا التأكيد بأن تكوين طبائع العشائر الكردية في مناطق طوروس يقترب من درجة التفاؤل. وسبب ذلك ان الكفاح اليومي مهما كان قاسيا لا يجعلهم يتقبّلون اجراء ما، بينما تفرض الحياة العشائرية النظام وتضع حدا للغرائز الفطرية. كذلك يفسر انتماؤهم للعرق الشمالي طبائعهم التي تكونت بسبب ظروف المناخ والتربة.

(٢) رعاة من رُحَّل أرمينيا (تماس مع أرمينيا):

نأتي الآن إلى المجموعة الثانية، وهم رعاة المواشي في أعالي هضبة أرمينيا الذين يتميزون بوجه خاص بقضائهم فصل الشتاء القارص مع الفلاحين الأرمن في منازلهم تحت الأرض. فبينما يقضي الكرد الذين يعيشون في جبال طوروس هذا الفصل في مقاتلة بدو سوريا وبلاد ما بين النهرين في تنافسهم على المراعي، يكون سكان هضبة أرمينيا مختبئين بسبب قساوة الجو، في منازل مغلقة مدة ستة أشهر تقريبا. وليس بوسع أحد مهما كان شجاعا أو ذا إرادة قوية أن يغير من هذه الحالة القائمة. لذلك ليس من الغريب عليهم أن يعيشوا خلال هذه الفترة حياة أكثر هدوء أو أمنا من تلك التي يقضونها خلال الصيف وهم أحرار لا يعرفون القهر والضغط. ويتعرف الكرد أيضا خلال هذه الفترة بصورة أفضل على الأرمن الذين يتنازعون معهم على وسائل العيش. ويحاول هؤلاء لمرونتهم المحافظة عليها بكل الوسائل. إن هذا التعايش يؤثر بطبيعة الحال على طبائع الكرد، لذلك غالبا ما نجد لدى الكرد الرحّل في الهضبة الأرمينية التعود على الخديعة. ومع ذلك يجب أن لا نرى في هذه الخدع والمخاتلة الغدّارة سبباً للتهجّم عليهم كما يفعل ذلك بعض المبشرين في مؤلفاتهم. ورغم حياتهم المشتركة مع الأرمن خلال فصل الشتاء، يعرف الكرد فيم يختلفون

عن الأرمن. واذا ما أضيف إلى ذلك بعض التأثيرات السياسية بالإضافة إلى مزاج الرحّل، فلا نستغرب بعض التناقضات التي تنتهي بتغذية روح البغضاء والكراهية.

وقد تحدث الكونت (ده شولى) في مؤلفه (أرمينيا، كردستان، وبلاد ما بين النهرين - عام ١٨٩٢، صـ ١٧٢) عن التصرف التحكيمي لبعض البكوات الكرد الذين كانوا يسلبون من الأرمن أراضيهم ثم يستخدمونهم فلاحين أو عمالا في حقولهم القديمة، كما يشير إلى حالات قطع طرق وسلب ونهب (صـ ٢٠٤). أما بالنسبة لمذابح الأرمن، فلدينا بالإضافة إلى المصدر السابق. مؤلف كونتينسون المعنون (المسيحيون والمسلمون ١٩١٢) الذي يصف السلطان عبد الحميد، بحق، بالسفاح الأكبر، ويحمله المسؤولية الكبرى عن تلك المذابح (ص - ٦٥). وحول جوهر المسألة الأرمنية يمكن الرجوع إلى كتاب البروفيسور مانديلستام (عصبة الأمم والقوى الكبرى أمام المسألة الأرمينية، ١٩٢٥، باللغة الفرنسية).

(٣) العشائر الحدودية وأنصاف الرحَل:

إذا كانت طبائع الكرد الرحّل متأثرة بعيشهم المشترك مع الفلاحين الأرمن، فان العشائر التي تقطن المناطق الحدودية، تتميز بميلها إلى القتال وقطع الطريق، وهي تكون المجموعة الثالثة من التصنيف الذي أورده كريستوف. ان خصال هؤلاء وطباعهم متأثرة بأسلوب عيشهم الذي يعتمد بالدرجة الأساسية على القتال فقط، دون أن تكون لهم أية مهنة أخرى منتظمة يعيشون منها، كما يفعل ذلك مثلا الكرد الرحّل والساكنون في القرى والمدن. انهم يعتمدون على الغنائم واستغلال الغير. ان حياة التهيؤ الأقصى التي يعيشونها بصورة شبه دائمة تقريبا جعلت من طبائعهم قاسية جدا. ان طبيعتهم المتغطرسة تطورت إلى الرغبة المفرطة في الاستحواذ دون أن تأخذ طبيعة العادة المزمنة. ان جميع المتناقضات التي تمازج نفسية الكردي التي أشرنا إليها سابقا تبلغ عند هؤلاء حدها الأقصى. وسوف نرى فيما بعد أن معظم الكرد الذين يعيشون في المدن الكردية يعود أصلهم إلى هذه الفئة.

وأخيرا، تأتي المجموعة الرابعة وهي أنصاف الرحّل الذين ابتعدوا أكثر ما يمكن عن الطبع الكردي الأصيل، كما رأينا ذلك بالنسبة للرحّل في جبال طوروس. ونلاحظ لدى هذه الفئة الرابعة ليس التجاوز أو التضخيم المفرط لبعض الخصال أو الطباع التي تعدّ مشتركة، بل ضمور وفناء هذه الخصال، وذلك لانعدام فرص استخدامها. فالصراع ضد العدو فقد لديهم أهيمته إلى حد كبير، وحبّ التسلّط بل وحتى الشجاعة الشخصية قد هبطا إلى أدنى مستوى ليحّل محلهما اللامّبالاة والجمود. كما أن زوال النظام العشائري الصارم أبرز كل ما في النفوس من ميل إلى الطمع. وبدلاً من السيطرة على النفس، ظهر لديهم طمع مفرط في المال. كما ان خضوعهم للسلطة السياسية قتل في نفوسهم حب الحرية. وباختصار، ورغم أن الكرد أشباه الرحل لا يمكن تشبههم بعد بالفلاحين، إلا أن طباعهم تتطور، بدون أدنى شك، في هذا لاتجاه[٤].

ولئن كانت وجهة نظر الدكتور كريستوف قابلة للمناقشة في بعض الأمور الواردة فيها - وسوف نشير اليها في مواضعها فيما بعد - إلا أنها تعد على كل حال محاولة مفيدة جدا تصلح أن تكون أساسا للجغرافية الإنسانية للشعب الكردي. ان تصنيفه للكرد إلى أربع

---

[٤] إن المؤلف الممتاز لـ (مس لا ميشون) المشار إليه سابقا (١٩٥٣ باللغة الإنكليزية)، يؤكد لنا هذه الملاحظة. ونقرأ في الصفحة ٢٨٣ منه مايلي: " إن معظم العشائر هي شبه رحّل. وأحيانا مستقرة دون أن تفقد إلى حد ما تنظيمها العشائري. وارتياد الكلأ من قبل هذه العشائر يختلف كثيرا حسب المسافة والاتجاه الذي تسلكه العشيرة المعنية. وفي أغلب الأحيان يبقى عدد من أفراد العشيرة في الخلف (قشلاق) أي المقر الشتوي عندما يتم الانتقال باتجاه (بيلاق) أي المقر الصيفي، وذلك لحراسة المحاصيل فيه. وأحيانا تبقى عناصر بصورة دائمية أو شبه دائمية ولكن بإعداد قليلة في (بيلاق). إن رؤساء العشائر يملكون غالبا أراضي صالحة للزراعة في (قشلاق) وأحيانا في (بيلاق) أيضا. أما المناطق التي يرتادونها، فقد تعود لرؤساء العشائر أولا تعود لهم. وإذا كانت مراحل انتقالهم عديدة بسبب طول المسافة، فانهم يعبرون أراضي تعود لعشائر أخرى. وتملك العشائر بموجب الأعراف السائدة طريقا خاصا بكل منها أثناء إرتحالها. ويحق لكل فرع (تيره) من العشيرة أن يعبر حسب تقاليده أراضي معلومة. وهذا العبور لا يتعدى كونه أمرا عرفيا. ويدعون أحيانا ان عبورهم يتم بموجب اتفاق سابق أو إجازة سابقة ماتزال سارية المفعول. أما بالنسبة للخسائر التي يمكن أن تنجم عن هذا العبور عبر حقول الزراعة إذا لم يستطع الرؤساء منعها، فأنها تعوض جزئيا عن طريق المنافع التي يحصل عليها الفلاحون من الرحل، كأن يشتروا منهم اللحوم ومنتجات الحليب بأسعار مغرية نسبيا. وتتحدث مس لامبثون أيضا بدقة عن النظام السائد في الزراعة لدى السكان الكرد المستقرين. وسوف نشير إلى تلك المعلومات في حينها.

فئات حسب طريقة معيشتهم التي تحدد بدورها طباعهم، تسمح بالنظر إلى الكرد نظرة أكثر عدلا وأنصافا من الآراء المتناقضة في الظاهر التي أبداها تجاههم العديد من الرحالة. فنحن أمام أربع فئات ذات طباع خاصة بها، ولسنا أمام نموذج كردي واحد، بحيث أن تنوّع المجتمع الكردي من بعض الوجوه واضح للعيان، حتى انه يصحّ ايراد حكم غير مماثل للآخر بشأن كل منها. ومن الضروري أن نلاحظ بشأن التصنيف الذي أورده كريستوف أن الحالة الديموغرافية الحالية لأرمينيا قد تغيرت لخلوهّا من الفلاحين الأرمن منذ نهاية الحرب العالمية الأولى، مما اضطر الكرد في أعالي الهضبة إلى ممارسة الزراعة بأنفسهم وخزن العلف. وبذلك اقتربت هذه الفئة الواردة ضمن تصنيفه مع فئة أشباه الرحّل، فتقلّصت الفئات التي صنفها إلى ثلاث بدلا من أربع.

وكما لا حظنا في الفصل السابق، يوجد بجانب الكرد الرحّل وأشباه الرحل، الكرد المستقرّون، لذلك خصص لهم كريستوف ضمن مؤلفه فقرة خاصة نشير إليها الآن.

(٤) العناصر الكردية المدنية:

كانت الحكومتان العثمانية والإيرانية تعهدان إلى رؤساء العشائر الكردية الموجودة في مناطق الحدود بمهام الحكام، فكان هؤلاء يصبحون بمثابة نوع من الحرس لحدود الدولة، الأمر الذي كان يصرفهم عن أعمالهم التقليدية. وكان يحيط بهؤلاء الحكام - الرؤساء مجموعة من الرجال المسلحّين تنحصر مهمتهم في تنفيذ المهام العسكرية، وبذلك كانوا يقتربون من الحياة الحضرية. وكانت المراكز المدنية لهؤلاء تقام عادة في الأماكن الواقعة على تقاطع خطوط المواصلات، فيسهل عليهم وضع البلاد تحت سيطرتهم. ان اتخاذ ضيعة محّلاً للسكنى تتوفر فيه وسائل الراحة أحسن من معسكر للخيم. وبذلك كان الحاكم يتجّنب جعل مقر إقامته الشتوية في قرية منعزلة بعيدة عن وسائل الراحة، فكان يجب عليه البقاء في المدينة شتاء، ان لم يكن يريد أن تكون سلطته معرّضة للخطر. وهكذا كان هؤلاء المقاتلون يتبعونه ويستقرون معه في المدينة. ان هذا التحول إلى الاستقرار تم بوجه خاص في الأقاليم الحدودية، وكانت الدولة العثمانية تعهد للأمراء الكرد بتولي الإدارة في أرمينيا والولايات الأخرى

أيضا. لأنهم كانوا يتمتّعون بالإضافة إلى السلطات التي تمنحهم إياها السلطة المركزية، بتأييد العشائر الكردية ومساندتها. وغالبا ما كانت وظيفة الـ (باشا) متوارثة في اسر الأمراء الكرد، وهذا ما كان يفسح المجال أمام هذه الإمارات للقيام بثورات وانتفاضات يتكلّم عنها مؤلف كردي هو (شرفنامه) الذي ألفه في القرن السادس عشر أمير بدليس آنذاك. ان سلطات هؤلاء السادة الكرد أصبحت مزدوجة، فمن جهة كانوا رؤساء لعشائرهم الرحّل المستقلة، وكانوا من جهة أخرى موظفين وجنودا للسلطان. كما كان سلوكهم السياسي مزدوجاً. فعندما تكون الحكومة قوية، يمارسون وظائفهم بصورة جيدة. وإذا ما ضعفت السلطة استبدّ بهم الشعور بالاستقلال، فيتصرفون كأمراء مستقلّين وفق رغباتهم. وكانت الحكومة العثمانية تدخل معهم في معارك طويلة لهذا السبب.

كان الأمراء الكرد يعيشون في قلاع منيعة أو على الأقل في قصور محصنّة([٥])، وكان يقضون أوقات فراغهم في الصيد أو القتال، فيقاتلون رعاياهم المتمردين ومعظمهم من الرحل الذين ينتسبون لعشائر غريبة عنهم، أو مع جيرانهم فيما لو أراد أحدهم أن يصبح (باشا) مثله من قبل السلطان، أو مع قطاع الطرق، رغم أنهم أنفسهم كانوا يمارسون تلك الأعمال أحيانا. وفي جو كهذا، كانت السجايا البارزة للطبائع الحربية تجد الارتقاء، وكان هؤلاء الكرد الذي يعيشون حياة النبلاء أو المقاتلين في مدن أرمينيا يعتبرون عناصر معادية للتمدّن ويسمونهم بالـ (أنتي سارت) ([٦])ويقصد كريستوف بهذا المصطلح الرجال الذين يكسبون معيشتهم بوسائل غير الزراعة والتجارة. وبقدر ما كانت صفات المقاتلين

([٥]) أطلال القلاع الحصينة في كردستان كثيرة. وقد ورد في شرفنامه (طبعة القاهرة، ص ٤٤١ – ٤٤٢) أن قلعة بدليس بنيت بأمر من الاسكندر الأكبر من قبل خادمه الذي كان يدعى (بدليس)، وقد غدت القلعة منيعة على الاسكندر نفسه وقاومته عند عودته من بلاد فارس، فتخلى عنها. وفي بداية حصارها تقدم بدليس نفسه "لابساً كفنه والسيف على رقبته" وشرح لسيده أنه تصرف وفقا لأوامره هو، فصفح عنه وحملت المدينة اسمه. ونجد لدى (باندر) في مؤلفه المشار إليه آنفا (ص ١٢٣–١٢٧) وصفا دقيقا لقلعة (محمودية) الحصينة الواقعة على مقربة من (وان). كما أن قلعة (دمدم) الواقعة في منطقة أورومية أمست مثار إلهام لإحدى روائع الشعر الكردي. ويعطي (مولتكه) في كتابه آنفا الذكر (ص ٢٦٤) تفاصيل عن قلعة (سيد بك).

([٦]) تعني كلمة (سارت) بين شعوب آسيا الوسطى الروسية العنصر الحضري او الريفي المضاد للقرغيز، والتركمان الرحّل.

نامية لديهم، كانوا يفتقرون لأدنى استعداد لممارسة الأعمال الاقتصادية، لذلك كانوا يلجأون في جميع أعمالهم المالية والتجارية إلى الأرمن. فاذا كان مطمح الكردي الأعلى أن يصبح (باشا)، فان مطمح الأرمني الأقصى هو أن يصبح مصرفيا لهذا الـ (باشا)!. وهكذا كان أحدهما يكمل الآخر. ولكن الوضع في هذه المدن الواقعة في الأقاليم كان يختلف عما هو عليه في المدن التجارية الكبرى. فكان من النادر أن نجد رئيسا كرديا يتقبل الرشوة من الأرمن، كما كان يحدث في حالات أخرى. ذلك ان الكردي لم يكن يعتبر نفسه موظفا بالمعنى الحقيقي للكلمة، بل رئيسا مستقلا في صراع دائم من أجل المحافظة على وضعه الراهن. وكان يدير بنفسه العمليات الحربية، وفي الصيف يترك المدينة ليسكن خيمته في أعالي الجبال. ان طبائع هؤلاء الكرد لم تكن سوى صورة متطورة لمزاج المقاتل الذي يميل إلى الغزو من رعاة المواشي الذين سبق أن أشرنا إليهم. إن العناصر الكردية المستقرة في المدن هم في الغالب من بين أنصاف الرحل الذين فقدوا إلى حد كبير استقلالهم الاقتصادي وازدادت حالتهم فقرا بسبب استقرارهم في المدينة. إن أبناء العشائر الرحل غير المقيدين بشيء يسلفون المال على قسم من الغلة العائدة للأرمن وأشباه الرحل من الكرد أيضاً. وبذلك يكون الفلاح نصف الراحل ملزماً بتلبية مطاليب الرحل والملاك (ومعظمهم من الفلاحين) ومسؤولي الضرائب، وينتهي الأمر بترك الريف والإقامة في المدينة لكسب متطلبات العيش. وهكذا تزداد طبقة الشغيلة في هذه المدن. إن طبائعهم المتأثرة بالزراعة التي كانوا يمتهنونها من قبل، تتطور شيئا فشيئا باتجاه العقلية الحضرية مع احتفاظهم بطبيعة الحال بذكرياتهم ذات الأصل الرحلي. وكثيرا ما نجد في في مدن آسيا الصغرى هذا الصنف من الشغيلة من اصل ينتمي إلى الرحل وأشباه الرحل يتكون من الكرد والبدو العرب والتركمان.. الخ. "إن أولادهم تحولوا إلى حضريين حقيقيين. وهذا الصنف الخليط من سكان المدن يتميزون بدورهم في كيفية تكوين طبائعهم الجماعية". انهم يقومون بإسهاماتهم الجديدة بصورة مستمرة في سكان المدن الذين يتأثرون بطبائع وعادات لا تتماثل مع طبائعهم[٧].

---

[٧] يذكر (روندو) في مؤلفه المشار إليه آنفا (ص ٤٠) أن للكرد مزاجا خاصا تجاه المدينة. ومع هذا، فهناك مدن

ثالثا - انطباعات عدد من المستشرقين عن الكرد

(سون، بيندر، ميلينكن، لدك، ويكرام، مينورسكي):

من باب تفسير هذه المبادئ العامة التي أوردها كريستوف، نرى من المفيد أن نعطي الآن بعض الأسئلة عن خصال وطبائع الكرد الواردة في المؤلفات المكرسة لكردستان[٨].

يقول سون الذي عاش بين الكرد وتكلّم لغتهم ما يلي: "إذا أردنا ان نكون عدولاً في أحكامنا على الكرد، وجب علينا أن نقارب بين كردستان وأوروبا قبل ٦٠٠ سنة. وحتّى بالنسبة لأيامنا هذه، فان المقارنة بين الأوروبي والكردي لا تسيء إلى الأخير فيما لو جعلنا من القيم المثالية وقواعد الأخلاق معيارا للمقارنة. اننا نجد بين ألف كردي من أي فئة كانوا وكيفما جمعوا مجرمين خلقيين أقل بكثير مما نعثر عيه في مثل هذا العدد من الأوروبيين الذين يجمعون بالصورة نفسها"

"غير أن من الصعوبة بمكان للباحث إعطاء حكم عام شامل على الأمة الكردية، لأن طبائع وخصال عشائرها البعيدة كل واحدة منها عن الأخرى تختلف فيما بينها كل الاختلاف". وبذلك يؤكد (سون) ما سبق أن ذكره (كريستوف) في هذا المجال.

إن العقلية الإقطاعية الحقيقة هي السائدة بين الكرد. ويلاحظ فرايزر وهو أحد رحالة القرن التاسع عشر، أن هناك تشابها قويا بين الكرد اليوم وقبائل (هايلاندرس) الاسكوتلندية منذ بضعة قرون".

"يمتاز الكردي باستقامته التي لا تتزعزع وبحفاظه على العهد وعطفه النبيل على أقاربه وسلوكه الإنساني (وبخاصة كرد الجنوب والوسط) تجاه المرأة أكثر من المسلمين الآخرين، وإحساسه الشاعري وحبه للأدب والشعر وتسارعه إلى التضحية

تأسست من قبل الكرد وحدهم كمدينة (اخلاط) مثلا.

[٨] يمكن الرجوع أيضا إلى مؤلفات (هي) و (هاملتون) المشار إليهما في الجريدة (روزانو - اليوم الجديد) الصادرة في بيروت. أعداد أيلول وتشرين الأول ١٩٤٥.

مـن أجـل عـشيرته، واعتـزازه العميـق بـبلاده وقوميتـه. مـا أعمـق تفـاخر الكـردي بأصـله إذ هـو يـنهض ويعلـن بلغتـه القوميـة "أز كرمـانجم" أو "مـن كـوردم" أي "إنني كردي".

"يتـصف الكـردي أيـضا بحدة طبعـه وفورانـه المفـاجئ، وتلـك صـفة ناتجة عـن حياتـه المضطربة المليئـة بالمفاجـآت، ولكنـه في الوقـت نفـسه يتمتـع بـروح المـرح والدعابـة إلى أقصى الحدود، وهو على استعداد لأن يروي لك المفاجآت عن طبعه الحاد".

"كـان هنـاك (خـان) مـن عـشيرة (هركـي) في (أورامـار) عـضته نعـرة، فأخـذ يحـكّ مكـان العـضة. وبعـد خمـس دقـائق أحـس بـأثر العـضة فحـك مكانهـا مـن جديـد. وظـل علـى هـذه الحالـة برهـة مـن الـزمن، فمـا كـان منـه إلا أن تنـاول مـسدسه ولعـن أب النعرة وأطلق النار على إصبعه فقطعها!".

"اختلـف كرديّـان بـشأن تحديـد المكـان الـذي تظهـر فيـه نجمـة الـدب الأكـبر (سيروس)، هـذه النجمـة الـتي يعـني ظهورهـا انتهـاء موسـم الحـر مـن الـسنة. ودون أن يطـول الجـدال بـين الجـانبين انقـض أحـدهما علـى الآخـر، ولم يفترقا إلا! وقـد فـارق واحـد مـن الاثـنين الحيـاة!" ويقـول أحـد الرحالـة الفرنـسيين وكـان قـد سـافر في حـوالي الـسنة ١٨٨٧ ما يلي:

"رغـم قـساوة الكـرد، انهـم يتمتعـون بـاعتزاز كـبير بـالنفس ويتقيـدون كليـا بعهـودهم. فـإذا مـا وعـدك أحـدهم بأنـه سيوصـلك سـالما إلى مكـان مـا، فـاطمئن إليـه دونمـا تـردد. ولكـن إذا مـا صـادفك في الغـد بعـد وفائـه بعهـده، فانـه لا يـتردد في معاملتك معاملة قاسية إذا اقتضى الأمر".

ويردّد باندر (في الصفحة ١٠٩-١١٠ من مؤلفه المشار إليه آنفا) الأسطورة التي تقول أن عددا من الصليبيين التائهين اختلطوا بالكرد. علماً بأنه يسند الأصل والمنشأ نفسه إلى الخيوسوريين، وهم عشيرة من القفقاس ما يزالون يرتدون زّياً يعود إلى القرون الوسطى. إن القرابة اللغوية التي يعتقد باندر بوجودها بين الكردية والفرنسية ليست لها علاقة بالصليبيين وانما تعود إلى ان اللغتين تنتميان إلى عائلة اللغات الهندو أوروبية.

ويشير (سون) إلى باندر دون أن يذكر اسمه صراحة، في التأكيد على أن الكرد أفضل من شعوب أخرى متحضرة فيما يتعلق ببعض طباعهم.

أما الضابط ميللينكن فيشير في كتابه المؤلف عام ١٨٧٠ إلى أنه رغم عدم إلمامه باللغة الكردية، تعرف على الشعب الكردي في وضعه الطبيعي إبان وجوده في إحدى الفرق العثمانية في أرمينيا. ثم يقول: "إن تمازج الصفات السيئة والحسنة الذي نجده في طبائع الكرد صفة مشتركة بين الرحل كافة، سواء كانوا من العرب أو الكرد أو القرغيز أو غيرهم، بيد أن الكردي يأتي بعد العربي البدوي في فروسيته. [وهذا عكس مايراه (مولكته) الذي سبقت الاشارة إليها]. إن الكردي، حسب آراء معظم الباحثين، يحترم حق الضيافة ويحمي من يلجأ إليه. والكردي خؤون فلا يحس بأي تأنيب للضمير إذا ما لطخ يده بدم من التجأ إليه ليحميه".

ويذكر ميللينكن بعض الأمثلة عن المذابح التي اقترفها الكرد، ومنها حادثة قتل العالم الألماني (شولتز) عام ١٨٣٠. ويلاحظ هذا الباحث الإنكليزي أن الكرد يفتقدون صفة العرفان بالجميل ويتصفون بالكذب والدسيسة وقطع الطريق. وقد سلب الكرد سواء عن طريق هجومهم على القوافل، أم بموجب خطط الانقضاض المسلح العديد من القرى الأرمينية.

لقد ذكرنا آراء بعض الباحثين المتحاملين على الكرد كرأي ميللينكن مثلا، أننا نريد دراسة هذا الشعب وفهمه كما هو في الواقع وليس تصوره على نحو مثالي. ويجب أن لا ننسى أن ميللينكن كان في خدمة الترك العثمانيين وان الكرد تعاملوا معه بحذر لما كانوا يلاقونه من أذى من السلطات العثمانية.

وهناك باحث آخر أقرب إلينا زمنيا هو المبشر ويكرام الذي يبدو بدوره متحاملاً على الكرد في كتابه (تاريخ الكنيسة الآثورية. عام ١٩١٠)، إذ يقول: "ليس التعصب من طباع الكرد. إنهم لا يظهرون أي اندفاع خاص تجاه أي شئ كان باستثناء السطو. لذلك لا يمكننا وصفهم بأنهم جد نشطين حتى في ممارستهم لأعمال الغزو". ويعبر المؤلف نفسه عن رأيه في الكرد في كتاب آخر ألفه فيما بعد فيقول: "لم تتغير طبائع الكرد في الفترة ما بين

الألف قبل الميلاد والعام ١٩٠٠. انهم شعب قوي وموهوب وحسن المعاملة في كثير من الحالات، حتى إن عددا من الموظفين الإنكليز استطاعوا كسب صداقتهم. ومع ذلك فهم بسبب طبيعتهم الجبلية الأصلية أو لسبب يعود إلى نشأتهم الأولية ينقصهم شئ. انهم لم يستطيعوا التخلّص من وسطهم وتفكيرهم العشيري لحد الآن". (ويكرام: الآثوريون وجيرانهم، باللغة الإنكليزية، ص٧).

ان الملاحظة التي أبداها ويكرام جديرة بالاهتمام، وينبغي تقريبها مع آراء كريستوف الذي يسند للعشيرة دورا مؤثرا في الحياة السياسية والثقافية الكردية. ويلاحظ ويكرام أيضا أنه إذا لم يتجاوز الكرد هذه المرحلة، فان العشيرة تبقى عائقة أمام تطورهم نحو حياة اجتماعية أفضل.

ومن أجل إكمال عرضنا لمختلف الآراء، لابد لنا من أن نذكر (ليرج) الذي يبدأ دراسته بعرض آراء كاتب أرمني هو آبوڤيان الذي يقول:

"نستطيع أن نطلق على الكرد لقب (فرسان الشرق) بكل ما في هذه الكلمة من مدلول، فيما لو عاشوا حياة أكثر تحضرا، ذلك أن الصفات والخصائص المشتركة لهذا الشعب تتلخص في استعدادهم الدائم للقتال، واستقامتهم وأدبهم واخلاصهم المطلق لأمرائهم، والتزامهم الدقيق بكلامهم وحسن ضيافتهم، والثأر للدم المهدور، والعداوة القبلية التي تنشب حتى بين أقرب الأقرباء، والصبر على السلب وقطع الطريق، واحترامهم غير المحدود للنساء". ولست أعرف ما إذا كان آبوڤيان توفرت له الفرصة للتعرف على العشائر الكردية في شرقي كردستان، اللرية، وبخاصة على العشائر الكردية العديدة. غير أني أجد هذه المزايا والصفات التي أطلقها على الكرد تكاد تكون متطابقة مع آراء معظم الرحالة الذين عاشوا بين الكرد. وهذا ما جعلني لا أتردد في إيراد انطباعاته عنهم. إن جميع الرحالة الذين عاشوا فترة طويلة مع الكرد يؤكدون على حسن ضيافتهم (ريج، أنيسورث، راولنسون، لايارد، برنت.. الخ). ويرى ريج أن لدى هذا الشعب بوجه عام الكثير من الفضائل الاجتماعية. ويقول (في الفصل الأول، ص ١٠٤، من مؤلفه باللغة الإنكليزية) مايلي: "يبدو لي الكرد شعبا مبتهجا اجتماعيا كثيرا ودون غرور أو تعصب

ولا يحسد الواحد منهم الآخر، ولم اسمع كرديا يتكلّم عن كردي آخر بسوء مهما اختلفوا في تنازع أو مصلحة". إن السلب وقطع الطريق لا يعدّان في مفهوم الكرد من الجرائم، بل من علائم الرجولة، وهما غير مرتبطين لدى أي شعب آخر كالشعب الكردي بسلوكه وطريقة عيشه وتقاليده. ومع ذلك فهنالك إجماع شبه كامل في الشرق على أن الكرد لا يعاملون أسراهم تلك المعاملة القاسية التي يلقاها الأسرى لدى التتار والتركمان والبدو العرب. ويرتبط بهذه الروحية القتالية لدى الكرد حبهم الشديد للحرية وتمسكهم القوي بكرامتهم. "فقد حدث أن أسر أحد البيكات الكرد ولم يكن قد تعدى الثلاثين من عمره، أثناء حملة حافظ باشا عام ١٨٣٧، وكان يتميز بوسامة بادية. فما كان منه إلا أن يرفض جميع العروض المغرية التي قدمت له ليكشف لهم عن عدد الثوار ومواقعهم. وكان يرد على مغريات الأعداء بقوله: "إنني بيك كردي ولا أطمح في أن أكون رئيسا لقوم آخر"، ولم تنفع معه كل أساليب التنكيل والتعذيب التي استخدمت معه طوال يومين، وحتى عندما كان يتعرض للضرب المبرح، كان يدخن غليونه بهدوء. وفي اليوم الثالث رماه الباشا في قدر من الزيت المغلي، فلبث محافظا على رابطة جأشه حتى فارق الحياة" (ليرج، ج١، ص ٢٩-٣١).

ويتحدث مينورسكي أيضا عن تاريخ حافل ومتميز للكرد،[٩] نختتم به هذا الفصل:" في بداية هذا القرن تقريبا، كان يعيش في منطقة (جهريق) في (سلماس) جعفر آغا وهو رئيس لعشيرة (شكاك) التي لم تكن على وئام مع السلطات الفارسية. فكان ينزل من الجبال إلى السهول لغرض السلب. ولكن تبين لي فيما بعد أنه كان للناس الفقراء وجهة نظر طيبة تجاه هذا الرجل، لأنه كان يوزع قسما من الغنائم التي كان يستولي عليها في غزواته، على الفقراء. فالتجأت الحكومة إلى الطريقة القديمة المجرّبة وهي تنصيبه رئيسا للمنطقة الحدودية، فانزوى لفترة ما بسبب منصبه الجديد، ليعود بعد حين إلى ممارسة عادته القديمة. وقد تسنّت لي الفرصة لأطلّع على المكاتبات الحربية التي تبودلت بين جعفر آغا وممثلي السلطة الفارسية في المنطقة. ولم يكن لجعفر آغا كاتب يجيد اللغة الفارسية، فكان يدعو

---

[٩] الكرد، ملاحظات وانطباعات، باللغة الروسية، بتروكراد، ١٩١٥، الفصل الثاني عشر (ترجم الكتاب إلى اللغة العربية من قبل الدكتور معروف خزندار عام ١٩٦٨، ومنها ترجم إلى اللغة الكردية من قبل السيد حمه سعيد حمه كريم ١٩٨٤ – المترجم).

إليه ليلا شاعرا فارسيا مسّنا ليكتب له رسائله إلى حاكم المنطقة، وكان هذا الميزا (أي الكاتب باللغة الفارسية) يحرر لجعفر آغا ليلا أجوبة كاملة على الرسائل التي كان يتلقاها من السلطات الإيرانية، ثم يبّيضها نهارا ويوقعها بختم الحاكم ويبعث بها إلى السلطات الإيرانية. وأخيرا استطاع حاكم المنطقة بعد أن حلف له بأغلظ الايمان وأرسل له قرآنا مختوما من قبله، أن يقنعه بالاستجابة لدعوته والمثول عنده في تبريز. وكان الأفراد المسلّحون من الكرد الذين رافقوه في سفره يحيطون به ولا يرفعون أعينهم لحظة واحدة عنه، مع احتفاظهم الكامل بهدوئهم ورباطة جأشهم. ومع ذلك فانهم لم ينجحوا في حمايته، إذ اغتيل غدرا على الدرج الذي كان يؤدي إلى غرفة الحاكم وهو في طريقه إليه حيث دعاه إليها لعقد جلسة قبل توديعه. وبعد أن تبين لرجال جعفر آغا أن زعيمهم اغتيل بطلقة في صدره، بدءوا بفتح النار بكل هدوء ورباطة جأش، وتوجهوا ليس إلى خارج البناية بل إلى الداخل، معيدين إلى الوراء الجمع المرتعب من رجال الحاكم وحاشيته. وانفصل عنهم بعض منهم وتوجهوا نحو سرداب البناية، إلا أن وابلا من الرصاص أخذ ينهال عليهم، ومع ذلك فقد تمكنوا من النجاة بأنفسهم والالتحاق بالآخرين. وفي هذه الفوضى الضارية أطنابها، كاد هؤلاء أن يظفروا بالحاكم نفسه ويقضوا عليه، ثم توجهوا إلى داخل غرفة فارغة والاستمرار في إطلاق النار حتى الصباح. وعندما تبين لهم وهم في داخل الغرفة، أن هناك كوة في سقف الغرفة تستخدم شتاء لإخراج أنبوب المدفأة منها، أخذوا يرتقون إليها صعودا على الأكتاف حتى وصل بعضهم إلى السطح حاملين معهم أيضا جريحا منهم. ومن هناك أخذوا يدلون الحبال إلى الأسفل لجر البقية وإنقاذهم. ومن السطح بدأوا ينتقلون من سطح إلى سطح ومن جدار إلى جدار حتى بلغوا أزقّة المدينة وبساتينها دون أن يلاحظهم أعداؤهم الذين كانوا يحاصرونهم داخل البناية. وفي نهاية المطاف، تمكن المسلحون الكرد من مغادرة تبريز. وفي الصباح، عندما رأى رجال الحاكم أن رفاق جعفر آغا غادروا البناية، أرسلوا في إثرهم فرسانا يتعقبونهم لعلّهم يظفرون بهم. وعندما رأى المنسحبون الكرد هؤلاء يعدون خلفهم، ترصدوا لهم في مكامن، وما أن رأوهم ينزلون من خيولهم لتعقيبهم، جروهم بمناوشات ذكية إلى الأطراف ثم عادوا بأنفسهم إلى خيول متعقبيهم، فامتطوها وفروا بها. وهكذا تمكن ستة من أصل ثمانية من الوصول سالمين إلى جهريق، أما الاثنان الآخران وكانا قتلا

في المصادمات التي دارت بين الفريقين، فقد علقت جثثهما إلى جانب جثة جعفر آغا أمام دار الحكومة ليكونوا عبرة لمن يعتبر. وقد أثنت الصحيفة المحلية على نجاح هذه الخطة الحكيمة (!) التي استخدمها الحاكم (مضى على هذه الحادثة خمسون عاما - باسيلي نيكيتين).

رابعا - كيف يرى الكرد أنفسهم؟

لقد عرفنا حتى الآن وجهة نظر الأجانب في الكرد، ولنر الآن كيف ينظر الكرد إلى أنفسهم؟

لنبدأ بهذه القصة القصيرة التي توضح لنا إلى أي حد يغار الكردي على سمعته في الشجاعة.

تدور القصة حول مأثرة أحد اللصوص واسمه (مام رزكو)، وكان مشهورا في منطقة دياربكر، وقد روى القصة أحد أتباعه فقال: "كانت العصابة متربّصة في كمين قرب إحدى الطرق عندما برز شاب يحمل على كتفه بندقية (مارتيني) ويتمنطق بنطاقين من الخراطيش. كان ينتعل حذاء من صنع دياربكر ويرتدي (بستكا)[١٠] من لباد (قره موسى) - وهي قرية معروفة بصنع هذا النوع من اللبس - على بدلته الكردية المصنوعة في (ديهى)، مع شال من الموصل يعصب به رأسه، وكان يضع كفه على أذنه ويغنّي بصوت عال. ومع أنه كان مسلّحا، لم يبد أي مقاومة أمام واحد من رجال (مام رزكو) الذين سلبوا أمتعته. وبعد فترة قصيرة ظهر على الطريق رجل عجوز ضئيل الجسم يتلفّع بعباءة مهلهة، ولكنه يقبض بشدة على سيفه ومجنه وينهر حماره ليسرع في سيره، فأصدر مام رزكو أمراً بسلب عابرالسبيل هذا، فتصدى له أحد رجاله وصاح به: "هو لويي.. لولي"، وردّ العجوز وكان اسمه (مام خال) على صياحه بالقول أيضا "هو لولي.. لويي"، ثم راح يشتمه

---

[١٠] الـ (بستك) سترة غليظة تصنع من عدة قطع عمودية وهي بدون أردان. وتصنع عادة من اللباد وتلبس شتاء وتجلب للابسها من الدفئ القدر الكثير - المترجم.

بأقذع الشتائم ويقول له: " ماذا يفعل هناك كالكلب؟". وعندما نهره الغلام وأمره بأن يسلمه كل ما يملك، غضب مام خالد وصاح به في شتيمة أخرى أشد وقعا. فما كان من الغلام إلا أن اعد بندقيته وصوّبها نحو العجوز. غير أن هذا انقض عليه بسيفه، ففر الغلام أمامه، فلحقه العجوز إلى حيث مركز العصابة والتقى برئيسها. وبعد محادثة قصيرة مع (مام رزكو)، قبل العجوز ضيافته وأكل معه الكباب. وقبل أن يغادر العجوز مقر العصابة، أهداه رئيسها الأمتعة التي سلبت من الشاب وزاد عليها خنجراً وقال له: "خذ هذا، فأنت أهل لأن تحمله".

وتبين لنا رواية الصراع بين (عبدو) (وعزيز) أن طبيعة الكرد الحادة الثائرة تسير جنبا إلى جنب مع شجاعتهم وبسالتهم. لم يكن بطلا هذه القصة ينتميان فقط لعشيرة واحدة هي (مزوري زور) ويسكنان قرية واحدة هي (آراكو)، حسب، بل كانا كذلك قريبين. كان عبدو من وجوه أحد فروع تلك العشيرة، أما عزيز فكان أحد الرجال البارزين فيها. وفي سنة من السنين تمكنت الحكومة العثمانية من فرض ضريبة كبيرة على العشائر بعد أن ساقت لقهرها قوات كبيرة، فحدث تذمّر عام بين الكرد الذي أخذوا يتحدثون عن إسقاط رؤسائهم باعتبار انهم مسؤولون عمّا جرى لهم. فغضب عبدو مهددا أولئك الذين كانوا يفكرون باستبدال غيره به. فأجابه عزيز بجواب فيه تحد، قائلا: سأسقطك عن منصبك وافعل ما تشاء. ومرت بضعة أيام التقى بعدها عبدو، وهو متسلح ببندقية، بعزيز الذي لم يمكن يحمل معه إلا خنجرا، ولم يحيه التحية المعتادة. فصاح عزيز: لقد فقد هذا الكلب ماء وجهه، فأطلق عبدو عليه النار وأصابه، إلا أن عزيزاً انقض عليه بخنجره، ومايزال جرحه ساخنا ينزف دماً، وسدد إليه طعنتين، ثم مد يده إلى جرحه يشده دون أن ينبس بكلمة واحدة. أما عبدو فأخذ يصيح طالبا النجدة، فاقترب منه أخوه أحمد وشاهد الدم ينزف من كليهما، غير أن عزيزا كان صامتا فظنّ أن الرصاصة لم تصب منه مقتلا، فراح يشتمه لأنه اقدم على قتل قريب لهما كليهما. وعندما فرغ من شتائمه، قال له عزيز: "عوضاً عن أن تشتمني، انزع الرصاصة من جنبي". ففك أحمد ثياب أخيه، وما أن شاهد الجرح حتى استلّ خنجره وهم بأن يجهز على عبدو، فناداه عزيز قائلا له: "تعال يا أخي. فأنا قضيت عليه. احملني على ظهرك إلى المنزل". ونقل الاثنان إلى منزليهما، وعند المساء لفظا روحيهما. إن

هذه الأقصوصة القاسية والساذجة في آن واحد تعطينا صورة واضحة عن الكرد. فعزيز الذي كان على وشك أن يلفظ أنفاسه الأخيرة يقول لأخيه "لا تتعب نفسك في الإجهاز على عبدو، فقد صفيت حسابه"[11].

لا يعلق الكردي، بوجه عام، أهمية كبيرة على الحياة. كان أحد الكرد يسير في غابة، فشاهد كرديا آخر يقتطف العفص من على شجرة بلوط، ولاحظ شيئا بارزا تحت سترته، فظن أنه كيس دراهم، فصوب إليه بندقيته واسقطه من فوق الشجرة. وعندما فتشه لم يعثر إلا على بعض من رؤوس البصل، فعاد خائبا إلى منزله، وقصّ على والدته ما حدث له، فقالت له: "لا تبتئس يابني! سوف نأكل البصل مع الخبز". ويبدو أن الكردي مثل الألباني الذي يشبهه في كثير من الأمور، يجد لذة في مشاهدة أثر الرصاصة التي يطلقها من بندقيته، فتردي رجلا سليم الجسم معافى[12]. وبأسباب مماثلة يمكن تفسير الحادث المؤسف الذي وقع في لجنة تحديد الحدود العثمانية-الإيرانية عام ١٩١٤ عندما أطلقت النار دونما سبب معلوم على السكرتير الإنجليزي لتلك اللجنة (هوبارد).

وتبرز شجاعة الكردي واستبساله في صيد الحيوانات أيضا، إذ نادرا ما تخطئ رصاصته الوعل الجبلي[13]. وقد سمعت أقاصيص كثيرة عن مهارة الكرد وشجاعتهم في هذا المضمار. ويروي أن صيادا كرديا اسمه سليمان بايزيد من عشيرة (مزوري زور) أنجد ذات يوم دبا كان

---

[11] حوادث عديدة كهذه وقعت وماتزال تقع بسبب الجهل ووجود السلاح في أيدي أناس من الجهلة المرتزقة. فقد حدث ان معلّما كان مع شقيقته المعلّمة أيضا في مدرسة قرية قريبة من الطريق العام بين أربيل وكويسنجق ينتظران سيارة يستقلهما للعودة إلى مدينتهما كويسنجق في ربيع عام ١٩٨٦، وكان أحد المرتزقة المسلحين الموجودين في ربيئة عسكرية قريبة من الطريق العام يراهن زميلا له على إصابة رأس الواقية المطرية التي يحتمي تحتها الشابان من المطر. وبعد لحظات وقع الشاب مضرجا بدمائه بين يدى شقيقته قتيلا، حيث إصابته طلقة مميتة في صدره، ولم ينل القاتل جزاءه إذ اعتبر الحادث قضاء وقدرا ! – المترجم.

[12] من حقنا أن نستغرب اتخاذ المؤلف هذه الأقصوصة مثالا يصل منه إلى استنتاجات عامة بشان طباع شعب كامل باسره! – المترجم.

[13] حول مهارة الكرد في الرماية، أنظر الصفحة ٢٢٠ من كتاب المؤلف الألماني ويستارب المعنون: (تحت ضوء القمر والشمس) الذي يروي فيه كيف ان راميا كرديا أصاب خرطوشة فارغة وضعها كهدف له على بعد أربعين خطوة منه وثقبها.

قد فاجأه فهد وكاد يتغلب عليه، وحفظ الدب هذا المعروف للكردي وتعلق به وكان يصاحبه أينما ذهب. وأخيرا، وكما جاء في إحدى أقاصيص الكاتب الفرنسي (لافونتين)، قتل الدب صديقه عندما كان نائما ذات يوم، اذ رماه بحجر كبير ليدفع عن وجهه الذباب!.

ويروق للكردي أيضا أن يروي قصصا أبطالها من اللصوص الماهرين. فالمغامرات إذاً لا تعدّ من الصفات التي يزدريها الكرد. وقد سبق لي أن كتبت في إحدى المجلّات عن قصة سليمان الذي سرق كنز أحد معابد بغداد، بعد أن تزيا بزي رجل تقي. كما أن قصة السارق (كەمو) من قرية (شاكول وردە) في منطقة (كياوەر) الذي كان يعرف بين الناس بـ(سارق النحل) مشهورة أيضا. لقد صنع هذا الرجل من أجل إخفاء سرقاته عددا من كوارات النحل ووضع فيها خلايا العسل المسروقة وبعض الزنابير. وحدث ذات مرة أن قبض عليه أحد أصحاب الكوارات المسروقة في أحد الليالي وهو يأخذ العسل من كوارة لهذا الرجل، فبرر له (كەمو) فعلته بأن قال له: جرت العادة في كردستان أنه عندما يريد أحد إنشاء كوارة جديدة له، لابد له من ثلاث نحلات يشتري واحدة منها، ويستأجر الثانية، أما الثالثة فيسرقها. وقد كانت أوضاع (كەمو) تسير على ما يرام حتى جاء جابي الضرائب ذات يوم إلى القرية ليستوفي الضرائب فيها عن العسل. فحار (كەمو) في ما عليه أن يفعل: ان صرح لمأمور الضرائب بأنه يملك عددا قليلا من النحل، فكيف يبرر كميات العسل الكبيرة التي كان يبيعها؟ وان صرّح له بأنه يملك عددا كبيرا منه وقام المأمور بالكشف عن الكوارات ووجد فيها زنابير لا غير، فكيف يبرر عدم وجود النحل لديه؟ فما كان منه إلا أن أحرق ما عنده من الكوارات.

إلا أنه ينبغي أن لا نعتقد أن الكردي يعجب بحالات العنف والقتل والسلب ويتباهى بها دون غيرها. بل يجب التذكير بأنه يعجب كذلك برواية الأقاصيص والحكايات عن نماذج التروّي والتعقّل والذكاء لدى الأشخاص. كما حدث مثلا لـ (عيسو) من قرية (ديلان) التي تقع على مجرى نهر الزاب الكبير. كان (عيسو) هذا مستشاراً لإبراهيم باشا والي كردستان الذي كان يقيم في مدينة (آميدى)[١٤]. وحدث ذات يوم أن الباشا كان يستريح

---

[١٤] آميدى: العمادية – المترجم.

من عناء الصيد وقد جلس إلى جانبه عيسو وحيدا يبعد عنه الذباب. وفجأة لاحظ عيسو عقربا يقترب من الباشا فاستلّ خنجره ليقتل العقرب، إلا أن العقرب اختفى بين الحجارة. وفي هذه الأثناء استفاق الباشا ليرى عيسو والخنجر في يده، فسأله عما جرى، فاكتفى عيسو بأن اجاب "لقد اختفى"، ولم يشا أن يوضح أكثر من ذلك لأنه أدرك أن الظنون تساور الباشا. وبعد فترة قصيرة ترك عيسو زوجته وابنه علّياً وغاب عن الأنظار. وقد ساءت أمور الباشا بعد غياب مستشاره الذكي فاستدعى عليا وطلب منه أن يذهب إلى والده ويسأله النصح، فقام بالمهمّة. وعندما وصل علي إلى والده قال له هذا: تعال معي إلى البستان وغدا سأجيب على استشارتك. وذهبا معا إلى البستان حيث شاهد علي والده يقلع الأغراس القوية الصالحة من جذورها من الأرض ويترك الفسائل الضعيفة التي لم تتقو بعد. فجزع الابن على البستان وقال لوالده: سوف تقضي على بستانك يا أبي. فأجابه عيسو: كلا، يا ولدي إني سأحصل بهذه الطريقة على ثمار أفضل. وفي الصباح طلب عيسو من ابنه أن يذهب إلى الباشا ويري له ما رآي ويقول له: لقد ذهب ولكنه عاد. ورجع علي إلى الباشا وقصّ عليه كل ماجرى. فصاح الباشا قائلا: انه جواب عظيم. واستدعى فورا جميع زعماء الكرد المعروفين بقتاليتهم وحيلهم ودسائسهم إلى اجتماع طارئ، وأمر بقتلهم جمعيا، وعينّ مكانهم أشخاصا معروفين بطيبتهم وعفتهم، فعاد النظام والأمن إلى البلاد، وبعث الباشا يستدعي عيسو إليه ورفع منزلته. وعند ذاك قص عيسو على الباشا قصة العقرب وقال: عندما اختفى العقرب، اختفت معه جميع شواهدي، ولكنه عندما عاد، عادت الطمأنينة إلى نفسي.

ولابد أن نذكر في هذا السياق قصة حسن بيك أمير منطقة (هكاري) الذي اشتهرت حكمته في كل أرجاء كردستان. لقد كان كل كلمة ينطق بها هذا الأمير تعتبر نصيحة وتذهب مثلا. وفي أحد أيام الشتاء دار الحديث بحضرته عن الأمانة والوفاء وعن الأصدقاء المخلصين والأصدقاء الخائفين. فقال حسن بيك: من استطاع منكم أن يبشرّني قبل غيره بظهور الطيور، كافأته. فاعتقد الجميع أنه يعني الطيور التي تظهر مع مقدم الربيع مبشرة بحلوله. فراح كل واحد منهم يذكر اسم طائر من تلك التي تظهر مع حلول هذا الموسم، ولكنه لم يكافئ أحداً منهم. وأخيرا ظهر رجل يسمّى (مام تال)، الذي رأى طائر النقار على حائط

منزل واخذ يقرع طبله، فاشار للطير وقال للناس إنه الطير الذي يسأل عنه الأمير. وعندئذ شرح الأمير حقيقة هذا الجواب وقال: بينما لا تعيش طيور الربيع إلا في الأيام الجميلة الرخية، يلبث طائر النقار معنا أمينا على صداقته لنا ويعيش بيننا في كل الفصول، ومنح مام تال المكافأة التي قررها لصاحب الجواب الصحيح.

وكثيرا ما تكون الحيلة مرادفة للذكاء. حدث ذات مرة أن ثلاثة رجال وصلوا مع دوابهم المحّملة إلى مكان قريب من بستان، وكانت الدواب تتكون من حصان وبغل وحمار. وأراد الرجال أن يستريحوا قليلا، ولكن البستاني اعترض على ما أرادوا وعبثا حاول صرفهم. فقرر أن يلجأ إلى الحيلة، فهمس في آذان صاحبى الحصان والبغل قائلا: ساعداني على أبعاد هذا الحمّار، أهيئ لكما غذاء طيبا، وأعطى كلاً منهما قطعة نقود. وتكاتف الثلاثة على طرد الحمّار. ثم تظاهر البستاني الحيّال بالتعرف على صاحب الحصان مدعيا أنه أحد أبناء صديق له، وتعاون معه على إخراج البغّال أيضا بعيدا عن البستان. وإذ لم يبق سوى صاحب الحصان، لم يجد البستاني مشقة في طرده هو الآخر. إن هذه المحادثة التي دارت بين البستاني والدخلاء الثلاثة كثيرا ما يرددها الكرد فيما بينهم بلغة لا تخلو من الفكاهة والطرافة.

ونصل الآن إلى القصص الفكاهية التي يتندر بها الكرد ويعرفون منها الكثير. قرر أحد صغار التجار من مدينة (ثاكرى) [١٥] أن بامكانه تكوين ثروة كبيرة له إذا ما تجول بين القرى الكردية، فتبضع كمية من الأقمشة، واتجه إلى قرية (گەردى)، لأن المثل الكردي القديم يقول: "بع المحتاجين واشتر منهم". وعندما وصل أطراف القرية، شاهد امرأة تخضّ قرب منزلها اللبن في قربة لتستخرج منه الزبدة. وكانت المرأة رثة الثياب ليس عليها إلا خرق بالية. فاغتبط البائع المتجول وقال في نفسه: حسنا فعلت بمجيئي إلى هذه القرية التي برح بها العوز، فما أن أعرض فيها بضاعتي حتى تنفد. فسالته المرأة: من أنت، ومن أين أتيت، وإلى أين تذهب؟ فأجابها: أنا بائع من ثاكرى، أحمل معي مجموعة من الأقمشة، فهلا اشتريت مني بعضا منها؟ أشاحت المرأة بوجهها عنه، وعادت تخضّ قربة لبنها وهي تقول:

---

[١٥] ثاكرى: عقرة – المترجم.

اذهب من هنا، فلدينا ولـ(لله الحمد)، كل ما نحتاج إليه في البيت. ربما تجد من هم بحاجة إليك في المنازل الأخرى. فدهش البائع وقال في نفسه: إذا كان مثل هؤلاء لا يحتاجون إلى بضاعتي، فكيف يكون شأن المحتاجين إليها منهم؟ وأدار ظهره بسرعة وكرّر راجعاً إلى مدينته حيث باع بضاعته بنصف سعرها.

ويسخر الكرد فيما بينهم من البلهاء. ومن بين القصص التي يروونها في هذا المقام أن أحد الآغوات من قرية (هه سنيكان) في منطقة (زيبار) وكان يدعى مام بابير، كان رجلا غنيا إلا أنه كان أحمق. طلب هذا الآغا ذات يوم من امام مسجد القرية الذي يدفع له مرتبا شهريا، ان يذكر أسمه في خطبة صلاة الجمعة. وعوضاً عن اسم السلطان، ووعده بأن يعطيه لقاء ذلك ثلاثين معزة حلوباً مكافأة له إن نفذ له طلبه. وحلّ يوم الجمعة، وتوافد أهل القرية على الجامع لإقامة الصلاة. وكان من بين المصلين ملا القرية المجاورة الذي كان يجهل الاتفاق المبرم بين الآغا مام بابير والأمام. وعندما حان الوقت لذكر اسم السلطان في الخطبة، قال الإمام بالعربية التي كان يجهلها أهل القرية قاطبة: أيها المام بابير! إنك لدب كبير، مأواك جهنم وبئس المصير. وعندما سمع ملا القرية المجاورة هذه الكلمات ظن أن الإمام أخطأ، فصاح به: لا، لا. إلا أن الإمام حافظ على هدوئه ورباطة جأشه وتابع قوله بالعربية، موجها الخطاب إلى هذا الملا: اسكت، أسكتان، أسكتون. المعز ثلاثون، لك منها عشر ولي عشرون. ففهم الملا وسكت. وطار جنان الآغا من شدة الفرح وطلب من رعاة مواشيه أن يختاروا منها أفضل ثلاثين معزة ويعطوها الإمام[١٦].

---

(١٦) لم يعد شائعا في أيامنا هذه حق جباية قسم من الغلال لحساب رجال الدين في معظم المناطق باستثناء المناطق الشرقية من كردستان إيران. ولكن هناك أناس جوالون يظهرون بمظهر ديني ويتابعون موسم الحصاد في القرى للحصول على ما استطاعوا من المحصول. ويطلق على هؤلاء اسم (مفته خور) أي الذين يأكلون من دون تعب. وهؤلاء في الغالب مستجدون يلبسون ثياب رجال الدين ويستغلون مشاعر الفلاحين الدينية استغلالا سيئا. ويوجد عادة في كل قرية كبيرة نسبيا في كردستان رجل دين (ملا) يدفع له مالك القرية ما بين خروار واحد إلى خمسة، كما يعطيه في عيدي الفطر والأضحى هدية تعرف باسم (خلات). [لامبتونن المصدر السابق. ص ٣٤٨-٣٤٩] ويدفع له الفلاح أيضا ما بين ٥ - ٢٠ من تبريز من الغلال باسم الزكاة [من وحدة وزن تنسب إلى مدينة تبريز. شائعة الاستعمال في أذربيجان وكردستان الإيرانية - المترجم]. وإذا كان في القرية مسجد فان

وهناك إلى جانب النوادر الفكاهية العامة نوع آخر منها يدور حول بعض القرى أو العشائر. فمثلا أن أهالي قرية (تيل) الواقعة بين (زيبار) و (ريكاني) بكردستان العراق، وهم من عشيرة مزوري، عرضة لدعابات ساخرة. فيروي أن بعضهم جاءوا مرة إلى أحد عقلاء القرية وهو المدعو (كاك شاسوار) ليشكوا له سوء حالهم بسبب قلة الملح، وهم يرسلون القوافل إلى (اورومیه) أو إلى الموصل من أجل الحصول على هذه المادة، فتتعب الدواب في الطريق وتدمى حوافرها. فتصبح غير صالحة للعمل، وطلبوا منه المشورة في ما يجب عليهم أن يفعلوه. فأجابهم قائلا: المسألة سهلة جدا. ليزرع كل واحد منكم في هذا الربيع كمية من الملح في أرضه. ففعل أهل القرية ما وصاهم به حكيمهم هذا. وبعد مدة من الزمن ذهب أحدهم إلى الحقل ليشاهد نمو الملح، ولما لم يجد له أثرا، أخذ يحفر في التربة وينبش فيها، ففوجئ تحت كتلة من التراب بشيء ما ينتصب وكان ذلك شوكه عقرب، فقال في نفسه: لا ريب إن هذه نبتة ملح، ولكن لابد لي من أن الحسها لأتأكد من طعمها! ففعل، ولسعه العقرب في لسانه، فراح المسكين يصرخ من الألم وعاد إلى داره يروي بلسانه المنتفخ لذويه ولجيرانه حكاية نمو الملح المزروع، وكيف ان الملح النابت ملح حاد يقرص السان!

ويروي أيضا أن رجال عشيرة (مزوري) لا يأكلون لية الخروف، ويقال في هذا الشأن (مزورى ناخوا كله خورى) أي: المزورى لا يأكل الذنب الصوفي، ويقصدون به اللية. والسبب في ذلك أن إسماعيل باشا أمير (آميدى) استاء من رجال هذه العشيرة الذين كانوا قد حملوا إليه خروفا بدلا من أن يقدموا له هدية اثمن، كما تقضي بذلك العادة، لدى زيارتهم له، فما كان منه إلا أن أمر بتقديم القمح المسلوق لهم (ساوەر = البرغل) وعليه قطع من لحم الخروف تتوسطها قطعة من الشحم، وهو طعام اعتيادي لا يليق بمقامهم، فاستبدّ بهم غضب شديد من جراء هذه المعاملة، وتطور الأمر إلى شجار أدىّ إلى نشوب معركة بين الطرفين بالخناجر، انتهت بمقتل تسعة وعشرين شخصا من اصل ثلاثين من رجال عشيرة المزوري، ومائة وخمسين من خدم الباشا. وما أن وصل الناجي الوحيد من بين رجال عشيرة

مالك القرية هو الذي يقدم له الحطب للوقود في الشتاء، ويكرس أحيانا دخل طاحونة القرية لهذه الغاية. ففي قرية (حه سه ناوا) القريبة من سنندج بكردستان إيران، خصصت واردات طاحونة ونصف لهذا الغرض. (المصدر السابق).

مزوري إلى عشيرته، حتى عَنفوه على جبنه وكيف أنه لم يقاتل حتى يقتل شأن زملائه، فاستلّ خنجره وقتل نفسه. إن هذه القصة تعود إلى أكثر من قرن من الزمن، ولكن يوصى بعدم إعادتها على مسامع أحد من أبناء عشيرة مزروي حتى لا تعود به الذاكرة إلى تلكم الأيام ويتألم من جديد.

آمل من هذه الطرائف التي انتقيتها هنا وهناك وسجّلتها لدي في حينه، أن تعطي القارئ فكرة عن بعض ملامح الكرد في حياتهم، فهم يجمعون بين القساوة والشجاعة والسذاجة والكرم، كما إنهم لا يفتقرون للذكاء ولا للفطرة الطيبة. ودون أن أحاول تزيين صفات الكرد، فقد اضطررت إلى الاختصار أحيانا أو التخفيف من شدة بعض التعابير. إن اللغة الشعبية بعيدا تماما عن التكلف. وسوف نرى في الفصل الخاص بالأدب الكردي أن الكرد يرتقون في تراثهم الخاص بالشعر الغنائي أو الحماسي إلى مستوى يحسدون عليه ويعبر عن إحساس رقيق لا يتوقع وجوده لدى شعب يعيش حياة قاسية منذ قرون عديدة، ولم يتمتع قط برعاية حكومة مستنيرة.

إنني أحاول أن أبذل جهدي في هذا الكتاب كلّما كان ذلك بالإمكان، لفسح المجال أمام الكرد ليتكلّموا بأنفسهم ويعّبروا عن كل ما ذكرته هنا. وقد حاورت في باريس منذ بضع سنوات صديقي المرحوم الأمير ثريا بدرخان من أسرة (عزيزان بوتان) النبيلة التي حكمت فيما مضى قسماً كبيراً من كردستان في منطقة (جزيرة بن عمر) على نهر دجلة. إن ما أورده هو لي يكمل ملاحظاتنا حول طبائع الكرد. ولا ينكر الأمير وجود بعض حالات اللصوصية في كردستان. ولكنه يؤكد على أن اللصوص عوقبوا دائما بشدة، وإذا كان هناك من لصوص قتلة، فانهم كانوا يدانون على ذلك بحرقهم أحياء، وفي هذا السياق ذكر لي الأمير الحادثة التالية: "في فترة من الزمن استطاع أحد قطاع الطرق وكان يدعى (آلو) أن يعبث بالأمن والاستقرار في إمارة بوتان، وبعد حين ألقي القبض عليه، ولثبوت إرتكابه عدة أعمال قتل، حكم عليه بالموت حرقا. وقد صعد بنفسه المحرقة بشجاعة خارقة، وكان الأمير حاضرا وقت تنفيذ الحكم بحقه، وقد استجوبه مستفسرا منه:

- هل تعرف يا آلو إنك في أسوء وضع يمكن للمرء أن يجد نفسه فيه؟

اتجه آلو نحو الأمير وقال له: لا، يا أميري! هناك وضع أسوا من هذا بكثير، وهو أن يبعث لك الله ضيفا كريما ولا تجد شيئا لتقدمه له، فتنظر مع زوجتك إلى أرجلكما خافضي الرأس!

عندما سمع الأمير هذا الجواب من آلو، عفا عن الرجال الذين كانوا معه، ولكن آلو لم يستطع البقاء بسبب الحروق التي أصابت جسمه (بيدار، قواعد اللغة الكردية [باللغة الفرنسية] ص ١٨-١٩).

وكان كل ضحية من ضحايا العصابات يعوض من قبل الدولة: "يروى ان احد الرعاة حضر أمام الأمير في (جزيرة) وقال له:

عندما كنت أعبر حدود إمارتكم مساء البارحة، مطمئّناً من عدلكم ومن الأمن الذي يسود ربوع دياركم، نمت بالقرب من قطيعي، وعندما استيقظت وجدت خمسة من غنمي وقد افترستها الذئاب، ولديَّ جلودها، فأطلب منك العدالة والتعويض.

نصحه الأمير بالعودة إليه غدا.

كانت القصة صحيحة، حيث كانت هناك جثث خمس من الذئاب بجانب جثث خمس من الخراف.

قال الأمير للراعي هذه خمسة خراف تعويضا عن الخسارة التي أصابتك. أما بالنسبة للذئاب التي أكلت خرافك، فإنها نالت جزاءها.

الفصل الخامس

العائلة الكردية:

مسكنها، أزياؤها، غذاءها، دورة المرأة، طقوسها العائلية

أولا - المسكن، القرية، الخيمة:

تختلف نوعية السكن الكردي تبعا لشروط المناخ وارتفاع المنطقة عن مستوى سطح البحر. ففي الأماكن التي يبلغ ارتفاعها بالنسبة لمستوى سطح البحر ٩٠٠ متر (الهضبة الأرمنية) أو ١٠٠٠ متر (جنوبي جبال طوروس)، نجد المنازل مبنية باللبن أو بالحجارة. أما في المرتفعات التي يتراوح علوها بين ١٠٠٠ و ٢٥٠٠ متر، فتصبح المنازل تحت الأرض. وفي المرتفعات التي يتراوح علوها بين ٢٥٠٠ متر و ٤٠٠٠ متر فلا نعثر إلا على خيام الرحل صيفا. إلا أن هذا التصنيف ليس حديا، فقد رأينا منازل كردية مبنية على الأرض في مرتفعات تتجاوز الألف متر في منطقة (أورامار). ولا يتم بناء المنازل تحت الأرض في أرمينيا لأسباب مناخية فقط، بل لاعتبارات أمنية أيضا، لأن ذلك يسهل حمايتها من الأعداء. يقول (باندر) في وصفه لتلك القرى: "تشكل القرية بمجموعها سطحاً طينيا بسقف واحد بطول أربعين أو خمسين متراً، بحيث يتعذر على المرء أن يميزها عن الأرض إن لم ينّبه إليها. أما في الداخل فهناك تيه من الممرات والغرف المتشابكة التي يعيش فيها البشر ومواشيهم مختلطين عيشة واحدة"[1]. وتكون المنازل شديدة التلاصق بعضها ببعض في المناطق المعرّضة للخطر. أما في المناطق التي يتعذر الوصول إليها بحكم موقعها، كما هو الحال في بعض المضايق العميقة أو الوديان التي تمنحها الطبيعة نفسها الحماية الكافية، فان المنازل تكون أكثر تفردا وتباعدا. وقد نعثر أحيانا على منازل منفصلة إحداها عن الأخرى تماما، ومنها ما تكون معزولة عن غيرها وتتعلق بسفوح الجبال الصخرية. وفي مناطق أخرى، في إقليم أردلان مثلا (في كردستان إيران - المترجم)، يحدد عامل الخصب تجمع البيوت أو تفرقها، فتكون القرى متقاربة فيما بينها في الوديان الخصبة، فيما تتناثر في الجبال الجرداء أو المشجرة. ويمكن اعتبار المنازل في منطقة (أورامار) من أكثر منازل القرى الكردية تطوراً، فهي مشيّدة بالأحجار مع الكلس الذي لا يلاحظه المرء إلا نادرا،

---

(١) باندر: المرجع السابق، ص ١٥٧.

كما أن أطر الأبواب والشبابيك تكون من الأحجار الجاهزة ذوات المحيطات المقوسة الصلدة. إن هذه المنازل التي يكون نصفها في الغالب مغروزا في الجبل مؤلفة من طابق واحد علوي. أما القسم السفلي فيستخدم زرائب أو مخازن أو مطبخا. وتكون الغرف معتمة، حيث تقوم الكوى الضيقة مقام الشبابيك. وتكون واجهة المنزل عادة باتجاه الجنوب، وهي تتخذ مخزنا للحبوب شتاء ومساكن صيفاً. إن سقوف هذه المنازل تتألف من سوق أشجار الحور غير المعدلة وغير المقشرة حيث يوضع طرفاها على الجدران وتوضع فوقها الأغصان ثم الأوراق والأعشاب، ثم الطين الذي يسوى فوقها ثم يفرش بالتراب ويعدل بواسطة حادلة حجرية. إن هذه السطوح تكون جد قوية وتعد في كثير من الأحيان بمثابة المكان المسطح الوحيد الذي يمكن استخدامه لحاجات كثيرة، من بينها ندف الصوف. وعندما يسافر المرء في كردستان، لا يجد مكانا ملائما لينصب فوقه خيمته في فصل الصيف إلا سطوح المنازل هذه، وهي تعد من أكثر الأماكن نظافة في القرية. وعلى كل حال فإن القرى الكردية في الجبال أحسن بكثير من قرى هضبة أرمينيا العالية، المظلمة القذرة العديمة الضياء والهواء، الاشبه بجحور الفئران.

في هذه الوديان العميقة تكون الليالي شديدة الحرارة صيفا. لذلك يرحل سكانها عادة إلى المرتفعات حيث يقضون فصل الحر. ومع ذلك فان قسما منهم يبقون في القرية لحراسة الكروم وسقي حقول الذرة والشلب والتبغ والدخن المرتبة على شكل مدرجات ترابية. إنهم يصنعون ما يشبه المصاطب العالية (هرزال) التي يبلغ ارتفاعها أحيانا عشرين مترا ليقضوا عليها لياليهم. ولهذه المشيدات العالية فوائد عديدة، فهي تقي ساكنيها بعوض الملاريا والوحوش المفترسة، ويكون الهواء فيها أكثر نقاء، كما أنها تصلح مراكز للمراقبة. ليس الترتيب الداخلي للمنازل الكردية متشابها في كل مكان. إن الوصف الذي نقدم الآن يمثل أحد المنازل المتوسطة الشائعة. يضم المنزل بوجه عام جناحين أساسيين يتكون الأول

منهما ويسمى (كولان) [٢]، من بيت للمؤونة يحفظ فيه الماء والوقود وأدوات التنظيف.. الخ. ويستخدم أيضا مخزنا لذخيرة الصيف. أما الجناح الثاني فيستخدم للسكن ويوجد في وسطه (تنور)، وهو موقد مدفون في الأرض ذو شكل أسطواني. وإلى يمين مدخل المنزل توجد مصطبة من الطين على طول الحائط تغطيها البسط أو الفرش (دوشكى رونيشتنى). وفي مواجهة المدخل ينتصب رف واسع مصنوع من ألواح الخشب الموضوعة فوق حمالات خشبية ومغطاة بالحصران. وتوضع فوق هذا الرف الفرش والألحفة والمخدات المغطاة بشراشف. أما تحته، فتخبأ فيه قرب المخيض والزبدة والكوز التي تحفظ فيها (القاورمة)، أي اللحم المقلي المجفف والجبن و (كاتيك) وهو الجبن الجاف. ويجلس الرجال عادة إلى اليمين على (الدوشك) بينما تجلس النساء والأطفال إلى جانب الموقد، حيث يكون قدر الطعام موضوعا على قاعدة حديدية مثلثة ذات ثلاث قوائم (سى كوجكه). وتمد ربة البيت يدها بالمغرفة (هيسكو) [أو أسكوى- المترجم] إلى القدر وتوزع الطعام على الجميع. وفي ليالي الشتاء يوضع فوق الموقد كرسي خشبي يغطي بلحاف، فينام الجميع تحته حول الموقد.

أما بالنسبة لخيم الرحّل، فهي بيوت خفيفة الوزن يسهل نقلها على ظهور الدواب، وهذا ما يتلاءم مع حياة الترحل. ففي الربيع والخريف إذ يكون الطقس رطبا والليالي باردة، تنصب الخيام على المنحدرات الجنوبية باتجاه الرياح الجافة. وتقام المخيمات في أغلب الأحيان عند الأطراف السفلى للمراعي. وهذا يعني أنه في الصيف والربيع إذ تبدأ حرارة الشمس بتيبيس الأعشاب وتتجه المواشي في صعودها إلى الأماكن التي ذابت فيها الثلوج، تظل الخيم خلال هذه الفترات قائمة في المناطق المنخفضة، حيث يوجد المزيد من الحرارة. وبالعكس من ذلك في الخريف، فعندما تبدأ قطعان الماشية بالنزول نحو الوديان، تسبقها المخيمات.

وتشبه خيم الكرد خيم البدو العرب في شمالي المنطقة العربية. وتتألف هذه الخيم من لفائف طويلة سوداء، ولذلك يطلق عليها بالكردية اسم (رشمال) أي البيت الأسود. وهي

---

[٢] كولان: تعني في الأصل الطرق الواقعة بين المنازل في القرى أو المدن. وإذا كان يطلق في بعض المناطق على هذه الأجنحة من المنازل التي تحدث عنها المؤلف. فإنما هو تجاوز. لأن هذه الأجنحة ممرات إلى الغرف الخلفية في تلك المنازل – المترجم.

مصنوعة من نسيج شعر الماعز مخيطة فيما بينها. وتثبت الخيمة بواسطة تسع إلى خمسة عشر عمودا ذات أطوال مختلفة مثبتة في الأرض ومربوطة بالحبال بأوتاد مغروزة. إن هذا النسيج جد متين ومتماسك بحيث لا يمكن للمطر أن يتسرب من خلاله. ولا تتصل الخيمة بالأرض. وتسد هذه الفتحة المتروكة بواسطة حواجز خاصة لحماية الخيم من الرياح والأمطار.

وفي داخل الخيمة تغطى الأرض بالبسط وأنواع السجاد. ويبلغ أثاث بعض خيم الأغنياء درجة من الترف تدهش الزائر. ويمكن القول ان أثاث الخيمة يعكس الحالة المادية لأصحابها ويدل على وجود تمييز اجتماعي لا يمكن إنكاره. وكما أن أثاث الخيمة يختلف بالنسبة لحالة أصحابها المادية، فان مساحاتها تختلف كذلك تبعا للأساس نفسه. فقد شاهد بعض الرحالة (ماكينتوش مثلا) بالقرب من (بايزيد) خيمة بطول خمسين قدما وبعرض خمسة وعشرين قدما. كما صادف رحالة أخرى هو (كيسلنك) في شمالي بلاد ما بين النهرين خيمة زعيم كردي طولها ١٠٠ قدم وعرضها ٥٠ قدما. ولكن سعة معظم الخيم بوجه عام أقل من ذلك بكثير. وتكون الخيمة الكبيرة مقسمة في الغالب إلى عدة أقسام، وهناك قسم خاص بالنساء. وكما يقول (لايارد) في مؤلفه (نينوى وبابل) "يوجد في القسم الخاص بالنساء جانب مخصص لرئيس العائلة وزوجاته. ويكون القسم الآخر من القسم النسائي (الحريم) مليئا بالسجاد والبسط والأدوات المنزلية وأدوات المطبخ، بالإضافة إلى الزبدة والمواد الأخرى الضرورية للبيت. ويهيئ الخدم في هذا القسم من الخيمة وجبات الطعام للضيوف وغيره".

وحواجز الخيمة مصنوعة عادة من قصبات الخيزران المتشابكة مع الخيوط الملونة الصوفية أو الحريرية. وترتب هذه الخيوط بشكل منسق يشبه إلى حد كبير رسوم السجاجيد. ويمكن رفع هذه الحواجز بسهولة، وهي لا تحد من جريان حركة الهواء. ولكنها تخفف من شدة الريح وتمنع المطر من التسرب إلى الخيمة. وتختلف أبعادها تبعا للغاية التي وضعت من أجلها: هل هي لتكملة الغطاء الخارجي أو لتزيين القسم الداخلي من الخيمة؟ ويشتمل أثاث الخيمة أحيانا على بعض الأرائك وعدد من الوسائد الحريرية وأنواع من السجاد الفاخر... الخ. ولا يتعدى عدد الخيم في كل مخيم من المخيمات عشرة أو خمسة عشر. ويتناسب هذا العدد مع أهمية القطيع الذي لا يمكن أن يتجاوز عدده العدد المحدد لكل بقعة من بقاع المراعي. ويصادف وجود مخيمات أكثر سعة وأهمية في الوديان الكبيرة المطلة على المراعي

الواسعة، ولكننا لا نصادف أبداً وجود خيمة منعزلة لوحدها للأسباب الأمنية التي سبق ذكرها. ومن الجدير بالذكر أنْ الخيمة الكردية ليست سوى مسكن صيفي. وحتى في سلسلة جبال طوروس الجنوبية، للكرد منازل شتوية دائمية. وقد تبين من وصف الخيمة الكردية ومقارنتها بخيمة الرحل من القرغيز المتكونة من عدة طبقات من اللباد مثبتة على عمود دائري، أنها لا تتحمل برودة الشتاء القاسية. وبجانب هذا النموذج المألوف من الخيمة الكردية، نشاهد أحيانا أكواخا ذوات سقوف منحدرة من الجانبين تحمل أسماء مختلفة (كبروك، زومه ... الخ[٣]).

ثانيا - الزي الكردي:

(١) أزياء الرجال:

الزي الكردي، مثله مثل المسكن الكردي، متأثر بالوسط الطبيعي الذي يعيش فيه الكرد. يقول ديكسون: يلبس الكرد الذين يعيشون في الهضبة الأرمنية العليا ملابس مفتوحة الأكمام لا تزيد سعتها عن حاجة الجسم، وسروالا كذلك أيضا، ويشدون حول بطونهم أحزمة عالية. ولا يكاد الكردي ينزل عن صهوة جواده. وهو مسلّح دائما بالبندقية وحزام الخرطوش مع خنجر صغير. هؤلاء الكرد هم أنفسهم الذين جّند منهم السلطان العثماني عبد الحميد فوجاً من الخيالة في سرايا غير نظامية أطلق عليهم اسم (الفرسان الحميدية)، مقلدا في ذلك القوقاز الروس. ويكمل هؤلاء لباسهم بقبّعة من اللباد الأبيض مخروطية الشكل يحيط بها منديل أسود من الشال الكشميري تنزل أهدابها من كل الجوانب.

أما في كردستان الجنوبية، فان الخيول تبدو عديمة الجدوى، ولذا فهي غير موجودة لديهم بكثرة. إن الزي السابق الذي أشرنا إليه حلت محله ملابس واسعة أكثر ملائمة للتسلق.

---

(٣) راجع (مولتكه) في وصفه للخيمة الكردية، المرجع السابق، ص ٢٢٠.

فالسروال واسع وفضفاض من أعلاه من الخلف، والسترة قصيرة وهي من القماش الأبيض السميك، وغطاء الرأس عبارة عن قبعة بيضاء مخروطية الشكل مصنوعة من اللباد، ويحيط بها منديل ذو لونين أبيض وأزرق في شكل (عين عصفور). ويشد الكردي على بطنه في وسطه حزاما ملونا طويلا ولكن بأناقة. ويكمل الخنجر الكبير ذو القبضة الفضية هذه اللوحة الجميلة. أما الرحل الحقيقيون من الكرد فانهم يقلدون العرب البدو في ملابسهم دون أن ينسوا الخنجر الكردي الذي يرون وجوده ضروريا. إن وصف ملابسهم يبدو لنا أمرا صعبا.

والحقيقة أن الزي الكردي للرجال، بقدر ما هو مرتبط في خطوطه الرئيسية بمتطلبات طريقة عيشهم، فانه ينم أيضا عن ذوق غزير التعبير. وفيما يلي نماذج من الأزياء الكردية التي وصفها لنا بعض الرحالة، وهي نماذج وإن كانت قديمة، إلا أنها ما تزال موجودة. "أمامنا كردي مديد القامة، صلب التقاطيع، يمتطي فرسا صغيرا منهكا ويرتدي زياً مبرقشا يتلاءم والذوق الكردي. والعمامة الطويلة الغريبة التي يضعها على رأسه، يكاد يغرق بسبب من امتدادها، بين ثناياها الفارس وفرسه! وتبرز من بين هذه الكتلة من الأقمشة المتعددة الألوان قبعة مخروطية من اللباد الأبيض، ويبدو الفرس النحيل بهذا الحمل وكأنه مترجرج على وشك السقوط من الإعياء، ويتهدل على جانبيه وشاح متعدد الألوان بحيث يكاد يلامس من طرفيه الطريق. ويتألق هذا التنوع من الألوان الأحمر والأصفر وغيرها على سترته المطرزة ومعطفه وحزامه، كما أنه يحمل العديد من الأسلحة ذوات الأشكال الغريبة".

ثم يصف لنا الزي الكردي في شمالي منطقة موكري جنوبي بحيرة أوروميه ويقول:

"انهم يغطّون رؤوسهم بشال من الحرير المخطّط بالأحمر والأبيض والأزرق معقود بأناة وفي طيات كثيرة على قلنسوة حمراء. إن ثناياها الواسعة مربوطة بوشاح من صنف خاص، كما أن أهدابها الطويلة تنزل بشكل غير مرتب وغريب. ان لهم ملامح فرسان القرون الوسطى وتلمع عيونهم السوداء ببريق عجيب تحت هذه القبعات المزركشة ويرتدون زياً هو عبارة عن صدرية واسعة مع رداء ذي أكمام

فضفاضة مزركشة على النمط التركي، يلبسون فوقه سترة مبطنة بالفرو حسب الإمكانيات المادية لصاحبها. أما الناس الذين ليست لديهم إمكانيات مادية جيدة، فيرتدون سراويل واسعة مسترسلة تحدث صوتاً لدى السير، ويضعون لأجل الرشاقة بدلاً من شال واحد حزاما مشدودا بعديد من التشابكات، في وسطه خنجر مزين بمواد نفيسة حسب إمكانيات صاحبه. ويضع الكردي في وسط حزامه ليس فقط خنجره الكردي، بل زوجا أيضا من المسدسات الكبيرة المصنوعة من النحاس، وقد تكون مرصعة بالفضة. وإلى جانب ذلك كله عدد من أوعية البارود وأمشاط الرصاص والخراطيش.. الخ. ويلبسون فوق ذلك كله معطفا أو عباءة من وبر الجمال، بيضاء أو سوداء أو مخطّطة بألوان الأسود والأبيض والقهوائي على صدرها أزرار، وتنتفخ من الخلف بشكل غريب".

ويقول سون:

"إن الزي الذي وصفناه هنا ما يزال كما كان منذ قرن من الزمان ولم يتغير منه شئ إلا فيما يتعلق بالمسدسات الكبيرة التي حلت محلها مسدسات صغيرة مع بندقية صغيرة تعلق على الكتف. ويتمنطق الفارس بأربعة أو خمسة صفوف من الاجربة لخراطيشه يضع الواحد منها فوق الآخر".

ويصف لنا (ريج) رجلا من الجنوب، من السليمانية من عشيرة الجاف، على النحو الآتي: "يتكون زيه من قماش من النسيج الهندي أضيفت إلى خيوطه الأصلية خيوط مذهَّبة مطرزة بنقوش الأزهار، ويضع على رأسه شالا كشميريا فاخراً بأهداب مذهَّبة أنسدلت على جوانب رأسه، كما يلبس سترة طويلة مفتوحة أو معطفا من النسيج بلون العليق وبرسوم ذهبية كثيرة....يلبس الجاف قباء بطول قامتهم، مع سروال خفيف وحذاء من جلد غير مدبوغ. وهذا ما يساعد على حفظ أقدامهم، ويضعون على رؤوسهم قبعة مخروطية من اللباد".

ويلبس الكردي في منطقتيْ موكري و رواندوز قبعة خضراء اللون من النسيج ليست طويلة وتنتصب في نهايتها خصلات صلدة وذلك بدلا من القبعة البيضاء ذات النهاية الحادة. وتكون العمامة التي يلفونها حول رؤوسهم صغيرة الحجم، الا أن طريقة لفها تؤدي إلى تغطيتها لجانبى وجوههم. وقد أخذوا من الفرس (الكاب) وهو قميص قصير لا يبلغ الركبة، ويغطي كل ذلك سترة طويلة منثنية مصنوعة من المخمل الملون اللّماع يسمى (سرداري). وكلما انحدرنا نحو الجنوب، صار الزي الذي لبسه الكرد أكثر شبها بالزي العربي[٤]. إن الزي الشمالي (يقصد شمالي كردستان - المترجم) هو زي العمل، لأن الرجل في الشمال يكون دوما متهيئا للعمل. أما الزي السائد في جنوبي كردستان، فيتكون من قميص طويل يلبس فوق ثوب ابيض ذي أكمام كأكمام الجبة تصل الأرض. ويرتدي الرجال أيضا ما يدعى (سلته)، وهو نوع من السترة (أشبه بالسترة التي يرتديها الجنود في الجزائر)، تخاط من النسيج الغامق اللون وتطرز بنقوش ذهبية. وتختلف العمامة باختلاف العشائر، وهي تشد على كمة (كلاو) من القطن المطرز. ولتكملة هذا الزي، يرتدي أفراد كل عشيرة من العشائر الكردية في الجنوب صدرية خاصة بدون اكمام من اللباد الغليظ. ولا حاجة بنا للقول أن جميع هذه الأزياء الجميلة الزاهية لا يرتديها إلا الرؤساء ورجالهم المسلّحون. أما الزي العادي الذي يرتديه معظم الناس في وسط كردستان، فيتألف من سروال واسع وسترة من الصوف المنسوج في المنزل، وصدري من اللباد بدون أكمام يدعى (بستك) وقبعة مخروطية (كولوس،كوم) من اللباد أيضا. وتشمل الملابس التحتانية قميصا (كراس) وسروالا (دربى) من القطن. أما الحذاء (پيلاو) فيكون إما من الشعر المنسوج (ريجيك، ژيركال) أو من الجلد غير المدبوغ (كالك) ويلبس شتاء من أجل السير على الجليد نوع من المضارب (ليبان) واسع وقصير[٥].

---

[٤] باتسن، المرجع السابق. ص ٨٨.

[٥] بالنسبة لسوريا، أنظر اللوحة رقم (٣) في دراسة (روندو) المشار إليها آنفا.

(٢) أزياء النساء:

والزي النسائي غير المتأثر كثيرا بالأزياء الأجنبية، وبخاصة بأزياء العرب البدو، يختلف هو الآخر من منطقة لأخرى. ففي الشمال يكون الزي بسيطا إذ يشتمل على قميص ملون طويل وسروال واسع أو (تنورة) واسعة، يضاف إليه في موسم البرد قميص آخر وأحيانا لباد. وتضع النساء كذلك على رؤوسهن عمرة (عمامة). هكذا يصف (سون) زي النسوة الكرديات. أما (ديسكن) فيقول: إن من الصعوبة بمكان وصف الزي النسائي، وهو يشتمل على سروال في شكل كيس وفوقه قميص طويل ملّون، إضافة إلى صدرية واسعة.

وتلف النساء شعورهن على شكل جدائل صغيرة يغطّينها بقبّعة مستديرة صغيرة محلاة بحلي زجاجية يحيط بها منديل (محرمة). ويضاف إلى هذا الزي في المناسبات الخاصة عقد من الفضة والزجاج والأساور أو السلاسل الذهبية أو الفضية التي تحيط بالرأس.

أما في جنوب كردستان ووسطها، فيصبح الزي النسوي أكثر تعقيدا حسب ما وصفه لنا (سون). إن نساء منطقتيْ (موكري) و (سنه) مشهورات بكبر عمائمهن التي تضم مجموعة من المناديل الحريرية الملونة المعقدة في أحد الجانبين. والأقراط المعلقة في الأذنين والأساور وصفوف القطع الذهبية المعلّقة على الجبين تعد بصورة اعتيادية من توابع أزيائهن. وغالبا ما تلبس نساء منطقة (موكري) ما يسمى (سرداری) أو (چاروگه) وهي كسوة ثقيلة توضع على الكتف. إن النساء الكرديات لا يعرفن الحجاب على الإطلاق ولا يخفين وجوههن أبداً.

وبالرغم من أن الزي النسائي في منطقة السليمانية له طابع كردي، إلا أن آثار التأثير العربي يبدو باديا عليه. فالملابس التحتانية تشمل ثوبا قصيراً أو سروالا في شكل كيس يخاط القسم العلوي منه من نسيج قطني أبيض. والقسم السفلي منه من نسيج مخطط. ويلبسن فوق ذلك ثوبا طويلا يبلغ القدمين، مع أكمام صغيرة وواسعة من نسيج قطني أبيض قصّ بشكل هلالي لدى الرقبة. ويلبسن فوق ذلك ما يسمى القباء (كوا) وهو قفطان طويل يبلغ القدمين دون أزرار ومفتوح من الأمام، ويخاط عادة من نسيج ثقيل ذا أكمام طويلة واسعة من جهة اليدين ببضع سنتيمترات. وتضع المرأة الكردية على رأسها

كَمة صغيرة مزخرفة فوقها يشماغ (جامانه)، وهو منديل ملوّن تنزل نهاياته إلى خلف الرأس لتحيط مرة أخرى بالرقبة. ويستعمل هناك بدلا من العمامة الكردية، حبل طويل سميك حيكت بداخله قطع من النسيج الأسود يذكرنا بالبواء. إن هذا الحبل الذي يلف يسمى (بوشين) يشد على الرأس من تحت اليشماغ، ويبدو الزي بكامله ذا طابع أنيق وذوق رفيع، وبخاصة إذا ما ارتدي من قبل امرأة ممشوقة القامة كما هو الحال بالنسبة لمعظم نساء مدينة السليمانية.

ونعود الآن إلى وصف الزي المدني للنساء الموسرات في مدينة ساوجبلاغ (مهاباد اليوم - المترجم)، حيث أهدين زوجتي بدلة نسوية كاملة أثناء إقامتنا في هذه المدينة التي تقع في منطقة (موكري). انه زي بديع يشتمل على ثوب أبيض مع سروال واسع من النسيج الذي تضاف إلى خيوطه خيوط من الحرير أو الذهب، ويلبسن فوقه ثوب طويل آخر من الحرير أيضا ذو أكمام طويلة تصل الكفين على شكل لسان صغير يبدو للناظر وكأنه من أزياء القرون الوسطى، وينتعلن حذاء من بغداد مصنوعا من جلد المعز المدبوغ، أحمر اللون مع ياقة من الخيوط المستديرة الشكل وقد ثبت في نهايتها منديل حريري مبقع. وربما يسر القارئ الفرنسي ما لو علم أن جميع هذه المنسوجات الحريرية الناعمة مصدرها مدينة (ليون) الفرنسية.

(٣) تصنيف الملابس:

لا يمكن تصنيف كل التفاصيل التي أوردناها بشأن الملابس الكردية تصنيفا دقيقا بحيث يستطيع باحث اتنوغرافي أن يستخرج منها نماذج ثابتة حتى وان كانت محلية، إذ يبدو أن الاختلاف موجود بشأن جميع ما ذكرناه بشان الكرد. وهذا يعود بطبيعة الحال إلى أنهم يقطنون مساحات شاسعة من الشمال إلى الجنوب ومن الغرب إلى الشرق، وأن طريقة عيشهم ومشاغلهم تختلف من منطقة إلى أخرى، وأن الكرد لم يبقوا منغلقين على أنفسهم أو معزولين عن الآخرين خلال حقب تاريخهم الطويل، بل بالعكس كانت لديهم صلات وعلاقات عديدة مع جيرانهم. وهذا ما يفسر الموقف المتردد للدكتور كريستوف الذي تناول

موضوع الزي الكردي بشكل لا يتفق مع الأسلوب العلمي التنسيقي لهذا المؤلف الذي حرص على إعطائنا أمثلة دقيقة وواضحة في هذا السياق. انه يقول لنا بوجه خاص أن من المحال تحديد ما إذا كان هذا النوع من الملابس يعد أصيلا أو ذا صفات خاصة نشأت بتأثير من طريقة العيش أو البيئة الجغرافية، وما هو تأثير التجارة والصلات التي نشأت بين الكرد والشعوب الأخرى على أزيائهم. ففي الشمال يبدو دور الشعوب القفقاسية واضحا، وفي الشرق دور الفرس، وفي الغرب التأثير التركي، وفي الجنوب التأثير العربي. وقد بدت هذه التأثيرات واضحة على الأرمن. أما الكرد فقد ظهرت عليهم تأثيرات الأقوام المجاورة لهم ولكن بدرجة أقل. ثم ينتقل كريستوف إلى وصف الزي الكردي بالصورة التي رأيناها في أعالي الهضبة الأرمنية، وهي تختلف كثيرا عن الزي في وسط كردستان وجنوبها، الذي وصفه (سون).

إن الكرد في أعالي الهضبة يصنعون ملابسهم من المواد التي توفرها لهم قطعان مواشيهم، ولا يعتمدون على التجارة في توفير هذه الملابس. وكما سبق أن بينا في الفصل الثالث من هذا الكتاب، تقوم النساء بحياكة النسيج واللباد من صوف الأغنام وشعر الماعز. ان هذه المنتجات الخشنة متينة جدا وتحمي الجسد أفضل بكثير من الأقمشة القطنية المستوردة عن طريق التجارة. إنها تحمي بصورة أفضل أجساد الرعاة الرحل المعرضين دوما لتقلبات الطقس، ويقال الشيء نفسه بشأن الحذاء. وبعكس ما يقوله دكسن، إن الأحذية الجلدية ليست مقبولة لدى الجميع. إن الحذاء المعتاد هو نوع من النعال يحاك من الصوف، وهو ينهك القدم ولكنه يضمن الصلة بالتربة التي يدوسها بصورة أفضل. وهو شيء جد مفيد لمن يتسلق الجبال كما ثبت ذلك عمليا بالنسبة لكاتب هذه السطور. وهذه الحالة تعد مثالاً واضحاً على تكيّف عضو من جسم الإنسان مع وظيفته.

وقد استخدمت الصنف نفسه من النعال في عبور جليد (ديودورك) في القفقاس. فقد كان صندلاً من الجلد الغليظ المتين المتشابك، بدلا من النعال. وقبل انتعاله، كنا نملأه بعشب جاف ناعم، فتحس القدم براحة تامة لا تؤثر فيها خشونة وجه الأرض لدى الصعود. أو لا يلبس الناس أيضا عند عبورهم البحر الجليدي في منطقة (شامونيكس) الجبلية

الفرنسية مع الأحذية الاعتيادية جوارب ثخينة من الصوف؟ إنها الأسس والقواعد نفسها في المناطق المتماثلة.

ويجب الإشارة أيضا إلى المعطف المصنوع من اللباد الثخين الذي يرتديه الرعاة لحماية أجسامهم من المطر، الذي يبدو لأول وهلة وكأنه كيس مربع الشكل (كه ولى شوانى) كما يسمى في القفقاس. وهناك صفة واحدة تبدو مشتركة بالنسبة لجميع الكرد في ملبسهم. إن الزي الكردي لن يكون أبدا معتّما وبلون واحد، بل يدهش الناظر إليه دوما بجماله وامتزاج ألوانه المتضادة التي يستخرج منه، ويكاد المرء يعتقد أن الطبيعة التي تحيط بالكرد من مراع خضراء مزينة بالأزهار، وثلوج تلمع من بعيد، وسماء زرقاء صافية، ومياه سهول وجداول، أسهمت كلّها في أن تنمّي لديهم هذا الذوق الفني الذي نراه رأي العين في زيهم وفي دقائق وتفاصيل تجهيزات سكناهم العائلية: زوال، لباد، وسائد، ستائر.. الخ. ان الهدف الاجتماعي للزي يبدو غير خاف لدى القارئ[٦]. ولا نتطرق هنا إلى موضوع الأسلحة لدى الكرد. فقد صارت الأسلحة التي يمتلكونها حديثة، كغيرها من الأسلحة الموجودة في أي مكان آخر. إن الحراب وريش النعام وأذيال الخيل وأنواع الأسلحة والأتراس أخذت طريقها إلى المتاحف، فلا نجد إلا في المقابض المنقوشة أو على الخناجر المرصّعة آثار التقاليد الماضية.

ثالثا - الغذاء

من الضروري أن نتوقف قليلا عند بحث الغذاء لدى الكرد. سبق أن بينا في الفصل الثاني من هذا الكتاب، لدى الكلام عن الكرد الرحّل، أن منتجات المواشي، باستثناء اللحم الذي لا يستهلك إلا قليلا، تشكل المادة الغذائية الأساسية لهم. إن الأطعمة الكردية الاعتيادية هي قبل كل شئ (پلاو) المعروف في الشرق الإسلامي كله، والرز المبلل (شله

[٦] للزي الكردي مغزي سياسي أيضا، كما أثبت ذلك (اصلاح) الزي والملابس في كل من تركيا وايران وفي عهد بطرس الأكبر سابقا في روسيا.

برنج)، و (ساور) أي الحنطة المغلية التي تجفف فيما بعد وتدق ثم تطبخ وتقدم مع الزبدة، والرز المقشر أو الذرة البيضاء أو الدخن المطبوخ في المخيض (دو) الذي يطلق عليه (كيردول)، وصنف من اللحم المطبوخ مع أعشاب معطرة متنوعة، بالإضافة إلى التوابل والجوز ويدعى (ترشك). ويستلزم إعداد هذا النوع من الطعام تهيئة دقيقة، وهو معروف بطعمه لكثرة التوابل فيه. لذلك نجد مثلا كرديا يقارن أل(ترشك) بالمرأة. فكما ان المرأة غير الجميلة تستطيع أن تتزين بحليها، يعطي هذا الصنف من الأكل كذلك مذاقا طيبا يفتح الشهية بتوابله، رغم أنه ليس بشئ في حد ذاته. وينبغي أيضا أن نذكر الصنف الذي يعد من كريات من العجين أو اللحم المثروم تطبخ مع المخيض (دو) ويضاف إليه الرز أو الحنطة المفتتة ويطلق عليه اسم (دوخوا). وهناك أيضا (ترخينه) وهو صنف من الأكل يعد بطبخ الرز أو القمح المفتت في الماء مع الـ (كارى) أولاً، ثم تضاف إليه الزبدة. وأحيانا تطبخ الحنطة المفتتة في الماء الحار المدهون بالزبدة والقاورمة (وهي اللحم يحمس في الدهن ويحتفظ به في قربة لاستهلاكه في موسم الشتاء - المترجم) وهو ما يطلق عليه اسم (شله گنم). وتطبخ أحيانا الحنطة المفتتة والشعير في اللبن بإضافة بعض الأعشاب المعطرة إليها مثل كيزنك، بونك [بونك = النعناع البري - المترجم] وأوراق اللفت إله ويسمىّ (دوخينه).

والصنف الذي يطبخ فيه الرز أو الدخن أو العدس في الماء هو صنف الطبقة الفقيرة ويطلق عليه (شوربا). ويعد أيضا من أكل الفقراء الصنف الذي يهيأ من الحنطة المفتتة مع رأسين من البصل في قدر من الماء المغلي (گرماو). ويعد أيضا من طحين الحنطة المفتتة فطيرة (رشته) تجفف تحت الشمس ثم تحمس بالسفود وتحفظ في قربة. ويهيأ من هذه الفطيرة صنفان من الأطعمة: (رشتهپلاو) و(رشته رون). ويقدم الصنف الأول من الـ (پلاو) بدون ماء وبعد تقطيره من الماء الموجود فيه. أما الثاني فيطبخ مع اللبن. إن هذه الأصناف من الأطعمة التي أتينا على ذكرها تطبخ عادة في القرى من قبل الكرد المستقرين فيها أو

لدى أشباه الرحّل من بينهم[٧]. أما الرحّل فانهم يشترون الحبوب من الغير، وغالبا ما يفتقدونها، فيكتفون بالجبن واللبن الرائب.

ويجدر بنا ان نذكر من بين المنتوجات الحليبية الأخرى (زازى) ويحصّل من اللبن المغلي، و (لور). وهو من منتجات زبدة اللبن، و (سرتو) أي القشدة، و (كشك) وهي كرات صغيرة من الجبن الأبيض جففت تحت أشعة الشمس. أما الخبز فيعد عند الرحل من قبيل الحلويات ونادرا ما يقدم إلى الضيوف من عابري السبيل. وفي الشتاء عند ما يشح علف الحيوانات وتقل بالتالي كمية الحليب التي تحلب منها، تتأزم الحالة الغذائية للكرد. وخلال الحرب العالمية الأولى ١٩١٤ - ١٩١٨ التجأ إلينا عدد من هؤلاء التعساء، يطلبون الأمان ليتخلّصوا من الهلاك جوعا، ورأيت آنئذ أن من الواجب عليّ معاملتهم معاملة اللاجئين المسيحيين في تركيا الذين تشكلت للعناية بهم لجنة خاصة برئاستي وعضوية جميع رؤوساء البعثات التبشيرية. وعندما وصلت طهران فيما بعد، نبهت هيئة أمريكية خاصة كانت تقيم في العاصمة بالوضع المأساوي للشعب الكردي.

والشئ المألوف لدى العشائر الكردية الكبيرة أن رئيسها يضيف على مائدته كل من يتوجه إليه. لذلك فإن جميع الهدايا ومنتجات الحقول التي يقدمها إليه أفراد عشيرته يستفيدون منها جميعا. ونستطيع القول بوجه عام أن طبائع الناس وأنماط معيشتهم في الشرق تعمل ضد تكديس المال. إن أي شخصية معروفة كردية كانت أم فارسية أم تركية، ملزمة بحسب التقاليد الجارية، بأن يكون لديها عدد من الخدم، وتكون مائدتها مفتوحة

---

(٧) ومن الصعب اطلاق هذه التعميمات في أسماء الأطعمة وأنواعها بحيث تكون عامة لكردستان كلها. وذلك لأنه رغم كون مشتقات اللبن مادة رئيسية في أطعمة الكرد فيما مضى. إلا أنه كان لكل منطقة أطعمتها التي ربما وجدت في مناطق أخرى أيضا أو انفردت هي بها، كما أن إعداد الطعام الذي يتسمّى باسم معين لم يكن على نمط واحد في كل منطقة. فـ (ترخينه) و (دوخوا) اللذان ذكرهما المؤلف يعدان على نحو مختلف إلى حد بعيد في شهرزور وهورامان وبين عشائر الجاف ودزه يى مثلا. و (رشته) كانت تستعمل مع الرز أو البرغل (ساور) بنسبة قليلة في بعض المناطق لا كمادة أساسية بل لإضفاء نكهة معينة على الطعام. وهكذا ينبغي لمعرفة أنواع الأكلات الكردية التمييز بين العام والمحلي بدقة. والتمييز بين الأنواع المسماة باسم واحد حسب المناطق وحسب طريقة إعدادها أيضا. وخلاصة القول ان الموضوع بحاجة إلى تفصيلات دقيقة أكثر يعتمد فيها على ذكر الأنواع والأسماء في كل منطقة ذات نمط معين في الاقتصاد وكيفية إعدادها هناك - المترجم.

للجميع لتعطي انطباعا بالأبّهة والزهو. إن جميع الهدايا والنقود التي تقدم إليها تصرف على الناس من جديد. وبالنظر للجوء الشاه والسلطات في كل من إيران وتركيا إلى مصادرة أموال الأثرياء من أصحاب الحظوة بين الحين والآخر، لذلك لا تتجمع ثروات ضخمة بين أيدي هؤلاء الناس. ويؤكدا الكاتب الأرمني (آبوڤيان) أن بعض الزعماء الكرد كانوا ملزمين بمقتضى مراسيم الضيافة بأن يذبحو يوميا من ٣٠ إلى ٤٠ خروفا ويهيئوا من أربع إلى خمس بودات [يساوي البود الواحد ١٦ كيلو غرام] من الرز لإعداد الـ (پلاو)، ويوزعوا عدة باونات من القهوة والتبغ على ضيوفهم[٨]. ويصف لنا مينورسكي المأدبة الضخمة التي أقامها على شرفه سردار منطقة موكري في مقر اقامته في (بوكان) عام ١٩١١ مضيفا "أن الضيافة انتهت بتدمير السردار نهائيا، فقد كان سخاؤه يدفع جيرانه لأن يتوجهوا إليه من كل الأطراف، مستغلّين هذا السخاء. كانوا يأتون جماعات كبيرة ويضيفهم السردار لمدد طويلة، فقد كانوا يعرفون أنهم يظلّون معززين مكرمين. لا أعتقد ان غالبية الكرد في تركيا يطّبقون مثل هذه العادات المتبعة لدى الموكريين". ومع ذلك فقد أخبرني بعض أصدقائي الكرد أن هذه العادة جارية لديهم بوجه عام.

رابعا - مكانة المرأة الكردية:

بعد هذه الملاحظات التي تخصّ حياة العائلة الكردية، نبدا الآن بدراسة وضع المرأة الكردية لأنها تعكس بوضوح خصائص ومميزات هذا الشعب. يقول مينورسكي ان الكرد يعتبرون من بين الشعوب الإسلامية أكثرها تفتحا في الموقف من المرأة. لاريب في أن جميع الأشغال المنزلية الشاقة تقوم بها النساء، فهنّ يحملن الدواب وينزلن عنها الأحمال ويحملن الماء ويصعدن إلى مواقع رعي القطعان لحلبها، كما يقمن أيضا بجمع الأحطاب والمحروقات الأخرى وينقلنها إلى منازلهن للتدفئة والطبخ. ولا يتخلين أثناء عملهن هذا أبداً عن أطفالهن الذين يعلقنهم على ظهورهن بواسطة أحزمهن الطوال. ولئن كانت النساء

---

[٨] أنظر أيضا: واكنر، المرجع السابق (باللغة الألمانية)، الجزء الثاني، ص ٢٤٠.

يكتسبن من هذه الأعمال المرهقة قوة جسمانية كبيرة، فانهن يفقدن بها كذلك أنوثتهن ويذبلن بسرعة. إن نساء الرؤساء وحدهن [ويطلق عليهن تعبير "خانم". لتمييزهن عن عامة النساء اللواتي يدعين"يايه" يستطعن الحفاظ على جمالهن لأنهن يغشن حياة هنيئة رغيدة ولا يقمن بأي عمل شاق. والنساء الكرديات، أيا كانت طبقتهن ومهما بلغن من العمر، يجدن الفروسية بل ويتحدين الرجال في امتطاء الخيل، كما إنهن لا يخشين كذلك تسلق الجبال الوعرة ويبدين مهارة فائقة في ذلك.

وكما سبق لنا القول، لا تضع النساء الكرديات الحجاب على وجوههن، ويختلطن أيضا بالرجال عند عقد الاجتماعات، ولهن الكلمة التي يستمع إليها رجالهن. يقول (سون): "في كثير من القرى كانت ربة البيت تستقبلني في غياب زوجها وتشاركني الحديث ببهجة وسرور، دون هذا الخجل والاحتشام والضعف المصطنع للنساء التركيات والفارسيات، بل ويتناولن الطعام معي أحيانا. وعندما يعود زوجها، لا تترك الضيف لوحده مؤكدة بذلك على اهتمامها به حتى يدخل الزوج المنزل بعد نزوله عن جواده وربطه إياه في الحظيرة". وليس من عادة الكرد الحد من حرية نسائهم، ذلك أنهن فاضلات مع تأنق ولباقة وبشاشة. ولا وجود للبغاء بين الكرد، بل إن كثيرا من الرذائل المنتشرة في الشرق تكاد تكون مجهولة لديهم. ويتم التعارف بين الفتيان والفتيات بصورة جيدة. ويسبق الزواج عادة حب متبادل بين الفتى والفتاة، ذلك أن للمشاعر الرومانسية سيطرة واسعة على قلوب الكرد.

وقد روى لنا مينورسكي عام ١٩١٤ أنه حدث منذ ما يقارب العشرين عاما في منطقة ساوجبلاغ أن فتاة أوروبية وقعت في حب شاب كردي فأشهرت إسلامها وتزوجت منه رغم جميع المحاولات التي بذلها قنصل بلادها أو والداها من اجل إقناعها بالعدول عن فكرتها. وحيث أننا مازلنا بصدد الرومانسية، لابد من أن نشير إلى ديوان الشاعر الكردي (مصباح موكري) الذي احتفظ بنسخة منه، والذي نشد فيه قصائد غزل عذري لحبيبته (نصرت) التي لم تصر زوجته أبدا، بل زوّجت من شخص آخر. كذلك تروي السيدة (بول هنري بوردو) في قصتها الرائعة (انتارام ده تريبيزوند- انتارام الطرابزونية) ملحمة حب غريبة لفتاة أرمنية بيعت من قبل رجال جندرمة أتراك مكلفين بنقلها إلى المنفى لشاب كردي. وتروي لنا هذه الفتاة الأرمنية قصة استعبادها على النحو التالي:

"مــاذا كنــت في الواقــع بالنــسبة لهــذا الكــردي؟ أمــة؟ خادمــة؟ ضــيفة؟ لمــاذا اشــتراني؟ إن لــدى هــذا الانــسان البــدائي شــعورا عميقــا بالنبــل الفطــري. انــه ضــنين تجربتــه ولا يفــرط بــأدنى جــزء منهــا. لم يكــن في بيتــه نــساء، فمــن أيــن لــه هــذا الاحــترام الذي يكنّه للمرأة، والذي يكاد يكون منعدما لدى الشعوب الإسلامية الأخرى؟"

"لقــد أحببــت هــذا الرجــل الــذي لم أكــن أعــرف عنــه شــيئا، بــل كنــت أجهــل حتــى لغته وتاريخ شعبه؟

"في الــصباح أنهــضني مــن فراشــي وأخــذني مــن يــدي وراح يــدور معــي بتــؤده حــول النــار. تلــك هــي العــادة الجاريــة لــديهم. فعنــدما تتــزوج فتــاة تــودع منــزل والــديها بهــذه الطريقــة. وبعــد لحظــات اســتدعاني مــع مــربّيتي إلى ســاحة المنــزل حيــث كــان قــد جمــع مئــة رأس مــن الغــنم وخمــسة جــواميس وســرجا جديــدا مــن الحــور وأوقفنــا هنــاك وقــال لنــا: "كــان مــن الواجــب علــيّ أن أقــدّم لوالــدك ثمــن الــزواج[٩]، ولــذا فــإني أقــدّم هــذه الأشــياء لمربّيتــك الــتي رافقتــك إلى هنــا". وكــان ينظــر إلى بفــرح ظــاهر. وبطبيعــة الحــال لم يكــن أحــد مــا قــد أرغمــه علــى القيــام بهــذا العمــل، ولكنــه كــان يريــد أن يظهــر للجميــع أنــه لا يحــتفظ بهــذه المــرأة الغريبــة في خيمتــه لمتعــة رخيــصة، إنمــا اتّخــذ منّــي زوجــة شــرعية حتــى يحترمــني الجميــع، فــشعرت بتــأثر شــديد. وبعــد مــضي أســبوع، سمعــت أصــواتا خــارج بــاب الخيمــة كانــت وقــع أقــدام وثغــاء حمــلان. فخرجــت لأرى مــا يحــدث، فأخــذ يترقــبني، ثــم قــال: كــان يجــب أن تعــودي إلى أهلــك بعــد العــرس ليقــدّموا لــك البقــر والفــرس والمعــزى كمــا هــي العــادة، لتــصبح مواليــدها ملكــاً لــك. تلــك هــي

---

(٩) ثمن الزواج أو ما يسمىّ بالكردية (شيربابي) أي ثمن الحليب. مقدار من النقود أو المواد العينية يقدمها الخاطب إلى ولي أمر الفتاة التي يخطبها لقاء موافقته على تزويجها منه على أساس أن ولي أمر الفتاة أنفق على إعاشتها وتربيتها من ماله الخاص من أجل زوجها القبل. وها هو الزوج يرد له الدين الذي له بذمة الفتاة. وهو غير المهر الشرعي الذي يعقد النكاح عليه ويعتبر من وجهة نظر الدين الاسلامي ملكا للزوجة. ومن الجدير بالذكر أن الدين الاسلامي لا يعترف بمشروعية(ثمن الزواج) أو (شيربابي) مطلقا.

تقاليدنا، وأنا لا أريد أن تكوني أفقر من غيرك من النسوة. لذلك فإنني أقدمها لك بنفسي".

"ومرت الأيام، ورزقت طفلا أخذ ينمو بيننا. كان لا يتكلم كلمة كردية واحدة كأنه أرمني صغير، ولم يبد والده أي تذمّر من ذلك، ولكنه قال لي ذات يوم: لقّنيه على الأقل كلمة "بابا". لم أحقق له رغبته. إن هذه السعادة ما تزال قائمة بيننا منذ زواجنا قبل أربعة أعوام".

والطلاق سهل لدى الكرد. فكثيرا ما يحصل أن يحتدم النقاش فيما بينهم، فإذا بهم يقسمون بالطلاق فيما إذا وقع هذا الأمر أو إذا لم يقع، وهم ينفّذون أيمانهم. ولكن سرعان ما يبدأ الندم يضيق على صدر الزوج ويتمنىّ استعادة زوجته المطلّقة، ولكن الشريعة لا تجيز له ذلك إلا في حالة واحدة هي أن تتزوج المرأة المطلّقة رجلا آخر يعود فيطلّقها. عند ذلك يحق لزوجها الأول أن يعقد عليها زواجا جديدا. وكثيرا ما نجد في المدن أشخاصا يمتهنون هذا الزواج العابر، مقابل مبلغ من المال! فعندما يحدث الطلاق في ظروف كهذه ويلجأ الزوج إلى هذا الشخص ليلغي بواسطته الطلاق، تحدث أحيانا ملابسات يتندّر بها الكرد فيما بينهم. إن كل ما ذكرناه ينطبق على حالة الكرد في المدن وفي القرى. أما لدى الرحل، فإن الطبائع والشيم أكثر بساطة.

ان للكرد رقصة خاصة تدعى (چوَپی) وهي عبارة عن شبه دائرة يمسك فيها الواحد بذراع من يليه ويقفزون معاً بعض القفزات الصغيرة. والذي يقود هذا الرقص (الدبكة) في المقدمة يمسك بيده اليمنى منديلا مفتوحا يلوح به، بينما يمسك بيده اليسرى ذراع من يليه ويسحب معه بذلك حلقة الراقصين الماسك كل منهم بذراع من يليه. يقول مينورسكي أن احد الملاكين الأغنياء أقام على شرفه حفلة رقص شعبي في أحد الأيام. وما أن ارتفع صوت المزمار (زورنا) مع الطمبور في القرية، حتى هرعت جميع النسوة وقد ارتدين أجمل زيناتهن وأخذن مكانهن بين الرجال في حلقة الرقص التي استمرت حتى المساء، والجميع يضربون الأرض بأرجلهم بين الحين والآخر ضربا جميلا.

وهناك شهادة أخرى لأحد رحالة القرن الماضي يقول فيها[١٠]:

"أسرعت بالوصول إلى المكان الذي حدث فيه التجمّع، فشاهدت لاول مرة رقصة كردية بدت لي لطيفة إلا إنها غير كثيرة الأنس. يمسك الرجال والنساء بأذرعهم فيما بينهم مشكلين حلقة دائرية كبيرة، ويرقصون على إيقاع الطمبور الرديء بشكل بطيئ وعلى وتيرة واحدة. وقد رأينا أن النساء الكرديات غير معزولات عن الرجال رغم كونهن مسلمات. إن وجوههن مكشوفة، ويعتبر ذلك أمرا غير مألوف لدى الشعوب الإسلامية الأخرى".

مما لا شك فيه أن للمرأة الكردية شخصيتها المتميزة. لذلك لا نستغرب إذا ما وجدنا بين الأمّهات من اضيف اسم ولدها إلى اسمها لكونها قد اشتهرت بجمالها وملاحتها أو بذكائها وفطنتها، فيقال مثلا (بابيرى شاشان) أي بابير ابن شاشان. ويمكننا أن نذكر أسماء العديد من النساء اللائي تزعمن بعض العشائر التي خضعت لهن خضوعا تاما. فمثلا عندما احتل الأتراك منطقة (هكارى) كانت تحكمها امرأة[١١]. ويقول مينورسكي أيضا: "في خريف عام ١٩١٤ التقيت بنفسي في مدينة حلجبة الصغيرة القريبة من مدينة السليمانية بعادلة خانم أرملة عثمان باشا الجاف [١٢] الذائعة الصيت. لقد كانت هذه الامرأة الرئيسة الفعلية لهذه المنطقة قبل عدة سنوات، لأن الترك العثمانيين كانوا قد عهدوا إدارتها إلى زوجها الذي كان يغيب عنها بصورة مستمرة. لقد عاش (سون) متنكرا في زي تاجر إيراني

---

(١٠) كومت ده سيرسي: بلاد فارس بين ١٨٣٩ – ١٨٤٠، ص ١٠٤ (باللغة الفرنسية).

(١١) هارتمان (بالفرنسية).

(١٢) يمكنني ان أضيف لهذا المثال الذي أورده مينورسكي مثالا آخر هو (مريم خانم) أرملة الشيخ محمد صديق. لقد كان لي شرف التفاوض مع هذه السيدة الكردية النبيلة التي بقيت وحدها مع خدمها في (نهرى) عاصمة إقليم (شمدينان) خلال تقدم القطعات العسكرية الروسية عام ١٩١٦ في هذا الجزء من كردستان. ويذكر (ميللينكن) في الصفحة ٢٥١ من كتابه المشار إليه آنفا اسم سيدة كردية أخرى هي أرملة عمر آغا رئيس عشيرة (ميلان) التي لم تكن قد جاوزت الثانية والعشرين من عمرها عندما فقدت زوجها ولكنها كانت تتمتّع بتقدير كبير من قبل كبار رجال عشيرتها وتؤثر عليهم كثيرا. لقد كانت تسير أمور عشيرتها بهمة رجل قدير ونشاطه. وقد جلب انتباهي أيضا الاستاذ ماسينيون للدور الذي تلعبه النساء اليزديات على الوجهاء الكرد. فقد كان جمالهن يجعل من الرجال يبحثون عن الزواج منهن على الدوام.

بعض الوقت في القصر الصغير لهذه السيدة، فوصفت بصورة طريفة كيف كانت: تحكم رعاياها وتدير أمورهم بنفسها، دون أن تنسى شؤونها كامرأة، كشرائها لمختلف أنواع الأقمشة والقيام بالأعمال المنزلية كربّة بيت. ولكن عندما بعثت حكومة الانقلابيين في تركيا موظفا تركيا إلى حلجبة، اعتزلت عادلة خانم الحكم وبدأت تعيش حياة منعزلة. كانت عادلة خانم تتولى إدارة المنطقة بنفسها بكل جدارة. وعندما كنا في زيارة للمنطقة، زارتنا في مخيمنا مع حاشية من الوصيفات والخدم، ووافقت بسرور على التقاط صورة لها، وشكرتنا على الهدية التي قدّمتاها لولدها برسالة مكتوبة باللغة الفرنسية ظهر فيما بعد أن شابا كرديا درس الفرنسية لدى المبشرين الكاثوليك في (سنه) هو الذي قام بتحريرها.

يحب الكرد بوجه عام أطفالهم كثيرا. ونرى بالقرب من كل رئيس كردي طفله المفضل ذا الحركات الكثيرة والذي يكون طفله العاشر أو الحادي عشر. وقد ورد في كتاب (شرفنامه) أن جانبولاد بيك كان له سبعون ولدا. وهذه الحالة ليست استثنائية، إذ ليس من النادر أن تصادف في جبال كردستان شيخا كرديا شجاعا وهو يمسك بيد أمل شيخوخته. ويذكر مينورسكي أنه كان في إحدى رحلاته في كردستان، وبينما كان يسير ضمن قافلة في طريق صعب العبور مشرف على هاوية، ظهر فجأة شخصان على الطريق كان الأول منهما كرديا فقيراً كجميع فلاحي المنطقة وهو يحمل بين ذراعيه طفلا ملفوفا بخرق بالية، وكان الثاني زوجته وقد بدت على وجهها الجميل إمارات الحزن وهي تتبع زوجها حاملة خنجره لئلاّ يعيقه في سيره. وتبين أن الطفل كان قد وقع من فوق السطح وأغمي عليه. لقد كان الوالدان مستعجلين في الذهاب إلى قرية مجاورة لعرض الطفل على كاتب تعويذات أو عرّاف. وما أن عرفت الأم أننا أوروبيّون، حتى أخذت تمسك بزمام خيولنا وتقبّل أقدامنا وتستعطفنا طالبة إنقاذ طفلها، ذلك أن الأوروبيين يعتبرون في نظر الشرقيين بوجه عام أطباء أو ذوي معرفة بالطب. لقد كان في هذا المشهد الكثير من صفاء النية والألم الحي. ولاجراء المقارنة تذكرت على الفور ازدراء الكرد للأخطار وللموت، وكيف أن أحد زعمائهم قال لي: "ما من ميتة أدعى للعار من أن يلفظ المرء أنفاسه على فراشه. ولكن إذا قدر لي أن أصاب برصاصة وحمّلوني إلى داري، فسيفرح الجميع لأنني أموت ميتة شريفة".

ولعل الأمهات الكرديات يؤمن بهذه الفلسفة القاسية، ولكن الألم الذي رايته على وجه تلك الامرأة البائسة كان يؤكد بكل وضوح رقتها ومشاعر الحنان قي قلبها.

ولابد من القول في هذا السياق أن الوسائل الصحية معدومة تقريباً بين الكرد والأمراض متفشية فيما بينهم. ومع ذلك فإن الأمراض الخطرة تكاد تكون معدومة بين الرحل منهم. وتفتقر المعالجة التي تقدم للمريض عندهم على وضع تعويذة أو طلسم على مكان الألم أو أن يبتلع المريض ورقة كتبت عليها آية قرآنية أو إحدى الطلاسم. وقد يعمدون إلى استعمال بعض الحشائش الطبية، لكن هذا التطبيب العائلي لم يدرس بعد بما فيه الكفاية.

وفي هذا السياق، نشير، كما يذكر لنا (واكنر)، إلى وجود طريقة خاصة عند أبناء عشيرة (بلباس) لمعالجة الجروح. إنهم يلفون جسم الجريح كله، ما عدا رأسه، بجلد بقرة سلخت حديثا ويخيطون أطراف الجلد (كما لو وضع الجريح في كيس من الجلد - المترجم). ويسقط الجلد بمرور الزمن من جسم الجريح. ويعتقد أبناء هذه العشيرة بأن أخطر الجروح، بما فيها جروح ضربات الخناجر والسيوف والرماح، تشفى بهذه الطريقة. ومن هذا نفهم كيف أن الكرد يثقون بالطبيب أو بأي أوروبي، كما في الحالة التي أشرنا إليها قبل قليل، حتى فيما إذا لم يتمكّن هذا من أن يساعد المريض إلا بإعطائه قطعة من السكّر وفوقها بعض قطرات النعناع أو غيره، إذ سرعان ما يعلن المريض أن حالته تحسنت.

إن أمراض الجهاز التنفسي ليست كثيرة بين الكرد، رغم كثرة التبدلات الفجائية في حالة الطقس. يلاحظ بالعكس انتشار مرض الروماتيزم بينهم. وقد يكون ذلك بسبب عدم كفاية الحماية التي تقدمها لهم خيامهم وللامستهم المباشرة للأرض الباردة. كما أن مرض الملاريا منتشر بينهم أيضا. ولأجل الحماية منه يضعون التخوت العالية التي سبق لنا وصفها. وعلى كل حال فإن ترك الأطفال منذ الصغر بدون رعاية وبملابس قليلة يجعلهم يكتسبون مع الزمن صلابة بدنية ومناعة ضد الأمراض، لذلك فإن عدد المعمّرين في كردستان في ازدياد.

وقبل أن ننهي الحديث عن العائلة الكردية، نشير إلى ما ذكره (سون) من أن السائد بين الكرد في الشمال وفي الجنوب هو عدم تعدّد الزوجات، وأن عدد أفراد الأسرة الكردية الاعتيادية لا يتجاوز ثلاثة أو أربعة أشخاص. إن الرؤساء وحدهم لهم أكثر من زوجة واحدة. وقد ورد في (شرفنامه) أن بعض الزعماء كان لهم عدد غير قليل من الزوجات.

خامسا - نظرة الكرد إلى نسائهم:

تطبيقا لفكرتنا السابقة يفسح المجال رحباً أمام الكرد لوصف أنفسهم بأنفسهم كلما كان ذلك ممكنا، يسعدني أن أنقل لكم مقاطع من دراسة حول المرأة الكردية نشرت في مجلة (أوريانت - المشرق) البيروتية الصادرة في ١٢ - ١٣ تموز ١٩٣٣ للدكتور في القانون كامران عالي بدرخان الشقيق الأصغر لثريا بيك بدرخان. وكما يتبين ذلك للقارئ نفسه، يحدثنا الكاتب عن المرأة الكردية المترفة التي تنتسب إلى الطبقة الراقية وليس لعامة النساء.

يشير الكاتب في بداية بحثه إلى ناحية مهمة يعتبرها مميزة في حياة المرأة الكردية، ألا وهي عدم وجود (حريم) خاص بالنساء، وهو ما يجعل المرأة الكردية حرة في شخصيتها. ويلاحظ أن المبادئ الواردة في القانون الروماني المتعلقة بالوصاية على المرأة لا وجود لها في الأعراف الكردية. فلم يفكر الكردي قط بالتضييق على حرية المرأة، لأنه يعتبرها دائما أهلا لتلك الثقة والحقوق والمسؤوليات التي يتمتع بها الرجل، كما أنه يعتبرها من الناحية السايكولوجية متمتعة بالفضائل نفسها ومعرّضة للاغواءات والوساوس التي يمكن أن يتعرض لها الرجال.

ويستعرض الباحث بعد ذلك حياة المرأة الكردية في جميع مراحلها، فهي الأم التي تتولى تربية الطفل وتعلمها الأغاني الوطنية والرقصات الشعبية والفروسية والكتابة، تماما كما تعلّم اخوتها الذكور، فضلا عن الأعمال اليدوية. إن الفتاة الكردية ترقص (تدبك) بجانب الشباب، وبذلك تستطيع العثور على زوجها في المستقبل.

ثم يأتي الباحث إلى إيراد التفاصيل المتعلقة بحياة المرأة المتزوجة. ومما ينبغي ذكره بهذا الصدد وجود عرف كردي يسمح بأن يطلق على الولد اسم والدته التي لم يتمكن زوجها من مضاهاتها في جرأتها وإقدامها وقدرتها على القتال. ويعطي الكاتب دليلاً على ذلك أنه نفسه [الامير كامران] ابن رئيس عشيرة (عەزيزان) يحمل اسم والدته (بريخان) وليس اسم والده.

إن غالبية الأشعار الوجدانية الكردية تتغنى بالمرأة، بل إن جزءاً كبيرا من الأغاني والأناشيد والقصص الشعبية من نظم النساء وتأليفهن. وفي معظم الأحيان تقدم المرأة الكردية مقام زوجها الراحل. ويذكر الكاتب اسم اثنتين من النساء الزعيمات في منطقة (بشدر)[١٣] خلد الشعب اسمهما عزيزا على قلبه وهما (بوره حليم) من عشيرة (كافروشى) و (كويخا نيرگز) من عشيرة (شوان). لقد حاربت هاتان الامرأتان لسنوات عديدة الاحتلال العثماني. ويورد الكاتب أيضا اسم كل من (عادلة خانم) [المتوفاة عام ١٩٢٤] التي كانت تدير طيلة خمسة عشر عاما أمور عشيرة الجاف في مدينة (حلبجه)، وحفصه خان زوجة أخ الشيخ محمود الحفيد، من بين الأسماء اللامعة في تاريخ الشعب الكردي.

وينهي الكاتب ملاحظاته القيمة بالإشارة إلى أن المرأة الكردية عامل أساسي في النهضة الكردية في المستقبل.

ومن المستحسن أن ننهي هذا الدفاع البليغ عن المرأة الكردية من قبل مثقف كردي بإيراد أقصوصة صغيرة لا تخلو من شيطنة، مستقاة من مجموعة قصصه الشعبية، أقصوصة نلتقي فيها مرة أخرى بصديقنا القديم (عيسو الحكيم): "سأل اسماعيل باشا آخر أمراء العمادية عيسو الحكيم: من هي أفضل امرأة في العالم؟ فأجابه: من كانت لصة وعاشقة وكاذبة. ولأن فهم هذا الجواب استعصى على اسماعيل باشا، فقد اقترح عليه عيسو أن يقوما معا بجولة، فتنكرا بزي الدراويش ومضيا. وكان أول منزل دخلاه، منزل رجل كان أصغر إخوانه الثلاثة، فطلبا منه أن يضيّفهما لتلك الليلة، فرحب بهما. وعندما جلسا

---

[١٣] الصحيح منطقة (شوان) وليس (بشدر) فقبيلتا (كافروشي) و (شوان) تقطنان منطقة (شوان) القريبة من كركوك لا (بشدر) التابعة للسليمانية – المترجم.

لاحظا أن لحية مضيّفهما بيضاء تماماً وأن قامته مقوّسة. فسألاه بدهشة عن السبب في ذلك وهو مايزال شابا في الأربعين من عمره؟ فأجابهما قائلا: عندما تذهبان غدا إلى دار أخي الأكبر مني تدركان السبب. ثم نادى الرجل زوجته، فصرخت هذه في وجهه قائلةً: ماذا تريد مني أيها العنكبوت الاحمر، ياسمّ الأفاعي؟ فقال لها يجب أن تهيئي طعاما للضيفين الدرويشين. فردت عليه صائحة: ماذا تريد مني أن أهيّئ؟ ألا تعلم أنه ليس في منزلك الخراب شئ؟ هكذا كانت المرأة تجيب على كل طلب لزوجها بالصراخ والألفاظ النابية. وعندما حان وقت النوم، قال الزوج لزوجته: لدينا فراشان وغطاءان، فلنأخذ أنا وأنت غطاء ونعط الآخرين لضيفينا. فأجابته الزوجة، فليعم بصرك! ألا تعلم أني لا أسمح لك بأن تلامسني؟ خذ أنت غطاء وآخذ أنا الآخر. وهكذا أمضى الباشا وعيسو ليلة نكراء. وفي الصباح التالي ذهبا إلى منزل الأخ الأوسط، فوجدا لحيته شمطاء. فسأله الباشا: كم عمرك؟ أجاب إني أناهز الستين، فاعترض عليه الباشا قائلا: ولكن في مثل هذه السن تكون اللّحية كلها بيضاء، فلماذا لم تغد لحيتك بيضاء؟ فأجاب المضيف: أمضيا الليلة عندي، وفي الغد تذهبان إلى أخي الأكبر فتعرفان السبب، فقبلا. وكانت ربة البيت تلبّي رغبات زوجها تارة وتتجاهلها تارة أخرى. مرة تبدو مهذبّة، وأخرى فظة غليظة القلب. وفي الصباح ذهبا إلى دار الأخ البكر، فوجدا أن لحيته سوداء فاحمة على الرغم من بلوغه الثمانين حسب قوله. ولما استوضحاه السبب، قال لهما: لا تعجبا أيها الدرويشان أمكثا عندي وسوف تعرفان السبب. لقد كان هذا الأخ البكر أفقر أخويه، إلا أن زوجته كانت تطيعه إطاعة تامة، فما أن يناديها: يا امرأة! حتى تجيبه: نعم، أنا أمتك، فماذا تطلب؟ ولما سألتها عما إذا كان في الدار ما يصلح للطعام؟ أجابت: وكيف لا؟ إن لدينا كل شئ من بيض وأرز وزبدة وعسل و... وبالفعل فقد هيأت وجبة طعام تليق ببيت الباشا نفسه. وعندما حان وقت النوم، سألها الزوج هل لدينا أسّرة؟ فردت قائلة: في ظلك لدينا كل ما نحتاجه، كما هو الحال في بيت أي باشا. ثم خرجت إلى بيوت الجيران وعادت بكل ما يلزم لنوم الضيفين. ثم قال المضيف لزوجته: يا امرأة! لدينا ضيوف في هذه الليلة، ولا يليق بنا أن ننام معا، لنفترق. فأجابته: كلا! إن الدرويشين أهلنا، وأنت تعلم أني أفضّل الموت على أن أنام بعيدة عنك. وعندما حل الصباح سأل الباشا مضّيفه عن أفضل امرأة، فقال: إنها

بالطبع امرأتي، فهي تخفي عني كل شئ يزعجني، وتتموّن بكل ما نحتاج إليه، فلا نخجل تجاه الضيوف. وإذا ما نقصنا شئ استعارته من الجيران. إنها تحبني. وبطبيعة الحال، إن العيش مع امرأة كهذه لا يسمح للهرم بأن يدخل حياتنا. وعند ذلك أدرك الباشا معنى كلام عيسو، فكافأه وأطراه، كما أسبغ الثراء على الأخ البكر، وحمّل الأخ الأوسط على أن يطلق زوجته، وزوج الأخ الأوسط من امرأة ثانية".

ومن كل ما سبق ذكره يتضح للقارئ أن الأسرة الكردية أقرب إلى المفهوم الغربي من الأسر التركية والفارسية (قبل إجراء الإصلاحات التي تمت في تركيا وايران بعد الحرب العالمية الأولى)، وذلك لما تتمتع به المرأة الكردية من مكانة. إن للكردي منزلا واحدا، ويندر تعدد الزوجات بين الكرد[١٤]. إن زوجة الكردي سيدة البيت (كابان) وهي تتمتع بسلطة واسعة داخل الأسرة، فهي التي تتولى إدارة البيت ويعمل الخدم تحت إشرافها، وهي التي توزع الطعام على أفراد الأسرة، ولا يمكن لأحد أن يبدأ الأكل عند نصب الخوان بدون إذنها. وفي غياب الزوج تستقبل هي الزوار وتضيّفهم وتتحدث بحرية إليهم، ولا تخفي وجهها كما تفعل غيرها من النساء في البلدان الإسلامية الأخرى.

سادسا - رب الأسرة

هناك صفة بارزة تتميز بها الأسرة الكردية وهي أن الزواج يتم نتيجة الحب المتبادل، وأن الخطيبين يتعارفان فيما بينهما قبل الزواج. بينما يتم عقد الزواج لدى معظم المسلمين الآخرين بواسطة شخص ثالث، دون أن تؤخذ في معظم الحالات رغبة العروسين بنظر الاعتبار. وعدا ذلك فان الأب هو رب الأسرة الذي له حق البت في كل أمر. إن له المكان الأول في الأسرة، وبحضوره لا يحق لأفراد الأسرة التحدث أو الجلوس إلا بعد الاستئذان منه.

---

[١٤] إذا كان للرجل زوجة ثانية (بيرى) فيعهد إليها عادة بجميع الأمور المتعلّقة بالحليب وما يصنع منه كالجبن والزبدة والقشدة واللبن الرائب و..الخ.

ويأتي بعد رب الأسرة مباشرة ابنه البكر. ويكنّ الكردي لوريثه محبة خاصة، وهذا ما يفسر لنا السبب الذي من أجله يتبادل الكُرد فيما بينهم، أثناء التفاوض على مشكلة ما، أبناءهم الأبكار كرهائن. إن رهن الابن البكر لديهم أضمن حتى من القسم بالقرآن. والعشيرة قد تقدم على خرق جميع تعهداتها إذا كان رئيسها مرهونا ما دام وريثه موجودا، ولكنها تلتزم بعهودها إذا ما رهن الابن البكر، لأن ذلك قد يعرضها لصراع داخلي بعد موت زعيمها.

يقول أحد الرحالة أن "الأسرة الكردية تتقيّد تقيدا تاما بالتسلسل الرتبوي لأفرادها، ونشاهد أمامنا يوميا أمثلة غريبة على ذلك". ثم يضيف:" أمامنا حالة الحاج نجم الدين الذي يسرع إليه ابنه البكر خادما مطيعا عندما يكون بحاجة لجمرة نار يشعل بها غليونه، فيحمل له طلبه ويقدّمه له بكل احترام. وإذا كلف الابن البكر أخاه الأصغر منه بحاجة ما، فأن هذا الأخير يلبـي طلبه بمثل الاحترام والطاعة اللتين يدين هو لوالده وان كان الفرق في العمر بينهما لا يتجاوز السنتين. وهكذا يجري التسلسل بين الآخرين حسب نظام التسلسل التدريجي"[(١٥)].

ويقول رحالة آخر بصدد الموضع نفسه: "لا يحق للفتيان الكرد، وان كانوا من أبناء الزعيم، الجلوس بحضور الكبار، بل يجب عليهم البقاء واقفين لخدمتهم وتقديم القهوة والغليون لهم. وإذا ما دخل أحد الفتيان الخيمة، فانه يقبّل أيادي جميع الموجودين الذين يكبرونه سّناً، وهؤلاء يقبّلون جبينه بالمقابل. أما إذا دخلها رجل أكبر سنا ممن هم فيها فانه يكتفي بأن يصافح الزعيم، ويكتفي الآخرين بأن يرفعوا أيديهم إلى جبينهم دليلا على الاحترام".

ويرث الأولاد والدهم بعد موته. أما إذا لم يكن له أولاد، فإن الميراث ينتقل إلى أخيه أو أبناء أخيه. ويرث الذكر ضعف الأنثى. وإذا توفيت المرأة دون أولاد، قسمت التركة مناصفة بين زوجها وأهلها، أي إخوانها وأخواتها وأولادهم. أما إذا كان للمرأة المتوفاة أولاد، فإن

---

(١٥) شوليه، المصدر السابق. الجزء الثاني. ص ٢٤٠

زوجها يرث الربع، ويرث الأولاد الباقي من التركة. وترث الزوجة الربع من تركة زوجها إذا لم يكن لهذا الأخير أولاد. وإذا كان للرجل زوجتان فانهما تقتسمان هذا الربع. وإذا كان للرجل أولاد فان الزوجة لا ترث إلا الثمن، ويذهب الباقي من التركة إلى الأولاد. ويعين عند الاقتضاء على الأولاد الصغار، وليا عليهم، أخوهم الأكبر أو عمهم ويسمى (سروه‌كر).

ويتعلق بالأسرة الكردية موضوع نسبها. وتتمسك الأسر القديمة بنسبها وتعلق أهمية كبيرة على عراقتها وتحافظ على تسلسل نسبها. وليس أحب إلى نفس الزعيم الكردي من أن تحدثه بود عن أجداده. وقد تعرف أسماء عدد من أسلافه، فإذا به يشرع في تعداد بضعة أجيال أخرى ويحدثك عن بطولات أجداده في قتال الترك (الروم كما يسمونهم) والفرس (العجم كما يسمونهم أيضا).

ولكي لا تكون في حيرة في المسائل الكردية، يفضل أن تكون على علم ببعض الأنساب التي ذكر مؤلف كتاب (شرفنامة) أمثلة فيها (في الصفحة ٣٢٣ منه ورد ذكر سلسلة بلغت الجد الخامس عشر) [١٦]. ويقول مينورسكي أنه "كان من دواعي سروري أن تعرفت على حمدي بك بابان الذي كرس سنوات عديدة من حياته للبحث عن جذور نسب أسرته في المراجع التاريخية العربية والتركية والفارسية التي أتت على ذكر بعض أفرادها. واني مازلت أحتفظ بشجرة أسرته كوثيقة جد ثمينة لفهم العقلية الكردية. إن هذا الإحساس القوي بالروابط العائلية والتفاخر بالأسرة ليس مقتصرا على النبلاء من الكرد وحدهم، بل إن كل كردي يعلم تماما إلى أي أسرة ينتمي ويعرف تسلسل هذه الأسرة. وكثيرا ما نجد في كردستان أشخاصا أمّيين يحفظون عن ظهر قلب أسماء أجداد لهم يمتد تاريخهم إلى خمسة عشر جيلاً مضت على الكثير من تفرعاتها". إن لمعرفة هذه الأنساب أهمية كبيرة بالنسبة للعشائر وتاريخها"

طبعة القاهرة.

سابعا - الطقوس العائلية

نتطرق الآن إلى أخر فقرة من هذا الفصل، وهي تتعلق بالطقوس العائلية وتبين مختلف مراحل الحياة الكردية[١٧]. وتأتي الولادة في المقدمة، لذلك نبدأ دراستنا بها.

(أ) الولادة

تتم عملية الولادة، عادة، على الأرض، فوق قطعة من الحصير. ويغادر رب الأسرة البيت ولا يعود إليه بعد الوضع بيوم أو يومين. ويساعد المرأة في ولادتها نساء لهنّ خبرة، وتتقاضى هؤلاء أجرة مناسبة عن أتعابهن. وقبل عملية الولادة يطلب من (الملا) كتابة حجاب (دوعا) للمرأة ليتم الوضع بسلامة ويسر، كما يكتب بعد الوضع حجابا آخر لحفظ الأم ووليدها من كل شر، ويكافأ الملا على ذلك حسب الإمكانيات المتاحة ببقرة أو نعجة.

وإذا ما تعثرت الولادة تأخذ النسوة يشددن أذني المرأة وهن ينادين باسمها ويصرخن في أذنيها ويتوسلن إليها أن تستعيد رشدها، ويقلن لها مثلاً إن أخاها أو أحد الضيوف قد وصل. وإذا ما أغمي عليها، تطلق عيارات نارية حتى تعود إلى وعيها، ويذهب بعضهم أحيانا إلى الساقية (ويقطع) الماء بخنجر، وهو رمز سحري للدلالة على قطع القيود التي تكبّل المرأة. وحسب المعتقدات الكردية الشعبية، يهاجم المرأة، وهي في المخاض، مخلوق خاص يدعى (هال) وهو عبارة عن امرأة طويلة القامة، نحيلة، مخيفة لها ثديان طويلان تحملهما على كتفيها، وهي تنتزع قلب المرأة عند ولادتها وتأخذه إلى الساقية لتغسله في الماء. وإذا ما تيسّر لها الوقت لفعل ذلك ماتت المرأة. ولكي يطردوا هذه الساحرة، يأخذون في إطلاق النار حول المرأة أثناء المخاض. والقصد من (قطع) ماء الساقية بالخنجر تحرير قلب المرأة ومنع الساحرة من غسله[١٨].

---

[١٧] اننا نستعين بدراسة (جورسين) الخاصة بالكرد في جمهورية أذربيجان السوفيتية (دورية المعهد القفقاسي للتاريخ وعلم الآثار، الجزء الثالث ١٩٢٥، تفليس)، بالاضافة إلى ملاحظاتنا الشخصية.

[١٨] هال أو آل، معروف أيضا في أساطير القشقائيين وهم عشيرة كبيرة في منطقة فارس بايران.

وإذا مات الطفل أثناء الوضع، يلجأ الأهل مرة أخرى إلى الملا. ويفسر الملا سبب وفاة الطفل في الغالب بدخول إحدى النساء الشريرات المنزل وهي تحمل حجابا سيئا. وإذا ما كافأه بمبلغ جيد، فانه كتب لهم حجابا من شأنه أن يطرد الشر بعد تلك الحادثة عن سائر الأولاد الموجودين في البيت. وللحفاظ على المولود الجديد من تأثر الحجاب السيئ، لا يسمح للنساء اللواتي يشك في أنهن يحملن أحجبة سيئة بالدخول إلى المنزل أو حتى إلى باحته. وإذا ما أصيب الطفل بالخوف من شئ ما، يطفئ أهله جمرة مشتعلة في كأس ماء ويسقون الطفل من هذا الماء ليشربه.

وتختار الأم اسما لمولدها بعد أن تستشير النساء اللواتي ساعدنها أثناء الوضع. وتعكس هذه العادة نظام سيادة الأم الذي كان سائدا في قديم الزمان لدى بعض الشعوب، إذ كان الأولاد ينسبون إلى أمهاتهم. وأحيانا يطمع الملا في الحصول على مكافأة أكبر فيدعي أن له الحق في اختيار الاسم للطفل فيستشير كتبه التي يستعين بها لكتابة أحجبته، ثم يخبر أهل الطفل بأنهم إذا ما أطلقوا عليه اسما غير الذي ينتقيه هو فإنه سيلقي حتفه، فيسارع الوالدان المذعوران إلى إغداق الهدايا عليه ويأخذان بنصيحته.

وتتم عملية الختان عندما يصبح بإمكان الأهل تقديم وجبة طعام لائقة للجيران. ويحاول الوالدان أن ينتقيا لطفلهما إشبينا من عائلة غنية وذات نفوذ، ثم يوجه الوالد الدعوة، ويعتبر رفض دعوة كهذه بمثابة إهانة كبيرة للداعي. ويحضر الإشبين معه خروفين أو أكثر. ويذبح والد الطفل مثل هذا القدر من الخرفان، وتقام وليمة يحضرها شخص واحد من كل أسرة في القرية. وبعد انتهاء الوليمة ينصرف الجميع باستثناء أقارب الطفل والابن، فتجري عملية الختان بحضورهم. ويجري العملية حلاّق المنطقة بواسطة موسى وقطعة من القصب المشقوق. وبعد مرور ثلاثة أو أربعة أيام، يأتي الإشبين ليطمئن على صحة الطفل حاملا معه قدراً من الطعام و رغيف خبز كبير وحليباً وعسلاً وبيضاً. وعندما يعيد أهل الطفل القدر إلى دار الإشبين، يرفقون بها قطعة من (الجوخ) أو سجادة أو يرسلون له بقرة. ومهما يكن، فلا يصح إعادة القدر خالية لأن ذلك مما يجلب لهم العار.

ولكي يحافظ الأهل على أولادهم من "العين النجسة" و "الأرواح الشريرة"، فانهم يحيطونهم بعدد من التعاويذ والحجب. ومن الشائع أيضا وضع قطعة من الخبز تحت سرير الطفل. وإذا أخرج أحدهم طفله ليلاً إلى خارج المنزل، فانه يضع في يده أو على صدره قطعة من الخبز، وذلك لابعاد الأرواح الشريرة التي تطوف ليلا، وذلك لاعتقادهم أن الخبز من شأنه أن يرهب الشيطان. وقد رأيت طفلا يبلغ من العمر سنة كاملة من قرية (ملا أحمد لو) غطيّت ملابسه كلها بالتعاويذ والحجب، فقد كان على كتفه تعويذة مخيّطة في قطعة قماش أسود مربع الشكل، مع أصداف وجرائد زجاجية وقطعة معدنية صغيرة، وكان على ظهره تعويذة أخرى مثلّثة الشكل وجرائد مربوطة مع قطع من الأصواف الملونة. ورأيت طفلا آخر محمولا على كتف فتاة على جانبى ظهره خصلات صغيرة من صوف ملون أحمر وأصفر.

لقد وصفنا لحد الآن الطقوس الجارية والمتّبعة لدى الكرد شبه الرحّل في جمهورية آذربيجان السوفيتية. ويختلف الأمر بعض الشيء لدى الكرد في كردستان الوسطى حيث عشت بينهم فترة من الزمن ودرست عاداتهم وتقاليدهم.

عندما يقترب موعد وضع الحمل تتجمّع نسوة الجيران في منزل المرأة التي تكون في حالة المخاض. وكلما كانت أرفع منزلة ازدادت المساعدات التي تنهال عليها. وعلى كل حال يكون من الضروري إحضار القابلة (دابيرك) لأنها التي تقوم بالعمل الأساسي، بينما تلبث سائر النسوة خلفها أو حوليها لمد يد العون إليها. ويطلق في منطقة موكريان على المرأة التي أمام الحامل وهي في حالة الوضع (بيشوه) أي الأمامية، وعلى التي تكون خلفها (بشتوه) أي الخليفة. وفي معظم الحالات تتم عملية الولادة وقوفاً، ويعلق أحيانا حبل في السقف لتستمسك به المرأة خلال عملية الولادة. وبعد أن يبدأ الطفل بالظهور تعطى المرأة قنينة أو أي إناء آخر له عنق طويل لتنفخ فيه فتسهّل عملية خروج المشيمة (هاول بجوك) أو (آوال عند الموكريين)، ثم تقطع القابلة (دابيرك) حبل السرة وتلقيها بعيدا، وتترقب العيون المكان الذي سيقع فيه. فإذا سقط على سلاح ما فهذا يعني أن الطفل سيكون محاربا شجاعا، أما إذا وقع على قدر طعام فهذا يعني أنه سيكون أكولا .. الخ. ويحتفظ بالطفل ستة أيام في لفافات ويوضع فوق غربال (بيژنگ). وخلال هذه الفترة لا يحق للقابلة

(دابيرك) وللنسوة اللاتي شهدن معها عملية الولادة، مغادرة المنزل ولاسيما في الليل أو أن يحملن معهن الأغطية والأدوات التي استعملتها خلال الولادة. وإذا ما تغيبت هؤلاء النسوة في النهار اضطرارا، فعليهن العودة إلى المنزل عند حلول الليل. وإذا لم يفعلن ذلك فسيكون هناك خطر كبير من أن تتمكن الروح الشريرة (ششه)أو(شوه - المترجم)، وهو اسم مشتق من كلمة (شەش) أي ستة، من قتل المولود أو أمه. وللسبب نفسه تشعل النار أو تبقى الأنوار مضاءة طوال الليل، ويتناوب أهل الدار حراستها لمنع الأرواح الشريرة من دخولها. وهناك عرف آخر يقضي بأن تعلق في داخل المنزل الذي تمت فيه الولادة قطعة من ثوب أحد الشيوخ الثلاث (شيخ جمال سوره يى، وشيخ فرخي بيروجي، وشيخ بابا بابيكي) المشهورين بقدرتهم على إلقاء القبض على الروح الشريرة (ششه)، وأخذهم تعهداً منها بعدم المساس بأطفالهم بسوء. ويطلق على فترة الأربعين يوما التي تلي الولادة اسم فترة، النفاس (زيستاني) وهي فترة استراحة الأم التي تتلقى خلالها الهدايا التي تتكون بوجه عام من قطع الحلوى المصنوعة من الزبدة والجوز. كما أن الملا يكتب للمولود الجديد تعويذة خاصة تسمى (نوشته) أي المكتوبة، تخيط داخل قطعة من القماش في صورة مثلث يوضع مقابل المولود الجديد.

(ب) الزواج:

ننتقل بعد الولادة إلى طقوس الزواج، وميدان بحثنا مايزال كرد آذربيجان السوفيتية. لقد كان سن الزواج للفتيان قبل تحديدها في القانون السوفييتي الخامسة عشرة. أما بالنسبة للفتيات فكانت تتراوح بين التاسعة والعاشرة. ويتم الزواج في معظم الأحيان بين فتيان العشيرة وفتياتها، أما من يتزوج من فتاة غريبة عن عشيرته، فقد كان يعاقب بالقول: لماذا لم تخطب بنت عمك وخطبت أجنبية؟ الأفضل للمرء أن يتزوج من واحدة من أقربائه لا من غريبة[١٩]. وكانت هناك تقاليد بالية تسمح بان تخطب الصغيرة وهي لما تزل

---

[١٩] يمتنع أفراد عشيرة (بلباس) من تزويج بناتهم من أبناء عشيرة أخرى. ولهذا السبب فان حوادث خطف الفتيات كثيرا ما تحدث بين بنات هذه العشيرة (واكنر.ج٢ ص ٢٢٩).

في المهد. وتتم الخطبة بأن يعقد على رأسها بمنديل علقت عليه قطع من النقود. واعتباراً من مثل هذه الخطبة وإلى أن تبلغ الفتاة سن الزواج، على الخطيب أن يحمل كل عام بمناسبة عيد الأضحى خروفاً وقطعة قماش أو شيئا آخر إلى خطيبته. ولدى إبرام عقد الزواج يدفع العروس[٢٠] لوالد العروسة المهر (باشتيك) الذي يكون عادة مبلغا من المال يتراوح بين ثلاثين إلى خمسين روبلا وبقرة وبعض الأغنام.. الخ. وبالمقابل يقدم والد العروسة لصهره جميع الأدوات اللازمة للمنزل الجديد باسم التجهيز (جيازى). وقد جرت العادة أن تتألف مواد التجهيز هذه من فرش كبير وفراش كامل (وسادة محشوّة وغطاء) وفرش صغير و(كليم)، وهو سجادة غير عريضة وقدر كبيرة من النحاس وأخرى أصغر وصينية ..الخ. كما يقدّم والد العروسة لابنته فرساً أو بقرة هدية. وبموجب الأعراف الكردية يعتبر هذا التجهيز الذي يقدمه والد العروسة، بالإضافة إلى الهدايا الأخرى الثروة الوحيدة التي تمتلكها المرأة المتزوجة. ويلاحظ أن مهر العروس يبلغ أحيانا لدى بعض العشائر الرحّل من الكرد أرقاما عالية جداً. وقد أعطيت فتاة من عشيرة (ميللى) كانت مشهورة بجمالها حوالي عشرين كيسا من الفضة، أي ما يعادل مائة جنيه إسترليني من الذهب أو ألفين وخمسمائة فرنك فرنسي [الايارد، المصدر السابق].

ويستلزم العرس نفقات باهظة من والدى العروس، لذلك يمدّ الأقارب لهم يد المساعدة، فهذا يقدم خروفا، وذلك بعض الحبوب، والآخر مقداراً من المال. وهناك عرف شائع آخر وهو أن يتعاهد اثنان على أن يساعد كل مهما الآخر عند زواجه. وبطبيعة الحال فان هذا التعاهد لا يتم إلا بموافقة أبوى الطرفين، فيلتقي والد العروسة مع خال شاب مثلا راجيا منه الموافقة على دخول ابن أخته على تعاهد كهذا مع ابنه. والاستئذان من الخال في هذه الحالة من بقايا نظام سيادة الأم القديم. ويترتب على هذا التعاهد من قبل الشابين أن يساعد كل منهما الآخر عند زواجه بتقديم كل ما يلزم لوليمة العرس من خرفان أو بقرات.. الخ. كما يقوم مع أسرته بعد انتهاء العروس بزيارة العروس الجديد ويحمل له مختلف الهدايا والمنتجات. وبالمقابل يقوم عروس اليوم بالواجبات نفسها تجاه عروس الغد.

---

[٢٠] يلاحظ أن المفردات الخاصة بالزواج والولادة لدى كرد منطقة القفقاس مشتقة من اللغة التركية.

ويقوم الشاب الملتزم مع العروس الجديد كذلك بحراسة غرفة العروسين في ليلة الزفاف. فإذا لم تثبت عذرية العروسة، ذهب هذا لاستدعاء والدها لاعادتها إلى بيته. وفي حالة ثبوت عذريتها، تستدعي والدتها ووالدة العروس لتطلعا على الإثباتات المادية لذلك. ونذكر بهذه المناسبة أن آراء جميع الرحالة الأجانب مجمعة على الإشادة بأخلاق المرأة الكردية. ومما يجدر ذكره أنه لا توجد في اللغة الكردية كلمة مرادفة لكلمة (البغاء). وأنا بدوري لا أجد في جميع حكاياتي عن الحياة الكردية أكثر من واقعة خيانة زوجية واحدة، إذ وقعت (بريزاد) الحسناء زوجة الأمير العجوز زين الدين أمير شمدينان في حب شاب اسمه (ايزو)، فما كان من زوجها الشيخ إلا أن قتل ايزو، وبدورها وضعت بريزاد السم لزوجها الأمير ثم تناولت السم بنفسها وماتت هي أيضا.

وقد جرت العادة بأن يقوم أصدقاء العروس بمواكبة موكب العروسة من بيت أهلها. ولكن أهلها يغلقون الباب في وجوههم، فيضطر صديق العروس لأن يدفع جزية لصديقات العروسة. ثم تبدأ عملية تزيين العروسة وترفض الماشطة أن تلبسها ثيابها إلا بعد أن يدفع لها صديق العروس مبلغا من المال. ثم يبدأ موكب العروسة وهي تمتطي صهوة حصان بالتحرك من منزل والديها إلى منزلها الجديد. ولدى الوصول، يهبّ الشباب كي يمنعوها من الدخول، فيدفع لهم صديق العروس مبلغا آخر من المال. ويتقدم الموكب عازفو المزامير (زرناجي) والطبول. وتقضي التقاليد بأن يغطي وجه العروسة في هذه المرحلة بمنديل أحمر شفاف، وذلك أملاً في أن تكون طليعة أيامها العائلية حمراء أي سعيدة.

ولدى وصول موكب العروسة إلى دار العروس يقف الجواد الذي تمتطيه العروسة في ساحة الدار ولا تنزل عنه العروسة حتى يقدّم لها والد العروس هدية وتكون في الغالب بقرة أو حصانا. عندئذ تترجّل العروسة وتقف عند عتبة الدار وتلقي امرأة من قريبات العروس قطعا من الخبز على شكل كعك على أقدام العروسة والعتبة، فتتقدم العروسة وهي تحيّي الجميع وتلتقط قطع الخبز، وتقبل عتبة الدار قبل ان تجتازها. وما أن تصبح في داخل المنزل حتى تأخذ النسوة من قريبات العروس بيديها ويطفن بها حول التنور أو الموقد المحفور وسط البيت، وهن يرددن على مسامعها: "لقد أخذناك من بيت أهلك، وعليك أن تخدمي هذا المنزل حتى آخر لحظة من حياتك".

ثم تجلس العروسة في مكان أعدّ لها من قبل في زاوية المنزل ويكون مغلّفا بقماش أحمر، وتحيط بها فتيات من أقاربها وأقارب زوجها، وتلبث العروسة متّكئة على المساند في وضعها هذا طيلة احتفالات العرس التي تستمر يومين أو ثلاثة أيام. ولا يحق لأحد في هذه الأثناء أن يراها سوى أقارب زوجها باستثناء حميها (والد العروس) الذي لا يتمكن من رؤيتها إلا بعد أن يقدم لها هدية أخرى تكون خروفا أو نعجة أو إناء فضيّا.

ولاخراج العروس من زاويتها المغطّاة بحجاب أحمر بعد انتهاء الاحتفالات، ينبغي القيام ببعض الشكليات. منها أنه يدعو والد العروس أهله وأهل العروسة إلى وليمة يقف أثناءها والد العروس أو أحد أقاربه ويعلن أنه يجب إخراج العروسة من زاويتها، ولا يتم ذلك إلا بتقديم الهدايا لها. وعند ذلك يأخذ كل واحد من الحاضرين بتقديم هدية تتناسب مع وضعه المادي، وتتقدم إحدى النساء الحاضرات وتحمل جميع الهدايا إلى العروسة في زاويتها، وترفع هذه الحجاب عن وجهها لتخرج وتتقدم وتقبّل يد الجميع، وينفحها كل واحد من الحضور بدوره ببعض المال. واعتبارا من هذه اللحظة يحق للعروسة أن تتجولّ في البيت على أن يبقى المنديل الأحمر على وجهها.

وبعد مضي أسبوع تقريبا من خروج العروسة من زاويتها، يدعوها والدها مع زوجها وصديقاتها وأهل زوجها إلى وليمة صغيرة تجمع حوالي عشرين شخصا. وتمكث العروسة لدى أهلها يومين أو ثلاثة أيام، وقبل أن تغادرهم وتعود إلى منزل زوجها يمنحها والدها هدية، ويدعى هذا التقليد "افتتاح الطريق إلى بيت الوالد".

بعد ذلك يأخذ الأقارب بدعوة العروسة إلى ولائم متتابعة، ويقدّمون لها الهدايا، ولكي تتمكّن فيما بعد من التردد على منازلهم. فإذا حدث ولم يفعل أحدهم ذلك، فلن تقبل فيما بعد مهما كانت الظروف على زيارة منزله. وهكذا نرى أن حياة العروسة ليست صعبة في بيت زوجها، بل بالعكس فإن اهل العروس يحرصون في الأيام الأولى على أن يمحضوها كل عناية، كما انهم يقدمون لها الغذاء الجيد لتصبح أكثر قوة ونشاطا ولا تشعر بالكآبة وهي بعيدة عن منزل والديها. وتستمر هذه المعاملة الخاصة تجاهها حتى تلد طفلها الأول. ولئن كانت المرأة الكردية تعتبر قبل ولادة طفلها البكر بمثابة ضيفة، فإنها تغدو بعد ذلك فرداً

من أهل البيت وتعامل على قدم المساواة مع جميع نساء البيت، ويكون من واجبات العروسة الجديدة أن تغسل أقدام جميع من يكبرونها سناً في البيت وحتى أقدام الضيوف.

والمرأة الكردية، شأنه شأن نساء كثير من الشعوب، لا تنادي زوجها وأعضاء الأسرة الذين يكبرونها سّناً بأسمائهم، فهي عندما تخاطب زوجها تقول: "ايه" أو "أتو" أي أنت، وتنادي والدة زوجها "خالة" ووالد زوجها "عمي" وشقيق زوجها البكر "برا" أي "يا أخ". أما صغار الأسرة فتناديهم بأسمائهم، والزوج لا ينادي زوجته باسمها بل يقول لها "كجى" أي "يافتاة".

ورغم أن بنية الأسرة الكردية قائمة حاليا على نظام سيادة الأب، إلا أن بعض العادات التي تعتبر من بقايا نظام سيادة الأم ماتزال باقية فيها. من ذلك أن الأم هي التي تختار الاسم لطفلها بالاتفاق مع النساء الموجودات في محل الولادة. إن الزواج محرم بين العم وابنة أخيه وبين العمة وابن أخيها أو أخيها، إلا أن ابن العم يستطيع الزواج من بنت عمه، وكذا الأمر بين أولاد الخال. وأعظم قسم يؤديه المرء هو القسم بخاله، وكما بينا سابقا ينبغي التوجه إلى الخال لإبرام التعهد بين شابين يرومان الزواج في أن يساعد أحدهما الآخر. كما أن العادة الجارية بعودة العروسة بعد بضعة أيام من زواجها إلى بيت والدها ليومين أو ثلاث هي من بقايا نظام سيادة الأم الذي كان ساريا لدى الكرد في العهود القديمة.

ونختتم بحثنا عن الزواج لدى الكرد بفقرة وردت في كتاب الكاتب الكردي من قفقاسيا (عرب شمو) الذي يصف لنا الزواج بين الكرد في منطقته. وتدور القصة حول زواج (برو) - أي إبراهيم- بـ (ميانه). فقد كان برو شابا معدماً لم يكن له سوى أمه (بسى)، ولكن خاله مد له يد العون. وقد جرت مراسيم الزواج خفية لأن شابا آخر موسراً كان يرغب في الزواج من ميانه. وبموجب العرف الجاري قدمت بسى مع أخيها -خال برو- المهر إلى والد العروسة خفية. وبعد هذا الاتفاق كان لابد للعروس من ان يحمل الهدايا إلى أقارب العروسة ويكسب عطف قريباتها وتأييدهن ليس عن طريق هذه الهدايا حسب، بل وبلباقته وحضور ذهنه أيضا. ولما كانت بسى تقوم بدور الأب والأم معاً بالنسبة لابنها برو، فقد تربعّت على الأرض وقالت لابنها: "أنظر يابني! غدا ستكون لك زوجة، وهذا كل ما استطعت أن ان

أحققه لك مما أوصاني به والدك. وها انك الآن غدوت سيد نفسك، فعليك أن تعرف كيف تدبر أمور منزلك وتعتني بالخراف التي هي مصدر عيشنا الوحيد. لا تكن طائشا ولا متعجرفا. فإذا ما ذهبت إلى عشيرة ووجدت أن رجالها ينظرون بعين واحدة، فافعل مثلهم كي تستطيع العيش بينهم".

فأجاب برو والدته قائلا:

- "حسنا يا والدتي، سأتصرف كما تقولين". وعادت الأم تقول:
- "لنفكر الآن بمدعوينا. فهل أرسلت هدايا لكل واحد منهم؟"

ويقضي العرف بأن يبعث العروس إلى كل مدعو هدية هي عبارة عن منديل أو قطعة صابون. والذي يرغب في تلبية الدعوة يقبل الهدية، أما الذي لا يرغب في تلبيتها فعلية أن يرفض الهدية. وأجاب برو والدته:

- أجل، يا أماه! لقد بعثنا هدايا إلى الجميع.
- وهل الهدايا كافية؟
- أجل، لدينا الكفاية. فقد أعطاني خالي سبعة خراف، لأنه يعرف أننا لا نملك ما يكفي لجميع تكاليف الزواج. أجاب برو والدته.

وفي الصباح، غدا من المتعذر التعرف على القرية حيث كان برو يعيش، فقد وصل إليها عدد كبير من المدعوين. وكان الطبل والمزمار يبعثان صوتهما بعيدا في الوديان والجبال وكان أهل العروس وأقاربه قد حضروا جميعا، وكان الكرد بثيابهم المزركشة وعمائمهم اللامعة يلتقون هنا وهناك ويتجمعوّن على الخضرة فرحين مسرورين، وكنت ترى النساء بوجوههن السمراء وأزيائهن الاحتفالية الملونة يبتسمن ويثرثرن، وكانت فاتنات الجبال المتزينات يضعن على رؤوسهن قلنسوات عالية موشحة بقطع النقود والمجوهرات. وكان يسود الطرف الآخر من القرية أيضا مزيد من النشاط، فقد تجمع الفتيان مع خيولهم لمباريات الفروسية (جريت بازى)، وكان كل منهم يحاول ان يثبت أصالة فرسه ويتنافسون فيما بينهم حول من سيكون الفائز من بينهم، في حين كان البعض الآخر يؤكد على نباهة فرسه وأصالته.

وأخيرا بدأ السباق، وكانت مسافة الشوط حوالي عشر كيلو مترات. وعندما وصل الفرسان إلى الساحة التي ينطلق منها السباق، كانوا يقومون بمختلف الألعاب الجريئة على أصوات المزمار والطبل التي كانت تزيد من حماسهم، وبخاصة عندما بدأت تعزف ألحان أغنية متى يأتي الفرسان! (كه ى دى سواره يى؟).

بينما كان الجميع يتسلّون، كان برو "مستويا على عرشه" - كما يقول الكرد-، يحيط به الشباب من كل جانب وهم يغنّون ويقصون له شعره ويتأهبون لإلباسه ثيابه. وحسب التقليد الكردي يقوم الحلاق بقص شعره على مراحل، فكل صديق للعروس يقترب من الحلاق وينفح له بمبلغ من المال وهو يستحثه على الإسراع في إكمال قص شعره. والمبالغ التي تجمع من قبل الحلاق تخصصّ للوليمة التي ستقدم للشباب.

أما العروسة ميانه فكانت تجلس بين صاحباتها تحت الخباء وهن يبكين، كما تقضي به التقاليد الكردية، بينما انصرفت أناملهن إلى تزيينها.

وأخذت إحدى الفتيات تترنّم بأغنية خاصة بمناسبات تزيين العرائس:

"أنا وأنت وحدنا غريبتان،
ولأننا نجلس خارج المنزل،
لا يعرف أحد بوجودنا
أواه! كم أنا غريبة، كما أنا تعيسة!
إني أشاهد دار والدك،
وأشاهد السطح العتيق الذي يغطيه
لا تلطمي وجهك.. إن عروسك شاب
أنا وحدي غريبة هنا
وها أنا أذهب.. ولن أعود ثانية أبدا
إلى دار والدي
بدموعي التي أذرفها والوداع الذي أودع به هذه الدار،
ما من غريبة هنا سواي.

أنا أشبه منديلا قرمزي اللون

أبدو بين الغريبات مثاراً للاعجاب

فلتنزل اللعنة على الخبز الذي

كانت أمي تعطينيه.

لقد باعوني أنا التعيسة الحظ، لقاء مهر

إلى شيخ هرم ...."

وعقب كل ترتيلة للأغنية كانت الفتيات يبكين، ولكن كل واحدة منهن تفكر في نفسها وتقول: "كم أنت سعيدة ومحظوظة. إن زوجك شاب ووسيم. أما نحن فلا نعرف لمن سنكون! ربما تكون الزوجة الثالثة أو الراغبة لهرم شرس! عندئذ يعز علينا أن نغادر منازل آبائنا ونذرف الدموع بصدق وحقيقة، وليس لأن التقاليد تقضي بذلك كما هو الأمر الآن".

وقد ساد الهدوء قليلا حوالي الظهيرة، فاركبوا ميانه على ظهر جواد وهي في حراسة عدد من الفرسان، وقادوها إلى منزل برو. ولدى اقتراب الموكب من منزل العروس، أطلقت بعض العيارات النارية، وكانت أم العروس وبيدها صحنان ترقص رقصة (كوجرى). وعندما عبرت ميانه عتبة المنزل وضعوا تحت قدميها آنية من الفخار فكسرتها ثم دخلت المنزل. وبذلك انتهت المراسيم فانتهى الضجيج وعاد الجميع إلى بيوتهم وساد الهدوء المكان.

لقد مرت الآن سنة كاملة على زواج ميانه. لقد مرت ثلاث عشرة غرة هلال منذ أن وطأت قدماها منزل برو. ويجب أن ينقضي الوقت المحدد من قبل العرف الجاري حتى يحق لها أن ترفع عن وجهها الحجاب الذي عليه وتتحدث مع والدة زوجها".

أما بالنسبة لمراسيم الزواج في حوض بحيرة (ورمى/أورميه) فقد سّجلت بشأنها الملاحظات التالية:

قبل إرسال المبعوثين لطلب يد الفتاة، يجمع أهل الفتى المعلومات للتأكد من عدم رفض طلبهم[21]. إن التعارف يكون موجودا بين الفتي والفتاة بصورة اعتيادية ولكن ليس علنا. يحمل المبعوثون معهم هدية إلى الفتاة ويطلق عليها اسم (نيشانه)[22] كما يتلقى الخال قطعة سلاح ايا كانت صغيرة، وتقدم لوالديها ملابس (خلاتي بوكى) أي هدية العروسة. كما يسلم إلى والديها كذلك مبلغ المهر المقدم ويطلق عليه التسمية نفسها التي تطلق على مبلغ التعويض الذي يدفع في حالة خطف فتاة (قلم) أو (نقد). واستعمال التسمية نفسها في الحالتين يعكس أصل الزواج الذي كان يتم في ما مضى عن طريق خطف الفتاة.

وفي (شنو)، وهي قصبة كردية تقع في الجنوب الغربي من بحيرة (ورمى)، يجب على من يقوم بخطف فتاة أن يقدّم هدية إلى رئيس العشيرة، بينما يدفع والد الفتاة إلى السلطة رسما يطلق عليه اسم (دويتانه) أي (رسم المحبرة)، والكلمة مشتقة من (دوت) وهي المحبرة. وهناك تقليد آخر في المنطقة نفسها يقضي بدفع مبلغ من المال للآغا لدى إبرام عقد الزواج. ويبدو أن هذا التقليد مستمد من العادات الفارسية، حيث تقضي بوجوب دفع الفلاح في حالة زواجه إتاوة إلى مالك الأرض. وبجانب هذا المبلغ من المال الذي يدفع لوالد الفتاة، يحدّد في عقد الزواج مبلغ آخر من المال يكون حقا مكتسبا للفتاة تسمى (مارەيى) أي المهر[23] ويذكر هذا المبلغ بصورة نظرية.

يبدأ العرس بحفلة تستمر ثلاثة أيام في منزل العروس (زاوا) وهي تشتمل على الأغاني والرقصات (الدبكات) وتمارين الفروسية. وإذا كان الزوج موسراً أزدحم الناس الذين يأتون في الغالب من أماكن بعيدة، ويكون ذلك فرصة مناسبة للكرد ليبدوا في أجمل أزيائهم وأحسن أسلحتهم، ويقوموا بمختلف الاستعراضات على صهوات جيادهم ويجروا سباقات

---

[21] يعتبر طلب الفتاة أحيانا مهمة صعبة. وقد حدث أن كان لطاهر آغا رئيس عشيرة (زيرزان) بنت في غاية الجمال تدعى (برينخانم) طلب يدها أبدال بيك أمير شمدينان. وكان رجلا موسرا، إلا أن طاهر آغا كان رجلا لا يطاق "ولا يميّز كما يقال بين اللبن الأبيض والسائل الأسود". واستقبل مبعوثي الأمير بصورة سيئة وأعادهم إلى سيدهم خجلين لأنهم لم يحققوا المهمة التي عهدها إليهم. فبعث أبدال بيك يهوديا إسمه موشى إلى طاهر آغا. فقام بمهمته خير قيام.

[22] أي علامة تحديد الفتاة لتكون خطيبة للفتى – المترجم.

[23] والمهر نوعان: معجل ومؤجل – الترجم.

قتالية بأن ينقسم الفرسان إلى مجموعتين تصطفان وجها لوجه وهم يتصايحون: (هوو .. هوو..) ويهاجم بعضهم البعض ويحاول كل واحد من الفئتين أن يقلب السرج من على ظهر حصان مقابله من الفئة الأخرى بواسطة عصا طويلة يستعان بها بدلا من الأسلحة. ويتوجه كل هذا الحشد الصاخب بعد ثلاثة أيام إلى منزل العروسة (بوك) حيث يصاحبونها إلى منزل العروس. ثم يستمر الحفل لمدة ثلاثة أيام أو أربعة أيام أخرى. ويكمل (الملا) هذه الطقوس الخاصة بالزواج سواء قبل وصول العروسة أو في يوم وصولها إلى منزل العروس، ذلك أن حضور الطرفين ذوي العلاقة المباشرة ليس ضروريا، إذ يستطيع كل من العروس والعروسة أن يوكل غيره عنه لابرام العقد، طالما أن الفتاة ووالديها سبق لهم أن وافقوا على الزواج. ويقول الملا مخاطبا والدي العروسة: "قل أننا زوّجنا وأعطينا بنتنا فلانة فلانا زوجة له لقاء مهر قدره كذا" ويجيب ممثل الزوج "انني موافق". وفي بعض المناطق يجلس البعض في ليلة الزفاف بالقرب من باب الغرفة التي يلتقي فيها العروسان منتظرين إطلاق الرصاص من قبل العروس حيث يبلغ الجميع بهذه الطريقة أنه اكمل مهّمته وأدّى واجبه. وهناك تقليد آخر أخذ يزول تدريجيا، يقضي بوضع قطعة من الخام الأبيض على فراش العروسين (بيسيار) وترسل هذه القطعة فيما بعد إلى والدي العروس ملطخة بقطرات من دم إزالة بكارة الفتاة، دليلا على عذرية بنتهما فيفرحان بذلك ويبتهجان، وبعد مضي فترة من الوقت يقيمان وليمة كبرى بالمناسبة، وبعدها تأخذ حياة الزوجين الجديدين مسارها الاعتيادي.

المآتم:

وأخيرا ينتهي دوران الحياة بالموت. لذلك نتولّى الآن وصف الطقوس الجنائزية. يمدّد الميّت على فراشه ويدار وجهه صوب الجنوب[٢٤]. وبمجرد أن يلفظ الشخص أنفاسه الأخيرة يبدأ البكاء العويل، ثم يحمل الميّت إلى غرفة جانبية ويغسل ويلف في كفن من نسيج قطني ويوضع في فمه وأنفه وأذنيه قطن مندوف ملفوف بعيدان صغيرة. ويوضع القطن تحت أبطيه أيضا. وإذا لم يدفن الميت في يوم وفاته وضع على صدره قطعة حجر ومرآة موجهة نحو وجهه.

---

(٢٤) حيث القبلة – المترجم.

ولا يستخدم التابوت المصنوع في شكل صندوق، بل يحمل الميت إلى المقبرة على تابوت مفتوح من الأعلى، مصنوع من الخشب. ويصطحب موكب الجنازة حشد من الأقارب والجيران بما فيهم النساء اللواتي يبكين ويلطمن صدورهن. ويؤتى إمام الجنازة أو خلفها بجواد الميت. وإذا كان المتوفى شابّا زين جواده بقطعة من القماش اللامع ويوضع عادة في رقبته شال احمر اللون ويعلق سيفه وخنجره على سرج الجواد. أما إذا كان شيخا لفّ جواده بقماش أسود للدلالة على الحداد. وبعد الانتهاء من مراسيم الدفن يقاد الجواد إلى المنزل ويبقى لدى عائلة الميت، ولا يجوز إهداؤه أحدا ولكن يستمر في استخدامه. وإذا كان الميت رجلا غنيا أو رئيس عشيرة جعل قبل النعش عدد من الحصن المسرجة وقد زينت وعلقت عليها الأسلحة.

ويصف لنا (ميللينكن) تشييع جنازة أحد الرؤساء كما يلي: "أن أحد التقاليد الكردية التي تشبه كثيرا نظائرها في اوروبا هو الطقس الجنائزي الذي يتم على شرف أحد المقاتلين أو لأحد الزعماء، فتوجّه الدعوة الخاصة بالمناسبة إلى جميع رؤساء العشائر الصديقة والذين يمتّون بصلة قرابة الدم للميّت. وفي الوقت المحدّد يتوجه الجميع إلى منزل الفقيد حيث يتحرك من هناك موكب الجنازة. ويفتتح عدد من الفرسان الموكب بعدد من الجولات التي يتبارى فيها الفرسان أمام الجنازة. وبينما يجرى ذلك في مقدمة الموكب، يحمل النعش على أكتاف الأقرباء والأصدقاء. ويؤتى بعد النعش مباشرة بجواد الميت الذي يقاد ببطء وقد وضع على سرجه الخالي أسلحة الفقيد وملابسه القتالية. ويكون الموكب محاطاً بحشد هائل من الفرسان. أما النساء وأقرباء الميّت وأصدقاؤه فانهم يلبسون حجبا من السواد علامة للحداد. وعندما يحمل الميّت من المنزل، تبدأ النسوة بالبكاء والعويل بشدة ويشقن جيوبهن وأكمامهن، وينشرن فوق رؤسهن التراب والوحل دلالة على فجيعتهن.

وكما يلاحظ ميللينكن، إن هذه العادة غريبة عن الكرد، كما أنها مخالفة لمبادئ القرآن والآراء المقبولة لدى الشعوب الإسلامية الأخرى التي تعتقد أن الموت يرد جميع الناس إلى مستوى واحد حيث "لا يصح تفضيل سلطان على حَمال"[(٢٥)]

ولدى وصول الموكب إلى المقبرة، توضع الجنازة بجانب القبر، بعد أن ترفع وتنزل ثلاث مرات. وبعد أداء صلاة الجنازة من قبل الملا توضع الجنازة داخل القبر وتغطّى الحفرة الداخلية للقبر بقطع من الحجر العريض المسطّح ويمدّد تحتها الميّت بسهولة ويسر، وتوضع فوق هذه القطع الحجرية طبقة من الأوراق والحشائش يجعلها شبيهة بسقف المنزل الكردي. ويبدو أنهم يتصرفون كما لو كانوا يهيئون للميت سكنا تحت الأرض. ويغطى سقف القبر بالطين الذي يمنع من سقوط التراب الذي يهال على القبر على جسد الميّت. وإذا كان الميّت شيعّياً وضع فوق رأسه قرص من الخزف من تراب كربلاء، المدينة المقدسة لدى الشيعة لتأكيد كونه مسلما شيعيا[(٢٦)]. ويغطىّ القبر بالتراب بحيث يسوى مع الأرض مرة ثانية، ثم يتلو الملا (التلقين) على الميّت ويعطيه نصائحه ويعود الحضور من المشيّعين قليلا إلى الوراء. وبعد أن ينتهي الملا من إلقاء موعظته يقترب الحضور من القبر ويسّمون بأيديهم التراب الذي يغطيه. وحسب الاعتقاد الشائع، إن المتوفى يستعيد وعيه في هذه اللحظات ويعلم من ذا أسهم في تشييع جنازته. ويوضع التابوت بعد إخراج الميت منه ووضعه في

---

(٢٥) مهما كانت هذه التقاليد بعيدة عن تعاليم الدين الاسلامي الذي تدين به الغالبية الساحقة من الكرد. فانها كانت شائعة فيما مضى ويبدو أنها تعود في جذورها الأولى إلى العهود السحيقة في القدم. ومازال بقية منها باقية لدى بعض القبائل. ويزخر الأدب الكردي القديم ببحث مآتم من هذا النوع أقيمت لشخصيات من القبائل الكردية ولاسيما أولئك الذين قضوا نحبهم اغتيالا أو في ميادين القتال. إلا أن هذه المآتم كانت تقام حصرا لرؤساء العشائر والشخصيات ذات المركز الاجتماعي الدنيوي المرموق. ويمكن القول أنها كانت موجودة أحيانا بالنسبة لبعض الشخصيات الدينية وان كانت بشكل آخر. حيث نرى على أضرحة بعض مشايخ الصوفية جببهم وعمائهم التي تبقى للتبرك بها من قبل الزائرين – المترجم.

(٢٦) ومع ذلك فان غالبية الكرد من السنة باستثناء الموجودين منهم في منطقة القفقاس [اكراد مناطق كرمانشاه وعيلام في إيران أغلبهم من الشيعة. ويوجد اكراد شيعة في محافظات كركوك وديالي وواسط في العراق واكراد يزديون في العراق وتركيا ـ المترجم.

القبر، على القبر أو بجانبه، ويعد إرجاعه إلى المنزل ذنبا[٢٧]. وبعد الانتهاء من هذه المراسيم يتلوا الملا بعض الأدعية ويقول الحاضرون (آمين) ويبدأ الجميع بالعودة إلى المنزل.

وبعد غروب الشمس من يوم الوفاة، يضع ربّ المنزل فتيلا زيتياً ويشعله في المكان الذي جرى فيه غسل المتوفى. ويجب أن يظل ذلك الفتيل مشتعلا حتى الصباح ليكون نوراً للميت داخل قبره، وبعكسه فان ظلاما دامسا سيسوده. ويلاحظ ان الكرد يشعلون في أماسي الجمعة شمعة طويلة على قبر الشاب أو الشابة أو السيد أي من يكون من عترة الرسول.

ولا تقدّم وجبه عشاء تذكارية في مساء يوم التشييع. وكذلك لا تجري عملية طبخ في منزل الميت، بل إن الجيران هم الذين يهيئون الوجبات لعائلة المتوفى. وتقدم الوجبة الأولى في ذكرى المتوفى في اليوم الثالث لوفاته، ويحضرها جميع أهل القرية حيث يمثل كل عائلة فرد منها، ويطلق على هذه الوجبة (سێ رۆژانه) أي الثالثية. وبعد مضي سبعة أيام على الوفاة تقدم الوجبة الثانية ويدعيا إليها ما بين ٢٠ إلى ٤٠ شخصا. وبعد مرور أربعين يوما تقدم وجبة الأربعينية. وأخيرا تأتي الذكرى السنوية الأولى للوفاة، فيقام احتفال يدعى إليه جميع أهل القرية. وكل هذه الولائم المتتالية تكلف أهل الميت نفقات باهظة إذا لم يبادر الأقارب والأصدقاء إلى مد يد العون لهم. ويقدّم الأقارب الموسرون عادة لكل وجبة من هذه الوجبات، وكذلك الأصدقاء خرافا إلى العائلة المنكوبة بالوفاة. أما الجيران فانهم يقدمون لهم المواد الأخرى كالزبدة والجبن والحبوب، وأحيانا مبالغ من النقود.

وإلى أن تنقضي سنة كاملة على الوفاة، تتقيد عائلة الميت بوجه عام بالحداد الذي يتمثل في الامتناع عن كل مظاهر اللهو والفرح وحتى الكلام عن مباهج الحياة. وهكذا

---

[٢٧] ليس الأمر على هذا النحو. فلو كان إعادة تابوت نقل الميت إلى القرية حراما لوجب صنع تابوت لنقل كل ميّت. والواقع أن في كل قرية كردية تابوتا موقوفا على المسلمين لنقل الموتى إلى المقبرة. ويعاد إلى مسجد القرية أو أي مكان عام بعد نقل الميّت فيه إلى مثواه الأخير – المترجم.

وخلال سنة كاملة يستبعد من المنزل كل ما هو أحمر اللون، فلا يرتدي أحد ملابس حمراء قطنية أو صوفية، ولا يجوز حتى صبغ الشعر بالحناء (خەنە)، وفضلا عن ذلك لا يصح لأحد من العائلة مضغ العلك ولا إعداد طبق الرز المحّمص (بريشكه). ويعد إعداد هذا الطبق عادة أسبوعية تقريبا لدى العوائل الكردية، ولكن عندما تحدث حادثة وفاة، تنقطع ليس فقط عائلة الميت عن إعداده، بل حتى الأقارب المقرّبون إليه، وأحيانا الجيران القريبون من منزل المتوفى. وإذا أعد من قبل أحدهم، كان ذلك بصورة سرية حتى لا يعلم به أحد من عائلة المتوفى.

وعندما يقترب موعد العيد الكبير (الأضحى)، يحمل الجيران لربة بيت المتوفى الحناء ويحاولن اقناعها بصبغ شعرها بمناسبة هذا العيد الكبير. فإذا ما رضيت وصبغت شعرها، كان ذلك ختاما للحداد. ويستعيد أهل الفقيد حياتهم الاعتيادية. ويحتفظ عادة بالملابس الجديدة للميت لحين مرور الذكرى السنوية الأولى لوفاته وبعد ذلك يهبونها سيدّ أو ملا القرية حتى يترحّم على الفقيد.

ويوضع على قبر الميّت إما حجر بسيط أو نصب يتمثل في عمود صغير من الحجر نقش عليه اسم الميّت وتاريخ وفاته. وأحيانا يرسم على النصب غليون إذا كان الميّت من المدخّنين. ويوضع هذا النصب على قبر الميت بعد شهر أو شهرين من تاريخ الوفاة وأحيانا بعد سنة كاملة حسب إمكانيات أهل الميّت. وفيما مضى كان النصب يعد في شكل خروف أو حصان. وقد شاهدنا نصبا بهذه الأشكال في القرى الكردية في قرى (بوزلو، داشلو، قرەقشلاخ، وسيدلر)، وينقش على الجانب الأيمن من الحصان بصورة بارزة بعض المشاهد من الحياة الاعتيادية.

ويقوم بعض الموسرين لدى إعداد النصب بأعمال أخرى ذات منفعة عامة كإجراء ترميمات وتحسينات في عين الماء أو ببناء جسر أو بعض الأعمال الخيرية كمساعدة الفقراء وإعالة اليتامى أو تقديم قطعة من النسيج لأحد السادة.. الخ.

ولا يحق للأرملة أن تتزوج إلا بعد مرور سنة على وفاة زوجها. وفي كثير من الأحيان تتزوج من أخي زوجها المتوفى أو أحد أقاربه أو واحد من العائلة. ويعد بمثابة إهانة لعائلة الميت أن تتزوج الأرملة من شخص ينتسب لعائلة أخرى، وهذا مفهوم، ذلك أنها منحت مهرا في حينه لقاء زواجها. فإذا ما تزوجت من شخص غريب فقدت العائلة المبالغ والمصاريف التي تكبدتها آنئذ.

وفيما يتعلق بالطقوس الجنائزية في كردستان الجنوبية ليس لديّ إلا القليل من المعلومات لأضيفها إلى المعلومات التي أسلفت ذكرها. فبعد غسل الميّت، تفرك الجثة بالأعشاب الزكية العطرة، ثم تلف في كفن أو عدة أكفان يصل عددها أحيانا إلى خمسة. والنعش الذي يوضع عليه الميت يسمى (داريست). ويحفر القبر على قياس طول الميّت. ويوضع بجانب القبر طبق خاص يطلق عليه (كوركول) أي حفار القبر. وتكون الجوانب الداخلية من المقبرة مكسوة بالأحجار أو باللبن النيئ ويطلق على السند من الحجر أو باللبن اسم (بيرازكه). وتمدّد الجثة في القبر على الجانب الأيمن مع توجيه الوجه باتجاه القبلة (الكعبة). ويغطّى القبر بالأحجار وبعدها بالطين. ويوضع شاهدان على القبر أحدهما من جانب الرأس والثاني من جانب القدم ويطلق على هذا الشاهد اسم (كيل). وبعد إكمال الدفن يبدأ الملا بقراءة التلقين بمثل الصيغة التالية: "يا فلان أو فلانة ابن أو بنت فلان سيأتيك ملكان ويسألانك عن ربك ونبيك ودينك وامامك وقبلتك وعن اخوانك وأخواتك، فقل لهما الله ربي ومحمد نبيي والإسلام ديني والقرآن إمامي والكعبة قبلتي والمسلمون اخواني والمسلمات أخواتي". ويعد عدم تقدير الميّت وعدم إجراء المراسيم الجنائزية له ذنبا كبيرا لدى الكرد. لذلك فانهم يحولون خلال المعارك حمل جرحاهم وقتلاهم معهم بكل الوسائل الممكنة. وحسب مكانة الميّت وإمكانياته، تتلى الآيات القرآنية على ضريحه ثلاثة أيام بعد دفنه أو طيلة سنة كاملة، فإن ذلك يحميه من نار جهنم. وفي اليوم الثالث الذي يلي الموت والدفن، يهيأ خبز خاص يسمىّ (سيمينى) أي الثالثي يوزع على الجيران والمعوزين في ذكرى وفاته. ونادرا ما يدفن الميّت في صندوق.

الفصل السادس

العشيرة الكردية

البيئة الاجتماعية: (الطبقات، مكانة الزعيم وصلاحياته، وسائل اللهو)

والاقتصادية (الواردات، نظام الأوبا)

أولا - صورة العشيرة:

عندما تتوسع أسرة ما وتخرج عن حدود القرابة الرحمية، لتشمل نطاقا أكثر سعة، فإنها تتحول بالطبع إلى عشيرة. إن الوشائج العاطفية والعادية التي توثق وتشدّ بين أفراد الأسرة الواحدة تضعف مع اتساع نطاق الأسرة لتحل محلّها روابط الطقوس والتقاليد والمصالح المشتركة. وهكذا ينشئ أفراد عديدون لعائلة واسعة تجمعا يحمّل اسم العشيرة. الم تكن العشائر الإسرائيلية في الأزمنة السحيقة في القدم عوائل كبيرة تحولت فيما بعد إلى عشائر وتطورت شيئا فشيئا لتسير نحو أن تصير شعبا؟ وفي أيامنا هذه لا نستطيع أن نحصل على صورة صحيحة لعشائر (قبائل) العصور الغابرة، إلا تلك التي نجدها اليوم في القبائل التي تعيش في البلاد العربية وفي بلاد ما بين النهرين وكردستان. فإذا ما نفذنا إلى داخل مساكنها ونظرنا إلى خيمها واقتربنا من رؤسائها، وجدنا في كل خطوة نخطوها وفي كل شئ نجده انبعاثا للفترة التوراتية. فهذا الشيخ الجليل ذو اللحية البيضاء والنظرات الرصينة الذي يجلس تحت خيمته محاطا بأولاده وأقاربه وخدمه، يمكن أن نرى فيه صورة لابراهيم ويعقوب أو أي من الآباء الأقدمين. وبالنساء الأربع أو الخمس اللاتي نجد بعضهن واقفات وغيرهن جالسات في ركن من الخيمة، ألا يمثلن صورا حية لـ (ريبيكا) و (ساره) و (راشيل)[1] عندما كنّ يتجلين في أوائل أروع مراحل جمالهن.

لقد تكونت عشائر كردستان تركيا من أسرة أصلية هي أسرة الزعيم ومن مجموعة من الأسر التي تمت لها بصلة القرابة وعلى درجات متفاوتة. إن كل أسرة أو عائلة تكون (هامبا) أو خيمة واحدة، بحيث أننا إذا أردنا أن نحصي عشيرة ما، وجب علينا إحصاء عدد خيمها. فعندما يقال إن العشيرة الفلانية تعد ألف خيمة، فهذا يعني أنها تكون ألف منزل. ولكن يجب أن نلاحظ أن عشائر كردستان تتكون من عنصرين متميزين: أحدهما دائمي والآخر متأرجح. ويتالف العنصر الدائمي من نواة العوامل التي تمت بالقرابة إلى الزعيم،

---

(١) ريبيكا زوجة اسحق ووالدة يعقوب. وسارة زوجة إبراهيم ووالدة اسحق. وراشيل زوجة يعقوب - المترجم.

بينما يكون العنصر المتأرجح من مجموعة المغامرين والطلقاء الذين ينضمّون لهذه العشيرة تارة، وأخرى لعشيرة غيرها. لذلك يستحيل الحكم بدقة على القيمة العددية لعشيرة ما، مادامت هذه القيمة تخضع للتطورات والظروف. وعلى سبيل المثال، فإن عشيرة (ميلان) التي كانت تعد ١٦٠٠ خيمة عندما كان يرأسها عمر آغا، لم تلبث أن استحالت إلى ٥٠٠ خيمة فقط بعد سنتين، عندما حلّت بها الكوارث. وقد اضمحلّ الآخرون نتيجة الظروف السيئة التي ظهرت خلال تلك الفترة. والواقع أن زعيم العشيرة يعد أبا مستبداً لها وما من حدود لسلطاته، ويستطيع التصرف كما يشاء بملكية أي واحد من أفرادها، وان بإمكانه أن يضرب من يشاء من أبناء عشيرته ويقتل أي شخص يرى من الضروري قتله. وتبرم وقت السلم معاهدة بين زعماء العشائر لتسليم المجرمين وتحول هذه المعاهدة دون فرار من يريد الفرار من سلطة الزعيم. ولا تقدم الحكومة (يقصد المؤلف الحكومة العثمانية - المترجم) على أي إجراء للحد من سلطة هؤلاء الزعماء، لأن السياسة المتّبعة من قبل الترك هي السماح لهم بأن يفعلوا ما يشاءون شريطة أن يظلوا يدفعون الضرائب المطلوبة للخزينة[٢].

وتنتقل زعامة العشيرة إلى أرشد الأولاد. فعندما يموت زعيم العشيرة، يتولى أكبر شخص من بين أقرب الأقرباء المقرّبين من الزعيم سلطات الزعامة، ويبايعه الجميع ويخضعون لسلطاته. وقد يحدث أن يغتصب أحدهم السلطة بالقوة، أو أن يبايعه الجميع دون أن يكون الوريث الشرعي، غير أن هذه الحالات تعتبر استثنائية ومن شأنها تغيير مجرى الأمور الاعتيادية داخل العشيرة.

وتبدو خيمة الرئيس أحسن مما سواها من الخيم، وتنصب في وسط مجموعات من الخيم أصغر منها. وتعقد في خيمته الاجتماعات العامة، كما يتوجه إليها جميع الغرباء ليجدوا الغذاء والمأوى. كما أنها تعتبر بمثابة المحكمة العليا التي تبُت في جميع قضايا أبناء العشيرة عدلاً كان أو ظلماً، حسب الظروف. وهي تعدّ كذلك مجلساً للنواب والشيوخ، وفيها تناقش الأحداث اليومية، وفيها أيضاً يستطيع كل فرد من العشيرة أن يواجه الزعيم،

(٢) "كانت الغرامات والجزاءات المالية التي تستوفى ممن يرتكب ذنبا من أبناء العشائر الكردية. تصير ملكا لرئيسها".
مانتران وسوفاجي. النظام المالي العثماني- باللغة الفرنسية. ١٩٥١، ص ١٠٢.

وبدوره يحادث هو الجميع ويمازحهم ويوبّخ من قد يحلّ غضبه عليه. وتكون مائدة الزعيم عامرة بما لذ وطاب من المأكولات، ويحق لكل شخص أن يجلس إليها ويأكل منها. وقد حدثني بعض الكرد أن أكوام اللحم والرز والمأكولات الأخرى كانت تبلغ فوق مائدة علي آغا، رئيس عشيرة (حيدرانلي) ارتفاع الجبال، وكانت تلك المأكولات تنقل على صوان يحملها أربعة من الرجال. ولم تسنح لي الفرصة لرؤية هذا التبذير المفرط، لأن الرؤساء الذين التقيت بهم كانوا من الصغار فيما إذا قارناهم بهؤلاء السادة.

ومع أن سلطة رئيس العشيرة مطلقة، إلا أن كبار المسنّين فيها يمارسون نوعا من حق الرقابة عليه، ولأصواتهم وزن لا يمكن تجاهله. إن مجلس "ذوي اللحى البيضاء" (ريش سبي) يعقد كل ليلة تقريبا في خيمة الزعيم لمعالجة القضايا التي تهم المصلحة العامة، بالإضافة إلى الأمور الأخرى التي يمكن أن تنشأ في الحياة اليومية للعشيرة[٣].

إن هذه الصورة الإجمالية التي عرضها لنا كاتب عاش بين الكرد فترة من الزمن، أدخلت القارئ في المحيط العشائري لهذا الشعب الذي سبق أن تطرقنا في الفصول السابقة إلى أسلوب عيشه وخصائصه الفردية والعائلية. صحيح أن ميللينكن كتب لنا هذه السطور عام ١٨٧٠، إلا أننا نميل كليا إلى الرأي الذي أبداه (ويكرام) ويقول فيه إن الكرد لم يتبدّلوا منذ الألف الأول قبل الميلاد وحتى عصرنا هذا. ومع ذلك نحن نعتقد أنه في الأماكن التي ماتزال العشيرة الكردية تحتفظ فيها بكياناتها، تكون أقرب إلى حد كبير إلى الوصف الذي وصفه لنا ميللينكن. وينبغي الآن دراسة الأسس التي لم يتمكن ميللينكن من التوغل فيها بعمق.

ولابد من القول أنه لم توضع حتى الآن - على ما نعلم - دراسة اجتماعية شاملة عن العشيرة الكردية، كما أنه لا يوجد بوجه عام إجماع في الرأي حول تكوين العشيرة[٤]. إن

---

(٣) ميللينكن، المصدر المشار إليه آنفا. ص ٢٨٢ - ٢٦٨.

(٤) يقول روندو: "إن العشيرة الكردية تعتبر عالما خاصا منطويا على نفسه. انها منظمة دفاعية. مؤسسة تقليدية ومحافظة. إنها تجمع في مقارنتها بالمجموعات التي لا تتمتعَ بالخصائص نفسها. ولهذا التجمع شعور بأفضلية على غيرها". اما المؤلف البريطاني الكابتن هاى فانه يرى في العشيرة "تجمعا أو كونفدرالية من التجمعات. غايتها حماية

رابطة الدم لا تعتبر ضرورية لوجودها، كما يذكر (الووي) في كتابه (المجتمع البدائي) [باللغة الانكليزية، لندن، ١٩٢١، ص ٣٧٦ – ٣٨٢]. وحتى في المستويات الثقافية المتدنّية، يعتبر القرب الكافي أحد العناصر التي تحدد التضامن الاجتماعي، بصرف النظر عن صلة الدم". ويقول بتروشيفسكي في مؤلفه عن الإقطاع في أرمينيا وآذربيجان من القرن السادس عشر حتى مطلع القرن التاسع عشر [باللغة الروسية]: "إن العشائر الرحل في هذه الفترة، بالاضافة إلى العشائر التركية والمغولية في الفترة ما بين القرنين الثالث عشر والخامس عشر، لم تكن تشكّل وحدات قائمة على صلة القربى بالدم ولا تعود إلى النسب نفسه، بل كانت عبارة عن تجمّعات مصطنعة تنتسب لمجموعات من الأسر القديمة يعود تاريخها إلى عهود ما قبل الإقطاع". ويتعذر في كثير من الأحوال تمييز العشيرة عن الفخذ، لأن بالامكان أن يتوسع الفخذ ويتحول إلى عشيرة، بينما يمكن كذلك أن تتقلّص العشيرة وتتحول إلى مجرد فخذ (هوكارت، تطور الانسان ٠ باللغة الانكليزية - ١٩٣٧). وإذا لم يتحول المجتمع البدائي إلى عشيرة وظل يعيش كمجموعات عائلية، فلن ينشأ فيه أي (فخذ) بالمعنى الروماني للكلمة، ذلك أن هذه الكلمة مجردة وصعبة الإدراك بالصيغة التي فهمها القانون الروماني. وفضلا عن ذلك، فإن نظام روما القائم على نظام سيادة الأب البطرياركي الذي يعبر عنه بـ (الفخذ)، لا تقوم صلة القرابة بين أفراده على رابطة الدم، بل على الاعتقاد بوجود سلف إلهي ممثلا بـ (طوطم). لذلك فإن الفخذ لا يحل محل العائلة التي تعتبر بمثابة الخلية الأساسية للمجتمع (لوبي، مقدمة في الثقافة الانثروبولوجية - باللغة الانكليزية - لندن ١٩٣٤، الفصل الرابع عشر، الفخذ). ويقول سوسيولوجي آخر: "العشيرة وحدة سياسية. إنها تشبه الدولة أو الأمة في أيامنا هذه، إنها فرع أو فخذ، نصفها الذي يشكل وحدة اجتماعية يتكون من تفرعات عديدة كما هو الحال في الوحدة السياسية.. الفرع شكل من العائلة الواسعة". (كروبر، الانثروبولوجي - باللغة الانكليزية - ١٩٢٣). إن تضارب الآراء بين مختلف النظريات يؤكد تعقيد المسالة. ويتعين على

أعضائها من الاعتداء الخارجي والمحافظة على العادات الأصلية القديمة وطريقة العيش". أما السوسيولوجي كومبلوويج، فقد درس في كتابه "صراع الأجناس" [باللغة الفرنسية، ص ١٩٣ وما بعدها] العشيرة تحت زاوية خاصة.

الباحثين [illegible] قبل أن يحددّوا ما إذا كانت العشيرة الكردية عبارة عن فخذ واسع نشأ من [illegible] نفسها أو أنها وحدة سياسية من أصل مصطنع.

ثانياً - تركيب العشيرة وطبقاتها:

الملاحظات التي أبديناها كانت ضرورية لفهم تركيب العشيرة. وكان ميللينكن على حق عندما اعتبر العشيرة بمثابة عائلة توسع نطاقها، رغم أنه يجب أن نبحث في كل حالة على حدة عن النواة العائلية البدائية وعن العناصر الغريبة التي تجمعت حولها. ويعد ذلك بالنسبة لباحث في تاريخ علم الاجتماع دراسة أصلية لو كرس جهده لإعدادها. وفضلا عن ذلك فان هذا المبدأ القائم على صلة القربى ليس ثابتا دائما بالنسبة لوحدة كبيرة، بل على العكس يسهم أحيانا في تقسيم العشيرة نفسها وتجزئتها إلى تفرعات عديدة. ونجد أمثلة عديدة لذلك فيما لو تفحصنا التاريخ الكردي. والمثال الساطع أمامنا هو عشيرة (هركي). فحسب الروايات التي دونتها لديّ، كان جد العوائل الحاكمة لهذه العشيرة شخصا يدعى (أبا بكر) اشتهر ببسالته، حتى أنه لم يكن ليخشى منازلة عشرين مقاتلا في آن واحد. وكان بين هذا الفارس والأمير زين الدين أمير (شمدينان) عداوة، فكان يسطو على رجال الأمير وأتباعه. وقد بلغت جرأته ذات مرة حداً كبيراً عندما قتل وشتّت وحده عشرين شخصيا من أتباع الأمير الذين نصبوا كمينا له للإيقاع به، فأخذ أسلحتهم وأمتعتهم وحمّلها على بغلين يكونان كل ثروته ومضى مباشرة نحو خيمة الأمير زين الدين، فلجأ الأمير إلى الحيلة وخبّأ عن أبي بكر حقيقة نواياه ورحّب به قائلا: "حللت ضيفا على العين" - وهو تعبير كردي للترحيب بالضيف - ثم قال له:" إن رجالي أضعف من النساء، وأنت رجل شجاع وفقير، وأود أن يكون معي رجل مثلك رئيسا للخدم". وبات أبو بكر تلك الليلة لدى الأمير على أن يذهب في اليوم التالي ليحضر عائلته ويباشر وظيفته الجديدة. وهكذا أزال الأمير حذره وعدم ثقته به، وسهّل لرجاله عندما أغمض أبو بكر عينيه مطمئنا، أن يتقدموا منه ويقيّدوه. وفي اليوم الثاني جاءوا به وفكوا وثاقه ليعدموه، فتمكّن بسرعة من اختطاف خنجر أحد رجال الأمير وطعنه به طعنة كانت من القوة بحيث

نفذ النصل من بطنه وظهره إلى شجرة، وحاول أبو بكر أن يستل الخنجر، إلا أن مقبضه وحده طاوعه، فبات أعزل واضطر للاستسلام. وقد طلب قبل اعدامه أن يدلي بوصيته الأخيرة لأولاده وسمحوا له بذلك، فقال: "أولا - لا تركبوا نصلا في مقبض خنجر دون أن تسمروه تماما. ثانياً - ليتزوج كل واحد منكم أربع نساء لتكثرو ذراريكم وتتمكنوا من الأخذ بثأري. ثالثا - لا تصغوا أبدا إلى الأقوال المعسولة التي تصدر من (بكزادة شمدينان). أي العائلة الحاكمة هناك. وكان لأبى بكر أربعة أولاد هم (مندو) و (سيدو) و (سيرهات) و (مام شير)، والثلاثة الأول هم الذين تكون من كل واحد منهم فرع من فروع هذه العشيرة وتسمى باسمه على النحو الآتي: (مندان) الذي يزيد عدد أفراده عن سائر الفروع و(سيدان) الذي يعتبر أكثر الفروع شجاعة و(سرهاتي). وهذا مثال لتكون العشيرة الكردية عن طريق تكاثر العائلة الواحدة. غير أنه لا يصح إطلاقا وضع تصميم عام لجميع العشائر، فهناك عاملان يؤثران دوما في مصير العشيرة: أولهما النمو والاندماج وكلاهما يؤديان إلى تكوين عشيرة حول عنصر بارز هو (الزعيم الشجاع والبارع)، وثانيهما التفسّخ والتشتّت نتيجة ظروف سيئة مثل فقدان الزعيم أو الوباء أو المجاعة، وهذه تؤدي إلى انحلال العشيرة.

وكما لاحظ ميللينكن بحق، طالما أن العشيرة مزدهرة، فإنها تنمو وتتكاثر، وبالعكس عندما تسوء الظروف والأحوال فانها تأخذ بالتقلّص ويمكن أن تفنى أيضا. واننا نجد الدليل على صحة ما ذهب إليه ميللينكن عندما نقارن قوائم العشائر القائمة في العهود المختلفة، إذ تبقى أسماء عدد من العشائر الكبيرة خلال الحقب الطويلة، أما الأسماء الأخرى التي تشكل الأغلبية، فانها لا تتكرر وتظهر بدلا منها أسماء أخرى جديدة. لقد تكونت العشائر الجديدة على أنقاض العشائر القديمة التي سارت إلى زوال، فهناك عوامل متأرجحة أشار إليها ميللينكن توضح لنا سير هذه التحولات[٥].

---

(٥) يقول روندو في مؤلفه المشار إليه آنفا (العشائر الجبلية) باللغة الفرنسية. ص ٤ و ٥: من السهل قبول أجانب في العشيرة ومن الممكن أن يحتل هؤلاء المناصب الرفيعة فيها. ويؤمن الكرد بجدارة العناصر الأجنبية. وإذا قبلت عشيرة كردية عناصر أجنبية في صفوفها فلأنها واثقة من قوتها الذاتية ولأن العشيرة تشكل قوام حياتها الاجتماعية وهي ترغب

وبالإضافة إلى هذه العوامل المتأرجحة، ينبغي أن نميز في نطاق بعض العشائر وجود طبقات اجتماعية مختلفة. لقد أجمع جميع المؤلفين عن الكرد على وجود طبقتين لديهم: طبقة النبلاء من المحاربين وملاكي الأرض مع خدمهم المسلّحين، وطبقة الفلاحين القريبين من أشباه العبيد. ويطلق على هؤلاء إما اسم (رعيت) أي الفلاح، وهو تعبير مستعمل بوجه عام في الشرق الاسلامي، أو اسم (گوران)- وينبغي لهذه التسمية أن تجلب انتباهنا. وهؤلاء الـ (گوران) يختلفون عن سائر الكرد بتكوينهم الجسمي وبلغتهم التي تنتمي أيضا للمجموعة الإيرانية. أن هذا التقسيم للوسط الكردي يحمل على الاعتقاد بأن الكرد قوم فاتحون، وأن الـ (گوران) هم السكان الأصليون للبلاد. وقد نادى بهذا الرأي بعض المختصين، بينما ذهب البعض الآخر - دون أن يحدد لنا مفهوم التعبير الأخير - إلى أن لكلمة (گوران) معنيين، معنى واسعاً يراد به طبقة اجتماعية داخل العشائر الكردية، ومعنى أضيق وتقصد به عشيرة محددة بالذات.

وفيما يلي بعض الملاحظات التي أوردها عدد من الرحالة في هذا السياق. يقول (واكنر) وهو أحد الرحالة الألمان في مؤلفه الذي نشره عام ١٨٥٢،"يقسم الكرد إلى فئتين، فئة المحاربين الذين لا يملكون إلا قطعان المواشي ويمارسون أحيانا أعمال الغزو، وفئة الفلاحين الذين يطلق عليهم اسم (گوران). ويضيف أيضا أنه "لا يجوز للفئة الثانية أن تتخذ لنفسها صفة النبلاء الكرد لأنها تختلف عنهم في تقاسيم وجوه أفرادها وفي لهجتها". "ربما كانت فئة الفلاحين تنحدر من الميديين، وهم السكان الأصليون الذين غزا الآخرون بلادهم". "توجد لدى عشيرة (بلباس) في جنوبي بحيرة ورمى، كما في جميع أرجاء كردستان تقريبا، طبقة فلاحية يستخف بها ولا تنتمي لأية عشيرة، ويبدو أنها تنحدر من أسلافها السكان الأصليين، كما هو الحال في شهرزور. ويطلق ال(بلباس) على هذه الفئة الاسم الفارسي (كلاوسبى)[٦] أي أصحاب الطاقيات البيض". وحسب ما يقول (ريج)، "إن الگوران

في تنظيمها كليا، وعلى سبيل المثال فإن الإحساس بالانتماء العشيري أقوى لدى الكرد من الإحساس بالانتماء الديني. (راجع الفصل الحادي عشر من هذا الكتاب).

(٦) (كلاوسببى) ليس اسماً فارسيا وانما هو صفة وموصوف كرديّان – المترجم.

يختلفون عن طبقة المحاربين في سيماء وجوههم وفي لهجتهم، فلوجوههم ملامح أكثر نعومة وخطوط أكثر انتظاما، حتى ليخيّل إلى الناظر إلى جانب وجوههم أنهم من اليونان"، ويلاحظ ريج أن وضع هؤلاء الفلاحين بائس جدا، حتى أنه يضاهي وضع فقراء الهند الغربية. وكتب سيلفيستر دى ساسى في نقده لكتاب ريج في مجلة (دورية العلماء، عام ١٨٣٧) مفترضا أن المحاربين يمثلون العنصرٌ المنتصر، وأن الفلاحين هم بقايا السكان الأصليين، ولكن العالم الروسي (مار) كتب في تعليقه على كلمة (چلبى) [باللغة الروسية، ص ١٣٧] إن كلمة (گوران) ليست إلا صيغة متحولة من كلمة (كورد). إن مقطع (ك) تحول إلى (گ) في بداية الكلمة، وهو أمر مألوف في الفونوتيك الكردي. ومن بين المؤلفين الأرمن الذين ذكرهم (مار)، (ميراكوريان) (عام ١٨٨٥)، الذي يقسم الكرد إلى طبقة الرحّل التي يحكمها رؤساء (تورون)، أي الذين ينحدرون من النبلاء ويعيشون على تربية المواشي، وطبقة أخرى هي اهل الحضر. اما سرفاندز تيانتس (عام ١٨٧٦) فيلاحظ ان لدى الكرد فئات ثلاث هي (١) النبلاء (تورون)، (٢) القطعات المسلّحة للرئيس، (٣) وأخيرا العمال (الرعية). ويميز (أركيلان) (عام ١٨٩٨) بين أربع فئات: (١) العوام (رعيت) وهم العمال، (٢) خدم الزعيم المسلحون، (٣) الزعماء (الآغا) وهم فئة محاربة، (٤) رجال الدين.

وبصدد مصطلح (غلام) أو (خولام) أو (هولام)، ينبغي التنبيه إلى أنه يعني حالة قريبة من الرق، أو أن حالة الغلمة كانت تحوي على الأقل بعض التحديدات لحريتهم. وفي الحقيقة بين أيدينا وثيقة تعطي هذه الفرضية بعض القوة، وهي عريضة قدمتها (الرعية) والرحّل الكرد التابعون لخوانين من (نخجوان) إلى (كريم خان زند) عام ١٧٦٨، والتمسوا فيها من وكيل الرعايا (أي من كريم خان زند) أن يمنع سادتهم (البكزاده) من جعلهم غلمانا، أي من وضعهم في حالة شبيهة بالخدم العبيد. وقد كتبوا في عريضتهم "الغلام هو من اكتسب هذه الصفة إما عن طرق الأب، أو أنه ابتاعه مالكه بالمال، أو كان غريبا، اما

فلاحوا (رعايا) نخجوان وعشائرها الرحّل، فلا يجوز تحويلهم من الآن فصاعدا إلى (غلمان)[٧].

وقد أشار مينورسكي أيضا (عام ١٩١٤) إلى وجود طبقتين بين الكرد: النبلاء مع خدمهم المسلحين، والفلاحين أو الزراع أنصاف الرقيق. وأشار أيضا إلى ان صعوبة الأوضاع الاجتماعية للفئة الثانية قد تخف نتيجة لشعور الانتماء مع الآغا للعشيرة نفسها أو أحد أفخاذها، هذا الانتماء الذي يتخذ أحيانا سمة بطرياركية بالغة الشدة. ويلاحظ مينورسكي على سبيل المثال أنه خلال احتلال العثمانيين للمنطقة المتنازع عليها مع الفرس بين أعوام ١٩٠٤ - ١٩١٠، حاول الترك تحسين حالة (الرعية) من الفلاحين وتقييد سلطة الآغوات عليهم، ومع ذلك كان الفلاحون يتشكون أحيانا ويقولون فيما بينهم "لم يبق لنا آغوات".

ويوافق مينورسكي كذلك على الرأي القائل أن الآغوات من الفاتحين و (الرعية) من عرق آخر. ومع ذلك لا يصح الخلط بين الفئتين. فقد تبين لنا أكثر من مرة وتحقق لنا تاريخيا مثلا في (قطور) و (سوماتي)... الخ حيث يعيش ابناء عشيرة شكاك، أن هؤلاء أتوا متأخرين وسيطروا على السكان الأصليين في المنطقة.

ويقول راولينسون: تنحدر عشيرة الگوران من الكلهور، وكرد (الباجلان) ، وقد نقلهم السلطان مراد الرابع وأجبرهم على ترك منطقة (زهاو) الغربية حوالي العام ١٦٣٩. ولكن هذا الرأي لا ينسجم مع الاختلاف الموجود بين اللهجة التي يتكلم بها الگوران وتلك التي يتكلم بها الكلهور.

وقد تعمق مينورسكي في شرح مسألة (گوران) بالاستناد إلى اسمهم الذي يعود إلى الفي سنة وإلى أصلهم، وقدم لاثبات وجهة نظره مراجع أدبية ونصوصا گورانيه. إن هذا الاسم، بالمعني الضيّق للكلمة، يعني العشيرة الرئيسية التي تعيش في المنطقة الواقعة شمالي الطريق العام الذي يربط كرمنشاه ببغداد حتى نهر سيروان (ديالى) شمالا، ومن هناك إلى البلاد المرتفعة (هورامان). وتوجد مجاميع أخرى محدودة وصغيرة من اللهجة الگورانية التي

---

(٧) ن.بوكدا نوفا. المقال المشار إليه آنفا. ص ١٤٢.

يتكلم بها عدا الگوران أنفسهم (الزازا - الديملي) في منطقة (درسيم). إن اسم (گوران) يعود في اشتقاقه إلى الكلمة القديمة (كا [ف] باره [ك])، وينبغي البحث عن موطنهم الأصلي في الولايات القريبة من بحيرة خزر، حيث نعرف مملكة كانت تحمل الاسم نفسه حوالي سنة ٦٤٥ - ٦٦٠[٨].

ويمكننا أن نستنتج على وجه التأكيد من جميع هذه الاستشهادات أن المجتمع الكردي غير موحّد من الناحية الاجتماعية، وأن وجود الطبقات أو الفئات فيه ليس موضع شك أبدا. وقد يختلط الأمر على القارئ ويتساءل عما إذا لم يتشابه الموضوع على المحققين في البحوث التي أشير إليها قبل الآن لدى تصنيف العشائر فيما بينها إلى حضرية ومترحلة مقيمة في الخيام أو نصف مقيمة، وبين اختلاف الحالة داخل كل عشيرة بحد ذاتها، والحالتان مختلفتان تماما. ويبدو هذا الاختلاف وجيها في الظاهر، إلا أنه ينبغي ان نأخذ بالحسبان من جهة اخرى ان هناك عشائر عديدة (على سبيل المثال [هركي] التي أتينا على ذكرها مرارا وتكرارا، والأرتوشي والسورجي وميلان تنقسم إلى قسمين أساسيين، الرحل والمستقرة، وهذان القسمان يعتبران بمثابة طبقتين هما طبقة المقاتلين المتمثلين بالرحّل ومربي المواشي، وطبقة المزارعين الذين بقوا متعلّقين إلى حد ما بالأرض. ويسمح لنا هذا القول بافتراض أن العشائر الحالية المستقرة كانت في الأصل مرتبطة بعشائر رحل كانت تمثل في الواقع جزءا من العشيرة، ولكنها انفصمت بمرور الزمن وأخذ كل فرع يعيش حياة منفصلة عن الفرع الآخر.

إن هذا الافتراض قريب من الصحة بحيث ان الرحل المقاتلين الذين لم يكونوا يعيشون إلا من منتجات مواشيهم، كانوا أقل قدرة في عيشهم من المستقرّين منهم الذين كانوا يملكون مصادر للعيش أكثر ضمانا. إن توافر ظروف سيئة كان يعمل بصورة أسهل على اختفاء عشيرة رحالة مما يعمل على اختفاء عشيرة مستقرة. وحينما كان هناك فرعان لعشيرة واحدة، كان الفرع المستقر منهما الذي كان يشكل في الأصل جزء أو طبقة منها، يبقى ويحيا.

---

[٨] مينورسكي. الگوران. مجلة (B.S.O.A.S). المجلّد التاسع عشر. القسم الأول. ١٩٤٣ (باللغة الروسية).

وكما بيّنا في الفصل الرابع من هذا الكتاب، الاتجاه العام السائد هو الابتعاد عن الترحل والانتقال إلى مرحلة الاستقرار والتحضر، بعد المرور بالرحلة الوسيطة أي شبه الرحل. وبناء على هذا، لا يكون الخلط بين العشيرة والطبقة الاجتماعية إلا شيئا ظاهريا فقط.

إن انتقال كرد أرمينيا إلى مرحلة الاستقرار منذ اختفاء الأرمن قد أشار إليه (كليرجه، ص ٩٤ - ٩٥). وقد درس (روندو) أيضا (ص ٤٠ - ٤١) هذه الظاهرة بالنسبة إلى سوريا حيث تحول الكرد إلى عمال فصليين. وقد شجّعت الحكومة مسألة ارتباطهم بالأرض الذي هو في مصلحة ملاك الأراضي الزراعية. وقد انتقد سابقا (السير مارك سايكس) هذه السياسة التي طبقت في جنوبي أرضروم. ووصف المارشال (دي مولتكه) في كتابه (الأرض والناس الكرد) [باللغة الألمانية] محاولة (استيطان قديمة أريد فرضها حتى بالقوة عام ١٨٣٨) بأنها بقيت دونما فائدة.

ثالثا - صفة الزعيم ومهامه:

بعد تحديدنا للمركز الاجتماعي للعشيرة الكردية، ننتقل الآن إلى دراسة مراتب بنيتها وخصائص رئيسها ووظائفه. إن طرق اكتساب السلطة من قبل رئيس العشيرة تختلف باختلاف الظروف، إلا أنه يمكن ردّها لأسباب محددة منها على وجه الخصوص الوراثة، أو الانتخابات من قبل العشيرة، أو نصبه من قبل السلطات. وجميع هذه الأسباب لا جدال فيها ولا تلعب دورا إلا في جو تسودها القوة والبطش، كما نحاول البرهنة على هذا المدعى بإيراد أمثلة حية بشأنه. غير أن لمبدأ الوراثة قوة العادة وقوة التقاليد التي تعتمد على تعلق أفراد العشيرة بزعيمهم الوارث لهذا المنصب. ويروي لنا مؤلف (شرفنامه) مثلا له دلالة كبرى بشأن أمراء (بدليس). فقد حدث أن شاه إيران استولى على ديار هذه الأسرة النبيلة وشتّت أفرادها شذرمذر، وسطا على كل ما كانت تملك، فعاشوا منفيين في مدينة (قم) بعيدين عن موطنهم كردستان ولم يبق منهم مع الزمن سوى شابين صغيرين. إلا أن ذلك لم يحل دون أن يبذل أحد خدم الأسرة جهودا جبارة لإعادة الأميرين المعزولين إلى سلطان

أسرتهما السابق بالاعتماد على معاونة عشيرة أسياده. وأخيرا وبعد اخفاقات عديدة لم تفت من عزم الخادم، تمكّن في النهاية من أن يجعل مبدأ الوراثة ينتصر في (بدليس) بعد مرور مدة طويلة، فيعود أحد الأميرين ليحتل منصب آبائه. يحدّثنا الكتاب نفسه (أي شرفنامة) عن حادثة انتخاب أحد الزعماء. فقد حدث أن انقرضت أسرة زعامة عشيرة (روزه‌كی)، فتشاور شيوخ العشيرة فيما بينهم واتفقوا على أن يحملوا إلى الزعامة أميرين من الأسرة المالكة، وأعلن كبار العشيرة وصغارها موافقتهم الإجماعية على هذا الرأي، وذهبوا إلى الأميرين ودعوا كليهما إلى تسلّم زمام الزعامة على فرعي العشيرة والخضوع لسلطتيهما (شرفنامه ص ٤٦٨ - ٤٦٩). ونجد في المصدر نفسه صوراً طبق الأصل لوثائق وفرامين للحكومتين العثمانية والإيرانية تعترف بالزعامة على عدد من العشائر الكردية لزعمائها الذين كانوا ينتسبون للعوائل الكردية النبيلة (شرفنامه، ص ٥٣١ - ٥٥١ و ٥٦٣ - ٥٨١).

ان جميع الأمثلة التي أوردناها تتعلق بأسرة مؤلف كتاب (شرفنامه) الأمير شرفخان البدليسي، وقد وقعت في مختلف مراحل حياته. إلا أن الأمور كانت تجري على ما يرام في أجزاء أخرى من كردستان العثمانية وكردستان الإيرانية، بالنسبة للأسر النبيلة فيهما. كما أن كتاب (شرفنامه) الذي يعد بالنسبة لنا أفضل مرجع لحياة الشعب الكردي خلال القرن السادس عشر، مليئ بتفاصيل دقيقة عن المنازعات الداخلية بين العشيرة الواحدة، أو التنافس بين زعمائها الذين كانوا يحاولون الاستحواذ على السلطة كل لمصلحته الخاصة. وأحيانا كان الحظ يلعب الدور الرئيسي في إيصال أحد الزعماء إلى السلطة على العشيرة. ويروى أنه كان هناك ثلاثة أخوة يعيشون معا في مكان ما من كردستان، وكان الأخ الأكبر معروفاً بتعّبده وتقواه. وذات يوم كان الأخ الأصغر غائبا عن المنزل، فلما عاد وطلب حصته من الطعام، قال له الأخ الأوسط إنه انتظره طويلا، فلما يئس من عودته أكل حصته أيضا. فما كان من الأخ الأكبر إلا أن يدعو على أخيه الأوسط بالشر قائلا:" لتتفجر

معدتك وتغدو ممزقا"، وإذا بالدعاء بالشر يفعل فعله في الأخ النهم فيسقط ميتا في الحال. وبلغ الخبر أسماع العشيرة، فأجمعت على تسليم التقي سلطات زعامتها(٩).

ولأن هذا المؤلف القيّم قد ترجم إلى اللغة الفرنسية، فقد اكتفينا بإيراد هذه الأمثلة عن كيفية اختيار زعيم العشيرة. وبإمكان القارئ الرجوع إلى الكتاب نفسه فيما إذا أراد الاطلاع على العديد من الأمثلة الأخرى الواردة فيه(١٠).

ويمكن تقسيم الطبقة الكردية النبيلة إلى خمس فئات هي:

١ - طبقة (الملازاده) وهم أحفاد (الملا) أو علماء الدين الذين اشتهروا بواسع علمهم وسلوكهم المثالين، ومنهم الحيدريون في أربيل وهم أحفاد الملا حيدر، وخيلاني زاده في راوندوز وهم من أحفاد الملا عمر أفندي الذي كان ينتسب لعشيرة خيلاني. والملا الذي لا يتصف بهذه الصفات يطلق عليه نصف ملا (نيوه مه لا).

٢ - طبقة شيخزاده، وهم أحفاد شيوخ الطرق الصوفية من رجال الدين الذين سنتكلم عنهم فيما بعد.

٣ - طبقة بكزاده، وهم أفراد الأسر العريقة من أمراء وباشوات كأمراء بوتان وأمراء راوندوز و سردار موكري (بابا مير) وباشوات بابان في السليمانية .. الخ.

٤ - طبقة آغا زاده وهم رؤساء العشائر الذين يأتون في الدرجة الثانية من الأهمية.

٥ - وأخيرا (زيوه دار) وهم أفراد الأسر المقدّسة.

---

(٩) شرفنامه، ص ٣٣٠ - ٣٣١. ويقول روندو، المرجع السابق، ص ١٥ - ١٦: إن سلطة زعيم العشيرة قابلة للمحاجة فيما عدا أوقات الأزمات والقتال. أحيانا يكون الفشل الواحد الذي يصيبه كافياً لاجباره على التنحي عن السلطة. ولكن المثال لا يجوز القياس عليه لأن الأمر يختلف من وقت لآخر ومن عشيرة لأخرى. ويقول (ليسكو) [ص ١٦٣]: "إن السلطة القضائية لا تمنح لدى الازديين للزعيم. بل لقاض خاص. إن مبدأ الوراثة في الزعامة ليس مما يجمع عليه الكرد. ولدى الكرد مثل دارج يقول: "بفضل الموت يصير الأحمق زعيما". ويذكر كمثال على الانتخابات بالصدفة ما هو شائع في الفولوكور الكردي "من ذا الذي حط الطائر على رأسه. فصار زعيماً؟!.

(١٠) شرفنامه. المترجم عن الفارسية من قبل ب.شارموا. سانت بطرسبورك ١٨٧٣.

لنأخذ الآن، على سبيل المثال، منطقة صغيرة من اواسط كردستان هي منطقة شمدينان التي تعتبر مجهولة نسبيا والتي استطعنا دراساتها، لنر كيف يسير النظام الذي سبق لنا عرضه.

توجد في هذه المنطقة القصية أولاً أسرة من الـ (بگزاده) يحملون اسم (بگزاده ى عباسي)، يزعمون، وفقا لمدلول اسمهم أن نسبهم يعود إلى سلالة العباسيين. وكان مؤسس هذه الأسرة أميراً يدعى (شمس الدين)، وهو الذي أطلق اسمه على منطقة كلّها (شمدينان). وكثيرا ما نلاحظ في تكوين الأسر الكردية العريقة، كما هو الحال بالنسبة للأمير شمس الدين أيضا، ادعاءات بكونها من أصول عربية. لقد كانت أسرة شمس الدين تترحل، وهي تمارس رعي المواشي، بين بغداد والموصل. وحدث أن نشب نزاع بينها وبين عشيرة (شمر) العربية القوية[11]، فانهزمت أمامها واضطرت للجوء إلى الجبال الكردية في شمالي الموصل، واستقر مع أسرته في بادئ الأمر في قرية (ستوني) من قرى عشيرة (هركي) أي في القسم الشرقي من شمدينان، حيث يمر خط المواصلات من الموصل عبر آميدى (العمادية). وقد استطاع شمس الدين بفضل ذكائه وسمعته الطيبة أن يكسب ود واحترام عشيرة (هركى) وجوارها، ثم جاء ابنه ووريثه عزالدين الذي استطاع بسط نفوذه على مناطق واسعة: (مرگور) و (ترگور) و (گمردى) و (برادوست) و (دوسكان) و (ئورامار) و (ريكان). واستمرت هذه الأسرة خلال ستة أو سبعة أجيال تعيش في قرية (ستونى)، ولكن خلال فترة زعامة ناصر الدين، نقل مقر إقامة الأسرة إلى قرية (بيتكار) التي تعد من قرى عشيرة (هركى) أيضا. ويحمل أحد جوامع (نهرى) التي تعتبر حاليا مركزا لشمدينان اسم هذا الأمير. وبعد مرور ثلاثة أو أربعة أجيال، عندما كان الأمير زين الدين زعيما للاسرة، انتقل مركز الأسرة إلى قرية (هارونان) التي تقع في منطقة (هومارو) جنوبي شمدينان. وقد بنى هذا الأمير قلعة صغيرة منيعة ماتزال آثارها باقية إلى الآن. وكان لهذا الأمير ولدان: أحدهما الأمير عماد الدين الذي اختلف مع والده، فنزح إلى (ورمى) حيث منحته حكومة الأفشاريين (ورثة نادر شاه أفشار) مقاطعتى (برده سور) و (ترگور). وما تزال آثار الحصن

---

[11] راجع: مولكته، المصدر السابق، ص ٢٤٦.

الذي بناه في المقاطعة الأولى باقية إلى الآن. اما الابن الثاني، فكان الأمير سيف الدين وقد خلف والده، وكان أول أمير في الأسرة يحمل أسم أمير (شمدينان) رسمياً. وبعد لقاء الأسرة جيلين أو ثلاثة أجيال في قرية (هارونان)، تولّى الزعامة (بهرام بك) فانتقل بها إلى نهرى[١٢] التي صارت منذ ذلك الوقت مركزا لها. وقد بنت هذه الأسرة على أنقاض كنيسة قديمة على التل الوسطى لنهرى حصنا منيعا أطلق عليه اسم (فلا). ولبث أمراء شمدينان يحكمون تلك المنطقة حتى جاء الشيخ عبيد الله في أواسط القرن التاسع عشر، فانتقل الحكم إلى اسرته أسرة الشيوخ المعروفين باسم (سادات نهرى) أي أسياد نهرى، وهم من سلالة الرسول، ولم يكن هؤلاء الشيوخ في البداية سوى شيوخ دين في كردستان، ولكن ما لبث بعضهم أن استولوا على السلطة الزمنية. وسوف نتكلم في الفصل الخاص بالدين لدى الكرد عن مركز هذه الأسرة.

ويأتي بعد هاتين الأسرتين الرئيسيتن: (البگزاده العباسيين) و (سادات نهرى) ، عدد من الأسر النبيلة، منها (الآغوات) الذين يتزعمون عددا من عشائر المنطقة، وفي مقدمتها (آغوات زيرزان). ولعشيرة (زيرزان) فرعان، أحدهما في منطقة (شنو) بإيران والآخر في (شمدنيان). ويدعي الجانبان ان أصولهما تعود إلى خالد بن الوليد (العربي هو الآخر)، الذي فتح بلاد ما بين النهرين وسوريا في القرن السابع الميلادي[١٣]. وقد كان الآغوات يتمتعون بنفوذ واسع في المنطقة حتى مجيئ المشايخ الذين استطاعوا أن يفسدوا العلاقة بين هؤلاء وبين السلطات العثمانية. لذلك عندما نشبت الحرب العالمية الأولى، فقد هؤلاء الآغوات مراكزهم وتشتّتوا في بقاع أخرى. ويأتي بعد آغوات (زيرزان) من حيث الأهمية الأسرة التي يطلق عليها طائفة (باشميرى). إن مصطلح (باشميرى) يعني في التدرج المرتبي، من يحل محل الأمير أو نائب الأمير. ولا يعرف أصل هذه الأسرة، ولكن المؤكد أنها ترجع في انتسابها لأحد رجال الدين (الملالي) وقد انحلّت هذه الأسرة ايضا.

---

[١٢] يربط مينورسكي بين اسمى (نه هرى) و (نه يرى). ويستعمل هذا الأخير أحيانا لتحديد المملكة الخلدية في (أورارتو). ويطلق على بحيرتى (وان) و (أورومية) مصطلحا بحيرة (نيرى) العليا والسفلى.

[١٣] من المتفق عليه بين المؤرخين الاسلاميين الأوائل ان خالد بن الوليد لم يخلف ولداً ذكرا. كما لم تكن له علاقة بفتح بلاد ما بين النهرين – المترجم.

كان هناك نزاع بين عدة أسر في عشيرة (گەردی) على إشغال منصب الزعامة. والأسر الرئيسة التي تحمل فضلا عن كونها الأسرة الرئيسة، لقبل (الأمير) أيضا، ليست معروفة الأصل والنسب، بل إن صحة انتمائها محل خلاف. وفي الحقيقة ان نسب هذه الأسر يعاد أحيانا إلى الخليفة الثاني عمر بن الخطاب، وإلى خالد بن الوليد أحيانا كما راينا، وإلى رجل مسيحي كان يسكن في قرية (زيرينك) في أطراف بحيرة (وان) أحيانا أخرى كذلك، وأخيرا إلى رجل ئيزدي قدم من (سنجار). وعلى كل حال، فأياً كان جد هذه الأسرة، فإن امراء (گەردی) احتفظوا بسلطتهم بين عشيرتهم منذ خمسة أو ستة قرون إلى الآن. وقد انقسمت الطائفة الأصلية لهذه العشيرة بمرور الزمان إلى فرعين أحدهما يدعى (بگزاده ی زیرین) أي أولاد البيكات الذهبيون، والثاني (بگزاده ی بن چیا) أي أولاد البيكات من سفوح الجبال. ومنذ حوالى قرن، سيطر الفرع الأول وفقد الفرع الثاني أهميته. وإلى جانب هؤلاء الأمراء لعشيرة (گەردی) (باشمير)، هناك سواهم أيضا وهم أسرة (قوج بيكان) أو (كوج بيكان). وتقع أحيانا نزاعات دموية بين الطائفتين [أي فرعي البگزاده من جهة، والباشمير من جهة اخرى - المترجم]، ذلك أن الباشميريين يدعون ان لهم أصلا ونسبا أكثر قدما.

في واحد من تفرعات عشيرة (گەردی) وهو الفرع الموسوم بـ (گەردی بروزه) توجد عائلة تدعى (مير لشكرى) كان أفرادها دوماً على رأس فرع العشيرة هذا، ومع ذلك كانت لهم دائما كلمة مسموعة لدى الأمير الكبير أي زعيم العشيرة كلها. وبين العوائل الدينية في عشيرة (گەردی) توجد ثلاث عوائل تتمتع بشهرة خاصة، هي طائفة الشيخ عيسى التي ظهر بين أبنائها علماء كثيرون، وطائفة الملا نبـي من قرية (كليت) التي كانت معروفة خصوصا بسيطرتها على الجن، وطائفة الشيخ فرح. وفيما يتعلق بالجن يعتقد كرد شمدينان أنهم ينقسمون إلى ثلاثة أقسام، كل قسم يرتبط بطائفة روحية، وينبغي لاتقاء شر هؤلاء أو إبطال سحرهم وطلاسمهم وغير ذلك مما يتعلق بهم، التوسل بتلك الطائفة المسؤولة عنهم. وهذه الطوائف الروحية التي يلجأ إليها لدفع خطر، هي طائفة الشيخ جمال السوري وطائفة الملا نبـي التي أتينا على ذكرها قبل قليل وطائفة الشيخ بايك البيراني من عشيرة شيروان.

وهناك نقطة أخرى لا ينبغي تجاهلها هي أن بين الـ (بنەجی) أي القسم المقيم دائما في مكان معلوم، من عشيرة (گەردی)، كانت طائفة الملا الشبيهة سابقا بالآغوات أكثر نفوذا

من سائر الطوائف، وهي الآن، بالرغم من فقرها، لها الأولوية على بقية الآغوات. ولا توجد بين عشيرة (گمردي) عائلة روحانية يشار إليها بالبنان. ولئن كان هناك ملالٍ فيما مضى، فإنهم الآن ذابوا بين جماهير الشعب.

رابعا: أقاصيص عن العلاقات بين زعماء العشائر:

إن نظرة خاطفة على الأسر المتنفذة في شمدينان، إحدى زوايا كردستان المركزية الأشدّ إهمالا، تمكننا من ان نرى ثانية، كما من وراء عالم صغير، اللعبة العشيرية المعقدة مع جميع هؤلاء الزعماء الدنيويين والدينيين، الزعماء الذين يطوون في اللحظات الأولى عندما يكون دوران أحداث الدهر وفق ما يبتغون، القوس الصعودي في أعمالهم. وفيما بعد إذ يصطدمون بطامحين أقوى منهم، ينحدرون نحو الهاوية فيبدءون بطي القوس النزولي ويضيعون بين الجمهور الزائل. عندما نعيد تاريخ كردستان كله إلى هذه القضايا الأولية، نصطدم بالعديد من النماذج المحلّية المماثلة.

وعلى كل حال، ومع هذا، فقد يحدث أحيانا أن شخصية ذات استعداد وحيوية تقف في الصف الأمامي للتاريخ الكردي. وقد تمتعت شمدينان أيضا لساعات قلائل [من عمر التاريخ - المترجم] من بركات ذيوع الصيت. كان ذلك في عهد الشيخ عبيد الله نهري عندما أقام في العام ١٨٨٠ نهضة شعبية كردية واستولى على المناطق المجاورة داخل الأراضي الإيرانية وسبّب متاعب للدولتين المجاورتين الإيرانية والعثمانية. ستكون لنا فرصة جديدة للحديث عن هذا الموضوع. اما الآن، وقبل ان نترك شمدينان، فنريد أن نسرد لكم أقاصيص عن هذه المنطقة.

كان اثنان من الزعماء الكرد هما أمير شمدينان بدر الدين وابراهيم بيك بهدينانى، يطريان القرى الواقعة تحت سيطرة كل منهما. كان ابراهيم بيك يقول: (شوشه) و (شرمين) أحسن مكانين في العالم، وكان الأمير بدر الدين يرد عليه بالقول: (شوشه) و (سيان) و (أركن) لا تساوى كلّها زاوية واحدة من (أوليان). وأخيراً دعا الأمير بدر الدين ابراهيم بيك ليزوره في تموز. ولما جاء ابراهيم بيك إلى (أوليان) أمر الأمير بدر الدين ثلاثة من خدمه أن

يأتي أحدهم ضيفه بالشعير، والثاني بالتوت، والثالث بالعنب، وفعل الخدم ما أمرهم به سيدهم. وحار ابراهيم بيك في تفسير ذلك، فأوضحه له الأمير بدر الدين بالقول أن مثل هذا لا يمكن حدوثه إلا في (أوليان). ففي أدنى أقسام القرية تذوب الثلوج مبكرا، وفي أقسام أخرى أعلى منها تبدأ بالذوبان في نهاية الربيع، وعلى قمم جبال (كورى مزگفتان) تحل بواكير العنب في منتصف الصيف. وهكذا نجد العنب في تموز في الأقسام السفلى من القرية، وفي مسافات أعلى منها يبدأ التوت بالنضوج شيئا فشيئا، وفي قمة الجبل يبدا نبات الحماض تظهر حدّته[١٤]. وينبغي القول، بالمناسبة، أن أحسن أنواع التبوغ في تركيا، إنما يزرع في (أوليان).

وفي قصة (گويزه كلاوان) [شجرة الجوز ذات الطواقي] وهي شجرة كثيفة تقادم عليها السنون على الحدود بين عشيرتي (گەردى) و (شمدينان) في قرية (بناوك)، تتجلّى المنافسة بين الزعماء الكرد بصورة أشد خشونة. كان بين حسن بيك شمديناني وسليم بيك گەردى نزاع على قرى (روبان) و (بناوك) و (بسوسين) ولم يكونا يستطيعان الوصول إلى اتفاق فيما بينهما. كان البيك الشمديناني المستبد برأيه والراضي حد الإفراط عن نفسه، قد كتب، بالرغم من نصائح سكرتيره الذي كان يقول له من الأفضل أن يتخذ نهجا أكثر مرونة في رسائله إلى منافسه، كتب رسالة إلى خصمه سليم بيك مفادها ما يلي: "سليموك! [مصغر سليم للتحقير]، يا آكل البلوط، لا تمدن يدك نحو قراى، وإلا دمرت (گەردى) من أدناها إلى أقصاها ـ الخ". وقد أجاب سليم بيك عن رسالته هذه بما يلي: "الموت عزيزاً أشرف من الحياة بذلة. ومادام بين الگەرديين فتاة واحدة فإنّي لن أتخلى عن قراي.. الخ". وبعد ذلك هاجم ومعه ثلاثمائة من مقاتليه الشجعان قرية (بناوك) قبيل الفجر بنصف ساعة، وفتحوا النار وحمل هو بنفسه على الأعداء شاهرا خنجره في يده واضطرهم إلى أن يلوذوا بالفرار بسرعة وفي حالة مفجعة، حتى أن طواقي الرجال التي تعلقت بأغصان وفروع شجرة الجوز العريقة ظلت باقية حيث تعلّقت. وفي صباح اليوم التالي هاجم (أوليان) على رأس خمسمائة مقاتل التحقوا بمقاتلي اليوم السابق، فطردوا

[١٤] الحماض: من النباتات البرية يظهر في أوائل الربيع، اسمه العلمي Rumex. - المترجم.

الأعداء من (أوليان) أيضا، وعاد حسن بيك مهزوما إلى نهرى. وفيما بعد، عقد صلح بين الطرفين بعد وساطات بذلها الشيوخ والعلماء، وظلت (بيكوردي) في يد أمير (شمدينان)، اما قرى (روبان) و (بناوك) و (بسوسين) فقد أضيفت إلى أملاك (گمردى). وأضاف من روى لي هذه القصة، وقد كان من أبناء عشيرة (گمردى)، "أن الرجل الواحد من گمردى يساوي ستة من (شمدينان) ولم يحدث أن استطاع (شمدينان) أن يهزم (گمردى) مرة واحدة، وأن شجرة الجوز القديمة التي أتينا على ذكرها في مقدمة القصة، إنما أخذت لقبها هذا من هذه الحادثة".

ولأجل أن ننتهي من هذه الصراعات المتواصلة التي كان يخوضها الزعماء الطامعون فيما بينهم، نذكر قصة كل من الأمير مد والأمير يحيى. سبق أن رأينا قبل قليل أن العائلة الحاكمة في قبيلة (گمردى) كانت تتفرع إلى فرعين: أسرة (زيرين) وأسرة (بن چيا). كان الأمير محمد ينتسب إلى الأسرة الأولى، بينما كان الأمير يحيى ينتسب للثانية، وكان المقر الرسمي لأمير (گمردى) في قصر (زيرين)، حيث لم يكن يحق لغيره حق السكنى فيه. وعندما توفي والد الأمير مد ميران بيك، كان ولده لا يتجاوز الثانية عشرة من عمره. لذلك سكن الأمير يحيى قصر (زيرين) وصار نتيجة لذلك أميرا على (گمردى). أما عائلة الأمير المتوفى فقد نقلت إلى (بسوسين).

وبعد بضعة أعوام ترعرع الأمير مد وصار رجلاً قويا وذكيا، وكان الجميع يدركون توفر جميع الصفات الحسنة فيه وان من الصعب أن يجدوا لهم زعيما أفضل منه. وأحس الأمير يحيى بانتشار هذه الفكرة ورسوخها في نفوس أبناء العشيرة، فأخذ يفكر في خطة للتخلص من غريمه. وكان الأمير مد يدرك ما يدور بخلد خصمه وكان يعتمد من جانبه على حراسه. فقرر الأمير يحيى أن يقيم وليمة كبرى يدعو إليها خلقا كثيراً من بينهم الأمير مد، مبيتا القضاء عليه خلالها. فاستشار الأمير مد أخوته الثلاثة الأصغر منه سنا وهم كل من (جها نگير) و (زينل) و (حسن) وأخبرهم بالنوايا السيئة التي يضمرها الأمير يحيى، قائلا لهم: لا يمكننا رفض دعوته لأن ذلك يعتبر إهانة له. وإذا ما قبلنا دعوته كنا قد جازفنا بحياتنا، فما العمل؟ فأجابه اخوته: إنك أخونا الأكبر، وإننا سنعمل ما تراه صحيحا. فقرروا الذهاب جميعا لحضور الوليمة ومعهم خمسة من حراسهم الخاصين، وقالوا فيما بينهم إن

الأمير يحيى لا يعلم أننا على علم بخطته التي يبيتها لنا، ولذلك فانه يثق بنا، وسوف نستطيع بمشيئة الله القضاء عليه، ولكن يجب أن نكون حذرين في طريقنا إليه وعند وجودنا في منزله. وتشاوروا فيما بينهم حول المكان الذي يجلسون فيه على المائدة والمكان الذي يبيتون فيه ليلا عنده، واتفقوا على أن يكونوا معاً دوماً ولا ينفصل بعضهم عن بعض. وحضر الوليمة أيضا (شير آغا) من (باشمير) عشيرة (گەردى)، فأخذ الأمير مد جانبا وحذّره من النوايا السيئة للأمير يحيى قائلا له: لقد كنت صديقا لوالدك، ولا أريد أن يقع لك مكروه، وقررا التعاون معا.

استقبل الأمير يحيى الأمير مد في بهو ديوانه وتناولا الطعام معا وتجاذبا أطراف الحديث. ثم قال: الأمير يحيى، للأمير مد إن لديه كلاما خاصا معه، ولذلك يجب أن يترك الحضور القاعة باستثناء شير آغا. فرجا الأمير مد الأمير يحيى أن يخبره بما يريد أن يقوله قبل أن يحل الليل، لأنه يود المبيت لدى شير آغا الذي يسكن قرية (شيباتان) القريبة من هناك. وفهم الأمير يحيى أن الطريدة أحست بالشبكة المنصوبة لها، ولكنه لم يشك في الخطر المحدق به هو، فأذن لبقية المدعوين وخدمهم بأن يعودوا وبقي هو وحده مع الأمير مد واخوته الثلاثة وشير آغا. عندئذ توجه للأمير مد بالقول: إن أولاده غير جديرين بخلافته، لذلك قرر أن يختاره هو خلفا له. فأجابه الأمير مد: وإذا كان الأمر كذلك وكنت قد اخترتني لأحل محلك، فلماذا تبقى أنت على قيد الحياة؟ قال ذلك وضربه ضربة قوية بخنجره في صدره وقتله في الحال.

وكانت البقية سهلة، واستطاع الأمير مد واخوته وشير آغا مع خدمهم المسلّحين اعتقال خدم الأمير يحيى وأنصاره بسرعة. وهكذا عادت الزعامة على عشيرة (گەردى) إلى أسرة (زيرين)، وحكم الأمير مد أكثر من ثلاثين عاما، وقد هلك الأمير مد بدوره على يد يوسف بيك أمير (برادوست)، ولكن لهذه الحادثة أيضا قصة.

خامسا - السلطة القضائية لزعيم العشيرة:

عندما يتسنمّ أحد الآغوات الكرد سلطة الزعامة عن طريق الوراثة أو عن طريق الانتخاب من قبل العشيرة والأقارب أو بواسطة قوة الساعدين، كما سبق أن بيّنا ذلك، فإن الجميع يدينون له بالولاء متى ما ثبت مركزه، وتغدو سلطته نافذة وتمارس دونما اعتراض. إن معلوماتنا بشأن الأعراف الكردية وصلاحيات الزعماء القضائية داخل العشيرة ما تزال محدودة. ومن المؤكد أن هذه الصلاحيات القضائية قد تقطعت ولم يبق منها الشيء الكثير منذ أن أخذت الدولتان العثمانية والإيرانية تثبتان وجودهما وتحدّان من تلك الصلاحيات. ومع ذلك فمن المعروف أنه منذ ربع قرن من الزمان [حاليا منذ ما يقارب ثلاثة أرباع القرن - المترجم]، كانت العقوبة الشديدة التي تفرض على المدان هي نهب أملاكه متى ما أقدم شخص على خطف فتاة أو امرأة متزوجة رغما عن إرادتها. وبالنسبة للجرائم الأخرى، كانت العقوبة حرق منزل المرتكب (مال سوتى) أو قطع كروم بستانه (رزبرين). ولكن العقوبة التي كان الكرد يخشونها أكثر من غيرها عقوبة الطرد من العشيرة (كريادر). ونرى ذلك طبيعيا بالنسبة لرجال لا يشعرون بقوتهم إلا بإنتمائهم لمجموعاتهم، بحيث أن الطرد يعتبر بمثابة تجريد لهم من جميع الحقوق التي يتمتعون بها. إن غريزة البقاء تمتزج بغريزة البقاء ضمن العشيرة. والمثال التالي يبين لنا مدى تعلّق الكردي بعشيرته: أبعدت السلطات العثمانية عددا من الكرد الأسرى إلى طرابلس في شمالي أفريقيا بعد أخمادها لإحدى ثوارتهم، وقد تمكن هؤلاء من الفرار من المنفى والعودة إلى جبالهم الواقعة على الحدود الإيرانية[١٥].

وهناك عقوبات أخرى أخف وطأة من الطرد ونهب الممتلكات يفرضها الزعيم على الذنوب الخفيفة. كأن يغرم الجاني عشرة إلى مئة ليرة عثمانية إذا اختطف بنتا بموافقتها.

---

(١٥) يبدو أن المؤلف يقصد أبناء عشيرة (هموند) القاطنة في محافظة كركوك بكردستان العراق. الذين أبعدت السلطات العثمانية أعدادا كثيرة منهم إلى ليبيا في القرن التاسع عشر. ولكنهم تمكنوا من الهرب والعودة إلى وطنهم مشيا على الأقدام - المترجم. راجع بهذا الصدد مؤلفنا بعنوان: منطقة كركوك ومحاولات تغيير واقعها القومي. الطبعة الثانية. لندن ١٩٩٩، ص ١٨ - المترجم.

وإذا ما سرق أحدهم دابة، وجب عليه أن يعّوض بقيمتها وأن يدفع إضافة إلى ذلك أربع قطع نقدية لرئيس العشيرة التي ينتسب إليها. وكذا الأمر بالنسبة لسرقة الدواجن، رغم أن رئيس العشيرة لا يتسلم في هذه الحالة إلا قطعتين نقديتين. ويبدو أن عدد القطع النقدية ينبغي أن تكون بمقدار أرجل الدواجن المسروقة، وأن ما يدفع للمالك المتضرر يطلق عليه اسم (توله) أي (البدل العقابي)، ومبلغ الغرامة التي يجب دفعها للآغا يحمل اسم (گناه) أي (العقاب عن الجريمة) أو (كريتى) أي (عقاب الحماقة).

وعلى كل حال تعتبر شخصية رئيس العشيرة الضمانة الكبرى لتحقيق العدالة بين أفرادها. يحكى أن (أبدال بيك) أمير شمدينان كان يتمتع بشهرة واسعة في هذا المجال، فقد كان يزرع كل عام بستانه الواقع على منحدر جبل (شهيدان) بالقرب من مصائف الهركيين، دون أن يحيطه بأي سياج، وكان يقول إن سلطتي هي السياج الواقي للبستان. وخلال فترة حكمه لم يقدم أي شخص على سرقة مال غيره في منطقة نفوذه، وكأن الكرد قد تناسوا في أيامه أي رغبة لهم في السرقة ونهب أموال الغير. وهكذا لم تقع حادثة سرقة في تلك الديار إلى أن قام ذات يوم شخص يدعى يونس من قرية (كاري) بسرقة كبش ضخم من قطيع يعود للمسيحيين في قرية (كاتونه يوخاري) وذبحه، وذهبت جميع الجهود التي بذلت في البحث عن السارق هدراً، وانتهى الأمر بأن أخذ صاحب القطيع يعزو فقدان كبشه إلى أن ذئبا قد افترسه. ولكن نبأ وقوع هذه السرقة وصل أخيراً مسامع الأمير أبدال بيك، فغضب غضبا شديدا وأمر بإحضار السارق مهما كلف الأمر، فوجده رجاله وقدموه أمام محكمة العشيرة في (نهري). واقترحت عدة عقوبات بحقه، فمنهم من قال بحرق منزله، ومنهم من اقترح قطع يده أو بتر ساقه أو طرده خارج العشيرة. ولكن الأمير لم يوافق على أي من هذه الإجراءات التي اقترحوها وقال: لما كانت السرقة أمرا غير عادي تحت حكمي، فإني أريد عقابا غير عادي كذلك. ثم أمر بقطع خصيتا السارق يونس، ونفذ أمره فوراً. ولم تمض سنة واحدة حتى تساقطت شعرات رأس يونس وشواربه، وتغيرت ملامح وجهه كذلك، وغدا شبيها بامرأة عجوز. وتفّهم الناس الحكمة في القرار الذي أصدره الأمير بحقه، وصارت قصة يونس السارق والعقوبة التي فرضت عليه مثلا لا يمحوه التاريخ من ذاكرة الناس.

ويمكننا أن نذكر ضمن السياق نفسه اسم محمد باشا رواندوزي الذي لم يسمع طيلة فترة حكمه بحادث واحد للسرقة. لقد فقد أحد التجار خرجه مع نقوده ثم وجده بما فيه دون أن يمسه أحد بسوء نظراً للشهرة التي كان يتمتع بها الباشا. وقد أوردنا أمثلة أخرى على كيفية تحقيق العدالة بالصيغة التي يفهمها الكرد في الفصل الرابع من هذا الكتاب، لدى الكلام عن السلب والنهب. ونسجل هنا أيضا جانبا من محادثتنا مع ثريا بک بدرخان يجدر ذكره في هذا المقام.

تجدرالإشارة إلى أن السرقة والنشل والاحتيال ومختلف ضروب الخديعة كانت غير معروفة في كردستان، ولم يحدث قط أن أعلن تاجر عن افلاسه، مصطنعاً كان ذلك أو حقيقياً.

يرتبط مفهوم قطع الطريق بين الكرد إرتباطا جد وثيق بمفهوم الفكرة القائلة "الحق لمن غلب". وإذا لجأ قاطع الطريق في سلب من أوقعه الأقدار في شباكه إلى استعمال أساليب المكر والحيلة، فقد ماء وجهه بين الناس ونظروا إليه بازدراء وتحقير. وعلى قاطع الطريق أن يعتمد في عمله على قوته وجرأته وأن يعرّض حياته للخطر على طريق عمله. فإذا ما تصرف ضمن هذا السياق، قيل عن المال الذي يسلبه ويستولى عليه من غيره أنه استحصل بطريقة شريفة، وعلى القوي حماية الأضعف منه. وقاطع الطريق الذي يري نفسه ملتزما بشرفه وكرامته، لا يجوز له أبداً أن يتعرض لأمرأة أو شيخ أو طفل. لذلك كان التجار الذين يريدون نقل مبالغ كبيرة من النقود من مدينة إلى أخرى، لا يلجأون إلى دوائر البريد لنقل نقودهم، بل يأتمنون عليها شيخا عجوزا يحملها معه وفي يده عصا وينقلها إلى حيث يشاءون، فيجتاز بها الجبال والوديان ويصل إلى المكان المقصود دونما خوف من خطر. وهذا الاحترام للشيخوخة من أنبل الصفات التي يتحلى بها الكرد. وينبغي أيضا على قاطع الطريق أن يمد يد العون والمساعدة للفقير الذي يلاقيه في الطريق العام، كما ينبغي عليه عدم اقتراف جريمة القتل إلا في حالات الضرورة القصوى.

وكما يلاحظ مينورسكي بحق، يبدو أن لدى الكرد مفاهيم متعلقة بالنظام العام لا يتخطونها، بل يراعونها بكل دقة إذا كانوا يعيشون وحدهم ولم يختلطوا بغيرهم من العناصر والأقوام الأخرى التي قد يتأثرون بعاداتها وتقاليدها. فإذا كانوا يعيشون دون

غرباء بينهم منقادين لنمط العيش المألوف لديهم الخاص بهم، فإنهم يحلون مشاكلهم فيما بينهم دون أي حاجة لتدخل السلطات الحكومية في شؤونهم. وقد أبدى مينورسكي استغرابه مثلا لما لاحظه في المدينة الكردية الصغيرة (سقز) [بكردستان الإيرانية - المترجم] من حياة نشطة في الطرق والأسواق دون أن يجد أثراً ايا كان لسلطة ما. ويضيف أيضا أن الكرد في المناطق الأخرى، في السليمانية وسابلاغ [مهاباد الآن - المترجم] مثلا، يبدون الكثير من دماثة الخلق.

وتحل المشاكل التي قد تنشب بين العشائر بطرق ودية أحيانا، ولا تفقد الروح الكردية إحساسها بالحق، كما يشهد على ذلك المثال الآتي المستمد من قصة تحديد الحدود بين قريتى (بسوسين) و (بناوك). كانت هاتان القريتان في نزاع مستمر على تحديد الحدود بينهما. ورغم الجهود المضنية التي بذلها كبار السن ورجال الدين من أجل التوفيق بينهما، ذهبت جهودهم سدى. ولكن رجلاً مرحاً يدعى (شابو) وهو مسيحي من قرية (بسوسين) اقترح أمرا ما لبث أن ارتضاه الجميع، ويقضي بأن يهيئ القرويون من الجانبين طعاما من الرز (بلاو) ويضعوا عليه قطعة من الزبدة ثم يبدأ إثنان من كل من القريتين وفي يدهما الماعون الذي وضع فيه الطعام وعليه قطعة للزبدة، يبدآن بالجري ركضا صوب الأرض المتنازع بشأنها، وعلى كل من ذابت قطعة الزبدة الموضوعة على الطعام الذي بيده قبل ان تذوب قطعة زبدة الآخر، ان يتوقف عن الجري حيث ذابت قطعة الزبدة، والفسحة التي تبقى بين نقطتى التوقف توزع بصورة متساوية على كل من القريتين. وفي الوقت نفسه نصح شابو أهالي قريته بأن يضعوا على الرز شحم الدب لأنه يذوب ببطء. أما أهالي قرية (بناوك) فلم يّشكوا في حسن نية جيرانهم، فوضعوا على رزهم الزبدة وهي تذوب بسرعة. وفي اليوم المتّفق عليه للجري ركضاً، أخذ ممثلا القريتين يركضان كل من قريته صوب الأرض المتنازع عليها، وكان ممثل قرية (بسوسين) قد وضع شحم الدب على طعامه فلم يتوقف عن الركض إلا بعد أن اقترب من خط بداية الركض من قرية (بناوك) التي لم يستطع ممثلها الجري بعيداً لذوبان الزبدة على طعامه. ولتحديد الحدود الجديدة للقريتين على مسمع ومرأى من الجميع، كان يتوجب على كل جانب ان يقسم على صحة التثبيت الجديد. وهنا أيضا بادر (شابو) لمساعدة أهل قريته، حيث نصحهم بأن يضعوا في أحذيتهم

تراباً من قريتهم (بسوسين)، وبذلك يستطيعون أن يحلفوا بالله ورسوله وبالقرآن وهم مرتاحو الضمير، على أن التراب الذي يقفون عليه يعود لقرية (بسوسين) ولا يعود لقرية (ثناوك) وليس لأهليها علاقة به. وبعد تثبيت الحدود على هذا النحو عاش ساكنو القريتين بأمن وسلام.

وفيما يتعلق بالنظام العام وتحقيق العدالة لدى الكرد، يتوجب علينا أن نقول حول عادة الأخذ بالثأر (توله) ومن تقاليد الكرد أن يثأروا لدماء أقاربهم، والثأر حق يكتسبه أهل القتيل، ويطرد القاتل من عشيرته لمدة خمس سنوات أو أكثر. فإذا تمكن أهل القتيل من أخذ الثأر منه خلال هذه الفترة، فإن القضية تعتبر محلولة، وإذا بقي حيا بعد انتهاء هذه الفترة حقّ له العودة إلى عشيرته بعد استشارة زعيم العشيرة ومسنيها بهذا الشأن وموافقته على رأيهم، وحتى في هذه الحالة لا يفقد أهل القتيل حقهم في الأخذ بالثأر. وقد يتدخل العقلاء فيقدرون ثمن الدم الذي يدفعه القاتل لأهل القتيل شريطة ان لا يتجاوز القيمة المقدرة لها في الشريعة الإسلامية وهي قيمة مائة بعير. ودفع هذا الثمن يعني وقف سفك الدم (خوين بستن). غير أن هذا الإجراء نادر الوقوع لدى الكرد لاعتقادهم بأن دم الضحية يلبث سائلا من جرحه لحين الأخذ بثأره. ومع ذلك إذا حضر القاتل بنفسه وكفنه بيده وسيفه على عنقه أمام أهل القتيل، أي وضع نفسه تحت رحمتهم، فلا يسع هؤلاء إلا أن يقبلوا بالتسوية. وفي حالة الزنا تكون العقوبة موت الزاني المدان لا غيره. وقد ذكرنا من قبل أنه لا وجود للبغاء في المجتمع الكردي، وليس هناك مقابل لهذه الكلمة في اللغة الكردية، ولذلك فالكرد مضطرون لاستعمال الكلمة التركية أو الفارسية الدالة على هذا الفصل عندما يريدون التحدث عنه.

وهناك دراسة خاصة مكرسة للنظام القضائي لدى الكرد أعدت من قبل الميرزا محمد جواد القاضي باللغة الالمانية بعنوان (تحقيق حول المسائل الحقوقية بين الكرد)، وقد نشرت في العام ١٩٠٩ في العدد ٢٢ من مجلة (علم الحقوق المقارن)[١٦] ويذكر الكاتب في دراسته

---

(١٦) ترجم هذا الموضوع إلى اللغة الكردية من قبل السيد أ. برويزى (فاضل كريم) ونشر في العدد ٦٣ للسنة ١٩٨٨ من مجلة (كاروان) التي تصدر في أربيل بكردستان العراق – المترجم.

هذه أنه يفضل التوجه إلى قضاة العشيرة الذين يفسرون القانون العرفي، على التوجه إلى قضاة الشرع الذين يطّبقون الشريعة الإسلامية (شرع)، رغم أن الحكومة الإيرانية تعترف بسلطة الآخرين فقط[١٧]

سادسا: وسائل التسلية الجماعية، الغناء والرقص:

تكون صورة الحياة الاجتماعية الكردية ناقصة إذا ما أهملنا الإشارة إلى وسائل لهوهم الجماعية التي نحاول وصفها الآن. ونتكلم في البداية عن الغناء لدى الكرد. وكما يقول (مار) في بحثه المشار إليه من قبل (حول كلمة "چلبى" [باللغة الروسية، ص١٢٧-١٢٩])، يتحدث جميع الرحالة بإعجاب شديد عن الغناء الكردي. وأكثر الأغاني الكردية يؤديها الكرد بصورة جماعية على شكل فرق متناوبة. إن أغنية الحصادين حول (فرهاد وشيرين) تذكر الرحالة (ريج) بأبيات من قصيدة (تاس)[١٨] التي كان يغنيها البحارة الفينيسيون في زوارقهم. وكما يقول المؤلف الأرمني (آبوڤيان)، "تطورت القصائد الشعبية الكردية كثيرا وبلغت حدود الكمال[١٩]". ويضيف: "إن كل كردي، رجلا كان أو امرأة، شاعر بفطرته. ويساير مورتر واكنر آبوڤيان في إنطباعه عن المكانة العالية للغناء الكردي. أما (بلو) الذي تعّمق في دراسة المناطق الشمالية الشرقية من كردستان، فإنه يتفق بدوره

---

(١٧) هناك، على سبيل المثال، في مدينة ساوجبلاغ - ساوجبلاغ (مهاباد اليوم) عائلة كردية ذات نفوذ واسع هي عائلة (القاضي)، وكان عميد هذه العائلة إبان الحرب العالية الأولى القاضي فتاح. [هذه العائلة هي نفسها التي أنجبت الشهيد القاضي محمد رئيس جمهورية كردستان في مهاباد التي تأسست في عام ١٩٤٦ وقضى عليها في الأيام الأولى من عام ١٩٤٧. وكذلك محمد حسين سيف قاضي وأبو القاسم صدر قاضي، الذين أعدمتهم سلطات الشاه محمد رضا بهلوي بعد محاكمات صورية. وإلى هذه العائلة أيضا ينتمي الميرزا مجمد جواد القاضي الذي ورد اسمه في السطور الأخيرة من هذا الموضع في متن الكتاب - المترجم.

(١٨) تاس: ١٥٤٤ - ١٥٩٥. الشاعر الغنائي والحماسي الايطالي الذي نال من اضطهاد الكنيسة وعنتها وعذابها الشيء الكثير. حتى مات وهو في حالة أشبه ما يكون بالجنون (نقلا عن الترجمة الفارسية لهذا الكتاب لمحمد القاضي).

(١٩) ذكره ليرج. المصدر السابق. الجزء الأول. ص ٤٤.

مع هؤلاء الرحالة والكتّاب حول خصائص الغناء الكردي وأهميته الكبرى في الحياة الكردية، ويقول "إن أشد العشائر الكردية بؤساً غنيّة في أغانيها وفي ألحانها، ولا تتردد أقاصيص غنائهم التي تسرد وقائع الحروب، عندما يتحركون صوب المراعي الجبلية أو يتوقفون فوق القمم الصخرية، فقط، بل وبين حضريبهم المستقرين في الوديان أيضا. ويجمع المغنون حولهم في الأماسي أهالي القرية ويثيرون شجونهم بأغانيهم عن أبطال شعبهم من المحاربين القدماء أو بقصائد عن الحب والفراق وآلامه.. الخ. إن الأنغام التي كانت تنطلق من حنجرة المغني (عمر آغا) في ديادين في أغانيه المختلفة، وإيقاعاتها التي كانت مسرعة بهيجة أحيانا وبطيئة محزنة أحيانا أخرى، وتحريكه الحي للكلمات بالنبرات أو تثاقله في أدائها، وفضلا عن ذلك الايماءات الحية التي كانت تصدر منه خلال الغناء، لتثبت قدرته على الغناء بعمق وذكاء وعاطفة، رغم أنه لم يكن يتفهم معاني النصوص".

ولا تقل شهادة (لايارد) عن الشعر والموسيقى لدى الكرد اليزديين عن شهادات غيره، أهمية. فهو يصف غناءهم على ضريح (الشيخ عدي) بأنه "كان احتفالياً وحزينا" . ويقول لم أسمع طيلة حياتي غناء ابعث على الحزن والصق في الوقت نفسه بالقلب، من ذلك الغناء. لقد كانت أنغام المزمار تمتزج بعذوبة مع أصوات النساء والرجال التي كانت تتوقف بين حين وآخر لتترك المجال للصناجات والطبول[٢٠].

وتدور الأغاني الكردية غير الدينية حول المواضيع العاطفية والبطولية[٢١]. إلا أن المهم في هذه الأغاني، كما يلاحظ (مار)، ليس الموضوعات التي تكرر دوما، بل مجموعة أهداف الحكايات والأخبار الواردة فيها. إن واقع تقبل الأرمن للغناء الكردي بكل تقدير واحترام، يؤكد بصورة بليغة الجاذبية الشديدة في الشعر الشعبي الكردي. ويؤكد واكنر أن العديد من الأغاني الكردية واليزدية انتشرت في آسيا القديمة (آسيا الصغرى) بعد ترجمتها إلى اللغة التركية.

---

[٢٠] لايارد، نينوى وخرائبها (باللغة الانكليزية). ج ١. ص ٢٩٢.

[٢١] نشرت في موسكو نماذج من الحان كردية تحت اشراف البروفيسور حنا لاتيانتر في معهد لازاريف للغات الشرقية عام ١٩٠٤.

ويعزو الرحالة والعلماء جودة الأغاني الكردية وسموها إلى صفات الفروسية التي يتجلّى بها الكرد أنفسهم. ويقول (مار): "إن لم أكن مخطئا، فانهم لم يوجهوا السؤال التالي إلى أنفسهم: أولا يمكننا تفسير الأمر على العكس بأن هذه الصورة الرومانتيكية والبطولية للكرد تتجلى في هذه المواضيع وعبر الثروة الشعرية البليغة التي توارثوها منذ الأزمنة السحيقة في القدم؟ ويبدو أن ثروة الغناء الكردي ناجمة عن المميزات التي يتحلّى بها الكرد دون جيرانهم من الأتراك المسلمين والأرمن المسيحيين". "ففي الوقت الذي تخلى فيه الأتراك والأرمن عن عاداتهم وتقاليدهم الدينية والشعبية لأخرى مبتدعة، نجد الكرد، كالفرس، يحتفظون بأصالتهم، ويقولون انهم طالما بقوا كرداً، لا يقطعون صلتهم بتقاليدهم الشعبية والدينية حتى مع اعتناقهم الدين الإسلامي".

"إن الصلة بين غنى المواضيع والأهداف في الغناء الشعبي الكردي والوثنية تعتبر ظاهرة عامة نسبيا. والغناء الكردي يعتبر في قياساته الرئيسية ثروة موروثة عن الوثنية وهي الديانة التي كانت تدين بها سابقا العديد من العشائر الكردية التي آمنت بالإسلام فيما بعد".

وكما نرى، أعطى الشعر الكردي (مار) المجال للتوسع في هذا المضمار، وسوف نستفيد من ملاحظاته لدى دراستنا لمسألة الدين لدى الشعب الكردي. ونكتفي حاليا بالقول: إن الغناء سواء كان مع فرقة موسيقية أو بإيراد قصص حول مواضيع بطولية أو غنائية، يعتبر من الأنواع المفضلة لدى الكرد في أوقات فراغهم.

ويصف ميللينكن إحدى السهرات الكردية فيقول:"انعقدت حلقة الغناء بعد العشاء، فامتدت تحت الخيمة وخارجها، وكانت تتألف من محاربين شباب وكهول وشيوخ وكلهم متربّعون على الأرض الخضراء. وفي تلك الأثناء وعندما كان حضور المجلس يتحادثون فيما بينهم ويتضاحكون بمرح وصبور وبشاشة وجه، أخذت تعلو فجأة أصوات تترنّم تلقائياً بانغام كردية شجية، أنغام عشاق عاطفية، وأخذت أحاسيس عشاق الشعر والنغم وعواطفهم تلتهب شيئا فشيئا، فكنت ترى ملامح العيون والأفواه وسائر أعضاء الجسم تتغير، فتكتسي مظاهرهم التي كانت حد الامكان مظاهر عشاق، وضعا يثير الضحك

تقريبا، وبعض الوجوه الخشنة التي كانت إلى جانب المظاهر الرجولية الوقورة في تناقض مع اللّطف والصفاء واللاّمبالاة التي أحدثتها فيهم قوة الموسيقى في تلكم اللحظات، مما يدعو للانتباه، في حين كان بعض آخر تتبدى منهم سيماء ريفية بنسيطة رغم مظاهر العشاق المتداعية التي كانوا يحاولون أن يظهروا بها أنفسهم".

"استمرت هذه السهرة الغنائية مدة ساعتين تقريبا. ولابد لي من القول انها كانت تسلية ممتعة، إذ سرعان ما جرفني تيار هذا اللحن الموسيقي الرخي العذب، أكثر بكثير مما تأثرت بالموسيقى التركية. وأحسن دليل على مكانة الموسيقى الكردية هو أن من بين العديد من الأنغام التي استمعت إليها في تلك الأمسية أن إحداها أثرت في أحاسيسي الموسيقية إلى حد أنني لبثت زمنا طويلا فيما بعد أرددها وأطرب لها. ومن سوء حظي أنني لا اتذكرها الآن، وإلا كان بمقدوري إعطاء مثال على اللحن الكردي المسجل موسيقيا([٢٢])".

وبعد الغناء جاء دور الرقص، و يستطرد ميللينكن قائلا:"لقد تحولت خيمتنا هذا المساء إلى مهرجان واسع سرعان ما امتد إلى سائر الخيم، وكان يزيد من نشوتنا ضوء القمر الساطع ونيران الليل اللاهبة. وقد عمت الفرحة الجنود أيضا واختلطوا بالكرد الذين تألفت منهم حلقة "الدبكة". وبمجرد أن عزفت بعض الألحان الكردية، تشكّلت حلقات رقص منتظمة وبدأت تقدّم رقصات كردية. ويستحق الرقص الكردي وصفا دقيقا، كما أنه يمتاز ببعض الخصوصية التي لا أجدها في الرقصات الشرقية الأخرى. إن إحدى خصائص الرقص الكردي هي انه لا يؤدي مطلقا بصورة انفرادية أو ثنائية وحتى رباعية. فهو يبدأ بتكوين حلقة غير كاملة يأخذ كل رجل فيها دوره إلى جانب امرأتين ويلامس كتفه كتف زميلته التي تكون بجانبه. ولكن الخاصة الأكثر تميزاً فيه هي أن الراقص في جميع أنحاء العالم يحرك عند الرقص جميع أطراف جسمه قليلا أو كثيرا، أما الراقص الكردي فيبقى بدون حراك تقريبا ويكتفي بحركات قليلة وخفيفة من ركبتيه، فهو لا يؤدي تجلية غير اعتيادية بل تكون الحلقة مجتمعة في حركة ناعمة ومتموّجة وتهتز على ايقاع الموسيقى

---

[٢٢] ميللينكن. المصدر السابق. ص ٣١٣ – ٣١٤.

وتبدو وكأنها حقل قمح بتأثير نسيم ناعم[23]. وعندما يرقص المقاتل الكردي يكون يقدم عرضا من أكثر العروض شاعرية ورومانسية، عرضا يتناسب مع هيئته. وقد لمحنا في نظراتهم جميعا وكانهم على وشك أن يغمى عليهم من اثر عشق داخلي مؤثر. ولكن عندما ينتهي الرقص يعود الجميع إلى حالتهم الاعتيادية، وكأنهم لم يكونوا قبيل هنيهات في حالة ذوبان في العشق".

"والشيئ الغريب في الرقصات الكردية هو إدراك حقيقة أن الرجال لا يعترضون على أن تقف إلى جانبهم في حلبة الرقص امرأة، بل على العكس فهم يشعرون بسرور بالغ في الرقص إلى جانب الحسناوات. وهكذا فعندما يرقص الكرد فيما بينهم، يجر كل واحد إلى جانبه فتاة ويشدّ كتفه بجانب كتفها. وعندئذ تضم الحلقة عددا من الرجال بقدر عدد النساء. انني آسف لكوني لم أصادف رقصة مشتركة بنفسي، ولكن الكرد لا يرقصون بصورة مشتركة إلا فيما بينهم، وبعيدين عن نظرات الترك والجنود المغَرضة".

وإذا وضعنا جانبا الغناء والرقص، فإن وسائل اللهو الأخرى ليست متنوعة لدى الكرد، ويمكننا أن نذكر من بينها المصارعة والتهديف برمي الحجارة بهدف إصابة هدف معين، وتمارين الفروسية التي وصفنا بعضا منها عند الكلام عن العرس الكردي، وأخيرا مصارعة الجواميس. وتمارس هذه الأخيرة بين الحيوانات بنفسها عندما يعودون بها مساء لغطسها في الماء، وهي لا تقارن بشئ مع مصارعة الثيران الأسبانية، ولا مع مصارعة الثيران التي رأيتها في اقليم كيلان بإيران، التي تمرن فيها هذه الحيوانات بصورة خاصة، ويؤدي التلاقي فيما بينها إلى إقامة احتفال كبير.

ولإتمام الكلام على ما سبق ذكره، فاننا نضيف الوصف الذي قدمه الكاتب الكردي السوفيتي (عرب شمو) للألعاب التي يمارسها الرعاة:

---

[23] ليس الرقص في جميع أنحاء كردستان على هذا النحو ويمكن القول أن وصف الكاتب يصدق اطلاقا على كردستان الشمالية. أما في كردستان الجنوبية والشرقية فهناك رقصات سريعة يحرك فيها الراقص جسده كاملا عدا الرأس تقريبا. كما أن رأس العقد في الحلبة يقوم فيها بأعمال متفردة. وقد يخرج واحد من وسط الحلبة ليقوم بتلك الأعمال. كما أن الرقصات المشتركة بين الجنسين أقل من رقصات الجنس الواحد فقط – المترجم.

" بين فترة وأخرى، كان يقوم مساعدو الرعاة بتقريب قطعانهم فيما بينها، ويلعبون بأنفسهم فيما بينهم بجذل وبشاشة، وكان بعض من هذه الأعمال مألوفا لدينا منذ أن كنا صغارا، في حين أن بعضها الآخر ابتدعناها بأنفسنا ومنها بوجه خاص الرقص والغناء. فمثلا كنا نأخذ بأيدي بعضنا ونقيم حلقة فيما بيننا، ويبدأ أحد اللاعبين منا بالغناء فيغني إحدى أغانينا المفضلة ويردد الآخرون الأغنية ونحن نركض في حلقة دائرية. واليكم نموذجا من قطعة غنائية:

آي .. آي .. أي .. الراعي الصغير، ذو الأصابع الذهبية، يعزف من مزماره الذي بين شفتيه ألحاناً هي لنا غير إعتيادية...

أماه .. ان هذا الراعي الصغير لا يحافظ جيدا على القطيع..

أماه .. اني احب هذا الراعي الصغير من قلبي وروحي..

زوّجيني، يا أماه، من هذا الراعي الصغير..

زوجني، يا أبتاه، من هذا الراعي الصغير.

سأكون دائما سعيدة معه، سأعمل معه لديكم من أجل إعداد المهر...

ها قد أقبل الصبح وارتفعت الشمس .. وعلى الجبين الساطع لحبيبتي الجميلة، لمع الذهب..

لقد بقيت راعياً سبعة أعوام، وقد آن الأوان لأشترى لحبيبتي زناراً من فضة.

ويستطرد عرب شمو قائلا: "كنا نغنّي أيضا الأغاني الشعبية القديمة، التي تمجد الأبطال الذين قاتلوا ببسالة للاستحواذ على المراعي الجيدة، ونصّبوا المخيمات لأبناء عشيرتهم، والذين فقدوا رؤوسهم في معارك غير متكافئة.

" كما كنا نلعب كذلك لعبة خاصة بالرعاة يطلق عليها اسم (زي زي)، وتتلخص هذه اللعبة في أن يضع كل واحد منا على طرف أصابع رجله سكينا أو عصا بصورة عمودية ويدفعها بكل قوته بعيداً عنه، ويندفع أحد اللاعبين ليجمع الأشياء المرمية دون أن يأخذ نفسا، ويردد اللاعبون الآخرون خلال هذه العملية كلمة (زي.. زي) ، فإن استطاع الشخص الذي اندفع لجمع الأشياء التي رماها اللاعبون جمعها دون أن يتنفس، كان فائزا. أما إذا تنفّس قبل أن يكمل جمعها خسر اللعبة".

" وأحيانا، كنا ننظم مصارعة بين الأكباش، ونختار بين القطعان الأكباش الفتية القوية، ونضع الواحد منها في مواجهة الآخر، وتبدأ المصارعة. والذي يخرج كبشه منتصرا في هذا الصراع، يعتبر هو الفائز. وقد كنا نلعب هذه اللعبة بصورة سرية، ذلك لأن اصحاب القطعان كانوا لا يسمحون لنا بجمع القطعان لترعى المواشي بصورة جيدة وتسمن اسرع".

سابعا - المظهر الاقتصادي للعشيرة:

تطرقنا في الفصلين الثالث والرابع إلى بعض النقاط المتعلقة بنمط الحياة الكردية وتنظيم الأسرة فيها، وبقي علينا أن ندرس العلاقات الاقتصادية القائمة بين رئيس العشيرة وأفرادها. وأعتقد ان هذا الجانب من الحياة الكردية لم يدرس حتى الآن بصورة جيدة، واكتفى معظم الباحثين بتعداد الموارد الاقتصادية لدى الكرد بشكل عابر. إن الحياة الكردية ما تزال بحاجة إلى دراسة اجتماعية تحليلية توضح لنا التفاعل القائم بين المظاهر الاقتصادية والاجتماعية والسياسية فيها.

(أ) ما يدفعه الكردي لرئيسه:

مع انه لا توجد دراسة بهذا الخصوص، نحاول هنا أن نرسم الخطوط الأساسية للعلاقات الاقتصادية داخل العشيرة الكردية مستعينين بدراسات الأستاذين (فيلجيفيكي)و (كريستوف) التي أشرنا إليها سابقا. ويلاحظ ان الأول في دراساته التحليلية لتركيب العشيرة اجتماعياً واقتصاديا لدى الكرد في منطقة القفقاس والمناطق المجاورة لها في كل من إيران والدولة العثمانية في القرن التاسع عشر، يرى ان الكرد في هذه المناطق كانوا يتبعون نظاما متقدّما للعلاقات الإقطاعية، فقد كان الآغوات والبكوات الذين كانوا يتزعمون العشائر شبه الرحّل، يشكلون جزءا من النظام الإقطاعي في آسيا القديمة (آسيا الصغيرى) وكانوا في علاقات تبعية اقتصادية مع الدولتين الإيرانية والعثمانية أو مع الإمارات شبه المستقلة التي كانت موجودة في الأقاليم التي كانت تعتبر شكلياً جزءا من إيران والدولة العثمانية.

لقد كانت العشائر الكردية تلتزم تجاه زعمائها ليس فقط بدفع الضرائب أو تقديم الخدمات لهم، بل كان يتوجب عليها أيضا تقديم وحدات مسلحة تكون تحت إمرة زعمائها لحراسة المناطق الحدودية. وهذا ما كان يشكل عامل ضغط كبيرا على السكان اقتصاديا من قبل الإقطاعي.

كان الاقطاعي الكردي يستوفي رسومه في البداية من سكان كردستان المستقرين الذين كانوا يتكونون في غالبيتهم من الأرمن والنسطوريين المسيحيين باعتبارهم العناصر العاملة والحرفية، حسب ما يذكره لنا القنصل البريطاني (تايلر) الذي زار تلك المناطق حوالي العام ١٨٦٠. لقد كان هؤلاء الاقطاعيون يطلقون على المسيحيين (زير خور لى) أي المشترين بالذهب. وهو تعبير صحيح إزاءهم كأنهم كانوا يشترونهم ويبيعونهم كالدواب سواء بسواء، وكانوا يتمتعون بهذه السلطة لانعدام سلطة الدولة في تلك المناطق، وهذا ما استتبع استقلالية هؤلاء الآغوات والبيكات وتمتعهم بسلطة كاملة تجاه رعاياهم. لقد كان هؤلاء الرعايا المسيحيون يدفعون سنويا مبلغا من المال للزعماء الكرد لقاء حمايتهم لهم. ولكن عندما ساءت احوالهم فيما بعد وازداد بالمقابل أيضا طمع هؤلاء السادة، تعذر عليهم دفع تلك المبالغ بصورة منتظمة. لذلك تحولت أحوالهم إلى وضع شبيه بوضع العبيد. إن أوضاعهم الحالية كما يلي: انهم يباعون بصورة جماعية تباعا لبيع الأرض التي يستثمرونها، غير انه لا يجوز بيع احدهم بصورة منفردة. ويستطيع مالكهم أن يستحوز على أي كمية من محاصيلهم السنوية، نقدا كان ذلك أو عيناً. والواقعة التالية التي أوردتها السلطات التركية توضح لنا حالتهم: قتل أحد الآغوات الكرد بطلقة نارية واحدا من رعايا آغا آخر، وبدلا من ان ينتقم هذا من القاتل نفسه بادر إلى قتل اثنين آخرين من رعايا القاتل دون أن تكون لهما صلة بموت القتيل. وقد أورد (فيلجيفسكي) هذا المثال كدليل على حالة العبودية التي كان يعيشها هؤلاء الرعايا. لذلك يمكننا القول ان الضغط الاقتصادي للنظام الإقطاعي كان يمارس بوجه خاص تجاه السكان الحضر في كردستان. وقد أنشأ الإقطاع الكردي سلطة بمساعدة العشائر الرحّل. ورغم أنه يبدو ظاهريا لأول وهلة أن حالة الكرد الرحّل كانت أحسن من حال غيرهم، إلا أنها لم تكن كذلك في واقع الحال. انها كانت، باستثناء حالات خاصة، أكثر سوءاً من حالة الفلاحين المستقرين.

وكان الكرد يلتزمون تجاه آغواتهم بنظام معقد من الواجبات والرسوم والضرائب التي كانت تجبى مباشرة من قبل الإقطاعي نفسه أو من يمثله (ريش سبى) أي ذي اللحية البيضاء أو (كدخادا) أي مختار القرية .. الخ.

ليست لدينا معلومات محددة حول جميع الضرائب التي كان الكرد يلتزمون بدفعها لأسيادهم من الآغوات، ومع ذلك فإن الاشارات العابرة التي تخص مناطق مختلفة من كردستان حول طبيعة هذه الضرائب ومقاديرها، تؤكد انها كانت تكون النسبة الكبيرة لمداخيل الاقطاعيين الكرد التي تبدو لأول وهلة كأنها غير ذات أهمية. فمثلا كان الكرد اليزديون يدفعون سنويا لأميرهم وبمحض إرادتهم عشر انتاجهم. وكان رؤساء العشائر والشيوخ يتقاضون النسبة نفسها. أما (البير) فكان يستوفى نسبة أقل. وعلى كل حال لم تكن الرسوم المباشرة التي كان يدفعها الكردي اليزدي للسلطات الروحية والزمنية لتقل عن خمس مجموع انتاجه. وبالإضافة إلى ذلك، يجب على الكرد ان يتكفلوا بنقل خيمة الآغا وأمتعته خلال مواسم الارتحال. أما رسم الزواج فكان ينعكس في تقديم بقرة إلى الآغا، كما أن الآغا هو الذي يتقاضى عن كل حفلة زواج من خمس نعاج إلى خمس عشرة نعجة، وعن طرد الروح الشريرة من نعجتين إلى ثلاث، وهكذا ..الخ.

ويجمع الرحالة على القول ان الفرد الكردي لا يمكنه مقابلة رئيسه دون أن يحمل له معه هدية مناسبة، فإذا ما ذهب لمقابلة الآغا، فإنه يقدم له بوجه عام نعجة أو عنزة. وإذا ما ذهب لمقابلة الشيخ كانت الهدية عبارة عن حمل خروف أو طير داجن (دجاجة أو بطة أو ما شاكل).

وعلى وجه الإجمال، لا يتقاضى الزعيم أقل من خمس مجموع مداخيل أتباعه وأحيانا أكثر من ذلك. وفي الوقت نفسه تتقاضى السلطة المركزية بواسطة الآغا (العشر) الاسلامي المعتاد([٢٤]) والذي يطلق عليه اسم (الأغنام) عندما يطبق على المواشي. ولا تستوفى هذه الضريبة عادة من الكرد الذين يحملون السلاح. ولكن الآغا كان يستمر في استيفائها

([٢٤]) هذا "العشر" ليس ضريبة اسلامية بأي حال وليس أكثر من أي ضريبة من الضرائب الاقطاعية. والضرائب الإسلامية لا يحق اسلاميا لأي زعيم قبيلة استيفاؤها إلا إذا كان يمثل الحكومة الإسلامية في المنطقة وبوصفه هذا فقط – المترجم.

لحسابه الخاص في أغلب الأحيان. وهذا ما أدى إلى نشوب اضطرابات كتلك التي أشار إليها الرحالة الفرنسي (دروفيل[٢٥]).

ومنذ أن نشر (فيلجيفسكي) دراسته عام ١٩٣٦، نشرت وثائق أخرى منهاوثيقة (بوكدا نوفا) عن الاستغلال الإقطاعي للرحل في مجلة (الأرشيف التاريخي)، الجزء الثاني ١٩٣٩ التي يصدرها معهد التاريخ في أكاديمية العلوم في الاتحاد السوفيتي، وهي تعطينا نظرة أكثر دقة عن الموضوع الذي نحن بصدده. وقد نشرت فيها قائمة بأسماء الضرائب دونت حوالي العام ١٨٢٨ من قبل الميرزا اسماعيل الذي كان موظفاً مالياً لدى حسين خان قاجار، الذي كان يشغل خلال فترة الحرب الروسية - الإيرانية منصب (السردار) أي الحاكم العام لاقليم (أريوان)، وهو الاقليم الذي ألحق بروسيا بعد الانتصار الذي حققته على إيران. وتقدم لنا هذه القائمة تفاصيل بالاتاوات التي تدفع نقداً أو عيناً من قبل العشائر التركية والكردية الرحّل الموجودة في المنطقة. ونفهم من القائمة على سبيل المثال ان الكرد من عشيرة (زيلان) التي كانت تقدر بحوالي ألفي أسرة وكانت تمتلك مواشي تقدر بمئة ألف رأس غنم، كانوا يدفعون للسردار سنويا خروفين أحدهما ذكر والأخر أنثى عن كل مئة خروف، وخمسة (خروار) أي حمل حمار من الزبدة (يتراوح وزن خروار بين ٢٤٠ كغم إلى ٦٠٠ كغم) لكل ألف رأس من الغنم ضريبة المراعي، كما أنهم يقدمون سنويا جميع التجهيزات اللازمة من برادع وحبال ولُجم وغيرها لخمسين بعيراً أو بغلا ويضعون تحت تصرف السردار حوالي ألف ثور لنقل المواد، فضلا عن تقديم ألف رجل مسلّح. وفي حالة اخرى تخص فرع سقانلو من عشيرة الجلالي الذي كان يضم ١٠٢ عائلة، كانوا يقدّمون سنويا ٢١٩ تومان و ٦ مينالتون (كان التومان يقابل آنئذ ١٠ روبلات فضة وكان المينالتون يقابل عشر الروبل). وكان للسقانلوا ثمانية مراع ترعى عليها حوالي ثمانية آلاف وسبعمائة وخمسين رأس غنم، وكان يتعين عليهم أيضا دفع خمس تومانات ونصف لكل ألف راس غنم، أي ما مجموعه ٤٨ تومانا ومينالتون واحد وربع المينالتون من الذهب، فضلا عن (١٢) باتماناً من زبدة الأغنام و (٢٥) زوجا من جلود الأغنام مع كيس من الصوف لكل ألف رأس من

---

[٢٥] رحلة إلى إيران خلال عامي ١٨١٢ - ١٨١٣. باللغة الفرنسية. ك. دروفيل. باريس ١٨٢٥.

الغنم. وكان السردار يعهد بمواشيه إلى هؤلاء الرحل وفق شروط يمكن تقسيمها إلى قسمين. فحسب شروط القسم الأول، ويطلق عليه (ديش بديش)، كان على المتسلم ان يرد بعد كل عدة سنوات عدداً من الأغنام والخراف يساوي العدد الذي تسلمه وفي نفس الأعمار التي كانت عليها، على أن يدفع عن كل راس أيضا باتماناً ونصف باتمان من الزبدة والجبن (كان وزن الباتمان يعادل في أريوان خمس كيلو غرامات) وستيلاً من الصوف (كان الستيل يعادل باتمانا و ٣٠٪ من الباتمان)[٢٦]. أما الحيوانات المولودة بعد التسليم فكانت من حق المتسلم وحده. وحسب شروط القسم الثاني ويطلق عليها (أماني)[٢٧]، كانت الحيوانات المولودة حديثا مع الصوف تكون للسردار، وكان على المتسلم أيضا دفع سبع ستيلات ونصف من الزبدة لكل نعجة وست باتمانات لكل جاموسة وأربع باتمانات لكل بقرة. وكان على أبناء هذا الفرع من عشيرة الجلالي ايضا أن يضعوا تحت تصرف السردار جميع دوابهم للحمل والنقل، مرة واحدة كل سنة[٢٨].

(ب) الالتزامات العسكرية في ظل النظام الإقطاعي:

كان من الواجب على الكردي، بالاضافة إلى دفع الضرائب، أن يحمل السلاح بناء على طلب رؤسائه ويترك مشاغله الاقتصادية شاء أو كره. صحيح أنه في حالة نجاح الحملة العسكرية، كان بعض المشاركين فيها يحصلون على شئ من الغنائم، إلا أن الأضرار الناجمة عن الحرب كانت أفدح بكثير، ذلك أن المجندين في هذه الحملات غالبا ما كانوا يفقدون صلاتهم بقطعانهم وأراضيهم ويصبحون جنوداً محاربين نظاميين متطوعين لدى الإقطاعي. ويقوم الإقطاعي بدوره بزيادة الضرائب على السكان ليوفر لجنوده وأتباعه المرتّبات

---

[٢٦] يبدو لي كما بدا لمترجم الكتاب إلى اللغة الفارسية ايضا، أن (ستيل) محرف كلمة (سطل) – المترجم.

[٢٧] يبدو لي أن (أماني) محرف كلمة (أمانة) – المترجم.

[٢٨] حول النظام المالي في آذربيجان توجد معلومات دقيقة في مؤلف (بيتروشيفيكي) باللغة الروسية. وهي تخص العلاقات الاقطاعية في أرمينيا وآذربيجان خلال القرون السادس عشر – التاسع عشر ص ٣١٥. لينينكراد ١٩٤٠. ويمكن مراجعة كتاب (لامبستن) المشار إليه حول النظام المتبع في إيران.

اللازمة، فكانت حالة أبناء القرى تزداد سوءاً فيتوجهون إما للاستجداء من جيرانهم، أو يعملون لديهم كأجراء زراعيين ورعاة.

وكانت تكاليف الفارس المحارب التي تتحملها عشيرته تبلغ ١٦٣ روبلا من الفضة في سنة ١٨٤٠، بالإضافة إلى مرتّبه السنوي البالغ ٢٤ روبلا مع العلف لحصانه. وكان على العشيرة أن تقدّم بالإضافة إلى كل ذلك، ملابس وسلاحاً وفرساً إلى المحارب تتضمن زوجا من المسدسات وسيفاً وخنجرا وقاط ملابس وسرجاً ولجاماً مرصّعين بالفضة. وإذا ما فقد المحارب هذا اللجام فإن على المجموع أن يهيئوا له لجاماً آخر (بوكدانوفا، المصدر السابق).

لا يمكن اعتبار الاقتصاد الرعوي، حتى بالنسبة للقبائل الرحّل، اقتصادا منعزلاً ومستقلاً عن اقتصاد المنطقة. والاقتصاد الرعوي، حتى في الحالات الطبيعية، يكون بحاجة إلى المنتجات والمحاصيل الزراعية، فيلجأ إلى إجراء المقايضة معها، وبذلك يسهم في إنشاء أسواق داخلية جد صغيرة، وهكذا فإن الفلاحين الذين يقاسون ضغطا اقتصاديا من الإقطاع، يحاولون غش الرحّل الذين يتحملون في النتيجة آثار الاستغلال الإقطاعي.

وأخيراً، فإن الاستقرار كان ينتشر شيئا فشيئا. وفي هذه المرحلة كان هناك عدد كبير من العشائر نصف المستقرة ونصف المترحّلة، وكان الرئيس الإقطاعي يستفيد من مختلف الوسائل لاستغلال هؤلاء واستخدامهم لصالحه الخاص.

وباختصار، إن الكرد الرحل على الرغم من إستقلالهم الصوري وقلة الضرائب المفروضة عليهم من حيث الظاهر، لم يستطيعوا ان ينجوا من جور النظام الإقطاعي، وانتهى بهم الأمر بأن باتوا تحت حكم رؤسائهم الاقطاعيين. ويعتقد (بيتروشيفسكى) أن وضع الكرد الرحل كان افضل من وضع الحضر منهم.

وهكذا فإن الإقطاع في كردستان في نهاية القرن الثامن عشر وبداية القرن التاسع عشر لم يكن قد غدا نظاما متكاملا حسب، بل ووصل أيضا إلى نتيجته المحتومة. فقد أدى هذا النظام إلى تفكك المجتمع الكردي وأوجد الاقتصاد الطبيعي الذي يعتمد على الملكية الخاصة للمواشي، وحمى الفلاحين من خطر غزو العشائر الرحّل. كما أنه حافظ على

كردستان كوحدة متماسكة ضد تسلط امبراطورية العشائر الغازية التي استطاعت السيطرة على البلدان المجاورة لكردستان، وبإسهامه في مقدرات الإقطاع في عموم آسيا الصغرى، تحول بنفسه أيضا إلى عائق كبير أمام التطور اللاحق للقوى المنتجة في المنطقة. إن الإقطاع الكردي دمر في الواقع رفاهية المجتمع الكردي لأنه أبقى على الأشكال القديمة للاقتصاد التي سمحت له بممارسة الضغط فوق الاقتصادي. لقد صار عائقاً أمام تطور السوق الداخلية التي غدا نشؤها أمراً ضروريا لتعايش الاقتصاد الرعوي والزراعي معا، وعمل على هدم الاقتصاد الرعوي بسحبه الأيدي العاملة منه لينخرطوا تحت السلاح لخدمته، وهكذا كان الأمر أيضا بالنسبة للاقتصاد الحضري الذي كان يعاني من غزواته، وفي الوقت نفسه كان يقف كابحا أمام التحضر لأنه كان بحاجة إلى الرحل بوصفهم قوة مسلحة.

يقول فيلجيفسكي: إن الإقطاع الكردي أخذ يتضعضع ذاتياً منذ بداية القرن التاسع عشر وغدا عائقا أمام تطور القوى الاقتصادية الجديدة التي تولدت جزئيا بتأثيره هو نفسه بعد تفكيك الأسر النبيلة وذوبانها في العشائر. كما أن العشيرة صارت، بدورها مدعوة للتحولات، وصار دور الرئيس الإقطاعي يتحول بتأثير العامل الاقتصادي إلى دور صاحب رأس مال يحاول مواصلة تربيبة الحيوانات على أسس رأسمالية. إن الثورات الكردية التي اندلعت في القرن التاسع عشر كانت تتسم، على ما يراه فيلجيفسكي بطابع معاداة الإقطاع، فسجّلت بذلك مرحلة جديدة في تطور الشعب الكردي ويمكننا تلخيص العلاقات التي كانت تربط رئيس العشيرة برعاياه في ظل النظام الإقطاعي بما يلي:

١ - يجب على الرحل ان يقدّموا لرئيسهم بموجب التزاماتهم الطبيعية مقداراً من الضرائب العينية وعدداً من المجنّدين المسلحين، ويتمتعوا بالمقابل بحق إرتياد الكلأ على مسار محدد والاقامة في مراع معينة لهم بصرف النظر عما إذا كانت متروكة أو مورد انتفاع، حيث ان الرحّل كانوا يتوقفون خلال تحركهم بقطعانهم في مناطق مزروعة أو متعلقة بفلاحين مستقرين. إن هذا التحديد الذي يعطيه فيلجيفسكي يمكن تفسيره بصورة أخرى أيضا على ما أرى. إذ يمكن القول بوجه خاص، إن عشيرة رحالة ما إذا كانت قوية بما فيها الكفاية ولديها رجال مسلحون ملتفون حول زعيمهم باستطاعتها أن تسلك الطريق المناسب

لها للتنقل بقصد الوصول إلى المراعي المطلوبة لها للاستفادة منها في تغذية قطعانها. وعلى هذا، فإن ما تقدمه العشيرة للاقطاعي ليس التزاماً تلتزم به تجاهه، بل ضرورة تخضع لها في صراعها من اجل وجودها. ويبدو أنه ينبغي هنا أن نميز بين الإقطاعي ورئيس العشيرة أو القبيلة، وهذان العاملان الاجتماعيان يمكن أحيانا أن يجتمعا في شخص واحد، ولكنهما بصورة عامة يتميزان عن بعضهما. ويمارس رئيس اقطاعي واحد سلطته على عدة عشائر في الغالب، إلا اننا يمكننا التحدث عن الضرائب الثقيلة والباهظة التي تستخدم لأغراض ليست دائما من اهداف العشيرة، عندما يكون مدار حديثنا العشائر التي لا ينتمي إليها الرئيس بنفسه وليست سلطته عليها سلطة وراثية.

(ج) النظام المالي:

هناك مسألة شكلية يجب الإشارة إليها في البداية، وهي: أننا عندما نتطرق لموضوع الإقطاعي نبتعد عن البيئة العشيرية الصرفة وندخل في موضوع الدولة، رغم ان الدولة في الشرق، حتى في عصرنا الراهن، ليست إلا ائتلافا من العشائر غير مستقر تماماً، لوجود سيطرة قليلة للسلطة المركزية عليها. ومع ذلك، فإن الدولة الشرقية، رغم تركيبتها الخاصة، لها أهداف ووظائف أسمى وأهم من أهداف العشيرة ووظائفها. وهناك أيضا الباعث السايكولوجي الذي يجعلنا نعتقد بضرورة التمييز بين رئيس العشيرة والسيد الإقطاعي. فالأول، كيفما كان الاستغلال الذي يمارسه، والذي لا يمكننا إنكاره، يبقى على كل حال متعلقا بمصلحة العشيرة التي تربطه بها صلات عديدة. إنه لا يمارس سلطة غريبة عن العشيرة. لذلك ونتيجة لهذا الواقع، إن لاح احتمال لعزله ونصب شخص آخر في محله، يظل رغم إساءاته التي تبقى على كل حال محدودة، مقبولا أكثر من سواه.

١ - على كل وحدة من العشائر الرحالة التي تشغل منطقة محددة من المراعي أن تدفع من منتجاتها ضريبة عينية حسب عدد رؤوس المواشي التي تملكها الأسر التي تتكون منها تلك الوحدة، وفق التفصيلات التي ذكرها آنفا. وهناك بالإضافة إلى ذلك رسم المرعى ورسم الشرب اللذان يأخذهما مالك الأرض من الرحّل الذين يمّرون عبر أراضيه وممتلكاته.

٢ – يسلم الرحّل الرسوم المترتبة عليهم لصاحب الاقطاعية بواسطة رئيس عشيرته، حسب ظروفه .. ويمكن أن تأخذ هذه الرسوم شكل التزامات بتقديم الخدمة (مجندين عسكريين احتياطا) أو تقديم منتجات (عشر المحاصيل أو رسم الاغنام) أو مبالغ محددة. وكانت الإساءة ظاهرة وكثيرة بالنسبة للرسوم التي تستوفى نقداً، لأن موظفي الجباية كانوا يحددون مقدارها حسب أمزجتهم ويأخذون الزائد منها لمصلحتهم الخاصة. ومن جهة أخرى كان للسلطات المالية الحكومية مآخذ دوماً على دافعي الضريبة الكرد، لأنهم لم يكونوا يتمكنون منهم كما ينبغي. ويمكنني أن أذكر في هذا المجال على سبيل المثال أن الضريبة التي كانت تستوفى من الرحّل من عشيرة (هركي) كانت تجبى بشئ من النجاح، لأن الجباة الترك كانوا ينصبون كمينا على ضفاف الجسر القائم على نهر الزاب الأعلى الذي يعبر عليه هؤلاء الرحّل كل عام للوصول إلى منطقة (زيبار). وعلى المنوال نفسه، هناك مضيق في المقاطعة الجبلية (تياري) في المنطقة نفسها يحمل اسما ذا مغزى هو (مضيق الجابي) يشير بالإضافة إلى معناه، إلى أن الموظفين المكلفين بهذه المهمة لم يكن بوسعهم الولوج إلى المنطقة اكثر من ذلك لاستيفاء الضرائب[٢٩].

---

[٢٩] لذلك لم يكن يتردد هؤلاء الموظفون في مباغتة الكرد لكونهم متهربين من دفع الضرائب، دون أن ياخذوا بنظر الاعتبار الظروف المحيطة بهم، كما يؤيد ذلك الرسالة التي بين يدي، المرسلة من (سوتو آغا) رئيس عشيرة (اورامار) إلى حيدر باشا والي الموصل عام ١٩١٥. فقد ورد فيها: "كان لي شرف المثول بين يديك في فصل الربيع إبان الجهاد الكبير، عندما كان الجنود يصعدون نحو مناطق التياريين وما والاها. فقد أمرتني بعدم بقاء عشيرة (أورامار) في مكانها. لذلك نقلنا مواشينا إلى قضاء دهوك وبقيت أنا مع رجالي في (أورامار). ومع ذلك فإن مسؤول الضرائب يطالب الآن بالضرائب من رجالنا المعوزين في دهوك. انني أرجو الحكومة ان لا تستوفي الضرائب من أولئك اللاجئين، وآمل أن يوافق حضرتكم على طلبي هذا"

ويبدو من هذه الرسالة أيضا أن الشاركين في الجهاد المقدس لم تخفف الضرائب عن كواهلهم. ويذكر ميللينكن (المصدر السابق، ص ٢٥٣) حادثة تتعلق بأحد جباة الضرائب اضطر إلى الفرار أمام تهديد النساء الكرديات له.

وفي عام ١٩٣٥ نشرت صحيفة باريسية بتاريخ ١٤ حزيران، السطور التالية التي أنقلها فيما يلي: وقعت حادثة مؤلمة في منطقة (موش) في الأناضول الشرقية تتعلق بجباية الضرائب المتأخرة. ويسكن الولاية المذكورة كرد أنصاف متوحشين. ولأنهم يمتنعون دوما عن دفع أي من الرسوم والضرائب التي بذمتهم، فإن مدير الناحية التي تقع إلى جوار تلك المنطقة يرافقه اثنان من الجند وموظفان من قسم جباية الضرائب وقاضي المنطقة، توجهوا إلى حيث تعيش عشيرة (ساسون)

والمعروف أنه في ظل النظام التركي كان يتم استيفاء الضرائب عن طريق الامتياز ويعرف بـ (الالتزام). فكان على الملتزم دفع المبلغ المتعاقد عليه جزافا إلى السلطة المالية المختصّة للمنطقة المتفق بشأنها، ويتولى هو بالوسائل التي يملكها استيفاء الضريبة من المكلفّين. فكان التملّص من دفع الضريبة صعبا بالنسبة للفلاحين من السكان، المستقرين في قراهم، ذلك أن المحصول الزراعي الذي تفرض عليه الضريبة يصعب إخفاؤه. أما بالنسبة للرحل، فقد كان الأمر سهلاً، لأن مواشيهم كانت غير مستقرة في مكان معلوم، فكان من الضروري إيجاد علاقات حسنة مع السلطات العشيرية التي كانت تستفيد هي بدورها أيضا من استيفاء الضريبة.

وبفضل الدراسة الدقيقة التي أجرتها السيدة (لامبتون) حول وضع الكرد في إيران، الذين يتكون معظمهم من أهل الحضر ويختلفون قليلا عن الفلاحين الذين يكون مالك أرضهم رئيسا للعشيرة، يمكننا تكوين فكرة محددة عنهم. إن حصة المالك من المحصول الذي يتولى الفلاح نقلها بنفسه إليه، تختلف حسب المكان. فقد تكون مناصفة أو ثلثاً أو خمسا أو عشرا أو اقل من ذلك. وحسب ما يذكره لنا (رابينو) في كتابه باللغة الانكليزية (تقرير عن كردستان) وقد كتبه في عام ١٩١١: "إن نظام (ده دو) أي عشر حصص مقابل حصتين أو نصف السدس منتشر كثيراً. وحسب هذا النظام يقسّم المحصول إلى اثنتى عشرة حصة يأخذ منها المالك حصتين والبقية للفلاح وتكون جميع المصاريف على هذا الأخير، في حين لا يقدم الفلاح بموجب نظام المناصفة غير البذور والعمل، ويتولّى المالك دفع الضريبة التي تعرف باسم (الماليات)، بالإضافة إلى مصاريف الحصاد. وينبغي على الفلاح أيضا دفع اتاوات عينية إلى المالك كالزبدة والدجاج والبيض مما تعرف باسم (رسوم الضيافة)، بالإضافة إلى رسم الموافقة على الزواج (سورانه). ويستوفى المالك كذلك رسم المرعى وعددا من رؤوس النعاج بصفته رئيسا للعشيرة. وفضلا عن ذلك هناك التزام آخر أشد وطأة على

الجبلية، فأخذ مدير الناحية ينصحهم بأن وصول الضرائب من الرعايا إلى دولة تجددية ومتمدنة ضرورة حياتية. وقد ثارت ثائرة الجبليين بمجرد أن أخذ مدير الناحية يلقي نصائحه. فأخطروا الموظفين القادمين جميعا بأنهم إذا كانوا ممن يهمهم الحفاظ على حياتهم. فالأولى لهم أن يسلكوا طريقهم الذي جاءوا منه ويعودوا من حيث أتوا. وبما أن الموظفين الحكوميين ظلوا يوجهون لهم النصائح والمواعظ بضرورة الاستجابة والإطاعة. فإن القبليين الكرد هاجموهم وأبادوهم عن بكرة أبيهم.

الفلاح إذ يجب عليه أن يعمل مع دابته بدون مقابل أياما عديدة في الحراثة أو البذار أو الحصاد أو البستنه أو غيرها حسب ما تقتضيه مصلحة المالك مما يطلق عليه اسم (بيكار) أو (بيگال)، وعليه ان يقول انه يؤدي له هذه الأعمال عن طيب خاطر. ويشمل نظام التدرج الزراعي (المباشر) أي وكيل الأعمال و(كدخدا) أي المختار او العمدة و(كاخيل) و (بيكار) أي: الحراس ووكلاء الري لأنه يكون الاعتماد أحيانا على الري، رغم أن الزراعة المنتشرة هي الزراعة الديمية في الغالب. وتقسم أراضي القرية على أساس (جفت) التي هي وحدة زراعية تتحدد بكمية معلومة من البذار. وتتم عملية إعادة التوزيع كل خمس سنوات إلى خمسة عشرة سنة. أما بالنسبة للضريبة فيبدو الخطأ في الأساس الذي تقوم عليه عملية التحصيل، لأن الدولة توكل هذه المهمة إلى الملاك الزراعيين أنفسهم الذين يقومون بجباية حصصهم مع حصص الدولة ولا يملك الفلاح وسيلة للمراقبة ولا يتمتع بأي ضمان يوفر له تأمين العدالة.

ويلاحظ أن قانوناً صدر في عام ١٩٣٤ حلّ محل القانون الصادر عام ١٩٢٦ عدل النظام الذي كان ساريا في مجال الملكية الزراعية في إيران، وقد أخضع القانون الجديد جميع المحاصيل الزراعية لضريبة حدد مقدارها بـ ٣٪ عينا، اما عن الحيوانات فتستوفى لدى دخولها المدن والقصبات أو عند تصديرها. وتفرض هذه الضريبة مرة واحدة على المواد الخاضعة للضريبة، وتحدد نسبة الضريبة كل سنة. ومنذ ذلك التاريخ أعدت عدة لوائح قانونية لم يصادق عليها المجلس النيابي. وفي عام ١٩٤٨ أعيد تنظيم الضريبة على الملكيات الزراعية في عدة أقاليم من البلاد على أساس المسح الزراعي الذي بدء به في عام ١٩٢٦.

* * * * * * * *

إذا عدنا الآن إلى الملاحظات التي دونها (كريستوف) حول أسلوب العيش في العشيرة الكردية في مظاهره الاقتصادية والاجتماعية، وجدنا بعض الاشارات ذوات الدلالة الهامة التي تبدو مع ذلك مفيدة لأنها تؤكد جانبا من ملاحظات (ڤيلجيفسكي)، رغم ان للباحثين وجهات نظر مختلفة. فعلى سبيل المثال عندما يتطرق (كريستوف) لأسباب التحول من حالة الترحل إلى شبه الترحل، يعزو تلك الأسباب إلى الضرائب الباهظة ونظام الخدمة العسكرية، فيضطر الرحل إلى بيع مواشيهم لتأمين عيشهم والتوجه نحو ممارسة الزراعة وبخاصة إذا كانت الزراعة قد سَهُلت لهم بالنسبة إلى الظروف الطبيعية المحلّية والأوضاع التي يعيشونها بأنفسهم. إن حالة الفقر هذه نشأت حسب رأي (كريستوف) بسبب سياسة الحكومة. بينما يرى (فيلجيفسكي) سبب ذلك في سلوك الإقطاع وتصرفه، رغم أن النتيجة في الحالتين واحدة. إلا أن (كريستوف) يضيف إلى وجهة نظره نقطة أخرى، هي ان الكرد شبه الرحل قليلا ما يميلون إلى تربية الجياد ويهتمون أكثر بتربية الأبقار بسبب من القيود التي تعرضت لها سجاياهم القتالية (من قطع طريق وغيره)، كما أنهم من جهة أخرى يخضعون أكثر لتأثير نفوذ رجال الدين المسلمين الذين أسسوا بينهم مدارس دينية وغرسوا في نفوسهم أحكام الشريعة الإسلامية على حساب التمسك بالأعراف والعادات السائدة بينهم. هذا فضلا عن أن البنية العشيرية بدأت تتحلل شيئا فشيئا، وأن المرحلة القادمة هي مرحلة الاستقرار، وإن الشعب الكردي إذا لم يحافظ على لغته وتراثه وفولكلوره، يمكن ان يتحول إلى أتراك جبليين "كما يوصفون بذلك في تركيا، أو إلى مجرد "رعايا" إيرانيين" حيث انهم، في منطقة كرمانشاه مثلا، لا يوجد إلا فارق ضئيل بينهم وبين الرعايا الايرانيين. ويلاحظ كريستوف أيضا أن مفهوم الأسرة يتقدم لدى الرحل الصرف الذين يهتمون بتربية المواشي على مفهوم العشيرة لأسباب اقتصادية. وفي الحقيقة إن المرأة هي التي تمثل اليد العاملة لأنها التي تتولى امر تربية المواشي وتحضير منتجات الألبان. ولهذا نجد في هذا الوسط ان وضع المرأة التي تضحي بنفسها لخدمة العائلة والأسرة أقرب إلى المساواة اجتماعيا مع الرجل منه لدى العشائر الحدودية التي يلاحظ فيها وجود بون شاسع بين زوجة الزعيم (خانم) والنساء الأخريات (يايه). وقد يحدث بين العشائر القاطنة على الحدود التي كانت تمارس السلب والنهب وقطع الطريق فيما مضى في أغلب

الأحيان، أن لا يملك مسلحو رئيس العشيرة شيئا عدا ما قد يحصلون عليه خلال غزواتهم القتالية، وهو ما يسهل الحصول عليه اليوم اكثر من ذي قبل بسبب إجتياز الحدود (ويسمى فيلجيفسكي هذا الطراز من العيش بالحياة ما فوق الاقتصادية). وقد تأتي هذه المكاسب من هذا الجانب من الحدود مرة ومن ذاك مرة أخرى، في حين أن سائر أفراد العشيرة مستمرون على أداء اعمالهم الاعتيادية، وفضلا عن هذا فإن هؤلاء المسلحين يعتمدون ايضا في قرار أمر معيشتهم على السكان المسيحيين الذين يسميهم (تايلر) (زير خورلى) أو المبتاعين بالذهب. وتجري هذه الأعمال في حماية رئيس العشيرة الذي يتمتع في الغالب بسلطة إدارية منحتها إياها الدولة. وفي مثل هذه العشائر يأتي الخضوع للنظام العشيري قبل مفهوم الأسرة، لأن دور الأسرة الاقتصادي أقل فاعلية نظراً لتعدد مصادر الرزق الاقتصادية وما فوق الاقتصادية لدى العشيرة. وفي هذه الظروف يبدو أن تربة الجياد تكون اهم للمقاتلين.

د – نظام الأوبا(٣٠)

نتطرق الآن إلى دراسة نظام متميز هو نظام الأوبا وكيف انه نشأ في مجتمع يسوده النظام العشيري والاقطاعي، وما هي آثاره على البنية الاقتصادية الكردية. يحدد لنا فيلجيفسكي الأوبا بأنه تنظيم اختياري يضم عدداً من الأسر التي تجمع قطعانها خلال فصل الصيف لتشكل قطيعاً مشتركا يتولى رعايته رعاة اتفق معهم بهذا الشأن. وعمليات الحلب وجز الصوف.. الخ، تتم من قبل الأسر صاحبة القطعان، وينحصر التعاون في نطاق رعي المواشي، أي نقلها إلى مراعيها وعلى مسارات معينة وحسب الطرق المتبعة في الأوبا. وتبرز أهمية القطيع حسب سعته من جهة ونوعية المراعي من جهة أخرى وامكانيات مراقبة القطيع من قبل الرعاة المتفق معهم. وعدد الرؤوس التي تجمع لترعى معاً يتراواح بين ٥٠٠ و ١٠٠٠٠ رأس، كما يعتمد عدد الأسر التي تتعاون فيما بينها بهذا الشأن على أهمية القطيع المشترك ودور كل أسرة في العملية. وكمعدل عام، يضم الأوبا بين ٨ إلى ١٥ خيمة، وإن كان

---

(٣٠) أوبا: كلمة تركية تعني الخيمة أو أنواعاً معينة من الخيام، والمكان الذي تقيم فيه الطوائف المترحلة. كما تعني كذلك العشيرة – المترجم.

بالامكان أن يتألف الأوبا النموذجي في كردستان الشمالية من ١٥ إلى ٢٠ أسرة، تملك مجتمعة من ألف رأس إلى الفي راس من الماشية. إننا لا نشغل أنفسنا بالبحث عن نشأة الأوبا وكيفية نشأته، وهناك احتمالان واردان في هذا المجال:

١ - إما أنه تكوّن تحت تأثير النظام الإقطاعي، امتداداً لتكوّن الاقتصاد الطبيعي الفردي الناشئ عن الاقتصاد الجماعي السابق للإقطاع.

٢ - أو أنه ظهر نتيجة لمزج الاقتصاديات الطبيعية الضعيفة التي تحمّلت استغلالاً فظيعا من النظام الإقطاعي، فوجد نفسه غير قادر على مزاولة الرعي بصورة انفرادية. ويرى فيلجيفسكي أن العاملين أسهما معا في تكوّن الأوبا، إذ نجد فيه على حد سواء اشتقاقا عن البنية الجماعية للأسر، ومحاولة لتجاوز مرحلة الاقتصاد الطبيعي باللجوء إلى استثمار الرعاة المهرة.

وفي تحليلنا لظاهرة الأوبا بوجه عام نتوصل إلى حقيقة ان الأوبا يمتلك بصفة ما حصة محددة من المراعى تحمل اسم (وار = هموار) أو (زوزان) أو (يورت). وهكذا نعتبر الأوبا ناتجاً من التملّك الجماعي للمراعي من قبل جماعة من الرحّل يعيشون اقتصاداً انفراديا. وكما بيّنا آنفا، تعود ملكية المرعى إلى العشيرة كلها التي تعطي الإقطاعي مقابل ذلك مبلغا معيناً يجمع من الأفراد كلهم، لذلك فإن الأوبا يعتبر بمثابة تعاونية، هدفها الاستثمار الأمثل لقسم محدد من المرعى عن طريق الرعي الجماعي. وينظم الأوبا كل سنة قبل الارتحال إلى المرعى ويستمر إلى أواخر الخريف عند العودة إلى المشتى. ويجب أن لا يغيب عن البال أن التحقيق الفعلي للأوبا أمر سهل وميسور في الحياة العملية ويمكن ان يحدث ذلك ضمن عشيرة واحدة أو فرع من العشيرة مهمته الارتحال، ويمكن أن يوجد في مجتمع زراعي مستقر أو شبه مستقر، كما لا يستبعد أن يكون في حد ذاته وحدة اقتصادية غير متميزة. وبطبيعة الحال يختلط الأوبا في الحالات التي ذكرناها مع إحدى التقسيمات الاقطاعية المناسبة، لذلك لا يمكن اعتباره ذا سمات تعاونية اختيارية، إلا أن الشيء الذي يهم فيلجيفسكي هو أن الأوبا بشكله الطبيعي يعتبر بمثابة حلقة يتركز حولها الصراع الطبقي في كردستان.

وهناك شكلان للأوبا. الأول الأوبا الذي يقوم على مبدأ المساواة الكاملة بين الأعضاء المنتمين إليه (جول) والذين يعالجون الأمور بصورة مشتركة مع الرعاة، ويتحملون جميع النفقات، كل حسب أعداد الماشية التي يملكها. والثاني شكل آخر للأوبا تكون نتيجة قبول مالك قطيع من الماشية يعرف بـ (أوباباشى) أو (سرأوبا) لقطعان غيره بحيث أن الرعاة يعتبرون مستأجرين من قبل الأول الذي وافق على قبول قطعان غيره مقابل اجور محددة تحتسب تصاعدياً حسب أعداد الماشية التي يملكها كل واحد منهم. ويبدو أن هذا الشكل من (الأوبا) الذي له رئيس معلوم هو النوع الأكثر إنتشاراً في الحالات الاعتيادية.

اننا هنا نضع جانباً القسم المتعارض من شرح فيلجيفسكي مع نظرية بيكزاروف وهو باحث آخر اهتم بموضوع الأوبا حوالي العام ١٨٨٥ ويعتبره تنظيما مبنياً على الأسرة الواحدة. يقول بيكيزاروف: "يعتبر المجتمع الكردي مجتمعا بطرياركيا ديمقراطياً يجتمع فيه جميع اعضائه، أغنياء كانوا أو فقراء، بحقوق متساوية. والفرق الوحيد بينهم هو ان الأسر النبيلة والغنية بينهم تتمتع باحترام كبير وثروة ازيد".

وعلى العكس من بيكيزاروف، يعتقد فيلجيفسكي أن مرحلة البطرياركية ذات العائلة الواحدة قد ولت تحت تأثير النظام الإقطاعي، وأن المجتمع الكردي غدا الآن في معرض الاختلافات الاجتماعية، وأنه يحمل الآن في أحشائه بذور الصراع الطبقي".

اننا لا نريد أن نتخذ لنا موقفاً من وجهتي النظر المختلفتين هاتين، ولكننا نقول لا يمكن لنا أن ننكر بقاء دور الآغا وسلطته المنتقلة إليه وراثيا. ويقر مينورسكي بأن استغلال الآغا لأتباعه امر غير قابل للإنكار، رغم أنه قد خف نتيجة تعلق هؤلاء برؤسائهم والعلاقات البطرياركية التي تربطهم معا. إلا أن الاستاذ الملا سعيد الذي درسنى اللغة الكردية لم يخف عني مشاعره غير الطيبة تجاه الشيوخ والآغوات، وكان ينتقدهم لأنهم يعملون لابقاء الجماهير غارقة في الجهل ليسهل لهم استغلالهم، وكان يرى أن مكائدهم وعملهم لمصالحهم الشخصية تعيق تقدم الشعب الكردي وتطوره. وهذا الكردي الحقيقي (أي الملا سعيد) كان ينتقد أيضاً جميع زعماء شعبه ويقول انهم بمجرد أن يشقوا طريقهم ويمسكوا بعتلة القيادة، يسرعون إلى اختلاق الأنساب لأنفسهم ليثبتوا أنهم ليسوا

كردا بل عرب، وكان يعبر عن احاسيسه بهذا الخصوص بصورة تعريضية واستهزائية ويقول "كل من يصبح بيكا يعلن وينشر بين الملأ أنه (عباسي) أو (علوي) أو (خالدي) أو ينتسب إلى فلان أو من أحفاد علان ويختلق ألف تحفظ بشأن نسبه الكردي!". هكذا كان يحدثني أستاذي الذي كان مسلما حقيقياً ذات معرفة واسعة بالتاريخ ويعرف الكثير من الأحاديث النبوية، وكان يقول أنه يجب أن يطبق على هؤلاء الناس الذين خلقوا ظروفا لاستغلال طيبة الكرد لمصالحهم الآنية حديث الرسول محمد (ص) "اتَّقِ شر من أحسنت إليه".

ولكن تبقى هناك حقيقة صارخة هي ان فيلجيفسكي نفسه يقول في معرض حديثه عن الإقطاع أن هذا النظام ساعد على إبقاء كردستان بمنجى من مطامع الغزاة الأجانب ومكنها من أن تحافظ على شخصيتها. إلا أن كردستان لن تتمكن من أن يتحول شعبها إلى أمة ويقيم دولة خاصة به، ما لم تجتز هذه المرحلة من حياتها.

ومن اجل العودة إلى الحديث عن نظام الأوبا، نشير إلى أنه حسب الإحصاءات الدقيقة لفيلجيفسكي كان رئيس الأوبا يعمل لرعي مواشيه بدون أن يكلفه ذلك شيئا ويوزع حصته من الأجور التي عليه أن يدفعها للرعاة، على بقية أعضاء الأوبا، وبذلك كان ينتفع من المرعى المشترك. ونظرا لأن استئجار الرعاة يستلزم نفقات كثيرة، كان رئيس الأوبا يتحول بالفعل إلى مالك للمراعي، التي تعود في الواقع إما للقرية أو العشيرة بأكملها. وهكذا كان يقبل في قطيعه بصفته رئيساً للأوبا أغناما ومواشي تعود لبعض معارفه من سكان القرية مستفيداً وحده من الأجور التي يتلقاها منهم. ومن أجل ان يحقق منافع أكثر لنفسه، كان يستبعد تدريجيا من الأوبا عدداً من أعضائه ويرفض قبول مواشيهم ضمن قطيعه.

إن ازدياد دور رئيس الأوبا بهذه الأهمية يعود بوجه خاص إلى ازدياد دور التجارة في الاقتصاد الطبيعي لرعاة المواشي في كردستان وبروز نشاطات التجار الداخليين. وفي الوقت نفسه كان يتعذر على الطبقات الأشد فقراً من الفلاحين الكرد الاستمرار في استثمار

مزارعها الصغيرة، فتلجأ إلى بيعها والعمل كعمال أجراء، وهذا ما كان يؤدي أكثر فأكثر إلى بروز ظاهرة الرأسمالية في المجتمع الكردي وإضعاف العلاقات الإقطاعية.

ان اتباع سياسة مركزية من قبل كل من الحكومتين الإيرانية والعثمانية وابتلاع الإمبراطورية الروسية لبعض المناطق التي يقطنها الكرد، قوض من السلطة العسكرية للإقطاع في كردستان الذي كان يعتمد على الأفواج المسلحة للعشائر التابعة، ليحل محلها الجيش النظامي للدول المركزية. وقد حرم السبب نفسه الإقطاع الكردي من ركيزته الاقتصادية والسياسية، ألا وهي استغلال السكان المستقرين المحيطين به.

وهكذا اضمحلت شيئا فشيئا العشيرة والبنية الاجتماعية والاقتصادية الكردية خلال القرن التاسع عشر، وأخذت كردستان تخطو نحو مصير جديد نبحثه في الفصل الآتي المكرس للحركة الوطنية الكردية.

ملاحظات

كان عملي في هذا المجال قد انتهى عندما صدر كتابان جديدان جلبا انتباهي. أولهما مؤلَّف بيتروشيفسكي باللغة الروسية حول العلاقات الإقطاعية في أرمينيا وأذربيجان منذ القرن السادس عشر حتى بداية القرن التاسع عشر، الذي كثيراً ما أشار إلى النظام المالي للعشائر الكردية (الصفحات ٢٩١، ٣١٠، ٣١٥، ٣٣٢، ٣٣٥). أما الثاني فهو مؤلف السيد عمر لطفي باركان الذي صدر باللغة التركية ويتضمن مجموعة من النصوص التشريعية المتعلقة بالاقتصاد الزراعي من وجهة النظر القانونية والمالية. ونجد فيه معلومات تخص العشائر الكردية في القرنين الخامس عشر والسادس عشر (نشر الكتاب في استنبول عام ١٩٤٥). لم يكن بوسعي الاستفادة من تلك الوثائق في مؤلفي هذا فلم يبق أمامي سوى الاشارة إليها، وهي على كل حال لا تغير من ملاحظاتي. ويجب القول حسب ملاحظات بيترو شيفسكي: أن العشائر الرحل كانت مستفيدة من وجهة النظر المالية فيما لو قارنناها بالحضر، ولكن بالمقابل كانت الاستعانة بها عسكريا كثيرة الوقوع. ويشير بيتروشيفسكي أيضا إلى بعض الانتفاضات التي اندلعت في الحقيقة بسبب الضرائب الثقيلة المفروضة على السكان.

الفصل السابع

العشائر في الزمان والمكان

أولا - تاريخ العشائر

إذا أردنا استعراض العشائر الكردية عبر الزمن، وجب البحث، كما عملنا في الفصل الأول من هذا الكتاب، عن اصل هذا الشعب. وهذا من شأنه أن يؤدي بنا إلى التطرق، إن لم يكن إلى الفترة السابقة للتاريخ، فعلى الأقل إلى عصور التاريخ. الأمر الذي سيؤدي بنا إلى الخوض عميقا في العصور القديمة لهذا الجزء من آسيا. وحيث أننا، إذا استثنينا النتائج المهمة التي حصل عليها علماء الآثار في الحقول الآشورية والبابلية والعيلامية والخالدية، تبقى معلوماتنا غير كافية عن البقعة الجبلية لهذه المناطق نظرا لوعورتها، والتي تشكل، كما نعرف، الموطن الخاص بالشعب الكردي. ما يزال هناك حقل واسع لم ينقب عنه بعد من جانب العلماء. وكما قال العالم الأثري ديكسون الذي زار تلك المناطق، إن هناك بلاداً قليلة في العالم يوجد فيها هذا القدر الكثير من الآثار والحصون والقلاع القديمة، الذي يوجد في كردستان التي تعتبر فردوساً لعلماء الآثار. وقديماً وصفها (سرجون[1]) عندما احتلتها جيوشه الغازية، بأن صخورها الكثيرة المتراكمة وقممها العالية تبدو كخناجر موجهة نحو السماء. وتوجد في معظم هذه القمم آثار خرائب تعود لمختلف الحقب، منها ما تعود للكرد والآشوريين والخالديين (الأورارتيين) وحتى لعهود ترجع لما قبل التاريخ. وفي أماكن كثيرة نجد كتلاً من البنايات العتيقة الفسيحة والضخمة التي تبدو للناظر لأول وهلة أنها مجرد صخور بسيطة، ولكنها استقرت في أماكنها بصورة يتحقق المرء من أنها من صنع الإنسان، أو من عمل المردة والعفاريت (ديو) كما يقول أهل البلاد. وتوجد في الوديان الخضراء في (نوردوز) التي تقع جنوبي جبال آرنوست مباشرة، خرائب وآثار من طراز واحد. إنها أبراج وحصون للأقدمين. وقد كتب ديكسون أنه وجد أطولها منتصبا على مقربة من قرية سات في منطقة (هركى - أورامر)، بينما يمتد واحد آخر اكثر شموخا فوق سلسلة مرتفعة من جبل الجودي. إن هذا الجبل، بالإضافة إلى المنطقة التي تسمى (فينك)، أي (بيناكا)

---

[1] المقصود هو سرجون (ساركون) الثاني وهو الملك الآشوري الذي حكم من ٧٢٢ حتى ٧٠٥ ق.م وساق جيوشه لاحتلال مصر وأرمينيا وكلده. عن الترجمة الفارسية للكتاب - المترجم

القديمة، يشكلان متحفا حقيقياً لعلماء الآثار لأنهما يحتويان على كل أصناف الآثار القديمة منذ عهود الكهوف، وسكانها حتى الآثار الكردية المشّيدة باللبن مع آثار وسيطة، تعود للآشوريين والفرس والإغريق والرومان والعرب والسلاجقة. اما على جبال الجودي الصخرية وفي أغوار أودية الجنوب، فنجد آثارا آشورية عديدة وصخورا منحوتة ونقوشا وكتابات أهل البلاد ينسبون هذه كلها إلى (سنحاريب)، ربما لأنه الملك البابلي الوحيد الذي ورد اسمه في التوراة. وتوجد أيضا على قمة الجبل أربعة قبور حجرية نقش الأقدمون على عمدتها خطوطا مسمارية، وتقف هذه الأعمدة على اربع ركائز أصلية وتتجه كل واحدة منها إلى إحدى الجهات الأربع. انهن اليوم مهدمات، وقد أقيمت في مكان يصعب كثيرا الوصول إليه لالتقاط صورة للأعمدة.

لقد كانت كل من (جزيرة) و (مكس) في عهد (ديوكلسين) مراكز رومانية متقدمة وماتزال آثار الاحتلال واضحة فيهما من طرق وقلاع ويراها السائح عندما يمر بتلك الديار. وتوجد في وادي (خيزان) البديع قلعة يبدو أنها رومانية وفي حالة جيدة. ويحتمل كثيرا أن (خيزان) كانت عاصمة الإقليم الروماني (موكسين) الذي كان يقع بين الدولتين المتجاورتين، أرمينيا وبلاد ما بين النهرين. إن هذه الخرائب من بقايا قلعة حصينة تبلغ مساحتها ٢٥٠ م^2. وتوجد فتحات في جدرانها نصف الدائرية ومربعة الشكل تبلغ المسافة بين كل اثنتين منها حوالي ٦٠ قدما، وهي اكثر ارتفاعا بالنسبة إلى جدران القلعة. وهناك آثار أخرى سلجوقية منتشرة في المنطقة شيد الكرد مساكنهم على أنقاضها.

إن الدراسة العميقة للآثار القديمة في كردستان التي أشار إليها البروفيسور (ديكسون) يمكن ان تلقي أضواء على تاريخ الشعب الكردي في الفترات السابقة على التاريخ وما بعده. وفي الحقيقة أصبح بإمكان الباحثين التطلّع إلى معرفة هذا التاريخ بعد أن درس العلماء الروس آثارا مماثلة في منطقة القفقاس فتوصّلوا إلى نتائج ذات طابع اجتماعي حول تركيب هذه المناطق إبان عهد الاحتلال الخالدي في القرن الثامن والقرن السابع قبل الميلاد، وهذا ما يسمح لنا بأن نفترض عن طريق المقايسة بعض الافتراضات حول التنظيم السياسي والاجتماعي للناس الذين عايشوا الآثار القديمة للأوراتو الذي يضم جزء من كردستان الحالية. إن الآثار الأركيولوجية والكتابات المسمارية الخالدية تؤكد وجود جماعات في تلك

المناطق كانت تعيش بصورة مستقلة ومنفصلة عن الأخرى، ويرأس كلا منها رئيس يدعى (إيبان أو ايشان). وقد يصادف المرء أسماء بعض العشائر في تلك الكتابات، غير أن هذه الكتابات تتحدث في الغالب عن الفتوحات أو عن أسر سكان البلاد أو إحدى المدن. لذلك يفترض البعض عدم وجود العشائر في منطقة القفقاس خلال تلك الحقبة الزمنية. كانت تربية المواشي تأتي في المرتبة الأولى في بنيتها الاقتصادية. إن الكتابات الخالدية لا تتحدث إلا عن الرجال والمواشي كأسلاب حرب. إن القلاع والحصون وجميع الأماكن المسكونة القريبة بعضها من بعض، كانت تعود لشعب يمتهن الرعي. ونظرا لأن هذه الأماكن المأهولة كانت دائما عرضة للغزو من قبل الجيران، كانوا يحيطونها بسور ضخم من الحجارة. ويلاحظ أن مقر إقامة الرئيس كان يقع على حدود الحصن، وكان للرئيس عدد من المقاتلين يأتمرون بأوامره، وهو وإن كان لا ينتمي لطبقة غير طبقة الناس الذين من حوله، إلا أنه كان يختلف عنهم. إن القبور الملكية القفقاسية لا تختلف عن قبور سائر الأفراد الآخرين، وهي على غرار قبور الـ (سيت) الرحل. وهذه القبور هي التي جعلت العلماء يفترضون وجود العبودية في تلك الحقبة لأن نقل قطع القبور الضخمة كان يتطلب جهودا كبيرة لا يقوم بها إلا العبيد. ولا يوجد لدينا دليل يشير إلى وجود الملكية الخاصة في المواشي، وهذا ما يجعلنا نعتقد أن التملك الخاص للرئيس للمواشي والدواب كان السبب الرئيسي الذي أدي إلى تفكك الجماعات وتشتتها. باختصار إن التركيبة الاجتماعية للكرد كانت تبدو شبيهة بمجتمع قديم في مرحلة التطور، وهذا التحول هو الذي أدى إلى ظهور النظام الاقطاعي[٢].

وهكذا، ومنذ ذلك التاريخ السحيق في القدم، ألقت حذاقة علماء الآثار المستندين في تفسيراتهم على تلك البقايا التاريخية، نوراً على العلاقات الاجتماعية التي كانت موجودة آنئذ. وقد تنورنا بالرسائل نفسها حول المجتمع الكريتي الذي بدت دراسته لنا أكثر صعوبة لاستحالة قراءة الكتابات الكريتية (التي أمكن قراءتها فيما بعد). وينبغي على علماء الآثار أن يضاعفوا نشاطاتهم ووجودهم في كردستان ليزودونا بمعلومات وافية عن

---

(٢) كانت آثار كردستان مجال دراسات وتنقيبات أجراها عدد من علماء الآثار نذكر منهم (ليهمان هوبت) و (بيلك) و (ستريك) و (بيلربيك). أما الميديون فقد درسهم باسهاب (دياكونوف).

أسلاف الشعب الكردي لاسيما في مناطق دجلة العليا وجبال طوروس الجنوبي حيث يتفق الجميع على أنها كانت موطنهم الأصلي.

تدلنا أحيانا ملاحظة دقيقة تتعلق بالحياة المادية الراهنة على الوقوف على الأعراف التي كانت سائدة فيما مضى. فعلى سبيل المثال يخبرنا (ميللينكبن) كيف أنه اكتشف في كردستان وجود صهاريج طينية معدة لحفظ الخمر شبيهة تماما بالتي وصفها (زينفون) في كتاب (أناباس). وقد كان (ميللينكن) على حق عندما وصف اكتشافه هذا بالعبارات التالية: "إنه لحدث تاريخي كبير يسترعي الانتباه أن نجد في أيامنا هذه بين شعبي كردستان وأرمينيا الأعراف والعادات الخاصة نفسها التي كان يسير عليها أسلافهما. إن ذلك يدل على أن الأمم التي تقطن الجانب الأخر من الكرة الأرضية تعيش كولايات كاملة، في حين أن الأمور بقيت تقريبا على أحوالها في الشرق الذي مايزال ينعس. في كل مرة يأتي مذهب ويزيل سلطان مذهب آخر، ويأتي فاتح جديد ويقضي على سلطات فاتح غيره ويجبر ثالثا على الخضوع لسيطرته. إن الميديين والأرمن والكاردوخيين ما برحوا على الطابع القديم الذي كان يتصف به أسلافهم. ومثل ما هو في الجيولوجيا، تظل بقايا مطرزة في الأرض تتحدى عوامل الزمن المدمرة والتحليل الكيماوي، كذلك توجد في تاريخ الأمم أعراف وتقاليد هي بمثابة بقايا مطمورة في التاريخ تبقى صامدة رغم توالي الكوارث الاجتماعية وتفكك الأجناس.

ويعود المؤلف نفسه إلى مناسبات أخرى، إلى (زينفون) والكاردوخيين في وصفه، مثلا، للمنزل الكردي الذي كان يستخدم جانب منه إصطبلا، إو في استغرابه للسرعة التي كان الرعاة الكرد يتناقلون بها الأخبار فيما بينهم ويستدركون الخطر الداهم (تماما كالكاردوخيين في عهد العشرة آلاف). وقد أبدى الملاحظة نفسها (ليهمان هوبت).

إننا واثقون من أنه كلما تقدمت الأبحاث الأثرية والأثنولوجية العميقة في المناطق الكردية، تمكّن من سد النقص التاريخي والخلل الذي ما يزال يكتنفنا حتى الآن، ويمتد من الخالديين (القرن الثامن إلى السابع قبل الميلاد) والسيرتويين (القرن السادس قبل الميلاد)

والكاردوخيين (القرن الرابع قبل الميلاد) والكاريتوايا من التاريخ السوري (القرن الرابع بعد الميلاد) من جهة، والعشائر التي عرفتنا بها المصادر الإسلامية من جهة أخرى.

وكم من حوادث وتقلبات يقدمها لنا مشهد كردستان التاريخي على مر الزمن! وكما يشير إليه (شارموا) في مقدمته لترجمة كتاب (شرفنامه)، إن القسم الجنوبي الشرقي لكردستان الوسطى احتله بالتتابع كل من السلالة الملكية الأرمنية لـ (هايكان) الذين كانوا تابعين للاخمينيين ثم الاسكندر الكبير ثم (الأرساسيد) الأرمن ثم اسكندر بن مارك انطونيوس و كيلوباترا ثم الأرساسيد والأرمن الخاضعين حينا للبارثيين، وحينا آخر للرومان، ثم للساسانيين في عهد أردشير و شابور، ثم للإمبراطورية الرومانية في عهد (كالير) حتى (جوفيان)، ثم الساسانيين مرة أخرى، ثم للإمبراطور البيزنطي (تيودور)، ثم للأرساسيد الأرمن التابعين للساسانيين، ثم للبيزنطيين مرة أخرى، وأخيرا للعرب، ثم للأمراء الأرمن (الأرتزروني) الخاضعين للعرب، ثم للأمارة الكردية المروانية المستقلة الأولى التي حكمت للفترة من ٩٠٠ إلى ١٠٩٦، وقد خلفتها سلالة (شاهارامين) من ١١٠٠ إلى ١٢٠٧ في اخلاط و ديار بكر و أرضروم، بينما كان الشداديون (وهم سلالة كردية أخرى) كانوا في (آنى) في القفقاس للفترة من ٩٥١ إلى ١٠٨٨، وهي الفترة المعاصرة للمروانيين. ثم يأتي بعدهم من جديد الفاتحون الشرقيون الواحد بعد الآخر. ففي القرن الثاني عشر ظهر السلاجقة الذين بلغت جحافلهم غابات (خوردن) الذي يطلق عليه حاليا اسم (درسيم) - ولكنهم تراجعوا أمام (فيلاريت فاراجنوري) الحاكم البيزنطي. وكان السلاجقة يقطعون الأمراء الكرد المقاطعات الواسعة ليصبحوا تحت أمرتهم. وقد عزلوا الأمراء الشاديين في (كنجه) وتنازلوا لهم عن (آنى). ثم اضطر الكرد إلى محاربة المغول، في البداية ضد هولاكو في القرن الثالث عشر، ثم ضد تيمورلنك حوالي سنة ١٤٠٠. وكانت أسوا فترة بالنسبة لكردستان في عهد أمراء العمادية. وفي القرن الرابع أتت دفعة كردية من شمالي بلاد ما بين النهرين باتجاه أرمينيا الجنوبية وسلاسل زاگروس. وفي القرن الخامس في عهد (قره قوينلو) و (آق قوينلو) التركمان، زوج أمير بدليس بنته من قره يوسف، فأصبحا حليفين، ولكن في عهد (أوزون حسن) من الـ (آق قوينلو) تعرضت المدن الكردستانية (حصن كيف) و (بدليس) و (جزيرة) و (هكاري) للاحتلال للفترة من ١٤٦٠ إلى ١٤٧٠. وأخيرا

وفي القرن السادس عشر، جاء الغزاة الجدد من الغرب وهم الأتراك العثمانيون. ومنذ سنة ١٥١٤، بعد انتصار الترك على الفرس في موقعة جالديران في الشمال الغربي من بحيرة أرومية، غدا مصير كردستان مرتبطا بالترك العثمانيين.

إن هذا التعداد السريع للأسماء والحقب التاريخية المعروفة في تاريخ آسيا القديمة يكفي لنثبت للقارئ مدى توسع التاريخ المتنوع الجدير باهتمامنا بشغف بالغ. إن التاريخ الكردي مايزال بحاجة ماسة إلى الدراسة والبحث.

ثانيا - توسع الكرد مكانياً:

لا شك في أن القارئ اطلع في الفصل الثاني من هذا الكتاب، بما يكفي، على الرقعة المكانية التي يعيش عليها الشعب الكردي. ويكفي هنا أن نلخص القول بأن الكرد انطلقوا من موطنهم الأصلي في (ميديا) ، ثم تحركوا عبر العصور والدهور في كافة الاتجاهات، بحيث أن أقصى نقطة وصلوا إليها غربا هي اليوم في حوالي انطاكية وحلب. أما من جهة الشرق فنجدهم في خراسان على حدود أفغانستان، حيث أبعدوا إلى هناك في عهد الشاه عباس الكبير ونادر شاه أفشار. وتوجد أيضا مجموعات كردية لم تدرس حالتهم كما ينبغي، وهم يعيشون بين التركمان في (أترك). اما كرد الشمال، وقد استترك جزء منهم، فهم المتمركزون في أذربيجان السوفيتية الذين يقطنون في اقليم (أويزد) الذي تشكل عام ١٩٢٣ مع المقاطعات التي ألحقت به، وهي (شوشه) و (جوانشير) و (كوباتلي). إن هؤلاء الكرد ينحدرون من الجماعات التي خاضت غمار الحرب التركية-الفارسية سنة ١٥٨٩. وأخيرا في الجنوب، يشكل طريق كرمانشاه أبعد حدود لهم.

ليس بوسعنا هنا تعداد العشائر الكردية كلها، لأن أعدادها كثيرة ومبعثرة من حيث الزمان والمكان ومقسمه حاليا بين خمس دول هي تركيا وإيران والعراق والاتحاد السوفيتي[٣] وسوريا. إن أسماء وأحيانا مواطن هذه العشائر وأعرافها وتقاليدها تغيرت خلال الحقب

---

[٣] حاليا جمهوريات أرمينيا وأذربيجان وجورجيا. كما توجد مجاميع منهم في بعض جمهوريات آسيا الوسطى - المترجم.

والقرون تغيرات كبيرة. وقد قدم لنا (شرفنامه) الذي كتب في القرن السادس عشر، القائمة الأولى للعشائر الكردية في ايران والدولة العثمانية. وقبل هذا التاريخ نجد في بعض الكتب التاريخية والجغرافية الإسلامية إشارات عرضية لبعض العشائر التي كانت تتمتع بدور مهم في تاريخ آسيا القديمة، إلا أن (شرفنامه) يظل الكتاب الذي يقدم لنا المحاولة الأولى في عرض المعلومات بصورة منتظمة في هذا السياق. وحسب هذا الكتاب، يقسم الكرد إلى أربعة فروع أساسية: (١) الكرمانجي، (٢) اللر، (٣) الكلهر، (٤) الگوران [٤]. يقطن الكرمانج في المنطقة الممتدة من بحيرة (وان) حتى إقليم أردلان في ايران. أما الگوران فانهم يكونون الطبقة الفلاحية في اقليم اردلان بالإضافة إلى بعض العشائر الرحل في جنوبي أردلان وشمالي غربي كرمانشاه. وفي الجنوب من الگوران، نجد الكلهر، وفي الجنوب من هؤلاء يقيم اللر الذين يتكلمون لهجة خاصة بهم، ولا يعتبرهم بعض المستشرقين من الكرد.

وحوالي عام ١٨٥٦ قام (ليرخ) ، الذي نوهنا عن كتابه في الفصل الأول من هذا الكتاب، أثر دراسات دقيقة اعتمدت على مصادر اوروبية وشرقية استطاع الاطلاع عليها في حينه، بتدوين قائمة بأسماء العشائر الكردية في كل من تركيا (الدولة العثمانية) وايران وروسيا

---

(٤) يشير (ب. روندو) — (وهو مستشرق وكوردولوجي معروف، التقيته مرات عديدة في أواسط الستينيات وأواخرها، وكان يدير المعهد الخاص بالدراسات الآسيوية والأفريقية التابع لجامعة باريس). المترجم - في دراسته القيمة التي أشرنا إليها مرارا، إلى موضوع التعريف بالفروع الصغيرة للعشيرة ضمن التقسيم الثنائي للكرد إلى (ميل) و (سيليف). إنني لا أعتقد بصحة هذا التقسيم الكلاسيكي، كما يقول روندو، ذلك أن هناك فروعا أخرى. وقد ذكروا لي أربع فروع أساسية أخرى هي (اللر) و (الكلهر) و (السوران) و (الگوران) حسب اللهجات التي يتكلمون بها. ومع ذلك فإن روندو على حق في جذبه لانتباهنا حول هذه النقطة الكوردولوجية، إذ يقول: "في الحالة الراهنة للبحوث المتعلقة بالشعب الكردي، مايزال ينقصنا الخيط الأساسي. ويمكننا مع ذلك أن نشير إلى المعلومات التي قدمها إلى (السير مارك سايكس) وغيره من الباحثين رؤساء عشيرة (ميللي) حول (ميلان) و (سيليفان) أو (زيلان). حسب هذا المصدر ينبغي أن ننظر إلى (ميلان) و (زيلان) كجماعتين مختلفتين من الأصل. وقد تطورتا بشكل مختلف ومتميز تماما. لقد أتى (زيلان) من الشرق وظلوا خشنين ورحلا في أعالي الجبال ومتعلقين بالتقاليد الكردية القديمة. أما (ميلان) فإنهم يدعون انهم من أصل عربي. وهم أكثر نعومة وأكثر نفوذا، وهم ينقسمون بدورهم إلى (كانورى) و (بانورى) بسبب الخلافات الداخلية التي نشبت بينهما. وقد تفرع عن المجموعة الأولى عشائر (هه سينان) و (حيدران) .. الخ في أعالي كردستان. بينما تفرع عن الثاني الكونفيدرالية العشائرية لـ (ميللى).

في حوالي ٦٠ صفحة من مؤلفه (من ص ٦٣ إلى ص ١٢١). ومنذ ذلك التاريخ لم يقم أي باحث آخر بما يشبه هذا العمل، ما عدا البريطاني (مارك سايكس) في دراسته باللغة الانكليزية التي تحمل عنون (العشائر الكردية في الإمبراطورية العثمانية)، وقد أعدها عام ١٩٠٨ بعد جولة طويلة في أنحاء كردستان ودون فيها قوائم بأسماء تلك العشائر على خارطة تمثل آخر إيضاح للموضوع. وهناك أيضا خارطة روسية نشرها الكولونيل (كارتسيف) عام ١٨٩٧، إلا أن معلوماتها في بعض الأمور أقل من معلومات خارطة (سايكس). ويجب الإشارة أخيراً إلى الدراسات الخاصة بمختلف الأقاليم الكردية التي نشرها (مينورسكي) في (دائرة المعارف الإسلامية). ويعطي هذا المؤلف معلومات قيمة عن العشائر الكردية القاطنة في منطقة الحدود العثمانية - الإيرانية التي تسنى له دراستها بوصفه مندوب روسيا في لجنة تحديد الحدود بين الدولتين عام ١٩١٤. وقد أدرجت هذه المعلومات ضمن الأضابير السرية لوزارة الخارجية الروسية،لذلك يتعذر الاطلاع عليها[٥].

ونظرا لاستحالة تلخيص هذه الوثائق الوافرة، ولو بصورة موجزة، نكتفي بسرد الوقائع المهمة، مستعينين بمعلومات (سون) التي نكملها ونعدلها عند الحاجة بمعلومات مستقاة من مصادر أخرى.

(أ) عشائر كردستان الوسطى (تركيا):

عندما نتوجه بادئ ذي بدء صوب وسط كردستان القديمة نحو بدليس ومنطقة (هكاري) حيث أعالي الزاب الكبير والجبال الممتدة جنوبي بحيرة (وان) حتى دجلة وجزيرة ابن عمر، نجد عشيرة هكاري حيث استطاع رجالها المعروفون باطلاعهم الواسع على التاريخ، الهجرة شمالا والوصول إلى بايزيد، فغدت هذه المدينة بأكثرية سكانها منهم، كما وصلوا، من جهة

---

[٥] يعطي (رابينو) في كتابه (تقرير عن كردستان) عام ١٩١١ باللغة الإنكليزية قوائم عديدة بعشائر (أردلان). كما أن الجريدة الكردية التي كانت تصدر في بيروت باسم (روزانو - اليوم الجديد) نشرت في الأعداد ٦١ إلى ٦٨ لعام ١٩٤٦ قوائم كاملة بأسماء العشائر الكردية في كل من تركيا والعراق وإيران. وأخيراً نشرت قوائم منتظمة بأسماء تلك العشائر في الجريدة الإيرانية (بختيار) التي كانت تصدر في طهران (راجع "المشرق والمغرب" عدد ١٥ حزيران ١٩٥٤. الوثائق الفرنسية. رئاسة مجلس الوزراء) باللغة الفرنسية.

أخرى، إلى رواندوز جنوباً وصار لهم أمراء فيها. وبعد أن فتح تيمورلنك ديار بكر في القرن الرابع عشر، عين الأمير قره عثمان حاكما لمقاطعة هكاري. ولما رأى هذا الأمير أن فتح هذه البلاد الجبلية صعب للغاية، تزوج من ابنة أحد كبار اقطاعييها تقربا منهم، وبذلك استطاع التقرب من العشائر المحلية. وعندما ضعفت سلطة تيمورلنك في كردستان، صار هذا الأمير كرديا حقيقيا في تفكيره وسلوكه، وأعطى أحفاده نضارة جديدة للأسرة الحاكمة في هكاري واتخذو لأنفسهم لقب الأمير. وفي بذخ كبير ثبتوا سلطتهم في بدليس واستمروا فيها حتى القرن التاسع عشر.

هذا ملخص ما يقوله (سون) بصدد هكاري. ولكن هذه الرواية تختلف تماما عما جاء في كتاب (شرفنامه) الذي نفضل المعلومات الواردة فيه على رواية (سون). لقد كان (سون) يعرف جيدا الكرد في منطقة السليمانية و أردلان والكرد الذين يقطنون الجنوب، ولكن معلوماته بصدد الكرد في الشمال غير أكيدة. إن رؤساء عشيرة هكاري الذين طردهم الأتابكيون من العمادية في القرن الثالث عشر، وبالتحديد ١٢١٨ كانوا قد اتخذوا لهم مقرا في (جوله ميرك) الواقعة على نهر الزاب الأعلى، وكانوا يدعون الانتساب إلى العباسيين. إن أول أمير من هذه الأسرة ورد ذكره في (شرفنامه) هو عز الدين شير الذي حاول الوقوف بوجه تيمورلنك في قلعة (وان) عام ١٣٨٧، وليس من الصحيح مطلقا أن شخصاً يدعي قره عثمان قد حل محله، كما يدعي (سون)، وليس من المعلوم من أين أتت هذه الرواية. لقد انتزعت السلطة من هذه السلالة الأولى لحكام هكاري وحلت محلها عشيرة (دونبولى)، غير أن أسرة اخرى من الأمراء المحليين تسلمت الحكم بواسطة النسطوريين وأخذت لقب (شامبو)، وقد توسعت سلطة هذه الإمارة شمالا حتى مقاطعة (ألباك) وعاصمتها (باش قلا) ، وكان آخر ممثل لها نور الله بيك الذي انتزعت منه السلطة من قبل الترك. وفي عام ١٨٤٥ خضعت (باش قلا) للسلطة العثمانية بواسطة (حليمه خانم) التي استسلمت لهذه السلطة.

أما فيما يتعلق بأمراء بدليس، فكانوا يدعون، دونما وجه حق، انهم ينحدرون من سلالة الساسانيين، وان عشيرتهم كانت تدعى (روزيكي) وتضم ٢٤ فرعا. ويجب ان نأخذ بعين الاعتبار ما سبق ان قلناه في الفصل السادس من هذا الكتاب، من أنه يجب عدم الخلط بين

الرئيس الاقطاعي والعشيرة. يحتمل ان يحكم رئيس اقطاعي عشائر عديدة يمكن ان تكون كردية أو استكردت او مسيحية، فهو لا يعتبر رئيسا عشيريا للعشيرة التي ينتمي إليها والتي تجهزه في الغالب بالمقاتلين المسلحين بالقدر الذي يكون ضروريا له لممارسة سلطاته. ويحتمل أن لا يكون هذا الرئيس الاقطاعي كرديا، كما رأينا بالنسبة لسردار (أريوان) الذي كان قاجاريا. أما أمراء بدليس فكانوا يحملون اسم (ساراس بيكي) وكان لديهم في مدينة بدليس قلعة ملكية حقيقية، وكان بإمكانهم إعداد جيش يصل تعداده من عشرين ألف إلى خمسة وعشرين ألف خيال، وكان كل من السلطان العثماني والشاه الفارسي يتوددان إليهم ويرغبان في إقامة العلاقات الحسنة معهم، نظرا للموقع الاستراتيجي لبدليس وهيمنتها على الطريق الموصل بين حلب وطوروس.

ومنذ نهاية القرن السابع عشر، كان كل أمير جديد من هذه السلالة يقدم على سبيل المجاملة هدية صغيرة إلى الباب العالي[٦]، وقد صار هؤلاء الأمراء أقوياء بدرجة أنهم كانوا يوقعون اتفاقيات حكيمة مع أمراء وبيكات جزيرة ابن عمر و العمادية و (جوله ميرك) وراوندوز الذين كانوا ينتمون إلى عشيرة هكاري. من المحتمل ان يكون (سون) على حق فيما يتعلق بأمراء العمادية و (جوله ميرك)، غير أن الجزيرة و راوندوز كان لهما أمراؤهما الذين كانوا يحكمون إمارتيهم مستقلين عن كل اثر لسلطة أجنبية، وغير مبالين بأطماع الإمبراطوريتين الفارسية والعثمانية في بقاعهم التي يصعب الوصول إليها. وفي ظل حكم هؤلاء الأمراء تحولت بدليس إلى مركز مهم وقوي في المنطقة. ويعزى إلى الادريسي، الوزير اللامع للسلطان سليم، وهو كردي من هكاري، امتداد نفوذ أسرته وسلطتها إلى هذه البقاع الكردية الواسعة.

---

(٦) لينيج. أرمينيا. رحلات ودراسات (باللغة الإنكليزية)، ج ٢، ص ١٩١ و١٩٢.

عشائر كردية في أرمينيا:

يمكننا القول بوجه عام ان زوال النظام الاقطاعي في الدولة العثمانية ووهن سلطة البكوات الترك فتحا مجالا جديدا أمام الكرد وبخاصة أمام هؤلاء الذين استقروا بأعداد كبيرة في أرمينيا، بفضل القرار الحاسم الذي اتخذته سياسة الحكومة التركية في هذا المجال. فبعد الانتصار الحاسم على الفرس في سهل (جالديران) عام ١٥١٤ نقل الادريسي عشيرة (حيدرانلو) والعشائر المرتبطة بها إلى الشمال، إلى أرمينيا على طول الحدود الجديدة بين الدولة العثمانية مع إيران وجورجيا، بغية الدفاع عن هذه الحدود. وقد أعفيت هذه العشائر من الضرائب بشرط أن تكون شيئا شبيها بالحرس الدائم لخدمة الدولة العثمانية. ومع ذلك فإن موقف الكرد كان مبهما خلال الحروب التي نشبت في الأعوام ١٨٢٩ و ١٨٥٤ و ١٨٧٧، وبذلك خيبوا الآمال التي علقها عليهم الأتراك[٧]. ونحن نتساءل: هل تعد هذه الحقبة تاريخا لبدء الاستيطان الكردي في أرمينيا؟ يعتقد مينورسكي أن الكرد انتشروا في الشمال في عهد يسبق كثيرا هذا التاريخ، لكونهم رحلا في البداية، ثم لأنهم كانوا أنصارا للإسلام وأرادوا الضغط على المسيحيين. إننا نعرف أن أجداد القائد الكردي صلاح الدين الأيوبي كانوا من عشيرة (روند) التي كانت ترتحل حوالي القرن العاشر قرب (دفين) ، وهي منطقة قريبة من (اريوان). كما ورد في (شرفنامه) أن عشيرة (روزيكي) انتزعت بدليس و (خازو) من أحد الأمراء الجيورجيين وكان يدعى داود. وحسب المصدر نفسه، أن قيام السلالة الكردية في بدليس حدث في سنة ٨٣٧م. وحتى لو اعتبرنا ان هذا التاريخ كان أقل قدما، فإن هذا الحدث لم يحصل إلا في الفترة ما بين القرنين العاشر والحادي عشر كأبعد تاريخ.

وقد استحوذ الكرد شيئا فشيئا على بعض اجزاء من المملكة الأرمنية التي اضمحلت في القرن الحادي عشر. لذلك يعد الكرد الموجودون في كثير من أراضي أرمينيا عائشين في

---

(٧) لينيج، المصدر السابق، ج٢، ص ٥٤١ – ٥٤٢.

الحقيقة على أرض لا تعود إليهم. وعلى كل حال، فإن هذا قد حدث خلال تطور تاريخي استمر قرونا عديدة[٨]. وحسب ما يقول (لينيخ) ، إن أهم العشائر الرئيسية الكردية الموجودة في أرمينيا (ولاية أرضروم) هي (زيركي) و (جبرانلي) و (زير كانلي) و (زيلانلي) و (هسنانلي) و (حيدرانلي) و (آدمانلي) و (سيبقانلي) و (ماما كانلي) [وتعزى جذور الأخيرة إلى الأصل الأرمني (ماميكونيان)]. ويذكر الباحث الروسي (أفيريانوف) هذه العشائر نفسها ويضيف إليها أيضا (جمادانلى) و (جلالي) اللتين تعتبران أرمنا مستكردين وتقسمان إلى ثمانية فروع أو أفخاذ هي: (كوتانلي) و (سورانلي) و (سكانلي) و (حسنانلي) و (كيجنانلي) و (دوتكانلي) و (كابد ليكانلي). والعشائر الأخرى هي (كاسكانلي) و(شاديلي) و(بيدلي) و(قزلباش كروجان) وهم (جاركلي) و(بلبان) و(بال أوشاغي) و(كجيلان) و(لولانلى)[٩].

ولقد كان أمراء بدليس في قمة مجدهم وسلطتهم خلال القرون السادس عشر والسابع عشر والثامن عشر ويتمتعون باستقلال كامل، وكانوا يعترفون ببعض السيادة الشكلية الفارسية أو العثمانية تارة، مع رفض تدخلهما بأي شكل من الأشكال تارة أخرى. وآخر أمير لهذه السلالة كان شريف بيك الذي صمد أمام الترك لسنوات عديدة في النصف الأول من القرن التاسع عشر عندما كانت الدولة العثمانية تبذل جميع إمكانياتها في سبيل

---

[٨] حاول الجنرال شريف باشا رئيس الوفد الكردي إلى مؤتمر السلام الذي انعقد في فرساي بعيد انتهاء الحرب العالمية الأولى، في مذكرته التي قدمها إلى المؤتمر المذكور عام ١٩١٩، تفنيد المزاعم الأرمينية بشأن المطالبة بأجزاء من كردستان تركيا. وقد ترجمت إلى العربية نص تلك المذكرة التي نشرت ضمن رسالة الدكتوراه التي أعدها المرحوم (جان بيير فينو) والمعنونة" مساهمة في دراسة سوسيولوجية وتاريخ الحركة الوطنية الكردية من عام ١٩٢٠ إلى يومنا هذا" والتي نوقشت في السوربون في النصف الأول من عام ١٩٦٩. وقد نشرت الترجمة المذكورة في مجلة (كاروان) الطبعة العربية، العدد (١)، ١٩٩٢، أربيل كردستان العراق – المترجم.

[٩] تدل أسماء هذه العشائر المختومة بلاحقة (لي) التركية على أنها كانت تقطن في السابق مناطق خاضعة للسلطة العثمانية التركية. وقد مضى عليها تحت حكم هذه السلطة وقت كاف للتأثر باللغة التركية وإضافة هذه اللاحقة التركية إلى أسمائها الكردية، التي كان يجب أن تظل بمنأى من التأثر باللغة التركية – المترجم.

إخضاع كردستان لسيطرتها. وقد أسر في عام ١٨٤٩ ونفي إلى القسطنطينية. ومنذ ذلك الحين باتت إمارة بدليس تحت السيطرة العثمانية.

ورغم أن الهكاريين حرموا منذ ذلك التاريخ من عاصمتهم بدليس، إلا أنهم يمثلون لحد الآن - أي قبل مجيء الكماليين إلى السلطة- أكبر عشيرة قوية ومشهورة، حتى أنه لم يتجاسر أحد على الوصول إلى القسم الجبلي من موطنهم. ويمارس الترك مع هذه العشيرة سياسة تساهل كيما يتسنى لهم الاعتماد على إخلاصها في تلك المنطقة الحدودية. وقد أبدى (سون) ملاحظاته بشأنهم قبل الحرب العالمية الأولى. ومنذ ذلك التاريخ، طرأت تبدلات على أوضاعهم. فخلال الحرب الأولى اشتركت هذه العشائر الحدودية في الجهاد إلى جانب الترك وقاتلت بضراوة العشائر النسطورية المسيحية في المنطقة. وبعد الحرب، وقبل تخطيط الحدود الإيرانية-التركية الذي لم يتم إلا في سنة ١٩٢٥، ظلت الاضطرابات تسود هذه المنطقة. وفي الوقت الراهن يبدو أن السياسة التركية الحالية لا تعتمد على الثقة بالشعب الكردي، كما سنتكلم عن ذلك فيما بعد.

وللهكاريين عرف غريب يخص كيفية تولّيهم السلطة. فإذا تبين أن الـ (خان) المحلي غير جدير بتولي أعباء الحكم، يدعى جميع الوجوه والأعيان إلى الاجتماع، فينظر هؤلاء في الوضع. وإذا تبين لهم أنه غير جدير بالحكم وثبت زوال حقه، وضع أمامه زوج من الحذاء، وعليه أن يحتذيها ويغادر الاجتماع، بعد إعطاء موافقته على تعيين شخص آخر سواه لتسلم الحكم، ولكن أموال المعزول وأملاكه لا تصادر من قبل أحد.

وعلى مقربة من الهكاريين في إقليم درسيم- ولاية خربوط- نجد الكرد الزازا الذين يشكلون عشيرة خاصة تعيش منذ قرون بصورة منعزلة في الجبال. وقد أبدى (سون) أسفه لأنه لم يستطع زيارتهم، لأن لهجتهم رغم كونها آرية من صنف الفارسية والكردية، إلا أنها لا تشبه أيا من هاتين. وتعيش هذه العشيرة في أعالي دجلة. ويتحدث الرحالة عنها "كأنها شعب صغير ميال إلى الانعزال". وكان القليل من أفرادها الذين التقيت بهم يبدو عليهم الحذر، ولكن مظهرهم كان بسيطا وقامتهم أقرب إلى القصر منها إلى الطول. إنهم أقوياء ويعملون بجد، وفيهم نسبة كبيرة من ذوي العيون الزرق والشعر الأشقر.

(ب) عشائر كردستان الجنوبية (العراق):

١ - بابان

إن الطريقة نفسها التي اتبعتها الدولة العثمانية في أرمينيا للحفاظ على حدودها في الشمال، امتدت فيما بعد لتطبق على كردستان الجنوبية (التي تشكل اليوم جزءا من العراق)، منذ إلحاقها من قبل السلطان مراد الرابع بالدولة العثمانية. واستمر البيكات الكرد يواصلون سلطتهم الوراثية بتولية من القسطنطينية وبموجب أحكام كانت تصدر باسمهم من هناك. وكان يطلق على هذه المناطق اسم ولاية (شهرزور)، ثم وضعت مباشرة تحت تصرف ممثل السلطان في العراق الذي أخذ يعين البيكات الكرد في السناجق (الأيالات) الستة لهذه الولاية وهي كركوك وأربيل وكويسنجق وقلاجوالان ورواندوز وحرير. وكان الباب العالي يغدق على هؤلاء البيكات لقب (ميرميران) أو (الباشا)، ويتعهد هؤلاء بالمقابل بمساعدة العثمانيين عسكريا لدفع العدو بعيدا وتقديم المؤن للقطعات التركية في إقليم العراق. ومقابل ذلك، كانوا معفوين من الضرائب والرسوم الحكومية. وفي هذا الجزء من كردستان نذكر بوجه خاص عشيرة (به به) أو (بابان) التي خلفت عشيرة (سوران) المنقرضة (الوارد ذكرها في شرفنامه). وقد أخذوا هذه التسمية تبعاً لاسم زعيمهم (به به سليمان) من منطقة (بشدر) الذي أدى للأتراك في حوالي سنة ١٦٧٨ خدمة كبرى في حربهم مع الفرس. وقد أسس أحد أمرائهم وهو إبراهيم باشا في عام ١٧٨٦ في مكان قصبة (ملكندي) مدينة سماها (السليمانية)، تيمناً باسم سليمان الكبير ممثل السلطان في العرق. وقد أصبحت هذه المدينة مركزاً لاقامة أمراء بابان. وكان إسماعيل حقي أحد قادة (تركيا الفتاة) وعضو مجلس المبعوثان في الأستانة ينتمي لهذه الأسرة، بالإضافة إلى حمدي بيك بابان الذي نوهنا عنه في الفصل الخامس من هذا الكتاب والذي جمع وثائق مهمة عن تاريخ هذه الأسرة والعشيرة التي تنتسب إليها. وآسف إذ أقول بهذا الصدد أن جميع المستندات هذه كانت في حيازتي طيلة أعوام، ولكنه استرجعها مني لأنه أقام دعوى ضد الحكومة البريطانية في لندن مطالبا بإعادة أملاكه المصادرة، وكان بحاجة إلى تلك

المستندات في سبيل كسب الدعوى. ولست أدري أين بات مصير تلك المستندات فيما بعد. وقد ضمت حكومة بغداد في وزاراتها أكثر من مرة أشخاصا ينتمون لهذه الأسرة.

٢ - هَموَند[١٠]:

ونذكر في هذه المنطقة أيضا اتحاد الـ (هموند). لعبت هذه العشيرة دوراً مهما في الحرب الروسية - التركية خلال سنتى ١٨٧٧ - ١٨٧٨ بواسطة فرسان غير نظاميين وكوفئت على ذلك بمنحها أراضي شاسعة في منطقة (بازيان - جمجمال). ولهذه العشيرة شهرة خاصة في الغزو. وقد تحدث عنها (ديكسون) بالعبارات التالية: "إن المنطقة الواقعة بين كركوك والسليمانية هي مقاطعة الكرد الهموند الشجعان، وهي عشيرة من الرحل تملك ألفي بندقية، وهم لا يجدون ما يفتخر به المرء غير الخيل والسلاح والغزو. إنهم متوحشون أوقعوا الفزع في نفوس الكرد الآخرين وسكان المناطق المجاورة. وقبل بضعة أعوام -كتب ديكسون ذلك عام ١٩١٠- حاولت الحكومة العثمانية معاقبتهم. وبعد مناورات طويله تمكنت الفصائل العسكرية التركية من إلقاء القبض على عدد منهم ونفيهم إلى طرابلس في ليبيا. وقال لى أحد زعمائهم بكل زهو واعتزاز، إنهم بعد ثلاثة أسابيع من وصولهم إلى هناك، فروا من المنفى ورجعوا مشيا على الأقدام وقطعوا كل هذه المسافات الطويلة إلى أن وصلوا إلى الحدود الإيرانية. ويرتدي هؤلاء الكرد ملابس نصف عربية ويمتطون الخيول كالعرب ويتاجرون بها. أما الكرد الآخرون فلا يمتطون على الروابي والهضاب، كما نعلم، إلا البغال ويعتبرون الجياد غير صالحة للركوب. إن السفر إلى هذه المناطق، تعتبر، بسبب وجود الهموند فيها، مجازفة غير مأمونة العواقب. وقد سافرنا مرة بصحبة أحد زعمائهم مع رجاله المسلحين. لقد كانوا يعتزون كثيرا بأنفسهم، وحاولوا إيهامنا بقوتهم ومقدرتهم، ولكنهم ليسوا أفضل بكثير من البدو العرب المسلحين. إن خيامهم قذرة، ولا يمكن للمرء أن يجد لديهم الراحة التي يتمتع بها الناس الأثرياء في هذه البلاد".

---

[١٠] وردت كلمة (هموند) في النصوص البهلوية.

ج – عشائر كردستان إيران:

١ – موكري:

نترك الآن الأراضي العثمانية ونتوجه صوب الجنوب الشرقي حيث نجد في إيران عشائر (موكري) و (أردلان).

تعيش عشائر موكري في المناطق الواقعة جنوبي بحيرة (ورمى)، وهي تمثل الفرع الجنوبي لكرد الشمال. ويتكلم الموكري لهجة كردية يبدو أن نبرات ألفاظها وقواعدها النحوية أدق من سواها من اللهجات. وهم يدعون أن لهجتهم أقدم اللهجات الكردية. وقد لا تزيد أقدميتها عن أقدمية اللهجات الأخرى، ولكن المحافظة التامة على أشكالها القديمة تسمح باعتبارها نموذجا حياً بالمقارنة مع غيرها من اللهجات الكردية الأخرى[١١].

تنتسب عشيرة موكري إلى (بهبه) في شهرزور. وقد ظهرت في منطقة ساوجبلاغ حوالي القرن الخامس عشر تحت قيادة رئيسها المدعو سيف الدين. وقد انتصرت على أتراك (جبوقلو) واستولت على مقاطعة (ديرياس) أي (شارويان)، ثم وصلت إلى (دوله باريك) و (أخته جي) و (الته مور) و (سولدز). فبعد سيف الدين بأربعة أجيال في عهد (ميره بيك)، تسلم هذا الأمير عام ١٥٨٣ إدارة مقاطعة واسعة تمتد من الموصل وأربيل وشهرزور.. الخ حتى (مراغه) غربي بحيرة أرومية من السلطان مراد الثالث. وتمكن إبنه حيدر خان من توسيع رقعة إمارته وبسط نفوذه على أقاليم (مراغه) و (آجيرى) و (ليلان) وعلى مدينة (ميا ندواب) وقلعة (سارو قورغان) الحصينة الواقعة قرب (مراغه).

ينقسم خانات (موكري) أو (بابا ميري) إلى خمس أسر. وما يزال يعيش معهم في كردستان موكري عشيرة (ديبو كرى) المستقرة منذ أمد بعيد، وهؤلاء يحتمل أن يكونوا سكنة

---

[١١] وصف النظام الزراعي لدى الموكري من قبل (راولنسن) في مجلة (J.R.G.S) العدد العاشر. الصفحات ٣٥ – ٣٦ في عام ١٨٤١.

المنطقة الأصليين وخضعوا فيمابعد للموكريين. وليس من المستبعد أن يكون اسم (ديبو كري) مشتقا من (ديمو كرى)[١٢]

هذه العشيرة ليست كثيرة العدد حاليا، ولكنها تشارك عشائر أخرى تجاورها، وبوجه خاص في الغرب وفي الجنوب الغربي. ولهذه العشيرة شهرة واسعة لما كان لزعمائها وحكامها من قدرة وسلطة واسعة. وقد حكموا هذه المناطق منذ قرون عديدة من عاصمتهم الجميلة (ساوجبلاغ = مهاباد اليوم - المترجم). وقد اعتمد كل من الشاه عباس الصفوي ونادر شاه أفشار وفتح على شاه القاجاري على الموكريين في أعمالهم الحربية. ويدين الشاه عباس، الذي كان أقوى أولئك الشاهات الثلاث، بانتصاراته للكرد، لأنهم كانوا يشكلون الأكثرية الساحقة في جيشه، وقد عين العديد منهم قادة لذلك الجيش. لقد تمت الانتصارات التي أحرزها الشاه عباس، وبخاصة في الجبهة الغربية، بفضل الكرد. ففي المعركة الشهيرة التي جرت بينه وبين الترك عام ١٦٢٤ وانتصر فيها انتصارا باهرا، كان الكرد يشكلون العنصر الأساسي في جيشه. لقد كانت هذه العشيرة على أهبة الاستعداد دائما، وذلك بسبب مجاورتها لعشيرة (بلباس) المعروفة بميلها إلى الغزو والسطو، التي دخلت معها في معارك عديدة، رغم أنهما ينتميان لأصل واحد لأنهما تشكلان فرعين لعشيرة واحدة. وعشيرة (بلباس) عشيرة قوية، ولها في إيران الفروع التالية: (منكور)، و (بيران) و (مامش) و (ئوجاغ حيدري). ومن بين زعماء الموكري اكتسب (بوداق خان) شهرة واسعة، ولعدالته أطلق عليه لقب (أنو شيروان الثاني). وكان الملك الساساني أنو شيروان قد دخل التاريخ حاملا لقب (الملك العادل). وعاش بوداق خان في أواخر القرن الثامن عشر وأوائل القرن التاسع عشر. وتبنى في بداية الأمر قضية الأسرة الكردية (زند) التي وهبت ايران ملكا هو (كريم خان زند)، غير ان القاجاريين تغلبوا عليه في النهاية، فاضطر للتعاون معهم واعترف به فتح علي شاه أميرا على الموكرين. وقدمت شخصيات موكرية أخرى خدماتها

---

(١٢) لعل في هذا خطأ. فلئن كان الديبوكريون أقدم سكنا في المنطقة من الموكريين. فإن المنطق يقتضي. إذا كان هناك اشتقاق. أن يكون (موكري) مشتقا من (ديبوكري). إلا إذا كان الموضوع لا يتعلق بالعلاقة بين (ديبوكري) و (موكري) بوصفهما عشيرتين - المترجم.

للقاجاريين مثل مجيد خان الذي تقلد منصبا عسكريا مهما، وإسماعيل آغا ديبوكري الذي صار آمر حرس في قصر الشاه القاجاري.. الخ. وكان بوداق خان قد اشترك مع القطعات الحكومية بقيادة ولي العهد الإيراني وحاكم أذربيجان عباس ميرزا في عمليتين استهدفتا تأديب عشيرة (بلباس).

وهناك زعيم موكري آخر ورد ذكره في تاريخ الأسرة القاجارية هو عزيز خان رئيس أسرة (بابا ميري) الذي مارس نشاطاته في عهد محمد شاه وناصر الدين شاه. وقد لعب دوره في (تبريز) مع عدد من النبلاء الكرد الآخرين الذين وصلوها عندما كان بوداق خان يريد المصالحة مع القاجاريين، ثم كلف ببعض المهمات الدبلوماسية (في محادثات هرات) والإدارية (في اضطرابات شيراز)، حيث قام بما كلف به بنجاح باهر، وعهد إليه منصب الحاكم العسكري لطهران في بداية عهد ناصر الدين شاه. ولدى زيارة ولي عهد روسيا لمدينة (أريوان)، كلف عزيز خان بتقديم الهدايا والتمنيات الطيبة له باسم الشاه. وقد انشغل في سفره هذا عند مروره بمدينة (زنجان) بإخماد فتنة البابيين، كما مر، وهو في طريق الإياب بمدينة تبريز، فنظم فيها بعض الأمور العسكرية. ثم عاد إلى طهران ونظم فيها بناء على أوامر الشاه، الأمور المتعلقة بالنظام في العاصمة التي كان الكرد الموكريون مكلفين بحفظ النظام فيها، بالإضافة إلى الكلهور والأفشار تحت قيادة نجله علي خان. وقد عين مكافأة له على خدماته رئيسا لأركان الجيش الايراني، إلا أنه أتهم أثر دسائس دبرها له الصدرالأعظم (رئيس الوزراء) ميرزا آغاخان، بالتآمر مع الروس والإنجليز لإعلان كردستان دولة مستقلة، فاضطر للعودة إلى منزله في (بوكان). وتوجد ساحة عامة في طهران تحمل اسم (تقاطع عزيز خان) وهي تخلد اسمه في هذه المدينة.

ومن المفيد أن نذكر، كما يقول (سون) أن أرض موكريان هي التي أنجبت زرادشت، إذ ولد فيها وبدأ التبشير بدينه من هناك[١٣]. كما توجد في القسم الشمالي من موكريان الآثار

---

(١٣) تذهب النظريات الحديثة إلى القول أن أصل زرادشت يعود إلى شرقي إيران.

القديمة المتعة لبلدة (شيز) عاصمة الميديين والتي تعرف حالياً باسم (تخت سليمان[١٤]) وتقع هذه الآثار في ولاية (هوشار) على مقربة من (ساين قلا) ، ويطلق عليها أيضا (أكباتان) الشمالي، حيث قهر البارثيون انطونيوس الروماني، وهي تقع على ارتفاع ٩٠٠ قدم. ويعتقد الناس ان قصر سليمان المحاط بالجن كان قائما في هذا المكان. وعلى قمة مجاورة بارتفاع ١٠,٠٠٠ قدم، تضع الأساطير قصر ملكة (سبأ) المبني من عظام الطيور المسمى (تخت بلقيس). (وهناك رواية أخرى حول موقع قصر ملكة (سبأ) تقول أنه في موقع مدينة (شنو) الحالية جنوبي بحيرة (ورمى). وقد يرجع اسم (تخت سليمان) تاريخيا إلى سليمان شاه الذي كان يحكم كردستان في القرن الثالث عشر. وهناك كانت تقع في غابر الأزمان عاصمة الميديين حيث كان (سيروس) أو (كوروش) يحرس كنوز (كريسوس[١٥]). إن الموكريين الذين يحفظون أساطير كثيرة تخص هذه الأماكن، يستشهدون بها ليبرهنوا على انهم الكرد الأصليون. وهناك مع ذلك أدلة لا يعلمون بها حول أصلهم الميدي (وهي نظرية مينورسكي التي أشرنا إليها في الفصل الأول من هذا الكتاب) تتبين من اللغة التي يتكلمون بها، التي هي اقرب إلى لغة (الآفيستا) لزرادشت، كما يقول (سون).

٢ – أردلان:

الجيران الجنوبيون للموكريين كرد آخرون لعبوا في العصر الحديث دوراً مهماً ومتميزا، كما كان لهم في تاريخ ايران دور اكثر أهمية من دور الموكريين. إنهم بنو أردلان وعاصمتهم مدينة (سنه – سنندج) الجميلة التي تقع في الاقليم المعروف باسم (كردستان). وقد حكمت اقليم أردلان منذ القرن الرابع عشر أسرة نبيلة عريقة وكان الحكم قبلها أيضا بيد أمراء أردلان الاقدمين. وتدعي هذه الأسرة انها من سلالة صلاح الدين الأيوبي الذي كان أيضا

---

(١٤) راجع مينورسكي في بحثه المعنون (الأعمال الحربية بين الروم والبيزنطيين في آتروباتكان)، BSOAS، الجزء الحادي عشر. القسم الثاني وكذلك القسم الرابع من (موقد النار في شين).

(١٥) ويلسون. الحياة في فارس وعاداتها –باللغة الإنكليزية– ص ١٦١. وقد ازدادت الأهمية الأثرية لهذه المنطقة منذ اكتشاف كنز (زيويه) بالقرب من (سقز).

كرديا من (حسن كيف) وهي فرع من عشيرة هكارى[16]. و (سنه) مدينة جد قديمة، وتشهد على ذلك الكتابات العديدة التي اكتشفت في ضواحيها والتي يرجع معظمها إلى عهد الساسانيين. وكانت المناطق الواقعة جنوبي غربي (سنه)، أي (حلوان) و (زهاو) و (قصر شيرين) الحالي مقراً لملوك الساسانيين. وتقع خرائب مدينة حلوان القديمة بالقرب من (سربيل زهاو)، وتقع المنطقة الأخيرة على امتداد الحدود العراقية-الايرانية، وحدودها الشمالية نهر (سيروان) والجنوبية نهر (الوند). وعندما بني (قصر شيرين) في العهد الساساني ونقش (فرهاد) على صخور (بيستون) لوحاته، كانت حلوان مدينة كبيرة ومزدهرة. وفي حوالي سنة ٤٠٠ ق.م. كان الاقليم الذي تقع فيه هذه المدينة يمتد ليصل إلى تخوم (شهرزور).

وبعد أن حكم أمراء أردلان خلال قرون عديدة أقاليمهم بصورة مستقلة تماما، قبلوا لقب (والي أردلان) الذي خلعه عليهم شاه إيران، وبقوا أوفياء لشاهات إيران، ولم تؤثر هذه التغيرات على استقلال إمارة أردلان، لأن الالتزام الوحيد الذي أخذوه على عاتقهم كان تعهدهم بتقديم قوة عسكرية محددة، وهو ما التزموا به دوما. وظلت إمارة أردلان محتفظة باستقلالها بصورة كاملة حتى عهد (خسروخان) نجل (امان الله خان) المشهور جدا والذي ما يزال خالدا في هذه المنطقة، وقد تعاونت مع إيران في حروبها بصفة (حليفة) لا كتابعة لها. وكان لهذا الوالي مكانة خاصة في البلاط الإيراني كما يقول (تسيتسيانوف) في تقريره المؤرخ ٢٩ كانون الثاني ١٨٠٥ المرفوع إلى الأمير (جارتوريسكي) الذي جاء فيه: "تضم ايران، بالإضافة إلى المقاطعات الشاسعة التي يحكمها الخانات والتي تكون جزءاً منها وتخضع مباشرة لحكم الشاه، أربع ممالك يحكم كلا منها نائب عن الشاه يسمى بالفارسية (والي)، والولاة هم (والي عربستان) و (والي كرجستان) أي ملك جورجيا، و (والي لرستان)، و(والي كردستان). وتتبع الأراضي المجاورة للممتلكات العثمانية في

[16] هذا كلام غير صحيح، فأصل عشيرة صلاح الدين المسماة (روند) أو (راوند) من شمالي مقاطعة (آراس) ثم انتقلت إلى الجنوب. وقد عاش شقيق صلاح الدين في تكريت الواقعة على مقربة من الموصل. إننا مدينون لينورسكي في توضيحه هذه النقطة عام ١٩٥٣، اذ نشر تحت إشراف جامعة (كمبردج) في كتاب (دراسات في تاريخ القفقاس). الجزء الثالث. إيضاحا تحت عنوان (تاريخ صلاح الدين) باللغة الإنكليزية.

(بايزيد) والتي كانت تعود فيما مضى لوالي كردستان ويقطنها حاليا الكرد، الولاية الأخيرة. وكان يتحتم على هؤلاء الأربعة أداء بعض المراسيم في قصر الشاه عند تتويجه في (أردبيل). فكان على والي عربستان أن يمسك بريشة الشاه، وعلى والي كرجستان (جورجيا) أن يحمل السيف. أما والي لرستان فيحمل الإكليل، بينما يحمل والي كردستان التاج المرصع بالألماس والأحجار الكريمة. كانت هذه المراسيم تعني في الواقع أنه يتعذر تتويج الشاه دون الاعتراف به من قبل كل واحد من هؤلاء الأربعة الكبار. وكانت امتيازات الوالي تصل حد منح ألقاب (الخان) أو رفع مقامات الخانات، لدى غياب الشاه. وكانوا يمارسون هذا الحق حسب الأقدمية.

وقد اتسعت حدود مملكة أردلان الصغيرة خلال حكمها الذي دام قرونا عديدة وازدادت سطوتها لتضم جميع الأقاليم والعشائر الضعيفة، فتصل حدود عشيرة (جاف) و موكري وإمارة رواندوز ، فكانت تضم الأقاليم الآتية: (جوانرو) و (هورامان) و (مريوان) و (بانه) و (سقز)، وأقضية (حسن آباد) و(أسد آباد). وجميع هذه المقاطعات أجزاء في الوقت الراهن من (أردلان) وتؤلف أقساما أو بلوكات تابعة لإقليم (سنه) أو (سنندج).

وتنقسم (هورامان الإيرانية) إلى قسمين: (هورامان تخت) الذي يقع في الشرق من السلاسل الجبلية الكبيرة المغطاة بالثلوج التي تشكل امتدادا لسلسلة جبال شاهو العالية وتتجه شرقا إلى (زهاو)، و(هورامان لهون) الذي يقع على السفوح الغربية لتلك السلاسل الجبلية. ويقع قضاء (مريوان) في أقصى الشرق، في ما وراء خط توزيع المياه لبحيرة (زريبار). ومن جهة الشرق، هناك واديان منفصلان تفصل بينهما جبال (امام) ثم يلتقيان ليكونا سهلا منبسطا حوالي بحيرة (زريبار).

ومن بين هذه الأقاليم يعتبر (هورامان) أكثرها جمالا. وقد كان هذا الإقليم الصغير مستقلا في الأساس وظل زعماؤه يحكمونه بأنفسهم وهم ينتمون لأسرة معتزة بنفسها[١٧] ويدعون انهم من سلالة رستم ، وهو واحد من أبطال إيران المشهورين. ويتكلم أبناء منطقة هورامان بلغة خاصة بهم ويطلقون على أنفسهم اسم (هورامي) بدلا من (الكرد). وفي الحقيقة، إنهم

---

[١٧] هذه الأسرة هي أسرة (رستم ساني) - المترجم.

حسب لغتهم ولاعتبارات أخرى لا يمكن اعتبارهم كرداً بالمعنى الضيق لكلمة (كرد) ويبدو أنهم، شأنهم شأن الگوران، ينتمون في أصلهم لأحد الشعوب الإيرانية الأخرى. إنهم يعيشون في وديان تحيطها الجبال وهم في حرز من جميع الجهات بحدود طبيعية منيعة. إن هيأتهم وقابلياتهم غير اعتيادية، كموطنهم الذي يعيشون فيه.

وهناك أسطورة يتداولها الهوراميون فيما بينهم تقول أن(داريوش) ملك الميديين، طارد جدهم (هورام) في وطنه بالقرب من جبال (دماوند) في شمالي إيران، فاستطاع هو وأخوه (كندول)[١٨] الوصول إلى أرض (ميديا) والعيش في هذه الجبال المعزولة والاستقرار فيها وتكوين عشيرة (هورامي).

وكثيرا ما حاول أمراء أردلان وهم في أوج قوتهم ومجدهم إخضاع خانات هورامان وبسط نفوذهم على بلاد هؤلاء، ولكن دون جدوى. ومن بين العشائر الصغيرة التي تعيش في المناطق الحدودية، يستطيع الهوراميون وحدهم الاحتفاظ في الوقت الحاضر (عام ١٩١٤) بحريتهم في المناطق الحدودية الجبلية دون تدخل أو خشية من أحد، لأن زعيمهم (علي شاه) يتمتع وهو في قصره في (هورامان) بكامل استقلاله في كل شئ إلا اسم (المستقل) فقط.

وتعيش مقاطعتا (مريوان) و (بانه) الصغيرتان الواقعتان شمالي هورامان تحت سلطة خاناتهما وبيكاتهما الذين لا يتسببون في خلق العراقيل كالهوراميين، لكونهم من الكرد الأقحاح ولأنهم يتمتعون بقوة كبيرة. لقد حارب بيكات مريوان حكام هورامان في الماضي، كما يفعلون اليوم، ولكنهم ظلوا خاضعين لأسرة (أردلان) طالما كانت هذه الأسرة تتمتع بقوتها المعتادة.

وقد دام عهد الأسرة الحاكمة في مدينة (سنه) حتى القرن التاسع عشر، وكان من أشهر أمرائها (أمان الله خان) الذي كان واليا خلال العقدين الأخيرين من القرن التاسع عشر وأعطى عاصمته الملكية رونقا ملكيا متميزا.

---

[١٨] يلاحظ أن المؤلف يورد بعد عدة صفحات اسم عشيرة باسم (كندوله ئي) – المترجم.

لقد ربطت الأسرة المالكة في (سنه) مصيرها بمصير عشيرة (قاجار) عندما أخذت هذه الأخيرة تطمح في العرش الايراني، فعقدت معها اتفاقية تحالف وصداقة، وبقيت محتفظة بالتزامها، ولذلك ساندت القاجاريين عسكريا في معركتهم ضد (لطف علي خان زند) المنكود الحظ مما أدى إلى هزيمته ووفاته ووقوع العرش الإيراني في أيدي القاجار.

وتزوج خسرو خان نجل أمان الله خان من (وليه خانم) ابنة فتح علي شاه، فاستطاعت هذه المرأة المقتدرة الإمساك بزمام الحكم بعد وفاة زوجها، وخلفها غلام شاه خان عام ١٨٦٥ وهو آخر ولاة اردلان. وبعد وفاته استطاع ناصر الدين شاه، مستغلا قرابته مع أسرة أردلان وكونه ملكا على إيران، أن يفرض شروطا صعبة على المرشحين، فظل منصب الوالي شاغرا. وبينما كان المرشحون الشباب باتظار القرار النهائي، أقدم الشاه فجأة على تعيين عمه (معتمد الدولة)، الرجل الصلب، واليا على كردستان.

ولم تكن معارضة الأهالي لهذا التعيين قوية، كما كان يتوقع، ذلك لأن أميرة قاجرية كانت تحكمهم من قبل، ولأن الأسرة الملكية المحلية فقدت كثيرا من نفوذها ودخلت دور الانحطاط، لذلك بات من السهل أن يسيطر على الوضع في (سنه). ولكن عندما توجه إلى (هورامان) وجد الحالة مختلفة تماما. فالهوراميون الذين لم يخضعوا للأسرة المالكة السابقة (أردلان)، وجدوا أن السيطرة الفارسية خلقت أوضاعا جديدة ليس في استطاعتهم تحملها لأنها لا تتفق مع طبائعهم.

وقد خاض معتمد الدولة معارك طويلة وشاقة قبل أن يتمكن من إخضاع حسن خان سلطان هورامان. وقد كان احترامه وتقديره لعشيرة هورامان شديدين، حتى أنه عهد السلطة عليها إلى نجل حسن خان وإلى أخيه. وفي الوقت الراهن (عام ١٩١٥) يقع جزء من هورامان ضمن الحدود العثمانية (العراقية فيما بعد)، والجزء الآخر، وهو الجزء الأهم، يقع ضمن الحدود الإيرانية. ومع أن حكام هذين الشطرين يخضعون رسميا إلى هاتين الدولتين، إلا إنهم مستقلون بالفعل ولا يخضعون لأحد. وعندما كان (سون) يكتب هذه الأسطر عنهم، نظمت حملة عسكرية ضدهم من (سنه) بغية استحصال الضرائب منهم ومحاولة لفرض

السلطة عليهم. وفي عهد النظام البهلوي لم يقاوم الهورامانيون السلطة المقاومة العنيفة التي كانوا يبدونها من قبل، وأخذت هورامان إلى السكينة والهدوء[١٩].

وما تزال أسرة أردلان، رغم حرمانها من السلطة، معروفة تماماً ولها مكانة مرموقة في نظر الحكومة الإيرانية. إن عميد الأسرة المدعو فخر الملك كان يشغل عام ١٩١٧ منصب حاكم (شوشتر) و (دزفول) في عربستان، وكان شيخا مثقفا ومتميزا في صفاته، وكان لابنه البكر ٢٥ عاما.

إن هذه النظرة المختصرة لتاريخ (سنه) التي لخصها لنا (سون) تبين لنا أنه كما في الدولة العثمانية في بدليس وجزيرة والعمادية ورواندوز و ... الخ، كانت هناك أيضا في كردستان إيران بعض الأسر الكردية أفلحت في بعض الأحيان في إنشاء إمارات كردية مستقلة في جميع تصرفاتها وأعمالها، وكانت تبعيتها للسلطة المركزية شكلية صرفة في الغالب. وبفضل كتاب (شرفنامه) لدينا معلومات كاملة عن الحياة الداخلية والمآثر الخارجية لإمارة بدليس. وقد كرس مؤلف الكتاب عددا من الصفحات أيضا لإمارة أردلان التي نشرت بشأنها بحثا مختصرا في (مجلة العالم الإسلامي) مستفيدا من مخطوطة فارسية. وقد عولج الموضوع نفسه في مخطوطة أخرى محفوظة في المكتبة الوطنية بباريس. والمعلومات الواردة في كلتا المخطوطتين لا تختلفان إلا قليلا في التفاصيل بعد إجراء المقارنة بينهما. ويعطينا (رابينو) في تقريره الموثوق به الذي سبق لنا الإشارة إليه معلومات أساسية، إلا أنها مختصرة، عن تاريخ (سنه).

---

(١٩) في الواقع استطاع رضا بهلوي، مستعملا أشد أنواع القمع والبطش، ومستخدما أكثر الضباط شراسة في الجيش الإيراني القضاء على جميع مراكز نفوذ الخانات والبيكات في عموم إيران ومنها كردستان الإيرانية، وألقى بكل أولئك الزعماء المحليين في سجونه الرهيبة. وقد ذاع صيت سجن (قصر قجر) برهبته. ومات كثير من أولئك المسجونين في السجون. ولم يفك أسار البقية الباقية منهم إلا بعد احتلال الحلفاء إيران في عام ١٩٤١ وإعلان العفو العام عن كل السجناء السياسيين. وخلال حكم رضا شاه الذي نفي بعد الإطاحة بعرشه إلى جنوب أفريقيا، حرم الشعب الكردي، شأنه شأن سائر الشعوب الإيرانية، من ممارسة كل خصائصه الوطنية والقومية وفرض عليه حتى ارتداء الزي الأوروبي ومنع من التحدث بلغته القومية في أي مجال عام - المترجم.

٣ - عشيرة (جاف):

نتوجه الآن إلى جيران أردلان، إلى عشيرة الجاف التي يشتهر أبناؤها في كردستان الجنوبية كلها بأنهم مقاتلون شجعان حاذقون ويحاربون بضراوة. ولم نكن نعرف حتى الآونة الأخيرة أي شيء عن تاريخها تقريبا. والشيء الذي نذكره هنا هو، كما يقول (سون)، أقوال لأحد أفراد الأسرة الحاكمة فيها وهو (محمد علي بيك بشتماله) من سكنة (قزلرباط - السعدية حاليا - المترجم) في أقصى جنوبي كردستان.

يعتقد أن هذه العشيرة سكنت سابقا (جوانرو)، أحد أقاليم أردلان الذي أشرنا إليه آنفا، حتى عام ١٧٠٠ وتحت سلطة حكام أردلان. وكان هؤلاء الحكام يحاولون تدعيم سلطتهم على هذا الإقليم البالغ الخصوبة بدافعين: أولهما طمعهم فيه، والثاني قلقهم من قوة عشيرة (الجاف) المتنامية يوما بعد آخر، فنجم عن ذلك صراع نشبت أثره معركة قتل فيها رئيس الجاف وأسر ولده وأخوه ثم قتلا. أما بقية رؤساء العشيرة فقد لاذوا بالفرار تحت حماية باشا السليمانية الكردي، باستثناء بعض الفروع الصغيرة من العشيرة التي فضلت البقاء على أرضها، لأن تعلقها بها كان يفوق بحدته كرهها للغزاة. ولكن بعضا من بين هؤلاء الفروع، ومنها (قادر ميرويسي) و (تايشەيی) و (كلكني) و (يوسف يار أحمدى) و (كويك) و (نيرزى) و (كورك قايش)، لم يستطيعوا تحمل استبداد ولاة أردلان المتعجرفين، فالتجأوا إلى (گوران) وتبنوا اسمهم، ويعرف هؤلاء اليوم بـ (جاف گوران).

وقد منح باشا السليمانية الكردي رؤساء الجاف حمايته وسمح لهم ولفروعهم بالتنقل ربيعا وخريفا على طول المناطق التي يقطنونها حاليا، أي من (بينجوين) شمالا حتى قزلرباط (المعربة تسميتها بالسعدية - المترجم) و (خانقين) جنوبا، ليرعوا مواشيهم فيها. وهكذا أضحوا مواطنين عثمانيين (عراقيين حاليا) وبقوا كذلك. ويقدر عدد أفراد هذه العشيرة أو هذه العشائر المتحدة بالأحرى، بحوالي مائة ألف رجل، وكان رئيسهم محمود باشا يصرح عام ١٩١٤ بأن بوسعه أن يجند أربعة آلاف خيال خلال بضع ساعات.

ويعيش الجاف شتاء غربي نهر (سيروان) وعلى طول الخط الممتد من خانقين من (خانقين - قره تبه - الصلاحية ﴿كفري حاليا - المترجم﴾) حتى جبال (قره داغ)، كما يعيشون في

شميران وفي سهل (شهرزور). وبينهم قسم يقدر عددهم بألفي عائلة مستقرون، والقسم الآخر أي حوالي ثمانية آلاف أشباه رحل، ينتقلون وراء الكلأ في الربيع ويصلون إلى شرقي (سنه) وشمالا إلى (سقز). وكان أول من هاجر منهم من (جوانرو) إلى منطقة حوض نهر (سيروان) شخص يدعى (ظاهر بيك) قبل ٣٠٠ عام تقريبا، ثم تبعه آخرون. وحوالي عام ١٦٣٨ انضم الجاف إلى السلطان مراد الرابع عند احتلاله مدينة بغداد، وحصلوا مقابل ذلك على لقب (مرادي) الذي قلما هو معروف اليوم. وقد بقي حوالي أربعة آلاف عائلة منهم في إقليم (جوانرو)، إضافة إلى حوالي ٥٠٠ ١ عائلة استقروا بين عشيرة گوران.

وقد استعرض الرحالة (فيرييه) في كتابه باللغة الفرنسية (رحلات ومغامرات في إيران) نشر عام ١٨٤٥ بعض لمحات مستقاة من الواقع الذي رآه بعينه مما كان الجاف يعيشون، فيصف مثلا في الصفحة ١٣ من كتابه خاناً للقوافل في مدينة خانقين، حيث يحتشد جمع من الناس الغزاة من المناطق المجاورة "فيجلس الجافي جنبا لجنب السنجاوي والبلبري، كما تجد بينهم البختياري واللري". ويمكن أن يكون هذا الرحالة وقع في بعض الأخطاء في ذكره لأصول بعض العشائر، فهو يذكر مثلا عن الجاف "أنهم عرب"، ثم يبدي ملاحظة حقة ويقول: "إنه لما يثير الاعجاب فعلا أن هؤلاء الرجال الذين يرتدون ثيابا رثة تتألق بأيديهم أسلحة في غاية الروعة والجمال. فأي تناقض هو هذا الذي يصدم بصر المرء عندما يرى أن هؤلاء الناس الذين لا يزيد ثمن الثياب البالية التي يلبسونها عن دريهمات، يملكون بنادق من أحدث الأنواع".

ثم يتحدث عن هجوم غير مبرر شنه قائد فصيلة من الخيالة الايرانيين على هذه العشيرة، ويقول: انه "قام بهذه العملية ليثري على حسابهم، ثم يبعث بتقرير كاذب إلى الشاه ليحمله على الاعتقاد بأنه خادم مطيع ومندفع في سبيل خدمته"، لأن الجاف كانوا قد سددوا الضرائب المترتبة عليهم كاملة. وكان آمر الوحدة المذكورة يريد مضاعفتها لمصلحته الخاصة، فلم تنصع العشيرة لمشيئته ورفض الاستجابة لطلباته.

كان عثمان باشا آخر زعيم للجاف، وقد توفي في خريف عام ١٩٠٩ بعد أن عمل لتقوية نفوذ العشيرة بزواجه من (عادلة خانم) التي تنتمي لأسرة أردلان العريقة ذات النفوذ

الواسع لدى والي (سنه). وقد أدى عمله هذا إلى استياء العثمانيين ورضا الفرس الذين منحوه لقبا وسيفا لاختياره زوجة تحمل الجنسية الإيرانية.

إن باشوات الجاف رجال معروفون باعتزازهم بشموخهم، وهم لا يتكلمون كثيرا، إلا أنهم ينفذون بسرعة. وقد اتخذوا في سني القرن الأخيرة إجراءات صارمة ليمنعوا كل ما من شأنه إحداث انشقاق جديد من صفوف عشيرتهم، وحلول كارثة أخرى بهم كتلك التي أشرنا إليها من قبل. وتعد هذه العشيرة من العشائر الكردية القليلة التي استطاعت صيانة استقرارها الداخلي، وبفضل التصرفات الواعية لمختلف فروعها نعمت بالتقدم والازدهار.

هناك، في الحقيقة، طابع تتصف به الحياة الكردية سبق لنا أن أشرنا إليه، وهو ما صان الدولتين العثمانية والإيرانية من الخطر الكردي الذي لولا ذلك الطابع لكانت الحال عكس ما هي عليه الآن. وهذا الطابع هو عدم تمكن العشائر الكردية من العيش بسلام فيما بينها، وهو طابع تتسم به شعوب المناطق الجبلية في جميع أنحاء العالم بوجه عام.

ولنستمع الآن إلى ما يقوله (سون) عن (گوران). من المحتمل أن تكون هذه العشيرة أشهر من سواها من العشائر الكردية لأنها جذبت نحوها أنظار العديد من الرحالة من زوار غربي إيران وكردستان الجنوبية. يبلغ عدد أفراد عشيرة (گوران) مع الجاف (الذين يعيشون بينهم - المترجم) حوالي عشرة آلاف عائلة. وهم يقضون الشتاء في سهل (زهاو) وغربي هذا السهل. أما صيفاً فإنهم ينتشرون من (سربيل) إلى (كرند) وفي (ريژاو) إلى (مايدشت). ويحتمل أن يكون (الكلهر) قد أسهموا أيضا في تأسيس هذه العشيرة لدى تكوينها بقبولهم اتخاذ اسم (گوران) لها، هذه الكلمة التي تطلق إجمالا على المزارعين المستقرين.

ومع ذلك يعتقد (سون) أنه إذا أمعنا النظر في (إتنولوجية هذه العشيرة ظهر لنا - وهذا مجرد احتمال- أن الگوران ليسوا من الكرد بل من الفرس أو اللر. فعلى طول التخوم التي تفصل كردستان عن لرستان، توجد عشائر كثيرة لا هي كردية ولا هي لرية، ولكنها تتكلم

بلهجة ما تزال فيها بقايا من اللغة التاجيكية، وهي اللغة الفارسية القديمة[٢٠]. وهناك رأي يقول أن هذه البلاد كانت مسكونة من قبل قوم متحضرين يطلق عليهم اسم (گوران) وكانوا يتحدثون بلهجة تشبه اللهجة التي يتحدث بها، مع بعض الاختلاف، كل من عشائر (هورامان) و (كندوله) و (ريژاو). وهذه اللغة كانت وما تزال إلى حد ما اللغة الكلاسيكية لأسرة أردلان، وهي تستخدم في نظم الأشعار الكثيرة التي قيلت وما تزال تقال في (سنه) والمناطق المحيطة بها، ويسمونها اليوم (هورامي) أو (شارزوري)، وهذه اللغة التي تختلف عن الكردية درست أخيرا من قبل كل من (مان) و (بينيديكسن)، ويبدو أنها تنتمي إلى عائلة اللهجة الگورانيه. ومن حيث القدم فإنها لا تتجاوز الفارسية الحديثة. والغريب في الأمر أن معظم الگورانيين المستقرين يستخدمون هذه اللغة في محادثاتهم، بينما يتحدث القسم الرحل منهم بلغة كردية صرفة، وهو ما يفسر بعالم الظروف، نظرا لأن بعض العشائر الصغيرة من الجاف والكلهر أجبروا على طلب اللجوء لدى (گوران) وتبنوا اسمهم أيضا.

إن العشيرة الرئيسية التي تحكمها عائلة من السلاطين قديمة جدا، وهي تزعم أنها تنحدر مباشرة من صلب (بهرام كور). ومن المعلوم أن (بهرام كور) هذا كان أحد الملوك الساسانيين، وقد حكم من سنة ٤٢٠ إلى ٤٤٠ للميلاد. إن كلمة كور تعني بالفارسية الحمار الوحشي، ولما كان هذا الملك صيادا مشهورا، فقد نظم بشأنه الشاعر الفارسي عمر الخيام (١٠٤٠ - ١١٢٣) الرباعية التالية بشأنه:

إن بهرام الذي قضى عمره في اصطياد الحمير الوحشية
انظر كيف انتقم اللحد منه[٢١]

---

[٢٠] يذهب (مان- هادانك) في كتابه الذي ألفه باللغة الألمانية سنة ١٩٣٠ إلى أن اللغة التاجيكية لهجة من اللهجات الإيرانية التي يتحدث بها سكان تاجكيستان. وليست لغة فارسية قديمة كما يقول (سون).

[٢١] في البيت بنصه الفارسي، تلاعب بالألفاظ من نوع الجناس اللفظي والتورية. لأن كلمة (كور) تعني في اللغة الفارسية اللحد أيضا كما تعني (الحمار الوحشي) الذي كان يصطاده بهرام كور باستمرار - المترجم.

وفي الحقيقة لقي بهرام كور حتفه بأن وقع في بئر بينما كان يصطاد الحمير الوحشية. وفي عام ١٦٣٩ عندما وقع العثمانيون والإيرانيون معاهدة أكثر دقة لتخطيط الحدود فيما بينهم، وانضم الجاف مع العشائر الأخرى إلى الطرفين، أخذ الگوران يحكمون منطقتهم بسلطة واسعة من عاصمتهم (كهواره) الواقعة شمالي شرقي (كرند) وجنوبي شرقي جبال (دالهو)، فذاعت أشعارهم وقصائدهم على أفواه الناس، وأطلق الكرد على بعض منها اسم (گوران). إلا أنهم فقدوا في الآونة الأخيرة سلطتهم بسبب الضعف الذي سيطر على زعمائهم، فاندثروا تماما (كعشيرة حاكمة - المترجم) ، وتركوا الساحة لعشيرة (كلهر) التي هي اليوم أشد قوة من أي وقت مضى، وذلك بفضل الوحدة التي تجمع بين الفروع الصغيرة التي تتكون منها وتحت اسم واحد.

٤ - كَلْهُر:

تقطن عشيرة الكلهر، منذ قرون عديدة، أقصى جنوبي كردستان الإيرانية، بالقرب من الحدود وباتجاه كرمنشاه. ويتكون السكان المستقرون والرحل من الكلهور من ٢٥ فرعا. وبعض هذه الفروع لديها أماكن سكن دائمة تقيم بها شتاء وصيفا، بينما فقد البعض الآخر منها ثرواتهم من دواب وأرض، فاضطروا للجوء إلى العمل رعاة وخدما (نوكر) أو مستأجرين للأرض الزراعية .. الخ. وتعيش معظم فروع هذه العشيرة حياة مترحلة وتعتمد في معيشتها على تربية المواشي. وهذا لا يمنعها من زراعة القمح وتصدير ما يعادل ثلث إنتاجها إلى أسواق كرمنشاه. كما يحصل الكلهر على موارد أخرى من القوافل التجارية التي تعبر أراضيهم جيئة وذهاباً بين بغداد وكرمنشاه. فقد أنشأوا حوالي ٢١ نقطة حراسة يقيم في كل واحدة منها عدد من الحراس الذين يتقاضون (قرانا) واحدا عن حمل كل دابة. وقد كان زعيم هذه العشيرة قبل الحرب العالمية الأولى داود خان، رجلا ذا نفوذ وسلطة واسعة، وقد عرف كيف يسيطر على المنطقة الممتدة بين كرمنشاه إلى الحدود حتى تمكن من أن يغدو سيدها المطلق، مع أنه كان في الأصل بائعاً متجولا بسيطا استطاع تجريد الگوران من سلطتهم وإخضاع بعض العشائر الصغيرة لسلطته بصورة كاملة، كعشيرة (سنجاوي) على سبيل المثال. ثم دعم نفوذه بمصاهرته لعوائل نبيلة، ومن ذلك زواجه من ابنة والي

(بشتكوه). وقد شيد في مدينة گيلان غرب مباني جميلة وأنشأ حدائق وبساتين مثمرة. ولاقي حتفه في حزيران من عام ١٩١٢ في بلدة (صحنه) ، بينما كان يحارب إلى جانب الأمير (سالار الدولة) القاجاري ضد القطعات الحكومية التي كان يقودها (فرمانفرما).

وهنا أيضا يصف لنا (فيرييه) كيف جرفت الانهيارات الثلجية عشيرة (سنجاوي) بشعبها ومواشيها وصفاً مثيرا جديراً برهبة المشهد عندما كان الكثير من الخرفان والعجول والمهور التي شدت على ظهور الدواب تتدحرج مع ما يحملها ومن وراءها على المهاوي، ثم تسقط في أعماق الوادي وتتمزق إرباً إربا، مما كان يجعل قلب المرء يحترق ألما على ما آل إليه أمر تلك الأكداس من البشر والدواب. ثم يقول إن مرافق القافلة (التي كان هو ضمنها) المدعو الملا علي قابل الحدث بعدم اكتراث، مكتفيا بتعليله بأنه حدث طبيعي صرف، قائلا: إن هؤلاء الناس ليسوا مسلمين إلا بالاسم فقط، فهم لا يصلون ولا يصومون ولا يؤدون الزكاة ويستنكفون عن دفع العشر إلى الملالي.. إنني على يقين بان هلاك هؤلاء بتلك الطريقة كان مدعاة لرضاء الله ورسوله.

أما بصدد وضع أبناء عشيرة الكلهر، فقد وصفه العقيد (بيت) في جريدة (ديلي تلغراف) اللندنية الصادرة بتاريخ أيلول ١٩٤٦ بقوله: "إن طغيان الموظفين الفرس واستبدادهم، سابقا وحاليا، بالإضافة إلى تقتير الملاكين البخلاء في كرمنشاه، أدى إلى مزيد من إفقار الفلاحين". وهناك قضية رئيس هذه العشيرة عباس خان الذي زج، شأنه شأن كثيرين من رؤساء العشائر الأخرى، في السجن، بأمر من رضا شاه عام ١٩٢٦، وذلك بقصد كسر شوكة وسلطة هؤلاء الزعماء التقليديين وإرغامهم على الخضوع لحكومة طهران المركزية. وقد أطلق سراح عباس خان فيما بعد وتصالح مع السلطة لينتخب نائبا عن كرمنشاه في مجلس النواب عام ١٩٤٤، وكان له بعض الدور في ثورة العشائر ضد الحكومة عام ١٩٤٦[٢٢].

ما أوردناه في الصفحات السابقة يتيح المجال للقارئ ليلقي نظرة عابرة على مصائر بعض العشائر الكردية الكبيرة في كل من الدولتين العثمانية والإيرانية. غير أنني سأعود إلى

---

[٢٢] راجع جريدة (المشرق – المغرب) العدد ٧٢٢ الصادر في ١٥ تشرين الأول ١٩٤٦. (الوثائق الفرنسية).

بعض الأمور الأخرى في الفصل المكرس للحركة الوطنية الكردية، لأنني تطرقت إليها هنا عرضا. لذلك أود أن ألفت نظر القارئ من الآن إلى أن التطور السريع الذي طرأ على الأوضاع السياسية في آسيا الصغرى بعيد انتهاء الحرب العالمية الأولى، أثر بشكل عميق على أوضاع العشائر الكردية. لقد اشتدت قسوة السلطات الحكومية في كل من إيران وتركيا بحيث أن كل ميل للاستقلال أبداه الشعب الكردي قوبل بعنف وضراوة شديدين. وقد رأينا ذلك بصورة واضحة في إيران بعد انتهاء الحرب الأولى عندما نجح إسماعيل خان المعروف بـ (سمكو) رئيس عشيرة (شكاك) في بسط سلطته على جميع المناطق الممتدة من (ورمى) إلى الحدود التركية، ولكنه انهزم فيما بعد واضطر إلى الفرار عام ١٩٢٢ ثم قتل غيلة بالقرب من (شنو). وكان الإنكليز الذين احتلوا العراق قد حاربوا الكرد أيضا ولاسيما ضد الشيخ محمود الذي أعلن نفسه (حكمدارا) على كردستان. وقد أخمدت هذه المحاولة، مثلما أخمدت أيضا انتفاضة شيخ (بارزان) شمالي منطقة الموصل. وكان الشيخ سعيد (بيران) قد أعلن الثورة في تركيا عام ١٩٢٥، لكنها فشلت، كما فشلت كذلك الثورات الكردية الأخرى التي اندلعت في تلك البلاد أيضا. وإني لأحجم عن إيراد أي استنتاج بهذا الخصوص، إلا أني الاحظ فقط أن عهد الحياة العشائرية والإقطاعية قد ولى نهائيا على ما يبدو، وأن البيئة التي كانت تساعد على استمرارها في الدولة الهرمة والحكم القاجاري في إيران قد انتهى أمرها، أن الشرق اخذ يتجدد ويدخل في عهد جديد من التطور السياسي الذي يستلزم من جميع الأمم ذات العلاقة بذل الجهود لانجاح هذا التجدد والمواظبة عليه، ولم يحصل الشعب الكردي على أي شئ من اشتراكه في الحرب العالمية الأولى، ويجب على زعمائه التفكير جيدا قبل الإقدام على أن يكونوا طرفا في حرب ما في المستقبل.

ملاحظة:

ينبغي الأخذ بنظر الاعتبار بشأن ما قدمناه آنفا،أن الفترة الزمنية التي بحثها (سون) هي الفترة السابقة لعام ١٩١٤.

الفصل الثامن

الكرد والدولة والأمة الكردية

أولا - التمييز بين الدولة والأمة:

تحدثنا في الفصول السابقة عن اللغة الكردية والأصل الأثنولوجي للشعب الكردي، وحاولنا وضعه في وسطه الجغرافي والاجتماعي والعائلي والعشيري. وها قد وصلنا الآن مرحلة التحدث عن مصير هذا الشعب على مقياس أرقى، على نطاق الدولة والأمة معا. والكلام عن التاريخ الكردي يستلزم تخصيص ليس فصل واحد بل مجلد كامل. ونظرا لأهمية الموضوع، لا يمكننا لدى إيراده إهمال أي مظهر من مظاهر الحياة الكردية، لذلك نكتفي، مكرهين، القيام ببحث سريع ومقتضب بهذا الشأن.

يجب أن نحدد في البداية تعريف الدولة. الدولة عبارة عن ظاهرة سياسية تستند إلى المبدأ القانوني للسلطة. أما الأمة فإنها تستند إلى الشعور العام، على مبدأ نفساني. وقد كان لكل من الدولة والأمة تطور مختلف في الشرق وفي الغرب، وقد اعتمدا في تكونهما بوجه خاص على الشروط التي تكونت فيها تلك المفاهيم القانونية والمعنوية، هنا وهناك.

ففي الغرب تكونت المجتمعات في البداية من تجمعات كانت تقوم على أساس عرقي ولغوي وسلوكي .. الخ ، وشيئا فشيئا أخذت تحس وتشعر بخصائصها المكونة لها. وفي حوالي نهاية القرن الثامن عشر تحولت إلى أمم منظمة ومتميزة لها إرادتها الخاصة.

ثانيا - الدولة والأمة في الإسلام:

في بداية ظهور الإسلام كان الإحساس الديني يأتي قبل الشعور القومي. فكانت هناك (دار الإسلام) أي التجمع الإسلامي، مقابل (دار الحرب) أي الدائرة الأجنبية التي يجب مقاتلتها. والإسلام، عموما، فوق كل مفهوم عرقي، رغم أنه يفرض لغة واحدة وهي اللغة

العربية في ممارسة الطقوس الدينية وجميع التصرفات والأعمال العامة[1]، نظرا لأن القرآن كتاب ديني مقدس ومجموعة نصوص تشريعية. والخليفة، هو أعلى سلطة، يمثل إدارة الله. أما الفرد، فإن التركيز في الإسلام على واجباته هو تجاه الله، أكثر منه على حقوقه هو كفرد.

وقد تعرضت الخطوط العريضة لهذا المفهوم الإسلامي للدولة، لتغيرات كلما أخذ الإسلام ينتشر أكثر فأكثر، فقد انضمت إليه عناصر ظلت محتفظة بتقاليدها وخصوصياتها كالفرس والترك والمغول. وقد انتهى الفرس في القرن السادس عشر بإنشائهم دولة منشقة عن الإسلام التقليدي، بينما ظلت تركيا متمسكة بشرعيتها السنية. وقد تبنى السلطان سليم الأول لنفسه لقب الخليفة.

وبقيت فكرة القومية تأتي في الدرجة الثانية في الإسلام. فظهورها المتأخر حدث في النصف الثاني من القرن التاسع عشر، ولم تبدأ نهضة كاملة إلا قبيل اندلاع الحرب العالمية الأولى. ولأن موضوعنا يقتصر على دراسة الشعب الكردي وليس على دراسة المراحل التي مرت بها فكرة القومية في الإسلام، فإننا نكف عن متابعة هذا الموضوع.

سبق أن رأينا أن الانتماء للعشيرة، أي غريزة المحافظة عليها، هي التي تحدد سلوك الفرد الكردي وعقليته طالما هو عضو في مجتمع ما. لقد كان الفرد الكردي مسبوكا في بوتقة العشيرة بحيث أن النظام السائد فيها كان يعتبر القانون الأسمى. إن فضائل الإنسان الكردي وشخصيته ولغته وسلكوه وعاداته كلها مدين لها لعشيرته، وهو في الوقت نفسه تقبل عقلية ضيقة محددة بالحدود العشيرية التي تحيط به وتمنعه من أن يدرك ويستوعب فكرة تأسيس دولة وطنية ثابتة.

---

[1] ليس هذا دقيقا. ففي التصرفات والأعمال العامة ليس المسلم ملزما بالمرة بأن يستخدم اللغة العربية، رغم أن كثيرين من رجال الدين حرصوا ومازالوا على إجرائها باللغة العربية. والموضوع الأساسي في هذا المقام هو أداء النصوص الدينية في فريضتي الصلاة والحج، إذ يجيز كثير من الأئمة المجتهدين أداءها بأي لغة يعرفها المسلم بدلا من العربية. ومع هذا تبقى العربية ذات صلة وثقى بالدين الإسلامي لكون القرآن الكريم نزل بالعربية وفي بيئة عربية. ولكون العلوم الإسلامية مؤلفة في كتب بالعربية في غالبيتها القريبة من العموم – المترجم.

ثالثا - الكرد في التطور السياسي الإسلامي:

نشأت في التاريخ الإسلامي فترة (حمل) شاهدنا خلالها عدة محاولات تركية وفارسية ومغولية فيما بعد، في القرنين الثالث عشر والرابع عشر. أما الكرد فلم يستفيدوا من مثل هذه الفترة، وكل ما هنالك هو أنهم اسهموا بنشاط في تلك الأحداث وانضموا خلالها تارة إلى هذه الجهة، وأخرى إلى تلك من الجهتين المتنافستين والمرشحين فيهما لتسلم السلطة، وقد كان لهم دور في المناورات التي كانت تجري بين الخليفة والبويهيين والديالمة السلاجقة ... الخ. والسبب في كل ذلك يعود إلى عدم اتحادهم وعدم توافقهم المشؤوم فيما بينهم.

هناك أسطورة شرقية تشرح لنا بطريقتها الخاصة هذا الاخفاق الكردي. تقول الأسطورة أنه عندما بدأ الرسول محمد (ص) يبشر بدعوته، تقدم إليه جميع قادة العالم مسرعين في تقديم فروض الطاعة والولاء له. وقد كلف (أوغوز خان) الذي كان يحكم تركستان، أميرا كرديا من بغداد اسمه (زمين) ليقوم عنه بهذه المهمة. وعندما رأي الرسول (ص) هذا الجبار ذا النظرة الثاقبة والهون الداكن، استفسر منه عن قوميته. وعندما علم أنه كردي، تضرع إلى الله راجيا أن لا يسمح لعدو مخيف كهذا أن يتحول في يوم من الأيام إلى شعب موحد! هكذا يفسرون هذا الخلاف اللامنتهي السائد بين الكرد[٢].

وفي الواقع لم يستفد الكرد من الفرصة التي أتاحها لهم صلاح الدين الأيوبي وهو كردي ومؤسس السلالة الملكية الأيوبية للفترة من ١١٦٩ - ١٢٥٠[٣]. وتكرر الحال مرة أخرى عندما سيطر كردي آخر هو كريم خان زند على العرش الإيراني للفترة من ١٧٦٠ - ١٧٧٩، فقد تمكن القاجاريون، خصوم السلالة الملكية الزندية وبمساعدة بعض الأمراء الكرد (أردلان وموكري) من القضاء على تلك السلالة. ويمكننا أن نورد، بمراجعتنا لكتاب (شرفنامه) أمثلة عديدة على حالات انضم فيها الكرد تارة إلى شاه فارس وأخرى إلى سلطان الدولة العثمانية.

---

[٢] مار، في بحثه المشار إليه آنفا (حول مفهوم كلمة "چلبى") ص ١٢٦.

[٣] راجع حول تاريخ صلاح الدين، البحث الذي نشره البروفيسور مينورسكي في (دراسات عن تاريخ القفقاس) في سلسلة الدراسات الشرقية التي أصدرتها جامعة كمبردج عام ١٩٥٣.

لقد صرفوا جهودهم، بسبب التنافس القائم بينهم، في خدمة قضية ليست قضيتهم، إلا إذا افترضنا أنهم سنيون خريصون ضد الشيعة؟ كتب الكاتب الوطني ألكردي حسين حزني في دراسته (غنجەی بهارستان = براعم الروض الربيعي) - باللغة الكردية -: إن تأثير الإسلام كان سيئا لبني وطنه، وإن تاريخ شعبه زور تزويراً فاحشا. وذهب البروفيسور رشيد ياسمي - وهو من گوران - في مؤلفه باللغة الفارسية (الكرد وروابطهم العرقية والتاريخية) - ص ١٧٨ - إلى الاستنتاج نفسه.

رابعا - الإحساس القومي الكردي:

ومع هذا فإلى جانب الصفوة الكردية المسلمة صفوة أخرى. ويكفي أن نشير إلى الشاعر الكردي الكبير (أحمدي خاني) الذي ولد في سنة ١٠٦١ هجرية (القرن السابع عشر). إنه يصور في ملحمته الشعرية الأساس (مم وزين) كردستان وكأنها سجين مقيد بالأغلال، ويبين لنا الشاعر الوسائل والسبل التي ينبغي اللجوء إليها من أجل إنقاذ وطنه مما هو عليه، ويقول

" إنني حائر في المصير الذي خصصه الله للكرد.. هؤلاء الكرد الذين بلغوا المجد بسيوفهم، كيف يصح منعهم من حكم أنفسهم بأنفسهم وإخضاعهم لسلطة الآخرين؟ .. إن الترك والفرس محاطون بأسوار كردية، وكلما تحركت جيوش العرب والترك سبح الكرد في الدماء التي يسفكها هؤلاء. إننا متفرقون دوما وعلى خلاف فيما بيننا، ولا يخضع الواحد منا للآخر.. أما إذا تحدنا جميعا، فلن يستطيع هؤلاء الوقوف في وجهنا..".

ولو أن (خاني) عاش في القرن الحادي عشر لربما أخذ التاريخ الكردي لنفسه مجرى آخر غير مجراه الحالي.. ورغم أن الكرد يتحرقون شوقا في نفوسهم إلى ضرورة تكوين دولة وطنية، إلا أنهم ممنوعون منها. إنهم يمثلون في صيغة ما أمة قوية بالقوة، ولكن بدون دولة بالفعل، هذه الدولة التي هي أمنيتهم الأخيرة ومثلهم الأعلى نيلها والوصول إليها.

بينا كيف أن التشتت العشيري وسيادة الفكرة الإسلامية المنافية للقومية لعبا دوراً فعالاً في الحيلولة دون تكون دولة كردية. لذلك يمكننا الآن مع الأخذ بنظر الاعتبار التحفظات المشار إليها آنفا، البدء بدراسة التاريخ السياسي لكردستان، وهذا يتضمن مع الأسف خللا كبيرا لأنه يفرق بين الكرد الأقدمين وأحفادهم الذين اعتنقوا الدين الإسلامي. ويمكننا أن نفترض أن هذا الشعب المحارب كان يبعث رجاله المسلحين إلى أباطرة الرومان والبيزنطيين والساسانيين للقتال إلى جانبهم دون أن نكون متأكدين من وقوع ذلك فعلا. كما يحتمل كثيرا أن هذا الشعب كان يعتنق الديانة الزردشتية إذ ما يزال بعض آثار هذه الديانة وبقاياها موجودة بين الأوساط الشعبية. وأخيرا يحتمل أن يكون هذا الشعب قد غير، خلال هذه الحقبة المديدة من تاريخه، لغته من لغة آسيوية قديمة إلى لغة هندوأوروبية، كما يذهب إلى ذلك البروفيسور (مار).

وعلى أي حال فإن هذه كلها تخمينات وظنون، ولكن حتى بالنسبة إلى الفترة التي دخل فيها الكرد الدين الإسلامي، يمكننا الجزم بأن التاريخ الكردي ما زال بحاجة لعمل الكثير. إن لدينا دارسات مجزأة، والكتاب الوحيد عن التاريخ الكردي الذي بين أيدينا هو كتاب (شرفنامه[٤]) الذي كتب باللغة الفارسية في أوائل القرن السادس عشر، ولم يمضي بعد وقت طويل منذ أن أكمله بكتاب باللغة الكردية المؤرخ الكردي ورجل الدولة العراقي محمد أمين زكي عام ١٩٣٨، ثم ترجم إلى اللغة العربية من قبل محمد علي عوني عام ١٩٤٥[٥]. ونشر المؤلف نفسه أيضا في التاريخ نفسه كتابا آخر عن مشاهير الكرد وكردستان[٦].

---

[٤] ترجم كتاب (شرفنامه) إلى اللغة الفرنسية ونشر في (سانت بتروسبورك) في روسيا عام ١٨٦٠. وترجمه إلى العربية السيد محمد علي عوني (ونشره في جزئين بالقاهرة دار إحياء الكتب العربية، في أوائل الستينيات. كما ترجمه إلى اللغة الكردية الشاعر المعروف (هژار) وطبعه في النجف الأشرف بالعراق عام ١٩٧٢ وأعاد طبعه في طهران فيما بعد – المترجم.

[٥] هذا الكتاب هو (خلاصه‌يه‌كى تاريخي كورد وكوردستان) الذي يقع في جزئين وطبع في ثلاث مجلدات في أواخر الثلاثينيات في بغداد. وقد ترجمه إلى العربية وطبعه في جزئين مختلفي العنوان الأول (خلاصة تاريخ الكرد وكردستان من اقدم العصور التاريخية حتى الآن) والثاني (تاريخ الدول والإمارات الكردية في العهد الإسلامي)، وقد طبع الجزءان بالقاهرة، الأول عام ١٩٣٦ وأعيد طبعه في بغداد عام ١٩٦١، والثاني عام ١٩٤٥ – المترجم.

[٦] ترجم هذا الكتاب أيضا إلى العربية من قبل كريمة المؤلف التي لم تذكر اسمها وصدر بجزئين في القاهرة بعنوان (مشاهير الكرد وكردستان في الدور الإسلامي) الأول في ١٩٤٥ والثاني في ١٩٤٧.

وهناك كتب تاريخية خاصة ببعض المناطق والأسر، وقد كتبت دراسة تاريخية موجزة عن (أردلان) في مجلة (R.M.M) بقي الكثير منها غير منشور لحد الآن. وهناك كاتب كردي معاصر هو السيد حسين حزني من رواندوز أشار إلى بعض تلك الكتب والمخطوطات في مؤلفاته. وقد كرس آخر سنوات عمره للبحث والتنقيب عن التاريخ الكردي ونشر المقالات مستعينا بتلك المواد والمخطوطات والحكايات الشفهية وبالمصادر العربية والتركية والفارسية. ونذكر من بين الكتاب الفرس (كسروى تبريزي) الذي انصرف لدراسة تاريخ الإمارات الكردية في إيران والقفقاس[٧]، بالإضافة إلى البروفيسور الكردي رشيد ياسمي الذي سبقت الإشارة إليه. وحسب ما نعلم، يهيئ الباحث السوفيتي فيلجيفسكي مؤلفا شاملا عن التطور الاجتماعي في كردستان، ولكننا لا نعرف شيئا عما آل إليه أمر مشروع إعداد هذا الكتاب. أما البروفيسور مينورسكي الذي يعد عميد الدراسات الكردية فيجب الإشارة إليه بنوع خاص لما لمؤلفاته من أهمية كبيرة في هذا المجال.

وهكذا يمكننا بفضل هؤلاء العلماء والباحثين جميعا أن نعطي فكرة موجزة عن مصير الكرد في تاريخ الدول الإسلامية. وسنقوم بتقسيم هذه الدراسة إلى ثلاث مراحل الأولى للفترة الممتدة بين الفتح العربي وما بعد غزو المغول، أي بين القرنين الحادي عشر والخامس عشر حيث ظهرت سلالات وانقرضت أخرى بحد السيف. وقد استفاد بعض الزعماء الكرد من تلك الظروف دون أن ينشئوا شيئا مستديما.

أما المرحلة الثانية فتمتد من القرن السادس عشر إلى أواسط القرن التاسع عشر حيث تكونت في كل من إيران وتركيا دولتان تبلورتا نسبيا تضمان بعض الإمارات والإقطاعيات الكردية المتنافسة. أما المرحلة الثالثة والأخيرة فهي التي تبدأ من القضاء على تلك الإقطاعيات والإمارات حتى ثورات (تركيا الفتاة) والفرس، وفيها ظهرت التباشير الأولى للحركة الوطنية الكردية.

---

[٧] يذكر السيد محمد القاضي مترجم هذا الكتاب إلى اللغة الفارسية أن عنوان هذا الكتاب هو (شهرياران كمنام) أي (الملوك المنسية أسماؤهم) وقد صدر في عام ١٩٥٠ – المترجم

ومن الأمور الجوهرية التي ينبغي الإشارة إليها في هذه الفترة المقاومة العنيفة التي أبداها الكرد تجاه العرب عند فتح كل من (حلوان) و (تكريت) (٦٠٧ - ٦١٦) والموصل والجزيرة وأرمينيا الجنوبية (كما يذكر ذلك كل من ابن الأثير والطبري والبلاذري). ويمكن تفسير هذه المقاومة بأسباب اجتماعية أكثر من أسباب دينية. لقد واجهت العشائر الكردية العشائر العربية على طول خط التماس بين الكرد والعرب، كما لو كانوا يتقاتلون من أجل الكلأ والمراعي. ولأجل ان يجذبوا إليهم الكرد المناهضين لهم، فقد استخدم بعض العرب دبلوماسية الزواج. لقد كانت والدة مروان بن الحكم آخر الخلفاء الأمويين كردية.

وحتى بعد دخولهم الإسلام، شارك الكرد في أكثر من ثورة، كثورة العبيد الزنج التي نشبت عام ٨٧٥. ويذكر لنا المؤرخ حزني حالة فارس كردي من منطقة الجزيرة خرج منتصراً في مبارزته مع أحد الفرسان المشهورين لهارون الرشيد (٧٨٦ - ٨٠٩)، وكذلك أفشين محمد الذي حارب ضد أعداء العباسي الموفق من الطولونيين (٨٦٨ - ٩٠٥) ثم تسلم منه ولاية إقليمي، شهرزور وأذربيجان، ووسع فيما بعد حدودهما على حساب العباسيين أكثر فأكثر.

خامسا - المرحلة الأولى من التاريخ الكردي، من القرن السابع حتى القرن الخامس عشر:

من بين الإمارات الكردية التي استمرت فترة طويلة ولها شهرة تاريخية واسعة، نذكر إمارة الشداديين. تأسست هذه الإمارة حوالي العام ٩٥١ (٣٤٠هـ) من قبل محمد شداد بن كرتو الذي ينتسب إلى عشيرة (روادي)، وهي العشيرة نفسها التي ينتسب إليها صلاح الدين الإيوبي. وفي عام ١٠٧٢ (٤٦٥هـ) انقسمت هذه الإمارة إلى قسمين (كنجه) و (آنى) وهي مدينة كانت تقع حينا في أيدي الجيورجيين (١١٢٤ - ١١٢٦)، ثم في أيدي الشداديين (١١٢٦ - ١١٦١) ومن (١١٦٥ - ١١٧٤). وقد قضى على هذه الإمارة ملكشاه السلجوقي. ولدينا بصدد هذه الإمارة دراسة رائعة للمؤرخ (كسروى) وأخرى أكثر عمقا

للبروفيسور مينورسكي[8]. ويجب أن نلاحظ أن هؤلاء الأمراء الكرد كانوا يحكمون سكانا معظمهم من الأرمن. وقد خلفوا من بعدهم آثاراً معمارية مرموقة من بينها جامعا (آني) المبنيان وفق الطراز المعماري المحلي. وآني هي المدينة المعروفة بمدينة الألف كنيسة وكنيسة. وقد كانت الثقافة الفارسية هي السائدة في (كنجه) أو في (آني). وفي الوقت الذي يمتلك تاريخ الشداديين حياة حافلة بالجلال والبهاء، يفيض أيضا بقعقعة السلاح باسم المفاهيم الدينية للإسلام.

وتأسست إمارة كردية أخرى أخرى عام ٩٥٩ (٣٤٨ هـ) في إقليم الجبال من قبل حسنوية بن حسن رئيس فرع (برزيكان) الذي كان عاملا لدى ركن الدولة البويهي. وعندما اشتكى البعض لدى هذا الملك البويهي من أعمال السلب التي يقوم بها الكرد، رد قائلا: "ولكن الكرد أيضا بحاجة إلى الأكل..". وقد امتدح المؤرخون العرب الصفات والمميزات الشخصية والسياسية للحسنويين. وقضى على إماراتهم شمس الدولة البويهي عام ١٠١٥ (٤٠٦هـ)[9].

والإمارة الكردية التالية التي اشتهرت أكثر من غيرها من الإمارات الكردية هي إمارة المروانيين التي تأسست من قبل أبي علي بن مروان بن دوستك واستمرت من ٩٩٠ (٣٨٠هـ). وكانت منطقة حكمه تمتد من ديار بكر وتشمل بعض المدن الأرمنية ومدينة (أورفه) أيضا للفترة من ١٠٢٥ - ١٠٣١. وتاريخ هذه السلالة معروف لدينا بفضل مخطوطة عربية محفوظة حاليا في المتحف البريطاني. وتبين لنا من دراسة هذه المخطوطة أن هذه الإمارة لا تختلف عن الإمارات الإسلامية الأخرى في ما عدا كون أمرائها من الكرد،

---

[8] دراسات في تاريخ القفقاس. ١: ضوء جديد على شداديي كنجه. ٢: شداديو آني. في سلسلة الشرق الصادرة عن جامعة كمبردج، ج٢، ١٩٥٣، باللغة الانكليزية.

[9] استقر أحفاد الحسنويين في مقاطعة (برادوست) الإيرانية حسب رأي المؤرخ الكردي محمد أمين زكي في كتابه (تاريخ الإمارات الكردية، الترجمة العربية. طبعة ١٩٤٥. ص ٣٨٨).ويشير مينورسكي إلى الدور التربوي لبدر بن حسنوية الذي كان يحكم عشيرته بقسوة ولا يسمح بهفوة صغيرة تبدر من أحد عماله.

ولم نجد فيها أي خصوصية كردية متميزة. وقد تمكن السلاجقة بفضل الدسائس التي حاكوها لهذه الإمارة من القضاء عليها. ومن بين الأمراء المروانيين نذكر أبا نصر أحمد (٤٠٢ - ٤٥٣هـ) الذي اشتهر بذكائه وعدله وثقافته الواسعة رغم أنه كان ميالا إلى اللهو. وقد بدأ حكمه بتوليه من ثلاثة ملوك معا: الخليفة والأمير البويهي وملك البيزنطيين(بازيل ليسلاف). ومن هذا يتبين لنا في ظل أية قوى كانت تمارس حكومة الأمراء الكرد المستقلة بالاسم هذه، سلطاتها. ومن وجهة النظر الاجتماعية نشير إلى فقرة في المخطوطة المشار إليها آنفا وهي تتعلق بكردي كان ضمن أناس أعتقوا من العبودية. وبذلك يمكن افتراض أنه كان يوجد بين العشيرة الكردية، بالإضافة إلى الفلاحين (گوران)، عبيد من الكرد صادف أن أعتقوا.

بقي أن نذكر أيضا إمارة بني عناز (٣٨٠ - ٥١٠ هـ) التي تأسست في منطقة الجبال عام ١١١٦، وكذلك إمارة (شوانكاره) التي تأسست في فارس في القرن الحادي عشر، رغم وجود شك لدى البعض حول أصلهم الكردي[١٠] وكذلك إمارة (هزار أسب) التي تكونت خلال الفترة ١١٤٨-١٣٣٩ في منطقة لرستان الكبرى. ورغم أن (شرفنامه) يعتبر اللر من الكرد إلا أن بعض المستشرقين يتحفظون حول أصلهم الكردي.

ونذكر أخيرا الإمارة الأيوبية (١١٦٩ - ١٢٥٠) التي لا ينكر أحد كرديتها، وكان معظم جنود جيشها من الترك، وقد امتد سلطانها على كل من مصر وسوريا وعلى قسم من بلاد ما بين النهرين و (خيلات - خلاط) على بحيرة (وان). ولئن سلمنا بترتيبت كتاب (شرفنامه) للإمارات الكردية، أمكننا اعتبار الإمارات الآتية إمارات من الدرجة الأولى وتتمتع بجميع مزايا السلطة الحقيقية، وهي:

١ - أمراء ديار بكر والجزيرة.

٢ - أمراء دينور وشهرزور.

---

[١٠] يؤكد رشيد ياسمي على أصلهم الكردي. في مؤلفه المشار إليه آنفا. ص ١٦٧ - ١٧٠ و صـ ١٩٢.

٣ و ٤ - (هزار أسب) أي فضلويو لرستان الكبرى والصغرى.

٥ -الأيوبيون[١١].

يتبين مما سبق بوجه عام أن الكرد كانوا يتمتعون في القرون الإسلامية الأولى بدور كبير في مصائر الخلفاء وخصومهم وذلك بوصفهم عناصر مقاتلة مشهورة يبحث عنها. ويقول البروفسور (مار) "إن الكرد خلال حكم السلاجقة كانوا مستقلين ومعتزين بأنفسهم ومقاتلين شجعانا يحسب لهم الترك ألف حساب، وبخاصة أنهم أنفسهم كانوا أيضا محاربين أشداء". ويرى (مار) أيضا أن مزيجا من الدماء الكردية والتركية أريقت بين الطبقات الدنيا منهما. ويضيف أنه كان من الطبيعي أن يؤثر الشعب الكردي في إعداد هذا الصنف من أتراك آسيا الصغرى عرقيا-وثقافيا، لأن الطرفين كانا متقاربين فيما بينهما اجتماعيا، وفي الوقت نفسه أنتجوا أيضا مزيجا كرديا مسيحيا[١٢]. ويعيد مينورسكي إلى أذهاننا أسطورة أرمنية تقول أن أميرين أرمنيين كانا مشهورين عسكريا، ويخدمان ملك (كرجستان) وهما (زاخاري) و (ايفان) كانا من أصل كردي.[١٣] يقول مينورسكي: "إن انتصارات (تامار) (١١٨٤ - ١٢١٣) تعود بصورة أساسية للقائدين (زاخاري) و (ايفان). واستنادا إلى أسطورة نعتبرها صحيحة، كان أجدادهما من كرد بلاد ما بين النهرين ومن عشيرة (بابيره كان). وحسب مخطوطة معتمدة كان هذان القائدان العسكريان ولدى (سركيس الثاني) ابن (زاخاري) ابن (أفاك - سركيس الأول).. الخ.

وأيا كان التداخل العرقي والثقافي الذي كان يلعب دورا في الأوساط الكردية قبل خروج الكرد من الإطار العشيري ومشاركتهم في الحياة داخل المدن أو داخل الدولة، فإننا نكرر

---

[١١] يعد لنا محمد أمين زكي أسماء أربعة عشر إمارة كردية. ونذكر هنا أسماء الإمارات التي لم نشر إلى أسمائها في قوائمنا: سالاريان أذربيجان (٣٠٠ - ٤٢٠هـ). أتابكو لرستان الصغرى (٥٧٠ - ١٢٥٠ هـ)، (أمراء أردلان ٦١٧ -١٢٨٤ هـ). (زند ١١٦٧ - ١٢٠٢ هـ)، (إمارة خراسان ٦٤٣ - ٧٨٥ هـ)؛ (براويس بلوجستان ١١٧٢ - ١٣٠٠ هـ).

[١٢] راجع بحثنا بعنوان (الكرد والمسيحية) المنشور في مجلة (العرق والتقاليد الشعبية) الفرنسية.

[١٣] مينورسكي في دراساته عن تاريخ القفقاس (شداديو أني) المشار إليه آنفا.

القول أن العامل الأساسي في السلطة والنفوذ الذين كانوا يحصلون عليهما هو الإسلام. ويقدم لنا المؤرخ الكردي حزني صورة غريبة لأحد حكام أربيل من أسرة (أبكتكين)، وهو (مظفر الدين كوكبوري) الذي يبدو من اسمه أنه تركي مستكرد، إلا ان حزني يتحدث عنه على أنه كردي. لقد كان لهذه الشخصية سياسة اجتماعية إسلامية متميزة جدا بالقياس إلى العصر الذي عاش فيه (القرن الثاني عشر)، ولا يتسع الإطار المحدود لكتابنا هذا لشرح تفاصيل هذه السياسة.

إن مسألة التداخل التركي - الكردي الذي تثيرها حالة (كوكبوري) لم توضح بعد بما فيه الكفاية. وعلى كل حال عندما نقلب صفحات التاريخ الكردي، يأخذنا العجب من كثرة الأسماء والألقاب التركية التي تلاءمت تماما مع المحيط الكردي.

ومع ذلك، وكما هو الحال بالنسبة للشعوب الأخرى في آسيا الصغرى، كان الإسلام قوة حضارية كبرى للكرد حدد لمدة طويلة سبيل تطورهم السياسي والاجتماعي. وسوف نتكلم عن الموضوع فيما بعد عند التطرق إلى الحياة السياسية لدى الكرد.

ولم يغدُ دور الكرد ضعيفا إلا بظهور المغول. ويذكر لنا حزني استنادا لما أورده أبو الفرج الأصفهاني أنه لما أقترب هولاكو من مدينة بغداد، حاول زعيمان كرديان على رأس قوة لا بأس بها أن يتصديا له، ولكن دون جدوى، فقد انقض عليهما هو وهزمهما. وقد تم استعادة مدينة أربيل (هولير في اللغة الكردية) من المغول بثمن مقداره ٧٠٠,٠٠٠ مثقال من الفضة سلم إلى هولاكو. ويروي أيضا أن هولاكو كان قد ضمن مساعدة الكرد التابعين لسليمان شاه قبل هجومه على بغداد[١٤]، وكان هذا الأخير منافسا لحسام الدين خليلك أتابك لرستان الصغرى. وكان سليمان شاه يتمتع بتأييد من الخليفة المستوفي بالله بينما كان منافسه حسام الدين خليل يحظى بمساندة المغول. وقد لقي حسام الدين مصرعه في

---

(١٤) عباس إقبال، تاريخ فارس، ج١، ص ١٨٢.

المعركة الداخلية، فخلفه أخوه بدر الدين مسعود الذي رافق هولاكو عند دخوله بغداد، كما فعل ذلك سليمان شاه الذي قتل، هو الآخر، في بغداد[١٥]. والجدير بالإشارة أن المصادر تختلف في بيان الانتماء العرقي لسليمان شاه، فبينما يتحدث عنه المؤرخ الفارسي عباس إقبال بأنه"زعيم كردي محترم"، يقول محمد علي عوني ناشر الطبعة العربية لكتاب المؤرخ الكردي محمد أمين زكي (تاريخ الدول والإمارات الكردية في العهد الإسلامي) "إنه كان زعيم قبيلة (ايواى) التركمانية[١٦]".

وبوجه عام، يمكننا الافتراض أن موقف المغول تجاه الكرد أملاه الوضع الناشئ من استمرار جلال الدين منكوبرني في المقاومة من كردستان في آخر مراحل مقاومته عندما كانت تطارده قوات المغول بقيادة (جور مغون نويان).

وهكذا انسحب الكرد إلى جبالهم وبقوا في حالة الاستعداد والانتظار، وخضعت الديار الكردية تدريجيا لحكم الأمراء المغول. ومع ذلك يذكر لنا (شرفنامه) حالات نال فيها الزعماء الكرد حقوقهم في أيام (تيمور لنك). أما التركمان من الخروف الأبيض (آق قوينلو) في القرن الخامس عشر، فقد حاولوا جاهدين إفناء الأسر الكردية الكبيرة، وبذلك كانوا أخطر بالنسبة للكرد من المغول.

---

(١٥) المصدر السابق. ص ٤٥٠.

(١٦) تاريخ الدول والإمارات الكردية في العهد الإسلامي (باللغة العربية) الهامش، ص ١٥٣. وحول اختلاط التركمان بالكرد في نهاية القرن الثاني عشر. راجع (كاهين) في "ملاحظات حول تاريخ التركمان في آسيا الصغرى في القرن الثالث عشر" (باللغة الفرنسية) في المجلة الآسيوية. ١٩٥١، الجزء الثالث، ص ٣٥٢.ونشرت في المجلة نفسها دراسة ممتعة للمؤلف نفسه بعنوان "مساهمة في تاريخ ديار بكر في القرن الرابع عشر" لسنة ١٩٥٥. الجزء الأول. ويعطينا فيها معلومات وافية عن العشائر الكردية في أعالي دجلة في تلك المرحلة. وأخيراً نشير إلى دراسة البروفيسور مينورسكي عن حالة الكرد في القرن الخامس عشر.تحت حكم السلالات التركمانية في حوض بحيرة (وان) أي في محافظات (هكارى) و (بدليس) و (خيزان). المنشورة في مجلة Thomas بلاد ما بين النهرين. ص ١٣٧٨ – ١٤٤٨ بعنوان (حروب التركمان التيموريين. تصحيح ونشر محمد شفيع. طبعة لاهور ١٩٥٥).

الفصل التاسع

الكرد والدولة (ملحق)

سادسا - المرحلة الثانية من التاريخ الكردي، منذ بداية القرن السادس عشر حتى منتصف القرن التاسع عشر. النظام الإقطاعي في كل من الدولة العثمانية وإيران.

خلال هذه الحقبة الزمنية تكونت نهائيا كل من الدولتين الكبيرتين العثمانية التركية والإيرانية. وبقيامهما بقي مجال محدود أمام الشعب الكردي لنيل استقلاله. وعندما حضر أحد عشر زعيما كرديا سنيا أمام الشاه اسماعيل الشيعي، المتعصب ومؤسس السلالة الصفوية في مدينة (خوى)، أمر بزجهم جميعا في السجن وعين أشخاصا آخرين من أتباعه في أماكنهم بدلا منهم. وبالعكس كان السلاطين العثمانيون أكثر دبلوماسية ونجحوا في كسب ود الكرد بعد معركة (جالديران) عام ١٥١٤ التي كانت هزيمة دموية نكراء للفرس.

وقد كلف كردي هو الحكيم إدريس البدليسي[١٧] بالسعي لإدخال وطنه في نظام الدولة العثمانية والانضمام إليها. وهكذا لم يطرأ أي تغيير أو تبديل على حالة الشعب الكردي الداخلية، فقد أنشئت ثمانية سناجق تدار من قبل الزعماء الكرد (اكراد بيلغي) في إقليم (ديار بكر)، كما أن خمسة حكام كرد (كورد حكومتلرى) احتفظوا بإماراتهم المتوارثة. وقد وسع هذا النظام ليطبق على جميع أرجاء كردستان تركيا من (ملاطية) إلى (بايزيد) و (شهرزور). ويحمل لنا الرحالة التركي المعروف (أوليا چلبى) الذي عاش في القرن السادس عشر شهادته على ذلك بنقله ما رآه رأي العين[١٨].

---

[١٧] الصحيح هو الحكيم الملا إدريس البدليسي الذي كان يوصف بالحكمة لفطنته ورجاحة عقله. وتتعرض هذه الشخصية الكردية المرموقة ذات النفوذ الواسع في البلاط العثماني إلى انتقادات مرة ذات صفة عاطفية في الغالب من قبل كثير من القوميين الكرد الذين يتهمونه بأنه أوقع الإمارات الكردية المستقلة فعلا بين مخالب السلطة العثمانية. غير اننا نرى أن نشاط هذا الرجل بحاجة إلى دراسة علمية معمقة مبنية على الرجوع إلى الوثائق الباقية في الأرشيفات التركية عما قام به بين الأمراء الكرد المحليين والسلطات العثمانية. والاتفاقيات التي استقر عليها الأمر فيما بعد بوساطته بين الطرفين – المترجم.

[١٨] راجع دراسة مينورسكي عن (الكرد) في E.J. ودراستي عن النظام الإقطاعي الكردي في مجلة (R.M.M). الجزء ٢٠، ١٩٢٥.

يعتبر الوطنيون الكرد المعاهدة التي أبرمت عام ١٥١٤ بين الدولة العثمانية و٢٣ إمارة كردية معاهدة تحالف وصداقة[١٩]. وخلال أكثر من ١٥٠ عاما لم يتخلف الكرد عن تنفيذ واجباتهم إزاء الدولة العثمانية بموجب تلك المعاهدة، فاشتركوا في جميع الحروب التي خاضتها هذه الدولة وقدموا خلالها عشرات الألوف من الضحايا.

لاشك في أن قيام الدولتين العثمانية والإيرانية يسجل فترة جديدة في التاريخ الكردي. وكما سبق ان قلنا في الفصل السابق، لم تكن هاتان الدولتان منظمتين وفق مبادئ القانون الدولي في الغرب. إن طبيعة السلطة المركزية والتلاحم بين مختلف أجزاء الدولة وصلاحيات السلطات المحلية ودرجة مسؤولياتها، وحتى الحدود السياسية للدولة كانت جميعا عرضة للتغير الكامل من عهد إلى عهد، ناهيك عن فترات الفوضى والحروب.. الخ، التي كانت في الواقع أكثر من فترات الإدارة الطبيعية في البلاد.

وباختصار، نظم الكرد في مثل هذه الأجواء المضطربة أنفسهم بالصورة التي كانت تحلو لهم، واعتادوا على حالة الفوضى المستديمة هذه[٢٠]. وتستوي في هذا الأمر الإمارات الكردية المستقلة من الصنف الأول التي أورد ذكرها (شرفنامه) والإقطاعيات من الصنف الثاني المتنافسة فيما بينها، التي كانت تدار عن طريق روابط التبعية من قبل الدولة المركزية أو يحكمها ببساطة رؤساء العشائر القوية. ويذكر (شرفنامه) من بين الإقطاعيين (١) حكام أردلان، (٢) حكام هكارى (شنبو)، (٣) حكام العمادية، (٤) حكام الجزيرة بفروعهم الثلاثة: ئازيزان وكوركيل وفينك، (٥) حكام حسن كيف. وكان هؤلاء الحكام الإقطاعيون يسكون النقود بأسمائهم وتذكر أسماؤهم أيضا في خطبة الجمعة. أما الصنف الثالث فيضم أعداداً من الزعماء الكرد، ولكن بدرجة أقل أهمية، بينما يضم الصنف

---

[١٩] نذكر على سبيل المثال ثريا بدرخان في مقال له بعنوان "قضية كردستان ضد تركيا" باللغة الإنكليزية. برنستون، N.J. ١٩٢٨، ص ٢٧-٢٨.

[٢٠] يشير بيتروشيفسكي، المرجع المشار إليه سابقا، إلى وقوع عدد من الثورات الكردية في أذربيجان. وبخاصة في سنة ١٠٢٥هـ (١٦١٦). وأخرى في عام ١١٥٦ هـ (١٧٤٣ - ١٧٤٤) في (خوى) و (سلماس). وكذلك في سابوجبلاغ [مهاباد الحالية - المترجم] بين ١٧٠٩ - ١٧١٥ التي امتدت لتشمل أقاليم تبريز ومغان. وقد نشبت في الأغلب نتيجة ثقل أعباء الضرائب المفروضة عليها.

الرابع أمراء بدليس وحدهم، ومن بينهم مؤلف كتاب (شرفنامه) الأمير شرف خان البدليسي.

وعلينا أن لا نتشدد في الحكم على الكرد فيما يتعلق بأوضاعهم السياسية. إن الوسط الذي نشأوا فيه لا يدخل ضمن أي من المبادئ الضرورية لتكوين إدراك حقيقي لحقوقهم وواجباتهم تجاه الدولة. ويكشف لنا (مولتكه)، بحق، أن الكردي العشيري أثبت دوما أنه شديد التمرد تجاه المؤسسات الثلاث التي تعد حاليا أساسا للمجتمع الوطني الحديث، وهي: الخدمة العسكرية الإلزامية، والضريبة والجمارك.

وعلى كل حال فإن تدخل السلطة المركزية في الشؤون الكردية في الدولة العثمانية بدأ بعد الهزيمة التي أصيبت بها هذه الدولة أمام أبواب فينا ١٦٨٣. وأول بادرة في هذا المجال كانت تعيين السلطان سليمان حاكما عاما على (ديار بكر) ليكون حلقة الوصل بينه وبين الإقطاعيين الكرد. ومن ثم بدأ الأتراك يطبقون سياسة (فرق تسد) التي لقيت نجاحها المعتاد، كما يلاحظ ثريا بدرخان. وهكذا تحولت الإمارات الكردية إلى أقاليم تركية، ولم يعد الزعماء الكرد يتمتعون إلا باستقلال اسمي. وبلغت هذه الإجراءات غاياتها في أواسط القرن التاسع عشر في ظل حكم السلطان عبد المجيد. وكانت آخر محاولة للمقاومة، ثورة الأمير بدرخان في جزيره عام ١٨٤٧، ولكنه وقع صريع خيانة ابن عمه بعد أن الحق هزائم متتابعة بالترك.

أما في إيران، فإن أمراء أردلان الذين كانوا وحدهم الذين يتمتعون من بين الزعماء الكرد باستقلال إماراتهم بعد القضاء على أمراء (هزار أسب) اللر، فقد جردوا أيضا من امتيازاتهم تدريجياً، وحل محلهم عام ١٨٦٠ الأمراء القاجار. وكما يذكر المؤرخ الكردي حزني في مؤلفاته ومنها (الكرد ونادرشاه) و (مشاهير الكرد)، فقد أسهم الكرد الإيرانيون بنشاط في الأحداث العامة خلال فترة خلو العرش الإيراني في القرن الثامن عشر، هذه الفترة التي تميزت بالقتال بين نادر شاه والصفويين، وبين القاجاريين والبختياريين والأفشار. ولم يكن مجيئ الكرد للسلطة ممثلين بشخص كريم خان زند (١٧٦٠ - ١٧٦٩) الملك الإنساني العادل والمحب للفنون إلا عهدا مبتوراً لأنه لم يدم طويلا.

ومن بين الشخصيات الكردية التاريخية الأقل نفوذا التي يقدم لنا عنها المؤرخ حزني صورة فذة، شخصية الأمير محمد الذي حكم في منطقة رواندوز في بداية القرن التاسع عشر (١٢٢٩ - ١٢٥٤ هـ)، وقد كان له جيش قوامه ثلاثون ألف رجل. ورغم أن هذا الأمير سك النقود باسمه، إلا أن المؤرخين لا يذكرون أنه أمر بذكر اسمه في خطبة صلاة الجمعة. وقد استطاع الأمير محمد هذا أن يوسع رقعة إمارته ويضم إليها أراضي كردية في المناطق الغربية حتى نصيبين وماردين ماعدا الموصل وباستثناء السليمانية شرقا. وفي عام ١٨٢٦ أعلن استقلال إمارته ودخل في علاقات دبلوماسية مع إيران ومصر. وقد أناطت الدولة العثمانية أمر هذا الأمير بكل من محمد باشا انجى بيرقدار ومصطفى رشيد باشا ديبلوماتلى. وكان ذكاء حاذقا من هذا الزعيم الإقطاعي الكردي أن عرف كيف يستفيد من الإضطرات الذي نشأ في الدولة العثمانية بسبب ثورة باشوات مصر. ويحدثنا (مولتكه) كيف أن الباب العالي كان يحاول جاهدا أن يستميل إليه الكرد قسرا ويجندهم لمحاربة الثوار في مصر.

سابعا - المرحلة الثالثة من التاريخ الكردي، من منتصف القرن التاسع عشر حتى الحرب العالمية الأولى. إزالة نظام ملوك الطوائف في تركيا وإيران.

يقول فيلجيفسكي: إن زوال نظام ملوك الطوائف في كردستان سببه أن الزعماء الكرد بضغطهم الكثير على رعاياهم، انتهوا بنخر الأسس التي تقوم عليها قواهم العسكرية. وفي الوقت نفسه لم يعرفوا كيف يسايرون التحولات الاقتصادية التي وقعت في الوسط الكردي، على غرار ما فعل (الاوباباشيه). لقد صفى هؤلاء "الرأسماليون" الذين صنعوا أنفسهم بأنفسهم نظام ملوك الطوائف على هذا النحو، كما صفى ملوك الطوائف أيضا في الماضي المجتمعات الكردية المبنية على أساس نظام العائلة الواحدة. ويجب أن نضيف إلى ذلك ما ذكره الأمير ثريا بدرخان من أن سياسة السلطان العثماني والشاه الإيراني المبنية على تولي الحكومة المركزية السلطة بنفسها، كانت من أهم العوامل التي أسهمت في زوال ذلك العهد.

ونتيجة للتأثير المشترك للعاملين الاقتصادي والسياسي، دخلت كردستان حوالي منتصف القرن التاسع عشر مرحلة جديدة، مرحلة ماتزال مستمرة إذا ما وضعنا جانبا بعض الوجوه.

ولنا أن نتساءل كيف غدت حالة الكرد بعد زوال السلطة المتوارثة لزعمائهم التقليديين، بينما لم يبذل شيء جدير بالذكر يرمي إلى أن تحل مكان تلك السلطة سلطة أخرى قادرة على إنصاف هذا الشعب وحمله على تقبل الحياة الاعتيادية ضمن نطاق الدولة؟.

يحمل لنا الكونت (دي شوليه) الذي سافر إلى كردستان حوالي نهاية القرن التاسع عشر، شهادة بهذا الخصوص. إليكم ما يقوله بشأن نتائج الإصلاح القضائي الذي أدخل إلى الدولة العثمانية:

"إن التنظيم الحالي المستنسخ من نظامنا، يعمل جيدا في الداخل مع السكان الهادئين الذين يتقبلون الانقياد، ولكنه غير مقبول من لدن أهل الجبال الذين لا يخشون إلا القوة، الذين سبق لهم أن ثاروا أكثر من مرة، ويستهزئون بأوامر الاستحضار التي يحملها إليهم رجال الدرك، كما يسخرون من الأحكام التي تصادرها بحقهم المحاكم. إن المدعي العام المسكين يعمل من أجل إصدار أحكام الموت كل سنة بحق حوالي خمسين شخصا، ولكن هؤلاء مايزالون باقين على ما هم عليه، وكأنهم لم تعضهم بعوضة[٢١]".

ونجد لدى شوليه أيضا قصة محترمة عن بعض زعماء عشيرة (هموند)، هذه العشيرة التي تغير على الأراضي العثمانية والإيرانية معا. إنهم يفزعون المسافرين ويقطعون الطريق على القوافل، ويصادف مع ذلك أن يتصالحوا مع ممثلي السلطة بتقديم الهدايا إليهم، وأحيانا بتوليهم مناصب إدارية لفترة من الزمن!

أننا مضطرون أن نقول: في وضع كهذا لا يستحق أولئك الحكام أن يحكموا أناسا غير هؤلاء. ولأجل أن لا تصبح كردستان منبعا غير اجتماعي، يجب أن تتوفر القدرة والمعرفة

---

[٢١] أرمينيا. كردستان وبلاد ما بين النهرين. باريس ١٨٩٢ (باللغة الفرنسية). ص ٢٣٥ – ٢٣٧.

على وضعها في محيط آخر غير محيط الفرس القاجاريين الفاسدين أو في بيئة تركيا العثمانية وهي في مراحل انحلالها الأخير. ولنذكر بعض الأمثال المستقاة من البيئة الكردية:

عقب ثورة الشيخ عبيد الله النهري عام ١٨٨٠ قام القائد الفارسي (أمير نظام) المنحدر من عائلة فارسية كانت تحكم منطقة (كروس) منذ سبعمائة سنة باستدعاء الزعيم الكردي (حمزة آغا) وأقسم له بالقرآن أنه لن يلحق به أذى طالما هو على وجه الأرض. وبعد مرور فترة من الزمن حفر له هذا المسؤول الفارسي حفرة في خيمته، ثم دعاه إلى المثول أمامه. ولدى دخول حمزه آغا، كان أمير نظام قد أخفى نفسه في الحفرة وأعطى الإشارة المتفق عليها لرجاله لاطلاق النار على القادم، فاخترق وابل من الرصاص جوانب من الخيمة، قتل على أثرها حمزه آغا. وكان أمير نظام فرحا جزلاً لأنه لم يحنث بيمينه، إذ أنه نزل تحت الأرض ولم يكن على ظهرها عندما أعطى الأمر بقتله ! وبالطريقة نفسها جرى في (مياندواب) ذبح رؤساء عشيرة (بلباس) الذين كانوا مدعوين في إحدى المناسبات. كما ألقي القبض في تركيا على الثائر الكردي المشهور (يزدان شير) بطريقة مماثلة.

ومن هنا يتضح لنا لماذا رسخ الاحتراز والحذر جذوره عمقا في نفوس الكرد، ولماذا لم يستطيعوا أن يندمجوا داخل المجتمعات السياسية التي يعيشون ضمنها؟.

ولابد لنا من أن نقول كلمة بصدد المحاولات التركية التي كانت ترمي إلى جعل الكرد يخضعون لنوع من الانضباط الذي كانوا يريدون فرضه عليهم وذلك عن طريق خلق وحدات غير نظامية أطلق عليها اسم (أفواج الحميدية). (والتاريخ يعيد نفسه هنا وهناك- المترجم). لقد كان المشروع من بنات أفكار شاكر باشا، وقد أنشئت "مدارس عشائرية" [عشيرت مكتبلري] في كل من القسطنطينية وبغداد عام ١٨٩٢ هدفها أن تدخل في أذهان الكرد والعرب الرحل روح التعلق بالدولة العثمانية، ولكن هذه المدارس لم يكتب لها النجاح. أما مسألة التجنيد الإجباري فقد أنيط أمر تطبيقها بمحمد زكي باشا الذي التقى به (شوليه) في أرضروم. وبوصفه عسكريا أيضا، فقد تحدث عن هذا المشروع بشيء من الارتياب:

"كثيرون من الأشخاص ذوي الخبرة يخشون انخراط الكرد في الجندية. إنهم يخشون استيقاظ ميولهم الحربية. ففيما إذا حدث أن ثاروا، يكون العثمانيون قد وضعوا في أيديهم ما كان ينقصهم مَن التاكتيك الحربي ومن السلاح".

وقد اقتنع الأتراك أنفسهم أخيرا بوجوب تحويل أفواج الحميدية إلى فرسان خفيفة غير نظامية (خفيف سواره يي)!(كالافواج الخفيفة التي انشاها النظام العراقي وتلك التي انشاها النظام التركي لمحاربة الحركة الوطنية الكردية في هذين البلدين-المترجم-).

أي مسافة زمنية تم اجتيازها منذ العهد الذي كان فيه الكرد والسلاجقة في مستوى اجتماعي واحد، وكانوا في الغالب حلفاء فيما بينهم؟

ونجد بعض التقييم لتشكيلات الفرسان الحميدية لدى ضابط الماني يدعي (كراف فون ويستارب) الذي زار كردستان بعد مضي عشرين عاما على تأسيس تلك التشكيلات. إنه يقول: "من الممكن تحويل هذه التشكيلات غير النظامية إلى آلة حربية فعالة إذا ما حظيت بتدريب عسكري تحت امرة رؤساء تلقوا هم أيضا تدريبات عسكرية وتاكتيكية ضرورية، في حين أن منتسبي هذه التشكيلات لم يجندوا إلا في فترات تتراوح بين شهرين إلى ستة أشهر خلال السنوات الثلاث الأولى، ولشهرين في السنوات التسع الأخيرة".

ولسوء الحظ كان الكرد المسلحون من قبل الترك يستخدمون أداة عمياء لتنفيذ سياسة عبد الحميد ضد الأرمن. أما الكرد الناضجون، فلم ينخدعوا بهذه السياسة ونواياها وأهدافها غير النبيلة. وينسب إلى الزعيم الكردي الشيخ عبيد الله النهري (١٨٨٠) هذا الجواب عندما طلب منه بعض أنصاره أن يسمح لهم بتقتيل نصارى (أوروميه) إذ قال "نحن الكرد ننفع الترك في شيء واحد وهو أن نكون أسلحة في أيديهم ضد المسيحيين. وعندما لا يبقى مسيحي في الساحة، فإنهم يقلبون ظهر المجن لنا ويبيدوننا جميعا".

وفي زمن أقرب إلينا، في عام ١٩٢٨، كتب ثريا بدرخان في كتابه المشار إليه آنفا ما يلي: "في تشرين الأول (اكتوبر) عام ١٩٢٧ اعتبرت منظمة (خويبون) أي اللجنة الوطنية الكردية الممثلة للشعب الكردي، وممثلو الشعب الأرمني السلطة التركية عدواً مشتركا للشعبين، وأعلن الطرفان عن تضامنهما واشتراكهما في المصالح وأجريا مصالحة عامة بين

الشعبين. إنني أعرب باسم أبناء شعبي عن تمنياتي الخالصة للشعب الأرمني الشجاع وأؤكد له احترامي لهدفه القومي المشروع الذي هو إنشاء دولة أرمنية مستقلة وموحدة".

أيجب الكلام عن سلوك جماعة (تركيا الفتاة) إزاء الشعب الكردي؟ يتحدث مينورسكي في كتابه باللغة الروسية عن الكرد بصيغة مليئة بالعتاب على جحود الترك إزاءهم.

إننا نأسف كذلك لكوننا لا نستطيع أن نجد في إيران أي بادرة خير لصالح الشعب الكردي. "إنها لواحدة من المآسي الكبرى في تاريخ الشعب الكردي أن يكون الشعبان الكردي والفارسي اللذان ينتميان لعنصر واحد ويدينان بدين واحد ويتمتعان بتركة اجتماعية وثقافية مشتركة، لا يستطيعان سد الفجوة عديمة الفائدة الناشئة عن اختلاف المذهب بينهما[٢٢]".

إن المسألة الكردية في إيران تعتبر جزءا من مشكلة عامة هي مشكلة جميع العشائر التي ماتزال تنتظر الحل: لقد ولد مشروع قانون (دي موركان) الذي أعد في سنة ١٩١٣ ميتا. ويبدو أن الإجراءات التي اتخذتها إدارة رضا شاه كانت غير صالحة[٢٣].

* * * * * * * * * * * * * * *

ومن وجهة نظر الفكرتين المتصاحبتين (الدولة) و (الأمة) رأينا أن مصير الشعب الكردي لم يترجم حتى الآن إلى مزج كامل بين هذين العنصرين للوجود السياسي، وبعكسه يتعرض هذا الشعب حسب تعبير البروفيسور مار - إلى أن يصير "شعبا منسيا من التاريخ".

صحيح ان الشعب الكردي لا تنقصه القوة الضرورية لتكوين دولة، وقد سبق أن أسس في القرنين الحادي عشر والثاني عشر إمارات مستقلة عديدة، إلا أن الفكرة القومية وإرادة

---

[٢٢] ثريا بدرخان، المصدر السابق. ص ٢٧.

[٢٣] راجع على سبيل المثال بشأن عشائر فارس كتاب محمد بهمن بهمن بكي. عشائر فارس (باللغة الفارسية). طهران ١٩٤٥. وباللغة الروسية هناك دراسة لـ (بيلوفا) بعنوان "التشريع الزراعي للنظام الملكي لرضا شاه" في مجلة (المشاكل الوطنية وقضايا المستعمرات). ص ١٦٨ - ١٨٩.

تكوين أمة "واحدة غير قابلة للتجزئة" كانتا غير متوفرتين لديه. إن الإمارات الصغيرة التي تكونت له كانت تقوم على أسس شخصية، كما أن تعريب بعض الكرد أو تفريسهم وتمسكهم الشديد بالإسلام، كل هذه الأسباب جعلتهم لا يشعرون بانتمائهم القومي إلا اسميا، وإن كانوا قد نالوا بعض النجاح.

إن التشتت الجغرافي للعشائر وعدم قابلية رؤسائهما للارتفاع بمستوى فهمهم إلى إدراك مصالح أوسع وعدم التزامهم وتلاحمهم فيما بينهم وعدم وجود شعور كردي مشترك لديهم، وكذلك تأثير الإسلام اللاقومي عليهم، رغم أنه لا يمكن إنكار تأثير رسالته الحضارية فيهم، كل هذه الأسباب أسهمت في منع الشعب الكردي في تكوين دولة قومية له خاصة به.

ومع ذلك، وفي الوقت نفسه، لا يمكن إنكار ذاتية القومية الكردية التي ترعرعت دون أن يشعر بها ضمن نطاق العشيرة، ثم من بين الإقطاعيين[٢٤]. وفي النتيجة، إننا نعتقد بوجود أمة كردية رغم أن الأتراك والفرس رفضوا الاعتراف بها. وهذا ما جعل جميع الإجراءات التي اتخذت إزاء هذا الشعب منذ انتهاء عهد ملوك الطوائف غير مؤثرة. إن البحث التالي الذي يتناول دراسة الحركة الوطنية الكردية، سيلقي الضوء على المراحل المتعاقبة وعلى الطرق والبرامج المتبعة بهذا الصدد.

إننا نتمسك بوجهة نظرنا حول اعتبار كل من تركيا وإيران والعراق، وهي الدول التي ارتبط بها بوجه خاص مصير الشعب الكردي، ستتطور كجميع بلدان الشرق أيضا، باتجاه فهم قومي للدولة.

---

[٢٤] وفي ذلك لا يختلف الشعب الكردي عن الشعوب الأخرى المجاورة له في كيفية نشوء فكرة القومية لديه – المترجم.

الفصل العاشر

الحركة الوطنية الكردية

أولا - الفائدة المتوخاة من وراء بحث هذه المسألة:

إننا لا نخفي السمة الصعبة لهذا الموضوع الذي نتطرق إليه. وأول ما يتبادر إلى أذهاننا هو هل الكرد جديرون بتكوين دولة خاصة بهم؟ وإذا ما تأسست هذه الدولة، هلي يمكنها أن تدوم؟ وهل تكون هذه الدولة عامل سلم وأمان؟ أو بالعكس، أولا يكون مجيئها سببا لزيادة تعقيد الحالة في منطقة الشرق الأوسط؟ قد تتباين الأجوبة عن هذه التساؤلات، لكنها لا تحول دون الإقرار بضرورة حل للمعضلة الكردية لأنه يكون زوراً وظلماً اعتبار هذه المظاهر المعبرة عن الإرادة الوطنية الكردية أعمال عنف وعصيان بسيطة. إن تاريخ الحركات الوطنية يعلمنا أن البداية لم تهل إلا بحمل السلاح في اليد، ولدى نجاحها تحول هؤلاء "اللصوص" و "قطاع الطرق" إلى "أبطال وطنيين".

إنه لخطأ بين أن نتوقف بعد دراسة مختلف اوجه الحياة الكردية ونرفض متابعة البحث ونسكت عن مرحلة التطور الحالية لهذا الشعب، فبذلك نكون قد قصرنا إزاء الهدف الذي توخيناه من تأليف هذا الكتاب.

ثانيا - ثلاث مراحل من الحركة الوطنية:

لقد عرفت الحركة الوطنية الكردية حتى الآن ثلاث مراحل:

المرحلة الأولى هي فترة التمردات والهيجانات الاجتماعية وثورات الإقطاعيين الحريصين على امتيازاتهم. لقد رافقت ثورة (الفتيان الترك) محاولات عدة قام بها الكرد من أجل تنظيم أنفسهم بغية الحصول على نظام يعترف فيه بخصوصيتهم القومية. وتلك هي المرحلة الثانية. أما المرحلة الثالثة والأخيرة التي أعقبت الحرب العالمية الأولى، فقد بحثت فيها المسألة الكردية في المحافل الدولية (معاهد سيفر ومن ثم معاهدة لوزان). والمرحلة الحالية تبتدئ

من تاريخ تأسيس اللجنة الوطنية الكردية (خويبون) في سنة ١٩٢٧ التي تعتبر منذ تأسيسها منظمة مسؤولة عن هذه الحركة[١].

والآن، لنتوسع في دراسة الحوادث التي تتابعت في هذه المراحل الثلاث:

أ – تمرّدات وثورات دونما مخطط عام:

١ – ثورة عبد الرحمن باشا بابان ١٨٠٦:

إن عبد الرحمن باشا بابان هو ابن أخ إبراهيم باشا به (بابان)، باني مدينة السليمانية عام ١٧٨٦[٢]. فبعد أن أغمد الخنجر في صدر الحاكم التركي لمدينة كويسنجق وقهر منافسه الكردي خالد باشا بابان الذي عين مكانه حاكما على السليمانية، انتقل إلى إيران. ورغم مساعدة الشاه له، فقد تغلب عليه الأتراك بمساعدة أبناء خالد باشا، فاضطر إلى اللجوء إلى إيران ثانية. وقد تغنى الشعب بمآثره في فولكلوره الشعبي[٣].

٢ – ثورة (بلباس) عام ١٨٨١

حسب التقارير العسكرية الروسية[٤]، فشل ولي العهد الإيراني الأمير عباس ميرزا في قمع ثورة أبناء عشيرة (بلباس) وتكبد خسائر فادحة. وفي الفترة نفسها، أي في حوالي سنة ١٨١٥، ثار الكرد القاطنون في باشويات (باشالك) (بايزيد) و (وان) الذين انضم إليهم الكرد الرحل في إيران (في اريوان ونخجوان وخوي). إلا أن حاكم أرضروم العسكري تمكن

---

[١] يقصد الفترة السابقة للحرب العالمية الثانية. لأن تنظيمات سياسية أخرى تكونت في مختلف أجزاء كردستان منذ نهاية تلك الحرب، تمثل قطاعات واسعة من شعب كردستان. بل تكونت حتى في الفترة ما بين الحربين منظمات عديدة في كردستان العراق – المترجم.

[٢] ريج، رحلة .. الجزء الأول، ص ٣٨٤.

[٣] أوسكار مان، الجزء الثاني، ص ٤٥٤ – ٤٦٠، برلين ١٩٠٩.

[٤] راجع تقرير فيليا مينوف الذي رفعه إلى أرميلوف في ٢٤ نيسان ١٨١٨ وإلى رسالة الأخير إلى نيسيليورود ١٠ آب ١٨١٨.

من إخماد الحركة. وحسب مايقول (فيلجيفسكى)[٥] لم تكن القضية مجرد دسائس بعض الزعماء بل كانت ثورة جماهيرية. لقد كانت الجماهير الكردية تضطهد ليس فقط من قبل أسيادها الآغوات، بل من قبل الحكام الترك أيضا الذين دمروها بسبب ركضهم وراء الربح الفاحش وسلبوا أموالها مستغلين وجود الحروب المستديمة، كما تقلصت الأيدي العاملة لدى الرحل بسبب دعوتهم إلى حمل السلاح.

وسجلت السنوات ١٨١٨ و ١٨٢٠ و ١٨٢٢ سلسلة من الثورات والانتفاضات الموجهة ضد الدولتين العثمانية والإيرانية على حد سواء. وفي عام ١٨٢٥ وضع السيف في أعناق جنود معسكر فارسي حصين من قبل الكرد وأبيدوا عن بكرة أبيهم.

٣ - الكرد خلال الحرب الروسية - التركية (١٨٢٨ - ١٨٢٩):

امتنعت عن الاشتراك في هذه الحرب الإمارات الكردية التالية: (رواندوز، بوتان، بابان، هكاري). وقد حاول بهلول باشا وهو كردي من بايزيد التحالف مع الروس ولكنه لم يفلح في ذلك. كما أن أمير باشا من (موش) حاول بدوره التخلص من التزاماته تجاه الأتراك. ويري فيلجيسفكي أن المسألة لم تكن بسبب حب الزعماء الكرد للروس، بل لصعوبة استمالة الفلاحين لتجنيدهم من قبل هؤلاء الرؤساء الإقطاعيين، فلم يكن بوسعهم انتزاع المزيد من الأيدي العاملة المرتبطة بالأرض بعد أن كان عددهم قد قل كثيرا.

وبجانب هذا التوتر الاجتماعي، انجلت المشاعر القومية أكثر فأكثر. ويقول فيلجيفسكي إننا نكون مخطئين إذا اعتبرنا الذين أثاروا تلك الأحداث عصاة وقطاع طرق وحوشا. يقول (تروتيه) في كتابه المعنون (الكرد في آسيا الصغرى): كان الكرد خلال الحرب الروسية - التركية (١٨٢٨ - ١٨٢٩) أسياد الموقف. والأسر التي فرقتها الفتن سابقا اتحدت فيما بينها لتشعل لهيب ثورة كبرى كانت موجهة ضد الإقطاعيين الكرد والترك الذين الحقوا باستبدادهم واستغلالهم أضرارا كثيرة بالاقتصاد الرعوي. لقد كانت (الأوباباشية) - وهي بؤرة البورجوازية الفلاحية - المحرضة على هذه الثورات. ولكن يجب أن لا ننسى أن

---

[٥] فيليجيسفكي. المصدر السابق. ص ١٥٧ - ١٥٨.

الشعور الوطني الكردي قد تبلور في البداية لدى الصفوة المختارة بين الزعماء ومن حولهم ليدخل محيط الجماهير فيما بعد، ولم يكن العنصر الاقتصادي العامل الوحيد للثورة.

٤ – الكرد وثورة مصر ١٨٣٢ – ١٨٣٩:

انتهز الأمير محمد الرواندوزي والزعماء الكرد الآخرون الذين انضموا إليه، فرصة اندلاع الثورة المصرية ضد السلطة العثمانية، لينهضوا بدورهم أيضا ضد السلطة نفسها، لذلك أسرع الباب العالي بتوجيه قوة محمد باشا والي سيواس التي تعززت بقوى كل من والي بغداد والموصل، للتصدي لأمير رواندوز وانتصرت عليه[٦]. واقتيد أمير رواندوز إلى القسطنطينية، حيث عفا عنه السلطان وسمح له بالعودة إلى وطنه، (ولكن ضاع أثره في الطريق! – المترجم). وهناك رواية تقول أنه قضي عليه حسب خطة مدبرة وهو في طريق العودة. ويتحدث (مولتكه) وهو ضابط شاب كان يعمل آنئذ خبيرا في الجيش التركي بعبارات الإعجاب عن الثوار الكرد، فيبدي إعجابه الشديد بسعيد بيك الذي وصل ليسلم نفسه لحافظ باشا، قائلا: "عندما فكر في أنه سيغادر قلعته الجميلة، وأنه لا يكون على كل حال واثقا من أنه سيكون في أمان، لم استطع إخفاء إعجابي بسلوكه الدال على الانطلاق والثقة بالنفس عندما أقترب من الباشا ولخص حركة المصافحة معه بسرعة".

ثم توالت الثورات. فبعد هزيمة الأتراك في نصيبين في أيار ١٨٩٣، ثار محمود باشا بابان في السليمانية، فعين بدلا منه حاكم آخر، فاضطر للجوء إلى إيران. وقد حال التدخل الروسي - الإنكليزي عام ١٨٤٣ دون وقوع حرب تركية - إيرانية.

٥ – ثورة بدرخان بيك:

يرى المؤلفون الذين يتحدثون عن هذه الثورة [مينورسكي وسون وآداموف وويكرام] أنها من نتائج الجور الذي ألحقه بنساطرة (هكاري) كل من الأمير بدرخان ونور الله بيك. وبعد معركة دموية انتصر فيها توبال باشا على الأمير بدرخان ونور الله بيك نتيجة لخيانة ابن

---

[٦] باللجوء إلى خديعة اتخذ من الدين ستاراً لها. حيث استصدر العثمانيون فتوى من بعض رجال الدين الكرد تزعم أن من يحارب جيوش الخليفة تغدو زوجته حراما عليه – المترجم.

عم بدرخان له، على ما يقال. إننا نتفق مع (روندو) إذ يقول: "كانت المسألة بين الكرد والمسيحيين مسألة عشائرية أكثر من كونها دينية[٧]"، وقعت بين الكرد والمسيحيين الجبليين الذين يتشابهون فيما بينهم كثيراً. وهناك رنة صوت آخر نسمعها من أحفاد بدرخان،[٨] لقد استفاد بدرخان من البلبلة التي وقع فيها الأتراك أثر معركة (نصيبين)، فبسط سيطرته ونفوذه على (وان) و (الموصل) و (ساوجبلاغ) و (أورروميه) و (ديار بكر)، وحالفه عدد من الزعماء الكرد الكبار ومن بينهم كوير حسين بيك (قارص) و (آجره) وأمير (أردلان). وعندما كان الأمير دائبا على تجهيز جيشه في أواسط ١٨٤٥، تمرد النسطوريون وامتنعوا عن دفع الضرائب لبدرخان، فاضطر هذا إلى إخضاعهم بالقوة[٩].

وعلى كل حال، هناك شهادات أرمنية تشهد بأن بدرخان كان يمارس سياسة دينية مثالية، وكان يعتبر نفسه بمثابة زعيم روحي للمناطق المحررة من الاحتلال التركي[١٠]. وقد عاش بدرخان سنوات طويلة في المنفى في (كاندي) في جزيرة (كريت)، وفي الشام حيث توفي فيها سنة ١٨١٨.

٦ – ثورة يزدان شير (١٨٥٣ – ١٨٥٥):

اندلعت هذه الثورة أيضا أثناء انشغال الباب العالي بالحرب ضد روسيا. وقد انبثقت شرارتها الأولى في (هكاري) و (بوتان) وقد احتل يزدان شير كلا من بدليس والموصل، ثم بسط سيطرته على البلاد الممتدة من (وان) إلى بغداد، وتطوع النسطوريون في جيشه. وفي عام ١٨٥٥ ركن لوعود موظف القنصلية البريطانية المدعو نمرود رسام، ونتيجة لذلك ألقى

---

[٧] روندو، المصدر السابق. ص ٦.

[٨] القضية الكردية. الدكتور بله ج شيركوه. القاهرة ١٩٣٠. ص ١٤ – ١٧ (باللغة العربية).

[٩] عن النسطوريين. أنظر مقالنا المشار إليه آنفا.

[١٠] يعقوب شاهباز. التاريخ الكردي – الأرمني. القسطنطينية. ١٩١١. ومقال في مجلة (هايربنيك) الصادرة في أستنبول. عدد كانون الثاني ١٩٣٠.

القبض عليه واقتيد إلى القسطنطينية. وقد تحول يزدان شير أيضا، شأنه شأن عبد الرحمن باشا بابان إلى بطل قومي، تخلده الأغاني الشعبية الفولكلورية[11].

٧ – ثورة الشيخ عبيد الله نهري (١٨٨٠)

هذه الثورة المهمة الأخيرة التي اندلعت قبل ثورة (الفتيان الترك) كانت تستهدف استقلال كردستان. فقد اندلعت في الأراضي الإيرانية المجاورة لـ (شمدينان)، في أوروميـة، بيناب، مراغه، بل أن مدينة (تبريز) نفسها كانت مهددة خلال فترة من الزمن، وقد اضطر الكرد أخيرا إلى الانسحاب إلى داخل الأراضي العثمانية. و إثر الاحتجاجات الشديدة للحكومة الإيرانية، وبفضل التدخل العسكري المشترك لكل من الدولتين العثمانية والإيرانية، وضع حد لنشاطات هذا الشيخ الثائر، فاقتيد الشيخ عبيد الله في بداية الأمر إلى القسطنطينية، ثم نفي فيما بعد إلى مكة المكرمة. وبعد ثورة (الفتيان الترك) عاد ابنه البكر الشيخ عبد القادر من مكة ليصبح فيما بعد عضوا في مجلس المبعوثان العثماني[12].

كذلك نذكر بعض المحاولات الأخرى التي لم تثمر لولدى بدرخان: أمين عالي بك ومدحت بك عام ١٨٨٩ الذين ألقي القبض عليهما في كمين نصب لهما في السنة نفسها. وكذلك ثورة إبراهيم باشا زعيم عشيرة (ميللى[13]). وكانت بعض العشائر الكردية، كعشيرة (موتكي) مثلا، معروفة بتمردها الدائم ضد السلطات التركية.

---

[11] راجع كتاب (مجموعة الحكايات والأغاني الكردية بلهجة طور عابدين)، تأليف بريم وسوسين. طبعة سانت بطرسبورك ١٨٨٧ ص ٦٤ وما بعدها.

[12] الكتاب البريطاني الأزرق. ١٨٨١، رقم ٥، وكتاب باللغة الروسية للكولونيل كامسار ا كان حول محاصرة أوروميـة، كذلك دراستي من مقر اقامتي في أوروميـة عن الأفشار. المنشورة في مجلة (J.A) عدد كانون الثاني – آذار ١٩٢٩، ص ١٠٠ – ١٠٥.

[13] روندو. المصدر السابق، ص ٣٤ – ٣٩. و (بانس) في مؤلفه الذي كرس الفصل السادس منه لابراهيم باشا تحت عنوان (في ظل ابراهيم باشا) ص ٧٦ – ٩٤.

ب – محاولات لتنظيم الحركة الوطنية الكردية:

١ –التنظيمات السياسية الكردية الأولى في القسطنطينية (١٩٠٨):

على طريقة الوطنيين العرب و (الفتيان الترك) أنفسهم، إلتم الطليعيون الأول للحركة القومية الكردية حول صحيفة أسبوعية تأسست لتكون نقطة تلاق لجميع الذين كانوا نواة لتلك الحركة، فتبلورت لديهم فكرة التحرر الوطني. وهذه الصحيفة التي كانت تصدر باللغتين الكردية والتركية وتأسست في البداية في مدينة القاهرة عام ١٨٩٨ (١٣١٥ هـ) هي صحيفة (كردستان)، ثم انتقلت إلى (جنيف) ثم إلى (فولكستن[١٤])، ثم عادت إلى القسطنطينية عندما تسلم (الفتيان الترك) زمام السلطة. وخلال الحرب الكونية الأولى عادت إلى الصدور في القاهرة مرة أخرى. لقد تبدل محررو هذه الصحيفة، ولكنهم كانوا جميعا ينتمون إلى أسرة (بدرخان): الأمراء مدحت وعبد الرحمن وثريا بدرخان. ومن جانبه أنشأ عام ١٩٠٨ الشيخ عبد القادر صحيفة (هه تاوى كورد) أي (شمس الكرد) لتكون لسان حال "جمعية تعاون الكرد وترقيهم"، وانضمت إليها جمعية أخرى مماثلة لها، ثم بدأت أسرة البدرخانيين وأسرة سادات نهري تتنافسان فيما بينهما وتترصد الواحدة منهما للأخرى وتهتك كل منهما أسرار الأخرى وتتهجم عليها علنا. وتوقفت الجريدة عن الصدور وتشتت الحركة التي لم يقدم لها أحد دعما. ثم ذهب عبد الرزاق بدرخان إلى روسيا لعله يكسب عطف الروس ويحصل على عونهم أو يتعرف على ما يضمرونه إزاء الكرد من نوايا، ثم استقر في باريس، فيما اتجه أفراد آخرون من أسرته إلى القاهرة. أما أنصار الشيخ عبد القادر، خليفة سليم وعلى آغا، فقد قاما بثورة في بدليس قمعت بشدة. وفي سنة ١٩٠٩ أغلق (الفتيان الترك) الجمعيات والمدرسة الكردية في (جمبرلي)، إلا أن ذلك لم يمنع جماعة من الطلبة ورجال القانون الكرد من أن يجتمعوا أو يؤسسوا عام ١٩١٠ جمعية جديدة باسم (هيفى كورد) أي (أمل الكرد)، التي بدأت بإصدار مجلة شهرية أطلق عليها اسم (روزا كورد) أي (يوم الكرد). وهكذا أعطيت دفعة للحركة الكردية في الظاهر

---

[١٤] مدينة في بريطانيا   المترجم.

لمواصلة سيرها. وفي عشية الحرب الكونية الأولى راحت الحركة الوطنية الكردية تتلمس طريقها على أرضية ثقافية.

٢ – الكرد خلال الحرب الأولى (١٩١٤ – ١٩١٨):

أوقفت هذه الحرب المحاولات الأولية الهادفة إلى تكوين وتنظيم فكرة وطنية مشتركة. وقد أفسحت الدعوة إلى الحرب المقدسة (الجهاد) المجال للأتراك لتوجيه مشاعر الكرد القتالية في اتجاه مضاد تماما لمصالحهم الوطنية تحت غطاء الإسلام. فقد أراد الأتراك استـ... الكرد، تارة أخرى، لتحقيق غاياتهم الحربية، غير أنهم كانوا يراقبونهم في الوقت نفسه، عن كثب. ويمكننا إيراد قائمة طويلة جدا بأسماء الوطنيين الكرد الذين نفذ فيهم حكم الإعدام خلال تلك الحرب.

وقد بعثت رسالة تحت عنوان "إسهام في دراسة الجهاد" إلى المؤتمر الدولي الـ..ادس لتاريخ الأديان الذي انعقد في بروكسل عام ١٩٣٥، كما وجهت خطابا إلى لجنة تنظيم المؤتمر الدولي والعشرين للمستشرقين في استانبول عام ١٩٥١ بعنوان "شهادة كردية عن الجهاد"، ولكنها "ضاعت" على ما قيل لي، دون أن تصل للجهة المرسلة إليها[١٥].

ومن المعروف أن الشخصية الكردية كامل بك بوتان من أسرة البدرخانيين، بذل جهودا كثيرة في تفليس عام ١٩١٦ من أجل إقناع الدوق الكبير نيقولا نائب الإمبراطور في القفقاس وقائد القوات الروسية المرابطة آنذاك على الحدود التركية بعدالة القضية الكردية. ويبدو أن الحكومة الروسية لم تكن لديها في ذلك الوقت سياسة محددة إزاء المسألة الكردية، فقد كانت هذه المسألة تمتزج بأبعاد فكرة استقلال أرمينيا. وفي اواخر عام ١٩١٧ استقبلت في مقري القنصلي في (أورروميه) موفدا من قبل (جمعية استقلال كردستان) ، سلمني

---

[١٥] إذا كان لنا أن نقيس على النماذج التي لا يحصيها عدد، الدالة على الحقد العميق الذي كانت وما تزال السلطات التركية تضمره لكل ما يمت إلى الحركة التحررية الكردية بصلة، لا يبقى لنا أي مجال للشك في أن الخطاب المذكور "أضيع" بتدبير من الأجهزة الأمنية التركية التي لها دخل في مجمل شؤون الحياة في تركيا. وحيل بينه وبين الوصول إلى الجهات المسؤولة عن إدارة المؤتمر المشار إليه في صلب الكتاب – المترجم. راجع ايضا مقالنا بعنوان: عداء النظام الكمالي للكرد قديم قدم هذا النظام. دورية (الملف العراقي) الشهرية التي كانت تصدر في لندن. العدد الثالث والستون. ١٩٩٦.

رسالة من السيد طه(حفيد الشيخ عبيد الله نهري -المترجم-)، يطلب مني فيها ترتيب مقابلة مع العسكريين الروس من أجل التفاهم والاتفاق معهم على عمل مشترك ضد العثمانيين بغية تحرير كردستان. كان السيد طه هذا قد هرب من الأسر لدى الروس، وهو ابن أخ الشيخ عبد القادر النهري. وكان هذا الأخير قد بقي في القسطنطينية حتى سنة ١٩١٧ ثم هرب بعد ذلك إلى مكة حيث نزل لدى الملك حسين. وفي عام ١٩٢٥ ألقت السلطات التركية القبض عليه وأعدمته في ديار بكر. أما نجله السيد عبد الله فقد ألقي القبض عليه في الوقت نفسه في الموصل.

من بين الوثائق الكردية التي احتفظ بها، بيان بخط يد أستاذي الملا سعيد كتبه عام ١٩١٧ وهو يخص موقف مواطنيه الكرد تجاه الترك والروس. بالنسبة لهذا الكردي المثقف الذكي، يرى من الضروري قبل كل شيء لترويض الكرد الجافين المتمردين وجعلهم يسلكون الصراط المستقيم، تحريرهم من جور زعمائهم وإيجاد حل للبؤس الذي يعيشون فيه. إن أفكاره هذه تتطابق مع أفكار زميلي السوفيتي (فيلجيفسكي). إن هذه الملاحظة التي تتعلق بالمطالب الاجتماعية والمدونة بقلم كردي مثقف مدرك، تستحق الاحتفاظ بها والإنصات إليها بترو.

ويجب أن لا نسكت في هذا المجال عن عمل يجهله الكثيرون، ألا وهو الإبعاد الجماعي للكرد خلال الحرب الأولى ١٩١٤ - ١٩١٨، وقد تم ذلك تحت غطاء الانسحاب أمام التقدم الروسي، في حين ان هدفه كان تجريد الكرد من هويتهم القومية بعد إبعادهم عن زعمائهم التقليديين وتشتيتهم في المدن التركية. وقد شمل هذا الإجراء التعسفي ٧٠٠,٠٠٠ شخص مات عدد كثير منهم أثناء عملية إجلائهم، ولكن الذين ظلوا منهم على قيد الحياة عادوا فيما بعد إلى قراهم.

في أثناء الانقلاب التركي، اجتمع الزعماء الكرد في أيار ١٩١٩ في (كاهته) القريبة من مدينة ملاطية لتنظيم عملهم ضد الكماليين. وقد حضر الكولونيل (بيل) رئيس قلم الاستخبارات البريطاني في حلب وثنا المجتمعين عن عزمهم باسم حكومته، واعدا إياهم

بأن الحلفاء سيأخذون المطالب الكردية بنظر الاعتبار، وكانت فكرة معاهدة (سيفر) التي وقعت فيما بعد مطروحة على بساط البحث آنذاك.

وقبل أن نستعرض أبعاد تلك المعاهدة فيما يتعلق بالحركة الوطنية الكردية، ينبغي الإشارة إلى أن معاودة النشاط الوطني الكردي قد عبر عنها بإنشاء منظمات عدة. وهكذا فقد أسس الأمير ثريا بدرخان في القاهرة، بعد هدنة (مودروس)، (لجنة الاستقلال الكردي). أما في القسطنطينية، فقد قام كل من الأمير أمين عالي وكامران عالي بك وعضو مجلس المبعوثان الشيخ عبد القادر النهري، مع عدد من الشخصيات الكردية الأخرى، بتأسيس جمعية باسم (جمعية النهضة الكردية). وبعد فترة وجيزة انبثق (حزب الشعب الكردي) و (جمعية التشكيلات الاجتماعية الكردية). إلا أن احتلال مصطفى كمال للقسطنطينية أدى إلى تشتت هذين التنظيمين اللذين ظلا يمارسان نشاطاتهما بعد ذلك بصورة سرية. وفي عام ١٩٢٧، عندما تأسست اللجنة الوطنية لـ (خويبون) جمعت في أحضانها جميع هذه التنظيمات.

ج – التأييد الدولي للأماني الكردية:

١ – معاهدة (سيفر) لسنة ١٩٢٠ ومعاهدة لوزان لسنة ١٩٢٣:

رغم أن معاهدة (سيفر) التي وقعت في ١٠ آب ١٩٢٠ ظلت حبرا على ورق، إلا أنها تعتبر مع ذلك نقطة تحول خطير جدا في تطور القضية الكردية. فلأول مرة في التاريخ بحثت وثيقة ديبلوماسية دولية في فرعها الثالث (المواد ٦٢ - ٦٤) "الاستقلال المحلي للمناطق التي تعيش فيها أكثرية كردية". واعتباراً من هذا التاريخ،أصبح تدويل المسالة الكردية أمرا مؤكدا. إننا نأسف، مع البروفيسور (ماند يلستام) المتخصص في قضايا الأقليات القومية، لأن معاهدة (لوزان) التي حلت محل معاهدة (سيفر) "لم تنص إلا على المساواة في الحقوق المدنية والسياسية للأقليات غير المسلمة" (المادة ٣٩ من معاهدة لوزان[١٦]).

---

[١٦] ما نديلستام. حماية الأقليات. نشرة أكاديمية القانون الدولي. ١٩٢٥. (باللغة الفرنسية).

٢ – قضية الموصل:

بالرغم من أن معاهدة لوزان أتت ناقصة وغير عادلة بالنسبة للكرد في تركيا، إلا أنها لعبت مع ذلك دوراً مهما لأنها وضعت مسالة الموصل على بساط البحث وأجبرت عصبة الأمم على القيام بإجراء تحقيق في هذه المنطقة الكردية (الشرط الثاني من المادة الثالثة من معاهدة لوزان)، بعد أن وضعت لها في تشرين الأول ١٩٢٤ حدوداً مؤقتة دعتها بـ (خط بروكسل). وقد نص التقرير الذي رفعته لجنة التحقيق المكونة من الكونت (تيليكي) و (ويرسن) والكولونيل (بولص) إلى هيئة عصبة الأمم في ١٦ حزيران ١٩٢٥ على وجوب وضع هذه المنطقة تحت وصاية عصبة الأمم لمدة خمسة وعشرين سنة، كما نص أيضا على ضرورة تسليم الشؤون الإدارية والقضائية والتربوية إلى العناصر الكردية، مع اعتبار اللغة الكردية لغة رسمية في المنطقة.

وقبل أن يناقش هذا التقرير في عصبة الأمم، اندلعت ثورة كردية بقيادة الشيخ سعيد بيران في شباط - آذار ١٩٢٥، وأدى ذلك إلى تعزيز وجهة النظر البريطانية القائلة بمثابة تكذيب لادعاءات الوفد التركي في مؤتمر لوزان الذي كان يؤكد باستمرار على أن "الأقليات المسلمة راضية تماما بمصيرها في ظل النظام التركي".

وعلى كل حال، فإن هيئة عصبة الأمم قبلت بتاريخ ١٦ كانون الأول ١٩٢٥ خط بروكسل حدودا فاصلة بين كل من تركيا والعراق، كما قررت أيضا أن تكون الوصاية على العراق لمدة خمسة وعشرين سنة من قبل بريطانيا. ودعت الحكومة البريطانية لاتخاذ الإجراءات اللازمة لمنح السكان الكرد النظام الذي نص عليه تقرير لجنة التحقيق إلى عصبة الأمم. وفي شباط صرح رئيس الوزراء العراقي أمام البرلمان في بغداد بـ "أنه يجب علينا أن نمنح الكرد جميع حقوقهم ويجب أن يكون الموظفون في منطقتهم من أنفسهم، كما يجب ان تكون اللغة الكردية لغتهم الرسمية ويتعلم بها أولادهم في المدارس".

والآن، ونحن في عام ١٩٥٥، كم يكون رائعا لو أننا استطعنا أن نشهد بأن كرد العراق يتمتعون بالحقوق التي أقر لهم بها قبل ربع قرن من الزمان!.

٣ - تأسيس (خويبون) والثورات الجديدة:

بعد القمع الوحشي لثورة الشيخ سعيد بيران، لم يكن الهدوء الذي ساد كردستان تركيا خلال سنوات ١٩٢٥ - ١٩٣٠ إلا هدوءاً ظاهريا. في ربيع سنة ١٩٢٧ عقد مؤتمر في قرية نائية انتخبت في أثره لجنة وطنية كردية أطلق عليها اسم (خويبون) أي (الوجود الذاتي). وقد أقسم أعضاء هذه اللجنة على الاستمرار في الكفاح في سبيل تحرير كردستان. وعهد بتنظيم الكفاح المسلح إلى إحسان نوري باشا أحد الضباط القدماء، فبدأ بتحضير دقيق، متخذا من جبال آرارات نقطة ارتكاز لخطته.

وهكذا بدأت من جديد منذ ربيع ١٩٣٠ سلسلة من الثورات الكردية[١٧]. وليس بوسعنا هنا إلا تعدادها دون أن ندخل في التفاصيل. وهي تقدم لنا على كل حال فائدة كبرى. لقد أدت الثورة التي اندلعت عام ١٩٣٠ إلى إحداث تقارب بين تركيا وإيران على حساب الكرد، فوقعت الحكومتان على اتفاق لتعديل الحدود بين البلدين في آرارات في ٢٣ كانون الثاني ١٩٣٢. وكان لها أيضا تأثير على العلاقات التركية - السوفيتية. وقد كشف (آغا بيكوف) في مذكراته التي نشرها باللغة الفرنسية عام ١٩٣٠ عن "أسرار" تتعلق بالنشاط السوفيتي بين الكرد يقوم به شخص يدعى (ميناسيان) وهو ملحق في القنصلية السوفيتية في تبريز، ولا يعلم إلى أي حد يمكن تقدير أهمية هذا الخبر.

وعلى كل حال، علق المارشال (فرانشي ديسبيرى) الذي كان عائدا من جولة في الشرق الأوسط، على ثورة ١٩٣٠، في صحيفة (لوماتان) الفرنسية، عدد الأول من كانون الثاني ١٩٣٠ بما يلي: "كانت الثورة الكردية أكبر بكثير مما قيل بشأنها، وهي لم تخمد بعد. ويساند الكرد بعض الترك المعارضين لمصطفى كمال. وقد رفعت بعض العناصر الرجعية رؤوسها".

وفي الحقيقة انبثقت في نهاية ١٩٣٠ وبداية ١٩٣١ حركة أخرى مناوئة للكمالية بين أوساط المتصوفة النقشبندية في (مينيمين)، وهي الطريقة نفسها التي كان ينتسب إليها الشيخ

---

[١٧] وقد أثيرت القضية الكردية في المؤتمر الثاني للاشتراكية الدولية الذي انعقد في زيوريخ في آب ١٩٣٠. وذلك بفضل تدخل الوفد الأرمني.

سعيد بيران. وفي سلسلة من المقالات نشرها برهان أصف بك في صحيفة (حاكميت ملي)، دان الكاتب المذكور "الدسائس" الأرمنية - الكردية، مشيرا إلى لقاءات تمت بين م.بابارنان والبدرخانيين.

وفي سنة ١٩٣٢ حوكم أمام محكمة عسكرية في (أرضروم) صلاح الدين نجل الشيخ سعيد الذي عاد إلى تركيا من العراق بعد إصدار العفو عنه. وقد أتهم بعلاقته بثورة (درسيم). وفي سنة ١٩٣٣ نظمت "عمليات تأديبية" ضد الشيخ فخري في ضواحي (ديار بكر). وفي سنة ١٩٣٤ أصدرت المحاكم العسكرية التركية سلسلة من الأحكام بالإعدام وبالأشغال الشاقة المؤبدة على أعداد كبيرة من الكرد.

وقد خيم على الفترة الطويلة نسبيا الممتدة ١٩٣٤ إلى ١٩٣٧ صمت رهيب، إذا استثنينا "موآمرة" أسبارتا في أيار ١٩٣٥ التي اشترك فيها الشيخ الكردي (بديع الزمان)، وكذلك الإضراب الكردي عن دفع الضرائب في (موش) في حزيران ١٩٣٥. وفي أيار ١٩٣٢ صدر مرسوم بتهجير وتشتيت الكرد من مناطق سكناهم إلى القرى التركية على أن لا تتجاوز نسبتهم ٥٪ من السكان الترك في أي قرية. وأجبر الزعماء الكرد على الإقامة في المدن على أن لا تبقى لهم أي صلة بسائر الكرد. ولم يكن مضمون هذا المرسوم سوى إعادة لنصوص مرسوم آخر طبق خلال الحرب الأولى عام ١٩١٤، لكن الحيوية الكردية كانت أشد وأقوى من تلك القوانين ومن تعسف وجور الإدارة التركية، لأن هذه الإجراءات لم تؤثر على ديموغرافية كرستان، لأن معدل وجود الكرد فيها حاليا على أحسن ما يكون.

وفي سنة ١٩٣٧ اندلعت ثورة (درسيم - تونجلي)، وتبنى الغرب الادعاءات التركية التي كانت تقول أن "المدنية" تحارب "البربرية". وقد قامت السلطات التركية بسد مداخل الكهوف والمغارات وبإشعال النار في الغابات، حيث لم ينج من لهيبها الشيوخ والنساء والأطفال[١٨].

---

[١٨] للمزيد من التفاصيل عن الوقائع البشعة التي تحزق الفؤاد. راجع كتاب (وقائع عن درسيم وكردستان) المشار إليه آنفا.

٤ – حالة الكرد في إيران:

إذا ألقينا نظرة خاطفة على حالة الكرد في إيران، تبين لنا أن المشكلة تتخذ طابعاً خاصاً. إن التصريحات الرسمية للمسؤولين الإيرانيين ترد فيها دوما الادعاءات والمزاعم القائلة أن أصل السلالات الكردية والفارسية تنبع من مصدر واحد قديم، وليس هناك ما يبرر العداء بين الأقرباء. وقد توصل رشيد ياسمي في مؤلفه باللغة الفارسية[١٩] إلى استنتاجات تحمل المعنى نفسه. ومع ذلك فان طهران لم تتهاون أبدا في قمع الانتفاضة التي قام بها خالد آغا الجلالي في الجانب الآخر من (آرارات)، أو في إخماد الثورة التي قام بها إسماعيل آغا سمكو المشهور في منطقة (شنو[٢٠])، أو تلك التي أشعل فتيلها جعفر سلطان في هورامان عام ١٩٣٢. لقد تسممت العلاقات الكردية - الفارسية فيما بعد بصورة واضحة، كما سنوضح ذلك فيما بعد.

٥ – الكرد في العراق:

يتمتع الكرد في العراق، بوجه عام، بضمانات دولية. ومع ذلك فان الثورات التي اندلعت فيه أخذت أهمية خاصة. ويعتقد عالم جغرافي ألماني هو البروفيسور (ياسارك) أنه "ليس من المستغرب بالنسبة لهذا الشعب الذي كان يعيش على تربية المواشي، القاسي ذي الإرادة القوية، الذي يتمتع بروح واقعية وذكاء حاد أن يأخذ بزمام القيادة السياسية في العراق كله، رغم كونه اقل عددا[٢١]،" ومع ذلك، وكما يؤكد على ذلك تقرير الهيئة العليا للإدارة البريطانية في العراق للفترة من تشرين الأول ١٩٢٠ حتى آذار ١٩٢٢، لم يشترك الكرد في انتخاب الملك فيصل ملكا على العراق. وفي ٢٤ كانون الأول ١٩٢٢ صدر تصريح عراقي-بريطاني مشترك اعترف بـ "حقوق الكرد في العراق في تشكيل حكومة كردية"، ولكننا نعرف أن السياسة البريطانية في العراق كانت تتصف دوما بالتردد

---

[١٩] الكرد وروابطهم العرقية والتاريخية – المترجم.

[٢٠] عن هذا الزعيم الكردي راجع (ويستارب). المصدر السابق. ص ٢١٢ – ٢٢٤.

[٢١] مصر والمشرق العربي (باللغة الألمانية). ص ٦٣.

واتخاذ خطوة إلى أمام ثم التراجع عنها [٢٢]. ويبدو أنهم كانوا يحسون بذلك. فخلال الفترة بين ١٩١٨ - ١٩٣٠ نشهد صراعا ضد الإنكليز يخوضه الشيخ محمود البرزنجي في السليمانية، الذي أعلن نفسه "ملكا على كردستان"، وكان يسجن من قبل الإنكليز تارة، ويعفى عنه أو يهرب من السجن تارة أخرى. وقد حاربهم دون كلل إلى أن وضع رهن الإقامة الجبرية في بغداد سنة ١٩٣١[٢٣]. وقد كتبت صحيفة (بريتيش كولونيال) في عددها الصادر في ٢٠ أيار ١٩٣١ أنه "من خلال الحوادث التي وقعت، ومن بينها حادثة الشيخ محمود يمكننا قياس الخطأ الذي ارتكب في لوزان".

وفي أيار ١٩٣٢ عندما عرض على مجلس عصبة الأمم الاقتراح البريطاني برفع الانتداب عن العراق، صرح بول يونكور بأنه "كان أفضل لو أسسنا للكرد أيضا نظاماً للأقلية شبيها لنظام الحكم الذاتي الإداري، وهذا ما يسهل للمستقبل إمكانية مراقبة المنطقة". ويبدو أن السياسة البريطانية الموالية لعراق "مستقل" تفسر برغبتها في التخلص من وصاية اللجنة الدائمية للانتداب إلى عصبة الأمم، حتى تكون هي حرة التصرف في بغداد[٢٤].

وبعد تخلي بريطانيا عن الانتداب على العراق دون أي ضمانات مقبولة، بدأت سلسلة أخرى من الثورات الكردية في الجبال في منطقة (بارزان)[٢٥]. وكان القصاص الذي أوقع القوة الجوية البريطانية بالثوار تتمثل في تدمير (١٣٦) دارا في ٧٩ قرية كردية. وقد ارتفعت بعض الأصوات الإنكليزية منددة بما جرى، ومنها الرسائل التي نشرتها صحيفة (التايمز) اللندنية لكل من البروفيسور (جيلبرت موري) في عددها الصادر بتاريخ ١٤ أيار ١٩٣١، والسير (أرنولد ويلسن) بتاريخ ٢١ أيار ١٩٣١، وأخيرا رسالة الرئيس السابق

---

(٢٢) بينون، حمى المشرق.

(٢٣) لدينا بصدده شهادة حية هي كتاب الألمانيين (موللير) و (روتلينكن) الصادر عام ١٩٣٧ بعنوان "سرقة في كردستان الهادئة".

(٢٤) البارون نولد. العراق أصوله التاريخية والوضع الدولي (باللغة الفرنسية) باريس ١٩٣٧.

(٢٥) يوسف ملك. الخيانة البريطانية للآثوريين. ١٩٣٥. المنشور من قبل الجامعة الوطنية للآثوريين في أمريكا (باللغة الإنكليزية).

للمحكمة العليا السير (هنرى دوبس) بتاريخ ٨ تموز ١٩٣١[٢٦]. وقد صرح الشيخ أحمد البارزاني للكابتن (هولت) الضابط السياسي البريطاني بقوله: "أفضل مائة مرة أن أسلم نفسي للأتراك، أعدائي المكشوفين، على أن أسلم نفسي لعبيد الإنكليز". وباختصار، كانت العلاقات الكردية-العربية في العراق قد بقيت دونما حل عادل ومنصف، وفتحت المجال أمام وقوع أحداث متفرقة شديدة كانت او غير شديدة (أحداث حزيران ١٩٣٣ وتموز ١٩٣٥). ولدينا انطباع بأنه منذ استقلال العراق يعيش الكرد في هذا البلد على شفا الحرب تقريباً. وقد ذكر رحالة ألماني شاب (أشرنا إلى كتابه سابقا) زار العراق والمنطقة الكردية خلال سنة ١٩٣٦ وتمكن من إجراء مقابلة طويلة مع الشيخ محمود في بغداد، أن شريطاً عسكرياً حقيقيا يفصل المنطقة الكردية عن باقي البلاد. وقد سمعنا بوقوع محاولة للثورة في حزيران ١٩٣٧ في منطقة السليمانية أعتقل في أثرها أربعة من الزعماء الكرد. وقد وقع في الفترة نفسها الانقلاب العسكري الذي قاده الجنرال بكر صدقي الذي هو من أصل كردي، واغتيل فيما بعد في موآمرة مدبرة. وكان للكرد دور في حركة رشيد عالي الكيلاني الذي ثار ضد الإنكليز عام ١٩٤١. وعلى كل حال كانت تحت تصرفه فرقة عسكرية كردية[٢٧].

٦ - الكرد في سوريا:

استقينا معلوماتنا عن ربع مليون كردي في سوريا من الدراسة الرائعة للمستشرق الفرنسي (بيير روندو) التي ضمنها كتابه (فرنسا البحر المتوسطية والإفريقية) المنشور عام ١٩٣٩، ص ٨١ - ١٣٦، الذي يكمله في بعض النقاط مؤلف السيدة (فاكا) التي نشرت كتابها باللغة الألمانية عام ١٩٣٧.

ولم يكن للكرد في سوريا دور سياسي يذكر خلال فترة حكم الانتداب الفرنسي، رغم أن وجودهم على امتداد الحدود مع تركيا أثار أحيانا بعض المشاكل. وبقصد التخفيف من المخاوف التركية، أبعدت سلطات الانتداب الفرنسي من سوريا عميد أسرة بدرخان الأمير

---

[٢٦] راجع أيضا: تقرير السير فرانسيس همفرى المؤرخ تشرين الثاني ١٩٣١. المقدمة إلى هيئة الانتداب التابعة لعصبة الأمم.

[٢٧] يقصد الفرقة الثانية ومقرها كركوك. حيث كان معظم منتسبيها آنذاك ضباطا وجنودا. من الكرد – المترجم.

ثريا الذي كان يعيش هناك. وقد اضطر للانتقال إلى فرنسا وبقي فيها حتى وافته المنية في عام ١٩٣٨، وقد ظل حتى النهاية وفياً لقضية شعبه الوطنية. بقي أنْ نذكر أنه في فترة الانتداب الفرنسي، ظهر نشاط ثقافي كردي بفضل إصدار مجلة (هاوار) الكردية وطبعاتها المتعددة[٢٨] ونشاطات محرريها.

لم يتأثر الكرد في سوريا بالحركة الكردية في العراق لأنها كانت تجري في مناطق لم تكن على صلة بهم. وبالمقابل فقد اهتزوا للحوادث التي وقعت في الأناضول، فأرسلوا البرقيات الاحتجاجية إلى عصبة الأمم عام ١٩٣٧ ضد القمع التركي في (درسيم).

٧ – الكرد في الاتحاد السوفيتي:

بقي أن نعطي بعض المعلومات عن حالة الكرد في الاتحاد السوفيتي. إن عدد الكرد في جميع أرجاء القفقاس لا يتجاوز مائة ألف كردي، إلا أن ذلك لا يعني أنهم غير قادرين على ان يكونوا قطبا جاذبا لأخوتهم في الخارج، بفضل السياسة السوفيتية تجاه القوميات. ولا نغالي في شئ إذا قلنا أن (أريوان) هي المكان الذي تطبع فيه أكبر كمية من المؤلفات الكردية وتنشر فيها جريدة كردية. وتوجد فيها ايضا مدارس كردية اعتيادية ومسارح كردية. وتوجد في القرى الكردية الخاضعة لنظام التعاونيات مدارس ابتدائية ومكتبات وأجهزة راديو ومكائن زراعية وجمعيات تعاونية أسهمت جميعا في تطوير مظاهر الحياة فيها.

إننا لنأسف إذ ليس بوسعنا أن نذكر هنا فقرات من المطبوعات الكردية الصادرة في الاتحاد السوفيتي، ككتاب (الراعي الكردي) للكاتب الكردي (عرب شمو)، وقد ترجمت الكتاب المذكور إلى اللغة الفرنسية، كما أعيد طبع الكتاب نفسه مترجما إلى لغته الأصلية في بيروت. وهناك كتاب آخر نشر عام ١٩٣٠ بعنوان (الفلاح الأحمر) وهو يعطينا فكرة عن

---

[٢٨] هاوار وتعني بالعربية (الصرخة) مجلة أصدرها في دمشق في الثلاثينيات الأمير جلادت عالي بدرخان. وقد صدر بعض أعدادها بالحروف العربية وبعضها باللاتينية وبعضها بالحروف العربية واللاتينية معاً. وهذا هو المقصود على الأغلب من قول المؤلف (طبعاتها المتعددة). وكانت هناك أيضا مجلة (روناهي – النور). كما صدر العديد من الكتب الكردية في سوريا ولبنان في عهد الانتداب بالحروف العربية واللاتينية – المترجم.

اهتمام السوفيت بهذه الأقلية القومية. إننا بالرغم من عدم إنكارنا للتطور الذي حصل لدى الكرد في الاتحاد السوفيتي، نتساءل عما إذا كانت هذه السياسة التي تؤدي إلى تحطيم البيئة العشيرية، لا تهدد في حد ذاتها المسائل القومية الكردية كالفولكلور والشعر الغنائي الملحمي والأعراف والتقاليد والأزياء المتوارثة التي تدين ببقائها إلى النظام العشيري.

د – المسألة الكردية خلال الحرب العالمية الثانية (١٩٤٠ – ١٩٤٥) وبعده:

لئن كانت مبادئ ولسن لم تستطع أن تلعب دوراً لمصلحة المسألة الكردية وفائدتها بعيد انتهاء الحرب الكونية الأولى، فإن الموقف الدولي هو الآخر لم يكن أيضا ملائما للكرد خلال وبعيد انتهاء الحرب الكونية الثانية.

وفي سنة ١٩٤٣ اندلعت ثورة جديدة في منطقة بارزان بقيادة شقيق الشيخ أحمد البارزاني الملا مصطفى البارزاني بمساعدة الشيخ لطيف (نجل الشيخ محمود الحفيد). وقد حاولت السلطات في بغداد تهدئة الثوار ولكن دون الاتفاق معهم على شيء حقيقي. وفي عام ١٩٤٥ أرسلت هيئة كردية رسالة إلى الهيئة المؤسسة لمنظمة الأمم المتحدة لدى اجتماعها في سان فرانسيسكو مع مذكرة طويلة وخارطة شرحت فيها المطالب الوطنية الكردية التي تتخلص في كردستان حرة ومستقلة. إن التأكيد الذي ورد في هذه المذكرة على أنه لا يمكن للسلم أن يسود في منطقة الشرق الأوسط دون إيجاد حل للمسألة الكردية، لم يأت فيها عفوياً وبدون فائدة. ففي آب ١٩٤٥ أريقت الدماء من جديد في بارزان وحوصر الملا مصطفى في منطقته مما جعله معرضا لخطر الاستسلام، فاضطر إلى العبور إلى إيران والالتحاق بجمهورية مهاباد (أي ساوجبلاغ). وانعقد في تشرين الثاني من السنة نفسها مؤتمر كردي في باكو عاصمة أذربيجان السوفيتية. وفي تركيا أيضا بدأ الكرد بالتحرك. وجراء الأحداث التي وقعت في أذربيجان الإيرانية أعلنت في ١٣ كانون الثاني ١٩٤٦ جمهورية كردية في مدينة (مهاباد) برئاسة القاضي محمد، إلا أن هذه الجمهورية لم تدم طويلا. ففي كانون الأول من العام نفسه أعيدت أذربيجان إلى نطاق الدولة الإيرانية من

جديد، وألغيت فيما بعد الجمهورية الكردية في مهاباد، وكان ثمن ذلك باهظا حيث بطشت السلطة الإيرانية بالكرد دونما شفقة أو رحمة[٢٩].

واعتباراً من هذا التاريخ، برز اتجاهان لدى الشعب الكردي: فـ "الشباب" أخذوا يفكرون بإمكانية الاعتماد على السوفيت، في حين أن "المعمرين" كانوا يشمئزون من كل فكرة تعاون معهم[٣٠]. وحول هذه الفترة الزمنية نجد كالمعتاد معلومات موضوعية وواضحة لدى (روندو): برنامج القاضي محمد، وجمعية شبيبة كردستان إيران، والميثاق الشيوعي الذي نشر في العراق[٣١]. ومن الإفادة بمكان أن نشير إلى الخطاب الذي وجهه المستر (فيليب برايس) إلى جريدة (التايمز) اللندنية في ٢٤ نيسان ١٩٤٦، وهو نائب عن حزب المحافظين في البرلمان البريطاني، يمدح فيه سياسة السوفيت قائلا: "إنهم وحدهم الذين عرفوا كيف يجدون حلا للمسألة الكردية إذ يأخذون بنظر الاعتبار الجانب الاقتصادي ويحاربون آفة الفقر لدى العشائر". ويعتقد المستر برايس أن الحكومة العراقية لو قامت بدلاً من قصفها الكرد في مناطق بارزان، باستثمار الطاقات والإمكانيات المائية الهائلة الموجودة في تلك الجبال الغنية بالزيت الأبيض، لكان بإمكانها الحصول على سلم دائم.

ثم هل يجب ان نؤكد من جديد أنه نتيجة للحرب الكونية الثانية أضحت منطقة الشرق الأوسط بأسرها تعيش بسبب من تلك الحرب تحت تأثير التضخم والأجور الباهظة التي اضطر الأمريكان إلى دفعها لتغطية الحاجات العسكرية، ثم توقفت فجأة، مما أدخل المنطقة كلها في غليان اجتماعي لم تكن هناك حاجة لانتظار السوفيت ليأتوا فيثيروه[٣٢].

إننا إذ ننهي هذه الدراسة التي نتوخى منها وضع المسألة السياسية الكردية في إطارها الصحيح، لا يسعنا أن نخفي عطفنا العميق على الكرد. وفي الوقت نفسه لا يسعنا أن

---

[٢٩] راجع مقال آرشي روزفلت بعنوان "الجمهورية الكردية في مهاباد" المنشور في مجلة (الشرق الأوسط)، عدد نيسان ١٩٤٧.

[٣٠] جريدة (لوموند) الباريسية. عدد ٨ أيار ١٩٤٦.

[٣١] راجع (روندو) في مجلة (أرض الإسلام)، القسم الثاني. ١٩٤٦ (باللغة الفرنسية).

[٣٢] مجلة "الايكونوميست". حقل الشرق الأوسط. عدد ٣ آب ١٩٤٦.

ننكر الفوائد الناجمة عن السير وراء التجرد وبناء الروح الوطنية الجادة في تركيا وإيران والبلدان العربية منذ الحرب العالمية وما بعدها وحتى الآن.

ونحن نرى أن هذا الواقع الناشئ في البلدان ذات العلاقة بالقضية الكردية هو حجر العثرة والمشكلة الحقيقة التي تحول دون الاتفاق في هذه البلدان مع الكرد الذين تطوروا هم أيضا بدرجة كبيرة منذ اندلاع الثورات الإقطاعية وتلك التي سبقتها. إن الكرد يركزون على مطالبهم الوطنية باسم المبادئ والمواثيق المعلنة دوليا، ولذلك فإن عدم أخذ هذه المطالب بنظر الاعتبار أو رفضها بالمرة أكثر تعقيداً بكثير مما كان في الماضي، فضلا عن المسألة الكردية أخذت تحظى ولو بصورة نظرية أو جزئية بتأييد دولي. وبناء على هذا فإن هذه المسألة يجب النظر إليها كقضية مطروحة لا تجد لها علاجا إلا محاولة حلها بطريقة صحيحة وعادلة.

إن حدوث تحول سياسي في مفهوم التعاون هو وحده الذي يسمح بالخروج من هذا المأزق. والبادرة الضروية يجب أن تأتي من جانب الحكومات المعنية، كما أن على الزعماء الكرد أيضا أن يبرهنوا من جانبهم على أنهم حسنوا النية وجديرون بالثقة.

إن الحل الصحيح للمسألة الكردية سيأتي حتما، طال موعده أو قصر. وكلما تأخر هذا الحل الذي يختلف بدون شك من بلد لآخر، ظلت الأبواب مشرعة أكثر فأكثر بوجه الدسائس[٣٣].

بعد أن بذلت جهدي لأعطي في مؤلفي هذا فكرة صحيحة عن الكرد وعن كردستان، بالاعتماد على الرجوع إلى ماضيهم وتاريخهم، أجدني الآن مترددا في أن أتصدى لبحث أوضاعهم في أيامنا هذه لأن من الممكن أن لا أكون قد توصلت إلى معلومات بشأن الكثير من جزئياتها وتفاصيلها.

فبموجب بعض المعلومات يبدو أنه في تركيا ما تزال لا تعترف بوجود الكرد بوصفهم أقلية قومية، بل أن اسم (الكرد) كعنصر متميز ما يزال منسوخا ومحكوماً عليه بالنفي، تسير

---

[٣٣] راجع مقالنا عن الكرد في الجزء الرابع من القاموس الدبلوماسي المنشور من قبل الأكاديمية الدبلوماسية الدولية (باللغة الفرنسية).

أوضاع الكرد المادية ورفاههم الاقتصادي على وجه العموم، نحو التحسن، دون أن نستطيع القول مع ذلك أن سياسة الحكومة التركية الرامية إلى تجريدهم من قوميتهم ودمجهم بالترك وإخفاء معالمهم الخاصة قد لقيت أي نجاح كان. لقد ظلت الجماهير الكردية متمسكة بلغتها الأم وبآدابها وتقاليدها القومية. وفي خارج الأقاليم الكردية التي ينشأ فيها الكرد ويترعرعون فيها، توجد منظمات ثقافية للطلبة والشباب الكرد تعمل في أنقرة واستانبول، كما ليس من الغريب أن نجد في المطبوعات التركية مقالات تنتقد الإدارة السيئة في الأقاليم الشرقية (أي في كردستان تركيا - المترجم)"[٣٤].

إن هذه العلامات الملائمة، مهما كانت صغيرة، تستحق الإشارة، رغم أن المسألة الكردية في تركيا في مجموعها ظلت بدون حل. ويقال الشيء نفسه بالنسبة إلى إيران، حيث يبدو انه ما تزال الاستعانة بالقوة هي المفضلة لدى السلطة على البحث عن سلوك طرق تفاهم مع الكرد، كما رأينا ذلك في لجوئها إلى العمليات الانتقامية ضد أبناء عشيرة (جوانرود) عام ١٩٥٠ (جوانرو - المترجم). وبوجه عام إن المشكلة العشيرية في إيران معقدة جدا، وهي ما تزال لحد الآن دونما حل.

وهكذا، وكما قال البروفيسور (ويليام تومسون) أستاذ اللغة العربية في جامعة (هارفرد) الأمريكية: "انه من المؤكد تماما أن قادة كل من تركيا وإيران نسوا أولا يعتقدون أن درس تجزئة بولونيا قابل للتطبيق بالنسبة لأوضاع بلادهم أيضا، هذا التقسيم الذي أثار لأول مرة المسألة القومية. إنهم لم يفكروا بعمق في أساس وجودهم الخاص ومبرراته[٣٥]".

وفي إيران، كانت السمة البارزة لسياسة رضا شاه إزاء العشائر، وبخاصة في بداية حكمه، تقوم على تهجير وإبعاد رؤسائها ومصادرة أملاكهم وأراضيهم، بالإضافة إلى الإسكان القسري للعشائر الكردية الرحل، مع منعها من الانتقال إلى المراعي الطبيعية والتهجير

---

[٣٤] لمن يبغي المزيد من الاطلاع على وضع الكرد السيئ في تركيا. يراجع مؤلف الكاتب التركي اسماعيل بيشكجي بعنوان: كردستان مستعمرة دولية، المترجم إلى العربية من قبل د. زهير عبد الملك. دار APEC للطباعة والنشر، السويد، ١٩٩٨. مع تعليقي على الكتاب نفسه تحت عنوان : القضية الكردية في تركيا كما يطرحها الكاتب التركي اسماعيل بيشكجي، وذلك في جريدة (الحياة) الدولية ليوم ١٩٩٩/٧/٤ – المترجم

[٣٥] ويليام توسون. القومية والاسلام. معهد الشرق الأوسط. واشنطن. ١٩٢٥.

الكامل لها إلى المناطق النائية، كما جرى بالنسبة لعشيرة (كلباغي). وكانت لهذه الإجراءات نتائج مشؤومة وسيئة بالنسبة لاقتصاد البلد، ما اضطر السلطات إلى التخفيف من تلك القسوة إلى نمطها خلال السنوات الأخيرة من حكم رضا شاه. وبعد عزله في عام ١٩٤١، عادت الأمور إلى نمطها السابق بعودة الزعماء المنفيين ورجوع العشائر المهجرة إلى أماكنها الأصلية. ثم وقعت بعد ذلك في عام ١٩٤٧ الأحداث المؤلمة نتيجة القمع والبطش الداميين في (مهاباد). ويبدو الرأي العام الفارسي غير معاد للكرد في الوقت الراهن، حيث يقدرون إمكانياتهم القتالية ويعترفون بمواقفهم الوطنية، فيما لو استنتجنا ذلك من فقرات من مقال نشر في جريدة (بختيار) الصادرة في طهران عام ١٩٥٤ جاء فيها: "كان من الضروري أن يصل إيران خبراء عسكريون أجانب لم يغفلوا عن الانتباه للأهمية الاستراتيجية والجغرافية للمناطق العشيرية، لتستلفت أنظار السلطة المركزية أيضا إليها. إلا أن التقلبات التي مرت على إيران مع الأسف منذ الحرب العالمية الثانية تركت آثارها على طراز معيشة وأوضاع هذه العشائر. ومع ذلك فإن علينا أن نظل أوفياء ممتنين لهذه العشائر لأنها لم تفقد وطنيتها، رغم الجهود التي بذلتها معها العناصر العميلة للأجنبي التي تعمل لإنشاء "كردستان كبرى" تضم قسما من الأراضي العراقية والإيرانية والتركية. إن عشائر .... كردستان قاومت جميع الاغواءات بل أسهمت، بالعكس، في تقوية حكومة طهران ضد نشاطات العناصر العملية للأجنبي".

ينبغي لرفع قضية كالقضية الكردية أمام إحدى هيئات الأمم المتحدة أن يتم ذلك بواسطة دولة عضو في هذه المنظمة الدولية. وبذلك لا تختلف هذه الإجراءات كثيرا عن تلك التي كانت تتبع في عهد عصبة الأمم، ذلك أن رفع قضية أمام مجلس عصبة الأمم كان من حق الدول الأعضاء في المجلس فقط. أما أبناء الأقليات القومية، وكذلك الدول غير المنتمية لذلك المجلس، فإنهم كانوا يتمتعون بحق رفع شكاواهم إليه أو بحق الاستنطاق أمامه، ولم يكن بوسعهم رفع قضيتهم بصورة قانونية إلى المجلس ومطالبته بالتدخل بشأنها.

يتهم المثقفون الكرد في العراق حكومة بغداد بإهمال المصالح الاقتصادية والثقافية لشعبهم. إنهم يحددون موقفهم إزاء بغداد بهذه العبارات: "ماذا تعني بغداد بالنسبة لنا؟ مدينة غريبة تتكلم لغة غريبة بالنسبة لنا. نحن الكرد عشنا دوما في جبالنا. ماذا تعني

هذه الحدود التركية والإيرانية لرعاة المواشي من أبناء العشائر الذين ينتقلون بحرية من آلاف السنين في أرجاء هذه المناطق التي يحيون فيها؟ كيف يمكننا إفهامهم أنه في الجانب

الآخر من الجبال حيث يعيش نصف أبناء عشيرتهم يعتبرون خارج نطاق الحدود، لأنهم عراقيون، بينما الآخرون يعتبرون إيرانيين؟ وإليك جواب مسعود محمد الجلي، المحامي الكردي (الشاب) وعضو البرلمان العراقي، عن السؤال الذي وجه إليه من قبل مراسل صحيفة (نيويورك تايمز) الأمريكية: "ماذا يكون رد فعل الكرد في العراق إزاء اقتراح الاتحاد السوفيتي لهم تكوين كردستان الكبرى ضمن الإطار السوفيتي؟".

"من الصعب الإجابة على هذا السؤال، ومع ذلك فنحن لا نرفض مساعدة أي حكومة كانت من أجل كردستان حرة[٣٦]".

يفسر إبرام المعاهدة العراقية- التركية[٣٧] من قبل الكثيرين باتفاق وجهات النظر عن الكرد بين بغداد وأنقرة، بينما تعتبر الجامعة العربية اقل اهتماما إزاء هذه المشكلة. وفي سوريا، مثلا، رغم أن الكرد يحتفظون بخصائصهم الخاصة بهم، إلا أنهم يسهمون في الحياة السياسية بنشاط، شأنهم شأن العرب، دون أن يطالبوا بنظام خاص بهم.

إنني أبدي شديد أسفي لكوني اضطررت إلى إيراد الوقائع التاريخية بصورة جد مختصرة، وهي التي تشمل الوقائع الواردة في الفصول الثامنة والتاسعة والعاشرة، وذلك من أجل أن لا تجاوز النطاق المحدد لهذا الكتاب.

شباط ١٩٥٥ باسيلي نيكيتين

---

[٣٦] جريدة "نيويورك تايمز" العدد الصادر بتاريخ ٧ تموز ١٩٥٤.

[٣٧] في عام ١٩٤٧ – المترجم.

ملاحظة:

الجدول الآتي مقتبس من تحقيق قام به فيلجيفسكي (١٩٤٥)، وهو يرينا الخط البياني لحركة الطبع والنشر الكردية فيما عدا الاتحاد السوفيتي من عام ١٩١٣ وحتى عام ١٩٣٤.

	المطبوعات غير الدورية	المطبوعات الدورية
١٩١٣	-	١
١٩١٤	-	١
١٩١٨	-	٢
١٩١٩	١	١
١٩٢٠	٥	٢
١٩٢١	٣	٢
١٩٢٢	٣	٤
١٩٢٣	١	١
١٩٢٤	٢	٢
١٩٢٥	٣	٢
١٩٢٦	٩	٣
١٩٢٧	١٥	١
١٩٢٨	٥	-
١٩٢٩	٧	-
١٩٣٠	٧	-
١٩٣١	٨	١
١٩٣٢	٦	١
١٩٣٤	١١	-
بدون تاريخ	١٢	-
المجموع	١	-
	٩٩	٢٤

والمطبوعات غير الدورية تشمل ما يلي: الأعمال العلمية والاجتماعية والأدبية. ٤١ مجلدا، الأعمال التاريخية ٢٢ مجلداً، القوانين والأديان ١٤ مجلدا، الأعمال الدينية. ١٣ مجلدا، كتب علم اللغة وقواعد اللغة. ١١ مجلدا، الأعمال العسكرية. مجلدان.

الفصل الحادي عشر

الحياة الروحية للكرد - الدين

أولاً - طابع العاطفة الدينية لدى الكرد:

حاولنا في الفصول السابقة أن نقدم صورة للكردي في وسطه العائلي والعشيري، كما حاولنا أن نأخذ بنظر الاعتبار آراءه وسلوكه إزاء المشاكل الوطنية والسياسية. ونأمل أن نكون قد نجحنا في إبراز الملامح لهذا الشعب الذي لا يمكننا إنكار شخصيته القوية التي احتفظ بها طيلة القرون السالفة، رغم التقلبات المريرة التي مر بها تاريخه الحافل بالآلام، والتي لم تسمح له بإقامة دولة وطنية خاصة به.

إذا أمعنا النظر في حياة الكرد في مظاهرها المختلفة، تبين لنا الدور الذي لعبه الإسلام في هذه الحياة. وقد رأينا في ما سبق، انهم بعد مقاومتهم العنيفة لسلطة العرب المسلمين، قبلوا الدين الجديد متمثلا على أقل تقدير في زعمائهم الذين خدموا الخلفاء وأسهموا بنشاط واسع في الحروب الصليبية بقيادة صلاح الدين الأيوبي، وتبنوا الحضارة الإسلامية، كالأمراء المروانيين والشداديين وغيرهم. أما الصراع التركي-الفارسي الذي نشب في القرن السادس عشر، فقد انضموا إلى جانب السني التقليدي ضد التشيع، وبرهنوا فيما بعد على أنهم آلة مطواعة لتنفيذ سياسة عبد الحميد الإسلامية.

إذا كان الأمر كذلك، فإننا نحاول تبسيط الموضوع بالاقتصار على التأكيد على أن الكرد ، شأنهم شأن الشعوب الشرقية الأخرى، تخلوا بعد دخولهم الإسلام، عن ماضيهم الديني، وأن حياتهم الروحية على النطاق الديني، تأثرت كليا بمفاهيم نظرية غريبة عنهم، نظرية انحصارهما في استمالة هذا الشعب إليها ودمجها في نفسها، دون أي إضافة أصلية وخاصة إلى سمات الشعب الكردي.

لكن من حسن الحظ أن الحالة الحقيقية ليست على هذا النحو. ففي النطاق الديني أيضا، كما هو الحال في سائر الميادين الأخرى التي سبق لنا عرضها، يتشبث الكردي بذاتيته المتميزة، وهو ما نحاول بيانه للقارئ في هذا الفصل من كتابنا هذا. سنبحث بادئ ذي بدء في الإسلام كما يبدو في الوسط الكردي. ثم نستعرض اليزدية أوالايزدية في كونها

ديانة صرفة، ثم نتكلم عن طائفة (الحق) - أهل الحق- التي ليست كردية صرفة، إلا أن كثيرين من الكرد انتموا إليها[1]. وأخيرا نتكلم باقتضاب عن الخرافات والمعتقدات الشعبية التي لا يمكن فصلها عن مجموع الحياة الدينية التي يمارسها شعب يدور البحث حول معتقداته. في الحقيقة أن الإطلاع على النظريات الدينية والمذاهب التي فسرت في الكتب المقدسة والمعلق عليها من قبل رجال اللاهوت الديني يبقى مقتصراً على النخبة المثقفة. أما الجماهير الشعبية فإنها تتبع التفسيرات التي تفرضها عليها تلك النخبة. وهذه الجماهير تعيش في الواقع على ذخيرة من التقاليد والمعتقدات التي انتقلت إليها من جيل إلى آخر والتي ربما كان أولئك الناس أكثر تماشيا وانسجاما معها مما مع القواعد والأسس الرسمية الدينية الثابتة. إن هذه الأفكار الدينية القديمة التي تعيش في أعماق النفس البشرية، تقدم للباحثين فائدة كبيرة في حد ذاتها وتسمح لهم بالكشف عن الأسرار الخفية للحياة الروحية في البيئة المعنية بالأمر.

ثانياً :موقف الكرد إزاء الإسلام:

نحاول في البداية أن نستخلص موقف الكرد إزاء الإسلام الذي اعتنقه الشعب الكردي في غالبيته العظمى. وقد سبق أن ذكرنا في الفصول السابقة (الفصل الثامن بوجه خاص) ، أن الإسلام أسهم إلى حد كبير في التطور التاريخي للشعب الكردي، وقد وجد في صفوف هذا الشعب دائما أعداد لا تحصى من المؤمنين بالإسلام المستعدين دائما للقتال باسمه من أجل انتشاره، كما أنه أنجب رجالاً أتقياء أعطوا المثل الصالح لاعتبار الإسلام دستور حياتهم ومنهج سلوكهم، وكانوا يجدون في التبشيرية والدعوة إليه واجبهم الاجتماعي. نذكر من هؤلاء على سبيل المثال مظفر الدين من سلالة (بيك - تيكين) في أربيل (هولير). ويخبرنا

---

[1] الكتب الدينية والوثائق العديدة التي صدرت في السنوات الأخيرة في إيران وفرنسا تثبت بجلاء أن مذهب أهل الحق مذهب كردي أصيل ظهر في كردستان. وأن مقدساته كلها تقع في كردستان وان معظم نصوصه الدينية باللغة الكردية - اللهجة **الگورانيه** - وأن أتباعه من غير الكرد أقلية بالنسبة إلى الكرد. للمزيد من التفاصيل، راجع مؤلف الدكتور محمد موكري (باللغة الفرنسية)، مساهمة علمية في الدراسات الإيرانية. باريس ١٩٧٠ - المترجم.

كتاب (شرفنامه) بدوره بأسماء الكثيرين من الشخصيات الكردية التي ربما كانوا أقل نموذجية من زعيم أربيل الآنف الذكر، إلا أنهم لم يكونوا أقل حرصا منه على الإسلام أو أدنى حماسة لنشر قيمه، وقد شيدوا الجوامع وأنشاوا المدارس الدينية ووقفوا عليها الأراضي والعقارات وقاموا بمختلف أعمال البر والإحسان.

أ - النخبة المتبحرة في الإسلام:

نذكر هنا بعض الأسماء التي تؤكد تبحر نخبة من الكرد في الإسلام، ونورد في المقدمة من هؤلاء، السيد والشريف في كل حين صلاح الدين الأيوبي ذا النشاط الإسلامي الوافر، رغم أن فعاليات هذا الكردي العظيم جرى خارج وطنه كردستان. فقد شيد وأصلح بوجه خاص في القاهرة العديد من المدارس، كما شيد فيها الخانقاهات والمستشفيات. ومن بين المدارس التي أنشأها، نذكر القرافة الكبرى والقرافة الصغرى بالقرب من ضريح الإمام الشافعي، ومدرسة المعزية على مقربة من الضريح المنسوب إلى الإمام الحسين، وكذلك مدرسة زين التجار الشافعية والمدرسة المالكية، وإصلاح وترميم المدرسة الحنفية في موقع قصر العباس بن سالار، وخانقاها في موقع قصر سيد السادة الخليفة الإسماعيلي. وكذلك بنى دار شفاء (مستشفى) ضمن نطاق قصره[٢]. كما شيد في القدس مدرسة وخانقاها. وقد أنفق صلاح الدين كل ثروته في أعمال البر والإحسان الإنسانية، ويقال إنه لم يخلف بعد وفاته في خزانته إلا (٤٧) درهما فضيا فقط.

ويذكر لنا مؤلف كتاب (شرفنامه) تفصيلات عن أعمال الخير والإحسان التي قام بها هو وأجداده في (بدليس) والآثار الثقافية التي تركوها بعدهم هناك، ومنها ست مدارس هي: المدرسة الإخلاصية التي درس فيها شمس الدين مولانا محمد الشيرانشى قطب عصره في علم الكلام والفلكيات، ومدرسة الحاج بيكية التي درس فيها مولانا محمد الزرقى المتصوف المعروف، ومدرسة الأدريسية التي درس فيها مولانا عبد الله رشك المشهور بالملا الأسود وكان يتمتع بسلطة روحية خاصة، والمدرسة الخطيبية، والمدرسة الشكرية، والمدرسة الشريفية

[٢] راجع كتاب (شرفنامه) طبعة القاهرة. ص ٩٦ - ٩٧.

التي درس فيها مولانا خدر بابي من فقهاء الشافعية اللامعين. وقد شيدت كذلك في بدليس زاوية الشمسية وهي صنف من التكايا يوجد فيها قسم داخلي لطلبة العلوم الدينية. وكان شمس الدين البدليسي يتمتع بين المسلمين بمثل ما كان يتمتع به بين المسيحيين القديس فرانسوا، فعندما كان يتوضأ كانت الطيور والحيوانات البرية تأتي لتشرب الماء من كفي يديه[٣].

وإلى جانب هذه المراكز الكبيرة التي شيدها الكرد المسلمون، والتي يستطيع القارئ أن يضيف إليها تلك التي شيدها في أربيل حاكمها مظفر الدين، نذكر أسماء مراكز أخرى ربما كانت أقل أهمية، إلا أنها أكثر شهرة في كردستان. وتأتي الجزيرة (تعرف لدى الكرد باسم: جزير – المترجم) في مقدمة المراكز التي أنجبت رهطا كبيرا من الجهابذة والفقهاء المشهورين في علم الكلام الإسلامي والذين كان يرعاهم بوجه خاص بدر بيك بن شاه على بيك[٤]. نذكر منهم مولانا محمد كالي ومولانا أبا بكر ومولانا حسن السورجي ومولانا زين الدين البابي ومولانا سيد علي. ويروى أن مولانا أبا بكر اغتاظ مرة وصمم على مغادرة الجزيرة، فهب أعيان المدينة وعلى رأسهم الأمير يتوسلون إليه كي يعدل عن قراره، فنزل عند رغبتهم وعدل عما كان قد صمم عليه. وقد أشتهر مولانا زين الدين البابي بمعرفته للعلوم الظاهرية والباطنية. وقد دخلت الفتاوى التي أصدرها هؤلاء العلماء في الفقه الإسلامي الكردي. ولئن كانت منطقة الجزيرة تثير انتباهنا الخاص، فلأنها تعتبر من مراكز الازديين أيضا. وقد اشتهرت مدينة زاخو أيضا بكونها من مراكز التبحر الكردي في العلوم، وأنجبت العديد من العلماء في كردستان، رغم أن (شرفنامه) لم يورد لنا أسماؤهم. وفي (خيزان) أنشأ الأمير الكردي داود بن الأمير مالك مدرسة أطلق عليها اسم (الداودية) باسمه. ومدينة (خلات) التي أنشأها الكرد أنفسهم على ما يقول حسين حزني، أنجبت فقيها وعالما كبيرا هو مولانا محيي الدين الخلاطي[٥] الذي دعاه نصير الدين الطوسي

---

[٣] المصدر السابق. ص ٤٥٥ و ٤٩٥.

[٤] المصدر السابق. ص ١٧١.

[٥] المصدر السابق. ص ٤٦٠

لمساعدته في بناء مرصد في مراغه في القرن الثالث عشر. وفي (بالنكان) شيد محمد بن غيب الله بيك المتزوج من ابنة الشاه طهماسب الصفوي مدرسة ومسجداً جامعا.

إن القائمة التي نقلناها عن كتاب (شرفنامه) ليست كبيرة، ولكنها كافية لتثبت أن كردستان في القرن السادس عشر لم تكن لتقل في شيء عن سائر البلاد الإسلامية فيما يتعلق بإنشاء المدارس وأماكن العبادة والممارسات اللاهوتية فيها.

في الدراسة التي بعثتها إلى المؤتمر الدولي السادس عشر للدراسات الاثنولوجية الذي انعقد في بروكسل عام ١٩٣٥ تحت عنوان "محاولة في تصنيف الفلكلور بمساعدة سجل اجتماعي - اقتصادي"، قلت بصد ملحمة "مم وزين" في الصفحة التاسعة ما يلي: "إن القصيدة في مجملها مشبعة بطابع إسلامي قوي، ففي موارد متعددة منها يجري الحديث عن الدعاء والنذور والاستغاثة بالله والقسم بالقرآن". وفي المجموعة التي جمعها (سوسين) والتي أشرنا إليها مرارا في الفصل التاسع من هذا الكتاب، تجد قصصا وأشعاراً مشبعة حد الامتلاء بالروح والفكر الإسلاميين، وأذكر منها بوجه خاص قصيدة (سيسبان) التي تتحدث لنا عن قتال وقع بين المسلمين والمسيحيين وتورد أسماء الرسول نفسه وعلي ومعاوية والحسن والحسين وخالد بن الوليد وعمر بن الخطاب. إن هذه القصيدة، كما يقول سوسين، مستعربة إلى حد كبير[٦]. وهناك قصيدة كردية أخرى موضوعها فرس أسود للرسول[٧].

وبين أساتذة جامعة الأزهر الإسلامية عدد من الكرد. وقد ذكر لي بين عدد من الأسماء اسم عبد السلام الماريديني، وهو الكيميائي الذي ترك مخطوطة في هذا الموضوع. كما أن لدى كتابا يبحث في علم الكلام نشر في القاهرة عام ١٩٣٤ ومؤلفه هو السيد عبد الرحيم الحسيني المعروف بـ (مولوى)، واسمه الشعري (معدومي)، وهو كردي من (سنه)، وقد

---

(٦) المرجع المشار إليه في المتن. ص ١٧٥

(٧) المصدر السابق. ص ١٩٢.

عاش في أواسط القرن التاسع عشر[٨]. إن قسما من مؤلفه هذا مكتوب باللغة الكردية (اللهجة الگورانيه)، والقسم الآخر باللغتين الفارسية والعربية[٩]. أما فيما يتعلق بناشر الكتاب محيي الدين صبري النعيمي الذي يبدو أنه كردي من (سنه) أيضا، فقد درس في الجامع الأزهر ٣٦ عاما ونشر خلالها مؤلفات عديدة للرازي والغزالي وغيرهما.

ب – سنيّة الكرد:

لم يبق الكردي غير مكترث بالخلافات السنية - الشيعية، بل التزم جانب السنة ضد الشيعة على أرض المعركة بين العثمانيين والفرس، كما قاتل في أغلب الأحيان الفرس وهو في صفوف العثمانيين الترك. وقد خصصنا لهذا الموضوع دراسة توضيحية مع ترجمة نص كردي يحمل عنوان "محاباة الكرد للسنة" نشرت في مجلة ألمانية عام ١٩٣٣، الجزء الثامن، ص ١١٦ - ١٦٠. ويتركز موضوع النص حول حوار ناجح أجراه درويش كردي مع عدد من أقطاب الشيعة في مدينة كربلاء.

ويمكننا القول بوجه خاص أن هذا التعارض يظهر لنا على مدار العلاقات الكردية-الفارسية كيف أن الاختلافات المذهبية تأخذ طابعا شديدا عندما تصطدم بمعارضة جد قوية ناشئة عن اختلاف الأوضاع الاجتماعية. فالجانب الكردي يتصف بكونه مجتمعا عشيريا مترحلا يعيش أفراده في الجبال، فيما يتصف المجتمع الفارسي بكونه ثابتا ومتحضراً يعيش أفراده في السهول. إننا نجد أنفسنا بعيدين عن الاهتمامات الدينية طالما كنا نحاول دراسة مشكلة متهيجة ضمن إطارها الحيوي، وليس تحت ستار رؤية ظاهرة فقط.

---

[٨] ينتسب السيد عبد الرحيم المولوي وهو شاعر رقيق مرهف الحس واسع الخيال وجياش العاطفة إلى عشيرة (تاوة كوزي) القاطنة في منطقة تابعة لقضاء حلبجة بمحافظة السليمانية على الحدود العراقية-الإيرانية. ولد في قرية (سه رشاته) عام ١٢٢١هـ/١٨٠٦ م ومات فيها عام ١٣٠٠هـ/ وهو ليس من سنندج ولكنه درس فيها وزارها أكثر من مرة – المترجم.

[٩] يتألف هذا المطبوع من كتابين شعريين للشاعر أحدهما (العقيدة المرضية) وهو باللغة الكردية في ١٣٠ صفحة. والثاني (الفوائح) وهو باللغة الفارسية في ٥٤ صفحة. هذا وقد جمع الأستاذ الملا عبد الكريم المدرس ديوان الشاعر وشرحه وطبعه في عام ١٩٦١. كما شرح كتابيه الآنفي الذكر بلغتهما وطبعهما. كما شرح كتاباً شعريا آخر له باللغة العربية في علم الكلام أيضا يسمى (الفضيلة) وطبعه مع شرحه – المترجم.

ويحمل الكردي شعورا بالضغينة إزاء الروم (الترك) وهم السنة، وإزاء العجم (الفرس) أيضا وهم من الشيعة، لأن ما يطغى على ذهنيته ليس هو رونق الإسلام الجديد بالنسبة إليه نسبيا، بل ما ورثه من الروحية القاسية من رجل العشيرة والجبلي الذي لم يخضع لأحد، المتعلق باستقلاليته والخائض صراعا عنيدا ومستمرا مع جميع القوى الخارجية الآتية من السهول التي تحاول ترويضه وإدخاله في نطاق تنظيم سياسي أو في (مدينة) لا يعرف التآلف معها، بل إخضاعه. إن هذه الصورة من العقلية الكردية لا تقبل التحول إلا بصورة بطيئة جدا، وهي مما يجب أن تبقى حية في ذاكرتنا كمعيار ضروري ولازم في معاينتنا لتوجهاته.

إن الاختلافات الظاهرية بين السنة والشيعة لا تفسر لوحدها حقيقة العلاقات بين الكرد والفرس، ولكننا، ونحن نستند إلى التحليلات المبنية على مشاهدة الوقائع، ملزمون بالتأكيد على أن الدروشة الكردية لا تقوم بدورها وهي تتحول، كما هو الحال بالنسبة للنص الذي أشرنا إليه آنفا، إلى مدافع عن نظرية السنية التقليدية.

صحيح أننا نعلم أن الطرائق الصوفية، بما فيها الطوائف الصوفية الكردية، استخدمت خلال فترة معلومة آلة لتنفيذ سياسة عبدالحميد الإسلامية، كما نعرف أنه فيما بعد وجدت فكرة الجهاد المقدس خلال الحرب الكونية الأولى، قبولا لدى المشايخ الكرد، إلا أننا استطعنا أن نتحقق في الوقت نفسه من أن الانتساب إلى هؤلاء المشايخ في الأوساط الكردية أخذ بكل بساطة طابع المناهضة ضد الترك، بل صار موجها حتى ضد شخص السلطان نفسه[10]. لقد عرفنا خلال الحرب الأولى إلى جانب المشايخ المؤيدين لفكرة الجهاد، مشايخ آخرين كانوا يناهضون تلك الفكرة بحزم. وبعد انتهاء الحرب، كانت الثورة الكردية الكبرى التي اندلعت عام ١٩٢٥ يقودها أحد مشايخ النقشبنديين، وكانت الإجراءات التي اتخذتها السلطات التركية موجهة ليس فقط ضد الكرد، حيث تم تهجير الكثيرين منهم بصورة كاملة إلى مناطق غير كردية، بل شملت أيضا طوائف الصوفية من القوميات الأخرى، كالبكداشيين

[10] بحثنا عن "الكرد كما يتحدثون عن أنفسهم" (باللغة الفرنسية) في مجلة آسيا الفرنسية. عدد أيار ١٩٢٥. الفقرة ٢٣١.

الذين لعبوا في الماضي دورا تاريخيا مهما داخل الدولة العثمانية[11]. أننا نريد بإيرادنا لهذه الملاحظات أن نبرهن على أن السنية الرسمية لدى الكرد في تناقض جوهري مع التطلعات الحقيقية لهذا الشعب[12]

ج – التصوف الكردي، سلطة المشايخ:

الفكرة الدينية التي تترجم إلى الواقع لدى الكرد وتفسر بصورة بدائية بينهم، هي في الواقع فكرة التصوف الشائعة بين طوائف الصوفية[13]. إن التصوف من الناحية العقائدية

---

(11) يراجع مقالنا بعنوان "كرد الموصل" المنشور في مجلة بولونية تصدر في كراكوف، العددان ٥٠ – ٥١ لعام ١٩٢٦

(12) لا أفهم ما قاله المؤلف وجهاً للبرهنة على أن السنية الرسمية في تناقض جوهري مع التطلعات الحقيقية للشعب الكردي. ولست أقصد بهذا أنها تنسجم مع هذه التطلعات تماما. إنما أقصد أنه ليس من الصحيح البحث عن مذهب ملائم للكرد ينسجم مع تطلعاته أو غير مناسب لا ينسجم وإياها، وينبغي دائما السعي لحل مشاكل هذا الشعب خارج إطار الدين أو المذاهب الدينية. لقد كان هناك مثلا في القرون الأخيرة التي تنازعت خلالها الدولتان العثمانية والإيرانية وكان ميدان نزاعهما يقع دوما في أراضي كردستان. كرد سنة مع السلطات العثمانية السنية أو ضدها، وكرد شيعة مع السلطات الإيرانية أو ضدها. وهذه الحقيقة بحد ذاتها تدل على أن الدافع الأول لولاء الكرد لأي من الدولتين لم يكن وحدة المذهب معها، كما لم يكن اختلاف المذهب علة التناقض الأولى بينهما. وحتى بين الكرد أنفسهم كأبناء قومية واحدة طالما حارب سنيون سنيين وطالما حارب شيعيون شيعيين. كما حدث العكس. إذا يجب البحث عن هذا الخلاف أو الولاء في أسباب أخرى اقتصادية ومصلحية قبل أي شيء آخر. هناك شيء جوهري يجب قوله وهو أن الفكرة الشيعية لكونها مبينة على الولاء لعائلة الرسول وعلى الوراثية قبل أي شيء آخر. أكثر انسجاما مع القيم الإقطاعية من الفكرة السنية التي مداها أكثر سعة من هذه الناحية. ولهذا فإنها أكثر انسجاما مع القيم الفكرية السائدة في المجتمع الكردي بوصفه مجتمعا مايزال الفكر الإقطاعي راسخا فيه. والحق أن هناك قيما الصق بالفكر الشيعي منها بالفكر السني متعششة في عقول البسطاء الكرد السنة مثلما هي متعششة في عقول البسطاء الكرد الشيعة. وخلاصة القول أن الدين الإسلامي راسخ إلى حد كبير في نفوس الكرد ولاسيما القرويين والعشيريين منهم. سواء كان على المذهب السني والشيعي أو غيرها. وإن كان المسلمون الشيعة أكثر تشددا في التمسك بمذهبهم من إخوتهم السنة لأسباب تعود في الغالب إلى الظروف السياسية التي عاشها الشيعة طوال قرون عديدة – المترجم.

راجع: مينورسكي-الكرد (باللغة الروسية). بيتروكراد. ١٩١٥ ص ٢٢ – ٢٣ [وهناك ترجمة له إلى اللغة العربية للدكتور معروف خزندار. طبع ببغداد عام ١٩٦٦ المترجم].

لم يحظ أبداً بتأييد علماء الدين رسميا[١٤]. أما من الناحية الاجتماعية، فقد توافق جيدا مع الوسط الكردي، وهذا ما يفسر سر قوة هذا السلوك الديني بينهم. والطرق الصوفية المنتشرة في كردستان هي أولا الطريقة النقشبندية، ثم الطريقةُ القادرية التي تنسب للشيخ عبد القادر الكيلاني[١٥] مؤسس هذه الطريقة المنتشرة حاليا على نطاق واسع بين العشائر الكردية. إن الصوفية الكردية منظمة حسب التدرج العشيري. فالشيخ هو المرجع الصحيح للطريقة الصوفية يعلّمها ويبّشر بها في مقره (الخانقاه أو التكية - المترجم) مريديه الذين يحيطون به، ويصبح أفضلهم فيما بعد (خلفاء) له بين العشائر. وهكذا تتحول كردستان بكاملها إلى شبكة تنتشر فيها "خلايا الصوفية" حسب الجغرافية السكانية للعشائر.

سبق أن أوردنا أسماء عدد من هؤلاء المشايخ لدى تطرقنا لموضوع التدرج لدى العشائر وعن الحركة الوطنية الكردية، ولكن من المستحسن التوقف أكثر في هذا الفصل لنبين أهمية هؤلاء في كردستان. وسنذكر أسماء بعض الأسر الكردية التي تتولى مشيخة الطرق

---

(١٤) راجع مؤلف البروفيسور لويس ماسينيون (دراسة عن المعجم الفني)، باريس، ١٩٢٢، حيث يورد أسماء عدد من المراجع تبين وجهات نظر علماء الدين إزاء التصوف.

ليس صحيحا ما يذكره المؤلف من ان التصوف لم يحظ ابدا بتاييد علماء الدين رسميا، فمراجعة بيوغرافية لسير من تتوفر لدينا سيرهم من علماء الدين الكرد الكبار توضح بجلاء أن قلة قليلة منهم فقط وقفت موقفا سلبيا من الطرق الصوفية ومشايخها، ناهيك عن علماء الدرجة الثانية والثالثة الذين كانوا إلا فيما ندر مجرد أتباع لمشايخ الصوفية. أما الوثائق الفقهية والدينية التي تركها هؤلاء العلماء من بعدهم، فكلها تبرهن بالأدلة على أن التصوف شيء أصيل في الإسلام وأن لا تناقض بين الشريعة والطريقة، وإن كان الافتعال باديا على كثير من تلك الأدلة. وهناك مصادر عديدة تبرهن على أن للشريعة ظاهراً و باطنا، ويتولى ظاهرها العلماء والفقهاء، ويتولى باطنها مشايخ الصوفية. وأن لا تناقض بين هذين المظهرين الظاهري والباطني، وأن الأخذ بأحدهما دون الآخر إنما هو أخذ بالقشور وترك اللُباب أو اخذ بالحقايق مع ترك الظواهر. وكلاهما في نظر أصحاب هذا الرأي نهجان خاطئان. صحيح أن علماء الدين يحاربون بعض مظاهر الدروشة التي تعتبر غير شرعية، كتناول النار والضرب في الأجساد بالخناجر، ويفرقون، نظريا على الأقل، بين مشايخ الصوفية الحقيقيين والمتشيخيين. ولكن هذا شيء، وعدم تأييد التصوف كفكرة، شيء آخر. ولعل المؤلف صادف في رحلاته بعض علماء الدين المتنورين الذين تأثروا بالأفكار الحديثة الواردة من مصر، فأخذوا يناوئون الصوفية والمتصوفين. فتصور أن هؤلاء المتنورين الذين كانوا دائما قلة، يمثلون الوجه الحقيقي لعلماء الدين الكرد - المترجم.

(١٥) راجع دراسة الأستاذين عيني وسيمور منير.السيد عبد القادر الكيلاني أعظم قديس في الإسلام (١٠٧٦ - ١١٦٨)، باريس ١٩٣٨ في الجزء السادس من كتاب (الشخصيات الشرقية العظيمة).

الصوفية في كردستان. ويأتي في مقدمة هؤلاء مشايخ (شمدينان) المعروفون باسم (سادات نهرى)[١٦]. يرجع النسب الأصلي لهذه الأسرة إلى الشيخ عبد القادر الكيلاني، إذ ذهب نجله الشيخ عبد العزيز إلى (عقره) يبشر بالطريقة القادرية وتوفي ودفن هناك، وما يزال قبره مزاراً للمريدين ولعامة الناس. وأقام فيما بعد ابنه الشيخ أبو بكر في منطقة (هركي) في قرية (ستوني) التي عاش فيها من بعده ابنه الشيخ حيدر وثلاثة أو أربعة من أخلافه. وفي أيام (الملا حاجى) انتقلت الأسرة لتستقر في قرية (ميلايان) الواقعة في منطقة (خومارو)، ثم انتقل أحفاد الملا حاجى إلى قرية (ديمانى سوفيا) حتى أيام الملا صالح. وقد ترك أولاد هذا الأخير الطريقة القادرية وتمسكوا بالطريقة النقشبندية[١٧]. وإلى هذا الأخير يعود تاريخ قيام هذه الأسرة في (نهرى) مركز إقليم شمدينان.

ومن بين دراويش [الصحيح: مرشدي - المترجم] النقشبندية يجب أن نذكر مولانا خالداً في السليمانية الذي كانت له سيطرة قوية على أتباعه، رغم أنه لم يطمح لأن يكون له دور سياسي[١٨]. لقد كان كرديا عاديا من منطقة شهرزور، وبعد أن أنهى دراسته في المدارس الدينية صار يدعى (الملا خالد) وأخذ يدرس في أحد مساجد السليمانية. وقد رأى في حلمه بعد ذلك الشيخ عبد الله الدهلوى [أحد كبار مشايخ الطريقة النقشبندية في الهند - المترجم] في شكل صوفي بسيط، فأمره هذا قائلا له: "أذهب يا خالد إلى الحج، وسترى هناك في الكعبة درويشا مثلك يبحث عن القمل في ثيابه ليقتله. لا تغضب من ذلك، بل قبل طرف عباءته، وسيساعدك على تحقيق أمانيك". غير أن خالداً لم يهتم بهذا الحلم، ومضت سنوات عديدة نسى خلالها خالد حلمه تماما. وعندما ذهب إلى الحج وبلغ الكعبة، أبصر درويشا بالصورة التي رآها في حلمه، فدنا منه بغضب وقال له: "حسب أي قواعد دينية

---

(١٦) راجع دراستنا في مجلة (آسيا الفرنسية). عدد أيار ١٩٢٥.

(١٧) على يد مولانا خالد النقشبندي.

(١٨) أرى أن هذا ليس دقيقا. فتاريخ المرحلة الأولى من دعوة مولانا خالد إلى الطريقة النقشبندية وسير العديد من خلفائه من بعده تدل على عكس هذا. ويمكن الاطلاع بهذا الشأن على مقال للسيد محمد الملا عبد الكريم منشور في العدد (٨٥) من جريدة التآخي البغدادية الصادرة بتاريخ ١٩٦٧/٧/٢٥.

تعمل ذلك أيها الفاسق؟[19] "فأجابه الدرويش بهدوء: "ياخالد، أنسيت رؤياك القديمة؟ إن لم تذهب إلى دلهي فستكون طريق الخلاص أمامك طويلاً". فذهل خالد من كلام الدرويش، ثم عاد إلى السليمانية وهيأ نفسه لسفر طويل رغم نصائح رجال الدين له لردعه عن السفر، ولكن دون جدوى، فقد صمّم على السفر إلى دلهي. وفي طريق سفره، زار مدينة (نهرى) التي كان يدرس فيها السيد عبد الله شمديناني الذي استفسر منه عن سبب سفره قائلا له: "إنها سفرة بدون فائدة. وإذا كان سفرك ضروريا فسأرافقك فيه"، فكان جواب خالد له الاستشهاد بهذا البيت لأحد الشعراء الفرس:

ادیب من جلیس من شود در حلقه رندان

به کوشش کر رسانم ناله مستانه خودرا

أي:

يغدو ناصحي جليسي في حلقة اللاامباليين

لو همست في أذنه بهذياناتي المخمورة

ثم سافر إلى دلهي وأمضى فيها سنوات عدة إلى جوار الشيخ عبيد الله الدهلوي قضاها في الصوم والصلاة، ثم عاد إلى السليمانية يحمل بركات ذلك الشيخ، وصار مرشداً للطريقة النقشبندية. وقد جلبت له شعبيته الواسعة كثيرا من الأعداء والحساد، نذكر منهم الشيخ معروف النودهي في السليمانية والملا محمد بالك الذين راحا يهاجمان وجود مولانا خالد في كردستان بمثل هذه العبارات: ان الكرد أناس سذج ومؤمنون، لذلك سيقدمون العطايا الجزيلة إلى خانقاهات النقشبنديين وسيثرى هؤلاء من تلك العطايا، ويترتب على ذلك حدوث مشاكل كثيرة على النطاقين الروحي والزمني، وسيعيش أولاد أولئك المشايخ النقشبنديين في النعمة والرفاهية بفضل ثروة آبائهم، ويشبون متكبرين راضين عن أنفسهم مما يؤدي بهم إلى نسيان مبادئ آبائهم وأجدادهم والحياة البسيطة التي كانوا يحيونها، ولن

---

[19] يشير بذلك إلى أن سفك الدم في أرض الحرام حرام – المترجم.

تكون الأولوية عندهم للأمور الدينية، إذ سيحاول هؤلاء المشايخ التدخل في الشؤون السياسية ويأملون الوصول إلى السلطة والحكم، وباستغلالهم لنفوذهم على الناس البسطاء من أتباعهم يجعلون منهم عبيداً لهم، ويعملون على حرفهم عن حقيقة دينهم، فلا يفكرون إلا في إبقائهم في الخوف والهلع والخضوع التام لهم. إن خططهم الأنانية تلك ستكون غير مقبولة من الحكومة فترسل جيوشها إلى كردستان، ولن تبقى بعد ذلك سكينة أو عدالة.

ولم يكتف خصوم مولانا خالد بهذه التأويلات، بل انتهوا إلى فكرة القيام بقتله. "إن ذلك سيكون أمرا طبيعيا إذا كان خالد رجلا شريرا. أما إذا كان رجلا طيبا، فإن نتائج نفوذه تكون شؤما بالنسبة لكردستان. ولأجل ذلك يجب قتله، لأن ارتكاب القبيح لدفع الأقبح واجب".

باختصار، لما بلغ الأمر إلى مولانا خالد الذي كان رجلا تقيا، لم يتردد في ترك المدينة والسفر إلى القسطنطينية. وقد أدى انتشار أفكاره في العاصمة أيضاً إلى نصيحة رجال الدين هناك له بالسفر إلى البلاد العربية، لأن "الناس هناك منغلقون في معتقداتهم وأقل قابلية في نقل الأفكار الجديدة". وبعد قضاء بضع سنوات من الوعظ والإرشاد في سوريا، توفي في دمشق ودفن في الصالحية (وهي من ضواحي دمشق وتسكن فيها جالية كردية - المترجم).

وقال عنه أستاذي الملا سعيد الذي علّمني اللغة الكردية، وهو الذي أخذت عنه قصة مولانا خالد هذه، "إن مولانا كان رجلا تقيا صالحا، ولكن المبادئ التي زرعها في كردستان لم تنفع هذه البلاد".

ولننتقل الآن إلى ذكر أسماء بعض المشايخ ذوي النفوذ في كردستان. ففي السليمانية يتمتع أحفاد كاك أحمد الشيخ [نجل الشيخ معروف النودهي الذي سبق ذكره قبل قليل — المترجم] بشهرة واسعة، وهو ينتمي إلى أسرة تدعى انتسابها إلى قريش قبيلة النبي[٢٠].

---

[٢٠] أسرة كاك أحمد الشيخ من سادات البرزنجية وهي ترتقي بنسبها إلى علي ابن أبي طالب وفاطمة الزهراء كريمة الرسول(ص). فهي أكثر صلة بالنبي(ص) من كونها قرشية فقط - المترجم.

لقد كان أحد أنجال [الصحيح: أحفاد - المترجم] هذا الشيخ نقيبا لهذه المدينة[٢١] وهو الشيخ سعيد الذي قتل في الموصل عام ١٩٠٦، وكان قد قام بدعاية واسعة بين الكرد في إيران في أيام السلطان عبد الحميد للتمهيد لدخول الأتراك هذه "المناطق المتنازع بشأنها[٢٢]".

وكل ذلك لم يمنع الأتراك من تدبير عملية اغتياله. أما أخوه الشيخ معروف، فلم يكن يعرف من اللغة التركية كلمة واحدة. أما ابن الشيخ سعيد، الشيخ أحمد، فلم يكن معروفا كأخيه البكر الشيخ قادر الذي التجأ إلى أبناء عشيرة (هموند) بعد اغتيال والده، حيث أعلن الثورة ضد الأتراك وانضم إليها شيوخ بارزان أيضا. وقد لاقي الأتراك صعوبات جمة في خنق هذه الثورة، وانتهوا إلى إعادة منح شقيق الشيخ سعيد لقب (نقيب) وإرجاع أملاكه إليه. ولكن هذا الأخير كان يحمل مع ذلك حقدا كبيرا على الأتراك الذين قتلوا أخاه.

أما في هورامان فإن الأسرة الصوفية المتنفذة هي أسرة الشيخ عثمان التي تقطن قريتي (تويله) و (بيارة) (التابعتين لقضاء حلجبة – المترجم). كان للشيخ عثمان نجلان[٢٣] هما الشيخ محمد والشيخ عمر[٢٤]. ونجلا هذا الأخير هما الشيخ نجم الدين والشيخ علاء الدين. ونجل الشيخ محمد هو الشيخ حسام الدين الذي يمثل حاليا هذه الأسرة[٢٥] التي تتمتع بنفوذ واسع بين عشائر موكرى ومامش ومنكور. وهؤلاء المشايخ كلهم من النقشبنديين.

---

[٢١] النقابة كانت منصبا شرفيا. ولم تكن بالنسبة للمدينة وإنما بالنسبة إلى أشرافها أي ساداتها المنتمين إلى النبي صلى الله عليه وسلم – المترجم

[٢٢] راجع ماسبق أن ذكرناه في الفصل العاشر من هذا الكتاب.

[٢٣] كان له أكثر من نجلين ولكن هذا النجلين فقط تبوأ بعده مركز الارشاد الديني – المترجم.

[٢٤] يعرف الأول منهما ببهاء الدين والثاني بضياء الدين – المترجم.

[٢٥] كان الشيخ حسام الدين يمثل احد فروع الأسرة– المترجم.

وفي كركوك يشتهر نجل الشيخ علي الطالباني، الشيخ محمد علي، الذي ينتمي إلى الطريقة القادرية. والأسرة الطالبانية فرع من العشيرة الكردية (زنگنه)[٢٦]. وينتسب شيوخ الطالبانية إلى هذه الأسرة. كما أن هناك قرى أخرى كقرية (گوره شله) الواقعة على الحدود العراقية- الإيرانية في ملتقى نهرى (قوره تو) و (سيروان)، وغيرها، يقطنها شيوخ آخرون من الأسرة نفسها يمتهنون الزراعة، كالشيخ حميد والشيخ نصر الدين.

وتوجد في كركوك أيضا سلالة السيد عبد الرحمن ممثلة في شخص نجله السيد عمر الذي ينتسب إلى المذهب الشافعي (وهو المذهب الذي ينتشر أيضا في داغستان في ما وراء القفقاس). لقد كان السيد عبد الرحمن من الشخصيات الدينية المعروفة في أرجاء كردستان كافة، وكان يقال أن لديه ما ينوف على خمسين ألف مريد منتشرين في كل مكان يستخدمهم كآلة منقادة في الدعاية له[٢٧].

وفي العمادية، في منطقة (بهدينان) تتمثل الطريقة القادرية في أسرة الشيخ نور الدين البريفكاني الذي لم ينجب ولدا، ولذلك انتقلت المشيخة بعده إلى شقيقه البكر.

وفي منطقة (بدليس) و (وان) نذكر الشيخ بهاء الدين ابن الشيخ محمد الكفراوي. وفي منطقة (هكاري) سلالة الشيخ فهمي الأرواسي، وبخاصة الشيخ عبد الحكيم ابن الشيخ طه الذي كان يعيش قبل الحرب الأولى في (باش قلا).

---

[٢٦] تدل قطعة شعرية للشاعر الشيخ رضا طالباني. وهو أيضا من هذه الأسرة، على أن جد الأسرة الأعلى من اسرة (كاكه سورى) في (بوكان)، وينتمي المترجم أيضا إلى هذه الأسرة. وهو حفيد الشيخ محمد علي طالباني – المترجم. للمزيد حول الموضوع . راجع بحثنا باللغة الكردية الذي يحمل عنوان" شيوخ الارشاد الديني في الاسرة الطالبانية. مع عدد اخر من مشاهير هذه الاسرة". الطبعة الثانية. مطبعة پاك. اربيل ٢٠٠٣.

[٢٧] كان معاصراً لشامل الداغستاني المعروف بقيادته للكفاح ضد الروس. ومن المفيد أن يبحث فيما إذا كانت هاتان الشخصيتان المسلمتان الجليلتان تربط بينهما علاقة ما. وهو أمر جد وارد ولاسيما أن كليهما ينتميان للمذهب الشافعي – المترجم.

ويذكر لنا (روندو) في كتابه[٢٨] بعض التفاصيل عن شيوخ (بالو) وهم أفراد الأسرة التي ينتمي إليها الشيخ سعيد بطل ثورة ١٩٢٥ الذي نجح في إشعالها بفضل نفوذه الديني المتضاعف بالنفوذ الإقطاعي والعشيري نتيجة زواجه الناجح من بنات بعض الرؤساء المحليين الأثرياء.

أما في آكرى (عقره) وزيبار، فتوجد أسرتان تسلكان الطريقة النقشبندية، الأولى من سلالة الشيخ عبد السلام البارزاني[٢٩]، ويحمل حفيده ابن الشيخ محمد اسم جده. وقد اغتاله الأتراك خلال الحرب العالمية الأولى، وكان أولاده صغارا في العمر، لذلك انتقلت المشيخة إلى شقيقه الشيخ أحمد البارزاني الذي تكلمنا عنه في الفصل العاشر من هذا الكتاب. والثانية تقيم في قرية (بيجيل)، ويمثلها حاليا نجل الشيخ محمد، الشيخ بديع بيجيلي. ومشايخ بيجيلي معروفون، كمشايخ بهدينان، بثروتهم الكبيرة. أما من وجهة النظر السياسية، فان كردستان الوسطى مقسمة إلى منطقتي نفوذ: الأولى هي منطقة نفوذ مشايخ نهرى (شمدينان)، والثانية هي منطقة نفوذ مشايخ تويلة وبياره في هورامان، وهما مكانان منزويان من أكثر أماكن المنطقة منعة.

أما على الصعيد الديني، فان المشايخ كما بينا ذلك، هم رؤساء لجماعات المريدين (الصوفية والدراويش). وأكثر الطرائق انتشارا في كردستان هما الطريقة النقشبندية والطريقة القادرية، والأولى أسسها بير خواجه محمد بهاء الدين من بخارى، وهي أقدم طريقة صوفية[٣٠] ويطلق عليها اسم (السلسلة الذهبية) وعلى مشايخها (الخواجات الأعزاء). وحسب قول المؤرخ (هامر)، يعتبر النقشبنديون أن أول حلقة في سلسلتهم هو الخليفة أبو بكر الصديق، بينما تعتبر الطرق الصوفية الأخرى علي ابن أبي طالب صهر الرسول أول

---

[٢٨] العشائر الجبلية في آسيا القديمة. في مجلة دراسات شرقية (باللغة الفرنسية)، ١٩٢٦، الجزء السادس. المعهد الفرنسي في دمشق.

[٢٩] راجع بحثنا المشار إليه آنفا بعنوان "الكرد كما يتحدثون عن أنفسهم".

[٣٠] هامر. تاريخ الأمبراطورية العثمانية. الجزء الأول. ص ١٣٨ (بالألمانية).

حلقة في سلسلتهم[٣١]. ومع ذلك فان الطريقة النقشبندية انتشرت في كردستان بعد الطريقة القادرية[٣٢].

لا يسعنا هنا أن ندخل في تفاصيل الدروشة أو الصوفية[٣٣]، إلا أنه يمكننا القول أن الدراويش السالكين (ويسمون "مرداء") يمرون بمراحل عديدة من التعليم الطريقي تحت توجيه أستاذهم الروحي (الذي يسمى "المرشد"). انهم يتطهرون روحيا، ويعكفون على التعبد لله والاتحاد معه في حالة النشوة والغيبوبة. وأعمال التقوى الدينية الخارجية التي توصل إلى هذه الدرجة، تتجلى في الصلوات الخاصة التي لها معنى روحي خاص (ذكر، تلقين)، ترافقها في أكثر الحالات بعض الحركات أو حتى بعض الرقصات. وتعقد هذه الجلسات في أماكن خاصة بالعبادة يطلق عليها اسم (تكيه) وهي موجودة في كردستان، في ساوجبلاغ ونهرى وبارزان وبريفكان وبيجيل ..الخ.

يضمن الاحتفاظ بنفوذ الشيوخ، دينيا أو سياسيا، بمعاونة شبكة من الوكلاء يطلق عليهم اسم (خليفة). وقد أخبرت بأسماء العديد منهم خلال الحرب العالمية الأولى. ومن بين (خلفاء) شيوخ هورامان، أذكر بابا حكيم ابن سيد زنبيل الذي كان يسكن قرية بالقرب من (بوكان) مقر إقامة سردار بوكان البابا ميرى تحمل الاسم نفسه، وكان الشيخ يوسف شمس الدين هذا ممثلا (خليفة) لشيخ يعرف باسم (مولانا) في قرية (شرفخانى) على مقربة من ساوجبلاغ. وكان بابا حكيم يمارس نفوذه بين عشائر (بگزاده) و (ديبوكرى) و (كورك) و (مولانا) و (مامش) و (منگور). وكان هناك أيضا الشيخ بابا القادري ويمارس الإرشاد إلى الطريقة في قرية (غوث آباد) قرب ساوجبلاغ، وقد أعدمه الأتراك. وكنت قد راسلته

---

(٣١) عن حياة الدراويش راجع (فامبيرى).

(٣٢) عن المنافسة القائمة بين النقشبنديين والقادريين في (شنو) راجع: بتنير، المرجع المشار إليه فيما سبق. إن مؤسس الطريقة القادرية عام ١٠٦٩ الشيخ عبد القادر الكيلاني. هو الجد الأكبر لرشيد عالي الكيلاني رئيس الوزارة العراقية عام ١٩٤١.

(٣٣) يمكن اعتبار الدراسة القيمة للبروفيسور (ماسينيون) الذي يعتبر حجة في هذا المجال وبخاصة دراسته عن (العشق لدى حسين ابن منصور الحلاج) "باللغة الفرنسية" مصدرا مهما يمكن الرجوع إليه لمن يبغي المزيد من المعلومات.٣٣ أيضا. المراد بالدروشة كون المرء درويشا تابعا للطريقة القادرية. وبالصوفية كونه صوفيا أي منسوبا إلى الطريقة النقشبندية -- المترجم.

بغية الاطلاع على (رسالة خلافته) من شيخ طريقته، إلا أن نهايته المفجعة وضعت حدا لعلاقاتنا. كما كان يعيش في (بالك) بالقرب من جبال (كروشينكه)، الشيخ جلال ابن الشيخ كمال الدين الذي نشط كثيرا في الدعاية للجهاد خلال الحرب العالمية الأولى. والشيء الذي يهمنا بالنسبة لهذه التنظيمات السياسية الدينية من طرق التصوف الكردية، هو أن نشاط هؤلاء الدراويش الذين يبغون إعادة الإسلام النقي ومقام الخلافة (مع التحفظ بشأن ولاء الكرد إزاء السلطان التركي)، يأخذ طابعا دعائيا للإسلام[٣٤]. ان المشايخ هم الأعداء الألداء لتدخل أي نفوذ أجنبي في وسطهم. انهم مدفوعون ليس فقط بالحمية الدينية، بل باعتبارات تخص مصالحهم الشخصية وخشيتهم من فقدان نفوذهم، وهو ما يتحقق حتما إذا ما خرجت كردستان عن عزلتها. ولم يكن معلمي الكردي الملا سعيد يشك قط في هذا الأمر، كما لاحظنا ذلك في الفصل التاسع من هذا الكتاب. إلا أن ملاحظاتنا هذه يجب أن لا تعمم على جميع مشايخ الطرق، فليس هؤلاء جميعا يبحثون عن الطمع والغنى، إذ أن هناك بينهم من يعيشون من أجل الدافع الروحي، وهم متسامحون إزاء غير المسلمين والقضايا السياسية. وبسبب من تساهلهم هذا وامتناعهم عن القيام بالدعاية لمصلحة الجهاد المقدس بوجه خاص، قضى بعضهم نحبه على أيدي السلطات التركية كشيوخ بارزان والشيخ بابا القادري في منطقة موكريان.

لذلك ينبغي في كل دراسة تخص الوسط الكردي أن يكرس فصل منها لمشايخ الطرق الصوفية ونفوذهم وعطفهم أو نفورهم وعدد مريديهم .. الخ. ونحن بالتفاتنا نحوهم واهتمامنا بهم، نعمل في الوقت نفسه للكشف عن جانب ضئيل من الستار الذي تخفي وراءه النشاطات الإسلامية السرية. وتلاحظ هذه النشاطات تارة في مناطق القفقاس (الشيخ

---

[٣٤] راجع بحثنا بعنوان "الكرد كما يتحدثون عن أنفسهم" فقد ورد فيه: انهم (أي الكرد) يشترون السلاح. إننا نعرف أنه في جميع أرجاء كردستان تعتبر عشائر (زيباري) و (شيرواني) و (مزوري) اكثرها قسوة ووحشية. وقد قدمت هذه العشائر إلى الشيخ محمد مسلحين يقدر عددهم بخمسة آلاف مسلح. ولدى تجمعهم أعلنوا أنه ليس بوسع أحد مقاومتهم. وقالوا "بإمكاننا أن نسير إلى الموصل ونستولي عليها ومنها نغير على دمشق، ومن ثم نتوجه إلى القسطنطينية. وهناك سنمسك برجلي عبد الحميد ونسحبه من عرشه إلى الأسفل. ونضع الإمام محمد المهدي – أي محمد البارزاني – في مكانه. فهو الذي ينبغي أن يناب مناب الرسول".

شامل ومريدوه)، وتارة في المستعمرات الفرنسية في افريقيا مع (زواياها) الكثيرة، وكذلك بالنسبة لنفوذ السنوسيين في ليبيا، وفي جميع هذه الحالات نواجه أوضاعا مماثلة. فبناء على كلمة واحدة من الشيوخ يحمل الكرد أسلحتهم بأيديهم.

وقد رأى القارئ العديد من الأمثلة لدى تطرقنا لموضوع الحركة الوطنية الكردية (الفصلان التاسع والعاشر). وخلال الحرب العالمية الأولى رفعت جميع العشائر القاطنة جنوبي بحيرة أورومية، رغم ما أقره البرلمان الإيراني بشأن الحياد وعدم التدخل إلى جانب أي من طرفي النزاع، راية الجهاد المقدس بتحريض من المشايخ وأحيانا خلافا لرغبة رؤساء العشائر أنفسهم، (وأذكر على سبيل المثال، قرني آغا مامش). بقي أن نلاحظ أيضا، كما سأورد مثالا بهذا الشأن في ما بعد، أنه في الصراع الداخلي بين العشائر الكردية نفسها لا يفلت من سورة غضب المقاتلين من العشيرة الأخرى، لا المساجد ولا رجال الدين ولا القرآن نفسه في جبهة العشيرة المعادية، لأن الأولوية في مثل هذه المناسبات لمصلحة العشيرة دوما، وهي التي تفضل على جميع الاعتبارات الدينية أوالأخوية بين المسلمين.

وإزاء كل هذه الوقائع، يمكننا أن نؤكد أن الروح الكردية لا تميل في أحاسيسها صوب التعصب الموجود في المذهب السني التقليدي، فيما لو أمعنا النظر فيه، في مظهره الديني. وبإمكاننا أن نذكر كمجرد نموذج، بعض مخطوطات باللغة الكردية متعلقة بالدين الإسلامي، لا تنفي الحقيقة القائلة أن الصوفية تميل قليلا إلى مخالفة الإيمان الصحيح، وان الإسلامي الكردي يتميز على نحو ما بالمروق من الدين[٣٥]. ويقول المستر درايفر في دراسته عن هذا الموضوع ما يلي: "في الواقع أن هذا الشكل من الإسلام قد امتزج بالشكوكية

---

[٣٥] راجع في هذا المجال الدراسة القيمة لزميلنا وصديقنا الجليل البروفيسور مينورسكي عن طائفة (أهل الحق). والذي كان له الامتياز في زيارة معبد (بردي ورى) في هورامان.

هنا الذي ما ذهب إليه المؤلف يخالف ايضا واقع المجتمع الكردي المتمسك تمسكا شديدا بالدين. ووجود آلاف المساجد في قرى كردستان خير دليل على ذلك – المترجم.

والطقوس الغريبة التي يشبه الكثير منها تلك الموجودة لدى الزرادشتيين والبوذيين واتباع الديانات القديمة الأخرى[٣٦]".

جميع هذه الملاحظات يمكن تلخيصها بصورة موجزة في المثل التركي القائل دون مواربة: "يعتبر الكرد مسلمين فقط فيما لو قورنوا بالمشركين!".

د – الجهاد المقدس:

لبى الكرد، بالرغم من عدم كونهم مسلمين متعصبين، نداء الجهاد إلى الحرب المقدسة المعلن من قبل القسطنطينية، ليس أقل مما لباه الترك. وهذا صحيح، باستثناء حالات خاصة أشرنا إليها في خطابنا إلى المؤتمر الخاص بتاريخ الأديان المنعقد في باريس عام ١٩٢٣[٣٧]، رغم أن الاعتبارات الدينية لم تكن لتأتي في مقدمة الأسباب. فالكرد حتى في إيران، تبنوا القضية التركية وشكلوا وحدات المتطوعين الأساس تحت راية الجهاد المقدس، لأنهم كانوا يرون فيه، قبل كل شيء، مناسبة سانحة لإظهار قابليتهم الحربية، على حساب المسيحيين. ليست مهمتنا هنا نقد الجهاد المقدس الذي تسنت لنا الفرصة المؤلمة لرؤيته من موقع مسؤوليتنا في القنصلية الروسية في أورومية[٣٨]. وقد شرح ذلك مواطننا وصديقنا النجيب السيد (مانديلستام) المستشرق والقانوني والدبلوماسي المعروف بقابليته الهائلة في قضايا السياسة الدولية في كتابه : فائدة اعلان الجهاد المقدس بالنسبة للسلطان العثماني[٣٩]". ونتذكر كذلك أيضا التحديد الذي أعطاه عميد المختصين بالدراسات الإسلامية البروفيسور (سنوك هور كرونج). ولإكمال هذا الملف الذي له فائدة عملية كبيرة بالنسبة إلى المستشرقين الذين يدعون للعمل في المشرق الإسلامي، نشير إلى المؤلف الصغير

---

[٣٦] ديانة الكرد (باللغة الانكليزية) في مجلة BSOS، الجزء الثاني. ٢. ١٩٢٢.

[٣٧] المسألة الدينية في بعض المخطوطات الكردية من مجموعات نيكيتين. أعمال المؤتمر العالمي لتاريخ الأديان المنعقدفي باريس في تشرين الأول ١٩٢٣. الجزء الثاني. ص ٤١٥ - ٤٣٤. باريس ١٩٢٥.

[٣٨] أعطينا فكرة موجزة عن تلك الحالة في دراسة نشرت في مجلة (العلوم السياسية) عام ١٩٢١ تحت عنوان "الآثوريون والكلدان. أمة صغيرة من ضحايا الحرب (باللغة الفرنسية).

[٣٩] مصير الأمبراطورية العثمانية. باريس ١٩١٧. دار بايو للنشر.

الذي يحمل عنوان "ماهية التحول والتأثير الناشئ من الحرب الإسلامية المقدسة" بقلم الدكتور (كوتفريد كالى كيزرل) القنصل الألماني العام، حيث نقرأ من خلال سطوره، وضمن أمور عديدة، جملا تؤيد، على ما يبدو، رأي البروفيسور هور كرونج، فقد جاء فيه: "اجل، ان لفكرة الحرب المقدسة جذوراً في الفكر المسيحي الجرماني، هي من العمق بحيث كلما كان يجري الحديث عن حروب الألمان المقدسة، كان السؤال التالي يطرح نفسه وهو: ألا يقلل من شأن هذه الحروب إيجاد جبهة مشتركة مع غير المسيحيين؟.

وأياً كانت البراهين والحجج العلمية للجهاد المقدس، فقد ترجم في إيران باكتساح (لومبارديا إيران) حسب تعبير اللورد كرزن، أي منطقة (أورومية) واخلائها من السكان. ولدينا في مجموعاتنا مخطوطتان باللغة الفارسية تتعلقان بتاريخ أورومية في تلك الحقبة الزمنية، تتضمن أولاهما تفنيد شرعية الجهاد في إيران من وجهة النظر الشيعية، وقد قدم إلينا من قبل أحد ملالي المنطقة، بينما تتضمن الثانية وصفا موجزاً للحوادث التي وقعت في أورومية للفترة ما بين ١٩ كانون الأول ١٩١٤ وأيار ١٩٢٥ (خلال فترة الاحتلال التركي-الكردي) ، أعده عظيم السلطنة سردار أحد النبلاء الأفشار، وكان يشغل منصب الحاكم فيها خلال تلك الحقبة [٤٠]. ونكتفي هنا بالتذكير أنه كان يوجد مع الأتراك بعض (المجاهدين) الإيرانيين (وهذه التسمية تطلق في إيران على الثوريين المقاتلين من أجل الاستقلال الوطني، باعتبار أن هذا القتال يعتبر بمثابة حرب مقدسة) ، نذكر من بينهم كلا من: مشهدى باقر، وميرزا آغا بلورى، والحاج بيشنماز، وجعفر خان زنويرى، والأمير أصلان خان القفقاسي.. الخ وكان لهؤلاء المجاهدين زعيم من نبلاء الأفشار في أورومية يدعى مجد السلطنة. ان ما ارتكبه هؤلاء المرتزقة المجاهدون بعد رحيل خليل بك وغيرهم الآتين من (ساتان)، لا يمكن وصفه بالقلم ولا روايته باللسان. إننا نتفهم سخط وغضب كاتبنا الذي يذكرنا، بعد أن يصف لنا سوء حظ الذين قتلوا من السكان، نتيجة للهجوم التركي -

---

[٤٠] راجع. J.A كانون الثاني/مارس ١٩٢٩. ص ١٠٨.

الكردي، المآسي والمحن التي أوردها هؤلاء المجاهدون ببني وطنهم، بحجة تأييد الحرب المقدسة التي لا يقرها الشيعة إلا في حالة الدفاع عن النفس[٤١].

كتب لي الملا سعيد الذي أمل أن يكون اسمه غدا معروفا لدى القارئ العزيز، عددا من النصوص التي تعالج المسائل الدينية لدى الكرد. ان هذا الكردي المسلم ذا العلم الواسع الذي عاش في أجواء مشايخ نهري الحافلة بالود والمحبة وعرف سيماهم الحقيقية، فضلا عن كونه شخصا دقيق الملاحظة والرواية، دون لي الكثير من الأحاديث عن الحياة الدينية لدى بني قومه. وبفضل تلك المعلومات استطعت أن أرسل خطابا بعنوان "قضايا الأكراد الدينية" وهو ما أشرت إليه آنفا. وأشير هنا إلى بعض الفقرات الواردة فيه، التي توضح بعض مظاهر الإسلام لدى الكرد.

وهكذا نرى، على سبيل المثال، كيفية تطبيق التعليمات "الصوفية" التي كانت تخص أحد شيوخ بارزان:

"كان الشيخ محمد، وريث الشيخ عبد السلام، رجل دين (ملا) قليل الثقافة، أي (نصف ملا) كما يطلق على أمثاله في كردستان. كان رجلا لجوجا، ولكنه بدأ أيضا بالتبشير. فكثر عدد أتباعه، وكان الرجال والنساء يجتمعون في يومي الثلاثاء والجمعة في بارزان، ويعمل الشيخ لهم (التوجه) ويتلخص هذا العرف الديني عند الكرد في أن الشيخ يجلس بين أتباعه المريدين ويتلو عليهم سلسلة أسماء الشيوخ من طريقته، بينما يعمل مريدوه بعض الضوضاء. ويطلقون صيحات خاصة[٤٢]. وباختصار - يضيف الملا سعيد - إن هذا يعتبر مخالفا للتمدن وللعقل الرزين"*.

---

[٤١] راجع خطابنا الموجه إلى المؤتمر الدولي لتاريخ الأديان. المنعقد في بروكسل في أيلول ١٩٣٥. والذي كان يحمل عنوان "اسهام في دراسة الجهاد".

[٤٢] التوجه من آداب الصوفية النقشبندية. كردا كانوا أو غيرهم. ويكون من طرف المرشد إلى قلب المريد – المترجم.

* إن ماورد في هذه الفقره من معلومات خاطئة يعد تشويها لتاريخ الكرد ورجاله الذين حذموا مسيرة المشيخه الدينية و[illegible] الوطني التحرري. إن الشيخ محمد البارزاني وريث شيخ عبدالسلام الاول يعتبر أحد رجال الدين الورعين وعرف

ومع ذلك فان الشيخ موضوع البحث كان يلجأ إلى هذه الأساليب الفظة، المقبولة مع ذلك لدى عقلية مستمعيه وغيرهم، للوصول إلى قيادة الكرد من أتباعه. وفي الحقيقة، ازداد نفوذ الشيخ محمد هذا كثيرا بعد إبعاد الشيخ عبيدالله نهري إلى الحجاز من قبل الروم (الترك)، وقد أقر الكثير من آغوات العشائر المحيطة به بسلطته، وأخذ أتباعه يذكرون اسمه مع اسم المهدي بحجة أنه بموجب بعض الأحاديث يجب أن يكون اسم المهدي محمدا، وهكذا تحول شيخنا هذا إلى مهدي فعلي. وقد أعلنت الحرب المقدسة وسيقت الحملات العسكرية إلى جانب الموصل أكثر من مرة وقتل المعارضون لهذا الإعلان جميعا. وكان ضمن المعارضين شخص يدعى (ملا بيريزى)، وقد كان معروفا بسعة اطلاعه وغزارة علمه وبمكانته بين أبناء عشيرته (زيبارى) ، وكان يرتبط بهم بعلاقة القرابة والنسب. وقد بدأ اتباع الشيخ محمد حملتهم به، فبعد أن وضعوه داخل ساق شجرة جوز قديمة منخورة، أشعلوا النار فيها ثم أخذوا يمرون إلى جانب الشجرة ويضربونها بعصيهم التي في أيديهم ويصيح البعض منهم: هذا هو الجهاد المقدس لجثة الحاج! ويرد عليهم آخرون بالقول: أجل، لا فرق بين هذا وبين الجهاد الحقيقي، وسيكتب الله عملك هذا ضمن أعمالك الصالحة!

اننا نتوقف برهة أمام جواب شيخ (بيجيل) على الشيخ محمد صديق نهرى الذي تدخل لفض نزاع دموي نشب بين مشايخ بيجيل وبارزان وعشائرهما، بسبب خطف فتاة، هذا النزاع الذي دل بجلاء على أن القيم والاعتبارات الدينية تأتي دوما بعد المصالح العشائرية التي تتصدر كل القيم والاعتبارات. يقول شيخ (بيجيل) في جوابه: "إنني لا أستطيع قول شيء، يا سيدي. إنك تعرف كل ما وقع، وأنا أفوضك عني كامل الصلاحيات واخضع مقدما لأي قرار تصدره. إن الخسائر المادية التي لحقت بي والتي لا يمكن تقديرها، أنساها إكراماً لمقامك، ولكن الأمر يختلف بسبب المذلة والمهانة التي أوقعها بنا رجال هذه العشيرة الوقحون وهذه الأسرة القبيحة التي لا أتحمل حتى سماع اسمها. وهنا ألتمس أمركم المطاع.

بتقواه ومقاومته للطغيان العثماني – دار آراس/ الطبعة الثانية للكتاب.

انك تعرف أنهم لم يحرقوا حتى قدسية القرآن الكريم، وقد رموا بصفحاته في الوحل[٤٣] ودنسوا مصلاى بالأوساخ والقاذورات. لقد قطعوا آذان زوجاتي وخادماتي ليستحوذوا على أقراطهن التي في آذانهن. ان كل ما تأمر به أنت، أقبله منذ الآن بقلبي ولساني"**.

كان الملا سعيد واحد من بين الكثيرين من الكرد المثقفين، وقف دون خوف أو وجل ضد صيحات الجهاد المقدس. وقد أوقف بسبب من مواقفه تلك من قبل السلطات التركية وقدم للمحاكمة لأنه أفتى بعدم شرعية نعت تلك الحرب بالجهاد المقدس. وقد قال في معرض دفاعه عن نفسه أمام المحكمة: "لنقر بأنني أدليت بفتوى بهذا المضمون، إنني لست مسؤولا لا بموجب أحكام الشريعة ولا بموجب القوانين الوضعية، لأنني لم أجد في شريعتنا ما يأمر بقتل أناس أبرياء لا يؤذون أحد. كما أن القوانين السارية المفعول لا تجوز القتل، بل تعمل على العكس لحماية حقوق الناس. أما فيما يتعلق بإصدار الفتوى، فإني أعتقد أن تقوى شيخ الإسلام وعلمه وكذلك عدالة الخليفة ورحمته واسعة، وهي أوسع من أن تسمح بإصدار فتوى تأمر بقتل الفقراء من الرعايا (المسيحيين النسطوريين) ونهب أموالهم، والذين لم يرفعوا منذ بداية الإسلام وحتى الآن السلاح بوجه المسلمين، ولم يعلنوا حربا ضدهم".

لقد نجا أستاذي الكردي هذه المرة (عام ١٩١٥) من شبح الموت، إذ حرر من قبل أنصاره وهو في طريقه إلى الموصل، ولكنه قتل فيما بعد عام ١٩١٨. وقد أسهب في بيان رأيه لي بمناسبة الحديث عن الحرب في جبهة القفقاس قائلا: "انه لا الروس ولا الترك لم يتبعوا

---

[٤٣] ماذا كان يقول صاحبنا الشيخ لو أنه ظل على قيد الحياة ليرى بعينيه ما حل بعد نصف قرن من الزمان بآلاف المساجد وعشرات الألوف من المصاحف والكتب الدينية والعلمية الموجودة في آلاف القرى الكردية التي سويت بالأرض في كردستان من قبل النظام البعثي؟ - المترجم.

** ما ينسب المؤلف من احداث الى مشايخ وعشائر بارزان أو ينقلها من الأخرين دون أن يدقق فيها غير صحيح إطلاقا. ذلك لأن عشائر بارزان معروفون بالتزامهم واحترامهم للدين والأماكن المقدسة وكذلك عرف عن شيوخهم التعمق في العلوم الدينية. لذا يعتبر ماورد في هذه الفقرات محض افتراء والقصد من ورائه التشويه والتشهير أو النيل من مكانتهم الدينية والإجتماعية. دار آراس/ الطبعة الثانية.

سياسة حكيمة تجاه الشعب الكردي". وحسب أستاذي الملا سعيد، كان الكرد مهيئين ليس فقط لاستقبال الروس، بل وكان بوسعهم تسهيل مهام قطعاتهم، بسبب مشاعرهم المناهضة للعثمانيين. إنهم - أي الكرد - بعد التقائهم بالقطعات العسكرية الروسية وبخاصة بعد الدمار الذي حل بهم من جراء سلوك المسيحيين (الأرمن والكلدان) المحميين من قبل الروس، فقدوا ثقتهم بهم وألقوا بهم جانباً. وكما يقول المثل: أرادوا الهروب من المطر ولكنهم وجدوا أنفسهم أمام المزراب. لقد نكل الجيش الروسي بالكرد، وبذلك قدم خدمة جلي للعثمانيين لا تضاهيها خدمات السلطان رشاد وأنور باشا. لقد أثبت هذا الجيش بتصرفه هذا للكرد أن الحرب مكر وخديعة وأن الوصول إلى الغاية يبرر للمرء الاستعانة، إن كان ذلك ممكنا، بالملاطفة والكلام المعسول، وبعد فشل تلك الوسائل فقط يمكن الاستعانة بالقوة والسيف، فالحل الأخير هو السيف. لقد كان يعمل في صفوف الجيش العثماني عدد من الضباط الألمان الذين خاطوا على قفا ملابسهم كلمات (لا اله إلا الله، محمد رسول الله). من الواضح أن هؤلاء الألمان كانوا مسيحيين ومعادين للإسلام ويتمنون نهاية الترك، لم يكن ليهمهم أن يعلقوا من أجل مصلحة خاصة بهم وحسب مقتضيات الظروف، تلك الشعارات الكاذبة على ملابسهم. وقد أدخلوا بمثل هذه الآعيب السرور في نفوس ٣٥٠ مليون مسلم في أرجاء العالم. لقد أصاب كبد الحقيقة من قال: عقول الناس البسطاء في عيونهم، ان الجماهير الشعبية تتبع أحاسيسها، وإذا وقع أمر ما موقع الرضا في نفوسها، تقبلتها وان كان سيئاً في واقع الأمر.

" أما بالنسبة للترك، فقد كان من الضروري بالنسبة إليهم في اللحظة التي قرروا فيها دخول الحرب، أن يجعلوا المجموعات الأرمنية والنسطورية راضية مطمئنة، لتكون في وئام مع الكرد، ويشيدوا جميعا جداراً صلبا ضد الروس. يحتمل أن الترك لم يكن بإمكانهم الاستحواذ على القفقاس، ولكن كان بإمكانهم منع الروس من الاستيلاء على أية بقعة أرض عثمانية".

إنني أمر، بكل أسف، مر الكلام، على الفترات العدائية التي تبدو فيها الروح الكردية الساخرة للملا سعيد بكثير من الحدة بشأن رجال الدين المسلمين. ولنر الآن، بالمقابل، موقف الكرد وهم من المسلمين السنة إزاء المذاهب الإسلامية الأخرى. إننا نعرف الآن كيف ينبغي

تفسير معارضة الكرد للفرس (السنة - الشيعة) التي أعتقد أنها تعود لأسباب اجتماعية وسياسية أكثر بكثير مما هي تعود لأسباب مذهبية، وهذا صحيح، ولكن لأسباب سياسية انتهازية، لا يتردد الثوار الكرد الذين يرفعون السلاح ضد العثمانيين في البحث عن التأييد لدى شاه إيران. ومثال عبد الرحمن باشا بابان الذي أوردناه في الفصل العاشر من هذا الكتاب ما يزال ماثلا أمام أعيننا. ويتظاهر الكرد في إيران، عند الضرورة أيضا، بأنهم رعايا مخلصون للشاه، ولكن هذا مجرد تظاهر فقط. وفي كلتا الحالتين، يفهم القارئ الذي جعلناه على بينة من التاريخ الكردي، وضعهم تماما: يتخذ الكرد هذه المواقف حتى يستطيعوا البقاء كأمة تقع بين دولتين كبيرتين. ان المصلحة الوطنية تفوق لديهم التمسك بالدين، وبذلك يتبين لدينا أكثر فأكثر مبدأ نسبية العلاقات لدى الكرد.

ثالثا - سلوك الكرد إزاء اليهود:

لدى القراء اطلاع قليل على مسلك الكرد إزاء اليهود. ومع ذلك فهذا الاطلاع القليل يقدم لنا بعض الفائدة، لأننا نعرض أحد مظاهر اليهودية الشرقية الغربية في حد ذاتها وغير المعروفة بصورة جيدة.

يتحدث اليهود الجبليون في القفقاس بلهجة تدعى (تات). أما يهود فارس والموجودون عند قبر (أستير ومردوخا) في همدان، وفي محلة (جوباره) في أصفهان، والآخرون الذين نلتقي بهم بعيدا حتى بخارى، وكذلك الموجودون في كردستان الذين يعيشون في مدنها وقصباتها، فإنهم يتحدثون بلهجة آرامية شرقية، وهي اللهجة نفسها التي يستخدمها المسيحيون من الآثوريين-الكلدان والنسطوريون واليعاقبة. أما من حيث الملابس التي يرتدونها، فلا يختلفون بشأنها عن الكرد إلا قليلا. وهم يمتهنون التجارة والمهن الصغيرة الأخرى التي عرفوا بالنجاح في القيام بها. ومع ذلك فإن سلوكهم يجلب لهم في بعض الأحيان الانتقادات المرة، كما في الحالة التي كشفنا عنها في الفصل الثالث من هذا الكتاب، نقلا عن شميم الهمداني. ولكننا نعرف أيضا أن اليهود يستعان بهم أحيانا لأداء مهام ديبلوماسية صعبة، كطلب يد فتاة مثلاً من آغا كردي سريع الغضب (راجع الفصل الخامس من هذا

الكتاب). وعلى كل جال، فان مشاركتهم الحياة الكردية من قريب تتضح من خلال وجود شاعر غنائي يهودي يدعي (بخاص) وهو الذي غنى لـ (سوسين) ملحمة (يزدان شير) البطل الشعبي الكردي. كذلك لا أستطيع أن أهمل ذكر حدس المبشر الأمريكي (كرانت) الذي اعتقد بعد زيارته للنسطوريين الجبليين عام ١٨٤٠، أنه اكتشف أحفاد سبايا اليهود أيام البابليين وسماهم بـ (العشائر الضائعة). والقصة التي رواها لي الملا سعيد تثبت مع ذلك أن وجود اليهود في كردستان ليس بعيداً عن الخطر[٤٤]. ويعود تاريخ الحادث إلى عهد صديق بك أحد بكوات (مير سيويسنيان) الذين كانوا الرؤساء التقليديين للعشائر الموجودة في أطراف العمادية، وربما يعود إلى النصف الأول من القرن الماضي قبل تقوية السلطة التركية في كردستان. وقد قص علينا كيف أن صديق بك أخبر بأن اليهود يبحثون في أيام السبت في أطراف السواقي عن حسام سليمان ليعيد إليهم قوتهم وسطوتهم، فأمر رجاله بأن يخفوا سيفا قديما في أحد الأماكن التي يتجول فيها اليهود، باحثين عن سيفهم المفقود، كما أنه أوعز للناس، من جهة أخرى، بأن يمثلوا، عندما يجد اليهود ذلك السيف السحري، دور الضعفاء ويقدموا لهم إمارات الخضوع والانقياد. وهكذا تم تدبير كل شيء. ووجد يهود العمادية السيف السحري وانخدعوا به متصورين أنهم غدوا بفضل السيف المزعوم أناساً ذوي بأس وقوة، وصاروا يتصرفون على هذا الأساس. وبعد أيام نكل بهم الكرد شر تنكيل وذبحوهم جميعا بصورة قاسية.

ومع ذلك، فانني أستطيع القول أن الكرد متسامحون بوجه عام مع اليهود، رغم حذرهم منهم. ان المثلين القائلين: "أنا لم أغد يهوديا" و "لن أجعل نفسي يهودياً" مثلان من الأمثال الشائعة بينهم. وأعتقد أن هذه النظرة ليست نابعة من أسباب عرقية أو دينية أو اجتماعية، إنما هي صادرة من مقاتل شجاع إزاء منافس له تنقصه تلك الصفة. ان قيامنا

---

[٤٤] راجع حول هذا الموضوع (خمس سنوات من الرحلات في المشرق ١٨٤٦ – ١٨٥١) للكاتب اسرائيل جوزيف بينجامين. الجزء الثاني. باريس ١٨٥٦ (باللغة الفرنسية). وقد ورد في هذا الكتاب أن شابة يهودية قتلت في أربيل لأنها لطخت سهوا ملابس أحد المسلمين عندما سكبت مياه غسيلها في الطريق. كما ورد فيه أيضا أن قبر حاخام يهودي كان قد دفن في أربيل حيث توفي خلال سفره له إليها. قد نبش ومثل بجثته. ويقول أيضا أن اليهود في مدينة القوش كانوا يقيمون احتفالا دينيا على قبر النبي (ناحوم) في الليلة الأولى من عيد الخمسين أو العنصرة.

بهذه الجولة يسمح لنا بالاطلاع على موقف الكرد إزاء جميع العناصر الأجنبية عن بيئتهم الدينية والقومية [هذان المصطلحان يمتزجان في الشرق الإسلامي ببعضهما كما سبق أن بينت ذلك في الفصل الثامن]. وقد سبق أن تحدثنا عن العلاقات الكردية-المسيحية في الفصلين الرابع والتاسع من هذا الكتاب. ولا أعتقد اني أخطأت بشأن الحرب المقدسة في بعض الحقب (كحروب الصليبين مع صلاح الدين الأيوبي وحروب الشداديين مع الأرمن والجيورجيين والبيزنطيين) التي أملاها التعصب الديني للكرد، ولكن يعتبر خطأ كبيرا من جانبنا إن لم نتذكر أن المسيحية حاربت الإسلام أيضا باسم الدين. وقد أوردنا آراء بعض الشخصيات الكردية المتأخرة نسبيا كآراء الشيخ عبيد الله نهري والأمير ثريا بدرخان والأستاذ الملا سعيد الذين أوضحوا بجلاء أن كل عمل من هذا القبيل يضر بقضية شعبهم أمام الرأي العام العالمي. إن الكرد قد امتزجوا، في الواقع، في تاريخهم، مع المسيحيين. وسوف نرى أدلة نادرة في هذا السياق يوردها لنا البروفيسور (مار) لدى دراسته لليزدية. وقد حاولت أنا بدوري، أيضا، جمع بعض المؤشرات التي تثبت لنا أن قسماً من الكرد كانوا يدينون بالديانة المسيحية سابقا[٤٥]، وبذلك أسهمت بصورة متواضعة في دعم النظرية التي يقول بها ويدعمها بكل قوة زميلي العلامة (مار).

رابعا - موقف الكرد إزاء اليزديين (الايزديين):

من بين المذاهب الموجودة في كردستان اليزدية التي يدين بها بعض الكرد. وحسب ما يذهب إليه (مار)، تعتبر الديانة اليزدية الديانة التي كان يعتنقها معظم الكرد قبل دخولهم الإسلام. وقبل أن نبدأ بشرح اليزدية، نشير إلى قصة يتحدد فيها موقف الكرد المسلمين من إخوانهم اليزديين، وبذلك ننهي مجموع ملاحظاتنا عن الإسلام لدى الكرد.

---

[٤٥] راجع بهذا الشأن مقالي المعنون (الكرد والمسيحية) المنشور في مجلة (تاريخ الأديان) للعام ١٩٢٢.

ويجب القول هنا أن هذه القصة تخص مناقشة هادئة، بعكس الحروب العشائرية، لأن الكرد المسلمين إن كانوا لا يذبحون اليزديين[٤٦]، فإنهم كانوا يسترقونهم.

ان قصتنا هذه هزلية ومكرسة لمناقشة دارت بين رجال دين مسلمين (ملالي) وكهنة يزديين وهم يعرفون في كردستان باسم (كوجك). وقد جرت المناقشة لدى على بك الداسايي الذي كان في تلك الأيام زعيما لليزدية. [داسنى في اللغة الكردية، ودسايه في اللغة السريانية، ودواسين جمع داسين في اللغة العربية كلها أسماء عشيرة ولا يربطها رابط بالأسماء الدينية]. لقد كان علي بك كثير الولع بلقاءات كهذه ويبدي مواقفه فيها بكثير من الموضوعية وعدم الانحياز. وزعم (كوجك) اليزديين في تلك الجلسة أنهم يرون، بالهام من الشيخ عدي، الجن والعروش في السماوات والحيتان والأشياء الأخرى.. الخ مطابقة للنبوءة التي حدثهم بها مرشدهم الروحي. أما الملالي فقد أثاروا الأدلة المعتادة في الدين الإسلامي: إن النبي صلى الله عليه وسلم وحده ظهر كمبعوث من الله وهو يصرح بكونه مستعدا للتضحية بنفسه بغية إنجاح رسالته، وهذا أبلغ برهان على حقانيته وصدق نبوته. وبعد أن تابع على بيك تلك المناقشات فترة من الوقت، أشار إلى خدمه بتقديم الطعام، فقدم الرز مع اللحم إلى الملالي، بينما كان نصيب (الكوجك) الرز دون لحم، لذلك لم يمسوه واحتجوا على الخدم على ذلك ودعوا على صاحب الدار عند الله، عندئذ أوضح لهم علي بيك أنه كانت توجد في الرز المقدم إليهم كميات من اللحم المخفي تعادل الكمية التي قدمت على مائدة الملالي، قائلا لهم: "إنكم زعمتم أن بوسعكم الكشف عن السمات السماوية، فاعتقدت أن بإمكانكم اكتشاف اللحم الذي أخفي عمدا تحت الرز!".

---

[٤٦] يقطن اليزديون في قضاء (شيخان) بمنطقة الموصل وفي جبل سنجار غربي الموصل بـ ١٦٠ كيلو متر. وفي منطقة ديار بكر وفي حلب. وأخيرا في أرمينيا السوفيتية وبالقرب من تفليس، ولا يتعدى عددهم الإجمالي ٦٠٠٠٠ إلى ٧٠٠٠٠ نسمة. بينما كان يبلغ قبل نصف قرن من الزمان ما بين ١٢٠٠٠٠ إلى ١٥٠٠٠٠ نسمة.

خامسا – اليزدية (الايزدية):

أ – نظرية أصل اليزدية الإسلامي:

شرح هذه النظرية العلامة (روجيه ليسكو) في مؤلفه "التحقيق عن اليزدية في سوريا وجبل سنجار"[٤٧] الذي نشره عام ١٩٣٨. وحسب هذا الرأي كان مؤسس اليزدية الشيخ عدي (في اللغة الكردية: آدى) بن مسافر الذي ولد في سوريا بين سنتي ١٠٧٣ و ١٠٧٨ وتوفي بعد أن بلغ التسعين من عمره. وقد تعرف في بغداد، حيث قضى الشطر الأول من حياته، على الشيخ عبد القادر الكيلاني. ترك الشيخ عدي وراءه بعض النصوص التي تفسر نظريته، ويدعي ليسكو أنه ليس فيها أي انحراف عن الإسلام القويم ولا أي شيء خاص يمكن أن يدل على عصبية يزدية، ويشير ليسكو مع ذلك إلى تعليقات الشيخ عدي عن القدرة الإلهية بأن الله هو الذي خلق الشيطان والشر، "فإذا كان الشر موجوداً رغم إرادة الله وبمعزل عنها، فذلك يدل على أن الله عاجز، ولكن الله سبحانه وتعالى لا يمكن أن يكون عاجزاً، وإلا لما كان إلها".

وفي نظر بعض آباء الكنيسة الشرقية كـ (زوسيم) و (بندور) مثلا الذين عاشا في مصر، أن الملائكة الذين سلبت عنهم صفة الملكية تعذبوا من أجل البشر على غرار (بروميسوس) مثلا، خاطف النار الذي عوقب لأنه أراد منفعة البشر بجعلهم يتمتعون بفوائد النار[٤٨].

وبعد أن غادر الشيخ عدي بغداد، استقر في منطقة (هكاري) في خرائب دير مسيحي في (لالش). وقد أدى تقشفه وصومه وخوارقه إلى انتشار شهرته، فبسط نفوذه في المنطقة بأسرها. وبعد وفاته برزت من بين مريديه وتلامذته جماعتان متنافستان: جماعة متمسكة بالإسلام التقليدي، وأخرى تمثل الأقلية الخارجة عن الإيمان الصحيح. وبعد صراعات داخلية دامت قرنا كاملا، انتصرت الجماعة الثانية في كردستان، والجماعة الأولى في مصر وسوريا.

---

[٤٧] الذكريات المتعلقة بالمؤسسة الفرنسية في دمشق. المجلد الرابع. طبعة ١٩٣٨.

[٤٨] ميريجلكوفسكي. خفايا الغرب (باللغة الروسية). ص ٧٠ – ٨٢. بلغراد ١٩٣٠.

وقد برزت اليزدية إلى الوجود كديانة في نهاية القرن الثالث عشر. أما المعتقدات المتعلقة بالشغف بالشيطان فإنها ألحقت بها فيما بعد.

يعد الاعتقاد بإمامة يزيد بن معاوية، الخليفة الأموي، وبقداسة الشيخ عدي وإعادة الاعتبار إلى إبليس، من أهم مبادئ اليزدية، يضاف إلى ذلك أنه يمكن أن يكون هذا الدين قد تأثر أيضا بعامل آخر هو بعض الخرافات التي لم يجر بعد بشأنها تحقيق كاف.

ثم يشير ليسكو في هذا المجال إلى دراستي عن "تبرير الكرد للتسنن" التي أتيت فيها بأمثال كثيرة بهذا الخصوص. ودون أن نقلل قيد أنملة، من أهمية العمل المعروف للمستشرق الكبير المختص بالدراسات الإسلامية (ميخائيل انكلو كيدى) صاحب نظرية إسلامية الدين اليزدي، أعتقد بأهمية تلك العوامل الخرافية التي تحدث عنها ليسكو. ولهذا السبب بالذات رأيت من الضروري أن ادرج هنا نظرية البروفيسور (مار) عن اليزدية التي تقول بضرورة دراسة اليزدية بالارتباط مع جميع الأمور التي تحيط بها.

إنني لا أدخل في تفاصيل كتاب ليسكو، ولكنني أود أن أشير إلى بعض النقاط الواردة فيه. ففيما يتعلق مثلا بالمبادئ الأساسية لليزدية المعاصرة (اله واحد يسلم شؤون الأرض إلى مساعديه الملائكة السبع) ، من الغريب أن أسماء هؤلاء الملائكة تتغير باختلاف فرق اليزدية، وأننا نجد بين الملائكة اسم الشيخ منصور الحلاج. ويبدو أنه كان هناك اتصال بين المتصوفة المسلمين واليزدية، كما يلاحظ ليسكو في كتابه[٤٩].

لقد اندمج أواخر ممثلي الفرقة الحلاجية في القرن الخامس الهجري في الطريقة القادرية التي كان الشيخ عدي على معرفة بمؤسسها. ويتحدث ليسكو ضمن تساؤله عن السر الكامن وراء تجليل اليزديين الروح الشريرة (ملك طاووس - الملك باؤن) الذي يؤمن به المانداثيون والدروز والتختجيون أيضا، عن بعض الصوفية المسلمين من أمثال عبد القادر الكيلاني والحلاج وابن العربي وأحمد الغزالي الذين شغلتهم أيضا مسالة لعن إبليس الأبدي. فهؤلاء المتصوفة يرون أنه إذا كان الشيطان قد رفض السجود لآدم وأبى تكريمه

---

[٤٩] الصفحة ٤٠، العدد ٢.

التكريم الواجب لله وحده، فإن ذلك كان بسبب من حبه المفرط لله [يمكن تقريب وجهة النظر هذه من آراء بعض آباء الكنيسة الشرقية المشار إليهم آنفا]. وبدلا من أن يرى هؤلاء المتصوفة الشيطان مستحقا للعنة الأبدية، فإنهم يوصون بتبرير فعلته وعدم لعنه. وفي هذا المقام نلفت النظر إلى أن أول عقيدة دعت إلى تكريم إبليس ظهرت في القرن السابع عشر، في حين أن الوثائق المدونة عن اليزدية يعود تاريخها إلى القرن الثاني عشر.

في الفقرة التي عددت فيها واجبات العبادة (الصلاة، الصوم، الأعياد، الاضاحي، المرحمات)، أضيف أن الأوسيتيين أيضا يذبحون حملا أضحيته لاله الشر[٥٠]. فهل يجب أن نرى في ذلك فكرة مستمدة من الإيرانيين نظرا لأن الشعبين ينتميان لعائلة واحدة؟ وبخصوص التماثيل المعدنية التي تمثل الطاووس والتي يحملها رجال الدين (القوالون) اليزديون في جولاتهم السنوية، نرى لدى الأوسيتيين التمثال المعدني الذي يمثل (روح الديك) وهو من ضروريات مراسم الدفن ومجالس العزاء، وهو على كل حال الطاووس اليزدي نفسه الذي يطلق عليه أيضا أحيانا اسم الديك[٥١].

يتمسك ليسكون، إذا، بنظرية (كيدي) التي تقول بالأصل الإسلامي لليزدية، ولكنه يشخص إلى جانب المعتقدات الإسلامية الموجودة فيها، معتقدات خرافية إيرانية أيضا "بلغت تدريجيا المرتبة الأولى، بقدر ما نسى اليزديون إسلاميتهم الأولى".

ب - أما بقدر ما يتعلق الأمر بي، فأنا لا اعتقد أن الكرد اليزديين كانوا يوما ما مسلمين[٥٢]. إن نظرية العلامة (مار) التي نشير إليها فيما بعد، تضع الكرد اليزديين، من وجهة نظري، في "وسطهم" الطبيعي. ان معتقدات الشيخ عدي حورت فيما بعد من قبل تلاميذه الكرد حسب مزاجهم، حتى تقولبت مؤخراً في هذا الشكل الإلحادي البعيد عن الإسلام، لأن البيئة الكردية كانت ملائمة ومتهيئة لقبولها في صورتها الجديدة. كانت

---

[٥٠] بيهان. وبايوت: المدينة القفقاسية. ١٩٣٦. ص ٢٢٢ – ٢٢٣.

[٥١] ليسكو. المصدر السابق. ص ٧٧. الفقرة. حول تحريم الدجاج.

[٥٢] راجع أيضا: مينزل الذي يذهب في مقاله عن اليزدية المنشور في مجلة (E.I) المعنون "اليزديون في شرق إيران" الذي يعدد جميع مكونات هذه الديانة الفلسفية الغريبة.

هناك في الوسط الكردي، قبل أن يظهر الشيخ عدي، مجموعة من المبادئ النظرية والعملية الدينية كان الكرد قد ابتدعوها من لدنهم وكانوا يمارسون عادات خاصة بهم مستمدة من معتقداتهم، وجلي أنها بعيدة تماما عن الإسلام، ولكنها نضجت فيما بعد ونمت تحت تأثيرات متباينة يلمح (مار) إلى غناها، وتختلف نقاط تلاقيها وعلاقاتها المتبادلة. ليست اليزدية إلا مرحلة في التطور الديني، والمهم ألا نتحول عن الموضوع ونتمسك بأهداب وقشور جامدة للمعتقدات اليزدية مما لا تمت بصلة إلى البيئة الكردية وتطوراتها. إننا نتفق تماما مع ليسكو عندما يلاحظ "..... ان الآراء التي قيلت حتى الآن بصدد الدين اليزدي، ستنقلب رأسا على عقب يوم تتجمع لدينا الوثائق والمعلومات عن عادات الشعب الكردي وتراثه الفولكوري[٥٣]".

وبخصوص التدرج الديني الموجود لدى اليزديين (شيخ، بير، فقير، قوال) الذي درسه ليسكو في نهاية مؤلفه وربطه بالجماعة الزاهدة التي أنشأها الشيخ عدي، فنظر إليه - أي ليسكو - على أنه من بقايا الألقاب الصوفية، يمكننا التعمق في الموضوع أكثر من ذلك. إنني أفكر في التركيب العشيري الكردي (إقتران مرتبة الشيخ وخلفائه بمرتبة المير والآغا ومن حوله.. الخ)، وكذلك بالتأثيرات المحتملة للمجتمعات المسيحية. إن النسطوريين الجبليين الذين يتبعون(مالك) يضعون على قبعاتهم ريش الطاووس، كما أن الآباء البطاركة يحلقون ذقونهم ابتداء من مارشمعون الذي يشغل منصبه عن طريق الوراثة.

ويقول ليسكو في ختام مؤلفه: أن نظام الطبقات ذات الامتيازات يعتبر من ابتكارات المجتمع اليزدي. ان الرؤساء الروحيين يتمتعون في الغالب بسلطة أكثر من تلك التي يتمتع بها الرؤساء الزمنيون. وهذه الملاحظ تأتي، من حسن الحظ، لتؤيد وجهة النظر التي كنت أبديها دوما وهي أن الفكرة الدينية لدى الكرد تأتي متوازنة مع عقلياتهم العشيرية، فكل منهما يفسر ويكمل الآخر بعمق.

---

[٥٣] ليسكو: المرجع السابق. ص ٨١. الفقرة ٢.

وفي مجال إبراز نبوغ اليزديين العسكري، يذكر (ابتيلينك) نماذج عديدة[٥٤]، كما ينقل قصة أحمد جرخجي ولحنا غنائيا له أيضا[٥٥].

ونجد لدى المؤرخ الكردي محمد أمين زكي أيضا مبحثا مكرسا للداسنيين، أي اليزديين[٥٦].

سادسا – اليزدية (الايزدية) كما يراها البروفيسور مار:

والآن نبدأ بتحليل الدين من وجهة نظر البروفيسور مار.

أ – عن كلمة (چلبي):

بعد أن تطرق البروفيسور مار في دراسته إلى كلمة (چلبى)، أوضح أن هذه الكلمة ظهرت في بداية القرن الرابع عشر عند الأتراك السلجوقيين، وأنها مقتبسة عن الكرد الذين أخذوها بدورهم من الآرامية (تسليم تسلما) التي تعني الصورة أو النصب. وهكذا وبعد أن لم يعد هذا العالم الروسي يجد أي مشكلة في هذه الكلمة من وجهة النظر اللغوية، إنتقل إلى بحث الوسط الاجتماعي والعرفي الذي انبثقت منه، فيقول في بداية بحثه: "إذا كانت كلمة (جلب) أي (الله) من أصل جافيتي أو بتعبير أدق جافيتي جنوبي، وإذا كانت الكلمة المنسوبة إليها (چلبى) تعني ليس فقط (الالهي) وإنما تعني أيضا كريم الحسب والنسب والنبيل والسيد ورب البيت، بالإضافة إلى الموسيقي (المغني) والشاعر(الأديب) والمثقف والمتربي، وكذلك النبيل والشريف والمؤدب والأنيق، وأخيراً السيد الصغير، بدا واضحاً لنا، دون الحاجة للجوء إلى أي برهان، أن لدينا في هذه الكلمة بقايا جزء خطير من تاريخ الشعب الذي ابتدعها". من الجلي بوجه خاص أن الشعب الذي ابتدع هذه الكلمة

---

٥٤ في الصفحة ٢٦٠ من القسم الثاني من كتابه المنوه عنه فيما سبق.

٥٥ خلاصة تاريخ الكرد وكردستان. ص ٣٩٩.

٥٦ في الصفحة ٢٧٠ من الكتاب المذكور

المتشعبة المعاني: **أولا** - كان يعتنق ديناً نشأ في الحدود الجنوبية لعالم الجافيتي. **ثانيا** - وهو يمثل شعبا له نظام اجتماعي متميز منقسم إلى عدة طبقات أو إلى طبقتين على الأقل: النبلاء بالدم، والعامة المسحوقة. **ثالثا** - كان يوجد بين طبقة النبلاء صنف يمتاز عمن سواه من حيث الأهمية يدعى في اللغة الجافيتية (الاله) وينحصر فيه الإكرام الديني ويكون وجوده على أساس وراثي. **رابعا** - وفضلا عن الإكرام، كان العلم والأدب والغناء والموسيقى تمثل صفات يتمتع بها هذا الصنف. هذه الحالة المتميزة أعطت أصحابها تدريجيا وضعا من لدن الشعب الذي كان له تنظيم اجتماعي شهرة خاصة أعطت الموصوفين بها مدلولا طبقيا في المعنى الاجتماعي العام، بالإضافة إلى جميع المفاهيم التي ترتبط في كل حين بحالة النبل. خامسا – هذا الشعب الذي تطور هذا التاريخ في أحضانه وخارج كل المصادر المكتوبة، اختلط كليا أو جزئيا، في حوالي القرن الرابع عشر مع الترك السلاجقة وجلب معه إلى لغتهم كلمة (جلب) أو چلبـي) اللتين تكونتا عبر تاريخ وطني حافل يمتد إلى آلاف السنين. فهل يمكن القول أن صاحب هذا التاريخ الذي تحويه هذه الكلمة المختلف بشأن معناها، هو الشعب الكردي، على وجه الاحتمال على الأقل؟ هذه في الواقع مشكلة أخرى معقدة.

تعمق مار بدخوله هذا المسلك التفسيري لمعنى كلمة (چلبـي)، في أبحاثه، وقدم لنا مجموعة من الملاحظات عن الموقع الذي تشغله اليزدية في معتقداتها الغريبة المتعددة التي تشكلت في أرض آسيا القديمة الغنية بالآثار العتيقة وبقايا العادات المختلفة التي ازدادت وأثرت بصورة متقابلة وبشكل عميق، بحيث أن مدرسا متخصصا بدراسة الأديان يجمع بين وجهة نظر واسعة وتوجهات عبر مشاكل حقيقية، يستطيع أن يتعمق في هذا الباب ويخرج منه باستنتاجات ملموسة. ونحاول نحن هنا أن نلخص تأملات (مار) واستنتاجاته دون أن نكرر ما سبق لنا قوله بخصوص الغناء والشعر الملحمي الذين يشغلان حيزاً في الحياة الروحية والاجتماعية للكرد، ونكتفي بأن نذكر بأن (مار) يرى أن التراث الديني الكردي أقدم تاريخيا من الإسلام.

ب – المعتقدات القديمة في آسيا القديمة:

ان التباين الحالي في المعتقدات والاختلافات الموجودة في الوسط الكردي على الصعيد الديني، على ما يذهب إليه (مار)، نتيجة للانتصارات التي حققتها المسيحية والإسلام، وان لم تكن بصورة نهائية وقطعية، على المعتقدات القديمة في آسيا القديمة. ويبدو، بالمقابل، أن ديانة السكان الكرد الخاصة لم تعترف من جانبها بالهزيمة. لذلك أخذت تطعن الديانات المنتصرة من الداخل بطعنات، من إثارة الحركات الاجتماعية والإلحادية. وهكذا نجد في أرمينيا المسيحية طوائف مختلفة، ومنها "أبناء الشمس [آره ورد]"، تسمح لنا بمقارنتها مع عقائد الكرد الأثنينيين بفتح آفاق جديدة في تاريخ الحياة الدينية لتلك البلاد. "بدهي أنه لا يمكننا، والحالة هذه، الأخذ بوجهة نظر الباحثين الأرمن القدماء كجاجيان و آبوڤيان الذين رأيا في اليزديين هراطقة انشقوا عن الكنيسة الأرمنية[٤٧]، ولكن العلاقة العكسية يمكن أن تكون محتملة، بمعنى أن ظهور الهرطقة نفسها في الكنيسة الأرمنية حدث تحت تأثير ديانة شعبية وثنية من طراز الديانة اليزدية الكردية أو شبيهة لها[٤٨]". وإليكم ما يراه (مار) في إيضاح الموضوع:

"قبل ظهور الأتراك في آسيا القديمة حدثت داخل الكنيسة الأرمنية حركة دينية قوية تعدت حدود أرمينيا واكتسحت بيزنطيه وبلغت أقصى الغرب تحت أشكال متباينة وأسماء شتى، فظهرت في أرمينيا حسب التسلسل التاريخي الـ (ميتسيكينياى) أو (الأوسيت) و (البوليسيون) و (التوندراسيون) و (التولابليون) .... الخ. وخارج أرمينيا، في الشرق وفي الغرب، تكون حسب التسلسل التاريخي كذلك، (البوليسيون) و (الأوسيت) و (البوكوميل) أو

---

[٤٧] راجع (واكنار). المرجع السابق المشار إليه سابقا. ص ١٥٩ وما تليها. ان يكيزاروف على حق في عدم قبوله لهذا الراي في بحثه تحت عنوان "دراسة موجزة أتنو قانونية عن الازدية. ص ١٧٩ – ١٨٠. وآخرون مثل (نيف) يعتبرون هذا المذهب من أصل فارسي. وذلك في الدراسة التي نشرها في بروكسل عام ١٨٦٠.

[٤٨] من الغريب أن ايام صيام الازديين الثلاثة تتوافق مع موعد صيام الأرمن الذي لم نصل لحد الآن إلى تفسير لأصله ولاسمه. ويصوم الجيورجيون بصورة بدائية الصيام نفسه.

(الفونـدا كيارثيـت) و (الأبيجـوا) و (الكاثـار). ان العقيـدة الأساسـية لـ (البوليسياينزم) الـتي تـرتبط بهـا (البوكـوميليزم) ارتباطـا وثيقـا امتـدت آثارهـا حتـى سـوريا وترسـخت جـذورها وانتـشرت بـصورة خاصـة في أرمينيـا في بيئـة حافلـة بظـروف دينيـة محليـة. ويمكـن تفـسير ماهيـة هـذه البيئـة في أرمينيـا الـتي يعـيش فيهـا قـسم مـن الكـرد أيـضا، بوجـود ديانـة شـعبية وثنيـة تركـت آثارهـا حتـى اليـوم بـين اليـزديين. ان النتيجـة الـتي توصـل إليهـا أحـد اللاهـوتيين الألمـان المعـروفين وهـو (أوكـست نيانـدر[٥٩]) في مقارنتـه للبوكـوميليزم باليزديـة ذات فائـدة كـبيرة. ورغـم أن دراسـته باتـت في بعـض جوانبهـا عديمـة الجـدوى وفاقـدة الاعتبـار، إلا أن (مـار) يشير إلى بعض الفقرات المتعلقة منها بهذه النقطة.

يعتقد (نياندر) أن تشبيه الشيخ عدي بـ (الآديمينت) ومحاولة تقريب اليزدية من المانوية لا تقوم على أي أساس. صحيح أن عبادة الشمس تبدو ظاهرة متميزة لدى اليزديين، ولكن هذه ليست ناجمة بالضرورة عن تأثير من المانوية، بل من البارسية التي سرت إلى الفرق الأخرى، كما نفهم من جوزيف فلافيور بشأن مذهب الأسينيين اليهودي، إذ يقول: "وهم لا يتحادثون فيما بينهم عن أي شيء له صلة بالحياة اليومية أبداً حتى تطلع الشمس، إلا أنهم عندما يؤدون صلوات أجدادهم يتوجهون بخطابهم إلى الشمس ويدعون لها لكي تبزغ".

ويجب أن نلاحظ هنا أن المسألة تستوجب النقاش. وكما قال أحد الباحثين الأوروبيين: "لا يصلي اليزدي أبدا، باستثناء صلاته التي يؤديها للشمس. وعندما تبزغ الشمس، يجب على اليزدي أن يخرس جدا ثلاث مرات ويقول[٦٠]: "أشرقت الشمس عليَّ أيها التعس، أنهض وأدِّ واجباتك الدينية. ليس هناك إلا اله واحد، وإن الشيخ عدي حبيبه. السلام على الشيخ عدي، وعلى القبة الكبيرة التي يرقد تحتها وتشهد أن العنصر اليزدي خرج من تحت ذراع الشيخ عدي"، ثم يقبل الأرض التي سقطت عليها أشعة الشمس الأولى ويغرس في

---

[٥٩] أوكست نياندر. بالألمانية. ص ٢٣١.

[٦٠] كراجيو يسكي في مقال له بعنوان "الدين الشيطاني" في مجلة (ميركور دو فرانس) الصادرة في ١٥ تشرين الأول ١٩٣٢.

الأرض حجراً يمثل هيكل الشيخ عدي ويطوف حوله ثلاث مرات. وهو عندما يقوم بذلك، لا يجوز أن يراه أحد ممن ينتمون إلى دين آخر أو ينظر هو إليه وهو يؤدي صلاته".

ومع ذلك فان الأمير كامران بدرخان لا يعتقد في تعليق له على "عبادة الشمس لدى الكرد[٦١]" أن اليزديين هم من عبدة الشمس، إلا أنه يذكر "أن الاتقياء يقبلون نور الصباح على الجذع الطري للأشجار" وهو توضيح لا يخلو من أهمية.

وهناك شهادة أخرى تفيد أن المبشر المسيحي (سوبها لماران) الذي عاش في القرن الرابع الميلادي، كان يعمل على هداية الكرد من عبادة الشمس إلى الديانة المسيحية[٦٢]". وفي ضوء جميع هذه الاعتبارات، يبدو أن اليزديين هم من بقايا الزردشتيين لدى الكرد.

وتروي لنا ملحمة (مم وزين) الكردية أن الأمير مم سجن وهو في عمر الدراسة في مكان لا يلج فيه نور الشمس أبداً. وعندما كان يلعب ذات يوم مع صديق طفولته تحطم زجاج النافذة وسمح له ذلك بدخول شعاع الشمس إلى الغرفة. وما أن رأى الأولاد شعاع الشمس حتى أخذوا يهتفون جميعا "هذا هو الله" وحاولوا إدراك الشعاع. وبعد ذلك شرح لهم معلمهم أن هناك الشمس والقمر والنهار والليل، وأن الله هو السيد المطلق لهذه الأجرام والظواهر. ان هذه الإشارة إلى الدور الإلهي للشمس ذات مغزى خاص[٦٣].

ويقول (مار) في معرض تعليقه على مؤلف (نياندر) أنه - أي نياندر - يشير إلى خصوصية متميزة نجدها نحن لدى اليزديين وهي خشيتهم من رؤية شعاع الشمس وهو يسقط على شيء قذر. ويستخلص (نياندر) من ذلك أن المسألة ليست من المانوية بل ناتجة من تأثير الأديان الشرقية القديمة، وبخاصة من البارسية المختلطة باليهودية. والمهم في عقيدة اليزديين هو نظرتهم في اعتبار الروح التي ينسب إليها كل الشر. إنها كانت حسنة

---

[٦١] راجع مجلة (أطلنطيس)، ٥٤، السابع - الثامن، ١٩٤٢.

[٦٢] راجع دراستنا عن (الكرد والمسيحية) المنشورة في مجلة (تاريخ الأديان) - باللغة الفرنسية- وهي الدراسة المشار إليها سابقا.

[٦٣] تبدو بقايا الزردشتية في وجهة نظر رشيد ياسمي ايضا ،المرجع السابق، ص ١٢٣. ويكشف العالم الألماني (سبيكل) عن وجود معتقدات لدى الكرد الدوشيك في درسيم تعود في الأصل إلى ديانة (أناهيتا) و (ميترا).

في البداية ولكنها انفصلت فيما بعد عن الله، بل ويذهبون في اعتقادهم إلى أنها ستعود إليها في النهاية بعد المصالحة معه. ويترتب على ذلك أن روح الشر هذه ليست مبدأ محدداً يجب ظهوره في الخليقة بوصفه معارضا بالضرورة للخير، بل هي قوة من الطبيعة تعمل بدون وعي. من الواضح، إذا، أن فرضية الروح الشريرة في الديانة اليزدية، على غرار ما ورد في الإعلان المعروف لـ (مير - نيرسيه) الذي يتحدث عن مفهوم خلق العالم بوساطة جوهر الحياة والخالق الأزلي من وجهة نظر الديانة البارسية، بلغة التردد والشك اللذين ينبئ عنهما تعبير "يمكن"، موفرا بذلك التعلل لظهور (أهريمن) أي الروح الشريرة، بوصفه منشأ الشك والتردد والنفي في عمل الخالق نفسه- شيء لا وجود له. وليس هناك في أساس الديانة التي تشغلنا بالبحث عنها مفهوم آخر للعالم، وذلك على النحو الآتي:

فسر السوء في هذه الديانة بوصفه مظهراً من مظاهر الحرية نشأ عن انفصال حرية الإرادة والاختيار عن الله، وستكون نهايته عندما تتصالح كليا مع الله. ثم ان من ميزات الدين اليزدي أنهم إكراماً للماهية القديمة للروح الشريرة الملعونة وإقراراً بالمهام التي كانت ملقاة على عاتقها، وبعد أن تتبوأ مقامها الأول من جديد، يعتبرونها مادة دين خاص لديهم. يقول (نياندر): أن خصوصية هذا الدين بدرجة انه إذا وجد ذلك الشيء الموجود فيه، في دين آخر أيضا، حق لنا أن نستنتج "أن بينه وبين الدين اليزدي علاقة داخلية أو أن كليهما من منشأ وعلى مبنى واحد". وهذه الخصوصية توجد كذلك في مذهب من المذاهب المسيحية ظهر في القرن الثاني الميلادي في منطقة (تراقيا) من بلاد بيزنطة وفي البلدان المجاورة الأخرى.

ثم ينتقل (نياندر) إلى دراسة متعمقة لنظرية (الايشسيت) بالصيغة التي عرفها لنا (ميشيل بسيللوس)، هذه النظرية التي نملك بصددها معلومات كافية تسمح لنا بإثبات وجود صلة بينها وبين اليزدية. ولا يمكننا هنا الدخول في هذه التفاصيل، ولكن بعد أن كشفنا عن جميع الصلات الموجودة بين النظريتين، ولاحظنا وجود نقاط تشابه في الطقوس، يشير (نياندر) إلى الروابط الموجودة بين (البوكوميليزية) و (الاوشيتية) وبين هذا الأخير و (البوليسيانية). وكما يلاحظ (مار) بهذا الصدد، بعدما نبدأ بالبحث عن جذور (البوليسيانية) في أرمينيا وسوريا وفي المناطق المأهولة بالعشائر الكردية، نضطر إلى

الإقرار بالدور التحريضي الأساسي لعقيدة دينية قديمة لا يمكن إنكارها هي اليزدية التي لم تستطع أن تحتفظ بصورتها النقية نسبيا حتى الآن إلا بين بعض العشائر الكردية.

ج – الخميرة الوثنية الكردية في أرمينيا:

يؤكد (مار) ان الخميرة الوثنية للديانة الشعبية استطاعت الدخول بوساطة الجماهير الكردية مباشرة وعلى وجه الصدفة في العالم الإسلامي في آسيا الصغرى. لقد تدفقت الجماهير الكردية في المناطق الواقعة تحت سيطرة السلاجقة في الوقت الذي ولدت حياة إسلامية جديدة على أنقاض الديانة المسيحية الرسمية المنهكة بالصراعات مع الحركات الدينية الشعبية. وعندما تأسس هذا العالم الديني الجديد في المنطقة المحددة بشكل قوس دائري يبدأ من جبال (ازوريان[٦٤]) حتى جبال أرمينيا الشمالية-الغربية، اصطدم بجهات كثيرة واضطر إلى مناهضة الإسلام المهيمن في ذلك الوقت، ممثلا بحركة دينية شعبية معروفة لدينا أيضا، هي الدروشة. وكما يقول البروفسور سميرنوف[٦٥]، وجدت المانوية تجسيدها فيها. اننا لا نفكر هنا في الدروشة المجردة العامة الشائعة بين الجميع، بل بالشكل الذي تجسد في مناطق تهمنا. كان هناك، إلى جانب مبدأ الثنائية الذي نعرفه، رمز للون الملبس[٦٦] وأهمية شكل القبعة ولونها[٦٧]، والمعنى الصوفي للحلقة[٦٨]، والدور الخفي للضوء[٦٩] والاجتماعات المقرونة بالغناء والذكر واختطاف الروح، وهي ملامح معروفة لدى الازديين أيضا. من المؤكد أن طريقة الدروشة (المولوية) المتميزة بثقافتها الأدبية، التي تأسست في (قونيه) في القرن الثاني عشر لم تظل منزوية وبعيدة عن التطور، في حدود طقوس اليزدية وحدها، إذ كانت تسيطر عليها فكرة التجدد الداخلي للإنسان بواسطة

---

[٦٤] الجبال الواقعة على السواحل الجنوبية لآسيا الصغرى (نقلا عن الترجمة الفارسية).

[٦٥] مسيحية الترك وصوفية الدراويش (باللغة الفرنسية)، ص ١٢٥.

[٦٦] جون براون. الدراويش أو الروحانية الشرقية. لندن، ص ٥٣.

[٦٧] المصدر السابق. ص ٥٦.

[٦٨] المصدر السابق. ص ٥٤.

[٦٩] المصدر السابق. ص ٥٧ و ٦٥.

الاتصال المباشر بالله، خارج الطقوس والمراتب الكهنوتية. ففي أرمينا المجاورة، ظهرت خلال القرنين العاشر والحادي عشر صراعات ومعارك طاحنة بين الكنيسة والحركات الدينية الشعبية. ومن بين الحركات التي تهمنا هنا حركة الدروشة التي انتشرت في بداية القرن الحادي عشر على يد (يعقوب الخرق) من ولاية (بايزيد). وكان مريدوه يعيشون حفاة مسربلين بثياب من الصوف الغليظ الخشن، وكان بينهم نبلاء ولكن أكثرهم كانوا من عامة الشعب، وهم يبشرون بتزكية النفس وبالصيام والتوبة النصوح والكمال ويرفضون الروحانيات والطقوس الكنسية الرسمية[٧٠]. لقد كانت حركة دينية شعبية سمت فوق الطوائف السابقة، وكان لها منذ بدايتها تأثير واضح على الطوائف المسيحية. وقبل أن نبحث في الهند وفي الإسكندرية عن أسس الدروشة المحددة بالزمان وبالمكان، كتلك التي كانت في (قونيه) في ظل عهد السلاجقة، ينبغي أن نكشف النقاب عن العلاقات الدينية بين الحركتين الدينيتين المتقاربتين جغرافيا والمتعاقبتين تاريخيا. أما بصدد الوقائع الناتجة عن هذا العمل، فيجب أن نأخذ بنظر الاعتبار هذا "التأثير الديني الكبير" الذي ينسب إلى أرمينيا في آسيا الصغرى منذ القرنين الحادي عشر والثاني عشر[٧١].

ويمكن افتراض أن مراكز الدروشة السلجوقية في (سيباستى) و (قونيه) نشأت تحت تأثير التقاليد الدينية الشرقية القريبة لا الغربية[٧٢]. إن الإشارة العامة إلى مصادرها المسيحية لا تكفي بحد ذاتها، كما فعل ووهينفيلد الذي أثبت مطابقة (العشق) الصوفي مع الـ (أيامن) الوارد في كتاب (العهد الجديد)[٧٣]، فالمسألة لا تفسر بكونها جذوراً لمبادئ

---

[٧٠] راجع: فاكنر. المصدر السابق: الجزء الثاني. ص ٢٦٢ - ٢٦٣.

[٧١] كير هارد فيكر. لادينيو البلاد البيزنطية في القرن الوسطى (بالألمانية). لايبزك. ١٩٠٨. ص ١٩٤. الملاحظة رقم (١).

[٧٢] يقول البروفيسور (بارتولد) في دائرة المعارف الإسلامية. الجزء الأول. ١٩١٣، ص ٨٥٢ تحت مصطلح (**چلبـي**): أن الديانة الوثنية الكردية اثرت على الحياة الدينية للمسلمين وبصورة خاصة على دراويش آسيا الصغرى. تأثيرا واضحا ويمكننا أن نقرب من هذه الواقعة الطائفة الكردية التي تسمى (أهل الحق) والتي توجد في إيران (تتركز الطائفة المذكورة في وسط وجنوب كردستان الإيرانية وفي عدة مناطق من شرقي كردستان العراق وتسمى هناك "كاكه يى" - المترجم).

[٧٣] ووهينفيلد. المصدر السابق ويعتقد (نيكولسن) أن ووهينفيلد ذهب بعيدا في جعله الصوفية مدينة إلى هذا الحد للمسيحية "أشعار منتخبة من ديوان "شمس تبريزي" (باللغة الانكليزية). كامبردج ١٨٩٨. ص ٣٥. (الحاشية رقم ٣).

متماثلة لها امتدادها في عقائد دينية فلسفية مجردة تقدم في ملامحها العامة، بل كروابط بين حركات دينية محددة في الوقت والمكان تلبس أشكالاً محسوسة. وإذا كان إقامة السيدة التقية رابعة في القدس عام ٧٥٢ م أي معنى كان بالنسبة لمصادر الصوفية السلجوقية، فإن واقعة تآلف جلال الدين الرومي - وهو أمر لا بد منه فيما لو حكمنا بموجب أماكن اغترابهما - مع الوسط الأرمني القريب منه روحيا، يستحق بدون شك اهتماما كبيراً لأنه أقام في الواقع أربع سنوات في أذربيجان[٧٤].

ويوجد بين الكرد، بالإضافة إلى اليزديين، غير مسلمين آخرون لهم معتقدات دينية شعبية مختلفة، وهي من بقايا الوثنيين المتجانسين، قليلا أو كثيرا، مع اليزديين. ويسمى بعض اليزديين أنفسهم (داسني). وقد أراد البروفيسور (شوولسن) أن يعتبرهم من (الدايستانيين) المشايعين لـ (بار- دايتسان) [٧٥]. ويأتي وضع جماعة الـ (علي اللهية) أبعد من هؤلاء، رغم أنهم يعتبرون من حيث ديانتهم مشايعين لليزديين الكرد. ويعيش في جنوب أرزنجان التي عاش بين جدرانها جلال الدين الرومي مؤسس إحدى الطرق الصوفية في (قونيه) حيث تشمخ عالية جبال (درسيم)، كرد كان يتصور إلى وقت ما أنهم مسلمون، ولكنهم يطبقون في الحقيقة ديانة قريبة من اليزدية، ويطلق عليهم تارة (توجيك) وأخرى (قزلباش)، وكانوا يعيشون بصورة مستقلة تماما حتى أواسط القرن التاسع عشر، وكان بإمكانهم تجهيز ٣٠ إلى ٤٠ ألف مقاتل، وكانوا يعتبرون فيما مضى دونما أي شك من بين الكرد المشايعين لليزديين. وبعد اعتناقهم الإسلام، قللوا تدريجيا من قوة وأهمية اليزدية بينهم، ولكنهم من جهة أخرى، لم يستطيعوا الانفصال من معتقداتهم الدينية الشعبية والأصلية بعد قبولهم الدين الجديد. ومن الممكن، على وجه الاحتمال، اعتبار ولادة الدروشة في (قونيه) من بقايا أو بعثاً لمعتقدات تلك العشائر الكردية التي احتضنت الإسلام قبل أن تستترك بمدة طويلة.

---

[٧٤] نيكلولسن. المصدر السابق. ص ١٧.

[٧٥] شو ولسن. المصدر السابق. ص ٨١٢.

وهكذا نرى أن اليزدية تعتبر بالنسبة لـ (مار) الدين الخاص الذي كان يعتنقه الكرد قبل الإسلام، والذي فقد كثيرا من مواقعه بعد دخول هذا الشعب في الدين الإسلامي. وقد قدم هذا العالم أدلته لتأييد نظريته هذه عام ١٩١١، وهي تعتبر أدلة قوية لأنه يحاول أن يثبت لنا بإمكاناته العلمية الهائلة التأثير الذي مارسته البيئة الدينية المحيطة بالكرد في أرمينيا وآسيا الصغرى، والتي تأثرت بدورها من النتائج الناجمة عن هذا التلاقي بينهما. وقد ظهرت في الفترة الأقرب إلينا وجهات نظر جديدة بخصوص اليزدية جاهر بها أساتذة آخرون أشرنا إليهم فيما سبق. وكلما أردنا الإفاضة في بسط آراء البروفيسور (مار) التي تستحق ان تستلفت أنظار الكوردلوجيين وجميع الباحثين عن تاريخ الآراء الدينية، ولاسيما وأن دراسات هذا العالم الروسي ما زالت غير معروفة في الغرب.

د – الكرد ليسو هندو– أوروبيين:

يحتاج (مار)، من أجل أن يثبت مواقعه، إلى التعرض لمشكلة أصل الكرد وربطهم بمجموعة الأعراق التي يطلق عليها (الآسيوية) أو (الآلارودية)، أو حسب اصطلاح (مار) نفسه (الجافيتية)[٧٦] التي تضم الخالديين والمانيين والعيلاميين والأرمن والجيورجيين، هذه العناصر المرتبطة كلها تاريخيا بآسيا القديمة، والتي لا يمكن تشخيصها بوصفها هندو- أوروبية (آرية) أو سامية[٧٧]، دون أن يكون هناك اتفاق على تحديد خصائصها المشتركة.

---

[٧٦] يخيل إلينا أن كلمة (جاف) وهي اسم لإحدى القبائل الكردية المعروفة التي تقطن أجزاء من المناطق الحدودية بين كردستان العراق وإيران، تعود إلى هذا الأسم، ولاسيما وان القبيلة غالبا ما تسمى بين أبنائها (جافيتي) وان احدا من الباحثين لم يستطع الوصول حتى الآن إلى مصدر مقبول ترجع إليه هذه الكلمة – المترجم.

[٧٧] ينبغي علينا أن نميز بين العشائر اليزدية طائفتين مختلفتين: إحداهما كما يؤكدون بأنفسهم تقليديا، آشورية سامية مع وفرة في الشعر ولحية جد كثيفة. والأخرى أقرب إلى العنصر الهندو- جرماني. وعلى كل حال يبدو أن بوسعنا أن نجد بينهم بقايا من سكان البلاد الاصليين. وهناك قدر من التشابه الفسيولوجي بينهم وبين الأرمن القدماء في منطقة (وان). ومن المحال القول بعدم وجود العرق الأرمني فيهم (راجع: منزيل، اليزديون، في الانسيكلوبيديا الإسلامية. إلا أن هذا العالم نفسه يضيف قائلا: نشأت حركة اليزدية في سوريا في عهد الأمويين، وحسب التقاليد الموروثة الباقية لديهم إنهم أتوا خلال فترة حكم تيمورلنك في نهاية القرن الرابع عشر من البصرة والفرات الأسفل. ثم تقدموا شيئا فشيئا حتى وصلوا (سنجار) التي لم يحتلوها قبل القرن الخامس عشر. ثم توجهوا صوب كردستان فاستكردوا". ان هذه النظرية الحديثة القائلة

وبذلك يبقى الجدل بشأن التفاصيل مفتوحاً. ومنذ أن تطرقنا لهذه المواضيع في الفصل الأول من هذا الكتاب، استطاع القارئ أن يطلع حتى لدى المتمسكين بنظرية الأصل الهندو- أوروبي للكرد على بعض الشكوك بهذا الخصوص، مما ترك فيها ثغرات مفتوحة أمام النظرية الآسيوية. وقد استفاد (مار) من ذلك ليقول لنا إننا استعجلنا كثيراً في تأييد القول بالخصيصة الهندو- أوروبية للغة الكردية الحالية. وقد ذكرنا في حينه التحفظات التي أبداها هو في هذا المجال. ويضيف أيضا أنه يغيب عن نظرنا أن هناك لدى الكرد طبقتين أو عرقين مختلفين. فهل يمكن القول بالنظرية الهندو - أوروبية؟ لا يعير (مار) ذلك اهتماما كبيراً. صحيح أن علماء أوروبيين من المراتب العالية كـ (ميكائيليس) و (ستولوتزر) و (فريدريك) و (هين) شككوا في الأصل الهندو أوروبي للكرد، حتى ثبتت تلك النظرية من قبل كل من (لاسين) و (كارل ريتر)، فأكد (أرنست رينان) آنئذ أنها نظرية مقبولة الآن بوجه عام. لكن القبول العام لهذه النظرية لا يعني دائما الصحة المطلقة للرأي العلمي. أو لم يقبل بوجه عام أن الطبقة الهندو - أوروبية هي الأصل والأساس للأرمن، بل أكثر من ذلك اليس هناك من يريد إنكار وجود مجموعات عرقية جد قديمة غير آرية ولا سامية، كالجيورجيين والشعوب الأخرى القريبة منها، ويهمل بذلك هذه الشعوب ويضعها جانبا، في الوقت الذي يتصدى لحل قضايا ينبغي عليه أن يضع نصب عينيه لحلها، قبل كل شيء، المعلومات الأساسية المهمة التي تضعها تحت تصرفه الآثار الباقية في الأماكن التي يحقق بشأنها.

إن القول بالأصل الهندو- أوروبي للشعب الكردي ليس من الأمور التي لا يمكن التعرض لها مطلقا. وقد حاولوا أن يكتشفوا في اليزدية (التي يمزجها (مار) مع مبدأ كون اليزديين كردا، وهذا هو نقطة الضعف في استدلاله، بعضا من خصائص السامية، ولكنهم لم يجدوا أي نجاح في هذا المضمار على أي حال[٧٨]. وفي الوقت الراهن يظل شيء

باستكراد اليزديين لم تستطع الوقوف على قدميها. كما أنها لم تجد من يسندها. ان منطقة (هكارى) التي نشر فيها الشيخ عدي دعوته في القرن العاشر الميلادي إنما هي جزء قديم من بلاد الكرد. باسيلي نيكيتين.

[٧٨] حاول (ليدز بارسكي) بعد (شوولسن) في بحثه المنشور في مجلة (Z.D.M.G) في الصفحة ٥٩٨ من الجزء الثاني أن يثبت أن الصنم اليزدي (ملك طاووس) محرفة من كلمة (تموز) إلى اللغة الكردية. وقد وصف (كليرمون كانو) هذا التقارب

واحد واضحا كل الوضوح، وهو أننا نجد في الديانة اليزدية بقايا عقيدة يزدية جد قديمة في هذه المناطق. وكلما اكتشفنا في هذه الديانة روابط تربطها بالعقائد الموصوفة بالابتداع وبوجه عام بالاعتقادات الخفية الشعبية الصرفة، وجدنا الدليل على أن نرى فيها عبادة إله محلي من العصر ما قبل الآري المضطرب، إله غلب على أمره، فكان يستعين بجمهور العامة للدفاع عن نفسه وللنضال السري ضد الديانات الأجنبية التي ظهرت حديثا وسادت الساحة وكان لها إسناد رسمي وعلني. إن هذه العلاقات تقودنا إلى الطريق الصحيح الذي كانت الحملات تأتي عبره تارة من بلاد ما بين النهرين وأخرى من أرمينيا.

بالنسبة للبحث الذي نقوم به هنا، ليست مسألة ما إذا كان لليزدية أي ملامح انتقلت إلى الأرمن الساميين من قبل الخالديين مسألة لا ينبغي الالتفات إليها. وفي هذا الصدد نتذكر التقارب الذي أشار إليه (مار) بين الكاردوخ (الكاردوخيين) والكارتفيل في الفصل الأول من هذا الكتاب وافتراضه بشأن إحلال لغة هندو- أوروبية خاصة هي تلك التي يتكلم بها الكرد حاليا، محل لغة بدائية كردية آسيوية. ويضيف مار في ملاحظاته أنه يكفينا أن نكتشف أن اليزدية المعاصرة ليست سوى إحدى المعتقدات الشعبية لأناس مخصوصين يقتربون من جهة من المانديزم (المانية) والصابئة. ومن معتقدات أخرى من الهرطقات المختلفة التي نشأت في أرمينيا ومن أحداث من الحياة الدينية يمكننا الكشف عنها فيما بعد، حتى في جورجيا[٧٩].

بين الكلمتين بأنه صحيح إلا أنه أشار إلى أنه لا يقع أي موعد احتفالي لـ (ملك طاوس) في شهر تموز وهو الشهر الخاص بالاله (تمون). (مجلة "الأركيولوجي الشرقي". الجزء الثالث، ص ٨٦ [باللغة الفرنسية]).

[٧٩] من المفيد أن نلاحظ في هذا المجال أن المصطلح الصابئي (زاباركه) الذي ظل دون تفسير (شوولسن، الصابئة. الجزء الثاني، ٢٤. ٣٧ ص ٩٩١. الهامش رقم ١٧٩)، كان معروفا وجاريا في الوسط الثقافي الجافيتي وبخاصة في الكنائس الأرمنية كما لو كان من بقايا الوثنية الأصلية في البلاد. راجع (مار) "تعميد الأرمن والجورجيين والأبخاز والآلان من قبل القديس كريكوري" في ZAP. مجلة المجتمع الأركيولوجي الروسي. ج ١٦ (١٩٠٤ – ١٩٠٥). ص ٢٠٣ (باللغة الروسية).

ومنذ مدة طويلة أشار البروفيسور (شوولسن) في مؤلفه المعروف ب(الصابئة[80]) إلى صلة القرابة الموجودة بين اليزدية والماندية، وهو يرى أن الازدية من بقايا الوثنية القديمة. ويلاحظ (مار) مع ذلك أنه ربما كان من السابق لأوانه تشبيه اليزدية بمذهب (الشمسية) كما فعل شوولسن، ولكن الشيء الذي يبدو جلياً للعين هو صلة القرابة بين جميع هذه المعتقدات الدينية المحلية في أسسها، دون استثناء الصائبة منها. ويلاحظ مع ذلك أن هذا الدين الجافيتي السامي الذي نجح في البقاء أكثر من غيره على الأرض الأرمنية، يحتفظ بها حاليا شعب يتكلم لغة هندو- أوروبية هي الكردية، من المجموعة الإيرانية. ويترتب على ذلك بطبيعة الحال أن المصطلحات اللاهوتية الحالية لهذا الدين إيرانية، وقد حلت محل مصطلحات أخرى أقدم منها. أما أن تلك المصطلحات القديمة كانت سامية أو جافيتية، فهذا أمر غير ذي أهمية.

ولم يبق في الوقت الراهن، على ما يرى (مار) أي مصطلح ديني قديم من تلك المصطلحات إلا كلمة (چلب) أي (الاله) مع مشتقه الكردي المضاف إليه وهو (ي) (چلبـي) أي (الالهي) ويعني المنسوب إلى الاله. ونحن نجد هذه الكلمة لدى الصابئة مصحوبة باسم (القمر) في شكل مركب من (سيليم - سين) أي المعبود القمر[81]. ولأن هناك في اليزدية خطوطا مشخصة من دين عبادة القمر، فإنه يخيل للمرء أن كلمة (چلب) الكردية مشتقة مباشرة من مصدر آرامي. وفي هذه الحالة فإنها تكون محرفة من كلمة (تسيلم) مع إضافة حرف (س) إليها وتعني القمر.

هـ - جافيتية الكرد:

تعود بنا عبادة القمر إلى الوسط الجافيتي. تحدث (سترابون) عن عبادة إله القمر على حدود بلاد (ايبيرى[82]) ووجدت إشارات إليها في أرمينيا أيضا. وأيا كان الأمر، فإن

---

[80] الصابئة: الجزء الأول. ص ٢٩٢، ٦٤٨ - ٦٥٠.

[81] جغرافية ياقوت. نقلا عن شاوولسون. المصدر السابق الجزء الثاني ص ٥٥١.

[82] عالج الموضوع الأمير (جافاخوف) في الرسالة التي قدمها في ٢٣ مارس ١٩٠٦ إلى جمعية الأركيولوجيين الروس. بعنوان "العبادة الوثنية في جورجيا القديمة". راجع ZAP. الجزء السادس عشر (١٩٠٦)، ص ٣٠.

اليزديين باعتبارهم من عبدة الاله (چلب) كان بوسعهم أيضا أن يطلقوا على أنفسهم لقب (چلبـي). ولنتكلم الآن عن المرادفات المحتملة لهذا المصطلح لدى البوليسيين والأوشيتيين والبوكوميليسين الذين سبق أن أشرنا إلى صلاتهم بالمعتقدات اليزدية، ولكن لنتذكر أيضا أن اسم طائفة (العلي اللهية) القريبة من اليزديين المركب من كلمتين، يمكن أن تكون الكلمة الثانية من ترجمة عربية لكلمة (چلبـى) التي تعني (الالهي). وبهذا الصدد من الملفت للنظر أن نلاحظ أن طائفة (علي اللهي) التي درسها البروفسور (جوكوفسكي[٨٣]) تضع في مقدمة عباداتها الوهية (خوند كور) وهو اسم مشتق من (خدا) أي (الله) الفارسية (والكردية أيضا - المترجم). ومما يجدر بالملاحظة، كما يقول البروفيسور (جوكوفسكي)، أن العلي اللهيين الحقيقيين و (النصيريين) القاطنين في سوريا يعتبرون أن عليا هو الله بعينه. وقد فرضت هذه التفسيرات نفسها بقوة على أفكار (مار) حول التسمية الحالية لمشايعي اليزدية، فكلمة (يزدي) في رأيه، مصحوبة بياء النسبة المضافة إليها، إنما هي في الحقيقة الصيغة الكردية المأخوذة من كلمة (يزيد) التي هي تحوير قديم لكلمة (يزد) الفارسية التي تعني (الاله). وبعبارة مختصرة، إننا نجد أنفسنا في كلمة (يزدي) وجها لوجه مع مصطلح إيراني تبوأ المكان الذي كان يحتله مصطلح (چلبـى[٨٤]) الجافيتي. وقد احتفظ الترك بهذا المصطلح في الأوساط الصوفية. ونجد هذا المصطلح كذلك لدى الآراميين. أما في اللغة الكردية فقد احتفظ المصطلح بمعناه الخاص وهو (المغني الجوال). وتعني الكلمة نفسها في آن واحد (النبيل) و (المغني الجوال). ولدينا التماثل نفسه في الكلمة الكردية (به گزاده) التي تعني في وقت واحد (ابن البگ) وكذلك (النواراني التائه) و (المغني) و (الراقص). وصفة (التائه) التي نصادفها هنا، تعيدنا إلى أوساط دراويش الصوفية الذين أشرنا سابقا إلى نقاط التقائهم باليزديين. ومما هو جدير بالملاحظة

---

(٨٣) طائفة أهل الحق في إيران ZAP الجزء الثاني ١٨٨٧، ص ١١ (باللغة الروسية).

(٨٤) اننا ملزمون هنا بحذف الأدلة التي قدمها (مار) تأييداً لرأيه. ولكننا نلاحظ أيضا أن (مانزيل) كتب في مقاله عن اليزدية في الانسيكلوبيديا الإسلامية "ان كلمة (يزدي) التي يقول اليزديون أنفسهم أنها كلمة حديثة، ليست لها أي صلة بيزيد بن معاوية ولا بيزيد بن أنيسه. انها ربما كانت واردة من اللغة الفارسية الحديثة، من كلمة (يزد) التي تعني الملاك أو الإله..الخ.

أكثر أنَّ مصطلح (چلبـى) بمعنى (المغني التائه) يمكن أن يكون مشتقا من كلمة (جيلب) التي تعني في اللغة الفارسية آلة موسيقية تتكون من قرصين من النحاس يضرب بأحدهما على الآخر، أو تعني الضجيج أو الازدحام أو الاحتشاد الكبير .الخ. وبالنسبة لهذه المصطلحات الفارسية التي ليست لها صلة بالكلمة العربية (جلب)، من الأنسب أن نبحث عن مدلولاتها في (الاجتماعات الدينية) التي تعقد على شرف (جلب) أي الاله الوثني. ويتحدث البروفيسور (جوكوفسكي) بصدد طائفة (العلي اللهية) عن الاجتماعات والقرابين والغناء التي تكون مصاحبة لآلة موسيقية مع ضربات باليد. ويأمل (مار) أن يتوصل نتيجة التحقيقات والدارسات المستقبلية إلى أن كلمة (چلبـى) كانت تعني الاله الساطع، القمر .. الخ، فيكون لاستخدام القرص والآلة الموسيقية للعبادة مغزاه الخاص.

و – تماثل كلمتى (چلبـى) و (يزدى):

من أجل أن يدعم (مار) نظريته القائلة بأن كلمة (چلبـى) استعارها الترك من الكرد وأغنيت عندهم بإعطائها معاني مختلفة، بقي عليه أن يقوم بمهمة محددة وهي التحقيق بشأن القبيلة التي تعطي بينها هذه الكلمة معنى (النبيل) و (المنبت الطيب)...الخ، وقد تحقق له ذلك في نهاية الأمر. ولهذا الغرض لاحظ منذ البداية أن المعنى الذي أعطى لكلمة (يزدي) إنما يأتي عن تفسيرها تفسيرا واسعا فضفاضا. وفي الحقيقة ليس المقصود في هذا المقام هو الدين في مجمله، بل القبيلة التي تعتبر من سلالة يزيد، التي تنجب الشيوخ والزعماء الروحيين لهذه الطائفة الدينية[٨٥].إن هذه القبيلة النبيلة انتخبت بدورها من بين صفوف طبقة متميزة. وحسب ما يقول (فيبفر)، تنقسم القبائل الكردية التي تدين باليزدية إلى طبقتين، طبقة تلبس الأسود، وأخرى تلبس الأبيض[٨٦]. وتعتبر الطبقة الأولى متميزة وهي التي تظهر من بين صفوفها طبقة رجال الدين. ومن الواضح أن هذه الطبقة التي تمارس الرقابة العليا على الديانة الشعبية تتمتع في نظر الآخرين بامتياز خاص وهذا

---

[٨٥] فيبفر. أشار إليه (نياندر). المصدر السابق. ص ١١٦.

[٨٦] ليسكو. المصدر السابق. يعتبر الأسود لونا لملابس طائفة الفقراء (فقيران) وهم صنف من ملالي اليزديين الذين لا يعدون جزءا من طبقة رجال الدين.

الامتياز يزداد شيئا فشيئا مع الايام. والمجتمع القائم على التنظيم العشيري الصرف لا تتعرض فيه هذه الهالة إلى التقليل من أهميته. والدليل على هذا ما نراه في الواقع لدى الكرد المسلمين الذين حافظوا حتى بعد ظروف حياتهم الروحية الجديدة على السلطة التقليدية لأسرهم الحاكمة. ولدينا مثال آخر لحالة مماثلة لدى العرب. إن قبيلة قريش التي كانت مهيمنة ومسيطرة على الوضع في العهد الوثني، احتفظت بامتيازاتها لمدة طويلة بعد ظهور الإسلام.

وبين الكرد، كانت القبيلة المتميزة تحمل في السابق اسم (چلبـي) لا اسم (يزدي). وهذا ما يعطينا المفتاح لدلالة الكلمة على معاني (الأمير) و (السيد) و (النبيل) من بين معانيها الأخرى. ونحن نعرف أنه حتى يومنا هذا يقوم البناء الاجتماعي لليزديين على أسس من الحكم الديني وينقسم الشعب إلى طوائف منغلقة أنشأها الدين [٨٧]. إن اليزديين أنفسهم جد فخورين بالدم النقي الذي يجري في عروق أبناء الطبقة الأرستقراطية منهم[٨٨]. صحيح إننا لم نجد حتى الآن لدى الكرد أي أسرة أو طبقة باسم (چلبـي)، ولكن لسوء الحظ، كما أشار إلى ذلك (كاترمير)[٨٩] "أن القائمة الطويلة بأسماء العشائر الكردية لحقتها تحويرات كثيرة".

أما بشأن كلمة (چلبـي) بمعنى (السيد) أو (سيد المنزل) اللذين تستعمل لهما هذه الكلمة في اللغة التركية أيضا، فإن الفئة ذات الامتياز كانت تستطيع منذ البداية، بفضل الموقع الذي كانت تحتله أن تلعب دور المالك المتمكن إلى أقصى حد، وهذا ما يفسر العلاقة التي تؤدي إلى استعمال هذه الكلمة في معانيها التبعية ويوضح التنوع الحاصل فيها. وكذا

---

[٨٧] راجع (بكيزاروف) في مقدمته لـ (موجز ملاحظات "سيوفي" عن اليزديين) في ZAP. قسم القفقاس. الجمعية الجغرافية. تفليس ١٨٩١. ١٣. القسم الثاني. ص ٢٤٦ – ٢٦٦ (باللغة الروسية). ونجد التفاصيل في المصدر نفسه عن اليزدية. ص ١٩٤ وما يتبعها. ص ٢٠٠ وما بعدها.

[٨٨] راجع (شابوت). ملاحظات عن اليزديين في (J.A). ١٨٩٦ حسب وثيقة سريانية: "ان الأمير لدينا هو دائما ابن الأمير. والشيخ هو ابن الشيخ. والخواجه هو ابن الخواجه. بعكس المسيحيين والمسلمين الذين لا يعيرون الأصل أي اهتمام عند تنصيبهم القساوسة والملالي".

[٨٩] ملاحظات عن الكرد. ص ٥٩. راجع مع ذلك (مان). الجزء الثاني. ص ١٩١.

الحال بالنسبة للمعنى الأصلي وهو (الرجل المحترم) الذي يورد في كل حين بالمعاني التالية (أ) النبيل، الشريف، (ب) المؤدب، المجامل، (ج) الأنيق، (د) المتعلم والمتربي، كما نلاحظ نظائر هذا في مواضع مختلفة أخرى أيضا. وفيما يتعلق بالمعنى الوصفي الأخير، نرى من المناسب للمقام أن نذكر نقطة معينة هي أن التربية بالمفهوم التعليمي وإن كانت قد اندثرت بمرور الزمن، إلا أنها كانت موجودة لدى الكرد الذين يدينون باليزدية. ويذكر لنا العديد من الرحالة معلومات حول وجود كتاب مقدس خاص باليزديين يسمى (فوركال[٩٠]). وقد أخبر شيخ يزدي كان يعيش في أطراف نينوى القديمة المبشرالأمريكي (كرانت)[٩١] عام ١٨٤٢ أن التربية بمعنى تعليم القراءة والكتابة لا يحق لديهم إلا لأفراد أسرة معروفة. وليس بمستبعد أن معرفة القراءة والكتابة كانت تعتبر بمثابة امتياز وراثي لأسرة (چلبـي) التي كانت نالت هذا الامتياز لعلو مقامها بسبب الدور الذي كانت تقوم به في مجال التوجيه الديني. ونتوصل أخيرا، بإشارة لا تخلو من بعض التهكم الرقيق، إلى استعمال مصطلح (النبيل) أو (الرجل المحترم) بمعنى (السيد الصغير الأنيق). ونجد إسناد استعمال كلمة (چلبـي) بهذه المعاني في أغنية شعبية تركية، وكذلك في اللغة العربية الدارجة في سوريا([٩٢]) حيث يقال: "الحلبـي جلبـي، والشامي شؤمي والمصري حرامي"!.

وهكذا وبعد بحث جميع المعاني التي تنسب حاليا لكلمة (چلبـي)، هذه المعاني التي كانت لها فيما مضى صفة مقدسة وطقوسية لدى الكرد، ثم انتقلت إلى الترك، يلخص (مار) وجهة نظره دعماً لنظريته، ويقول: "يبدو واضحا من كل هذه الظواهر أن هذه

[٩٠] الكتب اليزدية المقدسة هي كتاب (جلوه) أي كتاب الوحي و (مصحفى رش) أي (الكتاب الأسود). ويبدو أن الأسود يعني (الجدير بالاحترام). ولكن (مانزل) يبدي تشككا بشأنهما لأنهما مكتوبان باللغة العربية. بينما لغة العبادة لديهم هي الكردية وحدها. وقد بينت في الفقرة الثالثة من الحاشية رقم (٢) في الصفحة ١٣ من الكراس الذي نشرته بعنوان (مسألة "خويبون" الكردية) أن الكتاب المقدس للدين اليزدي باللغة الكردية. وتمارس جميع الطقوس في (شيخادى) باللغة الكردية ايضا. وكذلك جميع الصلوات. وحتى في أيامنا هذه. فإن القسم الأعظم للكرد في منطقة بوتان. مسلمين كانوا أو يزديين. هو: "أقسم بالمصحف الأسود المفقود في خرائب جزيره".

[٩١] كرانت وهندال. المصدر السابق. ١٨٦١.

[٩٢] كريمير. سوريا الوسطى دمشق. ١٨٥٣. ص ٩٥.

الكلمة - أي كلمة چلبـي - تحوي في طياتها كل تاريخ الشعب الكردي. ولكن نظرا لعدم وجود مصادر مدونة مباشرة، فإننا مضطرون لإعادة صياغة هذا التاريخ على طريقة اكتشاف المنحوتات الحجرية، عبر البحث والتنقيب في الآثار القديمة عن المخلفات المتبقية من العصور الغابرة في الظواهر الشعبية المتعلقة باللغة والدين القديم التي تنعكس في تلكم الآثار التي ما تزال حية".

وإذ يعرف (مار) أن نظريته حول الأصل الجافيتي للغات قد شوهت من قبل الحكام غير الجديرين أو الجهلة كلياً، فإنه يستدرك قائلاً: " لئن كان طريق الحل المقترح مرفوضا، فإن طريقا واحدا يبقى لي وهو التمسك بقوة بالمبدأ المسلم، وهو أن هناك قضايا متعلقة بالتاريخ الثقافي من ضمنها مسألة (چلبـي) ومسائل البوليسيانيزم البيزنطية والدروشة القونيوية، تلك المسائل التي لا يمكن التوصل إلى استنتاجات أكيدة بشأنها إذا لم يأخذ الباحث بنظرالاعتبار قبل كل شيء معطيات الحياة الشعبية المجاورة لها دونما استثناء، والحياة المحلية في العصور الغابرة، وجميع المواد المتعلقة بعلم خصوصيات الشعوب ولهجاتها، حتى وان كانت مغايرة للروايات التاريخية المدونة".

وبقدر ما يتعلق الأمر بنا، فإن أسلوب التحقيق الذي اقترحه هذا العالم الروسي الذي رمى بكل جرأة جميع الآراء العلمية بشأن علم معرفة اللغات عرض الحائط، يبدو جديرا بالاهتمام. والخلاصة التي عرضناها من تحقيقات (مار) لم تكن بهدف اتخاذ موضع المناقشة وإياه، فهذا أمر خارج عن نطاق صلاحيتنا الشخصية، وما كنا نقصده هو أن نجعل القارئ على بينة من بعض أساليب التفسير في دراسة علم معرفة اللغات. وفضلا عن هذا، فإن إيراد هذه الخلاصة أمر في مكانه تماما، لأنه يكمل ما سبق أن قلنا وتطرق إليه أحيانا متخصصون في غاية الندرة بشأن الدين اليزدي وغنى الحياة الروحية للشعب الكردي بنحو يثير الاهتمام[٩٣].

---

[٩٣] هناك مراجع عن اليزدية منها مؤلفات الرحالة الإيطالي (كامياتيل) عن تاريخ كردستان والأديان الموجودة فيها (باللغة الإيطالية)ن نابولي. ١٨١٨. وعباس العزاوي. تاريخ اليزدية وأصل عقيدتهم. بغداد ١٩٣٥. واسماعيل بك جول. اليزيدية قديما وحديثا. بيروت ١٩٣٤ [ويمكن أن أضيف كتاب (اليزيدية) لصديق الدملوجي. الموصل. ١٩٤٩ أو اليزيدية

سابعا - أهل الحق:

تنتشر معتقدات هذه الطائفة التي نوه عنها (مار) في جزء مهم من كردستان، ولذلك فإننا سنعطي عنها فكرة موجزة. درس هذه الطائفة البروفيسور (جوكوفسكي) المختص بالدراسات الإيرانية، كما درست بصورة خاصة من قبل البروفيسور (مينورسكي) الذي استطاع، وهو في إيران، أن يقيم علاقة عن قرب مع مرشد الطائفة الروحي[٩٤].

يذكر لنا (مينورسكي) أن القضية في هذا المذهب ليست محصورة في تأليه الخليفة الراشد الرابع، فبمقتضى هذا المذهب تجسد الله في سبعة أجسام كان علي ابن أبي طالب واحداً منها، ويقول أتباع هذا المذهب أن أربع ملائكة يمثل كل واحد منهم واحدة من الصفات الملكوتية لله يرافقون في كل مرة هذا الإله المتجسد. وعلى غرار ما في المذهب الإسماعلي، يكون الإله المتجسد، لدى أهل الحق، تحت إشراف أقوى مصاحبيه الأربعة، وأن (إيحاء الأسرار) لا يعود إلى عهد علي، بل إنه حصل عندما ظهر (باوه خوشين) و(سولتان إيساق = السلطان إسحاق).

وأتباع هذا المذهب يعتقدون بالتناسخ، وهم يمارسون فيما بينهم ضروبا شتى من العقود يمكن أن تكون بين أشخاص لا ينتمون إلى جنس واحد، أي يمكن أن تكون بين رجل وامرأة. ومن بين الطقوس التي يمارسونها توزيع الخبز واللحم المسلوق على حضور مجالسهم الدينية، ويجب أن لا يفسر ذلك بكونه نوعا من بقايا تناول القربان لدى المسيحيين، إذ لا توجد أي علاقة بين هذا المذهب وبين المسيحيين، بل إنه يقترب، بالعكس، في بعض النقاط من المذهب

لسعيد الديوةجي. الموصل ١٩٧٣. واليزيديون في حاضرهم وماضيهم. لعبد الرزاق الحسني. بغداد ١٩٦٨. واليزيدية أحوالهم ومعتقداتهم للدكتور سامي سعيد الأحمد. بغداد ١٩٧١. و (يه زيديه كان وئاييني يه زيدى) لشاكر فتاح. بغداد. ١٩٦٩، و (ئيزدياتي) لخدرسليمان وخليل جندي. بغداد ١٩٧٥، و (كوندياتي) لخدرسيلمان. بغداد ١٩٨٥. وهذه الثلاثة باللغة الكردية.

[٩٤] مواد ضروية لدراسة المذهب الإيراني (أهل الحق) أو (العلى اللهية). موسكو. ١٩١١. (باللغة الروسية). وكذلك ملاحظات عن مذهب أهل الحق. باريس ١٩٢١. بحث نشر في المجلة الفرنسية R.M.M.

(الطاووسي[٩٥]). إن قزلباش (درسيم) هم جزء ممن يدينون بهذا المذهب. إنهم يعتقدون بأن الروس سيحاربون الترك بالسيف الذي أهداهم إياه علي ابن أبي طالب. وهناك بعض الآثار الأدبية التي تتعلق بجماعة (العلي اللهية) مدونة باللهجة الگورانيه من اللغة الكردية، وقد نجح (مينورسكي) في الحصول على نسخة لمخطوطة من إحدى هذه الآثارالأدبية تحمل عنوان (سرانجام) ويعني (المصير)[٩٦].

ويقول مينورسكي انه يمكن استخلاص بعض المعطيات الإيجابية من دراسة الظروف التاريخية والجغرافية التي تكوَّن من خلالها هذا المذهب. وهكذا تمثل عقيدة أهل الحق التاريخ الديني الحقيقي لأبناء هذه الطائفة. فإبان العصر الثالث، جرت أحداث كثيرة في لرستان، حددت أماكن وقوع عديد منها. وهناك نلتقي بين أسماء الملائكة المتداولة بينهم باسم (باوه گموره) الذي يقدسه الناس في مزاره في (باوه لين)، و (بابا طاهر) الشاعر الذي نظم الشعر بلهجة محلية (راجع الفصل الحادي عشر). ويجب أن نذكر بين الملائكة الأربع لهذا العصر (باوه يادگار) الذي يقال أن روح الإمام حسين بن علي تجسد فيه، وهو شخصية أخرى عاش في العصر نفسه، وله شعبية واسعة، ويقع قبره في مقاطعة (گوران) من ملحقات (زهاو).

وينحصر العصر الرابع في المنطقة الواقعة على نهر (سيروان) شمالي (زهاو) ، أما الخامس فيقع أيضا في كردستان، بينما يقع السادس والسابع منهما في أذربيجان. ويمكن أن ينورنا ذكر سلسلة إمارة (قره قوينلو) التي نشأت في القرن الخامس عشر بالحلقة التاريخية المتعلقة بالأحداث التي وقعت خلال الحقبتين الأخيرتين.

---

[٩٥] راجع مقالي المنوه عنه أعلاه والمنشور في (دائرة المعارف الإسلامية) الفرنسية.

[٩٦] يخلط المؤلف هنا وفي أماكن أخرى من هذا الفصل بين جماعتي (اهل الحق) و (العلي اللهية) . في حين أن اختلافات مهمة تفرق بين الجماعتين. كما أن أهل الحق أنفسهم ينفون كونهم من العلي اللهية – المترجم.

ان العشائر الكردية المنتمية لهذا المذهب هي من فروع (مينيشى) من عشيرة (كلهر) وهم (السنجاويون) النواة الأصلية لعشيرة (گوران)[٩٧]. ولا نجد أثراً لأهل الحق لا في جوار (بردى ورى) ذات الأهمية البالغة في روايات أهل الحق، ولا في كردستان إيران في منطقتيْ (سنه) و (سابلاخ). ويعّلل (مينورسكي) ذلك بوجود السنيين المتعصبين بكثرة وتكتّلهم في هذه المناطق وبتأثير شيوخ (تويله) و (بياره) النقشبنديين[٩٨].

ومن بين الطقوس التي يمارسها أهل الحق تقديم القرابين والنذور وكذلك تقديم المساعدات للرؤساء الروحيين. ويذكر السير (راولينسون) أنه لدى توزيع اللحم المسلوق الذي أشرنا إليه آنفا، "يمسك البير الذي يشرف على تقديم لحم الأضحية فروعا صغيرة لأغصان شجرة السدر والصفصاف بيده"، ويلاحظ الشيء نفسه لدى (النصيريين) في الشام.

---

[٩٧] لا ينحصر أهل الحق في هؤلاء. ففي كردستان العراق، وفي مناطق متباعدة منها، يوجد اتباع طائفة أهل الحق الذين يسمون هنا (كاكه يى)، ربما نسبة إلى مرشد قديم لهم كان يحمل في اسمه كلمة (كاكه)، التي تعني في اللغة الكردية الأخ الأكبر سنا. وهناك كثير من المرشدين الروحيين في تاريخ أهل الحق من توجد هذه الكلمة ضمن اسمه. أو إشارة إلى مبدأ المؤآخاة التي تجري بين اتباع هذه الطائفة. وهم موجودون في أطراف كركوك، في بعض قرى ناحية داقوق. وفي قضاء خانقين ايضا وكذلك في قرية (هاوار) في قضاء حلجبة عند ملتقى منطقتى هورامان وشهرزور وعلى مقربة من قرية شيخان التي ظهرت فيها دعوة (سولتان ئيساق). ويقع جسر (برديورى) المقدس لدى أهل الحق على نهر سيروان في تلك المنطقة أيضا. وهناك أنحاء كثيرة في شهرزور وهورامان وگرميان يشار إليها في أبيات أهل الحق على أنها كانت تدين بمذهب أهل الحق. ويبدو أن الإسلام السني ضعف ردحا من الزمن في تلك المناطق، ثم عاد فضيق الخناق على أهل الحق الذين تراجعوا فانحصروا في مناطق متباعدة من كردستان العراق - المترجم.

[٩٨] يرجع تاريخ ظهور مشايخ (بياره) و (تويله) النقشبنديين إلى فترة جد متأخرة بالقياس إلى تاريخ ظهور أهل الحق. وليس هناك في التاريخ الشفهي الشائع في تلك الديار، كما لا يوجد في الآثار المدونة ما يدل على أن سكان المناطق الآنفة الذكر كانوا إلى فترة قريبة من أتباع أهل الحق. لذلك نرجح أن انكماش أهل الحق في المنطقة وانحصارهم في كردستان إيران في مناطق قبيلة (گوران) وما جاورها وفي كردستان العراق في المناطق المشار إليها في الهامش السابق، يعودان إلى فترة سبقت بكثير ظهور مشايخ النقشبندية في المنطقة - المترجم.

ان طقس الاستسلام أو إيكال الأمر [٩٩] إلى المرشد الذي يطلعّ المنتسب إلى الطائفة بواسطته على الأسرار الروحية ليس من خصائص أهل الحق وحدهم، كما يقول بذلك (مينورسكي)، فهو متبع لدى جماعة (الطاوسيين) أيضا. ويتلخص ذلك في شطر الجوزة إلى قطعتين يحتفظ بإحداهما المرشد الذي يقوم بالعملية ويطلع المستسلم على الأسرار، وتستخدم الأخرى كتعويذة للطفل بعد خيطها على طاقيته. كما أن لقطعة من النقد ومنديل من الحرير أيضا دورا في إكمال هذا الطقس الديني. ولطقس التوحيد السري الذي يطلق عليه اسم (التزاوج مع الحقيقة) ملامح مشتركة مع طقوس كشف وتلقين الأسرار. وكان أتباع الشاهات الصفويين يطبقون طقسا دينيا مماثلا أيضا في بداية القرن السابع عشر.

ولجماعة أهل الحق أعياد ولديهم صوم أيضا. إن عيد (برخ بران) أي (ذبح الخراف) يصاحب لديهم الصوم. كما أنهم يحتفلون أيضا بعيد (نوروز) على نطاق واسع.

ولرجال أهل الحق أيضا، كما هو شأن الجماعات الصوفية، جلسات للذكر السري لاسم الله وأخرى يصحبها العزف على آلات موسيقية، ويجري الحديث في ترانيمها عن حب الله والحب الأخوي. لنترك الحديث عن أمور الزواج والدفن وعما يرتدون من ثياب. أما الأمور الأخلاقية التي ينبغي لاتباع هذا المذهب أن يلتزموا بها، فإنها غير واضحة، لأن عقيدتهم عن أصل الشر ومنشأه لم تتضح بعد بما فيها الكفاية. ويحاول أهل الحق حل مشكلة العقاب والثواب عبر الاعتقاد بفكرة التناسخ.

وبناء على ما يذكر (كوبينو) [١٠٠]، تقول مجموعة عقائد مذهب أهل الحق فيما يتعلق بخطيئتهم، إن المرء يبعث من جديد في ظروف أكثر سوءا. إن أرواح الصالحين الذين بلغوا مرتبة (بير) أي المرشد تعود إلى ملكوت السماء التي أتت منها. وتذكر لدى أهل الحق، كأماكن يحشر إليها الناس في الآخرة لمحاسبتهم على أعمالهم، كل من زنجان وشهرزور

---

[٩٩] يطلق على هذا الطقس بين أهل الحق من الكرد تعبير (سرسباردن) وهو يعني بالضبط أن توكل أمر رأسك أي نفسك إلى المرشد – المترجم.

[١٠٠] ثلاث سنوات في آسيا. طبعة ١٨٥٩. ص ٣٣٨ – ٣٧٠ (باللغة الفرنسية).

وقزوين. أما بشأن الإفراط في المأكل والمشرب والتسليات الليلية التي تحدث عنها (كوبينو) بالارتباط معهم، أو لم يتهم بمثل ذلك اليزديون القزلباش والنسطوريون أيضا؟ إن المانويين والمسيحيين الأوائل، تعرضوا أيضا لمثل هذه الاتهامات. يؤكد (مينورسكي) بإصرار أننا لا نملك أي دليل تثبت صحة هذه الاتهامات[١٠١].

ويقول (كومون) في تقريره عن مؤلف (مينورسكي) (سوريا، ١٩٢٢، ص ٢٦٢ - ٢٦٣) إن لدى أهل الحق، كما هو الحال لدى النصيريين والقزلباش، "طقوساً جد قديمة تتعلق بعصور الوثنية ما يزالون يحتفظون بها". فلئن كان من شأن هذه السطور التي دوناها هنا أن ترى القارئ كم الحياة الكردية غنية ومتنوعة وانها ما تزال تقدم حقلا واسعا للبحوث، فإننا سنكون سعداء بذلك. وإليكم مثالا في هذا المجال:

في قصة روسية تتعلق بحادثة عسكرية جرت أيام الحرب العالمية الأولى ١٩١٤ - ١٩١٨ على الحدود الإيرانية - التركية، يروى أن فصيلا من القوازق مر بالقرب من مخيم للكرد الرحل. وقد جلب انتباه الضابط، مؤلف الكتاب، وجود خيمة فيها اثار للقدر وسلسلة صدئة علقت بأحد طرفيها قرون معزى، أما الطرف الآخر فيمتد تحت الأثافي[١٠٢]، ووجد حول الخيمة أحجار متفرقة عليها نقوش وإشارات وحروف. وقد أوضح لهم المترجم الأرمني الذي كان يرافق القوزاق، أن هذا المكان يعتبر بمثابة مذبح أو مكان مقدس. ورغم أن هؤلاء الكرد كانوا يدينون بالإسلام، إلا أنهم كانوا غير منفصلين عن الوثنية " ويقدمون القرابين لآلهة غير معروفين". كانت هناك بين تلك الأحجار قرون أصنام نصف محترقة، ولم يكن هناك أحد يسكن تلك الخيمة، إلا أن الجميع كانوا يعتنون بذلك المكان، وكان الناس يأتون إليها أيام الاحتفالات عندما كان كبار الأسرة يقدمون قرابينهم على تلك الأحجار[١٠٣].

---

[١٠١] مينورسكي. زوبعة فوق قزلباش. في مجلة J.A الفرنسية. ١٩٠٤.

[١٠٢] ويطلق عليها (سلسلة البيت) وتلعب دورا لدى الأوسيتيين ايضا وهم (الرخيص) كما ذكر لي المؤرخ (مينورسكي).

[١٠٣] حاجي موكوييف. نحو ضفاف دجلة (باللغة الانكليزية). ص ١١٣.

ثامنا - الأساطير الشعبية الكردية:

إلى جانب التفاصيل التي ذكرناها للمعتقدات الدينية السائدة في المجتمعات الكردية، نعتقد أن من المفيد أيضا أن نبدي بعض الملاحظات بشأن الأساطير المنتشرة من دون تحديد في جميع الأوساط الكردية. ونعرض هنا للمهتمين بالمسائل الفلكلورية الذين يمكن أن لم يطلعوا على هذه المعلومات، بعض المواد التي نشرت باللغة الروسية في نشرة المعهد القفقاسي للتاريخ والأركيولوجي، الجزء الثالث، تفليس عام ١٩٢٥، وهي مقتبسة عن رسالة تحقيقية لـ (جورسين) عن أكراد أذربيجان:

مفاهيم تتعلق بتكون الكون:

يعتقد الكردي أن الشمس امرأة جميلة، ولذلك فهي تبهر الأبصار. أما القمر فرجل[١٠٤]، ولذلك تبدو صورته دميمة مغطاة بالبقع وآثار الجدري. وهناك أسطورة شعبية تقول أن الشمس والقمر كانا مخلوقين شابين، ولأن الفتاة لم تبد استجابة للحب الذي عبر لها عنه الفتى، ولم تقبل المهر المعجل الذي عرضه عليها وردته بجفاء، صاح الفتى العاشق الولهان بوجهها: إذا كان الأمر على هذا المنوال، فلتتحولي إلى كائن لا يتمكن أحد من نيلك والوصول إليك. وهكذا تحولت الفتاة إلى الشمس وانقلب الفتى نفسه، هو الآخر، إلى قمر. وتفسر ظاهرة كسوف الشمس وخسوف القمر، عند الكرد، كعملين تسببهما مخلوقات شريرة ضارة، ولأجل طرد هذه المخلوقات ينبغي إثارة الضجيج، فتطلق العيارات النارية وتدق على الأواني النحاسية. ويفسر الملالي الكسوف والخسوف بأنه غضب إلهي، ولذلك ينبغي إقامة الصلوات. وترتكز السماء على أعمدة هي تحت سلطة النبـي سليمان الذي بإمكانه تدميرها متى شاء. وتتطور السماء في كل قرن ويتغير شكلها مرة. والمجرة طريق ينتهي في مكة، والخط الذي يتفرع عنها يتوجه نحو المدينة. ولكل إنسان كوكب هو كوكب حظه، وعندما يموت يسقط كوكبه من السماء. وعندما يرى الكردي شهابا يخترق كبد السماء، يرفع يده إلى أعلى متوسلا إلى الله بالدعوات، أما النجم المذنب الذي قد يظهر

---

[١٠٤] يراجع بهذا الشأن كتاب (ياكوب)تحت عنوان"تأثير الشرق في الغرب" (باللغة الألمانية). ص ١.

في السماء، فإنه يدل على أن طامة كبرى على وشك الوقوع. ويطلق على (قوس قزح) اسم "زنار أم فاطمة". وكبعض الشعوب الأخرى، يعتقد الكرد أن الرجل إذا مر تحت قوس قزح ينقلب إلى امرأة والمرأة تنقلب إلى رجل. إن الجزء الأخير من طيف الشمس ينبئ بالسعادة والفيض واليسار، أما الأصفر منه فلا يعني لا الخير ولا الشر، بينما يعني الجزء الداكن منه التعاسة. ويصرخ الصغار لدى رؤيتهم قوس قزح: "حمرتي!". والمطر يقسمه الله تعالى بنفسه، فهو الذي يأمر النبي سليمان بإنزال المطر على هذه المنطقة أو تلك. وسليمان بوصفه الرئيس الأعلى للحيوانات والطيور، ينقل الأمر إلى (الرخم) الذي تتبعه جميع الطيور[١٠٥]، فيجمعها حالا ويأمرها قائلا لها: اذهبي واجمعي المياه من المحيط الفلاني او البحر الفلاني، ثم اصعدي واسقي المكان الفلاني بمناقيرك، فتنفذ الطيور أوامر سيدها. والفرق في قطرات المطر من حيث الكبر والصغر يأتي من الفرق في أحجام الطيور. إن البرد والثلج يسقطان على النمط نفسه، والفرق بين حباتهما ناجمة عن الاختلاف في درجات الحرارة، فكلما ارتفعت الطيور إلى أعلى نزلت درجة الحرارة أكثر. ويحدث الرعد والبرق بفعل خيال يجوب أرجاء الفضاء وبيده سوط ناري، فالرعد هو الصوت المنبعث من ضرب السوط، وشرارات السوط هي البرق. وإذا ما أُصيب شخص بصاعقة، يقال إن الله عاقبه بسبب ذنوبه. ولا يجوز إطفاء الحريق الذي تسببه الصواعق، كما لا يصح تناول لحم حيوان أصيب بصاعقة. وفي آخر يوم أربعاء يقع قبل حلول عيد نوروز[١٠٦]، تتوقف المياه في الجداول والأنهار بسبب الانجماد، لأن الطبيعية بكاملها تنام وتنفتح أبواب السماء. وكل من يشهد هذه الظاهرة ويطلب بعض الأماني من الله في تلكم اللحظات، تستجاب دعواته إذا لم يكن قد ارتكب خطأ لدى دعائه. ويفسر زلزال الأرض بأن الأرض تقع على ظهر ثور أحمر، وعندما يُنَّصب الثور أذنيه أو يهز جزءاً من ذيله، يحدث الزلزال الأرضي. ويقول آخرون إن ذبابة تحوم أحيانا حول الثور وتقترب من إحدى عينيه فيطرف الثور بعينه، مما يؤدي إلى

---

[١٠٥] راجع الدراسة المتميزة لـ (ستاسياك) عن طير (كتاكا) المنشورة في مجلة (R.O). القسم الثاني. ص ٣٣ – ١١٧.

[١٠٦] راجع أيضا (مار) "سيرة ميرزا محمد الكرماني ومؤلفه عن المعتقدات والعادات المرتبطة بـ "يوم الأربعاء الأحمر" (باللغة الروسية) في نشرة أكاديمية العلوم لاتحاد الجمهوريات السوفيتية. ١٩٢٧. ص ٥ – ٦ و ٤٦٧ – ٤٧٨.

حدوث الزلزال الأرضي. وإذا صادف واستقرت الذبابة على ظهر الثور أرتج الثور وأدى ذلك إلى فناء العالم!

ونجد في دراسة (جورسين) إشارات إلى بعض الأفكار والتصورات والممارسات السحرية، فهناك مثلا اعتقاد بأن معرفة عدد الأشياء يسلط عليها قوة ما، لذلك يمتنع الكرد عن إحصاء المواشي التي يملكونها خوفا من إصابتها بعيون جيرانهم، ولا يذكرون للسبب نفسه عدد الدواجن التي يملكونها. ولكي يضمنوا الفيض والوفرة في إنتاجهم، لديهم عادة هي إرسال شيء من اللبن عند ظهوره لأول مرة من بقراتهم وأغنامهم إلى جيرانهم الذين لم تدر مواشيهم بعد. وعند إعادة الإناء الذي كان فيه اللبن إلى صاحبه، لا يجوز إعادته فارغا، فيضعون فيه عادة قليلا من الملح أو بيضة واحدة، وإلا فإن اللبن يشح لدى من بعثه لهم في السنة التالية. وعندما يبعث المتبني[١٠٧] لابنه أو لابنته الرز (بلاو) بمناسبة ختانه، يعاد إليه القدر وفيه هدية، أو يرسل إليه مع القدر هدية (قطعة قماش أو بقرة). إن عادة تبادل الهدايا، كما يقول (جورسين)، تعتبر ملازمة للمعتقد الأسطوري الذي يقول أن من يستلم إناء فارغا يكون مهددا في سعادته وملاحقا (بالفراغ) الذي يدخل بيته. إن هذه الفكرة وراء العادة التي تقضي لدى شراء بقرة بأخذ حفنة تراب من الأرض يضعها البائع والمشتري في يديهما ويشد أحدهما على يد الآخر بقوة ويتصافحان ويقول أحدهما للآخر ليعطك الله من فضله. ويباع الحصان مع لجامه وسرجه، وبعكس ذلك لن يكون ذا فائدة للمشتري. وكغيرهم من الشعوب الأخرى، يعتقد الكرد بالخاصية السحرية للدائرة أو يحيطون انفسهم بها. فعندما يريد الكردي أن ينام في مكان معزول وغير معروف، يرسم حول نفسه دائرة ليقي نفسه من الأرواح الشريرة. وإذا ما أضاف إلى الدائرة مادة القار، بأن يرشها على الخط الدائري، فإنه يجعل بذلك رجلى الشيطان الذي يقترب منه تلتصقان بالقار فلا يستطيع حراكا، ويؤدي به ذلك إلى الهلاك. ولمعالجة انحباس المطر، تذهب النساء إلى نبع الماء ويتبادلن هناك رش الماء على وجوههن، وقد يربطن أنفسهن أيضا بمحراث حديدي ويسحبنه إلى النهر ليفلحن ماءه. وبالعكس، ومن أجل إيقاف هطول المطر الذي يتجاوز حد

---

[١٠٧] بالكردية (كرفوه)، وبالأذربيجانية (كيرفا). وبالآثورية الكلدانية (كاريفا).

الحاجة، يؤخذ خيط ويعقد عليه سبع أو تسع مرات، مسمين كل عقدة باسم شخص أقرع، ثم يرمون الخيط في النار قائلين: أشعلنا النار في القرع لتشعل الشمس النار في الارض أيضا. وعلى أصحاب الصلعات القرع الذين تبرق صلعتهم البقاء حاسري الرأس. إن هذه التقاليد المتعلقة بالجفاف والمطر لها نظائر لدى بعض شعوب القفقاس أيضا. كما أن الأوساط الفلاحية الروسية تدين أيضا في مناطق عديدة من روسيا بالصفة الملازمة لخاصية القرع أصحاب الصلعات هذه. وهناك عرف كردي آخر لإيقاف سقوط الأمطار يسمى (كودو) ، أي شجرة القرع، إذ يهيئ عدد من الصبية يتراوح عددهم بين عشر إلى اثنتي عشرة لعبة هي أن يأتوا بقطعة طويلة من الخشب أحد طرفيها أعرض من الآخر، فيلبسوها ثيابا ويجعلوا لها رأساً ويتحولوا بها في المحل وهم يغنون: كودو.. كودو...، ولدى مرورهم على البيوت تعطيهم ربات البيوت بعض الهدايا من الجبن أو القمح، وهي عادة منتشرة في مناطق واسعة من البلاد.

إننا نعرف في الواقع معرفة جيدة أن المدى الواسع لهذه المعتقدات الشعبية لا يساعدنا على التركيز على استنتاج واستنباط مفاهيم سحرية أو دينية معينة، بقدر ما يؤدي بنا إلى أن نلاحظ كيف أن عادات وأفكارا خرافية انتشرت وتعممت في أوساط مختلفة وإلى مديات واسعة. إن الاختلاف في هذه الظاهرة، وغالبها ذو مظهر خرافي، يخفف منه التشابه الموجود في مرحلة التطور الاجتماعي وفي ظروف العيش. ومع ذلك من المفيد أن نتذكر هنا أنه بالنسبة للكرد، كما بالنسبة لسائر المجموعات العرقية التي تعيش في ظروف اجتماعية متماثلة، لا يعود قسم كبير من قواعد السلوك وطرائق العمل السائدة بينهم للدين الذي يدينون به، بل للأساطير والمعتقدات التي نشأت في غالبيتها طبقا لطريقة عيشهم وأعمالهم واهتماماتهم.. الخ. فالمناطق التي تتميز بتشابهات وتماثلات فيما بينها، يمكن العثور لديها على أوجه مشتركة. وكما ذكرنا من قبل، فأن من الممكن أن تظهر شبهات لافتة للأنظار في مناطق وبين مجاميع بشرية مختلفة فيما بينها بفواصل كثيرة نسبياً، يمكن أن نرى بكثرة بين أماكن متباعدة تنفي عادة تصور استعارة العادات والتقاليد بين الناس فيها بعضهم عن بعض، شبهات مما نلاحظه في بيئات أضيق وأكثر محدودية كالتي شاهدناها هنا على الأخص. وهكذا فبين خرافات كرد أذربيجان التي أشار إليها جورسين،

وبين خرافات الآشوريين-الكلدان التي قدمنا نحن تفاصيل عنها، توجد أرضية وأصل مشترك يربطانهم بعقائد المجتمعات البشرية المجاورة.

ان لهذه الملاحظة قيمة كبيرة بالنسبة إلينا، قدر ما لظهور آثار وبقايا عبادة الأشجار والصخور لدى عشائر القفقاس، على سبيل المثال[١٠٨] التي لاحظها لدى الكرد كذلك البروفيسور (درايفر) الذي يقول: "هناك أيضا عدد محدود من العشائر التي تقدس أشجار الغابات، ولها في مواضع خفية من بلادهم، مذابح من قطع الصخور الغليظة القوية الحمراء كالأضرحة العريقة في القدم التي قوامها حجر كبير مسطح وضع فوقه عدد من النصب الحجرية العمودية". ونعتقد أن بإمكاننا أيضا مقارنة الغول العملاق ذي الشكل المرعب الذي تشمئز منه النفوس، ولا يتراءى إلا عند المرض أو عند الموت أو الجنون[١٠٩] بروح شريرة تدعي (آل) وهي التي يتحدث عنها (مار) أو بكائن حي معروف في الجحيم لدى الإيرانيين، وفي الفولكلور القفقاسي كذلك[١١٠]. ويخيل إلينا أيضا أن سكان الأماكن

---

[١٠٨] راجع البحث الممتع لـ (ميسجانينوف) المنشور في مجلة (الشرق الجديد). العدديين ٢٦ – ٢٧ بعنوان (التاريخ وما قبل التاريخ). الصفحات ٢٤٤ – ٢٤٥. أما بشأن الوقائع فراجع المؤلف القديم لـ (بودنشتات) المعنون (شعوب القفقاز) (باللغة الروسية).

([١٠٩]) راجع بحثنا المعنون (بعض الملاحظات عن الكرد. المنشور في مجلة ميركور دى فرانس) عام ١٩٢١.

[١١٠] يراجع بهذا الشأن كتاب (مار) الآنف الذكر. "آل نوع من الشياطين يؤذي المرأة النفساء فينتزع كبدها ويضعها في سلة. فإذا تمكن من عبور الماء وهو حامل السلة التي بداخلها كبد المرأة النفساء، ماتت المرأة". وهذه الروح الشريرة التي يرى (هنرى ماسه) أن لها جذرا تركيا [ولي انا وجهة نظر أخرى بهذا الصدد — ب..ن] امرأة ذات يدين ورجلين نحيلتين ووجه أحمر وأنف أفطس. وهي من الصلصال. ويخشى الأرمن أيضا هذا الكائن الخبيث (يراجع كتاب آرثر كريستنسن المعنون "تحقيق حول الاستشطان الإيراني. ص ٨٥، طبعة ١٩٤١").

أحد هؤلاء الشياطين هو (آل) وهو هيولى خيالية كريهة المنظر تتخذ لها احيانا صورة آدمي. و (آل) خطر وبخاصة للنساء الحوامل اللائي يبقين وحدهن في البيت. في تلكم الأثناء تدخل هذه الهيولي الغرفة التي فيها الامرأة الحامل وتنتزع قلبها وتقتلها هي. وقد صادف أحيانا أن التقى أحد العرافين في أحد الجبال بـ (آل) ودخل وإياه في نزاع وغلبه. فقطع (آل) على نفسه عهداً ان لا يدخل بعد تلك الحادثة دارا فيها كتاب أو مسمار او مقص أو شيء آخر من الأشياء المتعلقة بالعرافين. وبعتقد الناس أن (آل) تتعامل في الأيام الأربعين التي تسبق ولادة المرأة بطريقة جد خطرة. وتلاحظ هذه العقيدة لدى أرمن (آكن) على مشارف الفرات أيضا. (راجع ف. ماكلر في كتابه "أربع مؤتمرات حول أرمينيا. ص ٩٩ – ١٠٠").

المقفرة (بيرولولك) أو (بيره هولك) التي جرى البحث عنها في دراستنا المشار إليها، ربما كانوا من الصنف نفسه من الكائنات من مجموعة (آل). من وجهة النظر اللغوية، إن حرف (هـ) الذي يأتي في بداية الكلمة له تلفظ حلقي مشخص في اللغة الكردية، بينما هو غير معروف في اللغة الفارسية. وإضافة حرفى (ك) و (كى) في نهاية الكلمة، هي من جهة أخرى، من خصائص اللغات القفقاسية، وبعبارة أدق اللغة الأرمنية، بينما هما في اللغات الإيرانية علامتان للتصغير. وإذا كان الأمر كذلك، أفلسنا أمام حقيقة فلولكلورية تسهم في توثيق الروابط الكردية-الإيرانية-القفقاسية[١١١]؟

ليس هنا من تناقض بين ما يقوله (كريستنسن) من أن (آل) ينتزع كبد المرأة وما يقوله (ماكلر) من أنه ينتزع قلبها. فالقول الأول مبني على عقيدة إسلامية مفادها أن الكبد مركز الشجاعة والجرأة. أما الرأي القائل بأنه ينتزع القلب فيحتمل أنه قيل تحت تأثير مسيحي. [أقول: إن الرأي القائل بكون الكبد مركز للشجاعة والجرأة. ليس ذا صلة بالإسلام وإنما هو مجرد رأي شعبي، وهذا الرأي الشعبي موجود بالنسبة للقلب ايضا. أما ما يمكن نسبته إلى الإسلام بهذا الشأن، فهو أهمية القلب، وقد ورد في حديث نبوي: "الا أن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله وإذا فسدت فسد الجسد كله. ألا وهي القلب" – المترجم].

[١١١] في واحد من مؤلفات البروفيسور (ن. مار) بعنوان "مناقشة فرضية جافيتية لغة الأودمورت". طبعة موسكو، ١٩٣١، نجد تحليلا عميقا لكلمة (عنكبوت) ومحصلاتها (الصفحات ٣٣ – ٣٧). ونحن نجد انفسنا مضطرين في هذا المقام للإشارة إلى أن كلمة (بيره هولك Pirehoulk) الكردية المتعلقة بالاستشطان. في الوقت الذي تعطي معنى العنكبوت. تعطي كذلك معنى (العجوز) و (الساحر) أيضا، بير–ها+وو–ك [يجب الانتباه كذلك إلى حذف حرف اللام هنا]. يلفت مار (المصدر نفسه، الملاحظة رقم ٢، ص ٣٤)، انتباهنا أيضا إلى القيمة المكنة لهذه الكلمة للدراسة في موضوع (مؤسسة الأمهات الباكرات) ومنها إلى الجزء الثاني منها إذا أخذت بصورة مستقلة لأن (هه وو – هه وى) تعطي بين الكرد معنى (المرأة المتزوجة زواج متعة أو امرأة الحريم). وتستعمل النسوة الكرديات هذه الكلمة فيما بينهن بمعنى (صديقتي العزيزة) أو (عزيزتي) [لم نسمع قط استعمال هذه الكلمة بهذا المعنى بين النسوة الكرديات، بل على العكس. نجد أحيانا أن المرأة تستعمل هذه الكلمة من باب الاعتراض إزاء تصرفات ابنتها الكبيرة أو شقيقة زوجها أو أي امرأة أخرى تشاركها الحياة في المنزل وتعاملها وكأنها ضرتها – المترجم]. والنساء اللائي لهن معاً زوج واحد. كل واحدة منهن بالنسبة للأخرى (هه وى). يرى ن. مار أن (مؤسسة النساء الباكرات) وهي منظمة جماعية اجتماعية سبقت مجتمع الأسرة (راجع الفصل الأول من ملاحظات "ن.مار" حول "خواجه") ما تزال باقية في بعض الكلمات الجيورجية والأرمنية. (راجع الكتاب آنف الذكر. ص ٥٣ – ٥٤ ورقم ١ في ص ٥٤). ونحن نضيف أن كلمة كردية أخرى تعطي معنى العنكبوت وهي (دابيروشك dapirouchk) (التي أشير إليها في نص مار في هذا المقام) . وهي بمعنى القابلة. وتذكر المرء بالمرأة العجوز.

تاسعا - الثعبان في المعتقدات الكردية:

أتاحت لنا هذه التعليقات أن نرى كيف أن الحياة الدينية لدى الكرد غنية غنى عظيما من حيث المحتوى، حتى أن تحليلا سطحيا يكشف لنا عن جوانب متعددة منها تسهم جميعا في تكوين مجموعة معقدة متخفية تحت غطاء إسلامي.

إنني لا يسعني في هذا المقام إلا مجرد الإشارة إلى الكراس القيم الذي ألفه الكاتب الكردي إسماعيل حقي شاويس عن الأساطير والأمثال الكردية (هەندێ پروپووچی پێشینان و مەتەڵ، بغداد ١٩٣٨)، دون أن اتمكن من التحدث بشيء عن محتوى هذا الكراس. وأنهي أخيرا الفصل المكرس للعقائد الدينية الكردية ببعض الملاحظات عن الثعبان.

إن هذا الحيوان الزاحف يلعب دوراً خاصاً في الطقوس اليزدية (ونرى صورتها في مدخل معبد الشيخ عادي)، وليس بمستبعد أن يمكن اكتشاف آثار دين جد قديم فيه. وفي الحقيقة إذا أخذنا بنظر الاعتبار أن الثعبان مخلوق شيطاني صرف ذو علاقة بآلهة (كتونين) الجهنمية، قادنا ذلك إلى التفكر في الصراع المبني في وقت واحد على الأفكار الدينية والاجتماعية الذي تدور رحاه بين المبادئ اليونانية والآسيوية التي كانت سائدة في آسيا الصغرى بالصورة التي بسطها لنا عدد من المحققين، ومنهم البروفيسور (ف. كين). وبناء على ما يقول هذا الأخير أخضع اليونانيون، شيئا فشيئا، وكحصيلة غريبة لامتزاجهم واختلاطهم بالآسيويين، نظام الآلهة الآسيوي القائم على أساس سيادة الأم المطبق لدى الشعوب التي كانت تقطن آسيا الصغرى، لنظامهم البطرياركي وسلسلة مراتب آلهتهم المبنية على التدرج. وهكذا تبين لنا واحد على الأقل من الجوانب "الدينية الخفية" التي تنفتح أمامنا إذا بحثنا في الأساطير الكردية، والمقصود بها مجموعة من الأساطير المتعلقة بالثعبان، التي نلتقي بها ونحن نتعرف على المجتمعات الأرمنية والكردية والمادية والسيتية. وهكذا ينبغي علينا أن نسترجع بعد (ف. شبيكل[١١٢]) بصراع البطل الأرمني

---

[١١٢] راجع دراسة (إيران القديمة). القسم الثالث. الصفحة ٢٢٧ والتي تليها.

(تيكران) ضد ملك الثعابين الميدي (آزيد هاك - أستياز) الذي غلب على أمره واقتيدت أسرته إلى أرمينيا لتستقر قرب جبال (ماسيس). وقد اهتم (شبيكل) بوجه خاص بالكشف عن التناقضات الموجودة بين تلك الأقوال المنسوبة إلى (موسى خوريناتسي) والحقائق التاريخية. كما يلاحظ أيضا أن كلمة (آزيد هاك) لا يصادف ذكرها في الأرمنية التي لا تعرف غير كلمات (فيشاب) بمعنى الثعبان و (فيشابا زونك) أي أولاد الثعبان. ومن جهة أخرى أن الشبه بأسطورة (آزيد هاك) الإيرانية واضحة، ومنه الشبه في الدور الذي يلعبه البيطار في الروايتين وذكر جبلى (دماوند) و (ماسيس) .. الخ. وأخيرا يرى (سبيكل) أن الملحمة الإيرانية تعكس النزاعات العرقية التي كان شرق إيران مسرحا لها، وأن الأساطير الإيرانية تقدم نفسها على أنها تتمة سعيدة جدا لتلك النزاعات وتتحدث عن نزاعات مشابهة تدور في غربي إيران مع سكان القفقاس المتوحشين والسيتيين (الآلان) فيما بينهم. وبذلك نلتقي من جديد مع هؤلاء الأخيرين. ونعتقد أن من الضروري أن نستذكر هنا، حسب ما رواه (هيرودوت) ، أن السيتيين ينتحلون لأنفسهم أصلا الهيا نصف امرأة ونصف ثعبان، وكان يعيش بالقرب من مصب (بوريسيتين[١١٣]) و(هيراكليس). ويذكر (شبيكل) أيضا أنه يقال بين الأسر الأرمينية النبيلة أنهم من سلالة الملك الميدي للثعابين الذي كان يعيش على مقربة من جبل (ماسيس). وقد ورد ذكر "ملك الميديين الكردي" في (كارنا مك ارد شير بابكان). ودون ان ندخل في الحسبان المعطيات الفولكلورية المتعلقة بموضوع الثعبان التي نجدها في المعتقدات الشعبية الروسية، فهناك رواية ملحمية روسية بصدد (زميي كورينيج) وهو الثعبان الذي كان ينبغي تحضير وجباته الغذائية من لحوم الشباب، فها نحن نتحدث أيضا من جهة عن الأرمن والميديين (الماديين) والسيتيين والكرد من جهة علاقات أساطيرهم فيما بينهم (التي تظل أسطورية لعدم اكتمال معلوماتنا عن الروابط التاريخية في تلك الحقب العريقة في القدم)، في حين أننا نتحقق من جهة أخرى من وجود مسألة فولكلورية لها صلة وثيقة مع الثعبان وتعود للفترة نفسها من موضوع بحثنا. وهذا ما يجب عدم إهماله، وبخاصة إذا ما استذكرنا تفاصيل أخرى منها:

---

[١١٣] شبيكل. المصدر السابق. ص ٢٢٨.

بناء دور الثعابين التي كانت على أكتاف (آزيد هاك) في الأسطورة الشعبية الكردية على أسس العرقية [ينبغي أن نشرح من الناحية اللغوية أسماء الطباخين الثلاثة الواردة في الأسطورة وهم (أرمابيل) و (كرمابيل) و (دورمابيل) الذين كانوا يحافظون على حياة الشباب الذين كانوا يقدمون للثعبان، فمن الملفت للنظر أن الأسماء الثلاثة متماثلة في نهاياتها، مما يدل على أنها تحوي آثاراً تخص على أصل الشعوب]، ودور الثعبان في الروايات وفي ديانة اليزديين الذين ربما كانوا قد حافظوا بإخلاص أشد أكثر من سواهم، واضح على بقايا المعتقدات الوثنية لدى الكرد. وهناك أخيرا قضايا تتعلق بالتحقيق والبحث وأسماء الأماكن، فمثلا تشير الروايات إلى أنه حدد ملجأ الأفاعي في موقع (هورامار[١١٤]) الصغيرة، الواقع في قلب كردستان الوسطى. وربما كان هناك خلط في هذا المقام بين أسطورتين: إحداهما وثنية وهي ما نعيدها نحن إلى مجموعة الأساطير التي أخذناها من قبل بنظر الاعتبار، وأخرى مسيحية ارتبطت بالأسطورة الأولى، إذ يروي أن قديساً باسم (ماري مهو) سحر الثعابين وحصرها في قبو، ثم شيدت كنيسة فوق ذلك القبو باسم هذا القديس. وما تزال الكنيسة قائمة حتى اليوم، وتقوم عائلة كلدانية مسيحية بحراستها، وحيدة، بين الوسط الكردي. وفي كل عام يرى الحارس المسيحي هذا (أبا الثعابين). ويسود الاعتقاد في تلك المنطقة بأنه إذا حرمت تلك العائلة المسيحية من امتياز حراسة القبو الذي حشرت فيه الثعابين، خرجت من القبو وانتشرت في المنطقة.

كذلك يعرف اليهود الجبليون في القفقاز[١١٥] "روح مسكن أوخده هو - مار" النابعة من دين أجدادهم الذي يشبه دين الروس القدماء. وتعيش هذه الروح تحت أرض البيت ولها شكل ثعبان ذي سبعة رؤوس. اما الروح نفسها فهي غير مرئية، وإنما يترك أمر الظهور لأبنائها وتسمح برؤيتهم. وهي تعتبر بمثابة حارس لسلامة العائلة ورفاهها، ولذلك يقدمون لها العسل كتذكار لقيامها بواجبها". وفي الصفحة ١٩٥ من المؤلف نفسه تمثل الصورة

---

[١١٤] لا أستبعد أن يكون المقصود بـ (هورامار) (هورامان) الحالية التي تطلق على منطقة واسعة وعلى مركز المنطقة ايضا - المترجم.

[١١٥] بيهان: المصدر السابق. ص ٢٣٩.

المرقمة ٤٦ "ثعبانا صنع من النحاس والرصاص وتتولى الحماية ضد السرقة واختلاس الأشياء الثمينة المخفية تحتها". وهذه الفكرة قريبة من الفكرة الفولكلورية المعروفة القائلة بأن الثعابين تحرس الكنوز. ولست أعرف لأي شعب من شعوب القفقاس يعزو (بيهان) هذا الشيء[١١٦].

إن هذا الإحصاء السريع يمثل بعض الملامح التي يجب أن نمعن النظر فيها لدى دراستنا للفولكلور الكردي للبحث عن العلامات الدالة على التطور العرقي لهذا الشعب.

ان نطاق هذا البحث واسع جدا. ولنترك جانبا أسطورة (سيكورد) الخاصة بشعوب الشمال، الذي يعتبر قاتل التنين، مع الأخذ بنظر الاعتبار أنه حسب المعتقدات الشعبية الجرمانية التي نجد نظائر لها في الأقاصيص الكردية، يقوم التنين بحراسة الكنوز الخفية (راجع الأساطير الكردية التي دونها "سوسين"). ان الانتصار على كائن وحشي شأنه شأن انتصار (سيكورد) لدى الجرمن، أو انتصار (كاوه) في النطاق الذي يوصف اليوم بكونه إيرانيا، يمكن أن يعكس فكرة تطويع الفلزات لدى البدء باستخراج المعادن من باطن الأرض. ان هذا التفسير يتطابق تماماً مع معنى الانشغالات التكنولوجية في المدرسة (الجافيتية). ونلاحظ أخيرا أنه بالنسبة لـ (مار) أن كلمة (ماد) تفسر في اللغة الروسية حسب الاشتقاق التالي: مد mê - d ↔ ميد mī - d ↔ ماد mă-d مارد mar - d وبالأرمنية mar، وهذه الكلمة الأخيرة ليست إلا (مار) أي الثعبان المعادل لـ (فيشاب) وهو الموضوع الذي عالجه البروفيسور (مار) في مؤلفه المعنون (الفيشابات - LE VICHAP) الذي صدر عام ١٩٣١ (باللغة الروسية) والذي ينورنا فيه عن الآثار المادية التي تؤكد وجود دين مبني على عبادة الأسماك (الثعابين) في أرمينيا.

ومن الغريب أن نلاحظ أيضا، كما لاحظ ذلك الرحالة (جاكوب) في الصفحة ٥٠ من كتابه المعنون "الحقيقة والرؤيا،" أنه "يعتبر الثعبان ذو الرؤوس السبعة مظهرا من مظاهر

---

[١١٦] في منطقة (درسيم) وفي قرية (كيسيتم) بالتحديد. يوجد دين حقيقي مبني على عبادة الثعابين ومظهره عصا لها رأس مدبب في صورة رأس الثعبان. وقد أشار إلى تفاصيل هذا الدين مؤلف كتاب (درسيم وتاريخ كردستان) [باللغةالتركية]. ص ٩٧.

القدسية". وفي أيام ازدهار الحضارة الإغريقية في مصر، نقرأ في سيرة (بلوتن) [117] أن هذا الأخير قال قبل أن يلفظ أنفاسه الأخيرة "أحاول أن أخرج كل ما هو إلهي في لأضيفه إلى كل ما هو إلهي في الكون". وفي هذه اللحظة خرج ثعبان كان قد تخدر من تحت الفراش الذي كان يتمدد فيه (بلوتن) ودخل في حجر في الحائط. ومع أن من الممكن أن يظهر في أغلب الأحيان ثعبان عند وفاة أحد، فان هذه الأسطورة قد اختلقت لترتبط بقصته إحضار إبليس من قبل (بلوتن). إن إبليس الذي كان في حد ذاته إلهاً، يشبه بدون شك الثعبان الذي ترك (بلوتن) لحظة موته. وفي الإسكندرية أيضا يعتقدون باله في صورة ثعبان يعرف بـ (آكاتو دايمون) يشبه دوره دور (هيرميس توت) ، أي دور الكاشف للحقيقة الالهية، وربما هو الشخص الذي تنسبه أساطير (أوستوخيوس) الاسكندراني إلى (بلوتون) بوصفه شيطانا.

وبالنسبة للمؤمنين بألوهية الثعبان، يعتبر (آرسنوتليس) أو الثعبان ذو السحنه الخنثوية (مذكر ومؤنث في آن واحد) رمزا لآدم الثاني أي (ابن الإنسان). وبهذا الصدد نعيد للذاكرة أن الشيطان من وجهة نظر الشيخ عبد القادر الكيلاني "كان يشبه كائنا مُخنّثاً ذا لسان قليل اللطف وسحنة كريهة المنظر وذقن عليه شعرات هنا وهناك"[118]. وكان عبدة الشيطان الناسيون، على ما يقول الاسقف (سان هيبوليت) من القرن الثاني الميلاد، يعبدون الثعبان رمزاً لكلام (لوكوس) الالهي على شجرة الخير والشر، وكانت تراتيلهم تعظم منزلة (آتيس) إله (فرءيزية) الذي أزال خصيتيه ليعود إلى حيث لا رجل ولا امرأة، وإنما هناك فقط خليط جديد يدعى (كاينه كاتزيس)[119]. وكان رمز إله (تراقيا - فريزيه) المسمى (سابا زيوس) أيضا ثعبانا يدعى (دراكون)، ويقال أنه لعب دوار في أسرار الأزلية وفي اللقاء الإلهي لـ (هو ديا كولبن بيوس[120]). وقد خص

---

[117] بلوتن. ج١. منقبل (بريهيم). طبعة بيل ليتي. .ص ٣.

[118] روجيه ليسكو. المصدر السابق. ص ٥٦.

[119] د. مره زوكوفسكي. المصدر السابق. ص ٢٩٥ و ٣١١.

[120] الهة الطب وابن أبولون الذي كان الرومان يسمونه (أسكولاب).

البروفيسور (مار) (سبا زيوس) هذا وعبادته من جانب الأرمن برسالة تحقيقية. ويعتبر هذا الموضوع أيضا نقطة التقاء ممكن بين الأرمن والكرد في مجال المعتقدات.

ويتحدث (ادا)آت اسكنديناڤيا عن ثعابين حكيمة متقية تدعى (وانير) كانت تقطن جنوبي الوطن الأصلي للآسيين، أي السحرة السينيين الذين كثروا هناك فتركوه (هيرودوت ملبومن، ٦٧). وكانت الثعابين تلتف حول العصا الطائرة لـ (مركور) التي كانت تدعى (كادوسه)، وكانت هذه عصا يتفاءلون بها. وكان الثعبان رمزا أيضا لآلهة الشفاء والإعجاز (آسلكه بيوس) [١٢١].

وكانت الكائنات الأسطورية لرؤساء الحكومة الروحية أيضا في شكل ثعابين. وقد صور (تريبتولم) [١٢٢]وهو رمز ثلاث جمعيات رئيسية للقساوسة في العهد القديم، على ظهر عربة تجرها الثعابين.

وقد أخفى دميتري[١٢٣] برسفون[١٢٤] في قبو وأوصى الثعابين بحراسته حراسة قوية، إلا أن (زيوس) اتخذ لنفسه صورة تنّين طائر وضلّل الحراس ودخل القبو وجامع ابنته، وولد من هذا الجماع ولد كان له راس ثور وقرنان وهو الذي يسمى (اللونيس زاكره اوس).

وهكذا تتداخل رمزية الثعبان مع رمزية الثور. وبهذا الخصوص نعيد إلى الأذهان انه رسم على قطع حجرية في شكل أسماك، وهي ما ترمز إلى (الفيشابات)، ضمن ما رسم عليها، جلد الثور ورأسه أيضا.

---

[١٢١] المصدر السابق، ص ٤٨٥ – ٤٨٦.

[١٢٢] ملك (الوزي) الذي تعلم حراثة الأرض وزراعتها من ديميتري وعلمها سكان (آتيك) في اليونان – عن الترجمة الفارسية.

[١٢٣] آلهة الزراعة في الأساطير اليونانية القديمة ورمز الأرض ووالدة (برسفون) . وكان الرومان يسمونها (سيروس) – عن الترجمة الفارسية.

[١٢٤] ملكة الجحيم وابنه ديميتري وزيوس التي يسميها الرومان (بروزربين) -- عن الترجمة الفارسية.

عاشراً - عبادة الحمار:

إكمالا لهذا الفصل المكرس للديانة لدى الكرد، أوّد أن أشير في نهايته إلى أنه بناء على ما ذكره لي البروفيسور(برز يلوسكي) شفهيا، هنالك أسباب تجعل المرء يعتقد بالاعتماد عليها بأن عبادة الحمار ترك آثاراً له في المعتقدات الدينية لهذا الشعب. ويذكر البروفيسور المذكور في الصفحة ٢٣٦ من دراسة له بعنوان "مقارنة لغوية وميثولوجية" كتبها تعليقا على كتاب حديث الطبع عن تاريخ الأديان للسيدين ئى. بنفينيست و ل. رينيه وجرى الحديث فيها ضمن مواضيع أخرى عن (فرترا) و (فرد راكنا) ونشرت في (مجلة تاريخ الأديان) الفرنسية، العددين الثاني والثالث، مارس/حزيران ١٩٣٧، ما يلي: "بناء على ما يذكره [الجغرافي اليوناني القديم] سترابون، كان للمقاتلين الكارمانيين اله واحد يسمى (آريز)، ولعدم وجود الخيول لدى هؤلاء، كانوا يقدمون الحمير قرابين لذلك الاله. و (آريز) هو الاسم اليوناني لـ (فردراكنا). وإذا لاحظنا أن تقديس الحمار في جميع أنحاء الشرق أثر من بقايا العقائد العريقة في القدم، وأن من المحتمل أنه كان موجودا قبل أن تأتي الشعوب الهندو - أوروبية إلى إيران، اكتسبت شهادة (سترابون) قيمة إضافية".

وكان (برزيلوسكي) زار معبداً كرديا في قرية (ديراس [بالتركية: قره قوى]) التي تبعد عن ملاطيه بمسافة خمسة عشر كليو مترا، و قد نقشت على أحد جدران هذا المعبد صورة حمار مع صورة أخرى لطائر تصور(برزيلوسكي) أنه الطاووس. ويمكن أن يعتبر المرء أن هذا المعبد يعود لليزديين [ويجب مع ذلك إيجاد تفسير لصورتين أخريين رسمتا في المعبد نفسه لسيف ذي حدين]ويذكرنا برزيلوسكي في هذا المجال باله هندوسي دجال يدعى (كالكي) سيظهر قبل انتهاء العالم مبشراً بدين جديد مخالف للدين المسيحي. وهذا الاله الهندوسي ترسم صورته عادة إلى جانب فرسه أو يرسمونه برأس فرس. ثم يشير (برزيلوسكي)، استنادا إلى قاموس للغة الكردية، إلى عيد يطلق عليه بين الكرد اسم (كرنموت) أي (الحمار الخالد).

لقد وجدت من المفيد أن أشير هنا إلى ملاحظات البروفيسور (برزويلوسكي) التي تضعنا أمام مسألة ملفتة للنظر. بالنسبة لي، وبقدر ما تسنى لي الاطلاع على المعتقدات

الكردية، لم أعثر على أي أثر لعبادة الحمارِ وتقديسه لدى الكرد، بل أن هذا الحيوان ينظر إليه تحت تأثير الأفكار الإسلامية بشيء مِنَ الاستخفاف. كلنا نعلم أن الحمار هو الدابة التي سيستخدمها الدجال الذي ينهض قبل قيام الساعة. (وبين وثائقي الخاصة، قصة تروي أن إحدى العشائر أهلكت كل ما كان لديها من حمير بعد أن سمع ابناؤها من أحد رجال الدين ملعومات عن الدور السيئ الذي سيقدر لهذا الحيوان أن يلعبه). إلا أنني يمكنني أن أضيف إلى المعلومات التي جمعها (برزيلوسكي) اسم مسجد كردي في مدينة (شنو) يطلق عليه اسم (مسجد كرخوران) أي مسجد أكلة الحمار. ومن الممكن أن يكون لهذا الاسم دلالة على فكرة التضحية بهذا الحيوان.

الفصل الثاني عشر

الحياة الروحية لدى الكرد - الأدب الكردي

أولا - التاريخ المادي والتاريخ المعنوي للشعب:

إلى جانب التاريخ المادي المحسوس لشعب ما، هذا التاريخ الذي ينورنا عن ماضيه وما جرى له ويحاول أن يشرح الأحداث التي مرت عليه وأسبابها وعللها، توجد مجموعة وقائع أخرى تصور شخصية هذا الشعب وذاتيته بالصورة التي تنعكس في عقائده الدينية وآدابه، وهي تشكل ذخيرته وثروته الروحية. وهذا ما يسمى بالتاريخ الروحي لهذا الشعب. وتتطور هاتان السلسلتان من الوقائع بصورة متوازية في صيرورة أي شعب، وتمثل كل واحدة منهما قيمة كبرى للباحث الذي يرغب في أن يكون فكرة كاملة عن هذا الشعب ويركز على موضوع دراسته بالقدر الذي يكون ممكنا.

إننا حاولنا في الفصول السابقة أن نشرح جميع العناصر التي تسمح لنا بفهم موقع الشعب الكردي في نطاق التاريخ الملموس لآسيا القديمة. وقد تبين لنا لأسباب جغرافية مختلفة، واجتماعية بصورة خاصة وهي التي صاغت عقليته وطراز تفكيره وبناءه الجسدي والروحي، ان الشعب الكردي لم ينجح حتى اليوم في أن يشيد لنفسه دولة موحدة مستقلة. ولو تحقق له ذلك لأدى إلى تكريس المكانة السياسية لهذا الشعب تاريخيا إلى جانب شعوب أخرى لا يقل عن أي منها في أي شيء، في حين أن تلك الشعوب نجحت ونالت مكانتها الخاصة بها، بينما ظل الشعب الكردي حتى الآن محروما منها. "الأمة المنسية في التاريخ" تلك هي العبارة التي وصف بها البروفيسور (مار) الأمة الكردية، وقد حاول هو أن يثبت في الوقت نفسه كم أن هذا النسيان أمر غير عادل وغير ممكن التبرير. وقد تمكن (مار) مما أراد بصورة مقنعة وبليغة، مستندا بوجه خاص على الدور الذي لعبه الكرد في التطور الثقافي لآسيا القديمة. وهكذا وضع البروفيسور مار التاريخ المعنوي في موازاة التاريخ المادي.

إنني لعلى ثقة من أن القارئ الذي أطلع على الفصل السابق المكرس للدين لدى الكرد، يشاطرني الرأي في تأييد الفكرة التي طرحتها بشأن الأصالة العميقة للشعب الكردي الذي استطاع مع إيمانه بالإسلام، أن يحافظ على، أو ينشئ له قيمه الروحية التي

لا تترك أي شك حول ذاتيته وشخصيته المتميزة تماما عما للآخرين. لقد نجح الشعب الكردي في هذا المجال على الأقل وبصورة جلية في تأكيد مكانته التي تجدر به. وبعد دراستنا للديانة لدى الكرد، يتوجب علينا الآن أن نقدم للقارئ وفق الخطة نفسها التي اتبعناها بشأن الحياة الروحية لديه، بعض الملاحظات بشأن الأدب الكردي لنضيف آخر إسهام في الصورة الإجمالية التي كانت في مخيلتنا لدى بدئنا بكتابة هذا المؤلف.

ثانيا - الفولكلور الكردي الناتج من الأمية:

أول ما يحيّر المرء لدى قيامه بدراسة الأدب الكردي والتحقيق فيه، هو "نضج الفولكور الزائد عن الحد" على حد تعبير البروفيسور (فيلجيفسكى)، الذي يعتبر واحداً من خصائص هذا الأدب. ويعتقد (فيلجيفسكى) أن هذه الغزارة الملفتة للنظر في الفولكلور الكردي تفسر بانتشار الأمية التامة تقريبا بين هذا الشعب وعدم تمكن أبنائه من القراءة والكتابة بلغة الأم (اللغة الكردية). إن هذه الأمية قد تصل في بعض الحالات حد فرضها على أبناء الطائفة بموجب تعاليم دينية، كما هو الحال لدى أبناء الطائفة اليزدية، إذ يعتبر حق القراءة والكتابة، طبقا للتعاليم الدينية لأبناء هذه الطائفة، امتياز محصور بطبقة خاصة منها.

لقد رأينا سابقا عند دراستنا لدور الدين الإسلامي بين الكرد أن المدارس الدينية كانت منتشرة دوما في طول بلاد الكرد وعرضها، وسنضيف في نهاية هذا الكتاب قائمة بالمدارس الدينية التي كانت موجودة في مختلف أنحاء كردستان حسب معلومات تلقيتها من الملا سعيد حوالي العام ١٩١٤. إلا أن هذه المؤسسات الدينية كانت وما تزال مكرسة في معظمها لإعطاء التلاميذ المعلومات الضرورية الخاصة بتطبيق أحكام الدين الإسلامي كالصلاة وتلاوة القرآن والأحكام الشرعية، وكانت لغة التدريس فيها اللغة العربية التي تعتبر بالنسبة للعالم الإسلامي بمثابة اللغة اللاتينية بالنسبة للعالم المسيحي[1]. وكما

---

[1] ليس هذا دقيقا في الواقع. فقد كان في كردستان دوما نوعان من المدارس: النوع الأول، وكان الأقل عددا، يدرس فيه الصبية الذكور القرآن الكريم ومبادئ أولية في القراءة والكتابة باللغة الفارسية في الغالب. وفي بعض المناطق الخاضعة للدولة العثمانية باللغة التركية. والنوع الثاني مدارس تدرس فيها مختلف العلوم الدينية والعربية وغيرها التي درست طوال عهد الحضارة الإسلامية، وغرضها تخريج رجال الدين من أئمة وخطباء وعلماء لإدامة حركة التدريس. وكان التلميذ الذي ينهي

لاحظنا في بعض القصص الشعبية التي أشرنا إليها سابقا، فان الإلمام باللغة العربية، أو على الأقل ببعض الجمل منها مما يتعلق بأصول الدين، يؤهل الشخص ليكون من القراء ذوي الإطلاع الواسع، ولاسيما في التاريخ! لقد اختلطت المدرسة والجامع في التفكير الكردي بعضها ببعض، بحيث أنه خلال الثورات التي اندلعت ضد النظام الكمالي قتل في بعض الحالات بعض المعلمين لأنهم كانوا يدرسون في المدرسة الحكومية وليس في الجامع[٢]. ويبدو أن للكرد في إيران تصورا ذهنيا مشرفا بالنسبة للغتهم أكثر مما لغيرهم من الكرد. ويبدو لنا هذا جليا إذا أخذنا بنظر الاعتبار بعض التصريحات التي أدلى بها كرد مما أشرنا إليها في الفصل العاشر. فقد قال هؤلاء: "إذا اضمحلت اللغة الفارسية فإن بالإمكان إعادة بنائها بالرجوع إلى الكلمات الإيرانية النقية التي هي اللغة الكردية". إن تدريس اللغة الكردية هو وحده الذي يستطيع أن يعطي هذه اللغة المكانة التي تستحقها، وهذا التدريس ما يزال أمرا حديثا حتى يمكننا الحكم على النتائج المتحققة منه. إن التدريس باللغة الكردية لم يتحقق إلا في العراق وأرمينيا السوفيتية[٣] حيث يتمتع الكرد بقدر من الحكم الذاتي الثقافي.

دراسته في النوع الأول من المدارس. يلتحق إذا شاء الاستمرار في دراسته بهذه المدارس التي كانت مستوياتها العلمية تختلف من مدرسة إلى أخرى حسب الموقع الذي تقع فيه المدرسة والمستوى العلمي لمدرسها والإمكانيات الاقتصادية المتوفرة لإعاشة طلبتها من حيث عدد السكان في القرية أو المحلة من المدينة التي تقع فيها المدرسة والآغوات أو شيوخ الدين أو الناس المحسنين الذين ينفقون على الطلبة. أما بخصوص لغة التدريس، فصحيح أن الكتب المدرسية من النوع الأول باللغة العربية، إلا أن التدريس كان وما يزال يجري بلغة كردية سليمة ولكن المصطلحات العلمية المستعملة في التدريس باللغة العربية - المترجم.

(٢) أعتقد أن السبب في ذلك كان سياسيا وليس دينيا حتى في تلك الثورات التي كان يقودها رجال دين. لأن لغة الدراسة كانت تركية، وكان المعلمون ملزمين بأن يحشوا أدمغة التلاميذ بالأفكار المعادية للثورات والحركات القومية الكردية ويسيئوا إلى المشاعر الدينية للجمهور الكردي الذي كانت الأفكار الإسلامية راسخة عميقة الجذور في صفوفه. وأيا كان الموضوع. فإن القضية تمثل جانبا من التخلف الحضاري الذي يعانيه الشعب الكردي في تركيا والذي يعتبر السلطات الحاكمة هناك من عثمانية وكمالية. المسؤول الأول عنها. وعلى كل حال فإن للظروف الاستثنائية أحكامها الخاصة بها لكلا طرفي النزاع في أي حركة ثورية - المترجم.

(٣) وما يزال الأمر بعد هذه السنوات الطويلة التي تبلغ اكثر من نصف قرن كما كان عليه آنئذ - المترجم.

منذ عشر سنوات وحتى اليوم كان عدد المدارس في ·[المنطقة الكردية من] العراق ينحصر في ٢٦ مدرسة ابتدائية ومدرسة متوسطة واحدة، يبلغ مجموع عدد التلاميذ فيها ١ ٤٧١ تلميذا، أي أقل من ٢٪ من مجموع نفوس السكان الكرد ذوي العلاقة، وبخاصة في أولوية السليمانية وكركوك وأربيل[٤]. وكان هناك بضع عشرات من الطلبة الكرد في الكليات العالية بغداد. والكتب المدرسية الكردية لا تتلاءم، كما ينبغي، باستثناء البعض منها، مع واقع وضرورات التعليم. وسوف نعود إلى الموضوع فيما بعد[٥].

لاشك في أن التعليم بلغة الأم يعتبر ضرورة أولية لأي شعب يريد الحفاظ على شخصيته الوطنية ويضمن له إمكانيات مستقبلية متفتحة لازدهاره. ومع ذلك نجد أناساً من أصل كردي لا يرون الظروف ملائمة لتحقيق هذه الرغبة بعد. فلنر ما يكتبه بهذا الصدد الدكتور محمد شكري صكبان[٦]:

---

[٤] على أساس التقسيمات الإدارية التي كانت موجودة حينذاك – المترجم.

[٥] هذا ما كان في الماضي. أما بعد إبرام اتفاقية الحادي عشر من آذار ١٩٧٠ بين الحكومة العراقية والثورة الكردية. فقد جرى التدريس في مدارس محافظات السليمانية واربيل ودهوك باللغة الكردية. وبعد الاتفاقية ولعدة سنوات، كان التدريس يجري كذلك في المدارس الابتدائية والمتوسطة والثانوية ذات الاكثرية الكردية من محافظات كركوك ونينوى وديالى باللغة الكردية. ولكن هذا الإنجاز الحيوي صفي فيما بعد انهيار الاتفاقية وعودة القتال إلى كردستان. ثم تحول الحكم الذاتي إلى هيكل أجوف لا حول له ولا قوة. بل مجرد شكل يستغله النظام العراقي لإغراض دعائية. والواقع أن التدريس باللغة الكردية كان موجودا حتى في العهد الملكي في مدارس محافظتي السليمانية وأربيل الابتدائية وفي أخرى معينة من محافظة كركوك. وبعد ثورة الرابع عشر من تموز ١٩٥٨، جرى توسع كبير في هذا المجال. إلا أن القضية لم تأخذ صفة رسمية وبصورة تشمل مختلف المستويات الدراسية إلا بعد اتفاقية آذار المشار إليها. وهناك اليوم في مناطق كردستان العراق المحررة تعليم جامعي متطور و أربع جامعات في ثلاث محافظات. وهي جامعة (صلاح الدين) في أربيل. و جامعة السليمانية مع جامعة دهوك مع جامعة (كوى) في كويسنجق مع جامعة كركوك في المنطقة غير الخاضعة للادارة الكردستانية – المترجم.

[٦] المسألة الكردية. من مشاكل الأقليات (باللغة الفرنسية). باريس ١٩٣٣. (والدكتور صكبان من أصل كردي استطاع الكماليون شراء ذمته، فألف كتابا يدين فيه مطالبة شعبه بالحرية ويزعم ان الشعب الكردي من أصل طوراني). وكتب عبد الوهاب الأتروشي. أحد عملاء النظام البعثي في العراق. شيئا مماثلاً في جريدة (العراق) الحكومية في أواسط الثمانينات. مقترحاً إلغاء التعليم باللغة الكردية في المدارس الكردية في (منطقة الحكم الذاتي). واستعمال اللغة العربية بدلاً عنها – المترجم).

" كنت أنا أيضا قد أكدت في الرسالة التي نشرتها في القاهرة في العام ١٩٢٣ على ضرورة الاعتراف بموضوع استخدام اللغة الكردية للتعليم في المدارس. وكانت هذه القضية بالنسبة لنا جميعا هدفا وحلما حتى السنوات الأخيرة".

" لنتحدث بصراحة! لماذا هذا الخوف من الاندماج بالغير؟ ان حالة الضعفاء الذين ذابوا في الأقوى منهم، كانت حالة جيدة في كل عصر وزمان، المهم أن لا يحدث اللجوء تجاههم إلى العنف".

"منذ توقيع الهدنة في السليمانية في العراق، ولحد الآن، أي منذ ما يقارب ثماني سنوات، واللغة الكردية لغة تعليم في جميع أرجاء المقاطعة. إن النتائج التي تحققت في هذا المجال هي لا شيء".

"ماذا سيدرس هؤلاء الذين يحملون شهادة السادس الابتدائي بعد أن أكملوا دراستهم الابتدائية؟ لا شيء!.. باستثناء الكتب المدرسية لم تنشرحتى اليوم اكثر من عشرة او اثني عشر كراسا وكتابا وبصعوبة بالغة. وينبغي الاعتراف بأن لا فائدة عملية تنتظر من تلكم الكراسات والكتب.. إذ لا يوجد اي تقدم في الثقافة. وإذا روعيت اللغة الكردية ومنذ الآن وحتى قرن من الزمان، فلن يكون ذلك كافيا للوصول إلى مستوى "الدول المتمدنة".

"يبدو أن الشعب الكردي يفضل أن يكون محكوما من قبل أجيال غابرة لم تترك بعدها أي تركة جيدة. يجب أن نعترف بشرف بأن اعتقادنا بضرورة تعليم الشعب الكردي بلغته الخاصة به لا يقف على قدميه. وفي النتيجة، فإن التعصب الشعبي حول هذا الموضوع فشل وليس له أي مسوغ. إنني ادعوا اخوتي في الدم أبناء الكرد في تركيا إلى السير على هدى النهج الذي رسمه لهم قائدهم المعروف مصطفى كمال باشا. إن السفينة التي ربانها هذا القائد الشهم ترشدهم وتوصلهم على أحسن ما يكون إلى حيث يجدون لهم الصفاء الروحي والاستقرار المادي"!

ولكن كل ما سبق أن ذكرناه في الفصول المكرسة من هذا الكتاب للحركة الوطنية الكردية، يجعلنا نعتقد أن الشعب الكردي لن يعير أذنا صاغية لمواعظ هذا المبشر اللاوطني...

أما في أرمينيا السوفيتية، فإن الوضع الدراسي للكرد يتجلى كما يلي: هناك للسكان الكرد الذين يقل عددهم ثماني مرات على وجه العموم من الكرد في العراق، ٤١ مدرسة ابتدائية يتعلم فيها ٤١٩ ١ تلميذا، أي ما يوازي عدد التلامذة الكرد في العراق تقريبا. وهناك مدرسة متوسطة ذات سبعة صفوف ومعهد كردي لدار المعلمين في يريفان كان عدد الطلاب فيه ١٦١ طالبا في العام ١٩٣٤. إن عدد الكراريس والكتب الكردية الصادرة في الجمهورية أكثر بكثير من أمثالها في العراق، وقد تجاوز عدد الكتب المنتشرة حتى الآن المائة بكثير.

ولأن الكردي محروم من إمكانية الدراسة بلغته القومية، فهو لا يستطيع أن يكتب بلغته الكردية. ولذلك فإنه مظلوم في هذا المجال بالمقارنة مع جيرانه الترك والفرس والعرب. ومن هنا نجده مضطراً لينكب على الأدب الشفهي الفلكلوري. والحق أنه أرانا في هذا المضمار البرهان القوي الساطع على تعلقه الشديد بلغة الأم.

لذا، فإن أي دراسة وتحقيق في الأدب الكردي ينبغي أن يكون قبل كل شيء وعلى وجه الخصوص لفلكلور هذا الشعب الذي يقتات ليس فقط بالإسهامات البالغة الغنى للأجيال الماضية، بل انه يحمل في ذاته اليوم أيضا قوة حيوية وطاقة خلاقة تحير الألباب، وهذه القوة والطاقة في تجدد مستمر، بل إنه يضيف إلى غناها وازدهارها المزيد، باقتباس المواضيع الفولكلورية من الأمم الجادة ويصهرها في بوتقته الكردية.

ويعتقد (فيلجيفسكي) ان ظاهرة النضج الشديد للفلكلور الكردي تفسر بالصفة الطبقية التي تميز هذا الابداع الشفهي الشعبي الذي تنعكس في توجهاته واهتماماته وأسلوبه الطبقة العليا في المجتمع الكردي. وإذا سلمنا بهذا الرأي، كان الفلكلور الكردي أداة استخدمها الإقطاع للتأثير على عامة الناس والشغيلة الكرد من رعاة وزرّاع. إنني لا أنكر أن الفكرة الرئيسية في قدر غير قليل من القصائد الفولكلورية الكردية تتركز حول تبجيل الآغوات والشيوخ المقاتلين وحاشيتهم، وأقبل أيضا ان اللغة المستخدمة في نظم هذه النتاجات هي لغة الطبقة الأرقى ثقافة الموشحة بالكلمات العربية أو الفارسية، إلا أنني أعتقد أيضا أنه على وجه العموم ينصب تحليل زميلي ليس على مجموع الفلكلور الكردي

بل على بعض أصناف منه، وأن (فيلجيفسكي) إنما أبدى وجهة نظره هذه لمحدودية المواد التي كانت تحت يده وبنى حكمه عليها فقط. كما يجب أن لا ننسى أيضا، وقد أشرنا إلى هذا من قبل في الفصل التاسع من هذا الكتاب، أن الحياة الكردية امتزجت خلال قرون عديدة بالبنية الإقطاعية، وكان النظام الإقطاعي بالتحديد، باعتراف (فيلجيفسكي) نفسه، هو الذي مكن كردستان من أن تظل محتفظة بخصائصها الوطنية المتميزة. وبكلام آخر، عندما كان شاعر غنائي جوال يتغنى بمآثر شخص مثل (يزدان شير) أو (عبد الرحمن باشا بابان)، فانه كان يقص في الوقت نفسه الصراع الذي كان يخوضه هؤلاء باسم الكرد ضد الأجانب، ويعيد إلى ذاكرة شعبه تمسكه بمطالبه الوطنية. وبالنسبة إلى الأسلوب أيضا، ينبغي في رأيي، أن نقوم بدراسة وتحقيق أعمق حتى نستطيع القول بكل تأكيد أن هناك اختلافا واضحا بين أسلوب الطبقة المسيطرة وأسلوب الجماهير الشعبية أولا؟ ومن الصعوبة بمكان إبداء وجهة نظر بهذا الصدد في الوقت الراهن، بل إن لدينا اليوم انطباعا بأن أسلوب الطبقة السائدة وأسلوب الجماهير الشعبية لا يختلفان عن بعضهما إلا قليلا. والفروق التي يمكن تشخيصها بين الأسلوبين تعود في الواقع إلى اختلاف اللهجات، وتسرب بعض مفردات اللغات المجاورة للغة هذه دون الأخرى. ويمكن تفسير وجود الكلمات العربية في لغة طبقة دون الثانية بصورة سهلة بأنه نتيجة رغبة بعض الشعراء الغنائيين في توشيح قصائدهم وإبرازها بين الناس على أنها أفضل وأرقى منزلة، لأن العربية لغة الرسول والدين الإسلامي والنبلاء الكرد الذين كان البعض منهم يختلق لأسرته أنسابا عربية. وبجانب هذا، علينا القول كذلك أن الفلكلور الكردي بالغ الغنى من حيث تنوع مواضيعه، وفيه إلى جانب الأشعار والأغاني التي تأثرت، كثيرا كان ذلك أو قليلا، بالصيغ والتراكيب البيانية، قصائد تلقائية مبتكرة كثيرة صادرة عن قرائح شعبية صميمية متوقدة بعيدة عن التصنع والتكلف، نابعة كل منها خلال أو بعيد الحادثة التي نظمت بشأنها.

وضمن هذا السياق، لا يمكننا أن لا نستذكر ما قاله (بيدييه): من أن أكثر الأعمال الأدبية الشعبية الأصيلة بروزا هي الأشعار الغنائية التي تحتفظ أكثر من غيرها بخصائصها الأصيلة والتي هي أقل تأثرا من غيرها بالمواضيع والأفكار الأجنبية. لذلك إذا تقرر إعادة

قواعد اللغة التطبيقية إلى مكانها الطبيعي، أمكن استخدام هذه الأشعار كأحسن دليل وشاهد لهذا العمل.

أ – لاوك، من الأشعار الغنائية الكردية:

ولهذا السبب نود أن ندرج هنا وقبل كل شيء بعضا من (اللاوك) الكردي. واللاوك أشعار غنائية قصيرة، وهي في رأينا أفضل مثال لفهم قوة الفن الشعري الكردي وأسلوبه. ويجري الحديث في (اللاوك) أحيانا عن الأماني والأحلام التي يتبادلها العاشقان فيما بينهما عندما يفترقان عن بعضها، كما هو وارد في الأبيات التالية:

(١)

ها قد حلّ الربيع
وحان الوقت للخروج من المنزل
الجو في منزل حبيبتـي حار
وقد اجتاحته البراغيث
نهدا حبيبتـي كانا
إلى ما قبل عام وعامين ما يزالان صغيرين
أما الآن، فبالإمكان
أن يعضّهما الفتى ....
هاى لي لي .. هاى لي.. لي..[٧]

[٧] هذه الترجيعات التي تتكرر بين مقاطع الأبيات لا تعني في الأغلب شيئا. أو تعني "جميلتي" أو "حبيبتي" وهي تشبه الترجيعات التي تتخلل الأغاني الشعبية الروسية التي نجد فيها جملا مثل "آي لولي. اوى ديد لادو.." وغير ذلك.

أنا واقف أمام النافذة،

فتعالي أنت أمام النافذة

لنعقد عهداً فيما بيننا

أنت على قرطك

وأنا على خنجري

تعالي لأضع يدي على جيدك الذهبي

لتبتعد عنا عيون الشيطان ونفاق المفّرقين

هاى لي لي .. أي لي لي دلال..

أمتعتنا المنزلية محمولة على ظهور الدواب

تنقل إلى مخيم صيفي على مرج أخضر

ضفيرتاها الحنائيتان اللامعتان

تتدلّيان حتى منتصف قوامها الممشوق

إني أضع رأسي تحت قدميها.

حذار، يا حبيبتي، أن تعقدي خطوبتك

على ذلك اليتيم[٨] الواهن المعلول

عليّ في هذه المرة أن أغرز أصابعي في عين القدر

واى لي لي .. واى لي لي .. آي لي دلال..

---

(٨) يقصد بكلمة (اليتيم) في هذا المقال، الشاب الصغير القليل الشأن. وتستعمل في المحادثات أيضا بقصد الاستخفاف - المترجم.

تعالي .. لا تذهبي .. لا تنسيني.
أنقشي اسمي على الخاتم الذي في أصبعك
أى لو لاوكو .. دلال..

عندما تسافرين إلى ديار الغربة
خفضي رأسك ثلاث مرات في اليوم
كما يفعل القضاة ﴿ الشرعيون ﴾
واقرأي اسمي ﴿المنقوش على خاتمك﴾
وای لي لي .. وای لي لي .. آی لي .. دلال .

لا تحزني .. ولا يصبك الهزال ..
إني أريد أن يظل خط ظهر حبيبتي مستقيما
آه .. يا حبيبتي .. إني لست آسفا على أنك من أسرة فقيرة
ولكن أسفي الشديد من أن يغدو يتيم واهن، زوجاً لك
وای لي لي .. وای لي لي .. وای لي لي .. ياجوهرة!

لا تحزني، فالحزن شيء سيئ
وفي مكان الأزهار ينبغي أن تنبت الأزهار..
دلى لى .. دلالي..

إني أضع يدي على الكلام القديم[٩]
أنت السفود.. وأنا الشواء..
واى لي لي .. واى لي لي ..

وقد يصف (اللاوك) صداما مسلّحا بين عشيرتين:

(٢)

أولو .. أيها الرجال .. لقد اندلع القتال في (كيلا مانو[١٠]) على التلال
صوت بندقية الكافر[١١] (بشار) يسمع في (بوتان)
لقد أقسم الكافر بشار بالطلاق ثلاثاً[١٢]، قائلا:
لن أضع إحدى قدميَّ قبل الأخرى
حتى يأتيني العون من الأصدقاء الـ (جار ماليان[١٣])
ذوي القلانس السوداء..

أولو .. يا أبا الضاربين بالمدق ورجل المعامع!
إن لعون (فيلى كيلو[١٤]) ثقله
إنه كهجوم الهراطقة..
صرخات بعد الضربات .. إنها حرب الرجال..

---

[٩] يقصد: إني اقسم بالقرآن الكريم واضعاً يدي عليه – المترجم.

[١٠] هكذا في الأصل Kela Mamu – المترجم.

[١١] يقصد بالكافر الشخص عديم الشفقة والرحمة – المترجم.

[١٢] القسم بالطلاق عادة سيئة شائعة بين الكرد عند تعكر المزاج.

[١٣] اسم عشيرة حليفة للمقاتلين الذين يغنون هذه الأغنية.

[١٤] هكذا في الأصل Feli Kelo ولعلها (فله قلا) أي قلعة النصارى – المترجم.

صليل السيوف، ودوي اطلاقات (ماوزر) و (آينالى[١٥])

ايهٔ .. أيهاالفتيان..

ابذلوا ما وسعكم الجهد

لاتتركوا ساحة الوغى

حقا،هنالك أيضا الفرار

ولكن الفرار من شيم العجائز ..

ستكون المعركة قاسية عند المساء..

أولو .. أيها الرجال، لقد اندلعت المعركة في (كيلامانو)

في البساتين..

إن دوي بندقية الكافر بشار

يسمع الآن في عشيرة (خران)

لقد أقسم الكافر بشار بالطلاق مرات ثلاثا:

لن أقدم رجلا على أخرى حتى يصلني العون من (جار ماليان)،

من صديقي شيخ همزو

وهكذا نرى أن أساليب الفن الشعري الكردي ليست متنوعة كثيرا، وهو يفتقر إلى تنوع الصور. وبغية إعطائه وقعا حسنا في أذن السامع، يعاد تكرار بعض الجمل فيهن وينبعث بذلك باستمرار نفحات من النشاط والعاطفة والرقة. وإليكم على سبيل المثال هذه القطعة الشعرية:

---

[١٥] ما وزر وآينالي: نوعان من البنادق القديمة - المترجم.

(٣)

أوه، يا حلوتي إني أريد الذهاب إلى تلك المناطق المنخفضة

صوب السهول.

أريد ان أسافر بفأل حسن وأعود سليماً معافى

آه .. يا حبيبتــي، فوّضي إلى جيدك الذهبي لأتجول في أرجائه

قبل أن أفطر من صيامي، أنا الفقير عبد الله المسكين

آه .. يا جميلتــي، ها أنت مع أقراطك المسلسلة

وحفنات مسكوكاتك الذهبية

التــي تتدلّى مع عذارك الطويل

على جبينك الناصع البياض

لنتفق فيما بيننا:

طالما أنت على قيد الحياة

لا تتخلّين عن هذه الحلى الراقية

السفر مع مطلع الفجر،كشاب جميل، بقلب مطمئن

كما لو كنا أربعة نسير معا ..

آه .. يا حلوتي .. انهضي وأنعمي على بقبلتين

من كل وجنة من وجنتيك قبلة

ما يزال قيام الساعة بعيدا عنا

إذا، لماذا الموت المبكر؟

حبيبتــي .. أنت تنهضين من النوم مبكرة

صوت حبيبتــي يبلغ مسامعي من النبع

ومن خلف ظهرها تنبعث رائحة القافلة والدار صيني والكافور

ما يزال قيام الساعة بعيدا عنا

إذا متنا لن يتذكروا (الذنوب التــي اقترفناها معا)

وهذه قطعة أخرى تتعلق بذكريات المعارك أيضا:

(٤)

أنظر إلى مرتفع (برنوه) الأجرد العاري كألواح الحجر

أنظر إلى والد (صلحيه[١٦])

يمتطي حصانا عربيا بسرجه ولجامه وحزام صدره

مسلحا من قمة رأسه حتى أخمص قدميه

وها هو جلال الدين يوجه صرخة إلى (فقى عبيد):

هلم، فقد حانت الساعة

إنها لحظة حرجة

حافظ على رباطة جاشك بوجه (عثمانكي زورو)

لا تطمئن إليه، فهو ليس كوالده رجلا يؤتمن جانبه.

المرتفع غارق في الضباب

أصخ السمع. ها هو أزيز طلقات (آينلي)

على كتف الأخ عثمان قاتل الرجال

هناك في سفح المرتفع بركة ماء

أنظر إلى الممر المفتوح للفرار، يقع في تلك البقعة الأمامية

لقد حان الوقت ليصلنا الإمداد من عشيرة (كايدايى)

لقد امتطى والد (صلحية) حصانه العربي

أما (ويسه) فقد امتطى (ميرى)

إنهما معا سوية

دهويى .. دهويى..

---

[١٦] اسم فتاة.

ويلاحظ أن الجياد الذائعة الصيت في العشيرة تتقاسم الشهرة مع أصحابها. ولدى قطعة أخرى من اللاوك أخرجت في صورة محادثة تشجيعية بين متحابين تحث فيها المحبوبة محبها على القتال:

أوه .. يا حبيبي .. يا عاشقي الوسيم، إني أقول لك:

ها قد وصل ثلاثون فارسا من قرى (نوهو) و (ديره زور)

لا أعراف من هم

ولكني أعتقد أحدهم هو(بابى حسن) جابي المالية

والفارس الذي وراءه ربما كان (حمى حاجى)

والأبعد منه (بابى أمين) والفارس الشجاع محمد علي

اللذان يعدوان على حصانيهما

ويجيبها حبيبها بالقول:

أوه .. يا (سيدي[١٧]) أقسم بالله

في يوم القتال الدامي الذي ما يزال يجري على تلال (بي شيرى)

وفي سهل (بيله دره) ومراعي (ميمونى)

وقع (بابى أمين) من على ظهر حصانه في حومة الوغى

وخر صريعا على التراب

والملاعين الذين كانوا هناك على جيادهم

كذئاب جائعة في أربعينية الشتاء، في شباط وآذار

بفراطيس دامية، بينما كان رجال الإمداد

من عشيرة (كيكو) يأتون راجلين ويبطيء وصولهم.

إني أقول: إن (سيرته كله) مكان محروق

كما لو أشعلت النيران في أعشابها[١٨]

---

[١٧] هكذا في الأصل: seydi ولعلها في الأصل (سعدية)– المترجم.

انهض واحمل سيفك وشد جيدا مقبضه على يديك

ها هو العون من (خيلى سيران) و (جيزيان)

و (علي أونيس) و (موتكان) ومن أسرة محمد آغا

أوه .. (سيدي) أحلف، دونما تردد، باسم الله:

أن بندقية (بابى أمين) بندقية جيدة

من بنادق (بيكليك)[١٩] التي أشتريت بأموال الخزانة

تطلق في يوم المفاجآت الكبرى مئة طلقة

ولا تذهب واحدة منها هدراً بل تصيب هدفها

بينما بندقية (حمىحاجى) هي (فلنكو)

مصنوعة محليا، وقد أكلها الصدأ.

إني آمل أن يحرق رب البيت نفسه في جهنم.

في يوم القتال الصعب لا تطلق (الفلنكو) هذه طلقة واحدة.

في (سيرته كله) سلسلة جبال

انهض وتنطّق بسيفك وشد حزامك جيدا[٢٠]

وضع بندقيتك على كتفك

العون أشد ما يكون من الشجاعة والشهامة، وعلى وشك الوصول

لم تطلق اطلاقة واحدة سدى

والعون على قدم وساق.

---

(١٨) يقصد أنه مكان ملعون أو متروك كما لو أن مصيبة نكراء أصابته.

(١٩) بندقية حكومية من إنتاج روسي.

(20) حزام جلدى توضع فيه الخراطيش

والتفاصيل الفنية للبندقية التي كشفت لنا عنها القطعة السابقة إنما هي رد فعل لما يوليه الكرد السلاح من أهمية خاصة.

والقطعة التالية تتعلق كتلك بحادث قتال دار بين الكرد والترك:

(٦)

أوه .. أيها الأمير، لقد اندلع القتال خلف المسجد
ان صخب القتال وضجيجه يسمع من هناك
ان رجال (شيخان) يمسكون ببنادقهم الألمانية
ويتوجهون إلى خلف المزار[٢١]
اذهبوا إلى هناك واضربوا حتى الموت أصحاب القبعات الحمر
إننا نقتل العرفاء ورؤساء العرفاء وضباط الصف والملازمين
إننا نحرق قبور آباء البواقين والذين يدقون الطبول
منذ انقضاء عهد علي عمر باشا لم ندفع أي ضريبة لأي حكومة
وليبعثوا لنا بشاعر يشجع المقاتلين

في القطعة الشعرية التي نقلناها آنفا راينا وصفا لإحدى المناوشات التي وقعت بين الكرد والترك بسبب مطالبة السلطات التركية للكرد بدفع الضرائب.

لنترك ميادين القتال التي تعكس النفور والضغائن القديمة بين الشعبين الذين تحدثنا عنهما فيما مضى بالتفصيل، ولنسمع إلى أصوات رقيقة تغني لنا أغاني الحب هذه:

(الاشكيرد) سيد هذه الأقاليم جميعا
قطع الذهب التي تتدلى على الجبهة البيضاء، تنزل مثل برقع
أو لي لي .. يا مسكينتي .. أنهضي وتلطفي علي بقبلة على كل خد

[٢١] يقصد المقبرة.

إنني أعلن: أن سيد هذه الأعالي ذو بأس شديد

هوى لى لى .. هوى ليلى..

في هذه الدنيا إنني عبدك المطيع

وسأكون خادما لجميع أشيائك الجميلة

هوى لو لو .. هوى لو لو ..

(كرى داغ) تحترق وديانه وتلاله

إن قافلة أبي التي تمر من هناك لا تضم إلا الجمال

وهي لا تفتقد لوازمها وزيناتها

إنني طوع أمر قامتك الممشوقة وعينيك الشهلاوين

وجبينك الأبيض وعذارك الأسود

اليي تنزل خيوطه على نهديك الذهبيين

هوى لى لى .. هوى لى لى ..

انما نقرأ بين سطور هذه الأغنية أحاسيس شاعر عاشق معدم يوجهها إلى فتاة فتانة أرقى منه بكثير في المنزلة الاجتماعية. أما في اللاوك التالي، فيحاول الشاعر أن يرسم لنا صورة حبيبته التي فتن بها، ولكنها لا تعيره التفاتا وتغيظه بطيشها وغرورها واستعلائها:

(٨)

أيتها الطائشة! .. اسم طائشيي حلو كالسكر، كالشربة

سلواي الوحيدة ! إنني لن أتركك

بل سآخذك إلى الغرفة التي فوق الباب الحجري الكبير

سأغلق نوافذها المواجهة للمزار

وأضع فمي على شامات جيدك الجميلة

لن أترك طائشتي إلى أن يحل موعد صلاة الظهر

لى أمان .. لى أمان..

رحماك أيتها الطائشة من (نوهو)
التـي طوعت رأسي لها منذ سنة ونيف
رشيقتـي طرية كفسيلة فتية رفيعة، وكثيرة الوعود
شعرات عذارها تنسدل حتى الأرض
سأبعث أحدا على وجه السرعة إلى أسواق (ماردين) أحرقها الله
ليشتري لمجنونتـي التـي تعيش لدى أهلها، زوجا من الحذاء
كل فرد منه بقطعتين من الذهب
حتى إذا ما انتظم عقد حلبة الرقص في قريتنا
ألبسته قدمى حبيبتـي الطائشة
فإذا نزلت طائشي وقوسي الرفيع المحبوب إلى حلبة الرقص
لاحظها الجميع بين الحاضرات ونظروا إليها
لى أمان .. لى أمان ..

وتجيب حبيبته الحسناء:

أوه .. يا عزيزي .. انني لست بطائشة
لست بقصيرة القامة ولا بطويلتها
ها تراني بقلادتي المرجانية
ودبوس صدري المرصع بالذهب، وأقراطي التـي تجلجل
أنا لا أحني هامتـي لفتيان هذه الديار الشجعان
إلا إزاء ثمن جد غال
إما لشاب وسيم مثلك في أوقات العصر
فلن أكون أسيرة النقود
لى .. أمان .. لى .. أمان..

رحماك.. أيتها الحبيبة الطائشة

يا حبيبتــي الغرة لا تقعدي في الشمس

لئلا تغدو وجنتاك الورديتان

حمراوين من أشعة الشمس.

سأبعث أحدا إلى أسواق الموصل

ليصنعوا نطاقا لقد فتاتي الجملية

يزن ستة وستين درهما

حتى إذا ما انتظمت حلبة للرقص في قريتنا

وضعته حول قامة حبيبتــي

لتأتي، وهي ترتديه، إلى الحلبة

ويراها الحضور ويتطلعوا إليها

لى .. أمان .. لى .. أمان.

لابد أن القارئ يتفق معي في ان لهذه القطعة الشعرية تركيبا على قدر كبير من الروعة مع أنها جد بسيطة. ومع أن ناظمها استعان بتصورات جد بسيطة، فقد أنتج مع ذلك عملا شعريا لا يمكن إنكار تأثيره. والقطعة الشعرية الحربية التي أقدم ترجمتها فيما يلي، تستحق كذلك الاهتمام فيما لو تذكرنا ما جرى لجعفر آغا الذي اغتيل في كمين في تبريز (راجع الفصل الرابع من الكتاب). وقد روينا تفاصيل الحادث المؤلم لنصف الشجاعة الكردية. فلنلاحظ كيف يتحدث شاعر غنائي مجهول ممن كانوا حول القتيل:

(٩)

...

أوه .. أيهـــا الآغـــا الفـــتي (الـــذي يعـــيش) في جهريـــق ذي الألـــوان الزاهية[٢٢]

هذا المكان الذي يقع في واد عميق يجري فيه نهر

مرض الطاعون متنشر وآمل أن يدخل عقر دار ولي عهد إيران[٢٣]

لقد بعث رسالة إلى والد (گلزار[٢٤]):

"تعال إليَّ"، في حين أن جعفر آغا كان في السنة الماضية

والتي قبلها، نصف سلطان

وقد بقي العام الماضي في أرض العجم[٢٥]

أوه أيها الآغا الفتي ! أنت مرسى مغروز في الأرض

وشوكة في عيون الأعداء وملك السهول الحقيقي ..

أوه .. أيها الآغا الفتي ! إن السماء مع عرشها السامي تعادياننا

لقد امتطى والد (بوزكو[٢٦]) جواده (ريشان)

ونزع فروة راسه المصنوعة من الصوف

ومعطفه، ليرتدي الزي القاجاري[٢٧]، وعلق على جيده الذهبي

---

[٢٢] يقع محل إقامة آغوات عشيرة (شكاك) في (قلاى جهريق) بين (رومى) و (سلماس) على الحدود الإيرانية – التركية. وفي آذار ١٩١٨، وبعد قتل مطران النساطرة (مارشمعون) من قبل (سمكو) أخي جعفر آغا، هوجمت القلعة ونهبت من قبل النساطرة الجبليين. ان وصف القلعة بـ (ذات الألوان الزاهية) بدلا من (المحروقة) و (المهجورة) إشارة إلى مروج المنطقة الخضراء التي تغطيها الورود البرية ذات الألوان المختلفة.

[٢٣] كان ولي العهد الإيراني القاجاري يحمل دوما لقب الحاكم العام لأذربيجان التي كانت عاصمتها (تبريز) حيث اغتيل جعفر آغا.

[٢٤] گلزار: اسم كريمة جعفر آغا.

[٢٥] يطلق الكرد اسم (العجم) على الفرس. ويقصد الشاعر من هذه الجملة أن جعفر آغا لم يذهب في تينك السنتين الماضيتين إلى مصائفه المألوفة الواقعة على الحدود التركية.

[٢٦] ابن جعفر آغا. عزيز خان. ذو الشعر الذهبي.

حزام خراطيش بندقيته الـ (ماوزر).

آمل أن ينتشر مرض الطاعون في عقر دار ولي عهد إيران

لقد أفرغوا اطلاقتين في جسم والد (بوزكو) وهو ممتط (ريشان)

بينما وضع هو يده ثلاث مرات على غلاف مسدسه ذي الإطلاقات الست

ولكن دونما جدوى، أيها الآغا!

هاى به مه، هاى به مه..

أينبغي أن يحل سوء الحظ كل ثلاثة أيام على العالم[٢٨]

القوة الآتية لامداد والد (بوزكو) ما يزال بعيدا

وما دام قد جرى ما جرى فهي لن تصل أبدا

إنهم في تبريز، دمرها الله، يحتفلون بنكدنا

وقد أبلغوا البشائر إلى سادة كربلاء[٢٩]

هيلا .. أيها الآغا الفتي، يا أبا (بوزكو)،

أيها الفارس الكبير المجرب من بين كل الفرسان!

ان (هيدي[٣٠]) تنتحب وتولول ..

والمسكينة (معتبر[٣١]) تنهض لتضع منديلا على ملابس والد (بوزكو)

لئلا يعلوها الغبار.

مرض الطاعون منتشر، وأتمنى أن يدخل عقر دار ولي عهد إيران

---

[٢٧] يقصد الملابس المدنية الإيرانية.

[٢٨] يقصد أن حياتنا ستكون منذ الآن قصيرة.

[٢٩] كربلاء من الأماكن المقدسة لدى الشيعة، وفيها يجتمع علماؤهم المخالفون للمذهب السني.

[٣٠] زوجة جعفر آغا.

[٣١] زوجته الثانية.

هيـا .. قولـوا للقمـان الحكـيم ليـأت .. فـالجروح عميقـة، ومـا تـزال تنـزف قيحاً.

أوه .. أيها الآغا الفتي ..

يا مرسى الأرض .. ويا شوكة في عيون الأعداء ..

ويا ملك الصحاري ..

هيلا .. من ذاك الآغا الفتي!

إن قلبـي يتلظّى حزنا عليه

(هيدي) تصرخ وتولول.

ومسكينة هي (معتبر).

رباه .. ليدخل الطاعون الذي في (سيران) دار ولي العهد الإيراني !

إنهم افرغوا اطلاقتين في جسد والد (بوزكو) وهو ممتط (ريشان)

كانت تلك اللحظات لحظات مؤلمة ومحزنة

لماذا لم يتبين (تمر خان) و (إسماعيل آغا[٣٢]) في تلكم اللحظات؟

أينبغي أن يحل سوء الحظ كل ثلاثة أيام مرة على العالم؟

إنهم في (تبريز) يقيمون الابتهاجات والأعراس

وقد أبلغوا البشائر إلى سادة كربلاء

وفي (لاوك) آخر مماثل، يأسف ناظمه على إهمال آغا كردي ويمجده في الوقت نفسه. وكان هذا الآغا من منطقة (موش). يدور الحديث هذه المرة حول (عولا بك) بن (ممد باشا سورملي):

---

[٣٢] عم وأخو جعفر آغا.

(١٠)

لو .. أيها الآغا ! قلعة (توريا) قائمة منذ عهد قديم

كان عمر بيك الجركسي[٣٣] أرسل شخصاً

للبحث عن (بطرس المسيحي) ليأتيه بآلته الموسيقية (ساز)

لو .. أوه، يابطرس ! لا تعزف بآلتك،

أوه .. أيها الرجل اللامبالي[٣٤]

خرب الله سهل (موش) بالآفات والأوجاع والأوبئة

بعث عبد الله بيك رجلا إلى عمر بيك الجركسي حاملا معه هذه الرسالة:

"إنك حبست اثنين من رجالي[٣٥] وعليك أن تفكهما"

شهود عبد الله بيك كثيرون[٣٦]

لقد قتل عبد الله بيك عمر بيك الجركسي

كما أهلك كذلك زوجته التي في أذنيها قرطان[٣٧]

ويلاه ! أيها الرجل .. إن الديوان [٣٨] ضيق ودقيق

لا تتحرك فيه أكتاف الرجال الأبطال بيسر[٣٩]

آه .. أيها الرجال !إن لقلعة (توريا) أبراجا

---

(٣٣) القائممقام التركي المقيم في قلعة (توريا)، وهي قرية من أعمال محافظة (موش).

(٣٤) الخطاب موجه إلى عبد الله بيك.

(٣٥) يقصد رجاله المسلحين.

(٣٦) يقصد أن الحادث المبلغ عنه صحيح.

(٣٧) نادرا ما يحدث أن يقتل كردي امرأة.

(٣٨) يقصد ديوان القائم مقام الذي يستقبل فيه الضيوف.

(٣٩) يقصد أن المحارب لا يستطيع منازلة عدوه فيه بسهولة.

وعائشة خان[٤٠] تصرخ قائلة:

"أنت، يا عبد الله بيك رجل ضارب باسل

أذهب ولا تحمل معك سلاحا"

ليت محمد باشا سورملي شهد المكان ممتطيا جواده العربي

عندما ساءت الأمور بالنسبة لعبد الله بيك

يا بؤس حال الرجال اللامبالين

أيها الرجل .. إن قلعة (توربا) سيدة كل القلاع

ينادي عبد الله بيك والدته عائشة خان قائلا:

تعالي هنيهة أمام النافذة وانظري

أنا نقاتل هؤلاء الكلاب بالسكاكين والمدى

هيلا .. أيها الرجل، لقد أقسم عبد الله بيك:

إنه لن يذهب إلى القلعة، ولن يشعل شمعة في مشكاتها

ليت محمد باشا سورملي المتحفظ بقوته القتالية القديمة

شهد المكان في تلكم اللحظات..

عندما ساءت الأمور بالنسبة لعبد الله بيك

هيلا .. أيها الرجل إن الديوان ضيق

لا تتحرك فيه أكتاف الرجال الأبطال بيسر

وكما كان الأمر بالنسبة لجعفر آغا الذي ذهب لزيارة ولي العهد الإيراني إلى تبريز واغتيل هناك غدرا، كان الأمر على المنوال نفسه بالنسبة لعبد الله بيك الذي ذهب إلى قلعة (توربا) ليطالب القائم مقام التركي باطلاق سراح خادميه، فقتل القائم مقام وزوجته دون تردد، إلا أنه فقد أخويه في معركة وقعت وجها لوجه.

---

[٤٠] والدة عبد الله بيك.

وتنتهي القطعة بهذا المقطع:

هيلا.. أيها الرجل ! قامة عبد الله بيك طويلة كشجرة توت
وعندما عاد عبد الله بيك إلى داره،
كانوا يحملون خلفه جنازة أخويه،
وصاح في عائشة خان : "لا تحزني !
لقد سقط أخواي في دوي البنادق
وفي غيمة من دخان البارود.."
هيلا .. أيها الرجل اللامبالي..

وما يعاتب عليه عبد الله بيك في قطعة اللاوك هذه هو ذهابه إلى تنعة القائم مقام ومقاتلته رجاله في مكان ضيق ليست له فيه حرية التحرك، مما أدى إلى فقدان اثنين من أولاد محمد باشا (والد عبد الله بيك). ولو أن القتال اندلع بين الطرفين في مكان فسيح، لكان حظ الكرد في النجاة أوفر.

لنعد مرة أخرى إلى لاوك عاطفي حيث يتنفس المقاتلون الغلاظ الصعداء ويريحون أعصابهم:

(١١)

دلالى .. هي دلالى..
أوه .. يا (أسمر) الحلوة المدللة[٤١]..
عندما أكون إلى جانبك يكون قلبي وروحي في حل عن الميل
إلى كل هذه الثروات الموجودة في الدنيا الفانية
أقسم بالله إني أحبك أكثر مما أحب زوجتي الشرعية
لو .. لو .. لو .. أولئك هم الأصدقاء يأتون مشاة.

---

[٤١] أسمر: اسم الفتاة.

(١٢)

في هذا الصباح أخذت حبيبتـي حوائج المنزل إلى نبع الماء
حلوتي .. أكاد أجن .. أنهضي وناوليني وثاق محزمك[٤٢]
ثم مقبض مسدسي

الجملة الأخيرة من القطعة غير واضحة من حيث الربط الشعري. ويمكن أن يكون الغرض منها أن وثاق المحزم لكونه يشد على ركبة الحبيبة، ربما كان ذا قيمة خاصة. فإذا حول إلى غلاف لمسدس المحب غدا ذا قيمة إضافية أكثر من السابق.

(١٣)

لو، جانى ..لو، جانى ..
ياروحي الصغيرة..
جعل الله روحي فداء لك

(وتجيب الفتاة)

لو، لو، كورو ..
أيها الفتى .. أنت مازلت صغيرا
مازلت نيئا كثمرة لم تنضج بعد
مازلت فاقداً لقوة الادراك
توكّل على الله،
فلعـل زوجـي (جونـدوك[٤٣]) الـذي غـدت شـعراته بـين الـسواد والبياض
ويسكر دائما، يموت

[٤٢] المقصود من المحزم ما يسمى في الكردية (بركبكه Ber KapKe) وهي قطعة من الجلد تشدها المرأة عند الغزل على الركبة لتحول دون أن تبلى قطعة ثوبها التي تغطي الركبة.

[٤٣] في الأصل Choundouk.

آنئذ، ربما أراد الله أن يجعل روحي الطرية

من نصيب روحك

د هو يو، هوى، جانو (دور)

أي لى جانى

هناك في الأعالي، الثلج يسقط على جبل قريتنا

ويسقط في وسط قريتنا شبه الخربة أيضا.

الرجال وكل الناس مولعون بالنعم والثروات الأرضية

أما أنا فعبد فقير لله، وقد وقعت في حب عيون جميلة وقامة هيفاء

د هو يو، هوى، جانو.

ليلاى، ياروحي ! يسقط علينا الثلج الناعم

وقد غطى جبال قريتنا وكون تلالا

قولي لزوجك (جوندوك) لا يمرر يديه على صدرك وجيدك

إنهما مرهونان لشاب هو في الطريق، ولكنه ما يزال بعيد الوصول

د هو يو، هوى، جانو.

ليلاى، يا روحي ! إن قلبي معك

إن ما يعرفه الله عنا، لا يمكن إخفاءه عن أحد

وهو حق لا ريب فيه.

إي لى دلالى !

خوفي من الله في الأعالي، وليس من زوجك الضعيف

د هو يو، هوى،

أنت الفتانة بكل الموازين.

وهناك قطعة أخرى تتعلق بالحرب أيضا. إن نصها الذي سنورده هنا غريب. إنها تتعلق بمعركة نشبت بين الكرد والروس في خريف عام ١٩١٤ على مقربة من مدينة أورومية، وقد أملاها على الملا سعيد بعد مرور سنتين على ذلك الحدث في المدينة نفسها، ونلاحظ فيها سعة أفق الخيال الشعري لدى الكرد وهم يصفون واقعة حربية. وقد حدثني عن تلك الواقعة، أيضا، العسكريون الروس الذين شاركوا فيها:

(١٤)

هاي، واي .. هاي، واي ..
لقد اندلع القتال في (أنهار[٤٤])
بجانب بيادر الحنطة
رأسي فداء لـ (كاكه شمومونتي[٤٥])
على رأس ذلك الكافر الأسود القلب !
انه ينادينا: "احملوا الخراطيش لبندقيتي الماوزر"
كما ينادي رجاله:
"ابدأوا .. أنزلوا بلاء على رؤوس أولئك الكفرة.
يجب أن تدون أسماؤنا مع أسماء صحابة العصور الغابرة"
هاي، واي .. هاي، واي ..

أولا يوجد رجل طيب السريرة يحمل رسالة منا إلى تبريز دمرها الله

[٤٤] قرية تبعد عشر كيلو مترات عن أورومية.

[٤٥] هكذا في الأصل Kake Chemou Mouti.

ويخبر آغانا: "على شرفك أيها الآغا، انهض

وانظر إلى هؤلاء: الفرسان القوزاق الألف وسبعمائة[٤٦]

الذين اختاروا الفرار وولوا هاربين

وإليَّ، أنا، خادمك المطيع الذي يطاردهم"

د هى واى ..

لقد اندلع القتال في (أنهار)، على ارض بائرة

فرسان القوازق، يبلغ عددهم الألف وسبعمائة

أما فرسان الشيخ الوسيم البهي الطلعة[٤٧]

فعددهم يقل عن عشرين بواحد

الشيخ طويل ونحيف[٤٨]، ولديه الكثير من الشهود[٤٩]

لقد طاردوا الألف وسبعمائة فارس قوزاقي

حتى أوروميه، دمرها الله، التي تقع على ضفاف النهر

هى واى .. هى واى .. (دور)

بعد هذه القطعة من اللاوك التي أستطيع أن أشهد على أن فيها شيئا من المبالغة، إليكم قطعة ثانية من الصنف القتالي أيضا، وهي تورد لنا وقائع عن التفنن في القتال المسلح لأخوين هما (بشارى جتو) و (جميل) ، من عشيرة (ميلان) بالقرب من (موش)، الذين قاتلا الترك.

---

[٤٦] موضوع الحديث في الحقيقة إصطدام وقع مع دورية صغيرة من فرسان القوازق أخذهم الكرد على حين غرة وأوقعوهم في كمين. وكان الكرد يفوقون القوازق عدديا عدة مرات.

[٤٧] آية الجمال على ما يرى الكرد أن يكون الشخص طويل القامة ضعيف الجسم متوازنا.

[٤٨] المقصود هو الشيخ محمد بن الشيخ عبد القادر نهري.

[٤٩] يقصد الشاعر أن كل ما يقوله الشيخ صادق صحيح.

(١٥)

د هوى، يوى .. هوى، يوى ..

أيها الأخوة، نحن في حرب

أنا (بشار)، بشار ذو الشعر الذهبي

ليس بوسعي الاستمرار في العيش

في ظل حكومة (سعرد) بقسوتها وفظائعها

وقصورها في أداء واجباتها

عهد علي بجسدي وروحي

أن لا أطلق النار على الجنود البسطاء

إنهم أبناء الوطن[٥٠]

إنني أوجه طلقاتي إلى القائم مقام والرائد والملازم الأول والملازم

أعلن أنني في حالة تمرد في قلعتي المنيعة

حيث أكون كنمر يترصد خلف صخرة

د هاى، بيمه، هاى ..

إن البلايا تنزل على العالم كل ثلاثة أيام مرة.

ويصيح جميل بأخيه ثلاث مرات:

بشار، يا أخي، انهض. فعلينا أن نبدي من أنفسنا عملا بطوليا

لتدوي أسماؤنا في العالم كله

د هوى، يوى .. هوى، يوى ..

أيها الأخوة، نحن في حرب.

---

[٥٠] المقصود أنهم مجرد آلة منفذة.

ويصيح جميل بأخيه:

أتعرف، يا أخي، أن الشيخ زار منزلنا في أحد أيام الجمع[٥١]

أمسك جيدا بالـ (آيتلي)، ولا تنزل الـ (ماوزر) من كتفك

لا تطلق النار على الجنود البسطاء

إنهم أبناء الوطن

أنظر .. من ذا الذي علق بحزامه سيفا

مقبضه موشح بالذهب أو الفضة

ابطحه أرضا

هاي بيمه، هاي (دور)

قصر (بشارى جنو) يقع على مقربة من نبع ماء

بشار ينادي جميلا بصوت عال

أنهض، وأطلق رصاصة من الـ (آيتلي)

إني أتعهد للرجال الرجال بجسدي وروحي

مادمت أعيش في هذه الدينا سليما معافي

فلن أتناول لقمة خبز من شخص وضيع

(دور)

وآخر قطعة لاوك أحتفظ بها في مجموعتي، تتعلق على ما يبدو بقصة حب بين رجل مسلم وامرأة مسيحية. في هذا اللاوك، يدور الحديث عن منزل قس يتذكره العاشق المسلم ويتذكر إجراء الطقوس الدينية (أيام الحذر المسيحي) فيه في فصل الشتاء. إلا أن هذه القطعة تفتقد على وجه العموم تلك العاطفة الجياشة التي تتوفر في القطع الشعرية الأخرى. وإضافة إلى ذلك، تعطينا مقارنة الآلام الناجمة عن الحب في هذه القطعة بآلام وجع الاسنان، صورة فجة. ومما ورد في هذه القطعة أنه إذا وافق والدا الحبيبة الحسناء على تزويجها من

---

[٥١] يقصد أنه بارك دارنا.

عاشقها المسلم، فإن الخراج الذي يتألم منه العاشق [يقصد خراج الحب الخائب] لن يؤذيه بعد ذلك أبدا.

هذه النماذج التي قدمناها من اللاوك تكفي لإعطاء فكرة عامة عن مواضيع الأدب الشعبي الكردي وهي الحب والحرب، وهما الظاهرتان النابعتان عن الروح المقدامة لهذا الشعب. وشهادة الفلكلور تأتي لتؤكد للقارئ معلوماته السابقة عن الكرد التي استقاها من الفصول السابقة من هذا الكتاب. ومع هذا، فإن مجموعتي الصغيرة من نصوص اللاوك تفتقد شيئا واحدا وهو أغاني اللاووك المتعلقة بموضوع ترتاح له الروح الغنائية الكردية وأعني به التصوير الشاعري الكردي للطبيعة الخلابة والمراعي الخضراء والمروج الجبلية الزاهية في الجبال صيفا. وربما كان القارئ قد استطاع من قبل التوصل إلى إدراك تعلق الكردي بالمناظر الطبيعية لبلاده بما قدمنا له بعض فقرات من الكتابات الأدبية للكاتب (عربى شمو) من كرد ما وراء القفقاز [في الفصل الثالث من هذا الكتاب] ، ومن القصة المتعلقة بجمال قرية (أوليان) [في الفصل السادس منه][٥٢].

ب – أهمية هذا النوع من الشعر:

في رأيي أن أهمية اللاوك الكردي تكمن في أنه يعلمنا أشياء حول عموم الشعر الشعبي الكردي بصورة أكثر شمولية. يلخص اللاوك الشعر في إطار عرض صور آنية وملاحظات شاعرية سريعة وقصيرة تتضمن عصارة فولكلور هذا الشعب وجوهره. لقد عرضت المواضيع في أشعار اللاوك بصعوبة، فيشار فيها إلى المواضيع نفسها التي نجدها في القصائد الملحمية الكردية المطولة التي تشتمل على مئات الأبيات. والرواية الملحمية ليس لها في أشعار اللاوك حضور منتظم ومنظم، إلا أنه وبسبب من طغيان الجانب الأدبي على الأشعار المحلية الطويلة، تفتقد هذه الأشعار القيمة وطراوة سرعة التأثير اللتين نجدهما في

---

(٥٢) للصعود صوب المراعي الصيفية الجبلية بعد المكوث طويلا خلال الشتاء. من القيمة المعنوية الشيء الكثير لدى الكرد. فغالبا ما تردد الأغاني الشعبية أنين المحبين الذين يضطرهم افتتانهم بحبيباتهم للبقاء في القرية أملا في التمتع بحسنهن وجمالهن. وهم في غاية الخجل من ذلك. في حين أن رفاقهم ارتقوا القمم العالية: "حبيبيتي ! أنت سددت بوجهي طريق الصعود إلى جوله ميرك". روندو. العشائر الكردية (باللغة الفرنسية). ص ٣٠.

اللاوك بالرغم من أنها أكثر إثارة للانتباه وغالبا ما يلاحظ فيها الانحراف عن الموضوع الأصلي وتكرار المكررات. فالميزة الوحيدة للقصائد الملحمية المطولة بالقياس إلى اللاوك هي بناؤها الأفضل. وهذه الميزة تتحقق في الغالب بالإخلال بالنقاء اللغوي والتوسل بالأشكال الواقعة تحت تأثير الشعر الفارسي والتراكيب الكلامية والكنايات والاستعارات. وهذه الملاحظة تؤكد ما سبق أن ذكرنا من أن الأشعار الغنائية المشبعة بالأحاسيس الخالصة لشعب ما تبقى في مأمن من الاستعارة من الأدب الأجنبي، كما يقول (ز. بيديه)، فتقدم لنا موازين يركن إليها لتشخيص الميول الروحية والذوق الشعري والقريحة الشاعرية لأي شعب، وتوفر في الوقت نفسه الأساس المتين لأي دراسة مقارنة.

والآن نحاول نحن أن نجري دراسة وتحقيقا مختصرين في هذا المجال، ولكننا نريد أن نبدي مسبقا هذه الملاحظة، وهي أن ما نقوله نحن اليوم في تعريف اللاوك يمكن أن يغدو بمرور الزمن وفيما إذا كان الموضوع الذي يُطرح اليوم ولأيامنا هذه ملائما لذلك الزمان أيضا، نقطة بدء لعمل أكثر أهمية، ويمكنه أن يتطور إلى شعر ملحمي مفصل يتضمن وقائع متتالية مع شرح وتبسيط للمشاهد وغير ذلك. وفي الحقيقة يمكن تصور الملاحظة التالية، وهي أن الأشعار الملحمية التي تشكل الثروة الشعرية الكردية في العصر الراهن، لم تكن في سالف الأزمان إلا قطعا متناثرة في صورة لاوكات، ثم توحد بعضها مع بعض لتكوّن مجموعة شعرية أو منظومة التحمت فيما بينها بوحدة الموضوع حول بطل واحد.

ولا نخفي أننا قد نكون وقعنا في مزالق في طرحنا فرضيتنا هذه. وهذا يعود من حيث الأساس إلى أسباب تتعلق بتحليل البناء الشعري للمقطوعات موضوعة البحث، ونحن نعلم في الواقع أن في النوع الملحمي من الشعر الكردي الذي درسه بعمق المستشرق الألماني (أوسكار مان) مقطوعات طويلة موضوعها الشرح الهادئ والمفصل للوقائع، ويزيد بعضها عن بعض (من حيث المقاطع - المترجم). والمقطوعات الغنائية التي قد تتخلل فيما بينها تعرف لأول وهلة بقصرها وإثارتها وإيقاعها الأكثر سرعة، بحيث أن (اوسكارمان) نفسه يتساءل عما إذا لم تكن هذه المقطوعات جملا عفوية ضمنها الراوي بإبداع منه النص الملحمي الأصلي، ثم صيغ القسمان داخل السرد الشفهي في صيغة ثابتة على هذا الشكل غير القابل للتغيير. هذا الاعتراض مهم ولا يمكن تجاهله دون إكتراث، وكلنا في الوقت نفسه

يصح لنا التأكيد على صحة الملاحظة التالية وهي ان الشعر الملحمي والفولكلوري الكردي ليس تابعا بأي وجه لقواعد وقوانين شعرية محددة من تلك التي يسير عليها الشعر الفارسي والعربي، إذ يصاغ أي نوع من الأنواع الشعرية في هاتين اللغتين وفق وزن وإيقاع ثابتين، بل على العكس، نجد الإبداع الشعري، والشعبي منه بخاصة وعلى الأقل كما هو شأن اللاوك، بعيدا عن أي شكل من أشكال التقليد للنماذج الشعرية الأجنبية، ويمكننا القول بكل حرية إننا نجد أنفسنا أمام ضرب من الفوضى في الكلام، إلى حد أنه- وكما يرينا (أوسكار مان[٥٣]) الذي رفض، وهو على حق في ذلك، الاعتراض الذي أبداه سلفه (سوسين) من أن الشعر الأدبي الكردي المنظوم تحت تأثير الشعر الأجنبي قد امتزج بالفولكلور الحقيقي - نجد مغني اللاوكات الكردية عندما ينشد شعراً مطولا مع التنغيم، يؤدي كلماته بسرعة وبصورة متلاحقة، لكنه يبدي ويشخص الكلمات ما قبل كلمة القافية الأخيرة ويتوقف برهة عند القوافي ليتلفظها لنا بصورة واضحة وجلية. أما عندما ينشد أشعارا قصيرة في مقطوعة غنائية، فإننا نراه يبطيء في التلفظ بالكلمات ويتوقف على كلمات القوافي على النحو الذي ذكرنا بصدد إنشاد المقطوعات الطويلة، ذلك لأن الشعر الشعبي الكردي ليس ذا علاقة بالوزن بالمعنى الدقيق للكلمة، وإنما يراعي القافية فقط. ففي المنظومة الملحمية الواحدة تتوالى الأشعار الطويلة والقصيرة ولا يلاحظ الوزن فيها بأي شكل على أساس عدد المقاطع الطويلة أو القصيرة بل على أساس عدد المقاطع. وهكذا قد نرى شعرا قصيرا متكونا من سبعة أو ثمانية مقاطع وأحيانا من أحد عشر مقطعا، وشعرا طويلا متكونا من خمسة عشر إلى عشرين مقطعا دون أن يكون بالإمكان وضع قواعد محددة في هذا العدد.

ومع هذه المقدمة يكون من الأسهل تصنيف لاوك واحد أو مجموعة لاوكات في ما يمكن اعتباره موضوعا واحدا في صورة منظومة ملحمية واحدة. يضاف إلى ذلك أننا لا نلاحظ في المنظومة الملحمية تعاقب الأشعار القصيرة والطويلة فقط (في صورة مقطوعات في ثلاثة

[٥٣] أوسكارمان. اللهجة الكردية الموكرية. برلين. ١٩٠٦. ودستور اللغة الكردية واللغة العامية في كردستان الشرقية. برلين ١٩٠٩.

أبيات أو بيتين أو أربعة أبيات في الغالب وعشرة أبيات بصورة نادرة)، بل نلاحظ كذلك المقطوعات النثرية أيضا إلى جانب الأبيات. وللاوكات أحيانا قواف وأحيانا أخرى نجد لها (أدواراً) بصورة مختلفة، كما رأينا ذلك في نماذج اللاوك التي عرضناها مثل (لو،لو، لو) و (هويو، هوى) وغير ذلك مما يقع بين مقطوعات اللاوك.

وبناء على هذا، لا يتصور أن يكون هناك أشكال غير قابل للحل، أو اعتراض مبدئي غير ممكن الرد، في أو على القول بأن للاوك صلة جد قريبة مع الآثار الملحمية، ملحمة يعبر عنها اللاوك بشكل من الأشكال عند إبداعه، بأن يجسد حادثة من الحياة الحربية أو العاطفية ثم يغدو بنفسه أحد العوامل التي تخلق المنظومة الملحمية.

وفي الواقع هناك في تركيب اللاوكات أشعار قصيرة بتسعة أو عشرة مقاطع أو أحد عشر مقطعا، وأخرى طويلة تبلغ مقاطعها ستة عشر أو تسعة عشر مقطعا، وتتجاوز المقطوعات في الغالب أربعة أبيات. ويرى (أوسكار مان) أن هذا من خصائص المقطوعات وهذا ما يجعلها قريبة من (يشتات الآفيستا) التي هي أقدم أنواع الشعر الإيراني، وكذلك من الشعر الشعبي المعاصر في اللغة الفارسية على ما يعرفنا به البروفيسور (زوكوفسكي). وخلاصة القول أن هذه كلها علائم تقرب اللاوكات الغنائية والأشعار الملحمية الأهم من بعضها. إنني لا أبغي من هذه الدراسة استنتاج أن فرضيتي صحيحة تماما، ولكني أظن أنه يحتمل أن يتضمن "مقدمة للإثبات". أما للوصول إلى يقين قطعي، فينبغي أن يكون في متناول أيدينا مجموعة أكمل من مجموعة اللاوك التي لدي لتعطينا إمكانية البدء بدراسة وتحليل أعمق لهذا النوع من الشعر الكردي. وعلى كل حال فان ما ذكرنا يدل على الأهمية البالغة لشرح وتفصيل أنواع الشعر الكردي الشعبي. وحتى إذا كان ما ذكرنا سمة فرعية، فإن له مع ذلك أهمية استدلالية قوية مما يمكّن من إلقاء ضوء جديد على موضوع الذوق الشعري والقريحة الشعرية لدى الكرد.

ج – مقارنة بين اللاوك الكردي والقصيدة العربية:

المسائل التي حاولنا جمعها هنا يمكننا من أن نبدي رأينا في مدى اختلاف اللاوك الكردي عن الأشعار العربية التي من نوعه. أمامنا، على وجه المثال، قصيدة من النوع

الشائع بين العرب قبل الإسلام، أي عندما كانت الخصائص القومية للعرب تتجلى في أنصع صورها الممكنة ولم يكن النفوذ الأجنبي الناشئ عن انتشار الإسلام في العالم ترك آثاره عليها. هذه القصيدة العربية درسها مؤخرا جماعة من العلماء منهم المستشرق البولوني الدكتور (ت. كوفالسكي[٥٤]). على العكس من اللاوك الكردي الذي لا يتبع أي قاعدة لا يمكن تخطيها ولا يلتزم بأي قانون راسخ. تنقسم هذه القصيدة إلى قسمين يتميز أحدهما عن الآخر تماما. القسم الأول، ويدعى (النسيب) يختص بتأوهات الشاعر وبيان شكاواه عندما يتطلع إلى الآثار الباقية وراء قافلة قبلية كانت حبيبته واحدا من أفرادها وهي الآن ولت ورحلت. في هذا القسم من القصيدة يتوجه الشاعر بالحديث إلى رفاقه ويجيبه هؤلاء أحيانا. وفي هذا القسم أيضا يتذكر الشاعر أحيانا مشاهد لفراق حبيبته، فعندما تتوجه القبيلة من جهة إلى أخرى بحثا عن كلأ جديد لأغنامها ترعى منه يرى دوابها وهي تغذ الخطى محملة بالأمتعة والحبيبة ممتطية ظهر بعير تشير إشارات الوداع. في هذه المناسبة يتفرغ الشاعر لوصف جمال حبيبته، وفي تهرب قصير عن الموضوع يبدأ الحديث عن الخمر وملذاته ثم يبدأ بوصف جمله أو حصانه الوفي الذي لم يبق معه أحد سواه ويسليه من كل هذه الهموم والآلام التي اعترته. وهذا الحديث عن النفس يسمح له بفرصة يتذكر فيها أسفاره ورحلاته في الصحراء فيتحدث في شعره عن تلكم الأسفار والرحلات وعن الليالي التي داهمته والسباع التي رآها، ويتذكر عمليات الصيد التي كان يقوم بها. ومع تغييرات طفيفة (مثل ذكر الجواد بدلا عن البعير أو ذكر الغزلان أو النعام أو تدخل او عدم تدخل أصدقائه في شكاواه وبثه همومه وأحزانه)، يكون هذا القسم الضروري والمفروض من القصيدة مشتملا على النقاط الأساسية والمهمة التي أشرنا إليها، وينتهي كما هو المتبع بحديث عن عدم دوام الحب وقلة وفاء النساء أو دخول الشاعر مرحلة الشيخوخة التي أدت إلى افتراقه عن حبيبته. وكيفما كان ذوق الشاعر ومقدرته الفنية في اختيار الصور الشعرية واستعمال الكنايات والاستعارات والقوافي وغير ذلك، فإن القصيدة بكاملها تنظم وفق

---

[٥٤] كتاب كوفالسكي. كراكوف ١٩٣٥.

الوزن العروضي الذي اختير لها من أول بيت منها. وينبغي مراعاة ذلك حتى آخر بيت منها.

أما في القسم الثاني من القصيدة والتي تسمى (القصد) فيبدأ الشاعر بالحديث عن غايته الأصلية من نظمها، وهنا يرخي العنان لأخيلته. تقسم القصائد من حيث الموضوع إلى قصائد المديح والهجاء والرثاء وغير ذلك. وأيا كان موضوع القصيدة، فمن خلال أبياتها نتعرف نحن على حياة القبائل التي تسكن بيوت الشعر وتستوطن البوادي وعلى منازعاتها الداخلية فيما بينها وعلى كرم ضيافتها وشهامتها ونبلها في سنوات القحط والغلاء والمحل وعلى السمعة الحسنة أو السيئة لزعيم هذه القبيلة أو تلك. ونضيف في الختام أن القصيدة ليست بحال من الأحوال مجرد أثر شعري غير معروف، بل نحن واجدون فيها في الغالب تعريفا للشاعر بنفسه وبيانا لأمجاده ومفاخره هو وقبيلته.

بديهي أن القارئ نفسه استطاع حتى الآن التوصل إلى ملاحظة الاختلاف البيّن بين الشعبين العربي والكردي من حيث المراد والإحساس والذوق الشعري. ومع أن كلا النوعين: القصيدة واللاوك، يحتويان على مواضيع متشابهة من قبيل وصف شجاعة الرجال في ساحات الوغى وبيان مشاهد الحياة القبلية وجمال الحبيبة وآلام الفراق وغير ذلك، إلا أنه وفي الوقت الذي يكتفي فيه الكرد في نظم أشعارهم الغنائية بنمط لا يجمعه وزن ولا تنظمه قاعدة، نمط شديد سريع دونما خضوع إلى أي أسلوب أو قانون، فإن العرب، وعلى العكس منهم، يتحدثون وهم يبنون أحاسيسهم بصورة يتجلى فيها التفكير والتأمل ويصيغون كلامهم في إطار كامل التحديد دون أن يتخلوا عن ذلك حتى النهاية، حتى أن القصائد العربية كلها متشابهة فيما بينها ولا فرق بينها إلا من حيث وجوه الاختيار الشكلية لقلة أو كثرة الاستراحة وفروقا طفيفة في التعبير، في حين أن اللاوكات الكردية متحررة من كل

قيود التصنيف ولا يشبه أحدها الآخر إلا من حيث تماثل المواضيع الأصلية، أما في اختيار الشكل والصياغة فلكل منها حرية تامة في الانتقاء[٥٥].

إلى ماذا ينبغي أن نعيد هذا الاختلاف الذي أشرنا إليه آنفا؟ إننا نعتقد أنه باختيارنا عرب البدو لما قبل الإسلام من جهة والكرد القاطنين في بيوت الشعر من جهة أخرى، من أجل المقارنة بين البيان الغنائي العربي لدى الطرفين، نكون قد أخذنا بنظر الاعتبار بيئتين وحالتين روحيتين متساويتين ومتماثلتين لمس اليد في مستوى التطور الاجتماعي. وفي هذه الحالة يتحتّم علينا أن نعيد جمال النظم في الشعر الغنائي العربي مهما كان بدائيا بالقياس إلى الفوضى التامة في الشعر الفولكلوري الكردي إلى سبب آخر غير التساوي في مستوى التطور لدى الشعبين. وفي رأينا، ينبغي البحث عن هذا السبب في التناقض الموجود بين خصائص الشعبين. فالعرب الذين هم من عنصر سامي، رغم أنهم بسبب من خصائصهم البدوية والعشيرية قوم فرديون يبحثون بطبيعتهم عن المنازعات والمشاكل، هذه الصفات الموجودة في الكرد كذلك، إلا أن في طباعهم إحساسا بالنظام والاستقرار وحالة من حسبان الأمور ورعاية القواعد والأصول ينعكس في شعرهم الشعبي، في حين أن الكرد الآريين (أو الآسيويين القدماء) يفتقدون كل هذه الأوجه. إن رعاية الوزن والقافية وقواعد العروض أمر مشهود تماما في الشعر العربي ويسهل قراءته بالتقطيع على أساس التفاعيل، في حين أن أمرا كهذا غير متيسر للشعر الفولكلوري الكردي. بديهي أننا نقصد بالشعر الفولكلوري الكردي البيت أو الشعر الفولكلوري الحقيقي وليس الأشعار الكردية المنظومة على أساس العروض تقليدا للشعر العربي والفارسي. والواقع أن (أوسكار مان) جمع حوالي مائتي قصيدة وغزل للشعراء الكرد، ولكن أولئك الشعراء الدارسين المتربين في المدرسة الإسلامية المتبحّرين في الأدبين العربي والفارسي، ليسوا مدار بحثنا نحن الذين يهمنا هنا ان أمكن، أن نستعرض الشعر الذي أبدعه الذوق الشاعري الكردي الأصيل.

---

[٥٥] ومع هذا يجدر بالذكر أن نقول أن سكان البوادي [العرب – المترجم] أيضا ينظمون أحيانا بحرية [دون تقيد بالأصول والقواعد المتبعة في الشعر العربي – المترجم]. راجع: ت. لورانس. في كتابه (أعمدة الحكمة السبعة. بايو. الصفحتان ١٥٩ و ١٨٧). كما قدم المستعرب الروسي البارون روزن أيضا شرحا مفصلا حول شعر العرب البدو المنظوم دونما التزام.

وكيفما كان هذا الاستعراض للفولكلور الكردي، فإنه يعيدنا إلى الملاحظات التي كنا قد أبديناها في شرح وتفسير العلل والأسباب التي أدت إلى عدم فوز الكرد حتى الآن بدولة كردية قابلة للدوام. إنهم في السياسة، شأنهم في الشعر، لم يستطيعوا أن يتجاوزوا المرحلة القبلية المبنية أساسا على الفردية وعدم الانتظام، ويبدو أن طبيعتهم لا تنسجم بالقدر المطلوب مع الانتظام وقبول التنظيم في أي مرفق من مرافق الحياة.

د - مدرسة المغنين الكرد:

قبل أن ننتقل إلى البحث عن سائر مجالات الأدب الكردي، نرى من المفيد أن نذكر هنا، بمناسبة البحث الذي أوردناه عن الفولكلور الكردي، المعلومات التي يوردها لنا (أوسكار مان) عن المدارس الخاصة بتعليم المغنيّن الكرد أو الشعراء (حسب الاصطلاح العربي الأصل الدائر بين أكراد موكريان). من البديهي أن المراد من الشعراء في هذا المقام هم المغنون النابعون بين سواد عامة الناس الذين يغنون اللاوك بألحانه. وإليكم ما يقوله (أوسكار مان) بهذا الصدد: "يقال أنه إلى جانب المدارس التي يديرها على الأغلب علماء الدين (الملالي)، وعددها ليس بالكثير، كانت هناك أيضا، أو ما تزال باقية حتى اليوم، مدارس أخرى ذات طابع غنائي، مدارس يعلّم فيها معلّموها تلاميذهم الأشعار الفولكلورية والملحمية الكردية. يذهب الفتيان المحظوظون بنعمة الصوت الرخيم الجيد إلى الأستاذ (في اللغة الكردية: ما موستا) ويتلقّون منه الدروس ويحفظون الأشعار من روايته الشفهية ثم يبدأون بادائها منّغمة كما يؤديها هو. وقليل هم الذين يقرأون ويكتبون بين أولئك المغنين الذين تلقوا اختصاصهم على هذا النحو. و (رحمان) هو الآخر - وهو الذي كان دليل (أوسكار مان) في هذا الميدان - كان أميا. وإذا كان التلميذ تلميذا موهوبا فانه لا يكتفي بتلقي دروسه من أستاذ واحد، بل يذهب إلى أستاذ ثان وثالث حسب توجيهات أستاذه الأول. ومن البيّن أن هذه التدريسات لن تكون مجانية، فإزاء الدروس التي يتلقاها التلميذ يقوم بالأعمال المنزلية لأستاذه أو يدفع له أجوراً عينية.

والمجال الذي يمكن أن يستثمر فيه فن الغناء هذا بعد الانتهاء من الدراسة والتعليم المذكورين هو بيوت الوجهاء والآغوات الذين يقضون لياليهم متمتّعين بالاستماع إلى

أغاني المغنّين الذين يتغنون بتلك الأشعار، ولا يضيقون ذرعا بأن يخلعوا على المغني لقاء ذلك ثوبا أو يهدوه شيئا آخر. وفي القرى قد يكتفي المغني حتى بطبق واحد من الرز المطبوخ. وفي معظم المناطق توجد في المدن مقاه يقدم فيها القهواتي الشاي إلى مشتريه المتعاملين معه فقط، وتكون هذه المقاهي مزدحمة دائما بالناس. وأكثر الأشياء إمتاعا في هذه المقاهي هو الاستماع إلى أصوات أولئك المغنين الذين يمكن أن يكونوا موجودين فيها. [وفي هذا المقام يذكر لنا (أوسكار مان) في إحدى مذكراته أن أيام انشغاله مع (رحمان) في ساوجبلاغ (مهاباد اليوم - المترجم) لم تكن بالنسبة إليه أقل من عيد دائم، كان(رحمان) يرد المدينة من القرية يوما واحدا في السنة، وفي الساعات التي يتفرغ فيها من أعماله كان يشرف أحد المقاهي بزيارته إياه. وكان أوسكار مان يجد دائما صعوبة كبيرة في أن يختطف (رحمان) من مشتاقيه الكثر ويأخذه معه إلى منزله للاستفادة منه].

"وتغني الأشعار الفولكلورية بلحن يكون بالنسبة إليه ذا وتيرة واحدة إلى حد كبير[٥٦]". في الأشعار الطويلة يتلفظ المغني بالكلمات المنفصلة عن بعضها بأداء سريع الواحدة تلو الأخرى. أما في الأشعار القصيرة، فيطيلها إلى حد غير قليل تطويلا جد فني ليهيئ نفسه منذ البداية للتوقف على الكلمة الواقعة قبل كلمة القافية الأخيرة في خواتيم المقاطع التي تبدو دائما في صورة كلمة طويلة ثم يخرج حرف الوزن الأخير بصورة غير صائته في نفس أشبه بالذائب، ولكن مع لحن منغم وموسيقى وباهتزاز تام.

إن الذاكرة المعجزة لهؤلاء المغنّين تبدو ذات علاقة وثيقة بأصواتهم. فقد كان (رحمان) وهو يتلو أشعاره لـ(أوسكار مان) لا يستطيع أن يتذكر البيت التالي للبيت الذي يتلوه إن لم يكن يتلوه مغنّى. بديهي أن من الممكن أن يضيف المغنّي من عندياته أشياء إلى الأشعار التي يتغنى بها وهو يتلوها مغناة، ولكن هذه الإضافات أقل مما كان يتصور من قبل.

---

[٥٦] ومع هذا، فإن السواح الأقدمين كثيرا ما أشاروا إلى فن تحرير وتغيير الألحان الجميلة إلى حد كبير. التي كان يؤديها المغنّون الكرد على نحو ما سبق أن ذكرنا في الفصل السادس. أفيكون هذا الفن أيضا في حال الاندثار. شأنه شأن سائر خصائص الشخصية الكرديه؟

ويتبادر إلى الذهن في الوهلة الأولى أن جميع الأشعار (التي يغنيها المغنى) لم تنظم بشكل متناسق. ومع هذا فإن المغني عندما يتغنى بالأشعار لا يضع فوارق بين ألحان الأشعار الحماسية الطويلة مثل (مم وزين) والأشعار ذات الأوزان الرباعية التي تستخدم في الأساطير.

هـ - المجاميع الفولكلورية الكردية:

تحت يدينا في الوقت الراهن عدد من المجاميع الفولكلورية الكردية. لقد اهتم بعد (زابا) القنصل الروسي الذي عني في أواسط القرن التاسع عشر بالدراسة حول اللغة الكردية، كل من (سوسين) و (بريم) في أواخر القرن الماضي. وبعدهما سار على النهج نفسه (ماكاس) و (مان) في أوائل القرن العشرين، فجمعا كثيرا من النصوص الفولكلورية الكردية. وأحسن مجموعة من هذه المجاميع هي مجموعة (أوسكار مان) (النصوص الكردية مع الترجمة الألمانية). والقطعة الأهم في هذه المجموعة هي (صرخة مم وزين) التي تشمل الصفحات ٤٠ - ١٣٥ من المجموعة. وبين القطع الأخرى التي يمكن ذكرها (لاس وخزال) التي تشمل الصفحات ١٣٥ - ١٦٦، و (ناصر ومال مال) التي تشمل الصفحات ١٦٦ - ٢٠٥، و(فرخ وخاتو ستى) التي تشمل الصفحات ٢٢٣ - ٣١٠، و (جولندي) التي تشمل الصفحات ٣٦١ - ٣٨٦ وغيرها. كل هذه الآثار تقدم لنا كنوزا حقيقية من المعلومات حول حياة الشعب الكردي لم يستفد منها حتى الآن لتحصيل معرفة أشمل وأعم بنفسية هذا الشعب وخصائصه إلا بقدر ضئيل. إن مشاهد الصيد والقتال، وصرخات العشاق ولعناتهم، والتنافر المشهود بين سجايا سكان السهول والجبال، والخرافات والمعتقدات التي ليس لها اساس، وشرح مناظر الفيضانات والطوفان والملاحظات المتعلقة بحكم الوحدانية (أدعية الخطاب مع الطيور والأحصنة والثلوج) ومواضيع متنوعة أخرى. كل هذه وسواها يمكننا أن نجدها في هذه النصوص الفولكلورية مما يستحق كل منها اهتمامنا البالغ ويضع تحت تصرفنا قضايا جديرة بالبحث والتأمل فيها.

آخر مجموعة من هذا النوع وأحدثها تاريخيا مجموعة وصلتنا من أرمينيا السوفيتية. صدرت هذه المجموعة في العام ١٩٣٦ في أريفان عن دار النشر الحكومية لجمهورية

أرمينيا الاشتراكية السوفياتية، وقد كتب على غلافها (الأول) مما يمنح المرء أملا في أن يستمر صدور أجزاء أخرى من هذه المجموعة تباعا. طبعت هذه المجموعة بألف نسخة وفي ٦٦٣ صفحة باللغة الكردية دون إضافة أيما ترجمة، وهي مجموعة قيمة تتألف من جميع النصوص الفولكلورية للكرد القاطنين في هذه المنطقة. وقد ذكر مع كل قطعة من هذه المجموعة القيمة ذات الأهمية الخاصة اسم راويها، والمنطقة التي هو منها وعمره، وذكر فيها إضافة إلى كل ذلك ما إذا كان الرواي أميا أو أنه يقرأ ويكتب. وهذه معلومات يقومها عاليا كل محقق فولكلور وكل ذي علاقة به. والواقع أننا لسنا مبالين إزاء أن يعرف ما إذا كان أي من النصوص المروية يستند فقط إلى الروايات الشفهية لأناس أميين مما يضمن أصالة تلك الروايات فقط، أو أنه أحدثت فيه تغييرات ناتجة عن التأثيرات الخارجية فيه بسبب انتقاله إلى أفواه أشخاص يقرأون ويكتبون مما يجعل من الممكن أن تكون صياغته البلاغية وحداثته الأولية تعرضتا للضياع بتحسينات متعمّدة أدخلت عليه. جمعت هذه النصوص من قبل السادة (حاجى جندى) و (أميني عبدال) وحررّها (جاسمى جليل)، والثلاثة أكراد. وجاء في المجموعة أيضا اسم (س. كيراكوزيان) وهو أرمني، ويبدو أن دوره في المجموعة كان عرضها على دار نشر الدولة وضمان عدم وجود مانع سياسي من طبعها ونشرها، إذ لا يسمح بطبع ونشر أي مادة في ظل النظام السوفياتي دون الحصول على موافقة الرقابة.

تنقسم محتويات هذه المجموعة إلى عدة أقسام، يتضمن القسم الأول منها ثلاثين نصا في ٢٦٠ صفحة، يتعلق كلها بموضوع واحد باسم (كر وكلك)[٥٧]، وهو من المنظومات الكبيرة التي نصفها شعر ونصفها الآخر نثر أو كلها شعر، ويشرح أعمال وحركات أخوين يتضمن عنوان النص اسميهما. أما القسم الثاني فيتضمن ثماني منظومات ملحمية إحداها (مم وزين) بثلاث روايات مختلفة. إننا على اطلاع على هذه المنظومة من خلال مجموعتيْ (سوسين) و (أوسكار مان)، وكذلك منظومة (زنبيل فروش) التي أوردها (أوسكار مان) أيضا في مجموعته. وهكذا تتيسّر لنا إمكانية مقابلة ومقارنة متون متماثلة في اللهجات

---

(٥٧) KERR U KYLIK.

الكردية المختلفة. ويثير الانتباه منظومة (ليلى ومجنون) الواردة أيضا ضمن هذه المجموعة حيث أن الإيرانيين أيضا نظموا هذا الموضوع. أما في القسم الثالث فقد دونت أشعارغنائية للصغار والرعاة ويتضمن ٢٧٩ بيتا. واستنادا إلى الأدلة التي أوردتها من قبل بشأن مجموعة اللاوكات الخاصة بي، يمكن أن يكون هذا القسم أدعى الأقسام للدراسة والتحقيق. وفي قسم أقوال (عبدالى زينيك)[٥٨] جمعت عدة أبيات تتألف من إحدى عشرة قطعة من هذه المقولة. وأخيرا يتضمن القسمان الأخيران منظومات وحكايات منها حكاية (زنبيل فروش) بروايتين و (ليلى ومجنون) بثلاث روايات و (قلاى دمدم). إننا مطلعّون على هذا الأخير من خلال مجموعة (أوسكار مان). وكما يلاحظ لا يستند التقسيم المذكور آنفا إلى أي أسلوب أو قاعدة، إلا أن هذا العدد من المواضيع الفولكلورية الكردية يرينا مدى غنى هذا الفولكلور. إن مجموعة آريفان وثائق قيمّة في الشعر الشعبي الكردي.

و – المواضيع الفولكلورية الكردية بالمقارنة مع المواضيع الفولكلورية للشعوب الأخرى:

أتاح لنا وجود قدر كاف من النصوص الشعبية والفولكلورية في متناول أيدي الباحثين، الاستفادة منها لأغراض علم اللغة لدراسة الكلمات واللهجات المختلفة وقواعد اللغة والتراكيب الكلامية وغير ذلك. أما أنا فأحاول هنا أن أتفرغ لتحليل وتفسير بعض من هذه النصوص من الناحية الفولكلورية، للربط بين مواضيعها والمواضيع المعروفة في فولكلور الشعوب الأخرى. أنا لست أدعي أنني أتيت على جميع المواضيع، وهي كثيرة لا يسع المقام لذكرها، فنيّتي المتواضعة تنحصر في أن أعرّف القارئ الكريم بالنصوص التي أطلع عليها اللغويون حتى الآن وليس أكثر من ذلك.

من المواضيع الشائعة بكثرة في الفولكلور، موضوع الكنوز التي أخفاها الشياطين ويعثر عليها الأبطال. يقتضي التفسير العالمي لهذا الموضوع تشبيه الكواكب والنجوم بالمعادن الثمينة، فتخطف الأرواح المظلمة النور الذي يسطع من تلك الكواكب والنجوم

---

[٤٩] افا ناسييف: نظرات السلافيين الشعرية حول الطبيعة. الجزء الثاني. ص ٥٦٧.

وتخفيها في أعماق الغيوم وتدخل آلهة الرعد الكهوف وتقتل الحيات وتنزل الأمطار وتستولي على الكنوز، وتقترن هذه البطولات الحربية على وجه العموم بتحرير فتاة جميلة اختطفها التنين أخفاها في مكان الكنوز. هذا الموضوع ورد في أساطير اليونان، فقد حرر (هرقل) (هزيون)، و (بيرسيه) (أندروميد) و (بيرسيفون) التي اختطفها (بلوتون). وكان (ريترا) الهندي قد أخفى هو الآخر امرأة جميلة في أحد الكهوف. ولـ (ساكا)آت أو الأساطير الألمانية أيضا صلة بهذا الموضوع. وفي القصص الشعبية الروسية أيضا يمكن العثور على نظائر هذه القصص[٥٩]. وللصربيين قصة الملكة (ميليتزا) التي وقعت في أسر الأفعى أو الـ (ناتس)وحررها السلطان المستبد (ووك). ولشعب (والاشي) أيضا قصة (بيتروفيريتشل) الذي حارب أثنى عشر تنيناً، أو قصة (فلوريانو) وملكة الورد وغير ذلك.

وللكرد أيضا قصة مبنية على أساس هذه المعتقدات[٦٠]. هذه الحية التي تصادف فلاحا فقيرا تلعب في البداية دورا خيراً لأنها تأتي إليه طوال عشرين عاما وبانتظام بمسكوكة ذهبية ويتناول الفلاح المسكوكة من فمها، ثم يلعب القدر لعبته، فبدون أن تكون هناك في القضية قصة خطف، تظهر امرأة حسناء في محيط المنطقة التي تحت أرضها الكنوز الكثيرة. ويبدو أن المرأة تعجبها المنطقة. وخلال إحدى جولاتها مع الحية في تلك الأنحاء تقع عليها عينا ابن وزير جاء بقصد الصيد إلى تلك الديار، ويدخل ابن الوزير الغار الذي تقيم فيه الحية. ومن أجل أن تطلع الحية ابن الوزير على سرها تهديه فتاة جميلة أخرى صادف أن كانت لديها، ولكن هذه الفتاة الجميلة تختفي يوما ما عن الأنظار، فيتوسل ابن الوزير بملكة الحيات التي على رأسها بدلا من التاج قرنان. إلا أن الحية خاطفة النساء الحسناوات ليست من رعايا ملكة الحيات، بل تتلقى أوامرها من ملك الجن، فيتمكن ابن الوزير الشاب أخيراً من نيل عطف ملك الجن، وبفضل عونه يتمكن من تحرير الفتاة الجميلة. هذه القصة الكردية التي نقلنا ملخصا لها هنا، لها تفاصيل أكثر تضفي عليها مزيدا من

---

[٥٩] تحدثنا في الفصل السابق المتعلق بالدين عما للثعبان من مقام مهم في معتقدات الكرد. وهذا الموضوع بالذات هو ما ينعكس في نصوصهم الفولكلورية.

[٦٠] راجع مجموعة بريم وسوسين تحت عنوان (الحية حارسة الكنز). الجزء الأول.

الجمال والجاذبية. ومع هذا ليس من الصعب أن نستنبط منها لب الموضوع الذي له صلة بالقضية التي نتحدث عنها هنا.

من هذه الأرضية الفكرية يمكننا الإشارة إلى موضوع آخر تستولي فيه الحية على نبع ماء، فلا يعطي منها أحدا جرعة إلا إذا قدم الناس لها الأضاحي. ويمكن أن تكون الأضحية حيوانا[٦١]، كما يمكن أن يكون إنسانا. والاحتمال الأخير هو بالضبط موضوع قصة كردية[٦٢].ففي هذه القصة ينبغي التضحية بالفتيات الجميلات من أجل الحية حتى تحل التوبة على ابنة الأميرة. وفي هذه الأثناء يظهر عفريت يتصدى لمقاتلة الحية ويشطرها شطرين، وكانت عاقبة هذا الأمر أن تخرج كل الفتيات الجميلات اللائى ابتلعتهن الحية من بطنها سالمات، ويتزوج العفريت من ابنة الأميرة التي يراها من حقه. وعند ذلك يحضر ملك الحيات بجيشه ويحاصر العفريت وينتزع الفتاة الجميلة من يديه ولكن لا يتزوج منها بل يسجنها في قصره الذي يقع تحت الأرض. وفي يوم من الأيام يأتي رجل يدعى (جلنك أفدال[٦٣])إلى ملك الحيات ليطلب منه دواء لعلاج داء أصاب زوجته من عضة إحدى الزواحف السامة، ولكن ملك الحيات الذي يعلم أن زوجة الرجل توفيت، يعبر عن عجزه عن تلبية طلب الرجل وإعطائه الداء المطلوب، إلا أنه يسليه ويهبه الأميرة الحسناء الموجودة في سجنه بدلا من زوجته المتوفاة. وعندما يعلم والد الفتاة أن ابنته لم تعد مع عفريت بل إنها تعيش مع رجل آخر، يسترجعها من أفدال، ولكن الأميرة لا تطيق فراق أفدال وتموت بعد أيام. وهذا أيضا موضوع آخر يربط بين الفولكلور الكردي ومواضيع غيره موجودة في أماكن أخرى.

قد نصادف طرائف ذوات مغزى تستلفت منا الانتباه. فعلى سبيل المثال، نرى في منظومة (مم وزين) الكبيرة والد (مم) وهو ملك على اليمن لا ينجب ولداً ولا يرزق بابن

---

[٦١] كما جاء في عمل شعري نظم في القرن السادس عشر وأتى على ذكره (أفاناسييف) في الصفحة ٥٧٧ من الجزء الثاني من كتابه الذي تحدثنا عنه آنفا.

[٦٢] راجع بريم وسوسين: حيّة على نبع ماء.

[٦٣] Tchelenk Afdal.

إلا بعدما يقَسم هو والملكة تفاحة سحرية ويأكل كل منهما نصفها. موضوع كهذا نجده أيضا في أسطورة (فولسونكا ساكه) الألمانية حيث لا يرزق الزوجان (فريك) و (أودين) ولداً، ثم يرزقانه بتفاحة تأتي بها لهما (ملاك قبول النذور والأضاحي) وتلقيها في حضن (أودين). وفي قصة صربية أيضا، يوجد رجل فقير لا ينجب هو ولا مواشيه، فيعطيه رجل غير معروف تفاحة على مقربة من بئر ويعلّمه طريقة الاستفادة منها ويأمره بتناولها هو وزوجته وإعطاء مواشيهما قشرتها. آنئذ ستحمل "كل من كانت عقيما". وهكذا كان. وموضوع آخر ملفت للنظر صادفناه في أسطورة (تريستان وايزوت) هو موضوع السيف الذي يضعه العاشق والمعشوقة فيما بينهما عندما ينامان، الأمر الذي يوجد في (مم وزين) كذلك.

وبين الوجوه المشتركة التي تصادف في القصص الفولكلورية الكردية أيضا، موضوع قطرات الدموع التي تنزل من عينى المعشوقة وتسقط على وجه العاشق أو البطل النائم وتوقظه من نومه في اللحظة الضرورية لينهض ويقاتل السبع الذي يتعرض هو والمعشوقة لأخطاره. وكذلك موضوع النباتات أو الأشجار التي تنمو على قبر شهيد وتؤدي إلى كشف القاتل وانبعاث القتيل[٦٤]، أو على قبر شرير[٦٥].

وإذا أردنا إشغال أنفسنا بالبحث في مواضيع أخرى، فإن الحديث حديث بحر، وحدّث ولا حرج.

ان زرع كائن حي في قوام جدار من أجل تقوية البناء، موضوع فولكلوري معروف آخر موجود في الروايات الفولكلورية الكردية أيضا. فهناك قصة بهذا الشأن نقلها القس (بول بيدار[٦٦]) في كتابه (قواعد اللغة الكردية) الصفحات ٣٦ - ٣٨، كما يلي:

---

[٦٤] آفاناسييف. المصدر المذكور. الجزء الثاني. ص ٤٩٤.

[٦٥] راجع (صرخة مم وزين). [النبات المشار إليه نما بين قبري مم وزين وكان شوكة ترمز إلى أن روح (بكر مرگور) الشريرة لا تدع الحبيبين يلتقيان حتى بعد وفاتهما -- المترجم].

[٦٦] القس الكلداني الساكن في الموصل.

"كان العمل يجري في بناء جسر زاخو الكبير. وبعدما بلغ البناء حد الطاق القوسي للجسر غدت جهود المعمار لربط جهتي الطاق ببعضهما تذهب كلها هباء بانهيار كل ما يتم بناؤه منه في كل مرة، ويبقى العمل على هذا المنوال غير منجز، فاضطر المعمار ليخبر أمير زاخو الذي كان يحضر موقع البناء باستمرار للإطلاع والإشراف على سير العمل - بأن الجسر بحاجة إلى روح حية، وما دام لم يزرع بين حجارة البناء جسم حي، فلن يستقيم أمر الطاق ولن يتصل جانباه، ولذا فإن الأمير الراغب من كل قلبه في إتمام هذا العمل ذي المنفعة العامة الذي يجعل اسمه خالداً على مر الدهور، أمر بأن يؤتى بأول شخص يخرج من المدينة ويصل إلى موقع الجسر وزرعه بين حجارة بناء الطاق، ووضع ختمه في ذيل الأمر ووشمه به. وكان لهذا الأمير بنت عزيزة على قلبه كالدرة اليتيمة اسمها (دالى) وكانت البنت على علم بمدى اهتمام أبيها ببناء الجسر وتتمنى أن تشهد إكمال العمل، فخرجت وقت الظهيرة من المدينة ومعها كلبها وتوجهت نحو موقع العمل. وعندما رأى الأمير بنته يتقدمها كلبها، ابتسم ابتسامة فرح. أما كريمته التي رأت ابتسامة أبيها، فقد تألمت لأنها تصورت أن أباها يسخر منها لأنها قدمت على نفسها كلبا حقيراً قذرا، فجعلته يسير خلفها وتقدمت بنفسها عليه وأخذت تتقدم على هذا النحو شطر الجسر حتى بلغته، فانتاب الجميع قلق واضطراب عظيمان، فكانوا يتبادلون النظر فيما بينهم بقلوب مليئة بالحزن والكمد، ولكن الأمير وضع كل حبه وعطفه الأبويين تحت قدميه، وأمر بزرع ابنته في قوام البناء، وخضعت الابنة الشابة لمشيئة والدها دون أن تنبس ببنت شفة، واستسلمت للأمر بكل هدوء ليفعلوا بها ما يشاءون. وهكذا وضعوا (دالي) الحبيبة في قوام بناء الطاق وزرعوها بين الحجارة التي شيد بها. وعندما سدت آخر حجرة عيني الفتاة وهي تحيي والدها العزيز الذي كان قلبه كالحجارة أو أشد قسوة، سقطت دمعتان على خدي الوالد، وقضي الأمر".

إذا تعمقنا في تحليل هذا الموضوع هان علينا أن نتوصل إلى تفسير آخر لهذه القصة الكردية وهو أن نسأل أنفسنا عما إذا لم يشر فيها إلى عقائد تتعلق بالماء أكثر مما تتعلق

بالبناء (الذي هو هنا بناء الجسر)؟ وفيما إذا قبلنا بهذه الفرضية، كان علينا أن نقول أن النهر ليس مستعدا بأي صورة لقبول السيطرة عليه بإحداث جسر فوقه يعبر عليه الناس وينجون بذلك من شرور أمواجه إلا إذا تمت التضحية بإنسان في سبيل ذلك.

بهذا الصدد يبدي لنا (م. توتان) ملاحظات جد مثيرة[٦٧]، نحن مطلعون على ديانة آلهة الأنهار التي كانت سائدة في اليونان نفسها وفي القسم اليوناني من آسيا الصغرى، وبصورة عامة في جميع أرجاء اليونان الكبيرة. لقد توصل (توتان) بمطالعاته وتحقيقاته في قصة (بوزانيوس) المتعلقة بدين (آرتيميس تريكلاريا) في (باتراس داشيه) إلى الاستنتاج التالي، وهو أن الموضوع الأصلي للقصة في بداية التضحية كان إنسانين اثنين وأن نهرى (آميليكوس) الهائج و (ميليكوس) الهادئ لعبا دوراً جد مهم في ذلك. ثم يشير (توتان) إلى الصلة الوثيقة جدا بين الموتى في الأساطير الدينية والتكفيرية[٦٨]، وبين الأنهار. إن أكثر الأساطير إثارة هي أسطورة (مياندرا) وأسطورة (أوروتاس) وأسطورة (ايناكوس) وأسطورة (كاركوس) وأسطور (آكيلوس). والخوف من عبور النهر من معبر في النهر نفسه هو الآخر أمر ذو مغزى، وكذلك طقوس الاستعراضات في بلاد الروم عندما كانوا يلقون تماثيل إنسانية نصفية مصنوعة من القصب من على جسر (سوبليسيوس) في نهر (تيبر)، فكانوا يقدمون الهدايا على هذا النحو إلى آلهة الأنهار. ويرى (توتان) أن رمي شعر الرأس في النهر أيضا نوع من الأضاحي أو أنه أداء فريضة. ولإيضاح هذه الأديان يوصينا (توتان) بالعودة إلى تلكم الأيام التي لم تكن آلهة الأنهار قد اتخذت فيها لها بعد صورة الآدمي التي اتخذته لها فيما بعد، وكان الناس يعتقدون في تلك الأيام أن عامل وجود الألوهية إنما هو في جريان الماء نفسه. وفي رأي (توتان) أن البقية الباقية لهذا التفكير الراجع إلى العهود القديمة هي الهدايا التي كانوا ينذرونها على أنفسهم للآلهة (كالمسكوكات). ومع

---

[٦٧] "الضحايا البشرية وأديان آلهة الأنهار وبخاصة في اليونان القديمة" المعروض في جلسات المؤتمر العالمي للأديان. المنعقد في أكتوبر ١٩٢٣. الجزء الثاني. الصفحات ١٥٦ – ١٦٢.

[٦٨] منسوب إلى الكفارة أي كفارة الذنوب – المترجم.

هذا فقد كان للأنهار في العهود القديمة قدسية[٦٩]، ومن هنا تبدو أهمية الـ (بونتيفيكس) أو بناة الجسور أي الروحانيين الذين صاروا فيما بعد المرشدين الحقيقيين للرومان.

ومن جهة أخرى لا تنحصر هذه العقيدة في العصور القديمة، فنحن نجدها في الأشعار الشعبية الروسية أيضا. ومضمون أحد هذه الأشعار كما يلي: غرق شاب في نهر (سموروودينا) لأنه كان مغترا بنفسه كثيرا، ولم يعر عبور النهر أهمية ما. وفي شعر ملحمي آخر بعنوان (كلمة حول القائد ايكور) تتوسل الأميرة السيدة باروسلافنا بالدعاء بحماس وإيمان إلى نهر (دنيبر) ليسمح لسفن زوجها الحربية بالعبور من الماء بسلام.

وكان الألمان يخشون أن يقيسوا عمق الماء لئلا تتعرض آلهتهم للإهانة[٧٠] كما كان (سادكو) الذي نعرفه نحن من خلال أوبرا روسية، يقدم الخبز والملح إلى نهر (الفولكا). أما البطل الملحمي (ايليا موروميه) فقد ألقى قطعة خبز في مياه نهر (الأوكا) قبل أن يغادر وطنه أملا في أن يغدو سباحا. وقد أنقذ (زاخاروف) من النسيان عادة كانت متبعة فيما مضى بين سكان شواطئ نهر (الفولكا)، وهذه العادة هي التضحية بفرس في اليوم الثالث من نيسان قبيل أن يبدأ الجليد بالذوبان، لآلهة الماء التي استيقظت من هجوعها الشتائي الطويل، وها هي تحس الآن بالجوع[٧١]. ومن تقاليد هذه العادة أنهم كانوا يوشحون عرف الفرس بالأشرطة الحمراء ويدلكون جبهته بالعسل والملح.

وعلى أساس هذه الأرضية الفكرية توجد أقوال كثيرة حول مذهب (سانت لوا) الشائع في (بريتاني). وفي هذه الأقوال يلعب الفرس الدور الأول ويشارك الماء في قدسيته.

لنتريث في الحديث عن هذه المشاركة بين الفرس والماء التي أشرنا إليها، فالموضوع متشعب وله ذيول واسعة، وهو يعيدنا كرة أخرى إلى الفولكلور الكردي الذي نسعى

---

[٦٩] ينبغي أن نذكر ضمن هذا الباب أن غسل أي شيء في نهر الفرات حرام (بريم وسوسين. المصدر السابق. ص ٨٦). وربما كان من المناسب أن نشير هنا، على ما يقول (اشبيكل) (إيران. العهد القديم. الجزء الثالث. ص ٦٥). إلى دين (أناهيتا) آلهة الماء عند الكرد.

[٧٠] راجع: افاناسييف. المصدر السابق. الجزء الثاني. ص ٢٣٠.

[٧١] زاخاروف. في كتابه المعنون (أساطير الشعب الروسي). الجزء الثاني. الفصل السابع. ص ٢١.

جاهدين للعثور على نقاط تلاقيه مع سائر المعتقدات الشعبية. فالافراس المحيرة التي نلتقي بها في الأساطير الروسية يخرج معظمها من الماء. وعلى سبيل المثال نعيد إلى الأذهان أن قيصر روسيا يملك مزارع على شواطئ البحر وضع لها حراسا. ومن هذا البحر يخرج تارة قطيع من الخيل يلتهم المحصول كله، وعلى جبين أحد هذه الخيول نجمة، وعلى جبين آخر قمر، وعلى جبين ثالث شمس. ومن بين ثلاث أخوة يستولي أحسنهم على القطيع كله ويمتطي أول واحد منه فيتبعه سائر القطيع عن طيب خاطر. وتزعم القصص الفنلندية أن هناك صلة بين الحصول على فرس غريب من هذا النوع وبين امتلاك ناحية الفضائل البطولية والقدرات المائية. وعلى بطلنا هذا أن يغتسل من نبع ماء يجده في باحة داره ثم في الصحراء ومرة ثالثة في المرج.

والآن لنتحول إلى أمور مشابهة لهذا موجودة بين البولونيين والجيك لنقول أن العالم العربي يزودنا هو الآخر بقضايا مماثلة. ففي رسالة عربية تتعلق بمعرفة الخيول بعنوان (حلية الفرسان) ترجمها (ل. ميرسيه)، نجد مقولة يعود بمقتضاها أصل النوع المعروف بالخيول العربية من بين الخيول إلى خيول النبي سليمان. وفي هذا المجال هناك شيء مقارن جدير بالذكر، فمؤلف الرسالة المذكورة يقول: إن الله تعالى أخرج مئة فرس مجنحّ من البحر للنبي سليمان، وكان سليمان يسمي هذه الافراس "نعمة" (ص ١٥ من الكتاب). هذا الأصل البحري للخيول العربية التي كانت أجدادها الأولى هدية من الله تعالى للنبي سليمان رسخ على ما يبدو في أذهان العامة، فهناك أيضا أسطورة مراكشية وفيها يعتقد سكان تلك البلاد الساحلية أن بعض الخيول البالغة القوة والشدة ولدت من أصل بحري (الكتاب المذكور، ص ١٧، رقم ٢).

ونجد بين الكرد أيضا عقيدة مماثلة يحتمل أن تكون قد نشأت تحت تأثير الروايات السامية - العربية. ففي منظومة ملحمية كردية بعنوان (قوج عثمان/عثمان الضحية)

يدور الحديث عن فرس مثير إلى حد كبير[٧٢]. تدور الملحمة حول تفننات هذا الفرس وبهلوانياته. فلكي تدلنا المنظومة الشعرية على مميزات هذا الفرس، تذكر أن والده كان فرسا بحريا. ويتبادر إلى الذهن في الوهلة الأولى أن هذه الفكرة عربية لحما ودما وليست إيرانية. ومع هذا فلا يمكن تجاهل أن الشعر الملحمي الإيراني يتضمن أيضا روايات لا يمكن لنا أن ننسبها إلى عالم العنصر السامي وحده. ومن ذلك أننا نجد الموضوع نفسه في نص كردي من قطعة من (الشاهنامه) حول البطل (رستم).

وفي الختام نعيد إلى الأذهان أن اللون الأبيض من العلامات الاعتيادية للخيول الأسطورية. فالبغل الأبيض للنبي محمد صلى الله عليه سلم المسمى (دلدل) يتحول في الشعر الكردي إلى فرس، في حين أنه في روايات الإيرانيين الشيعة ينظر إلى هذا الحيوان نظرة ملؤها الاحترام، لأن عليا ابن أبي طالب صهر النبي صلى الله عليه وسلم كان يمتطيه أيضا أحيانا. وفي أكثر من مكان في إيران[٧٣] يرونك موطئ هذه الدابة التي تركت أثر حافرها على الصخور، دون أن يكون هناك أي رابطة أو جوار.

ثالثا - الأدب الكردي المدوّن:

أ – الرواد الأوائل:

لئن كنا خصصنا في هذا الفصل الخاص بالأدب الكردي، كما يلاحظ، مكانا لائقاً للفولكلور من أوجه مختلفة، فإن ذلك، على ما نعتقد، لأن شخصية الشعب الكردي وأخلاقه وخصائصه الأخرى تنعكس على وجه العموم وبصورة أفضل من خلال هذه الآثار الفولكلورية، في حين أن جميع الفئات ذات المستوى الرفيع من المجتمع الكردي تقريبا

---

[٧٢] أوسكار مان، اللهجة الكردية الموكرية. القسم الثاني. برلين. ١٩٠٩، ص ٣٥٣: "أيها السلطان ! لقد وصل فرس رمادي اللون للأمير سيف الدين بيك، أبوه فرس بحري. أما هو فمجنح. وليس هناك أحد سواك يجدر بأن يضع قدميه في ركاب سرجه فيمتطيه".

[٧٣] وفي كردستان السنية أيضا نجد أماكن من هذا القبيل – المترجم.

ودونما استثناء واقعة تحت التأثير القوي للأدبين الفارسي والعربي، إلا أننا وفي الوقت نفسه ومع إيماننا بالقيمة الاستثنائية للفلولكلور، لا نستطيع بالتأكيد أن نهمل المظاهر الأخرى للأدب الكردي ومنها آثارهم المكتوبة والمدونة. ولذا فإننا نريد هنا أن نتحدث بهذا الشأن مع قارئنا الكريم[٧٤].

وفي الحقيقة، مهما بلغ مدى الغنى الاستثنائي للفولكلور الكردي، لا يجدر بنا أن ننسى أن لهذا الشعب آثاراً أدبية مدونة تعود إلى قرون قديمة. فمنذ أوائل القرن الحادي عشر الميلادي كان علي حريري[٧٥] يكتب في منطقة شمدينان باللغة الكردية، وديوان شعره وصلنا بصورة مدونة فقط. ومنذ تلكم الأيام فصاعداً، وخلال الفاصلة الزمنية بين القرنين الثاني عشر والخامس عشر، تعاقب في الظهور عدد من الشعراء الكرد. ويأتي هذا الازدهار الأدبي مقترنا بعهد الإقطاع الذي تحدثنا فيما سبق عن دوره في التطور الاجتماعي للشعب الكردي. وأبرز هؤلاء الشعراء وأكثرهم شعبية هم الملا أحمد جزيرى[٧٦] الذي يجعله سبكه الغنائي الشعري من الشعراء النوادر. ويأتي بعده (فقى ته يران)[٧٧]، الذي كان يتخذ له الاسم المستعار (ميم - حى)[٧٨] وأخيراً الملا باتى[٧٩] من هكاري.

وكيفما كان، هيأ هؤلاء الظروف لظهور شاعر يحق أن يسمى (فردوسي الكرد) ، ونقصد به (أحمدى خاني) الذي أتينا على ذكر اسمه عند الحديث عن ظهور الشعور القومي

---

[٧٤] راجع بهذا الشأن: فيلجيفسكي، (المؤتمر الأول للدرسات الكردية ومسألة اللغة الأدبية الكردية) المنشور في مجلة (اللغة والفكر). الدورتان السادسة والسابعة، ١٩٣٦ (باللغة الفرنسية).

[٧٥] شاعر من حرير قرب أربيل، لا يعرف تاريخ ميلاده ووفاته بالضبط. عاش في سنوات القرن الحادي عشر الميلادي. جاء ذكره في أحد أبيات الشاعر المعروف الحاج قادر كويي، يقارنه فيه بحسان ابن ثابت الأنصاري – المترجم.

[٧٦] اختلفت الآراء بشأن تاريخ ميلاده ووفاته. ويرى شارح ديوانه باللغة العربية الملا أحمد زفنكي انه ولد في أوائل القرن العاشر الهجري وعاش حوالي قرن. وإضافة إلى زفنكي، شرح الشاعر (هژار) أيضا ديوانه باللغة الكردية – المترجم.

[٧٧] اسمه محمد. ولد في (ماكو). من آثاره (قصة شيخ صنعان) و (أغنية الحصان الأسود). عاش في سنوات القرن الرابع عشر الميلادي – المترجم.

[٧٨] راجع منظومة (أغنية الحصان الأسود) المنسوب إلى هذا الشاعر. سوسين. المصدر السابق. القسم الثاني. ص ١٩٢.

[٧٩] راجع منظومة (قصة دمدم) المنسوبة إلى هذا الشاعر. سوسين. المصدر السابق. ص ٢٠٢.

الكردي. والحق أن هذا الشعور ينعكس في شعر هذا الشاعر بأجمل صوره وأبلغها. فأحمدى خاني الذي ولد في ١٥٩١ في هكارى وتوفي في (١٦٥٢) في بايزيد[٨٠]، لم يرتق قمة الشهرة بين الأوساط الأدبية الكردية بوصفه صاحب أرقى منظومة ملحمية، وأعني بها (مم وزين) حسب، بل إنه واحد من أعظم ناظمي الشعر الغنائي الكردي[٨١]، وتقف آثاره في هذا المجال، وفي حالات عديدة، جنبا إلى جنب، مع بعض من غزليات مولانا جلال الدين الرومي (المؤسس والمرشد العرفاني لطريقة المولوية الصوفية في قونية). ويبدو أن أحمدى خاني اتخذ عن طيب خاطر من الشاعر والعارف الإيراني مولانا جلال الدين الرومي الذي رسخت أشعاره جذورها عميقا، ولا ريب، في الفولكلور الغنائي لجماهير الشعب في آسيا الصغرى، واقتبست من هذا النبع أيضا مادتها الأصلية، اتخذ منه القدوة والنموذج لآثاره. وبعبارة أخرى اقتبست أشعار مولانا مادتها الأصلية من المصدر نفسه الذي أوجد أبدع نماذج الآثار الغنائية الفولكلورية الكردية. وتحت أيدينا أقسام من بعض من الآثار النظرية لأحمدى خاني ومنها حول صناعة الشعر وبخاصة أول قاموس عروضي مقفّى له للشعر الكردي[٨٢].

لقد أدى العمر المثابر لهذا الشاعر في مجال اللغة وتبحره اللامحدود فيه، وذوقه وقريحته الشعرية التي لم يكن هناك مجال للشك فيها وخلوص شعره، وكونه نابعاً من أعماق القلب، هاتان السمتان اللتان تقربان لغته الشعرية والصور التي تنعكس في أعماله من أساليب

---

[٨٠] يذكر أحمدى خاني نفسه في مقدمة (مم وزين) انه ولد في عام ١٦٠١ للهجرة الذي يصادف عامي ١٦٥٠ و ١٦٥١. أما سنة وفاته فلم يتوصل الباحثون بعد إلى تحريرها. راجع بهذا الشأن: الدكتور عز الدين مصطفى رسول. أحمدى خاني شاعراً ومفكراً. فيلسوفاً ومتصوفاً. ففيه خلاصة ما قاله الباحثون بهذا الشأن – المترجم.

[٨١] احتفلت الأوساط السياسية والثقافية الكردية على نطاق واسع ولاسيما في أوروبا -بالذكرى الثلاثمائة لانتهاء أحمدى خاني من نظم (مم وزين) في عام ١٩٩٥، وقدمت خلال الاحتفالات العديد من البحوث والدراسات القيمة عن الشاعر وكتابه (مم وزين) ودوره في إيقاظ الروح القومية الكردية. طبع (مم وزين) مرات عديدة أولها في استنبول في عام ١٩١٨ وترجم إلى العديد من اللغات الحية، وبينها العربية. ولكن من المؤسف أن ترجمتها العربية حذفت منها المقاطع القومية والفلسفية وإن كانت في القمة من الناحية البلاغية. والمترجم هو الأستاذ محمد سعيد رمضان البوطي – المترجم.

[٨٢] يقصد المؤلف منظومة الشاعر المساة (نوبهار) . وهي قاموس صغير لمفردات عربية ما يقابلها في اللغة الكردية مخصص للصبية الكرد الذين يبدأون لتوهّم تعلم العلوم العربية والدينية المؤلفة. كتبها باللغة الكردية – المترجم.

البيان الشعبية. كل هذا أدى إلى أن يعرف بوصفه اكثر الشعراء الكرد محبوبية لدى الجمهور، ويقتفي الشعراء الكرد من بعده آثار خطاه الشعرية، ومن أهم هؤلاء إسماعيل بايزيدي وشرفخان جوله ميركي ومراد خان بايزيدي. كل هؤلاء الشعراء، بل ومعظم الشعراء الكرد المعاصرين لم يكن لهم ما يعملونه، سواء من الناحية اللغوية أو من ناحية الشكل والمحتوى، سوى الاستمرار على مبادئ وتقاليد مدرسة أحمدى خاني الشعرية.

وإلى جانب الرواد الأوائل للأدب الكردي المدون هؤلاء، ينبغي الإشارة كذلك إلى أنه ظهر في المنطقة الجنوبية الشرقية من كردستان في الفترة الزمنية بين القرنين السادس عشر والثامن عشر عدد من الشعراء نظموا أشعارهم إما باللغة الكردية الشائعة في تلك البقاع، وهي اللهجة الهورامانية أو الگورانيه[٨٣]، أو على غرار سبك وتقاليد الشاعر الإيراني محطم الأنماط الشعرية القديمة، واعني به بابا طاهر عريان (وليس على غرار مولانا جلال الدين الرومي)[٨٤].هذا الشاعر الغنائي الذي تتمتع رباعياته المنظومة باللهجة المحلية بحب وإعجاب كبيرين من أوساط واسعة من سكان هذه المنطقة من إيران، وهذه اللهجة التي ما تزال تحتفظ إلى يومنا هذا بما لموطن الشاعر من نكهة ورقّة ولم تغد بعد تماما على نسق اللغة الفارسية الرسمية المعاصرة ولها بعض الخصائص اللهجوية القريبة جداً من اللغة الكردية[٨٥].

---

[٨٣] راجع الفصل السابع من هذا الكتاب.

[٨٤] راجع الفصل الحادي عشر من هذا الكتاب حول جماعة العلي اللهية.

[٨٥] الواقع أن بابا طاهر عريان الهمداني واحد من قدماء شعراء الكرد. ولهجته اللرية واحدة من اللهجات الكردية. فالمؤلفون والرحالة المسلمون الذين زاروا المنطقة، وحتى المؤرخ الكردي شرفخان البدليسي صاحب (شرفنامه) متفقون جميعاً على اعتبار اللر قسماً من الكرد. ولئن كان اللر أنفسهم لا يؤكدون اليوم على كرديتهم. فذلك ناتج عن تأثير التعصب المذهبي عليهم. فقد أدى هذا التعصب بقطاعات كبيرة من كرد كردستان الإيرانية الذين تشيعوا إلى الانفصال عن شعورهم القومي والارتباط بالفرس الأصحاب الأولين في إيران للمذهب الشيعي. وما تزال الحركة القومية الكردية في إيران تعاني من الآثار السيئة لهذا الواقع على مسارها الذي شمل الآذريين والعرب في إيران. في حين أن البلوج وتركمان شرقي إيران يمتلكون حركات قومية أصيلة وإحساساً قوميا قويا لبقائهم خارج الإطار المذهبي للفرس. مما أبقى معاناتهم القومية بمنأى من أن يحجب عن عيونهم الإحساس بها غشاء الوحدة المذهبية الذي يختفي الاضطهاد القومي من وراءه – المترجم. أيضا. لم يتوسع المؤلف في الحديث عن الشعراء الكرد الذين أبدعوا في اللهجة الگورانيه أو الهورامانية مع الأسف. وربما كان

ب – الممثلون الجدد للشعر الكردي:

بين أحسن ممثلي هذا الطراز الأدبي ينبغي بكل تأكيد التحدث عن شعراء عاشوا في القرن التاسع عشر، وهم (نالي)[٨٦] و (كردي)[٨٧] و (سالم)[٨٨] و (حاجي قادري كويى)[٨٩]. ويضيف (مينورسكي) في (دائرة المعارف الإسلامية) اسم شاعر آخر يسمى (ماهور)[٩٠] توفي عام ١٩٠٩ في السليمانية ونشر ديوان شعره في عام ١٩٢٤، وآخر هو

المقام قد ضاق به. والواقع أن آثاراً أدبية عديدة نظمت بهذه اللهجة من ملامح قصصية غرامية وحربية ودينية وقصائد وغزليات وغيرها يطول بنا ذكرها. ولكننا لا يحق لنا بأي حال أن لا نشيد بصورة خاصة بائنين من فحول هذا المضمار هما (خاناى قوبادى) من شعراء القرن الثاني عشر الهجري. الذي ترجم بإبداع قصة (شيرين وخسرو) الشعرية لنظامي كنجوى شعراً إلى اللهجة الگورانيه في مجلد ضخم طبع عدة مرات أحسنها ما قام به الأديب الكردي المعروف محمد الملا عبد الكريم عام ١٩٧٥ في بغداد، وعبد الرحيم مولوى الذي يعتبر في قمة الشعراء المعروفين برقة شعرهم ولطافته. وهو الآخر طبع ديوانه أكثر من مرة وأفضلها طبعة الأستاذ الملا عبد الكريم المدرس التي تشتمل على شرح واف أيضاً للديوان. وقد صدرت في بغداد عام ١٩٦١. كما حقق وشرح وطبع الأستاذ المذكور سائر مؤلفات مولوي من كردية وعربية وفارسية وكلها في علم الكلام – المترجم.

(٨٦) نالي: هو الملا خضر بن أحمد مكايلي. أبرز شعراء اللهجة الكرمانجية الجنوبية في القرن التاسع عشر. نظم بالكردية والعربية والفارسية طبع ديوانه أكثر من مرة. أبرزها طبعة محققة ومشروحة من قبل الأستاذ الملا عبد الكريم المدرس ونجله المرحوم فاتح – المترجم.

(٨٧) كردي: مصطفى بيك بن محمود بيك صاحبقران. من أبرز شعراء اللهجة الكرمانجية الجنوبية في القرن التاسع عشر. طبع ديوانه أكثر من مرة طبعات غير محققة وغير مشروحة – المترجم.

(٨٨) سالم: هو عبد الرحمن بيك بن محمود بيك صاحبقران. من ابرز شعراء اللهجة الكرمانجية الجنوبية في القرن التاسع عشر. عاش في السليمانية ومات فيها، وكانت له سفرة إلى طهران تركت آثاراً سيئة في نفسه. قارع العثمانيين وبكى مجد البابانيين بحرقة في شعره. طبع ديوانه مرتين دون تحقيق أو شرح – المترجم.

(٨٩) حاجي قادرى كويى: ثاني رواد النهضة القومية في الشعر الكردي بعد أحمدى خاني. غادر كويسنجق إلى استنبول حيث عاش وتوفي عام ١٨٩٧. طبع ديوانه أكثر من مرة وحظي بقدر من التحقيق. وكتبت عنه عدة دراسات أدبية – المترجم.

(٩٠) هكذا في الأصل Mahur والصحيح هو (محوي) الملا أحمد ابن الملا عثمان بلخي. من أبرز شعراء اللهجة الكرمانيجة الجنوبية في القرن التاسع عشر. حقق وشرح وطبع ديوانه من قبل الأستاذ الملا عبد الكريم المدرس ونجله محمد الملا عبد الكريم عام ١٩٧٧ في بغداد – المترجم.

الشيخ رضا من الأسرة الطالبانية التي تسكن ضفاف نهر (سيروان). وقد توفي في عام ١٩٠٩[٩١]. وآخر هو طاهر بيك ابن عثمان باشا حلبجة المتوفى عام ١٩٢٠[٩٢]. وإضافة إلى هؤلاء هناك (شاه برتو الهكاري) الذي انتهى من نظم ديوانه عام ١٨٠٦[٩٣]، وكذلك عبد الله بيك مصباح الديوان المتخلص بـ (أدب) الذي توفي أيام الحرب العالمية الأولى في ساوجبلاغ، كما سبق أن ذكرت من قبل[٩٤]. و (أدب) هذا الذي التقيته في ساوجبلاغ عام ١٩١٥ خلف بعده مجموعة مختصرة من أشعاره هي تلك التي طبعها السيد حسين حزني

---

[٩١] يراجع بشأن هذا الشاعر مقال ل س.ج. أدموندز تحت عنوان (الشيخ رضا طالباني، الشاعر الكردي الهجاء) نشره في جريدة الجمعية الملكية لآسيا المركزية، العدد ٢٢ الصادر في كانون الثاني ١٩٣٥، كما نشر المستكرد الانكليزي المذكور تفاصيل تحت عنوان (بيان الأوضاع في كردستان الجنوبية ١٩٢٠ – ١٩٣٦). تسكن أسرة طالباني في الواقع مدينة كركوك وأطرافها منذ عهد جدهم الأكبر الشيخ عبد الرحمن طالباني الذي كان عالماً دينيا كبيراً وشاعراً بليغا باللغات الكردية والفارسية والتركية والعربية، وواحداً من كبار شيوخ المتصوفة (الطريقة القادرية). وقد استقر بعض أخوته في مناطق أخرى من كردستان،مثل كويسنجق وكَل وخانقين على ضفاف نهر سيروان كما يذكر المؤلف. والشيخ عبد الرحمن الذي كان لقبه الشعري (خالص)، هو والد الشاعر الكردي المعروف الشيخ رضا – راجع دراستنا بعنوان: "أسرة شيوخ الطالبانية وبعض مشاهيرها" (باللغة الكردية). طبعة برلين ١٩٩٩ مجلة (هافيبون) التي تصدر باللغة الكردية في برلين، العددان ٥ و ٦. ١٩٩٩، وكذلك بحثنا: "مولانا الشيخ عبد الرحمن خالص: العالم والشاعر وشيخ المتصوفة" (باللغة الكردية)، مجلة (باسكان) التي تصدر بصورة دورية في لندن، العدد (٢)، ١٩٩٩ – المترجم.

أيضا، طبع ديوان الشيخ رضا ست مرات، في بغداد وسنندج وفي السويد و السليمانية واربيل. ونشرت عنه كتب وبحوث ودراسات. ولمترجم هذا الكتاب دراسة عنه نشرت في العدد ٧٠ عام ١٩٨٨ من مجلة (كاروان) الصادرة في أربيل بكردستان، وأخرى في الشهرية الكردية (به يام) الصادرة في لندن، العدد (١٣)، شباط ١٩٩٩ – المترجم

أيضا، الصحيح أنه توفي في ٢١ كانون الثاني ١٩١٠. راجع مقالا بعنوان: الشيخ رضا الطالباني في جريدة (الرقيب) البغدادية. بقلم عبدالرزاق بيمار وقد ترجمه الى الكردية وعلق عليه الاديب المعروف محمد الملا عبد الكريم. العدد ٩٣ من مجلة (كاروان) الصادرة في أربيل عام ١٩٩١ – المترجم.

[٩٢] له ديوان شعر صغير لا ندري أيتضمن كل شعره أم لا. وقد طبع أكثر من مرة – المترجم.

[٩٣] طبع ديوانه من قبل المرحوم صادق بهاء الدين عام ١٩٧٨ في بغداد. وكان ينبغي عدم إيراد اسمه في عداد شعراء القرن التاسع عشر إذ أنه يسبق هذا التاريخ بقرن من الزمن – المترجم.

[٩٤] في الفصل الخامس من هذا الكتاب.

موكرياني في رواندوز[٩٥]. وقد أهدى الشاعر مجموعته الشعرية هذه حبيبته الوحيدة التي كانت، إن لم أكن مبالغاً، (بياتريس)[٩٦] الكرد. وفضلاً عن هذه، لدى نسخة من هذه المجموعة الشعرية تتضمن عدة غزليات أهذانيها الشاعر عند لقائنا.

سوف لن تزول التقاليد الأدبية ولاسيما نظم الشعر بين الكرد. والدليل على ذلك إشارة (مينورسكي)[٩٧]إلى عدد كبير من الشعراء المعاصرين مثل عبد القادر الزهاوي البغدادي[٩٨]، وعلى كامل[٩٩]، واحمد بيك فتاح صاحبقران[١٠٠] من السليمانية، ومصطفى بيك جاف الهجاء[١٠١]، واحمد بيك جاف ابن عادله خانم[١٠٢]، وأثيري الكركوكي[١٠٣]، ويمكن العثور على أسماء أخرى أيضا من مجلة (هاوار) الدمشقية[١٠٤]، ولكننا نعتقد أنه ليس ثمة حاجة لمزيد من الإسهاب ليطمئن القارئ إلى أن الكرد يملكون آداباً مدونة أيضا،

---

[٩٥] طبع ديوانه مرتين أخريين في بغداد، مرة من قبل المرحوم بشير مشير عام ١٩٣٩ وأخرى محققة من قبل الدكتور معروف خزندار عام ١٩٧٠ – المترجم.

[٩٦] بياتريس: السيدة الفلورنسية الحسناء ١٢٦٥ – ١٢٩٠ التي خلدها دانتي في آثاره وبخاصة في (الكوميديا الإلهية) – نقلا عن الترجمة الفارسية للكاتب والأديب الكردي محمد قاضي.– المترجم.

[٩٧] في دائرة المعارف الإسلامية كما سبق القول.

[٩٨] ربما يقصد به المؤلف. الشاعر جميل صدقي الزهاوي. فنحن لم نسمع بشاعر اسمه عبد القادر الزهاوي، غير أن جميل صدقي الزهاوي كان ينظم بالعربية وإن كان يتقن اللغة الكردية أيضاً – المترجم.

[٩٩] ربما يقصد به الشاعر علي كمال بابير آغا، لأننا لم نسمع بشاعر كردي اسمه علي كامل. وللشاعر علي كمال بابير آغا ديوان طبع عام ١٩٨٦ – المترجم.

[١٠٠] أحمد حمدي صاحبقران وله ديوان طبع مرتين – المترجم.

[١٠١] لم يتبين لنا من هو المقصود بهذا الشاعر الذي لم نسمع باسمه – المترجم.

[١٠٢] أحمد مختار جاف. ابن عثمان باشا جاف من زوجته عادلة خانم. طبع ديوانه مرتين. الثانية منهما محققة ومقدم لها من قبل الدكتور عز الدين مصطفى رسول – المترجم.

[١٠٣] يقصد المؤلف الشاعر عبد الخالق أثيري الكركوكي. من شعراء النصف الأول من القرن العشرين.. طبع ديوانه في بغداد عام ١٩٨٧ من قبل المحامي مصطفى عسكري – المترجم.

[١٠٤] صاحبها ومديرها المسؤول كان جلادت عالي بدرخان. صدر العدد الأول منها في دمشق في ١٥ أيار ١٩٣٢ وآخر عدد منها في ١٥ آب ١٩٤٣. ومجموع أعدادها ٥٧ عدداً. واحدة من أغنى المجلات الكردية وأسهم في تحريرها كتاب وشعراء من كردستان العراق أيضاً – المترجم.

آدابا ليست أدنى مستوى من الآداب المدونة المعاصرة لشعوب الأقسام الأخرى من هذا الجزء من آسيا، على الرغم من الأوضاع المرتبكة والمضطربة لهذا الشعب.

ج - مسألة اللغة الأدبية الكردية:

عندما نرى أنفسنا وجهاً لوجه إزاء الآداب الكردية المدونة ينهض أمامنا بالطبع السؤال التالي: وهو: بأي لغة يكتب الأدباء والمؤلفون الكرد، وهل هناك لغة أدبية مشتركة بين الكرد تسير بالأفكار من أدنى كردستان إلى أقصاها بصورة يفهمها الجميع؟

إننا نجد بهذا الشأن ملاحظات جديرة بالانتباه في كتابات (فيلجيفسكي) كتبها عن مجمع الاستكراد، المجتمع في (يريفان) بأرمينيا السوفيتية من الرابع حتى التاسع من حزيران عام ١٩٣٤.

هذا المستكرد الذي ألف القراء اسمه من قبل، يعيد إلى الأذهان بادئ ذي بدء أن الأدب الكردي كان منذ اللحظات الأولى لميلاده بصدد تثبيت شخصيته واستقلاليته إزاء أخيه الأكبر، وأعني به الأدب الفارسي. وهو لا يرى لنفسه حقا أقل في موضوع الاستفادة من نزعة عدم التقولب من الأدب الكلاسيكي الفارسي في العصر الحديث أي العهد الإسلامي. لقد لاحظنا من قبل أن الأدب الكردي سار في الواقع على نهج الشعراء المجددين من أمثال مولانا جلال الدين الرومي أو على نهج بابا طاهر عريان الصوفي اللهجوي. ولم يكن اختيار هذه الأساليب عديم التأثير في لغة الكرد الآخرين الذين كانوا يقتربون بشكل ملموس من اللغة الأدبية الفارسية الحديثة.

ومع هذا ينبغي علينا أن نأخذ بنظر الاعتبار أنه باستثناء عدد محدود من المؤلّفين الكرد من أمثال أحمدى خاني والملا أحمد جزري ونالي وغيره ممن ذابت آثارهم في الفولكلور الكردي، لم تكن الآثار الأدبية الكردية في متناول اليد إلا بالنسبة إلى محيط محدود من الإقطاعيين القراّء وفئات هزيلة من المثقفين، حملة الأفكار الوطنية. أما الأكثرية الساحقة من الجماهير الكردية المجزأة بين عدة دول أجنبية، فقد ظلت محرومة من الأدب المدون. أضف إلى ذلك أن الطبقات الراقية من هذا الشعب كانت تربط نفسها دوماً بالأوساط الاجتماعية المماثلة لها في الأمة الحاكمة، وكانت تستفيد لتمشية علاقاتها السياسية

والثقافية من لغات تلك الطبقات الحاكمة (من تركية أو فارسية أو عربية أو أحيانا أرمنية) بوصفها اللغة الأدبية.

وفي أواخر القرن الماضي فقط بدأت الحركة الوطنية الكردية[١٠٥] تخطو الخطوات الأولى وما تزال في السعي لاستخدام بعض اللهجات الكردية لبيان نواياها، وإن كان من الضروري الاعتراف بأنها لم تنل في مسعاها هذا نجاحا كبيرا. وفي القرن التاسع عشر، وبعبارة أصح في بداية الحرب العالمية الأولى، توفرت مقوّمات تأسيس مركزين ثقافيين كرديين أحدهما في دمشق يقوم بطبع وإعادة طبع الآثار الأدبية الكردية القريبة من مدرسة أحمدى خاني، والثاني في بغداد، يتمركز فيه نشر الآثار الأدبية الكردية ذات العلاقة مع سبك وتقاليد بابا طاهر[١٠٦]. وإلى جانب هذه المركزين الثقافيين الذين يتحدث عنهما (فيلجيفسكي)، ربما كان من المناسب ذكر القاهرة أيضا حيث نشرت طبعة محققة من كتاب (شرفنامه) بجهود كل من محمد علي عوني وفرج الله زكي وكتاب كردي في الالهيات للسيد عبد الرحيم الحسيني[١٠٧].

اختارت الكتب الأدبية الكردية المطبوعة في السنوات الأخيرة في دمشق ألفباء لاتينيا لها تشبه الألفباء اللاتيني المستعمل في تركيا منذ العهد الكمالي. أما الكتب الأدبية الكردية المطبوعة في بغداد التي كان يستخدم في طبعها الألفباء العربي الذي أدخلت عليه

---

[١٠٥] راجع الفصلين التاسع والعاشر من هذا الكتاب.

[١٠٦] لا تتوفر لدينا أية معلومات عن شيء من هذا القبيل في أوائل الحرب العالمية الأولى أو قبلها. وربما كان المقصود في بداية الحرب العالمية الثانية أو قبلها. ففي هذه الفترة كانت قد بدأت في بغداد حركة بطيئة لنشر المطبوعات الكردية ولكن باللهجة الكرمانجية الجنوبية: أي لهجة أكراد المنطقة الشمالية الشرقية من العراق. وفي سوريا ولبنان ظهرت مجلات ومطبوعات بالحروف العربية واللاتينية أيام السيطرة الفرنسية على تلك البلاد – المترجم.

[١٠٧] يقصد (العقيدة المرضية) وهي كتاب شعري في أكثر من ألفي بيت بلهجة منطقة (تاوه كوزي) موطن الشاعر عبد الرحيم الحسيني المولوي الذي تحدثنا عنه في الهامش رقم (٨٦) من هذا الفصل. وهذا الكتاب في علم الكلام ومعه كتاب آخر للشاعر نفسه باللغة الفارسية في علم الكلام أيضا ويسمى (الفوائح). وقد طبع بجهود كل من محي الدين صبري النعيمي وفرج الله زكي الكرديين. وقد طبع فرج الله كتباً عربية أيضا من مؤلفات علماء كردستان أو مما تدرس في مدارسها الدينية – المترجم.

بعض الإصلاحات والتحويرات، فقد بدأت منذ عام ١٩٣٣ فصاعداً الاستفادة من ألفباء لاتيني آخر بالإمكانات الطباعية المحلية، مع رعاية الخصوصيات الصوتية للهجات الكردية الجنوبية[١٠٨]. وقد انتشرت الأعمال الأدبية الكردية المطبوعة في دمشق بين كرد سوريا وتركيا، كما انتشرت الأعمال الأدبية الكردية المطبوعة في بغداد بين كرد العراق وإيران.

د – الحركة الثقافية في سوريا:

لم تكتسب الحركة الثقافية أهمية واقعية بين الكرد في سوريا[١٠٩] إلا بعد أحداث سنة ١٩٣١ التي برهنت لهم على أن القيام بعمل سياسي في البلاد الواقعة تحت الانتداب الفرنسي عمل في غير وقته. ومع ذلك فقد ثبت في تلك الأيام للكثيرين من الشخصيات الكردية المعروفة أنه وبالرغم من مشاكل العصر مازال بإمكانهم أن يقوموا بمساع جادة وسريعة على الخصوص في سبيل تحكيم وتعزيز الأحاسيس القومية للمجتمع الكردي من خلال إحياء اللغة ونشر وتوسيع التربية والتعليم باللغة الكردية وبعث الأدب الشعبي. وكان مؤسس هذه النهضة الثقافية الأمير جلادت عالى بدرخان الذي لجأ إلى سوريا عقب فشل الحركة التي قام بها حاجو آغا في تركيا وأخوه الأمير كامران عالي بدرخان المقيم في بيروت[١١٠]. وكانت مجلة (هاوار) الناشر الرئيس لأفكار هذه النهضة، وكانت تنشر باللغتين

---

[١٠٨] لم يصبح الطبع الكردي بالألفباء اللاتيني يوما ما أمرا شائعا في العراق. وكل ما هنالك هو أنه كانت هناك دعوة لذلك ومحاولات جد جزئية للاستفادة من ألفباء لاتيني أدخل عليه المرحوم الأستاذ توفيق وهبي بعض التحويرات. وأغلب ما استعمل الألفباء اللاتيني في العراق كان من قبل الأخوين المرحومين حسين حزني موكرياني وعبد الرحمن كيو موكرياني. وبصورة أخص الدراسات التي أعدّها الدكتور **جمال نه‌به‌ز** منذ نهاية خمسنيات القرن الماضي – المترجم.

[١٠٩] راجع المقال المعنون (كرد سوريا) بقلم (ب.روندو) المنشور في مجلة (فرنسا المتوسطية والأفريقية). العدد ١. عام ١٩٣٩.

[١١٠] توفي الأمير جلادت عالي بدرخان عام ١٩٥١ بسبب حادث مؤسف. ويقيم الأمير كامران عالي بدرخان حاليا (١٩٥٥) في باريس. وبالمناسبة أقول: إن وفاة الأمير جلادت عالي بدرخان الذي كان من المثقفين الكرد الكبار وكان في الحقيقة روح الحركة القومية الكردية. خسارة كبرى لأماني الكرد العظام. [أقول: توفي الأمير كامران عالي بدرخان كذلك في عام ١٩٧٨

الكردية والفرنسية وقد صدر العدد الأول منها في ١٥ مارس ١٩٣٢، وقد نهض لمساعدتها مادياً ومعنوياً كثيرون من القرّاء الكرد لا في سوريا وحدها، بل في العراق والأردن أيضا. وها نحن نذكر أسماء عدد منهم. من المعلمين (هفندي سوري)، على سيدو گوراني، من الأطباء الدكتور أحمد نافذ، من الشعراء الشعبيين جگەر خوين الكردي، عبد الخالق اثيري، قدري جان، مصطفى أحمد بوتي. وهناك أمر أكثر أهمية وهو أن جمعا كثيراً من رؤساء العشائر أو القبائل الصغيرة أيضاً التحقوا بهذه الحركة، منهم حاجو آغا (هوركيه) وابنه جميل آغا ومصطفى شاهين (علاء الدين) وابنه شاهين وعبد الرحمن فوزي (بوتان) وأحمد ملك (علاء الدين) وغير هؤلاء.

كان أول مسعى لمؤسسّي مجلة (هاوار) استخراج وترويج الألفباء الكردي بالحروف اللاتينية، وقد وضعوه بأنفسهم منذ سنوات. وقد استخدم هذا الألفباء لطبع المجلة. والواقع أن عدم ملاءمة حروف الألفباء العربي - الفارسي التي كانت تستخدم حسب التقاليد القديمة لتدوين الآثار الكردية، أمرأقلق المهتمين بالموضوع منذ زمن. كانت خصائص أصوات اللغة الكردية تحتاج إلى أداة أخرى للتعبير عن نفسها، ولم يتردد مؤسسّو مجلة (هاوار) في الاستلهام مما أقدمت عليه تركيا الكمالية من (تلتين) الألفباء التركي، فاختاروا بدورهم ألفباء بسيطاً للغتهم تقل فيه الإشارات المشخّصة، كالنقاط وأشكال الحروف المتكررة بقدر الإمكان، وتنعكس فيه الأصوات الموجودة في اللغة الكردية بوضوح تام.

كان هذا الألفباء يضع نصب عينيه أن يحقّق، من خلال حذف التلفظات المنطقوية الخاصة، هدفاً ثانيا وضعه مؤسسو مجلة (هاوار) في برنامج عملهم، وهو توحيد مختلف أقسام اللهجة (الكرمانجية)، فالواقع أن اللغة الكردية الكرمانجية، شأنها شأن اللهجات الكردية الرئيسية الأخرى، تشتمل على عدد كبير من لهجات التحدث التي تختلف فيما بينها قليلا أو كثيرا. وعلى هذا فقد كانت الخطة عبارة عن خلق لغة كردية نموذجية عامة

في باريس. وكان يسهم بقسط كبير في خدمة القضايا الثقافية والسياسية للشعب الكردي. وخلال فترة إقامتي في فرنسا في أواسط الستينيات لإكمال دراساتي العليا في جامعة باريس. كنت على صلة وثيقة به - المترجم].

الشمول، بوضع دستور عام يجمع ضمنه جيمع لهجات التحدث المختلفة ويكون بإمكان المتحدثين بكل من هذه اللهجات الاستفادة منه، وذلك بالاستلهام والاستفادة من لهجات الشعراء الكلاسيكيين ومن القواعد والسنن المتّبعة، كما كان الألفباء موضوع البحث يؤول إلى زيادة غنى ومرونة اللغة الكردية، عبر توسيع مقدرتها على التعبير طبقاً لحاجات الحياة المعاصرة.

وكان ينبغي أن يكون بعث الأدب الشعبي ضمن توفير التسهيلات لأمر أحياء اللغة هدفاً ثالثاً في حد ذاته لنشاط القائمين بإدارة المجلة. فلم تخصص المجلة أعمدة منها لنشر الآثار المختارة للشعراء الكلاسيكيين أو الشعر الشعبي المعروف، حسب، بل وفسحت المجال أيضاً لنشر نتاج الشعراء الشباب المعاصرين ليواصلوا التقاليد الأدبية الموروثة.

وأخيراً فان بث وتوسيع التعليم بين الكرد وباللغة الكردية وضع بين أيدي محرري (هاوار) رسالة رابعة لم تكن تقل أهمية من الرسائل الثلاث السابقة. وهكذا، ومن أجل تحقيق هذا الهدف أخذت المجلة تنشر على أعمدتها توجيهات ثقافية لصالح التعليم وبدأت تكافح بصورة خاصة من أجل القضاء على سوء التفاهم القديم الموجود بين رؤساء العشائر والمثقفين والمتعلمين، فقد كانت هذه الفئة مهتمة بأنها تسعى لإلحاق الأذى بنفوذ الفئة الأولى وقوتها. وكان ينبغي على محرري (هاوار) أن يسيروا بقضية التعليم بخطوات سريعة إلى الأمام من خلال تحضير وإعداد الكتب الدراسية الكردية، وكان هذا ما جعل محرري (هاوار) ينشرون كراريس بهدف تحقيق هذه الغاية. وهكذا نشروا الكراسة رقم (١) بعنوان (حول الألفباء الكردي) والكراسة رقم (٢) بعنوان (صفحات من الألفباء)، والكراسة رقم (٣) بعنوان (قلوب أولادي) وتحتوي على أشعار للصغار، وغير ذلك. بل بدأ تدريس اللغة الكردية على أساس الألفباء اللاتيني في بيروت عام ١٩٣٣ عن طريق إقامة مدرسة ليلية نالت بسبب الاستقبال الحار الذي لقيته من العمال والحرفيين الكرد العاملين في العاصمة اللبنانية، نجاحاً يستحق الإطراء والتقدير.

ولم تكن المشاكل المادية التي تعترض طريق إنجاح عمل يستهدف خير جمهرة محدودة وتحول دون انتشار وتوسع حركة كهذه، قليلة بمزيد الأسف. إلا أنها لم تستطع أن تثبط عزيمة

القائمين بها. ولم تعد مجلة (هاوار) التي تعطلت في صيف عام ١٩٣٥ ولحد الآن إلى الصدور، ولكن الكراريس ظهرت مجدداً بعد توقف دام ثلاث سنوات بطبع ونشر دورة جديدة من الكتب الدراسية الناجحة إلى حد كبير والمؤلفة خصيصاً للمدارس الابتدائية. وهكذا ظهرت الكراسة رقم (٩) بعنوان (الألفباء الكردي)، والكراسة رقم (١٠) بعنوان (القراءة الكردية) والكراسة رقم (١١) بعنوان (ألفبائي أنا)، والكراسة رقم (١٢) بعنوان (الدروس الدينية). وعلى هذا النحو تهيأت مجموعة من الكتب الدراسية يمكن أن تكون أساسا للتعليم باللغة الكردية. ومن خلال هذه الإجراءات، وفي الوقت الذي تشيع فيه الاستفادة من الألفباء والرغبة في المطالعة بين المتعلمين، فإن الشعب المتعلم هو الذي يعرف قدر كنوزه الأدبية التراثية على نحو أفضل.

وهكذا وجدت الحركة الثقافية الكردية في سوريا توسعاً محسوساً، وهي مدعاة لأمل كبير[١١١]. ولئن كانت هذه الحركة قد عجزت في سوريا عن أن تحصل على مثل الانتشار والتوسع الذين حصلت عليهما في أرمينيا السوفيتية والعراق، فإنها تمتعت بدلا من ذلك بميزة قيمة هي أنها حافظت على وجهتها الكردية الأصيلة ولم تقع تحت تأثير أي نوع من الأفكار الغريبة عن سجايا اللغة الكردية والأدب الكردي ورقتها ولطافتها. إن هذه الاستقلالية بمثابة شهادة ناطقة في الوقت نفسه على نوعية المزاج الروحي للمتعلمين الكرد في سوريا والحياد الكامل للدوائر الفرنسية، وهي ستؤدي في آخر الأمر إلى أن تضفي على الحركة الثقافية الكردية في سوريا قيمة معنوية ذات مستوى رفيع.

هـ - الحركة الثقافية الكردية في العراق:

لئن كان (م. روندو) جعلنا، كما بينا على اطلاع على عالم الأدب الكردي في سوريا، فإننا مدينون في اطلاعنا على عالم الأدب الكردي في العراق للمقال القيم الذي نشره سي.جي. أدموندز بعنوان "فهرس المطبوعات الكردية في كردستان الجنوبية من عام ١٩٢٠ حتى عام ١٩٣٦" في جريدة (الجمعية الملكية لآسيا الوسطى)، المجلّد الرابع والعشرين

---

[١١١] حدث تقهقر في هذه الحركة منذ حين بعد كتابة هذه السطور. وكان ذلك بسبب هجرة كامران عالي بدرخان من بيروت ووفاة جلادت عالي بدرخان وتبدل الجو السياسي في سوريا.

الصادر في تموز ١٩٣٧. إننا نجد في المقال المذكور وخلال الفترة الزمنية المذكورة مطبوعات دورية ما تزال تنتشر بالفعل أو كانت تنتشر، وذلك على النحو التالي: في السليمانية سبعة عناوين، في كل من رواندوز واربيل (هولير) وكركوك عنوان واحد، في بغداد أربعة عناوين. ثم تأتي قائمة الأعمال الشعرية للشعراء الكرد المعاصرين ممن أشرنا إليهم من قبل وتبلغ تسعة عناوين، فكتب الشعر والدراسات النقدية والمؤلفات والقصائد وتبلغ ستة عناوين. أما القسم الرابع وهو التاريخ فيضم ثلاثة عشر عنوانا معظمها (أحد عشر منها) بقلم حسين حزني الذي وجدنا الفرصة في هذا الكتاب للإشادة باسمه مراراً[١١٢]. وفي قسم المسرحيات والروايات نجد ثلاثة عناوين أحدها ترجمة لكتاب لـ (كونان دويل)[١١٣]. وفي القسم التالي حيث وردت أسماء الكتب الدينية والأخلاقية نجد خمسة عشر عنواناً معظمها رسائل صغيرة الحجم، باستثناء واحد منها وهو ترجمة لكتاب حول بهاء الله ويقع في ٣٣٦ صفحة. وفي القسم اللغوي (قواعد اللغة والقواميس وكتب الألفباء وكتب القراءة) نجد عشرة عناوين. أما الكتب العسكرية والفنية والتربوية والتعليمية فنجد فيها ستة عناوين. وأخيراً نجد أربع بيانات سياسية ودعائية ينتهي بها الفهرست. ويجب القول أنه يمكن أن تكون هناك مطبوعات كثيرة أضيفت منذ عام ١٩٣٦ فيما بعد إلى هذا الفهرست[١١٤].

كل هذه المؤلفات، وبعبارة أصح هذه المؤلفات التي نالت شرف الطبع (إذ أن من المحتمل ان لا نكون على اطلاع على جميع المؤلفات الكردية ذات العلاقة بالكرد وكردستان)، سواء تلك التي نشرت في دمشق أو في بغداد، يمكن أن تبدو شيئا جد قليل بالقياس إلى غنى التراث الفولكلوري الكردي. ومع هذا فإنها تعكس الجهود الجديرة بالتقدير التي يبذلها العلماء والكتاب الكرد لنشر وتعميم لغة وأدب وتاريخ شعبهم. ولو

---

[١١٢] راجع الفصل الثامن من هذا الكتاب.

[١١٣] مؤلف الروايات البوليسية التي يلعب دور البطل فيها شارلوك هولمز. المخبر الطريف – عن الترجمة الفارسية.

[١١٤] ومع هذا ينبغي الإشارة إلى كتاب بعنوان (تاريخ الأدب الكردي) لخص تلخيصا رائعا من قبل (ب.ت.بوا) (راجع مصادر الكتاب). (يقصد تاريخ الأدب الكردي للمرحوم علاء الدين سجادي. وقد صدرت طبعته الأولى عام ١٩٥٢ وطبعته الثانية في السبعينيات – المترجم).

كان الكرد الذين يعيشون في بلدان مختلفة يتمتّعون بشبكة تعليمية مجهزة تتناسب مع عدد نفوسهم في تلك البلدان، لكان بوسعهم أن يقوموا بنهضة أدبية كبيرة ويتوصّلوا إلى نتائج جد مهمة.

و – النجاحات التي أحرزتها الدراسات اللغوية بين كرد الاتحاد السوفيتي:

نلاحظ في الواقع الدليل على هذه النجاحات في وضع الكرد في اتحاد الجمهوريات السوفياتية، الذين غدا بحثنا الآن محصوراً فيهم فقط. من المسلم أنه في الجهود الجديرة بالانتباه التي يلاحظ بذلها بين أولئك الكرد، ينبغي أن ننسب القسط الأوفر إلى الأغراض الدعائية للدولة السوفياتية. فهذه الدولة لا تقصر في بذل أي مساعدة لأولئك الكرد، شأنهم شأن سائر القوميات الداخلة في اتحادها الكبير التي ظلت أيام الحكومة القيصرية محرومة من كل مساعدة ومن كل متابعة معنوية لتقدمها. وفي الحقيقة يمكن للمرء أن يتساءل عما إذا كانت ترجمة (البيان الشيوعي) لانجلز أو الرسائل الشيوعية الأخرى حول صراع الطبقات أو التعاونيات الزراعية بوسعها أن تقدم أي خدمة للرعاة الكرد في ما وراء القفقاس، ولكن لا يمكن التغاضي عن حقيقة أن كرد أرمينيا وأذربيجان والكرد المقيمين في سائر مناطق الاتحاد السوفياتي يتمتعون اليوم بشبكة تعليمية كافية لهم، ومن ضمنها أن لهم معهدا لإعداد المعلمين وجريدة وكتباً مختلفة يتجاوز عددها المائة. ويمكن أن يبدو إلى حد ما عجيبا في نظر العامة أن يكون لحفنة من الكرد المشتّتين في حواشي كردستان التاريخية مركز ثقافي متكامل إن لم يكن قوميا بالمعنى الأخص، فإنه يستطيع على الأقل استخدام اللغة الأم للتعبير عن خلجاتهم الفكرية. وهناك نقطة ينبغي أن لا تغيب عن الأذهان وهي أن السياسة الستالينية بشأن القوميات تتلخص في هذه المقولة: يجب أن تكون الثقافة قومية الشكل، إشتراكية المضمون. وبديهي أنه في ظروف كهذه لا تكون مسألة التطور الحر للتراث الثقافي التقليدي للشعب الكردي أمراً موضوعاً على بساط التحقيق، والتطور المسموح به والذي يجري تشجيعه هو ما يكون ضمن (الخط العام) المحدد من قبل المكتب السياسي للحزب.

ومع هذه الملاحظات، فإننا ننقل هنا مرة أخرى فقرة من أقوال (فيليجفيسكي) بشأن نجاح الدراسات اللغوية بين الكرد السوفيت. يقول (فيليجيفسكي): أن سفينة المناطق التي يقطنها الكرد والسياسة القومية اللينينية التي تسير عليها الدولة السوفيتية والحزب الشيوعي هما وحدهما اللتان وضعتا مسألة توفير الإمكانية لجماهير الشعب الكردي للكتابة الأدبية باللغة الأم ضمن برنامج العمل اليومي وحلّتاه بنجاح. في المرحلة الأولى من إيجاد الكتابة الأدبية الكردية لم يكن بالإمكان إعداد وتحرير الكتب المدرسية الابتدائية وكتب المصطلحات ذات الطابع المحلي الصرف، وبخاصة بسبب أن لغة تلك الكتب لا تتعدّى حدود اللغة واللهجة المستخدمة في المحل المطلوب، لأن كرد ما وراء القفقاس مشتتون بين أرمينيا وجورجيا وأذربيجان وأراضي نخجوان وحتى تركمانيا الواقعة وراء بحر خزر. ومن هنا، فإنه ابتداء من عام ١٩٢٨ فما بعد، ظهرت أولاً الكتب المؤلفة باللغة الكردية الدائرة بين ارمينيا، ثم غدا يستفيد منها فيما بعد الكرد المقيمون في جورجيا ونخجوان الذين تقرب لهجتهم من لهجة كرد أرمينيا. وفي عام ١٩٣١ نشرت عدة كتب بلهجة كرد أذربيجان. وفي عام ١٩٣٣ بدأ بذل الجهود لجعل كرد تركمانيا أيضا يتمتعون بآدابهم المكتوبة.

وعندما غدت مسألة التعليم والتعليم والقراءة والكتابة مسألة في المناطق التي يقطنها الكرد من الاتحاد السوفياتي من عام ١٩٣٢ وفيما بعد، وإذ تحقق التقدم الاقتصادي بعد تصفية الطبقات المستغلة عبر جعل الزراعة وتربية الحيوان اشتراكية، ودخلت النهضة الثقافية بين الكرد إثر ذلك مرحلة التحقّق. وخلال ذلك ظهر العمال الكرد في معامل أرمينيا وجورجيا إلى الوجود وبدأ تكون فئة مثقفة بينهم - آنئذ صارت قضية إيجاد أدب أقوى بوسعه أن يحتوي ضمنه البناء الثقافي الكردي الجديد ويعكسه ويكون قومي الشكل، اشتراكي المحتوى أمراً ذا موضوع. ولكن يحق السؤال في الوقت نفسه بشأن اللغة الأدبية الكردية: أي لغة ستكون هذه اللغة؟

إن المشاكل النظرية والعملية التي تظهر عادة على طريق تحقيق هذه الأمور تزداد صعوبة بمشكلة أخرى وهي أنه ولحد الآن لم تجر إلا دراسات قليلة بشأن اللغة واللهجات

الكردية، وأن كرد كردستان السوفياتية الذين لا يتجاوز عددهم جميعاً مئة ألف نسمة لا يشكلّون بالقياس إلى الكرد القاطنين بلاداً أخرى إلا أقلية جد ضئيلة.

ز - مؤتمر عام ١٩٣٤ في يريفان:

أصبح واضحا أنه منذ ذلك الوقت فما بعد غدت مسألة إيجاد أدبيات مدونة ولغة أدبية كردية وضمان ارتباطهما بأدبيات الكرد ولغتهم في ما وراء الحدود السوفياتية بمثابة الهدف الأصلي والرئيس لأعمال المؤتمر المنعقد في صيف ١٩٣٤ في يريفان. والواقع أن جميع الأشخاص الذين أسهموا في ذلك المؤتمر كانوا ينظرون إلى حل هذه المسألة كامتحان عسير وتجربة لمدى التطور السياسي والثقافي للكرد السوفيت، بحيث أن جميع المسائل الأخرى التي كانت تنهض أمام المؤتمرين في سياق أعمال المؤتمر لم تكن لتحل إلا ضمن حل هذه المسألة الأساسية في ثقافة الكرد السوفيت.

وخلاصة القول أنه أيا كانت المشاكل المنهجية أو العملية التي واجهها المؤتمر خلال جلساته، فقد أظهر على وجه العموم أنه واصل عمله على العموم بكل الجدية والاهتمام، وقد حلت المشاكل المطروحة فيه على بساط البحث بنجاح. ويرى (فيلجيفسكي) أن نجاح المؤتمر يعود إلى أنه بدلاً من أن يطرح في جدول أعماله موضوعا متعلقا بعلم اللغة فقط ويضع أمام المؤتمرين قضية اختيار اللهجة الفلانية بوصفها اللهجة الرئيسية أو أنقى اللهجات أو التي جرى الحفاظ عليها أحسن من غيرها، ويقرر أنه ينبغي أن تغدو تلك اللهجة أساسا للغة الأدبية أو يرجّح معياراً أو اصطلاحا لغويا ليستخدم في الأعمال الأدبية على غيره، فقد واجه، على العكس، كل هذه المسائل الفرعية بروحية جد واقعية وطرح المسألة الأصلية، مسألة اللغة الأدبية للكرد السوفيت كمبدأ أساسي مسلم به بهدف إيجاد لغة للجماهير الواسعة من العمال الكرد يمكن تحقيقها كما يمكن فهمها بالنسبة إليهم.

ومن هنا، فإنه في الوقت الذي اختار المؤتمر اللغة الأدبية لكرد أرمينيا بوصفه النقطة التي يبتدئ منها إيجاد اللغة الأدبية المطلوبة، فإنه أولى النقاط التالية أيضا الاهتمام الضروري:

١ - أهمية هذه اللغة بوصفها لغة البروليتاريا الكردية[١١٥] التي كانت في طور التكوين في تفليس ولينينا كان [١١٦] وفي مناجم (الله ويردي) للنحاس.

٢ - وجود فئة لها وزنها من المثقفين الكرد السوفيات ممن أسهموا في تكوين وتدوين هذه اللغة ويسهمون أيضا فيهما فيما بعد.

٣ - إمكان الاستفادة من أحسن نماذج الأدبيات الكلاسيكية الكردية (أحمدى خاني ومدرسته) بوصفها التراث الأدبي واللغوي مع ملاحظة الروابط القريبة التي تربط لغة كرد أرمينيا بهذه الأدبيات.

٤ - وجود فولكلور جد غني في لغة كرد أرمينيا.

٥ - وجود أدبيات جديرة بالانتباه إليها في هذه اللغة (مئات الكتب وجريدة تصدر بانتظام) يلاحظ من خلالها التقاليد اللغوية والأدبية للكرد السوفيات.

وفي الوقت نفسه من البديهي أن مسألة علاقة اللغة الأدبية للكرد السوفيات بلغة سائر الكرد في البلاد الأخرى تطرح نفسها أيضا. فهذه المجاميع من الكرد السوفيت الذين كانوا حتى الأمس أكثر الجماعات تخلفا في النهضة الكردية الثقافية، تحولت اليوم بفضل السياسة القومية اللينينية الصائبة تماما، ومن جراء إسهامها الفعال في عملية بناء الثقافة الجديدة غير المعروفة حتى الآونة الأخيرة، التي يطلق عليها اسم ثقافة المجتمع الاشتراكي، تحولت إلى طليعة للثقافة الكردية، وان عقد مؤتمر يريفان إنما هو واحد من أنصع معالم هذه الحقيقة. فالرعاة والفلاحون الكرد الذين كانوا حتى الأمس ما يزالون أميين، أخذوا يتدارسون في ذلك المؤتمر بشأن لغتهم وثقافتهم. وقد تولى فيه زمام الحديث أحد العمال الزراعيين القدماء وهو اليوم أستاذ جامعي.

[١١٥] يلاحظ أحد المراقبين السوفيت، بحق، "أنهم - أي السوفيت - يتصورون أنه مادام المجتمع لم يغد بعد مجتمعا صناعيا، لا يمكن القول أنه يسير نحو التقدم" و "الهدف الأساسي من تحويل الرعاة الآسيويين إلى عمال معامل ومكائن آلات يدوية" . أنظر: ليتل بيج، بحثا عن مناجم ذهب سيبيريا، ص ٢٣٢ و ٢٣٣.

[١١٦] الاسم الجديد لمدينة (الكساندرو بول) من مدن أرمينيا. نقلا عن الترجمة الفارسية لهذا الكتاب - المترجم.

ومن جهة، يلفت فيلجيفسكي النظر (ونحن نختلف وإياه في هذه النقطة وفي نقاط أخرى)[117] إلى أنه عندما يحرض عملاء الأمبريالية العالمية الكرد الموجودين في ما وراء حدود الاتحاد السوفياتي على التآمر في صورة نشاطات أدبية [أي ضد الاتحاد السوفياتي - المترجم]، أي قيمة ثقافية يمكن أن تكون لأدبيات أولئك الكرد سواء لهم أو لأدبيات الكرد السوفيت[118]؟

يقول (فيلجيفسكي): وبناء على هذا، ففي الوقت الذي يجب فيه على اللغة الأدبية للكرد السوفيات أن تستفيد من النجاحات التي أحرزتها بدون شك أدبيات الكرد خارج الحدود السوفياتية في المجالات الفنية وفي غنى المفردات وكيفية الصياغة[119]، لا يصح

---

[117] إننا نعتقد أنه لفكرة غير مسؤولة تماما أن نعتقد أن البروليتاريا وحدها التي ينبغي أن تلعب الدور الرئيسي في التطور الوطني لشعب ما، بخاصة عندما يكون الحديث عن مجتمع مثل المجتمع الكردي لم يتطور من الناحية الاقتصادية إلا تطوراً جد ضئيل. وكما لا بد من أن يكون القارئ قد لمس بنفسه حتى الآن أننا لا نقصد أن لا نأخذ الجانب الاجتماعي للقضية الكردية بنظر الاعتبار؛ ولكننا لا نعتقد أن الكرد السوفيت يستطيعون وينبغي أن يكونوا النموذج والقدوة للجماعات الأخرى من هذا الشعب.

[أقول لعب سوء الفهم الناشئ عن حداثة الفكرة وعدم شيوعها شيوعا طبيعيا واتخاذها أيديولوجية رسمية ومفروضة على المجتمع من قبل الدولة، دوراً كبيرا في عدم فهم دور البروليتاريا في تطور الأمة وقيادتها فهما صحيحا وعدم التفريق في ذلك بين مجتمع صناعي رأسمالي متطور إلى حد كبير كبلدان أوروبا الصناعية. وبلدان ومناطق أخرى لم تنشأ فيها الصناعة إلا بقدر ضئيل أو لم تتجاوز مرحلة الرعوية والإقطاع ككثير من المجتمعات الآسيوية. وإلا فمن ذا يمكن أن يتصور طبقة عاملة رائدة بين رعاة كرد مشتتين في أصقاع مختلفة مما وراء القفقاس في أوائل نشوء الاتحاد السوفيتي وقبل أن يجري تعليم وتمدين وتطوير أولئك الرعاة وقبل إقامة صناعات حديثة في بلادهم وظهور مزاج مدني بين الناس المتخلفين عن التاريخ منذ آلاف السنين. إن تطور الأوضاع في آسيا الوسطى السوفياتية كان كفيلاً بحد ذاته بأن يقنع الدولة فيما بعد بإبقاء الرعاة التركمان والأوزبك وغيرهم رعاة يرعون مواشيهم، مع بناء المدارس ثم الكليات لهم وإشاعة الصحافة والمكتبات والمسارح بينهم والمستشفيات البيطرية لمواشيهم وتطوير الخدمات لها من أجل تحضير منتجاتها وفق أسس علمية حديثة دون الإصرار على تحويلهم إلى عمال – المترجم].

[118] بناء على ما يقوله لنا (روندو) عن كرد سوريا. فإن هذه المسألة لا تصدق بالنسبة لأولئك.

[119] أيضا. مما لا شك فيه أن الاستعمار البريطاني في العراق. على سبيل المثال. كان يعمل بقدر ما يمكن وبقدر ما تتحمل القضية. من أجل تشويه ما كان يجري آنذاك في الاتحاد السوفياتي في نظر المواطنين الكرد. وكان من المفهوم أن ينظر أولو الرأي هناك ببعض الريبة إلى نجاحات الكرد الثقافية في كردستان العراق من حيث إمكانية استغلالها ضد السوفيات بما فيهم الأقلية الكردية في ما وراء القفقاس. ولكن هذا المبدأ إن سلمنا جدلاً بكونه مفهوما. لا يصح بأي شكل تعميمه على

لها أن تقلد تقليدا أعمى لغة وأدب أولئك الكرد الذين انتكسوا في مسار تطورهم وأخذوا يسلكون سبيل الانحطاط والتردي، بل يجب عليها أن تتخذ من التراث الأدبي الكلاسيكي الباقي من عهود ملوك الطوائف (الإقطاعيين) ومن الآثار الفولكلورية النموذج الذي يحتذى[١٢٠]. فعلى العكس، وكما عبر المؤتمر عن رأيه بشأن مسألة اللغة الأدبية الكردية، المطلوب هو جعل اللغة الأدبية للكرد السوفيات لغة أدبية للعمال في عموم أرجاء كردستان.

ومع هذا، فلئن كان المؤتمر قرر أن تكون لغة كرد أرمينيا أساساً لإيجاد لغة أدبية لكرد الاتحاد السوفيتي، فإنه عدد فوراً أيضا جميع العلل التي حالت حتى الآن دون أن تلعب هذه اللغة الدور الأول في بناء أدبيات الكرد السوفيت، وذلك على النحو التالي:

كامل نتاجات الكرد في العراق وسوريا والذين كانت طلائعهم الثقافية تناضل بكل جدية من أجل تطوير لغة شعبهم وإحياء أدبه وتراثه وتاريخه. فالمجتمعان العراقي والسوري كانا، كما هما اليوم، مجتمعين طبقيين إن صح أن للاستعمار ونفوذه وفكره المعادي للاشتراكية تأثيراً كبيراً على الجانب الثقافي فيهما أيضا. فإنه ليصح كذلك أن هناك في هذين المجتمعين تياراً وطنيا يستطيع التمييز بين العدو والصديق، فلماذا ينبغي أن لا يأخذ مثقف سوفيتي كفيلجيفسكي هذه الحقيقة بنظر الاعتبار ويدين كل الإنجازات الكردية التي حققها الشعب الكردي بعرق جبين وأتعاب فكر مثقفيه بأنها تحت تأثير التحريض الاستعماري ضد الاتحاد السوفيتي؟ إننا إذ نلقي اليوم نظرة على الأدبيات الكردية في العراق طيلة سنوات ما قبل الحرب العالمية الثانية – مثلا لا نصادف إلا أقل القليل مما كتب ضد الاتحاد السوفيتي. أضف إلى ذلك أنه كان يمكن الاستفادة من الناحية اللغوية والأدبية حتى من الأدبيات الكردية التي كانت تصدر من قبل (عملاء الاستعمار) وبتوجيه منه. وذلك في سبيل مساعدة اللغة الأدبية الكردية السوفيتية حتى تنهض على قدميها من غير أن تحول دون ذلك محتويات تلك الأدبيات – المترجم.

[120] هذا وبالضبط ما قلنا في الهامش السابق. ولعل من نافلة القول بيان أن هناك تناقضا في أقوال (فيلجيفسكي). إذ ينفي من جهة إمكانية الاستفادة من نجاحات الكرد الأدبية واللغوية فيما وراء الحدود السوفيتية، ويدعو من جهة أخرى إلى الاستفادة الفنية من تلك النجاحات – المترجم.

١ - إن كثيراً من الأدبيات الكردية التي طبعت في أرمينيا غير مفهومة بالنسبة للجمهرة الواسعة من العمال الكرد[١٢١]، ويعود السبب في هذا إلى أن أولي الشأن في طبع ونشر تلك الأدبيات ليس لهم رأسمال أدبي كاف وإطلاعهم على اللغة الكردية غير كثير.

٢ - ونتيجة لهذا فإننا نرى في الغالب أنهم أدخلوا مصطلحات في هذه اللغة غير موفقة بوضوح، وقد صاغوا تلك المصطلحات دون أن يأخذوا بنظر الاعتبار الجانب العالمي في تطور اللغة الكردية في الاتحاد السوفياتي.

٣ - الإملاء المستعمل في الكتابة غير صحيح، وتلاحظ نواقص في الألفباء. وكل هذه العيوب ناتجة من أن دستور اللغة الكردية في الاتحاد السوفياتي لم يدون بعد بصورة جيدة.

٤ - يلاحظ عند بعض المؤلفين ميل واضح نحو تطبيق الشعار الموسوم بـ "الإصلاحي" الذي يقول: "أكتب كما تسمع من الناس" في حين أن هذا الأسلوب دين منذ زمن في مجال الدراسات اللغوية في الاتحاد السوفياتي.

٥ - هناك ميل آخر لا يقل خطورة عن الأول وهو أن البعض يقولون أن اللغة الكردية المستعملة في أرمينيا لغة أدبية متكاملة وليس فيها نقص في الوقت الراهن بالنسبة لكرد الاتحاد السوفيتي. إن هذا الميل ملحوظ في بعض محافل المثقفين البورجوازيين الكرد، وهو ناتج عن طرز تفكير علماء الدراسات الهندواوروبية[١٢٢] في مجال أشكال اللغة "الأنقى" و "الباقي بصورة أحسن من غيرها" وغير ذلك مثلاً.

---

[١٢١] حتى أن بعض الكتابات الشيوعية المترجمة إلى اللغة الكردية ينبغي أن يكون معها قواميس يفسر معاني الكلمات والمصطلحات وتعطي بشأنها إيضاحات أكثر. ومع ذلك فان هذه الإيضاحات لا تجعل الموضوعات أكثر قابلية للفهم.

[١٢٢] إشارة إلى الجانب الذي أسقط اعتباره من الدراسات اللغوية الغربية ووضعت موضعه "النظرية الجديدة في علم اللغات" للبروفيسور مار لحين إسقاطها من قبل ستالين في عام ١٩٥٢.

ومع أخذ كل هذه الملاحظات بنظر الاعتبار، عبر المؤتمر عن رغباته التالية بكل صراحة:

١ - تنظيم العمل في مجال المصطلحات وصياغة الكلمات حسب المبادئ المعمول بها في هذا المجال في لغات الاتحاد السوفيتي أي بالبدء بعولمة[١٢٣] اللغة والاستفادة بموازاتها من جميع إمكانات خلق الكلمات التي تمتلكها اللغة المعنية.

٢ - ضرورة الأخذ بنظر الاعتبار إلى جانب المصطلحات العالمية والسوفياتية، الخصائص المحلية للغة الكردية في المناطق البعيدة جغرافياً والمختلفة اقتصادياً، وهذا يقتضي إعطاء حرية اكثر عند تأليف وتحرير الكتب الابتدائية الكردية والكتب الخاصة بالجماهير الواسعة من الناس (بشرط أن تكون الاستفادة من هذه المطبوعات محصورة في المنطقة المعنية وحدها).

٣ -إعداد وتدوين قواعد لغة علمية وعملية للغة الأدبية الكردية في الاتحاد السوفيتي بصورة سريعة.

٤ -الكف عن التغييرات غير المدروسة في الألفباء وأساليب الكتابة الراهنة بانتظار عرض نتائج أعمال الهيئة المكلفة بتدوين قواعد اللغة للتمحيص والتدقيق في المؤتمر الثاني.

٥ -كل هذه الأفكار المتعلقة بدور اللغة الأدبية بوصفها العامل الفعال في التحول الثقافي أثارت في مسار أعمال المؤتمر وفي نفوس الجميع، رغبة واضحة في الانتقال إلى مسائل أخرى أيضا لا علاقة لها بالدراسات اللغوية. ومن هذه مثلا أثار تقرير شاميلوف[١٢٤] حول البناء الاجتماعي-الاقتصادي للمجتمع الكردي جدلاً مثيراً غاية الإثارة بشأن إثبات أن الثقافة القومية الكردية كانت موجودة

---

[١٢٣] أي جعلها عالية-المترجم

[١٢٤] الذي تعرف عليه القارئ باسم (عرب شمو). راجع الفصل الثالث. المقاطع المقتبسة من كتابه المعنون (الراعي الكردي).

على أرضية تاريخية في الأزمنة السحيقة في القدم[١٢٥]. وعلى أساس هذه الفكرة ينبغي تفسير مطالبة المؤتمر معاهد الاستشراق في اكاديمية العلوم السوفياتية بدراسة وطبع تواريخ الكرد (كالشرفنامه) ومعاهد اللغة والفكر بأن تتولى دراسة وتحقيق المسائل المنهجية المتعلقة بتطور اللغة الكردية وطبع الآثار الكلاسيكية في الأدب الكردي.

وكما ذكرت بشأن مجاميع الكرد في الاتحاد السوفيتي، إننا نرى أنفسنا أمام وضع غريب إلى حد ما ومغاير لما تعتقده العامة. لا يوجد في الواقع أي دليل يدلنا على أن الكرد السوفيات يلعبون دوراً قيادياً في النهضة الفكرية والروحية لأبناء أمتهم في البلدان الأخرى. لابد أن القارئ قد لاحظ أن الدولة السوفياتية منحتهم نوعا من الحكم الذاتي الثقافي بحيث يستطيعون أن يدرسوا بلغتهم الأم وينشروا بها كتبا، ولكن ما يشك فيه هو أن غرضها من هذا الإجراء كان تسهيل التطور القومي للكرد: إن أعمال مؤتمر يريفان ترينا أهدافا مخالفة لهذا الأمر. إن هدف المؤتمر المذكور هو تدوين وتكوين لغة أدبية مشتركة للكرد تكون لغة لجميع "العمال الكرد" على نطاق كردستان بأسرها. وبعبارة أخرى ينبغي أن تكون هذه اللغة في خدمة النفوذ السوفياتي في قطاع كردستان من بلاد الشرق. هل تسمى لغة كهذه لغة كردية؟ أجل، ولكن ينبغي قبل كل شيء أن تستلهم لغة البروليتاريا الكردية التي تعمل في المعامل، أي تستلهم لغة أناس أبعدوا عن محيطهم التقليدي وعن جميع خصائصهم الأصيلة. هؤلاء الكرد البروليتاريون لا يعودون كرداً، وإنما هم شيء آخر، إنهم كرد بالاسم فقط ويذوبون في الجماهير التي لا اسم لها ولا سمة ولا علامات فارقة من العمال المتكونين من مختلف القوميات والذين يعملون من أجل تنفيذ خطط الدولة السوفياتية.

ويلاحظ من جهة اخرى بصورة غير مباشرة، أن المؤتمر لم يستطع أن يحمل الآخرين نظرته هذه، دون أن يثير مجابهات وردود فعل قوية ومكشوفة. ومن تلك أنه أشار إلى حقيقة وأهمية المقام الذي يليق بالأدب الشعبي (الفولكلور) والأدب الكلاسيكي الكردي، هذه

---

(١٢٥) راجع بهذا الشأن الفصول الخاصة بتاريخ الكرد ودينهم من هذا الكتاب.

الأدبيات التي يحس فيها هذا الشعب برعشات روحه متناغمة مع كل الأحاسيس التي فيه عن الشرف والرجولة والوفاء إزاء رئيس القبيلة والارتباط بالوطن وغير ذلك. وهكذا يبدو أن الدراسة المادية لقضية الآداب بين كرد البلاد السوفياتية تنتهي إلى نتيجتين، فمن جهة لا يمكن إنكار النتائج الحاصلة عن اليقظة الفكرية لهذه الأقلية التي غدت تملك لها نظاما تعليميا خاصا، وهذا ما كان قد أهمل في ظل النظام السابق. ومن جهة أخرى أن ما هو مدار البحث هو الحديث عن القيمة الكامنة في أفكار تلقّن لهذه الجماهير الكردية عبر هذه المدارس وهذه الآداب.

ويخشى أن ينقطع يوما ما الصلة الفكرية واللغوية لهؤلاء المثقفين الكرد الذين ظهروا محملين بهذا الطراز من الفكر المفتعل بمواطنيهم، فيمسوا كمن يسبح في الفراغ[١٢٦].

---

[١٢٦] أود أن أذكر تعليقا على مجمل ما ورد في هذا التعقيب الذي كتبه المؤلف الفاضل عن (مؤتمر يريفان) وأفكاره وتوجهاته خدمة للحقيقة كما أراها، أن الحديث الكثير الذي يبدو أنه دار في أروقة مؤتمر يريفان وأجوائها. هذا الذي يتحدث عنه المؤلف، عن لغة أدبية للبروليتاريا الكردية (سواء في الاتحاد السوفياتي أو في غيره أيضا من البلاد) كان حديثا فارغا وجدلا عقيماً لم ينتج إلا عن سوء فهم عميق الأغوار لما جرى في الاتحاد السوفياتي والشعارات التي رفعتها الثورة وما قيل من أن البروليتاريا استولت على السلطة وأن الدولة غدت دولتها، وعن مهمة اللغة أيضا وسماتها: أهي واحدة من خصائص الأمة بكل طبقاتها الاجتماعية. أم أن لكل طبقة من طبقاتها لغتها الخاصة بها؟ إن ما نعرفه نحن عن الموقف الماركسي من اللغة إنها تعود للأمة كلها وليست لكل طبقة من طبقاتها لغتها، أي أن اللغة لا تحمل سمة طبقية، رغم أن هناك مفردات ومصطلحات تدور بين أفراد كل طبقة على حدة.

وبالنسبة لـ "لغة أدبية مشتركة للعمال الكرد" نقول أن الكرد السوفيات كانوا يتألفون في غالبيتهم من رعاة ومربي مواش ومن قليل من الفلاحين واقل من هؤلاء بكثير من الحرفيين وغيرهم. ونادراً ما كان يمكن العثور على عمال كرد في صناعة النفط في أذربيجان أو في الصناعات الصغيرة واليدوية الأخرى التي كانت موجودة في ما وراء القفقاس. فعن أي عمال كرد وتكوين لغة أدبية مشتركة لهم كان يجري الحديث وكان ينبغي أن يجري؟ لقد كان كرد ما وراء القفقاس يفتقرون إلى مجتمعات كبيرة يشكلون فيها أكثرية الناس في أي منطقة من تلك الديار. فأين كان يمكن أن تقام لهم هذه الصناعات الكبيرة التي يذهبون إليها فتحولهم إلى بروليتاريا صناعية؟ وحتى إذا أمكن إقامتها في عملية طفرة وحرق مراحل. فهل كان بالإمكان أن تشمل جميع أفراد المستوطنات الكردية؟ بعد مضي نصف قرن على الحكم السوفياتي كانت المجتمعات الكردية تتكون من رعاة ومربي مواش وفلاحي تعاونيات (كولخوزات وسوفخوزات) ومن عمال في مشاريع المدن وآخرين كثيرين ينتمون إلى مختلف شرائح الوظائف والخدمات العامة والقطاعات الثقافية. أليس من الواضح إذا أن الحديث عن (لغة أدبية مشتركة للعمال الكرد) وليس للكرد بمختلف مهنهم وحرفهم واختصاصاتهم كان حديث خرافة لا تقوم لها قائمة

رابعا - دور روسيا في حركة الاستكراد:

لعلّنا لا نجافي في الحقيقة إن قلنا، ونحن نختم كتابنا هذا حول الكرد، إن روسيا وبخاصة حركة الاستشراق الروسية، هيأت أفضل فرصة حتى الآن لاكمال الأعمال الاستكرادية. ينبهنا (مينورسكي)[١٢٧] إلى أنه وإن لم يكن السواح الروس الذين جاءوا كردستان كثيرين

ولا يتعدى الانسياق وراء الأحلام الطوباوية التي يكثر الحالمون بها بعد كل تحول كبير يجري في أحشاء أي مجتمع من المجتمعات البشرية.

كان من الواضح قبل المؤتمر وبعده أن العمال الكرد الذين قد يوجدون في المعامل والمصانع السوفياتية يجدون إلى جانبهم عمالا آخرين أكثر منهم عددا بكثير ينتمون إلى قوميات البلاد الأخرى، وقد يكون الروس في أكثر الأماكن في مقدمتهم. فماذا يفيد العمال الكرد في مثل هذه المجتمعات التي ليست بأي حال مجتمعات كردية، لغة أدبية مشتركة خاصة بهم، وهل من الواقعي إصدار مؤلفات ومجلات وصحف لهذه الحفنات القليلة من الناس بلغتهم؟ ليس ذلك من الممكن قطعا إلا إذا شكلوا نسبة كبيرة تتيح لهم فتح مدرسة أو محطة إذاعة او قناة تلفزيونية أو استيراد كتب وصحف ومجلات من أنحاء أخرى من البلاد يشكل فيها الكرد مجموعة سكانية يمكنها أن تكون لها مطبوعاتها القومية.

هذا أولا. وفي المقام الثاني أود أن أشير إلى أن الخوف الذي يعبر عنه المؤلف من أن نتيجة هذا الحكم الذاتي الثقافي الذي تيسر للكرد السوفيت في بعض سنوات ما قبل الحرب العالمية لثانية والتي صفيت فيما بعد شيئا فشيئا ولم يبق من آثارها إلا النزر اليسير، سيكون ظهور مثقفين كرد لا تربطهم صلة فكرية أو لغوية بشعبهم، ظهر تماما أنه لا يستند إلى أساس صحيح، فبالعكس، كان ذلك القدر من الحقوق الثقافية التي حصل عليها الكرد في الاتحاد السوفيتي دافعا قويا لبعث الروح القومية الصحيحة بينهم، هذه الروح التي لا تتعارض بأي حال مع الوطنية السوفياتية ومؤاخاة الشعوب. فالكرد السوفيات المنتشرون في مختلف أصقاع الاتحاد السوفياتي من آسيا الوسطى إلى موسكو ولينينغراد وما وراء القفقاس قدموا الخدمات الجلي إلى تاريخ وثقافة ولغة وأدب شعبهم وقاموا بالدارسات الممتازة وألفوا الكتب القيمة في هذه المواضيع. وكانوا متى ما سنحت لهم الظروف وخفت عن كواهلهم القيود الناشئة عن التشدد غير المبرر. على صلة و إحساس عميقين بحياة أخوتهم في أصقاع كردستان الأخرى. وعندما حدثت ثورة الرابع عشر من تموز في العراق وتسنى للطلبة الكرد العراقيين أن يتوجهوا إلى الاتحاد السوفياتي لطلب العلم وتكونت لهم الصلات مع الكرد السوفيات ظهرت هذه الحقيقة جلية للجميع، وكانت هذه الصلة وما زالت تشتد على مر الأيام. وبعد انهيار الاتحاد السوفياتي عم الكرد السوفيت أيضا شأنهم شأن سائر القوميات والأقليات الموجودة في روسيا الاتحادية والجمهوريات السوفياتية السابقة موجة عارمة من الانبعاث القومي تلعب الآن دورها لصالح هذه الأقلية القومية. وسوف نشهد للكرد في هذه البلاد مزيداً من الازدهار والتطور في حياة أبناء قومنا هؤلاء - المترجم.

[١٢٧] في كتابه (الكرد في روسيا) طبعة بتروكراد. ١٩١٥

(والذين جاءوها منهم كان معظمهم موظفين حكوميين أو ضباطا عسكريين)، إلا أنه يمكن القول بكل اعتزاز وفخر أن الاستفادة العلمية من الوثائق والمراجع المتعلقة بالكرد قد تركزت بصورة كلية في روسيا. فالقاموس التطبيقي لجميع لغات العالم المؤلف عام ١٧٨٧ من قبل الأكاديمي (بالاس) كان على وجه التقريب أول أثر علمي ضَم بينّ دفتيه ٢٧٦ كلمة كردية. وكما يحدث في مجالات العلم في الغالب، كانت هذه المنظومة الجديدة من المعلومات التاريخية مجالا للتحقيق والتتبع في الوقت نفسه وفي مكان آخر وبصورة منفصلة تماما.

فقد صدر أول كتاب في قواعد اللغة الكردية باللغة الإيطالية في روما في عام ١٧٨٧ أيضا، وكان مؤلفه قساً إيطاليا من مبشري المذهب الكاثوليكي ويدعى (موريتز كارتزوني). وكان هذا القس قد قضى ١٨ عاما من عمره في منطقة (آميدي) المهملة. يمكن للمرء أن يتصور كم كانت مشاكل الحياة قبل مئة وخمسين عاما (حالياً أكثر من مئتي عام - المترجم) كثيرة في قلب كردستان، وأي حرمانات واجهها هذا الأب المقدس في حياته بالقياس إلى العهد الذي كان يعيش ويعمل فيه، إننا إذا نظرنا إلى ما لعمل هذا الرجل من قيمة وجب علينا أن نطلق عليه اسم (أب الاستكراد).

يمكن أن يكون بيان المراحل التالية التي قطعتها حركة الاستكراد في مجال اللغة والأدب الكرديين ذا فائدة لذوي الاختصاص في الموضوع وحدهم، ولكن الإشارة إلى بعض الفقرات التي يتعلق بها تقدم معلوماتنا لن يخلو من فائدة أيضا.

منذ بداية القرن الثامن عشر علم (هربلو) بوجود كتاب تاريخي حول العشائر الكردية يشرح الحياة المدنية في كردستان خلال فترة مضطربة. استطاع السواح الإنكليز بعد بذل جهود شاقة أن يحصلوا على بعض من هذا الكتاب، ولكن أحسن نسخة منه وقع في أيدي الجماعات الروسية. ففي عام ١٨٢٨ وأثناء الحرب الروسية-الإيرانية استولى الجنرال سوستيلين على مدينة (أردبيل) ونقل مكتبتها المعروفة بالمكتبة الصفوية كتعويضات حرب إلى (سانت بطرسبورك)، وكان ضمن كتب هذه المكتبة نسخة من كتاب (شرفنامه) أعاد مؤلفه النظر فيه بنفسه ووشمه بخاتمه. وتوصل العلماء الروس فورا إلى أهمية هذا

الكتاب، وقبل أي أحد سواه قام الأكاديمي (فيليامينوف زيرنوف) بطبع نصه الفارسي، ثم قام من بعده الأكاديمي (ف. شارموا) بترجمته إلى اللغة الفرنسية خلال سنوات ١٨٦٨ - ١٨٧٥ في أربع مجلدات. وقد أمضى هذا الأكاديمي كل حياته تقريبا في إعداد هذه الترجمة.

وفي أثناء حرب القرم كان بعض الكرد ضمن الأسرى الترك الذين ساقوهم إلى حاكم (سمولنسك)، فأرسلت أكاديمية العلوم فوراً الأكاديمي (ليرخ) لمقابلتهم. وهو أول شخص طبع نصوص كتب كردية محققة (١٨٥٦ - ١٨٥٨).

كان كل من (بيرتزين) و (ديتل) اثنين من أساتذة الجامعات الروس الذين كلفوا في الأربعينات بالقيام بتحقيقات في الشرق. وقد قاما ضمن عملهما بتحقيقات حول الكرد ولغتهم أيضا. إلا أننا مدينون للتحقيقات التي أجراها كل من القنصلين الروسيين (خودزكو) و (زابا) أكثر من أي أحد سواهما. كان الأول يتمتع بروح باحثة غريبة إزاء كل شيء. لقد سافر كثيراً، وتعّرف في باريس على كردي مثقف[١٢٨]، ثم ألف كتاب باللغة الفرنسية نشره في جريدة (الوقايع اليومية الآسيوية ١٨٥٧). أما الثاني (أ. زابا) فقد سكن أرضروم من ١٨٤٨ حتى ١٨٦٦، وهناك حصلت له صلة باللهجة الغربية من اللغة الكردية، فجمع حوله عددا من المتعلمين الكرد وبمساعدة منهم دوّن قصائد مختارة للشعراء الكرد الكلاسيك وألّف قاموسا كرديا - فرنسيا وكتاب محادثة فرنسياً- كرديا، وأخيرا قاموساً كبيراً فرنسيا - كرديا - روسياً. ومن أعماله الأربعة هذه نُشر اثنان فقط من قبل أكاديمية العلوم، أما عملاه الآخران اللذان كانت قيمتهما العملية أكثر، فقد اعتبرا مفقودين. ولكن (مينورسكي) استطاع لحسن الحظ أن يجد معالمهما. وفي عام ١٩١٣ وضع ورثة (زابا) جميع الأوراق المكتوبة التي خلفها جدهم تحت تصرف (مينورسكي). ويقول (مينورسكي): أنه لن يدخر جهدا في سبيل طبع هذه الأعمال.

---

[١٢٨] يقال أن الشخص المذكور كان أحمد باشا بابان آخر أمراء بابان الذي قضي العثمانيون على إمارته ونفوه إلى استنبول ومات هناك – المترجم

وأخيراً، وفي حدود السبعينيات من القرن التاسع عشر، شرع البروفيسور .(يكيزاروف) بتحقيقاته حول الكرد القاطنين في مقاطعة (يريفان). لقد كان (يكيزاروف) على اطلاع منذ نعومة أظفاره على لغة أولئك الكرد. وهكذا استطاع أن يتعلم أشياء مفيدة وملفتة للنظر ويسجلها لديه.

لقد قوم عاليا خارج روسيا ما أسهمت به هذه البلاد في حقل الدراسات الكردية بحيث أن الأعمال التحقيقية التي قام بها العلماء الألمان من أمثال (جوستى) و (بريم) و (سوسين)، ومن ثم النصوص التي جمعها العالم النمساوي (ماكاس) أودعت كلها لدى أكاديمية العلوم الروسية لتقوم بطبعها تحت إشرافها، حتى بلغ الأمر حد أن جميع الأعمال الجيدة والمختارة المتعلقة بالكرد طبعت كلها في (سانت بطرسبورك).

ومع هذا، ينبغي التذكير بأن قسم الاستشراق لدى الدولة الألمانية بدأت تبذل المساعي بهدف مجاراة التقدم الروسي في هذا الميدان، وكان أن سافر لهذا الغرض وعلى نفقة الإمبراطور الألماني ويلهام الثاني نفسه العالم الألماني (أوسكار مان) في بداية هذا القرن إلى إيران وتركيا حيث قضى أربع سنوات صارفا معظم وقته تقريبا في هذه السفرة في الدراسة والتحقيق حول الأدبيات الكردية.

وأخيراً، ينبغي علينا أن نذكر بأنه منذ انتهاء الحرب العالمية الأولى، بل وحتى في بداياتها (لأن مؤلف "سون" حول قواعد اللغة الكردية نشر عام ١٩١٣) ظهر عدد من الكتب باللغة الإنكليزية حول الكرد، ومؤلّفوها هم كل من (ياردين) و (فوسوم) و (درايفر) وغيرهم.

وفي روسيا ما قبل الثورة كان يبدو أن السيد (أوربيلي) يريد التخصص في الدراسات الكردية. وهو بوصفه محافظا لمتحف الأرميتاج، لا يتخلّ عن عمله الدراسي في الوقت الذي يقوم بأعماله الأخرى أيضا. وإضافة إلى السيد (اوربيللي)، فإن البروفيسور (نيكولاى

مار) وجميع تلامذة مدرسته، ومنهم (فيلجيفسكي) حددوا معالم مرحلة جديدة من الاستكراد(١٢٩)

(١٢٩) وأضيف أنه ابتداء من عام ١٩٤٥ افتتحت في فرنسا دورة حرة لتعليم اللغة الكردية بمدرسة (لغات الشرق الحية) كان يدرّس فيها في البداية (روجيه ليسكو)، وبعده تصدى لهذه المهمة كامران عالي بدرخان. كما أنه افتتح في الآونة الأخيرة في بغداد مركز لتعليم اللغة الكردية تحت إشراف (نادي الارتقاء الكردي) بإدارة السيد محمود بابان من أسرة (بابان) العريقة التي كانت فيما مضى أسرة أمراء. وتلقى دروس اللغة الكردية كما تلقي المحاضرات وتعقد الندوات في هذا المركز حول الحضارة الكردية واللغة الكردية من قبل السيد توفيق وهبي، الوزير السابق والمؤرخ واللغوي الذائع الصيت (مجلة الشرق، بيروت العدد الصادر بتاريخ آب ١٩٥٥).

وأخيراً، نذكر أنه منذ عام ١٩٣١و فيما بعد، افتتح في جامعة لينينكراد قسم للدراسات الكردية تابع لكرسي العلوم اللغوية الإيرانية (الفيلولوجيا) برئاسة (أي.أي. تسوكرمان) و (قناتي كردوييف) و (آدوجنكوييف) وغيرهم (راجع مجموعة "اللغات الإيرانية" (بالروسية)، العدد ٢ الصادر في ١٩٥٠ الذي خصص أكثره لتحقيقات مهمة حول الكرد، ومنها بحث حول تركيب الصدى (الفونيتيك) في اللغة الكردية بقلم البروفسور ب. ف. ميللر عالم الدراسات الإيرانية من موسكو).

[أقول توقف عن العمل مركز تعليم اللغة الكردية القائم في بغداد هذا في خضم الأحداث التي أعقبت ثورة الرابع عشر من تموز ١٩٥٨ العراقية. عندما كان الناس يتوقعون الخيرات الوفيرة في كل المجالات للعراقيين عموما وللكرد خصوصا. ولكنها أسفرت وياللأسف في نهاية الأمر عن المآسي التراجيدية التي نزلت وما تزال تنزل بالعراقيين عموما وبالكرد بخاصة. وقد فتح في عام ١٩٦٠ قسم كردي في كلية الآداب بجامعة بغداد وأسست مديرية عامة للدراسة الكردية ما تزال تعمل بصورة مشلولة. المترجم].

ملاحق

ملاحق

الملحق رقم (١)

(يتعلّق بالفصل الخامس)

عندما كنت أتبّوا منصب القنصل، كنت أسعى من خلال التوسّط بين القيادة العسكرية الروسية والكرد، لأقلل، ما وسعني الجهد، من أعباء المحن والمصاعب التي كانت تحل بهؤلاء. وقد الّفت كراسة صغيرة تحتوي على المحادثات اليومية بالكردية والروسية ونشرتها، كما كنت أكافح من أجل التوزيع المتساوي للإمدادات الغذائية بين اللاجئين الكرد والمسيحيين، هادفا من وراء كل ذلك إلى تسهيل إيجاد حسن التفاهم بين الجميع. وبعد ما تركت (ورمى) في نيسان ١٩١٨ ووصلت طهران،كتبت بيانات مفصلة وأرسلتها إلى الأمريكان بشأن الفقر والبؤس اللذين يتخبط فيهما هذا الشعب النبيل الذي بات ضحية للحرب. وفيما يلي أنشر الأجوبة التي تلقيتها منهم في هذا المضمار:

من سفارة الولايات المتحدة الأمريكية

٨ تشرين الثاني ١٩١٨

إلى/ السيد ف. نيكيتين

قنصل روسيا في ورمى – طهران

السيد المحترم:

أعلمكم باعتزاز بتسلم رسالة حضرتكم الودية التي أشفعتموها بمقالة حول "مصير الكرد". لقد تليت المقالة باهتمام بالغ. كما سلمت نسخة منها إلى لجنة رفع الشكاوى الإيرانية الأمريكية. وأرسلت نسخاً إضافية منها إلى حكومتي المتبوعة في واشنطن.

بذلت السيدة مينورسكي كل اللطف معنا في ترجمة تلكم التفاصيل. وإنني أرجو حضرتكم أن تقدمّوا بالغ شكري وتقديري للسيدة المشار إليها.

مرة أخرى أرجوكم قبول احتراماتي الفائقة، وأقدم لكم شكري الجزيل.

جان ل. كالدول من لجنة رفع الشكاوي الإيرانية الأمريكية

(تحت إشراف اللجنة الأمريكية لرفع الشكاوى في الشرق الأدنى)

الرقم ١٣

طهران ١١ تشرين الثاني ١٩١٨

إلى ف. نيكيتين نائب قنصل روسيا في ورمى – طهران

السيد العزيز

أبلغكم باحترام بوصول رسالة حضرتكم المؤرخة ٧ من الشهر الجاري حول الأكراد. وستنال هذه القضية بالتأكيد الاهتمام الكافي مع تقديم الاحترام من

هاري برات جادسن

رئيس جامعة شيكاغو

و. مدير لجنة رفع الشكاوى الإيرانية–الأمريكية

الملحق رقم (٢)

(يتعلق بالفصل العاشر)

مقتبس من تقرير اللجنة التحقيقية المؤرخ في ١٦ حزيران ١٩٢٥
حول مسألة الموصل

جاء في التقرير:

"الكرد والعرب وحدهم الذين يعيشون في شكل جماعات مكثفة على أرض واسعة. وهاتان المجموعتان فقط في هذه المنطقة تستطيعان بتوزعهما وانتشارهما رسم خط فاصل بين الأعراق. يتقدم هذا الخط في امتداد نهر دجلة حتى ملتقى نهر الزاب الصغير، هذا الخط الذي يفصل الموصل من فتحات بواباتها عن أراضيها الخصبة الكثيرة السكان ثم يتبع من جنوبي نهر الزاب الصغير الطريق الرئيسية لكركوك - كفري.

إلا أن التقرير يضيف فورا:

"لا الحدود السياسية لهذه الأراضي المختلف عليها من الجانب الإيراني أو من الجانب السوري، ولا حدودها الفعلية او الحدود التي تتنازع عليها تركيا والعراق، كل هذه ليست حدودا تفصل الأعراق بعضها عن بعض.

"لو كان ينبغي أن نستنتج بصورة منفصلة من الاستدلال بالمبدأ العرقي، لتوصلنا إلى النتيجة التالية وهي أنه يجب تشكيل دولة كردية مستقلة، ذلك لأن الكرد (في ولاية الموصل) يشكلون خمسة أثمان السكان، ولو أن طريق حل كهذا

وضع سابقا بنظرالاعتبار لحسب اليزديون، وهم من عرق شبيه جدا بالكرد[١] والترك الذين يسهل سويتهم بالسكان الكرد في عداد الكرد ولبلغت نسبة السكان الكرد آنئذ سبعة أعشار مجموع السكان".

أكثرية الشعب الكردي، أي أكثر من مليون ونصف المليون من مجموع ثلاثة ملايين [٢] تسكن تركيا. ومنهم سبعمائة ألف في إيران، ونصف مليون في الأراضي المختلف عليها في سوريا[٣]. أما في العراق نفسه[٤]فإن عددهم لا يستحق الذكر.

"وهناك قرابة لهجوية وعرقية وروابط شخصية واقتصادية بين الكرد القاطنين في الأراضي المختلف عليها شمالي الزاب الكبير وبين أبناء عرقهم في ولايات (هكاري) و (ماردين) في تركيا. أما الذين يقطنون في جنوبي نهر الزاب الصغير، فقرابتهم مع أبناء عرقهم في إيران. ومن الصعب أن نستطيع رسم خط حدودي داخل الأراضي الواقعة بين هذين النهرين".

إن مشاكل القضية من حيث النظرة النوعية هي كما يلي:

أ - المدن التي تقطنها أكثرية أو أقلية جديرة بالاعتبار من الترك، تقع جنوبي المنطقة أي في الجانب العراقي، في حين أن الموصل، وهي مدينة عربية، تقع في مركز القسم الشمالي.

ب - لا ترتبط هذه المدينة بسائر الولايات العراقية ذوات السكان المقيمين[٥] إلا عبر أرض أكثرية سكانها الساحقة من الكرد وعبر طرق تدلنا علاماتها المحددة على مدن تركية وكردية.

---

[١] اليزيون كرد أصلاء.

[٢] راجع الفصل الأول من هذا الكتاب.

[٣] وفي الاتحاد السوفيتي [السابق – المترجم].

[٤] يقصد باستثناء ولاية الموصل – المترجم.

ج - المسيحيون مشتّتون ولكن أكثريتهم الساحقة تعيش في شمالي الموصل.

د - الأراضي التي يشكل الكرد الخلص سكانها أكثر من أي مكان آخر، أي شرقي هذه الأراضي، يرتبط بالشمال عبر طريق واحد لا غيره يتقدم إلى الأمام على امتداد نهر دجلة، ولا يمكن الوصول إلى قطاع رواندوز إلا عبر أربيل (هولير) ولا إلى قطاع السليمانية إلا عن طريق كركوك".

تظهر نتائج التحقيق في المرحلة الأولى أنه لا توجد في الأراضي المختلف عليها أحاسيس وطنية لصالح العراق إلا لدى قسم من العرب الذين تلقوا تعليما وتربية خاصين، وهذه الأحاسيس اليوم هي في الواقع نوع من التعصب القومي ممزوجا بخطوط من الوطنية المتطرفة وبالنفور من الأجانب في الغالب. ويشاهد بين الكرد إحساس وطني ومشاعر متنامية كردية خالصة لا عراقية. ولهذه الحالة مدى أوسع في الجنوب[٦] وكلما سرنا شمالا وجدناها تقل حتى أنها تزول في مناطق سهل الموصل وبين جبال عقره[٧]. ومثل هذه الأحاسيس منتشرة نسبيا أيضا بين ترك الولاية (ولاية الموصل).

إن فقدان الأحاسيس الوطنية العراقية هو الذي يفسر لنا كثرة الآراء المشروطة التي أشرنا إليها سابقا. حتى أن العرب الأكثر قومية يقولون إننا نفضّل تركيا على عراق واقع تحت الانتداب البريطاني. وعدد كبير من المسيحيين ذوي الأدمغة المتعفنة يرون على العكس أنهم أقل ثقة بحكومة تركية مما هم بحكومة عراقية تحت إشراف الأوروبيين[٨]. وبين اليزديين

---

(٥) يقصد الحضر غير الترحلين.

(٦) يقصد جنوب المنطقة المختلف عليها - المترجم.

(٧) من الصعب الموافقة على هذا الرأي. ففي المناطق التي يعيش فيها كرد هذه الديار بشكل جمهور مكثف. يحس الناس أنفسهم كردا لا غير. ويثبت التاريخ كله هذه المسألة. وكل ما هنالك أن هذا الإحساس تقل درجة شدتها في المناطق التي يختلط سكانها.

(٨) بالرغم من أن الجانبين كليهما فاسدان. فإن التجارب الماضية برهنت مع الأسف على أن حكومة تحت إشراف أوروبي أقرب إلى احترام بعض حقوق المواطن من حكومة وطنية المظهر دكتاتورية المحتوى - المترجم.

أيضا نصطدم بوجهات نظر من هذا النوع[٩]. أما كرد السليمانية فإنهم يريدون حكما ذاتيا محليا واسعا نسبيا يساعده المستشارون البريطانيون. أما الآراء التي ظهرت لصالح العراق فكانت بوجه عام وبالنسبة لمعظم أصحابها يستلهم المنافع الشخصية أو الجماعية وليس الأحاسيس الوطنية المشتركة.

وحتى إذا افترضنا أننا نستطيع تصديق أن المشاعر الموالية للعراق ليست حارة بدرجة بالغة، فإن من المسلم به مع ذلك أن تصريحات الحكومة التركية التي تدعي أن الأكثرية الساحقة من سكان الموصل يرغبون في العودة إلى أحضان الحكم التركي، ليست صحيحة. فالكرد يختلفون في عقائدهم الدينية فيما بينهم: الجماعات الكردية التي تقطن في السليمانية والمناطق المجاورة لها التي تطالب بحكم ذاتي في إطار الدولة العراقية يؤلفون نصف جميع الكرد القاطنين في العراق تقريبا. وحتى بين الترك، بوسعنا أن نجد أناسا يميلون نحو بغداد. وعلى هذا، وعلى العكس مما تدعيه الحكومة البريطانية، ليست القومية واللغة هي التي تثبت بالضرورة الميول والرغبات[١٠]، فكثير من العرب، وبخاصة من الطبقات الدنيا، تؤيد الحكومة التركية ويعبرون عن أحاسيسهم هذه بتعابير مؤثرة.

هناك نقطة مسلمة أخرى هي أنها فيما عدا منطقة السليمانية، الكردية، لا توجد منطقة أخرى تشمل نواحي عدة متحادة يمكن العثور فيها على وحدة رأي على وجه العموم بين السكان لصالح أحد الطرفين[١١].

إن هذه الاستنتاجات النهائية، وإن كانت صامتة، إلا أنها لا تحمل أي إشارة إلا تأييد ضعف النظرية القائلة بأن مجموع الولاية يميل للترك. وفي الوقت نفسه لا تؤيد أرجحية النظرية البريطانية بشأن المناطق والأعراق.

---

[٩] يفسر هذا ما عاناه اليزديون كأقلية دينية من اضطهاد مستمر مئات السنين من جيرانهم الكرد المسلمين ومن سيطرة الحكم العثماني المتبرقع نفاقا ببرقع الدين – المترجم.

[١٠] راجع الفصل الأول من هذا الكتاب وما كتبته فيه حول اللغة والعرق وقيمتهما النسبية. وكذلك راجع الفصل الثامن حول الشعب والدولة.

[١١] أي العراق وتركيا – المترجم.

الملحق رقم (٣)

(يتعلق بالفصل العاشر)

رسالة الشيخ محمود إلى رئيس مجلس عصبة الأمم

باريس، ٢١ مارس ١٩٣١

السيد الرئيس!

إني فخور بأن أعرض على مقامكم شكايات شعب كنتم أنتم وضعتموه تحت قيمومتكم وحمايتكم. وقد قيل: من كان قيّما على أحد كان حامياً له أيضا. هذا الشعب هو الشعب الكردي الذي أعتز غاية الاعتزاز بكوني فرداً من أفراده وهو يعيش اليوم في القطاع الجنوبي من وطن الكرد الكبير الذي الحق بالعراق.

إني أرى من واجبي أن ألفت أنظاركم إلى أن أرض كردستان الذي ضم إلى العراق لم يدخل بأي وجه تحت تصرف أي قوة من قوى الدول المتحّدة أو المتحالفة. لقد حمل الكرد ،سلاح بمبادرتهم الخاصة في عام ١٩١٨ واضطروا القوات التركية على ترك أراضيهم وأعلنوا الاستقلال وشكلوا حكومة تأخذ مقاليد أمور بلادهم في أيديها باسم "حكومة كردستان الجنوبية". في تلك الأيام كان العراق تسوده الفوضى. ومن سوء حظنا نحن الكرد أن بلادنا ألحتت فيما بعد بالعراق وظلت أوروبا التي كانت تدعي أنها حملت السلاح دفاعا عن الحق والعدل، ساكتة إزاء هذا الظلم الفاحش، الظلم الذي ربط مصير شعب بالرغم من أنه كان قد صار ذا حكومة عمليا وإن لم يصره رسميا، بمصير شعب آخر تختلف قوميته وقيمه وتاريخه ولغته وعاداته وتقاليده عما له هو. ومع هذا كان ما يزال هناك ما يستحق الامتنان وهو أن هذا الظلم الفاحش كان يخف إلى حد ما بالوعد الذي وعدته إياه عصبة الأمم بشأن منح كردستان الجنوبية حكما ذاتيا تاما ومتكاملا.

ولكن، ومع أن سنوات متتالية انقضت منذ ذلك الحين وحتى اليوم، لا ينحصر الأمر في أنه لم يتم الوفاء بهذا الوعد، بل على العكس تتعرض حياتنا، نساؤنا وأطفالنا وآباؤنا كل يوم إلى نيران القنابل والطائرات القاصفة والمدافع، وذنبنا أننا مازلنا نأبى أن نكون عربا ومازلنا في انتظار الوفاء بالوعود التي وعدونا بها.

لم تتردد حكومة العراق العربية لحظة واحدة في قصف مدينة السليمانية، عاصمة كردستان الجنوبية بالقنابل وقتل الكرد القاطنين في تلك المدينة انتقاما منهم لأنهم أبو الاشتراك في الانتخابات التي كانت تلك الحكومة تنوي إجراءها للمصادقة على القرارات التي تنكر جميع الحقوق المشروعة للكرد وتدك قصور الآمال والأماني التي بنوها لأنفسهم بشأن مستقبلهم. إننا نرى أن هذه القنابل وطلقات الرشاشات التي تنهال على رؤوس وأجساد الضحايا الكرد القاطنين في كردستان الجنوبية هي كذلك في الواقع حملات تشن على شرف عصبة الأمم، لأن الكرد واقعون تحت وصاية هذه العصبة أي تحت حمايتها.

ولو لم تكن قوات الحكومة العراقية تعتمد على طائرات وجيوش الحكومة البريطانية التي وضعت عصبة الأمم هذه البلاد تحت انتدابها لتديرها باسم العصبة، لكانت إعادة أحداث التاريخ والزحف على بغداد واحتلالها سهلا على الكرد ككل الأعمال اليومية التي يقومون بها دائما. إننا مستعدون وسنكون مستعدين دوما للدفاع عن وطننا بوجه العرب، ولكننا لكوننا لا نرغب في أن نصطدم بالسلاح بالحكومة البريطانية التي تقوم بأعمالها باسم العصبة الموقّرة، نرجح اللجوء إلى العصبة نفسها بشكوانا ونطالبها بتحقيق الحق والعدل.

لا شك في أن السلام الذي تنشده العصبة الموقّرة لن يستتب بأي وجه في هذه البقعة من العالم بالطلب منا أن نلتحق بالعراق العربي وبالسعي لاقناعنا بهذا الإلحاق بقوة السلاح. وما دام مصير وطن الكرد لم يوضع في أيدي أبناء هذا الوطن أنفسهم، وما دام لم تتول زمام الأمور في هذه المنطقة التي تعيش فيها الكرد حكومة كردية، لن يكون بالإمكان ضمان السلم والأمن فيها. إن الكرد الذين لهم ماض تاريخي يمتد إلى آلاف السنين واستطاعوا في مختلف أدوار التاريخ أن يدافعوا عن حياتهم ووطنهم وتاريخهم ومؤسساتهم

القومية، قد صمّموا اليوم على الدفاع المسلح عن أنفسهم وشرفهم حتى يموت آخر فرد منهم دون أن يخضعوا لعبودية عرب العراق.

نحن الكرد نريد أن نكون أصدقاء لكل الجماعات وكل الشعوب ولا نحمل أي ضغينة في نفوسنا لأي شعب، ولكننا لا نستطيع أن نظل لا مبالين تجاه ظلم كمنع الاستقلال عن شعبنا الذي استطاع أن يحرز بشرفه وشجاعته وسجاياه البطولية مقاما شامخاً في تاريخ الشعوب، في حين أنكم منحتم الاستقلال لجماعات بدوية أفريقية كما في ليبيريا، ولاسيما أن الحكومة العراقية العربية تحاول جاهدة بالاستناد إلى الحكومة البريطانية وبابتلائها بداء التعصّب العنصري المتطرف أن تحطم مقاومتنا، متوسلة بالإجراءات الحربية الأشد دموية.

لقد جرى بدون رحمة وبواسطة الرشاشات والقنابل حصاد مئات الكرد العزل الذين لم يكن لهم أدنى رغبة في الاعتداء على أحد، وكان كل همهم أن يعبروا عن آرائهم السياسية. ولئن كان الكرد يحملون السلاح اليوم فإن الجريرة تقع على الاعتداءات الدموية البعيدة عن العدل والإنصاف التي تعرضوا لها.

لقد كان وسيظل الدم والنار عاجزين دائما وأبدا عن تغيير الحقائق التاريخية وتحويل مئات الألوف من الكرد من أمثال صلاح الدين الأيوبي وكريم خان زند إلى عرب. فلسنا، انا و شعبي، بمشاغبين أو متعصّبين دينيين ومتعطشين إلى الدم. ولئن كنا حملنا السلاح بأيدينا، فذلك لمجرد أنهم أكرهونا على اتخاذ هذا الموقف واضطرونا إليه وسلكوا بنا هذا السبيل.

لسنا نرغب في السيطرة على أي شعب وأي بلاد ولا نريد أن نكون سادة على أحد، ولكننا لا نقبل أيضا أن يكون غيرنا مسيطراً علينا وأن يكون علينا سيد ورئيس سوانا نحن. وهذه فكرة وعقيدة ضحى الألوف والألوف من بني البشر بحياتهم في سبيلها في الحرب الأخيرة، كما أنها فضلا عن ذلك حق عرّفتنا به عصبة الأمم نفسها في الأيام الأخيرة وصادقت عليه.

اسمحوا لنا بأن نؤكد لكم أن هذه الحالة الثورية التي أثارها سوء نوايا الحكام العراقيين لن تنتهي إلا عندما يتم الاعتراف بجميع الحقوق المشروعة للكرد بصورة رسمية وتراعى تبعا لذلك.

إن ما نطالب به هو الاعتراف باستقلال وطننا أي بـ "حكومة كردستان الجنوبية" تحت الإشراف المباشر لعصبة الأمم وبإنهاء وإزالة أي تبعية لنا لحكومة العراق العربية. وإن المعاهدة الجديدة المعقودة بين بريطانيا والعراق التي تنهي الانتداب البريطاني على العراق، دليل على حقيقة أن طريق الحل الذي نقترحه نحن منطقي تماما ولا مندوحة عنه، وهو أن تعود عصبة الأمم، بالنظر في الحقائق التي وقعت، إلى قرارها الذي اتخذته عام ١٩٢٥.

مع تقديم احتراماتي الفائقة

عن سكان كردستان الجنوبية

الشيخ محمود

الملحق رقم (٤)

(يتعلّق بالفصل العاشر)

رسالة حول الأقليات الكردية

من مؤلّف هذا الكتاب إلى مدير جريدة (تايمز)

السيد المحترم

تضّمن العدد الصادر في ١٦ حزيران ١٩٣٧ من جريدتكم تفاصيل من مراسلكم في أستانبول بعنوان "الكرد المحتجون على التربية والتعليم. الثورة التي سحقت بواسطة قوات الجيش". وقد ذكر ضمن المقال أن الثورة الجديدة التي نشبت بين كرد (درسيم) نشأت بسبب المعارضة التي أبداها سكان المنطقة لتنفيذ التعليم الإجباري والإصلاحات الأخرى. وقد سحقت هذه الاضطرابات من قبل قوات الجيش والشرطة ضمن عمليات أبدت خلالها فتاة طيّارة حركات بديعة.

أرجو أن تسمحوا لي بوصفي إنساناً لديه شيء من الاطلاع على الكرد ولغتهم وتاريخهم أن أعرض عليكم كم أن هذه الأنباء المحزنة آلمتني. فالكرد الساكنون في تلك المنطقة يختلفون تماما من حيث القومية واللغة والمذهب والملابس والبناء الاجتماعي عن جيرانهم الترك. وفي هذه الخصومة التي ظهرت في (درسيم) ، نرى نحن أنفسنا وجها لوجه أمام شهادة جديدة على شجاعة الكرد وعلى تحكيم وتعزيز شخصيتهم بوصفهم أقلية قومية[١٢]. انه

---

(١٢) يورد المؤلّف أكثر من مرة تعبير (أقلية قومية) عند الحديث عن الشعب الكردي في كل من البلدان التي قسم وطنه عليها. والحق أن الشعب الكردي ليس أقلية قومية في كل من تركيا وإيران والعراق على الأقل لأن الأقلية القومية هي المجموعة البشرية الخاصة التي لا تملك أرضها الجغرافية الخاصة. بعكس الشعب الكردي الذي يؤلف وطنه في هذه

لخطأ أن نتصور أن الكرد يعارضون التربية والتعليم. إن ما يقف الكرد بوجهه هو محاولة تحويلهم إلى ترك. إن لغة الأم بالنسبة إلى الكرد هي اللغة الوحيدة التي بوسعها ضمان تقدم الفرد الكردي وتطوره بصورة طبيعية ومتناسقة، وهي ما تستطيع ضمان زيادة ارتباطه بالبلاد التي يتحمل إزاءها مسؤولية بوصفه مواطنها.

لقد تّم الاعتراف بحقوق الأقليات الكردية في الأماكن الأخرى بناء على توصيات مجلس عصبة الأمم الصادرة لحل مشكلة الموصل. ويتمتع الكرد في العراق في ثلاثة ألوية هي أربيل وكركوك والسليمانية بحقوق ثقافية كاملة بحيث يستطيعون استعمال لغتهم الأم والسير على عاداتهم وتقاليدهم دون أن يلحقوا أي أذى بوحدة الدولة التي يعتبرون ضمن أتباعها الأوفياء[١٣]. وتصدق القضية نفسها بالنسبة لكرد أرمينيا السوفياتية أيضا وتسير الحكومة السوفياتية كذلك على سياسة يتم بموجبها الحفاظ على حقوق الأقليات.

وما دام لم يعمّم تحقيق هذه المبادئ النبيلة، نظل نشهد بمزيد الأسف مثل هذه الصدامات التي تهزّ القلوب بين (الأدمغة الحكومية المفكرة) ومطالب الأقليات التي يصعب إنكار حقوقها المشروعة.

ف. نيكيتين قنصل روسيا السابق في إيران

٢٩، درب جوج صاند، بارس، السادس عشر

(نشر في العدد الصادر بتاريخ ٢٢ تموز ١٩٣٧ من جريدة التايمز)

الأقطار أجزاء مقسمة من وطن واحد. راجع أيضا مقالنا بعنوان: القضية الكردية كما يطرحها الكاتب التركي إسماعيل بيشكجي، جريدة (الحياة) الدولية، العدد ٢٦٦ ١٣ ليوم ١٩٩٩/٧/٤ – المترجم.

(١٣) الواقع أن هذه الحقوق الثقافية الكاملة التي تتحدث عنها الرسالة مبالغ فيها إلى حد كبير. فرغم وجود قرار من عصبة الأمم بهذا الشأن ورغم صدور قانون في العراق باسم قانون اللغات المحلية. لم يكن الاعتراف بالحقوق القومية الكردية في العراق يتعدّى التدريس في المرحلة الابتدائية باللغة الكردية في محافظة السليمانية وبعض أنحاء محافظة أربيل وصدور بعض الجرائد والمجلات والكتب القليلة بهذه اللغة هنا وهناك من العراق. وإذاعة كردية تبث برامج باللغة الكردية عدة ساعات من اليوم من بغداد وحدها – المترجم.

الملحق رقم (٥)

(يتعلّق بالفصل العاشر)

رسالة المؤلف إلى مدير جريدة لومتان (الصباح) التي لم تنشر

أول شهر أيلول/١٩٣٧

السيد المدير

طالعت مقالا منشوراً في جريدة (لومتان) بعنوان "تركيا أمام المسألة الكردية" تيسّرت لي من خلال مطالعته معلومات دقيقة عما جرى في (درسيم) ، تأثرت بعمق بإدراكها التام لأصل القضية وببعض جزئياته.

إنني أعرف الكرد وعلى معرفة بلغتهم وتاريخهم، وأظن أنه لا يمكن اليوم إنكار الأمر المعترف به تماماً وهو كونهم أقلية مع النتائج القطعية المضمونة بشأن حقوق الإنسان. هذه الناحية تم القبول بها في العراق، وهناك يتمتّع الكرد، بناء على توصيات عصبة الأمم الصادرة في ١٩٢٦ بنوع من الحكم الذاتي الثقافي والإداري. الأمر في أرمينيا السوفياتية هي الأخرى على المنوال نفسه. وأخيراً ينبغي الإقرار بأن هناك في اللغة الكردية نوعا من النشاط الأدبي ولا يحول دون فعالية أكثر نتاجا في هذا المضمار إلا الظروف السياسية غير الملائمة. ليست اللغة الكردية بأي وجه لهجة مشتقة من اللغة الفارسية أو عقداً منظوما من الكلمات الأرمنية والكلدانية والتركية والعربية، بل إنها لغة إيرانية في أصالة ومعالم اللغة الفارسية أو الأفغانية أو غيرهما، ظلت في مرحلة اللهجوية ولم تستطع بعد أن توجد

لنفسها لغة أدبية مشتركة. وهذا لا يعني بأي وجه أن نظل محرومين من النتاج الأدبي الكردي وبخاصة من النتاج الكردي الشعري، هذا النتاج الذي بدأ ينتشر وتجري فيه تحقيقات وتتبعات خاصة ويؤثر عميقا في نفس الإنسان بلطافة الأحاسيس التي عبر عنها فيه ولصفائه ونقائه اللغوي وغنائيته الفياضة. والمسألة، بالنسبة لمن يريد الحصول على معلومات بهذا الشأن، من الثبوت بحيث لا يبقى مجال للتردد وإثارة الجدل والشكوك حولها، لأن هذه الفرضية لا تملك أساسا في مجال الاستشراق ولا يمكن تأييدها. وعلى هذا، فإن الكرد وإن ظلوا حتى الآن في شكل قبائل ولا يملكون لهم دولة بل قسموا بين دول مختلفة، إلا إنهم وبصورة جازمة أقلية قومية ولا يستطيع أحد إنكار هذه القضية. وبناء على هذا، كيف يمكن للمرء أن يتساءل: هل لأحد الحق في أن يتحدث عن قومية (ناسيوناليزم) الكرد؟ بل ألا يثبت كاتب المقال نفسه مراراً وتكراراً لدى حديثه عن الثورات الكبرى في أعوام ١٨٣٢ و ١٨٨٠ و ١٩٢٤ - ١٩٢٦ و ١٩٢٩ - ١٩٣٠ وجود المشاعر القومية الكردية الجياشة؟ لم تكن الغاية من هذه الثورات إرضاء نزوات البحث عن الجاه والنفوذ وطلب رئاسة القبائل، هذه المطامح القديمة التي ولّى زمانها، بل كانت تعبيرا عن إحساس قومي راسخ. لا أحد يعترض على السكوتلانديين لأنهم يطلقون على أنفسهم عنوان (شعب) رغم أن بناءهم الاجتماعي والتاريخي يستند على القبائل، والحكم نفسه يصدق على الكرد أيضا. هذه قضية تطور تدريجي لصالح مقتضيات التاريخ، ولكنه ليس حجة لتبرير سياسة الإبادة الشاملة والإعدامات والنفي التي تتّبع بحق هذه الأقلية التي لا تملك وسيلة للدفاع عن كيانها وللفت نظر العالم إلى وجودها سوى اللجوء إلى السلاح وغير شجاعتها الذاتية: "ليست المسألة الكردية أكثر من مسألة أمنية". إذا قبلنا مثل هذه النظرية ذهب هباء مرة واحدة كل ما أحرزته حقوق الشعوب من تقدم ولم يبق بعد مجال لعرض الحقوق الإنسانية المهدورة أمام أنظار الضمير القضائي للعالم المتمدن. كلا، ليست المسألة الكردية مسألة أمنية بسيطة. إنهامسألة الاعتراف بالحد الأدنى للحقوق الاجتماعية لأقلية قومية ولغوية واجتماعية لا يمكن أن يضمن لها التطور والتقدم الطبيعي الاعتيادي إلا بإعطائها تلك الحقوق.

من الممكن أن تكون معاهدة (سيفر) قد فسّرت تفسيرا سيئا من وجهة النظر السياسية ولم يعد تطبيقها ممكنا في النتيجة. إننا لا نريد بأي وجه في هذا المجال إعادة بناء التاريخ الدبلوماسي لآسيا الصغرى ما بعد الحرب، ولكن المعاهدة المذكورة كانت قد استصوبت ضمن أساس الاعتراف بمبدأ وجود كردستان مستقل ذاتيا، تقدم المبادئ الأخلاقية الدولية، في حين أن معاهدة لوزان لم تأخذ هذا الموضوع بنظر الاعتبار بمزيد الأسف. فهي من حيث تقدم وتطور الحقوق الدولية معاهدة متخلفة.

أعتذر من طول الكلام وأرجو قبول احتراماتي الفائقة.

ف. نيكيتين، القنصل السابق

والعضو الفخري للأكاديمية السياسية الدولية

وعضو جمعية باريس الآسيوية

الملحق رقم (٦)

(يتعلّق بالفصل الثاني عشر)

فهرست المدارس القرآنية (العلوم القديمة)

في مدن كردستان وقراها

أ) في تركيا[١٤]:

١ - في مدينة أربيل (هولير): مدرسة الملا أبو بكر أفندي.

٢ - في أطراف أربيل: مدرسة (بهاركي) الملا طه الخوشناوى.

٣ - في قرية (خازه). بمنطقة أربيل: مدرسة الملا أحمد.

٤ - بين عشيرة (دزه يى) بمنطقة أربيل: مدرسة الملا محمد أمين (المعروف بأنه يدفع الأجنة بأوراده وأدعية).

٥ - في مدينة كويسنجق: مدرسة الملا عبد الله.

٦ - في قرية (بيتواته) بمنطقة كويسنجق: مدرسة الملا محمود أفندي.

٧ - في مدينة رواندوز: مدرسة الملا أسعد أفندي.

٨ - في قرية (خه تى) بمنطقة رواندوز: مدرسة الملا عبد الفتاح.

٩ - في مدينة كركوك:

١ - مدرسة الملا عبد الوهاب.

---

[١٤] يجب الانتباه إلى أن المقصود من (تركيا) هنا وفي الكتاب عموما هو المملكة العثمانية - المترجم.

٢ - مدرسة الملا محمود المزناوى.

٣ - مدرسة الملا عبد المجيد أفندي.

١٠ - **في مدينة السليمانية: مدرسة الملا شيخ سعيد السليماني.**

١١ - في مدينة عقره: مدرسة الملا حبيب الله أفندي.

١٢ - بين عشيرة السورجي (بمنطقة عقره): مدرسة الشيخ بيجل للملا رسول.

١٣ - في قرية (شوشى) بالمنطقة نفسها: مدرسة الملا سليمان أفندي.

١٤ - في مدينة آميدى (العمادية): المدرسة المعروفة بدار المفتي للملا محمود أفندي.

١٥ - في قرية (بامرني) بمنطقة العمادية: مدرسة الملا محمد سعيد.

١٦ - في مدينة (مايى) بمنطقة العمادية:

١ - مدرسة الملا الشيخ محمد طاهر.

٢ - مدرسة الملا الشيخ طه.

١٧ - في قرية (أتروش) بمنطقة دهوك: مدرسة الملا عبد الهادي.

١٨ - في قرية (دهوك) بمنطقة دهوك: مدرسة الملا عبد الجبار.

١٩ - في مدينة (بريفكان) بمنطقة دهوك: مدرسة الملا الشيخ محمد فاضل.

٢٠ - بمدينة (بروزكي) بمنطقة دهوك: مدرسة الملا الشيخ محمد.

٢١ - بمدينة (نهرى) بمنطقة شمدينان:

١ - مدرسة الحاج الملا أحمد.

٢ - مدرسة الملا عمر.

٣ - مدرسة الملا سعيد (معلمي للغة الكردية).

٢٢ - في قرية (بيسكان) (في ناحية "گەردى" بمنطقة شمدينان: بمدرسة الملا محمد قاسم.

٢٣ - بين عشائر (هركي) و (دوسكاني) و (مزوري) لا توجد مدرسة في الوقت الحاضر، لكن مدرسة قرية (بيكول) كانت مشتهرة فيما مضى.

٢٤ - في قصبة (ديزه) بمنطقة (كياور): مدرسة الملا طاهر أفندي.

٢٥ - في قرية (هيرواته) بمنطقة (كياور): مدرسة الملا محمد.

٢٦ - في قرية (بارزان): مدرسة الملا أحمد أفندي.

٢٧ - في قرية (لكتان) بمنطقة (زيبار): مدرسة الملا بيره.

٢٨ - في مدينة (جوله ميرك): مدرسة (ميدان) للملا ياسين أفندي.

٢٩ - في مدينة (باشقلا - باش قلعه):

١ - مدرسة (شيخان) للشيخ طه والشيخ حكيم.

٢ - مدرسة المفتي: للملا عثمان أفندي.

٣٠ - في قرية (رسولاني) بمنطقة باشقلا: مدرسة الملا علاء الدين.

٣١ - في قرية (أرواس) بمنطقة (نورديز): مدرسة الملا معصوم أفندي.

٣٢ - في مدينة (وان):

١ - المدرسة الكسروية: للملا محمد سعيد (المعروف بعلمه وفضله).

٢ - مدرسة مسجد الأسكندرية: للملا محمد سعيد الهناري.

٣ - مدرسة (ديرتكيه خورخور): للملا درويش.

٣٣ - في مدينة (بدليس): مدرسة الملا أمين افندي (الذي كان حافظا لجيمع الأحاديث النبوية).

٣٤ - في قرية (خيزران): مدرسة الملا عبد الله أفندي.

٣٥ - في قرية (تاقي) بمنطقة (موش) مدرسة الملا فتح الله أفندي.

٣٦ - في مدينة (جزيره) بمنطقة (موش): مدرسة الملا فتح الله أفندي.

٣٧ - في مدينة (سعرد): مدرسة الملا خليل والملا حسن أوغلي.

٣٨ - في قرية (بياره) بمنطقة (هورامان): مدرسة الملا عبد القادر.

ب- في ايران:

٣٩ - في مدينة (سنندج) بمنطقة (أردلان) مدرسة (دار الإحسان) للملا عبد الله الدشه ئي.

٤٠ - في مدينة (ساوجبلاغ - مهاباد):

١ - مدرسة القضاة: للحاج الملا حسن والملا وسيم.

٢ - مدرسة المسجد الأحمر (مزكه وتى سوور).

٣ - مدرسة مسجد رستم بيك: للملا حسين.

٤ - مدرسة مسجد عباس آغا: للملا سعيد أفندي.

٥ - مدرسة مسجد البازار: للملا حسين الترجاني.

٤١ - في مدينة (شنو - أشنويه):

١ - مدرسة مسجد (كرخوران): لكاكه ملا.

٢ - مدرسة مسجد الخليفة زهدي: للملا محمد الكوئه ي.

وفضلا عن المدارس التي أسلفنا ذكرها، فقد أقيمت بجهود خانات عشيرة (زرزا) ومساعيهم مدارس في القرى التالية أسماؤها والتي تتبع منطقة (شنو): (نلوس)، (دى شمس)، (سنكان)، (شيخان)، (صوفيان)، (جلديان)، وكذلك في القسم الجنوبي في منطقة (لاجان) في قرى (خلدر)، (سيلوه)، (زيوكان)، (بسوى)، (سركانى)، (شيناوا).

٤٢ - في قرية (كوران آوا) بين عشيرة (منگور): مدرسة الملا عبد الله.

٤٣ - في قرية (ستيرلان) بين عشيرة (منگور) مدرسة الملا رسول.

٤٤ - في مدينة (خانقين) مدرسة الملا..[١٥].

---

(١٥) في الواقع أن كردستان العثمانية والإيرانية التي كانت فيها هذه المدارس التي عدّها المؤلف. كان فيها أضعاف هذا العدد من المدارس. فحسب المعلومات التوفرة لدي كان في السليمانية التي لم يثبت لها الفهرست إلا مدرسة واحدة ما لا يقل عن ٢٥ مدرسة قل عدد طلابها أو كثروا. وكذلك أربيل التي ثبت لها الفهرست عشرين بمدرسة وكذلك كركوك التي

إن هذا الفهرست الذي أعد من قبل الملا سعيد، وقد علمنا فيما سبق أن الملا سعيد هذا كان يدرس في واحدة من تلك المدارس (العدد ٣/٢١)، يرينا على وجه العموم [أكثر من - المترجم] خمسين مدرسة تدرس فيها العلوم القديمة وتغطي جميع أرجاء كردستان. وإذا لا حظنا أنه يحتمل أن تكون هناك مدارس لم تذكر سهوا، استطعنا أن نفترض أن مجموع هذا الرقم يبلغ ٧٥ مدرسة لعدد من السكان يبلغون على الأقل ثلاثة ملايين كردي أي ما يعادل مدرسة واحدة لكل ٤٠ ألف نسمة.

ومنذ ذلك الوقت وحتى الآن، أي خلال فاصلة زمنية تبلغ ربع قرن (حاليا ثلاثة أرباع القرن - المترجم)، تغيرت أشياء كثيرة في كردستان، إلا أن من المؤكد أن هذه التغيرات لم تكن لصالح المدارس القديمة. والفهرست الذي ثبته قبل عدة سطور يشمل المدارس الموجودة في البلاد العثمانية والإيرانية، لكنني الفت نظر القارئ إلى أن الأماكن المسجلة تحت رقم ١ - ٢٠ تكون الآن جزءا من العراق، ومن ٢١ إلى ٣٧ تقع في تركيا[٣]. ويمكن تخمين أن هذه البؤر الصغيرة للدراسة القديمة التي كان الكرد قد أقاموها قضى عليها نظام كمال أتاتورك في تركيا[١٦]. أما في العراق، فعلى العكس من ذلك، ينبغي أن تكون هذه المدارس استطاعت الحفاظ على نفسها ولاسيما إن التعليم باللغة الكردية مسموح به في

ثبت لها الفهرست ثلاث مدارس فقط. أما سنندج التي أشير إلى مدرسة واحدة فيها فكان فيها مالا يقل عن ثلاثين مدرسة. وهكذا مدن رواندوز وعقره والعمادية وكويسنجق وخانقين. وهناك مدن لم يشر إليها الفهرست أصلا مثل حلجبة وخورمال وبينجوين وقلاي مريوان وبانه وسقز وسردشت وبوكان ونودشه و پاوه وجوانرو وقلعة دزه وكفرى وزاخو وغيرها. إن حديثي ينحصر في كردستان الشرقية والجنوبية لتوفر شيئ من الاطلاع لدىّ عليها ولا أقول شيئا عن كردستان الشمالية التي كانت عامرة بمدنها وقراها التي كان يزدهر فيها العلم والتدريس. وخلاصة القول إنه في جميع مدن وقصبات كردستان كان عدد المدارس التي يدرس فيها عشرات الطلبة في إزدياد، و كان في كل قرية كبيرة أو متوسطة مدرسة وعدد من الطلبة على الأقل. ولمزيد من المعلومات يمكن الرجوع إلى كتب (سياحت نامه، أوليا جلبى) و (التعريف بمساجد السليمانية ومدارسها للشيخ محمد القزلجي) السالنامات العثمانية وبعض المؤلفات التي صدرت مؤخرا في إيران عن محافظات كردستان – المترجم.

(١٦) في تركيا منع الكماليون التعليم الديني مطلقا وبغير اللغة التركية مطلقا. ولم يبق هناك تعليم ديني إلا إذا كان يمارس سراً. غيرأن المدارس الدينية عادت إلى الظهور في تركيا شيئا فشيئا بعد الانفتاح السياسي والديني النسبي الذي حصل في السنوات الأخيرة وبمستويات دون ما كان عليها سابقا بكثير – المترجم.

العراق للكرد أنفسهم[١٧]، وفضلا عن ذلك أقيمت المدارس على الطراز الحديث هناك أيضا بكثرة [١٨]، ويمكن الافتراض أيضا أن هذه المدارس قد زاد عددها في إيران أيضا غير أن التعليم يجب أن يكون باللغة الفارسية[١٩].

(١٧) في العراق أيضا بدأ الاضمحلال في التعليم الديني بعد ظهور الدولة العراقية وإقامة المدارس الحديثة بصورة طبيعية ودون أي إكراه، لكن شيئا من النشاط حصل في مجال إعادة فتح المدارس الدينية في السنوات الماضية حتى أن الدولة أيضا أخذت تؤسس مدارس متوسطة وثانوية دينية يجري التدريس فيها بالعربية والكردية في (منطقة الحكم الذاتي)، وبالعربية وحدها في سائر أنحاء كردستان - المترجم.

(١٨) لم تكن المدارس الرسمية كثيرة ولاسيما في كردستان العراق حتى الخمسينيات - المترجم.

(١٩) في كردستان إيران كانت نسبة الاضمحلال في المدارس الدينية في أيام رضا شاه أقل بكثير مما كانت في تركيا الكمالية وأكثر مما كانت في العراق. وفي العقدين الأخيرين أخذت المدارس الدينية في كردستان إيران تستعيد عافيتها انطلاقا من مجمل الوضع القائم في إيران من جهة، وكرد فعل من جماهير الكرد السنية على اعتناء الجمهورية الإسلامية المطلق بالمذهب الشيعي وجميع مؤسساته من جهة أخرى. مع العلم بأن الدراسة في المدارس الدينية في كردستان الإيرانية والعراقية والتركية على حد سواء، كانت وما زالت باللغة الكردية لأنها كانت مدارس أهلية ينفق عليها الناس ولم تكن للدولة علاقة بها. أما كتبها المنهجية فقد كانت في غالبيتها باللغة العربية - المترجم.

وثائق وصلتني بعد تأليف الكتاب

بيروت ٣٠ مارس ١٩٤٥،

إلى حضرة السيد رئيس هيئة الوفد المرسل إلى مؤتمر سان فرانسيسكو:

دونما حكم مسبق حول القضايا التي ستطرح على بساط البحث في مؤتمر سان فرانسيسكو، أقدر أن هذا المؤتمر سيكون أول اجتماع يعقد لبدء مؤتمر السلام.

إني لفخور بأن أقدم إليكم باسم (اتحاد الكرد)[١] مع هذه الرسالة تفاصيل تشرح القضية الكردية. ان استقرار وثبات السلام في العالم أو على الأقل السلام في الشرق الأوسط سوف لن يضمن دونما إيجاد حل لهذه القضية المتعلقة بمصائر تسعة ملايين من الناس يسكنون في أرض مساحتها نصف مليون كيلو متر مربع، هذه الأرض التي تمتد من البحر الأسود وحتى الخليج الفارسي واعترفت باستقلالها رسميا في البداية معاهدة (سيفر).

ولأن وطن الكرد كله يقع تحت تصرف الدول الأجنبية وتعذر لذلك إرسال وفد من تلك البلاد، أرجو من حضرتكم أن تستغلوا نفوذ هيئة وفدكم ودولتكم لضمان الأغراض الآتية:

١ - أن تعملوا شيئا من أجل أن يقبل المؤتمر مبدأ الإقرار بحقوق الشعوب التي لم تحصل بعد على استقلالها بحيث تستطيع هذه الشعوب عرض مطالبها على المحافل الدولية. بدهي أن هذا المبدأ ينبغي أن يكون مقرونا بضمان الحيلولة دون القمع والاضطهاد الذي تستطيع الدول الحاكمة إيقاعه بأتباعها الذين يحاولون الاستفادة من هذا الحق.

---

[١] لم يتبين لنا من هو الذي أرسل هذه البرقية نيابة عمن أسماهم (اتحاد الكرد). كما لم يتبين لنا شيء عن هذا التنظيم المسمى (اتحاد الكرد) وأهدافه ومجال عمله ومؤسسيه وأعضائه - المترجم.

٢ - أن تجعلوا المؤتمر يوافق على عقد جلسة كاملة للنقاش حول القضية الكردية في جدول أعماله اليومية.

٣ - ان تقترحوا تشكيل لجنة دولية تتولى دراسة جزئيات القضية الكردية وإيجاد حل لها، أو أن تؤيدوا اقتراحا من هذا القبيل، إذ يمكن لتقرير من لجنة من هذا النوع أن يكون أساسا لإيجاد حل قد يريد مؤتمر السلام طرحه للقضية الكردية.

أرجو أن تتقبلوا وافر احترامي.

مذكرة حول كردستان[٢]

تتنبأ معاهدة (سيفر) التي عقدت في عام ١٩٢٠ بحضور لفيف من ممثلي الكرد، بإنشاء كردستان مستقلة، وذلك في موادها الـ ٦٢ - ٦٤ من فصلها الثالث.

ونتيجة لانقلاب كمال أتاتورك لم تدخل مقررات تلك المعاهدة حيز التنفيذ يوما ما. وفي عام ١٩٢٣ ألغت معاهدة (لوزان) مقررات معاهدة (سفير) الموقع عليها. وتعهدت الحكومة التركية لقاء ذلك، لمجرد تعهد، بالحفاظ التام على حياة وحريات جميع سكان بلادها دون التمييز بينهم على أساس المركز الاجتماعي والقومية واللغة والعنصر والدين.

قبل الحرب العالمية الأولى كانت الأراضي التي يقطن فيها الكرد مقسمة بين الدولة العثمانية وإيران، وكانت هناك أقلية كردية جد صغيرة في روسيا. ولكن مؤتمر الصلح والمعاهدات المختلفة التي عقدت مع تركيا وإيران والعراق وسمحت لمختلف دول الشرق الأوسط بأن تشكل لنفسها دولا مستقلة قليلا أو كثيرا، أدت، بالنسبة للكرد، وعلى العكس مما بالنسبة للبلاد الأخرى، إلى المزيد من التجزئة والتقسيم.

لقد قسم وطن الكرد الواحد الممتد من البحر الأسود حتى الخليج الفارسي والذي يسكنه شعب من دم واحد وعنصر واحد ويبلغ تعداده تسعة ملايين، على النحو الآتي:

---

[٢] لم يرد في الكتاب إشارة إلى الجهة التي بعثت هذه المذكرة ولا إلى أي جهة بعثتها. بل ولا إلى أنها ملحقة بالرسالة السابقة – المترجم.

البلاد	عدد الأكراد منهم ونسبته المئوية من كل السكان	عدد السكان عموماً	مساحة الأراضي التي يقطنها الكرد من هذه البلاد بالكيلو مترات المربعة ونسبتها المئوية من البلاد	مساحة البلاد كلها بالكيلو مترات المربعة
تركيا	٤ ٠٠٠ ٠٠٠ (٢٥٪)	١٦ ٢٠٠ ٠٠٠	٢٢٠ ٠٠٠ (٢٩٪)	٧٦٠ ٠٠٠
إيران	٣ ٥٠٠ ٠٠٠ (٢٣٪)	١٥ ٠٠٠ ٠٠٠	١٩٠ ٠٠٠ (١٢٠٪)	١ ٦٠٠ ٠٠٠
العراق	١ ٠٠٠ ٠٠٠ (٢٨٪)	٣ ٥٠٠ ٠٠٠	١٠٥ ٠٠٠ (٢٩٪)	٣٠٠ ٠٠٠

وبناء على هذا يكون ١٩٪ من جميع مساحة أراضي ثلاثة بلدان من أكبر بلدان الشرق الأوسط مسكنا للكرد و ٤٢٪ من جميع سكان هذه البلدان كردا.

ومن جهة أخرى، تقطن سوريا والاتحاد السوفيتي المحاذيين لكردستان تركيا ربع مليون و ١٦٠ ألف كردي على التوالي. وهذا بحد ذاته ما يوصل مساحة جميع الأراضي التي يقطن فيها الكرد إلى ٥٣٠ ألف كيلو متر مربع، وسكانها إلى حدود تسعة ملايين.

يدور الحديث هنا عن مجموعة سكانية من دم واحد وعنصر واحد أي الكرد الذين يتميزون تميزا واضحاً عن جيرانهم، لأنهم يرجعون من حيث العنصر واللغة إلى المجموعة الهندو أوروبية. لقد ذهبت هباء كل الجهود التي بذلتها الدول ذات المصلحة من أجل فرض لغاتها هي على الكرد. وبين كل الجماعات الساكنة في الشرق الأوسط التي انقسمت فيما بينها إلى أقسام متعددة بسبب الاختلافات العنصرية كالطورانيين والساميين والإيرانيين والحاميين، ومن بين الشعوب التركية والتاجيكية والعراقية والإيرانية والسورية واللبنانية والأرمنية واليهودية واليونانية، ومن بين الجموع الناطقة باللغات التركية والعربية والفارسية والمتدينة بالمذاهب السنية والشيعية والإسماعيلية والدرزية والأرثذوكسية والمارونية والمتعودة على العادات والتقاليد البدوية والحضرية، بين كل هذه وتلك نلتقي بشعب متحد بقوة ويؤكد بشدة على إرادته في استقلاله الوطني[٣].

---

[٣] يقصد الشعب الكردي وإن كان الحكم لا يخلو من مبالغة كثيرة - المترجم.

كان الكرد يوافقون في أيام الانتداب بعد الحرب العالمية الأولى، شأنهم شأن سائر شعوب الشرق الأوسط، على السير بهم تحت لواء نظام مماثل نحو الاستقلال. ولكن بينما كان لبعض الشعوب في تلكم الأيام مرشدون فرنسيون وانجليز وروس يضمنون أمنها ويقودون عملية توسيع مؤسساتها السياسية والاجتماعية ويعلّمونها إلى جانب اللغة الأم لغة عالمية أيضا، ويهيئون لها الإمكانية بهذه الطريقة للتوصل إلى الحضارات العالمية ليرتفع نتيجة هذا اللقاء مستواها الثقافي والحضاري، كان الكرد قد سُلِّموا بصورة مطلقة تقريبا إلى تركيا والعراق وإيران، وكانت هذه الدول تسعى لتصفيتهم جسديا عن طريق نفيهم وإبادتهم الشاملة وقصفهم بالقنابل وإكراههم عن طريق القضاء على قوميتهم على الذوبان والانحلال داخل تلك الدول فينتهي بذلك وجودهم المعنوي أيضا.

لقد صار وطن الكرد الذي غدا بالنسبة لكل واحدة من هذه الدول التي تقتسم كردستان فيما بينها جزءا من أراضيها، في حكم مستعمرة لها. ولذلك فهي تخاف ان تنتزع عنها هذه المستعمرة. إن هذه الدول تسعى دوماً لتجبي الحد الأقصى من الضرائب وتجند من أبنائه العدد الأكبر من الجنود دون أن تقوم مقابل ذلك بأعمال بناء واصلاح. لقد انقرضت جميع الصناعات المحلية لصالح صناعات القسم الذي تسكنه الأكثرية من سكان هذه البلاد. وكلما أحست إحدى هذه الدول القوة في نفسها، بادرت إلى عمليات إذابة لهذه الأقلية المتمردة التي تأبى الاستسلام، في نفسها هي.

فهل يمكن ضمان الحقوق القومية للكرد دون إدخال أي تغيير في الهيكل السياسي للشرق الأوسط؟ ينبغي في سبيل ضمان هذه الحقوق أن تقوم رقابة من الدول الكبرى المتحالفة على كل واحدة من هذه البلدان الثلاثة، وينبغي أن تكون هذه الرقابة من القوة والجدية، بحيث تجعل استقلال هذه البلاد مجرد وهم وخيال[٤].

---

[١] أية أضغاث أحلام هذه الكلمات؟ لو كانت الدول الكبرى حريصة يوما ما على حقوق الشعب الكردي لما سلمت أمرهم إلى حكومات تركيا وإيران والعراق. فماذا يمكن أن يتوقع المرء لشاة مسكينة سلمت إلى يد جزار؟ - المترجم.

هل يمكن إلحاق الكرد بإحدى دول الشرق الأوسط من باب تبسيط المسألة؟ إن تركيا، وهي أقوى هذه الدول، لم تتمكن من أن تذيب الكرد في نفسها. فإذا ألحقنا كردستان بإحدى هذه الدول خلقنا من هذه الدولة دولة أكثرية سكانها كرد.

خلال ربع القرن الأخير طال سجل ضحايا كردستان بصورة محزنة. ويمكن أن يبدو أمرا غريباً منافيا للعقل والمنطق أن يكون الكرد قد تحملوا في عصر نير مشع مثل عصرنا هذا أكثر أنواع البطش والقمع والعذاب خشونة ووحشية في التاريخ[٥]. ومع هذا، فإن هذه المنافاة شيء ظاهري لا أكثر، إذ لم يكن الكفاح الوطني في أي عصر من العصور حادا وشديدا بالدرجة التي هو بها في هذا العصر. إن مثل ما جرى في كردستان لم يشاهد إلا أيام الاحتلال الألماني لأوروبا. ففي عالم كان يلقن الناس حقوق الشعوب، وبعد أن أحيت معاهدة (سيفر) شعور الكرد القومي، لم يجد الترك والإيرانيون طريقا لحل المسألة القومية إلا إبادة الشعب الكردي[٦].

يقع في صدر سلسلة الأخطاء والاجحافات الظالمة تلك الخيانة التي راح الصينيون والأحباش ضحايا لها. وكانت تلك الحلقة الأولى من سلسلة انتهت باشتعال نار الحرب العالمية الثانية. ولكن عالم الغد لن يستطيع السماح بوجود مواقد الظلم والعسف والقهر والعذاب في أي مكان[٧].

إن السياسة البريطانية التحررية المقرونة بالفهم والإدراك والتقاليد الديموقراطية للولايات المتحدة الأمريكية، وحب الحرية الذي يشكل لباب التاريخ الفرنسي كله، وحضور الاتحاد السوفيتي في ميدان المحادثات الدولية وهو المطالب بالاستقلال الوطني لكل الأمم

---

[٥] ياله من إشعاع وياله من إنارة لهذا العصر الذي تحقق فيها كامل حقوق الأمم والشعوب في كل بقاع الأرض ولاسيما في كردستان! – المترجم.

[٦] تريث قليلا أيها الكاتب الفاضل الذي حرر هذه المذكرة. وسوف ترى حكام العراق من البعثيين يلحقون أقرانهم الترك والفرس ويتركونهم وراءهم ظهريا – المترجم.

[٧] ياله من فهم دقيق للسياسة الدولية ما تعكسه هذه الجملة. ويا لها من أمان معسولة ما تتوقعه من حملة راية العدل والإنصاف قادة مراكز القوة في العالم – المترجم.

والشعوب، كل هذه ضمانات لحل المسألة الكردية بصورة قطعية بإقامة كردستان حرة موحدة مستقلة[8]

انتهى الكتاب.

---

[8] صحيح تمام الصحة! والدليل ما جرى ويجري في فلسطين وإندونيسيا وكردستان ورواندا والبوسنة والهرسك وكوسوفو. ومازال الحبل على الجرار - المترجم.

منذ قرون خلت، تحتضن كتلة جبال آرارات، عند منابع دجلة والفرات، مجموعة قبائل أثبتت عبر التاريخ، تجانسها الاجتماعي ووحدتها اللغوية، أنها الكرد. ومع أن عددا كبيرا من المختصين في الشؤون الكردية (الكردولوج) بدأوا منذ أكثر من نصف قرن بدراسة الكرد دراسة منتظمة، إلا أن معلوماتنا عن كوردستان ما تزال غير كافية. وهذه الدراسة التي يقدمها كردولوجي بارز، هي أول مؤلف شامل يتناول مختلف أوجه المسألة الكردية.

ان في دراسة المسألة الكردية فائدة عظمى لفهم الوضع السياسي الراهن. فمنذ اندلاع الحرب العالمية الأولى والمباشرة بتحديد مناطق النفوذ بين الدول العظمى وإنشاء دول تخلف الإمبراطورية العثمانية، غدا وضع الكرد معروفا لدى الدبلوماسيين، بل وبدا الأمر خلال فترة قصيرة وكأن آمال هذا الشعب وجدت إقرارا دوليا بها من قبل الدول الكبرى التي اتخذت من نفسها حكما لتحديد الوضع الدولي. ولكن خلافا للوعود المعلنة والتصريحات المفخمة خططت حدود بلدان المنطقة ليس بمقتضى الاعتبارات القومية والإنسانية، بل وفق المشيئة لرجال الأعمال الكبار ودول الغرب الاستعمارية ومصالحها. أما الضمانات التي منحت للشعب الكردي المتمثلة بالوصاية عليه نظرياً من قبل عصبة الأمم، فلم يتمتع بها إلا بصورة واهية وحسب رغبات وزارات المستعمرات.



منشورات مكتب الفكر والتوعية في الاتحاد الوطني الكردستاني

٢٠٠٧